

شرح نهج البلاغة

لابن أبي عمير

مشارف مكتب آية الله الخليلي الرفاعي

ط- طهران ١٣٥٤ هـ

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY



32101 015658022

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

JUN 15 2014

Ibn Abī al-Hadīd

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الخامس عشر

دار الخيانة الكنت العربية
عيسى الباني الجليلي وشركاه

~~2264~~
~~.1067~~
~~.741~~
~~1985~~
~~ju2'7~~

~~2274~~
~~.8758~~
~~.741~~
~~1985~~
~~ju2'7~~

2264
.1067
.741
1985
ju2' 15-16

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
ضم - ايران ٤٠٤ هـ ق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وبه يميتي الحمد لله الوامر العدل »^(١)

القول في أسماء الذين تعاقدوا من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وما أصابوه في المعركة يوم الحرب

قال الواقدي^(٢): تعاقد من قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن شهاب الزهريّ وابن قميّة^(٣) أحد بني الحارث بن فهر، وعُتْبَةُ بن أبي وقاص الزهريّ، وأبي بن خلف الجُمَحِيّ. فلما أتى خالد بن الوليد من وراء المسلمين، واختلطت الصفوف، ووضع المشركون السيف في المسامين، رمى عُتْبَةُ بن أبي وقاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أحجار، فكسر رباعيته، وشجّه في وجهه حتى غاب حلق المغفر في وجنتيه^(٤)، وأدمى شفتيه^(٥).

قال الواقدي: وقد روي أنّ عتبة أشطى^(٦) باطن رباعيته السفلى. قال: والثبّت عندنا أنّ الذي رمى وجنتي رسول الله صلى الله عليه وآله ابن قميّة، والذي رمى شفته وأصاب رباعيته عُتْبَةُ بن أبي وقاص.

قال الواقدي: أقبل ابن قميّة يومئذ وهو يقول: دُلّوني على محمد، فوالذي يُحَلَفُ به؛ لئن رأيتُه لأقتلته، فوصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلاه بالسيف، ورماه عتبة

(١-١): « وبك اعتمادى يا كريم ».

(٢) انظر أخبار غزوة أحد في الجزء الرابع عشر من ص ٢١٣ إلى ص ٢٨١ من هذا الكتاب.

(٣) قميّة؛ كسفيّة، وهو عمرو بن قميّة، ذكره صاحب تاج العروس، وقال: « شاعر؛ وهو الذي كسر رباعية النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ». (٤) كذا في ١، وهو الوجه والذي في ب « وجنته »؛ تحريف.

(٥) مغازى الواقدي ص ٢٤٦ وما بعدها.

(٦) أشطى رباعيته: كسرها.

ابن أبي وقاص في الحال التي جَلَّه ابنُ قَمِيَّةٍ فيها السيفَ ، وكان عليه السلام فارسا ، وهو لابسُ درعين مُثقلَ بهما ، فوقع رسول الله صلى الله عليه وآله عن الفرس في حفرة كانت أمامه .

قال الواقديّ : أصيبَ ركبتاه ، جُحِشَتَا^(١) لما وَقَعَ في تلك الحفرة ، وكانت هناك حَفْرَ حَفْرَها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم واقفا على بعضها وهو لا يَشْعُرُ^(٢) ، فجُحِشَت رُكْبَتاه ، ولم يصنع سيفُ ابنِ قَمِيَّةٍ شيئا إلا وهز^(٣) الضربة بثقل السيف ، فقد وقع رسولُ الله صلى الله عليه وآله ، ثم اتَهَضَ وطلحةُ يَحْمِلُه من ورائه ، وعلىَّ عليه السلام آخِذٌ بيديه حتى استوى قائما .

قال الواقديّ : فحدثني الضحّاكُ بنُ عثمانَ عن حمزةَ بنِ سعيدٍ عن أبي بشر المازنيّ ، قال : حضرتُ يومَ أُحُدٍ وأنا غلامٌ ، فرأيت ابنَ قَمِيَّةٍ عَلا رسولَ الله صلى الله عليه وآله بالسيف ، ورأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَقَعَ على ركبتيه في حفرةٍ أمامه حتى توارى في الحفرة ، فجعلتُ أصيحُ وأنا غلامٌ حتى رأيتُ الناسُ ثابوا إليه .

قال : فأنظرُ إلى طلحةَ بنِ عبيد الله آخِذاً بِحُضْنِهِ حتى قام .

قال الواقديّ : ويقال : إنَّ الذي شَجَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله في جبهته ابنُ شهاب ، والذي أَشْطَى رِبَاعِيَّتَهُ وَأَدَمَى شَفْتِيَهُ عَتَبَةُ بنُ أَبِي وَقَاصٍ ، والذي أَدَمَى وَجَنَّتِيهِ حتى غاب الحلق فيهما ابنُ قَمِيَّةٍ ، وإنه سال الدم من الشجّة التي في جبهته حتى أخضَلَ لحيته . وكان سالمٌ مولى أبي حذيفة يَغْسِلُ الدمَ عن وجهه ورسولُ الله صلى الله عليه ، يقول : كيف يُفْلِحُ قومٌ فَعَلُوا هذا بِنَبِيِّهِمْ ، وهو يدعوهم إلى الله تعالى ! فَأَنْزَلَ اللهُ تعالى قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۚ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ . . . ﴾^(٤) الآية .

(١) الجحش : الحدش ، أو فوّه .

(٢) الواقديّ : « ولا يشعر به » .

(٣) كذا في الواقديّ . ويقال : وهزه ، أي ضربه بثقل يده ، وفي الأصول : « وهن » تحريف .

(٤) سورة آل عمران ١٢٨ .

قال الواقدي : ورَوَى سعدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ قال ^(١) : قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم يومئذ : اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ دَمَوْا فَأَرسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله ، اشتدَّ غضبُ اللهِ على قومٍ دَمَوْا وجهَ رسولِ اللهِ ، اشتدَّ غضبُ اللهِ على رجلٍ قَتَلَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . قال سعد : فلقد شفاني من عتبةٍ أخی دعاءَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، ولقد حَرَصْتُ عَلَى قَتْلِهِ حِرْصًا مَاحَرَصْتُ عَلَى شَيْءٍ قَطٌّ ، وَإِنْ كَانَ مَاعَلِمْتُ لِعَاقِبًا بِالْوَالِدِ ، سَيِّئِ الْخُلُقِ ، وَلَقَدْ تَحَرَّقْتُ صَفُوفَ الْمُشْرِكِينَ مَرَّتَيْنِ أَطْلُبُ أَخِي لِأَقْتُلَهُ ، وَلَكِنَّهُ رَاغَ مِنِّي رَوَّغَانَ الثَّعْلَبِ ، فَلَمَّا كَانَ الثَّالِثَةَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله : يَا عَبْدَ اللهِ مَا تَرِيدُ ؟ أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَ نَفْسَكَ ؟ فَكَفَفْتُ . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله : اللَّهُمَّ لَا تَحُولَنَّ الْحَوْلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ . قال سعد : فوالله ما حالَ الْحَوْلُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ رَمَاهُ أَوْ جَرَحَهُ . مات عتبةٌ ، وأما ابنُ قَمِيئَةَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ ، : [فقائل يقول : قتل في المعرك و] ^(٢) قائل [يقول] ^(٢) : إنه رمى بسهمٍ في ذلك اليوم فأصاب مصعبَ بنِ عُمَيْرٍ فقتله ، فقال : خذُها وأنا ابنُ قَمِيئَةَ ؛ فقال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله : أَقْمَاهُ اللهُ ، فَعَمِدَ إِلَى شَاةٍ يَحْتَلِبُهَا فَتَنْطَحُ بِقَرْنِهَا وَهُوَ مَعْتَلِقُهَا ^(٣) فقتلته . فوُجِدَ مَيْتًا بَيْنَ الْجِبَالِ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ، وَكَانَ عَدُوٌّ لِلَّهِ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَتَلَ مُحَمَّدًا . قال : وابن قميئة رجل من بني الأدرم من بني فهر .

وزاد البلاذري في الجماعة التي ثعاهدت وتعاقدت على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد عبد الله بن محمد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى بن قصي ^(٤) . قال : وابن شهاب الذي شج رسول الله صلى الله عليه وآله في جهته هو عبد الله

(١) الواقدي : « سمعته يقول : اشتد . . . » .

(٢) من الواقدي . والمعرك والمعرك : موضع القتال .

(٣) كذا في ١ وهو الصواب ، والذي في ب « معتقها » ، تصحيف .

(٤) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

ابن شهاب الزُّهْرِيُّ ، جدُّ الفقيه الحدّث محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب^(١) ، وكان ابنُ قميّةٍ أدْرَمَ ناقصَ الدّقْنِ ، ولم يذكر اسمه ولا ذكره الواقديّ أيضاً .

قلتُ : سألت النقيبَ أبا جعفر عن اسمه فقال : عمرو ، فقلتُ له : أهو عمرو بن قميّة الشاعر ؟ قال : لا ، هو غيره . فقلتُ له : ما بالُ بني زُهْرَةَ في هذا اليوم فعَلُوا الأفاعيل برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم أخواله ، ابنُ شهاب وعتبةُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ ! فقال : يا بنَ أخي ، حرَّكهم أبو سفيانَ وهاجهم على الشرِّ لأنهم رجعوا يومَ بدرٍ من الطريق إلى مكّة فلم يشهدوها ، فاعترضَ غيرهم ومنعهم عنها ، وأغرَى بها سفهاءَ أهلِ مكّة ، فعيروهم برُجوعهم ، ونسبهم إلى الجُبْنِ وإلى الإِدْهَانِ في أمرِ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وانفقَ أنه كان فيهم مثل هذين الرجلين ، فوقع منهما يومَ أحدٍ ما وقع .

قال البَلَاذُريُّ : مات عتبة يومَ أحدٍ من وجعٍ أليمٍ أصابه ، فتعدَّبَ به ، وأصيب ابنُ قميّة في المعركة ، وقيل : نطحته عنز فمات .

قال : ولم يذكر الواقديّ ابنَ شهاب كيف مات ، وأحسب ذلك بالوهم منه . قال : وحدّثنِي بعضُ قريشٍ أن أفعى نهشتَ عبدَ الله بنَ شهاب في طريقه إلى مكّة ، فمات . قال : وسألتُ بعضَ بني زُهْرَةَ عن خبره ، فأنكروا أن يكون رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دَعَا عَلَيْهِ ، أو يكون شجَّ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وقالوا : إن الذي شجّه في وجهه عبد الله بنُ حميد الأسديّ^(٢) .

فأمّا عبدُ الله بنُ مُحمّد الفِهْرِيُّ ، فإنَّ الواقديّ وإن لم يذكره في الجماعة الذين

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(١) أنساب الأشراف ١ : ٣١٩ .

تَعَاقدوا عَلَى قَتْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ كَيْفِيَّةَ قَتْلِهِ .
قال الواقديّ : وَيُقْبَلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حُمَيْدٍ بْنُ زَهْرٍ حِينَ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ - يَعْنِي سَقُوطَهُ مِنْ ضَرْبَةِ ابْنِ قَيْثَةَ - يَرْكُضُ فَرَسَهُ مَقْتَنًا فِي الْحَدِيدِ يَقُولُ : أَنَا ابْنُ زَهْرٍ ، دُلُّونِي عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَوَاللَّهِ لَأَقْتُلَنَّه أَوْ لَأَمُوتَنَّ دُونَهُ ! فَتَعَرَّضَ ^(١) لَهُ أَبُو دُجَانَةَ فَقَالَ : هَلُمَّ إِلَى مَنْ يَبْقَى نَفْسَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِنَفْسِهِ ، فَضَرَبَ فَرَسَهُ فَعَرَبَهَا ، فَكَتَسَعَتْ ، ثُمَّ عَلَاهُ بِالسَّيْفِ وَهُوَ يَقُولُ : خَذْهَا وَأَنَا ابْنُ خَرَّشَةَ ، حَتَّى قَتَلَهُ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ ارْضَ عَنِ ابْنِ خَرَّشَةَ كَمَا أَنَا عَنْهُ رَاضٍ . هَذِهِ رِوَايَةُ الْوَاقِدِيِّ ، وَبِهَا قَالَ الْبَلَاذُرِيُّ : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ قَتَلَهُ أَبُو دُجَانَةَ ^(٢) .

فَأَمَّا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فَقَالَ : إِنَّ الَّذِي قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ^(٣) . وَبِهِ قَالَتِ الشَّيْخَةُ .

وَرَوَى الْوَاقِدِيُّ وَالْبَلَاذُرِيُّ أَنَّ قَوْمًا قَالُوا : إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُمَيْدٍ هَذَا قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ . فَالْأَوَّلُ الصَّحِيحُ أَنَّهُ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ . وَقَدْ رَوَى كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ سَقَطَ ثُمَّ أُقِيمَ : اكَفِنِي هَؤُلَاءِ - لِمَجَاعَةٍ قَصَدَتْ نَحْوَهُ - فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَهَزَمَهُمْ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَمِيدٍ مِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، ثُمَّ حَمَلَتْ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ أُخْرَى ، فَقَالَ لَهُ : اكَفِنِي هَؤُلَاءِ ، فَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَقَتَلَ مِنْهُمْ أُمِّيَّةَ بْنَ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ الْمَغِيرَةَ الْخَزْرَمِيَّ .

قال : فَأَمَّا أَبِي بِنِ خَلْفِ فَرَوَى الْوَاقِدِيُّ أَنَّهُ أَقْبَلَ يَرْكُضُ فَرَسَهُ ؛ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، اعْتَرَضَ لَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ لِيَقْتُلُوهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : اسْتَأْخِرُوا

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٢٤ .

(١) الواقديّ : « ليعرض » .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٨٢ .

عنه . ثم قام إليه وحرّبتَهُ في يده ، فرماه بها بين سابعةِ البَيْضَةِ والدَّرْعِ^(١) ، فطعنه هناك ، فوقع عن فرسه ، فانكسر ضلع من أضلاعه ، واحتمله قومٌ من المشركين ثقيلاً^(٢) حتّى ولّوا قافلين ، فمات في الطَّرِيقِ ، وقال : وفيه أنزلتْ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾^(٣) ، قال : يعنى قذفه إياه بالحرّبة .

قال الواقديّ : وحدثني يونسُ بنُ محمّدِ الظَّفَرِيُّ ، عن عاصم بن عمر ، عن عبد الله ابنِ كعب بن مالك ، عن أبيه ، قال : كان أبيُّ بن خَلَفٍ قدم في فداءِ ابنه ، وكان أُسِرَ يومَ بَدْرٍ ، فقال : يا محمّد ، إنّ عندى فرسالى أعلفها فرقاً^(٤) من ذرّة كلِّ يوم لأقتلك عليها . فقال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله : بل أنا أقتلكُ عليها إن شاء الله تعالى .

ويقال : إنّ أباّ إتماقال ذلك بمكّة ، فبلغ رسول الله صلّى الله عليه وآله بالمدينة كلمته فقال : بل أنا أقتلهُ عليها إن شاء الله . قال : وكان رسولُ الله صلّى الله عليه وآله في القتال لا يلتفت وراءه ، فكان يومَ أحدٍ يقول لأصحابه : إني أخشى أن يأتى أبيُّ بن خلف من خلفي ، فإذا رأيتموه فاذنوني ، وإذا بأبي يركضُ على فرسه ، وقد رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله فعرّفه ، فجعل يصيح بأعلى صوته : يا محمّد لانجوتُ إن نجوتُ ! فقال القوم : يا رسول الله ما كنتَ صانعا حين يغشاكُ أبيُّ ؟ فاصنع ، فقد جاءك ، وإن شئت عطف عليه بعضنا ، فأبى رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ودنا أبيُّ ، فتناول رسول الله صلّى الله عليه وآله الحرّبة من الحارث بن الصّمة ، ثم انتفض كما ينتفض البعير . قال : فتطأيرنا

(١) الدرع السابعة : التي تجرّها في الأرض وعلى كميك طولاً وسعةً ، وتسبعة البيضة : ما توصل به البيضة من حلق الدرّوع فتستر العنق .

(٢) ثقيلاً : مشرفاً على الموت .

(٣) سورة الأنفال ١٧ .

(٤) الفرق ، بسكون الراء وبفتحةا : مكيال ضخّم لأهل المدينة معروف .

عنه تطاير الشعارير^(١)، ولم يكن أحدٌ يُشبهُ رسولَ الله صلى عليه وآله إذا جدَّ الجدَّ ، ثم طعنه بالحرّبة في عنقه وهو على فرسه لم يسقط ، إلا أنه خارَ كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : أبا عامر ، والله ما بك بأسٌ ، ولو كان هذا الذى بك بعينٍ أحدٍ نا ماضره . قال : واللّات والعزّى ، لو كان الذى بى بأهل ذى الحجاز لما تواركلهم أجمعون ، أليس قال : لأقتلنّه ! فاحتملوه ، وشغلّهم ذلك عن طلب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى التحق^(٢) بعظم أصحابه فى الشعب .

قال الواقدى : ويقال : إنّه تناول الحربه من الزبير بن العوام . قال : ويقال إنّه لما تناول الحربه من الزبير حمل أبى على رسول الله صلى الله عليه وآله ليضربه بالسيف ، فاستقبله مصعبُ بنُ عمير حائلاً بنفسه بينهما ، وإنّ مصعباً ضرب بالسيف أبيتاً فى وجهه ، وأبصر رسول الله صلى الله عليه وآله فرجةً من بين سابعة البيضة والدرع ، فطعنه هناك ، فوقع وهو يخور .

قال الواقدى : وكان عبدُ الله بنُ عمر يقول : مات أبى بنُ خلفٍ ببطن رابغ^(٣) منصرفهم إلى مكة . قال : فإتى لأسيرُ ببطن رابغ بعد ذلك ، وقد مضى هوى من الليل إذا نارٌ تاججٌ ، فهبتُها ، وإذا رجل يخرج منها فى سلسلة يجتذبها يصيح : العطش ، وإذا رجل يقول : لا تسقه ، فإن هذا قتيلُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا أبى بنُ خلفٍ ، فقلتُ : ألا سحقا ! ويقال : إنه مات بسرف^(٤) .

(١) الشعارير : الذباب .
(٢) ١ والواقدى : « لحق » .
(٣) بطن رابغ : واد من دون الحفة ، قال الواقدى : هو على عشرة أميال من مكة . ياقوت .
(٤) سرف ، ككتف : موضع على سبعة أميال من مكة ، تزوج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحارث ، وهناك بنى بها ؛ وهناك توفيت - ياقوت .

القول في الملائكة نزلت بأحد وقاتلت أم لا

قال الواقدي : حدثني الزبير بن سعيد ، عن عبد الله بن الفضل ، قال : أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله مصعب بن عمير اللواء فقتل ، فأخذه ملك في صورة مصعب فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له في آخر النهار : تقدم يا مصعب ، فالتفت إليه الملك ، فقال : لست بمصعب ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وآله أنه ملك أيده به .
قال الواقدي : سمعت أبا معشر يقول مثل ذلك .

قال : وحدثني عبيدة بنت نائل ، عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص ، عنه ، قال : لقد رأيتني أرمى بالسهم يومئذ ، فيرده عنى رجل أبيض حسن الوجه لا أعرفه ، حتى كان بعد ، فظننت أنه ملك .

قال الواقدي : وحدثني إبراهيم بن سعد ، عن أبيه ؛ عن جده سعد بن أبي وقاص ، قال : رأيت ذلك اليوم رجلين عليهما ثياب بيض ؛ أحدهما عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله ، والآخر عن شماله يقاتلان أشد القتال ، مارأيتهما قبل ولا بعد . قال : وحدثني عبد الملك بن سليمان ، عن قطن بن وهب ، عن عبيد بن عمير ، قال : لما رجعت قريش من أحد جعلوا يتحدثون في أنديتهم بما ظفروا ، يقولون : لم نر الخليل البلق ولا الرجال البيض الذين كنا نراهم يوم بدر .

قال : وقال عبيد^(١) بن عمير : لم تقاتل الملائكة يوم أحد .

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي سبرة ، عن عبد المجيد بن سهيل ، عن عمر بن الحكم ، قال : لم يمد رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أحد بملك واحد ، وإنما كانوا يوم بدر . قال : ومثله عن عكرمة .

(١) في « عبيد الله » ؛ تحريف والتصويب عن ب .

قال : وقال مجاهد : حضرت الملائكةُ يومَ أحدٍ ولم تقاتل ، وإنما قاتلت

يوم بدر .

قال : وروى عن أبي هريرة أنه قال : وعدهم الله أن يُمدّهم لو صبروا ، فلما

انكشفوا لم تُقاتلِ الملائكةُ يومئذ .

القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

قال الواقديّ : كان وحشياً عبداً لابنة الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف ، ويقال : كان لجبّير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقالت له ابنة الحارث : إنّ أبى قتل يوم بدر ، فإن أنت قتلت أحد الثلاثة فأنت حرّ : محمّد ، وعليّ بن أبى طالب ، وحمزة^(١) بن عبد المطلب ، فإني لا أرى فى القوم كفواً لأبى غيرهم . فقال وحشياً : أمّا محمّد فقد علمت أنّى لا أقدر عليه ، وإنّ أصحابه لن يُسلّوه ، وأمّا حمزة فوالله لو وجدته نأماً ما أيقظته من هيبته ، وأمّا عليّ فألتمسه . قال وحشياً : فكننتُ يومَ أحدٍ أُلتمسه ، فينأ أنا فى طلبه طلّع عليّ ، فطلع رجلٌ حديرٌ مرس^(٢) كثيرُ الالتفاتِ ، فقلتُ : ما هذا بصاحبى الذى أُلتمس ، إذ رأيت حمزة يفرى الناسَ فرّياً ، فكمننتُ له إلى صخرة وهو مكبّس له كتيت^(٣) ، فاعترض له سباع بن أمّ نيار ، وكانت أمّه ختانة بمكة ، مولاة لشريف بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى ، وكان سباع يكنى أبا نيار ، فقال له حمزة : وأنت أيضاً ابنٌ مقطّعة البُطور ممّن يكثر علينا ! هلمّ إلىّ ، فاحتمله ، حتى إذا برقت قدماه رمى به فبرك عليه ، فشحطه شحط الشاة ، ثم أقبل عليّ مكباً حين رآنى ، فلما

(١) كذا فى ١ ، وهو الوجه ، وفى ب « أو » تحريف .

(٢) المرس : الذى قد مارس الأمور وعالجها .

(٣) الكتيت : صوت فى صدر الرجل كصوت البكر من شدة النيط .

بلغ المسيل ، وَطِيَّ عَلَى جُرْفٍ فَرَلَتْ قَدْمُهُ ، فَهَزَزْتُ حَرْبَتِي حَتَّى رَضِيَتْ مِنْهَا ، فَأَضْرَبَ بِهَا فِي خَاصِرَتِهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ مَثَانَتِهِ ؛ وَكَرَّ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَأَسْمَعَهُمْ يَقُولُونَ : أبا عمارة ، فلا يجيب ، فقلتُ : قد والله ماتَ الرجل ، وذكُرتُ هِنْدًا وما لقيتُ على أيِّها وعمَّها وأخيها ، وانكشَفَ عنه أصحابُه حين أيقنوا بموته ، ولا يروني ، فأكرَّرَ عليه فشقتُ بطنه ، فاستخرجتُ كبده ، فحُثَّتْ بِهَا إِلَى هِنْدِ بِنْتِ عُبَيْة ، فقلتُ : ماذا لي إن قُتِلتُ قاتِلُ أَيْبِكُ ؟ قالتُ : سَلْنِي ؛ فقلتُ : هذه كبدُ حمزة ، فضمَّتها ثم لفظتها ، فلا أدري : لم تُسِفْها أو قدرتها ؛ فنزعتُ ثيابها وحليها فأعطانيه ، ثم قالتُ : إذا جئتَ مكة فلك عشرةُ دنانير ، ثم قالتُ : أرني مُصرَعه ، فأرَيْتُها مُصرَعه ، ففقطعتُ مذاكيره ، وجدعتُ أنفه ، وقطعتُ أُذُنَيْهِ ، ثم جعلتُ ذلك مَسَكَّتَيْنِ ^(١) وَمِعْضَدَيْنِ وَخَدَمَتَيْنِ ؛ حَتَّى قَدِمْتُ بِذَلِكَ مَكَّةَ وَقَدِمْتُ بِكَبِدِهِ أَيْضًا مَعَهَا .

قال الواقدي : وحدثني عبدُ الله بنُ جعفر ، عن ابنِ أبي عَوْنٍ ، عن الزَّهْرِيِّ ، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ عَدِيِّ بنِ الْخِيَارِ ، قال : غزونا الشَّامَ فِي زَمَنِ عُمَانَ بنِ عَفَّانَ ، فمَرَرْنَا بِمِحْضٍ ^(٢) بَعْدَ الْعَصْرِ ، فقلنا : وحشَى ، فقيل : لا تَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ، هُوَ الْآنَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حَتَّى يُصْبِحَ ، فبَدَأْنَا مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَإِنَّا لَثَمَانُونَ رِجَالًا ، فَمَّا صَلَّيْنَا الصُّبْحَ جِئْنَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَإِذَا شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ طَرَحَتْ لَهُ زُرِّيَّةٌ ^(٣) قَدَرٌ مَجْلِسُهُ ، فَقُلْنَا لَهُ : أَخْبِرْنَا عَنْ قَتْلِ حَمْزَةَ وَعَنْ قَتْلِ مُسَيِّمَةَ ؛ فَكَرِهَ ذَلِكَ ، وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، فَقُلْنَا : مَا بَدَأْنَا هَذِهِ اللَّيْلَةَ إِلَّا مِنْ أَجْلِكَ . فَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ عَبْدًا لَجُبَيْرِ بنِ مُطِيعِ بنِ عَدِيِّ ، فَمَّا خَرَجَ النَّاسُ إِلَى أَحَدِ دَعَائِي فَقَالَ : قَدَرَأَيْتَ مَقْتَلَ طُعَيْمَةَ بنِ عَدِيِّ ، قَتَلَهُ حَمْزَةُ بنُ عُبَيْدِ الْمَطَّلِبِ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَلَمْ تَزَلْ نَسَاؤُنَا فِي حُزْنٍ

(١) المسكة ، بالتحريك : الأَسُورَةُ . والمعضد : الدمليج ، والخدمة ، بالتحريك : الخليل .

(٢) محض : مدينة معروفة في بلاد الشام .

(٣) الزريرة : التمرة ؛ أو البساط الذي يتكأ عليه ؛ واحده زربي ، والجماعة زرابي .

شديدٍ إلى يَوْمِ هذا ، فإن قتلَ حمزةَ فأنتَ حرٌّ ؛ فخرجتُ مع الناسِ ولي مزاريقُ ^(١) كنتُ أمرتُ بهند بنتَ عتبةٍ فنقول : إيه أبا دُثمة ! اشفِ واشتفِ . فلما وردنا أحداً نظرتُ إلى حمزةَ يقدمُ الناسَ يهدمُ هدًّا ، فرآني وقد كمنْتُ له تحت شجرة ، فأقبل نحوي ، وتعرضَ له سباع الخُزاعيِّ ، فأقبلَ إليه وقال : وأنتَ أيضاً بأبنِ مقطَّعة البظُورِ ممن يكثرُ علينا ! هلمَّ إليَّ ، وأقبلَ نحوه حتى رأيتُ برقانَ رجليه ، ثم ضربَ به الأرضَ وقتلَه ، وأقبلَ نحوِي سريعاً ، فيعترضُ له جرفٌ فيقع فيه ، وأزرُقُه بمِزراقٍ فيقع في لَبته حتى خرج من بين رجليه . فقتلَه ، ومهرتُ بهند بنتَ عتبةٍ فأذنتُها ، فأعطتني ثيابها وجليها ، وكان في ساقَيْها خدَمَتانِ من جَزَعِ ظفاري ^(٢) ومَسَكْتانِ من ورقٍ ، وخواتيمِ من ورقِ كَنٍّ في أصابعِ رجليها ، فأعطتني بكلِّ ذلك ؛ وأما مُسيمةُ فإنَّا دخلنا حديقة الموتِ يومَ اليمامةِ فلما رأيتُه زرقته بالمِزراقِ ، وضربَه رجل من الأنصارِ بالسيفِ ؛ فربُّك أعلمُ أيُّنا قتلَه ! إلا أني سمعتُ امرأةً تصيحُ فوق جِدَارٍ : قتلَه العبدُ الحبشيُّ . قال عبيداللهُ : فقلتُ : أتعرفني ؟ فأكرَّه بصره عليَّ وقال : ابنِ عدىِّ لعاتكة بنتِ العيصِ ؟ قلتُ : نعم ، قال : أما واللهِ مالي بك عهدٌ بعد أن دفعْتُك إلى أمِّك في محفَّتِك التي كانت ترضعُك فيها ، ونظرتُ إلى برقانِ قدميكِ حتى كأنه الآن .

وروي محمدُ بنُ إسحاقٍ في كتاب المغازي ؛ قال : علتُ هِنْدَ يومئذِ صخرةً مشرَّفةً ، وصرختُ بأعلى صوتها :

نحنُ جزَيناكمَ بيومِ بدرٍ والحربُ بعد الحربِ ذاتِ سُعرٍ ^(٣)
 ما كان عن عتبةٍ لي من صبرٍ ولا أخى وعمه وبِكرِي
 شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري شفيتُ وحشيَّ غليلِ صدري

(١) المزاريق . جمع مِزراقٍ ؛ وهو الرمح النضير .

(٢) ظفاري كقطام : بلد باليمن ينسب إليه الجزع .

(٣) ذاتِ سُعر ، أي حر .

فشكرُ وَحَشِيٍّ عَلَى عَمْرِي حَتَّى تَرَمَّ أَعْظَمِي فِي قَبْرِي (١)
قال : فأجابتها هند بنت أُنْثَاءَةَ بنِ المَطَّلِبِ بنِ عبدِ مناف :

خزيت في بدرٍ وغيـر بدرٍ يا بنتَ غَدَارٍ عَظِيمِ الكُفْرِ (٢)
أَحْمَكِ اللهُ غَدَاةَ الفَجْرِ بالهَاشِمِيِّينَ الطَوَالِ الزُّهْرِ
بكلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حمزةَ لَيْثِي وَعَلَى صَقْرِي
إذ رامَ شيبَ وأبوكَ قَهْرِي نَحْضًا مِنْهُ ضَوَاحِي النَّحْرِ

قال محمد بن إسحاق : ومن الشعر الذي ارتجزت به هند بنت عتبة يوم أحد :

شفيتُ من حمزةَ نَفْسِي بأحدٍ حينَ بقرتُ بطنَهُ عن الكبدِ (٣)
أذهبَ عَنِّي ذاكَ ما كنتُ أجِدُ من لوعةِ الحزنِ الشدیدِ المَعْتَمِدِ (٤)
والحربَ تَعْلُوكُمُ بشوئوبٍ بَرِدُ نُقْدِمُ إِقْدَامًا عَلَیْكُمْ كَالأَسَدِ (٥)

قال محمد بن إسحاق : حدثني صالح بن كيسان ، قال : حدثتُ أنَّ عَمْرَ بنَ الخطَّابِ قال لحَسَّانَ : يا أبا الفَرِيعةَ ، لو سمعتَ ما تقولَ هندُ ! ولو رأيتَ شرَّها قائمَةً على صخرةٍ ترتجِزُ بنا ، وتذكُرُ ما صنعتَ بحمزة ! فقال حَسَّانَ : واللهِ إني لأنظرُ إلى الحربَةِ تهوى وأنا على فارعٍ - يعني أطمه - فقلت : والله إن هذه لَسِلاحٌ ليسَ بِسِلاحِ العربِ ، وإذا بها تهوى إلى حمزة ولا أدري ، [ولكن] (٦) أسمعني بعضَ قولها أ كفيكموها ، فأنشده عمر بعضَ ما قالت ؛ فقال حَسَّانُ يهجوها :

أَشْرَتِ لَسْكَاعٍ وَكانَ عَادَتُها لَوْما إِذا أَشْرَتَ مَعَ الكُفْرِ (٧)

(١) ترم أعظمي : تبلى .
(٢) في ابن هشام : « يا بنت وقاع » .
(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣ .
(٤) المعتمد : الناصد المؤلم .
(٥) الشؤبوب : الدفعة من المطر . وبرد - بفتح فكمر - أي ذو برد .
(٦) من سيرة ابن هشام .
(٧) الخبر وهذا البيت في سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤ ، والأبيات في ديوانه ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

أخرجت مرقصةً إلى أَحَدٍ في القوم مُتَّبِعَةً عَلَى بَكْرٍ^(١)
 بَكْرٍ ثَقَالٍ لِحَرَكَ بِهِ لَاعِنَ مَعَاتِبَةٍ وَلَا زَجْرٍ^(٢)
 أخرجت نائرةً محاربةً^(٣) بأبيك وأبنك بعدُ في بدرٍ^(٤)
 وبعمَّك المتروكٍ منجديلاً وأخيك منعفرين في الجفْرِ^(٥)
 فرجعت صاغرةً بلا ترةٍ منَّا ظفرت بها ولا وترٍ
 وقال أيضاً يهجوها :

لمن سواقطٌ ولدان مطرحةٌ باتت تفحص في بطحاء أجيادٍ^(٦)
 باتت تمخض لم تشهد قوابلها إلا الوحوش وإلا جنة الوادي
 يظلّ يرجمه الصبيان منعفرأً وخاله وأبوه سيّدا النادى^(٧)
 في أبيات كرهت ذكرها لفحشها .

قال : ورؤى الواقديّ ، عن صفية بنت عبد المطلب ، قالت : كنا قد رَفَعْنَا^(٨) يومَ أحدٍ في
 الآطام ، ومعنا حسّان بن ثابت ، وكان من أجبن الناس ، ونحن في فارغ ، فجاء نفر من
 يهود يرمون الأطم ، فقلت : دُونَكَ يَا بنَ الفُرَيْعَةِ ، فقال : لا والله لا أستطيع القتال ،
 ويصعد يهودي إلى الأطم ، فقلت : شدّ على يدي السيف ، ثم برئت ، ففعل ، فضربتُ

(١) مرقصة ، أي مرقصة بكرها ، ورقص البعير أسرع في سيره . وفي الديوان : « معنقة » .

(٢) البكر الثقال : البطيء .

(٣) في الديوان : « أقلت زائرة مبادرة » .

(٤) الديوان : « يوم ذى بدر » .

(٥) والجفر : البرّ .

(٦) ديوانه ١٥٨ . وفي الديوان : منبذة » .

(٧) منعفرأ ، أي علاه التراب ، ورواية الديوان :

قَدْ غَادَرُوهُ لِحَرِّ الْوَجْهِ مُنْعَفِرًا وخاله وأبوه سيّدا النادى

(٨) رفعا : عدونا .

عنق اليهودى ورميتُ برأسه إليهم، فلما رأوه انكشفوا، قالت: وإني لفي فارِعِ أوَّلِ النهارِ مشرِفةً على الأطمِ، فرأيتُ المزدراعَ، فقلتُ أوَّ من سلاحهم المزدرايقُ! أفلا أراه هوى إلى أخى ولا أشعر! ثم خرجت آخر النهار حتى جئتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله، وقد كنتُ أعرفُ انكشافَ المسلمين وأنا على الأطمِ برجوعِ حسَّانٍ إلى أقصى الأطمِ، فلما رأى الدولة للمسلمين أقبلَ حتى وقف على جدار الأطمِ. قال: فلما انتهيتُ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله ومعى نسوةٌ من الأنصار لقيتهُ وأصحابه أوزاع، فأوَّل من لقيتُ على ابن أخى فقال: ارجعي يا عمَّة، فإنَّ في الناس تكشفاً، فقلت: رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال صالح: قلت: ادلُّني عليه حتى أراه، فأشار إليهِ إشارةً خفيَّةً، فانتهيتُ إليه وبه الجراحة. قال الواقدي: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول يومَ أحدٍ: ما فعل عمِّي، ما فعل عمِّي! فخرج الحارث بن الصَّمة يطلبه فأبطأ، فخرج على عمِّه السلام يطلبه فيقول:

يأربُّ إنَّ الحارثَ بنَ الصَّمةِ كان رفيقا وبنًا ذا ذمَّةٍ^(١)
قد ضلَّ في مهمامِهِ مُهمَّهِ يلتمسُ الجنَّةَ فيها تمَّهِ^(٢)

حتى انتهى إلى الحارث، ووجد حمزة مقتولا، فجاء فأخبر النبي صلى الله عليه وآله، فأقبل يمشى حتى وقف عليه فقال: ماوقفتُ موقفاً قطَّ أغيظُ إلىَّ من هذا الموقفِ. فطلعتُ صفيَّة، فقال: يا زبير، اغنِ عمِّي أمك، وحمزة يُحفر له، فقال الزبير يا أمَّه، إنَّ في الناس تكشفاً، فارجعي، فقالت: ما أنا بفاعلة حتى أرى رسولَ الله صلى الله عليه وآله، فلما رآته قالت: يا رسولَ الله، أين ابنُ أمي حمزة؟ فقال: هو في الناس؛ قالت: لأرجع حتى أنظر إليه، قال الزبير: فجعلت أطلِّها إلى الأرض حتى دُفن وقال رسول الله

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ١٥٤ مع اختلاف في الرواية .

(٢) المهامة : جرم مهمة ، وهي المفازة البعيدة .

صلى الله عليه وآله : لولا أن تمزّن نساءنا لذلك لتركناه للعافية ، يعنى السباع والطير حتى يحشر يوم القيامة من بطونها وحواصلها .

قال الواقديّ : ورؤي أن صفية لما جاءت حالت الأنصار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : دعوها ، فجلست عنده ، فجعلت إذا بكت يبكي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإذا نشجت^(١) ينشج رسول الله صلى الله عليه وآله ، وجعلت فاطمة عليها السلام تبكي ، فلما بكت بكى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال : لن أصاب بمثل حمزة أبدا ، ثم قال صلى الله عليه وآله لصفية وفاطمة : أبترا ، أتاني جبرائيل عليه السلام فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع : حمزة بن عبد المطاب أسد الله وأسد رسوله .

قال الواقديّ : ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله بحمزة مثلاً شديداً ، فحزنه ذلك وقال : إن ظفرت بقريش لأمثلن بثلاثين منهم ، فأنزل الله عليه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ وَإِنَّ صَبْرَتَكُمْ لَهِيَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(٢) فقال صلى الله عليه وآله : بل نصبر ، فلم يمثل بأحد من قريش .

قال الواقديّ : وقام أبو قتادة الأنصاريّ فجعل ينال من قريش لما رأى من غم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي كل ذلك يشير إليه أن أجلس ثلاثاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا أبا قتادة ، إن قريشا أهل أمانة ، من بغاهم العوائر كبه الله لفيه ، وعسى إن طالت بك مدة أن تحقر عملك مع أعمالهم ، وفعلك مع فعالهم ،

(١) يقال : نشج الباكى ، غص بالباكاء في حلقه من غير انتخاب .

(٢) يقال : مثل بفلان مثلاً ومثلاً بالضم : نكل به .

(٣) سورة النحل : ١٢٦ .

لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لها عند الله تعالى . فقال أبو قتادة : والله يارسول الله ما غضبت إلا لله ورسوله حين نالوا منه ما نالوا ، فقال : صدقت . بئس القوم كانوا النبيهم .

قال الواقدي : وكان عبدُ الله بن جحش قبل أن تقع الحربُ قال : يارسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله فقلت : اللهم أقسم عليك أن نلتني العدو غداً فيقتلونى ويبقروا بطنى ويمثلوا بى ، فتقول لى : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك . قال : وأنا أسألك يارسول الله أخرى ، أن تلي تركتى من بعدى . فقال له : نعم ، فخرج عبدُ الله فقتل ومثّل به كل المثل ، ودُفن هو وحمزة في قبر واحد ، وولي تركته رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشترى لأمه مالا بخير .

قال الواقدي : وأقبلت أخته حمنة بنت جحش ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : يا حمن^(١) ، احتسبى ، قالت : من يارسول الله ؟ قال : خالك حمزة ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٢) غفر الله له ورحمه ، وهنيئا له الشهادة ، ثم قال لها : احتسبى . قالت : من يارسول الله ، قال : أخوك عبد الله ، قالت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾^(٢) غفر الله له ورحمه وهنيئا له الشهادة ، ثم قال : احتسبى ، قالت : من يارسول ؟ قال : بعلك مُصعب بن عمير ، فقالت : واحزننا ! ويقال : إنها قالت : واعقره . قال محمد بن إسحاق فى كتابه : فصرخت وولولت . قال الواقدي : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن للزوج من المرأة مكانا ما هو لأحد . وهكذا روى ابن إسحاق أيضا .

قال الواقدي : ثم قال لها رسولُ الله صلى الله عليه وآله : لم قلت هذا ؟ قالت ذكرت يتم بنيه فراغنى . فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وآله لولده أن يحسن الله عليهم الخلف ،

(١) يا حمن ، مرخم « يا حمنة » . (٢) سورة البقرة : ١٥٦ .

فنزَّجَتْ طلحة بن عبید الله ، فولدت منه محمد بن طلحة ، فكان أوصل الناس لولد
مُصعب بن عمير .

القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوم أُحُد

قال الواقديّ : حدثني موسى بن يعقوب ، عن عمته ، عن أمها ، عن المقداد ، قال :
لما تصافَّ القوم للقتال يومَ أُحُد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وآله تحت راية
مُصعب بن عمير ، فلما قُتِل أصحابُ اللواء وهُزم المشركون الهزيمة الأولى ، وأغارَ المسلمون
على معسكرهم ينهبونه ، ثم كرَّ المشركون على المسلمين ، فاتَّوهم من خلفهم ، فنفترق
الناس ، ونادى رسولُ الله صلى الله عليه وآله في أصحابِ الألوية ، فقتل مُصعبُ بن عمير
حاملُ لوائه صلى الله عليه وآله ، وأخذَ راية الخزرج سعدُ بنُ عبادة ، فقام رسولُ الله صلى
الله عليه وآله تحمها ، وأصحابه محذِّقون به ، ودفع لواء المهاجرين إلى أبي الرِّدم أحد بني
عبد الدار آخرَ نهار ذلك اليوم ، ونظرتُ إلى لواء الأوس مع أسيد بن حُضير ، فناوشوا
المشركين ساعة ، واقتتلوا على اختلاط من الصُّفوف ، ونادى المشركون بشعارهم : ياللعزى !
يالهيَل ! فأوجعوا والله فينا قتلاً ذريعاً ، ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما نالوا ؛
لا والذي بعثه بالحق ما زال شبراً واحداً ، إنه لفي وجه العدوِّ وتُوب إليه طائفةٌ من أصحابه مرّة ،
وتفترق عنه مرّة ، فربما رأيتَه قائماً يرمى عن قوسه أو يرمى بالحجر حتى تجاوزوا ، وكانت
العصاة التي ثبتتْ مع رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة عشر رجلاً ، سبعة من
المهاجرين ، وسبعة من الأنصار ، أما المهاجرون فعلى عليه السلام وأبو بكر وعبد الرحمن
ابن عوف وسعدُ بن أبي وقاص وطلحة بن عبید الله وأبو عبيدة بن الجراح والزيبر بن العوام ،

وأما الأنصار فأحباب بن المنذر وأبو دُجانة^(١) وعاصمُ بنُ ثابت بن أبي الأقلح والحارث ابنُ الصِّمة وسهل بنُ حنيف وسعدُ بن معاذ وأسيّد بنُ حُضَيْر .

قال الواقديّ : وقد روى أن سعد بن عبادَةَ ومحمد بن مَسْلَمَةَ ثبَتَا يومئذ ولم يفرّا .
ومن روى ذلك جعلهما مكانَ سعد بن مُعَاذٍ وأسيّد بن حُضَيْر .

قال الواقديّ : وبإيَّه يومئذ على الموت ثمانية : ثلاثة من المهاجرين ، وخمسة من الأنصار ، فأما المهاجرون فعلى عليه السلام ، وطلحةُ ، والزبيرُ ؛ وأما الأنصار فأبو دُجانة والحارثُ بن الصِّمة وأحباب بن المنذر وعاصمُ بنُ ثابت وسهل بنُ حنيف ، ولم يُقتل منهم ذلك اليوم أحدٌ ؛ وأما باقي المسلمين ففرّوا ورسولُ الله صلى الله عليه وآله يدعوهم في أعراسهم حتى انتهى منهم إلى قريب من المِهْرَاسِ^(٢) .

قال الواقديّ : وحدثني عتبة بنُ جبير ، عن يعقوبَ بنِ عمير بن قتادة قال : ثبت يومئذ بين يديه ثلاثون رجلاً كلهم يقول : وجهي دون وجهك ، ونفسي دون نفسك ، وعليك السلام غير مودّع .

قلت : قد اختلف في عمر بن الخطاب هل ثبت يومئذ أم لا ، مع اتفاق الرواة كافة على أن عثمان لم يثبت ، فالواقديّ ذكر أنه لم يثبت ، وأما محمد بن إسحاق والبلاذريّ فجعلاه مع من ثبت ولم يفرّ ، واتفقوا كلهم على أن ضرارَ بن الخطاب الفهريّ قرّع رأسه بالرمح وقال : إنها نعمة مشكورة يا ابن الخطاب ، إني آليت ألا أقتل رجلاً من قريش .
وروى ذلك محمد بن إسحاق وغيره ، ولم يختلفوا في ذلك ، وإنما اختلفوا ، هل قرّعه بالرمح وهو فارسٌ هارب ، أم مقدّمٌ ثابت ! والذين رَوَوْا أنه قرّعه بالرمح وهو هارب لم يقل

(٢) المهراس : ماء بأحد .

(١) أبو دُجانة ؛ هو سماك بن خرشة .

أحد منهم إنه هرب حين هرب عثمانُ ولا إلى الجهة التي فرَّ إليها عثمان، وإتماهرب معتصماً بالجبل، وهذا ليس بغيب ولا ذنب، لأنَّ الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اعتصموا بالجبل كلُّهم وأصعدوا فيه، ولكن يَبقى الفرقُ بين من أصعد في الجبل في آخر الأمر ومن أصعد فيه والحربُ لم تضع أوزارها، فإن كان عمرُ أصعد فيه آخر الأمر، فكلُّ المسلمين هكذا صنعوا حتى رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن كان ذلك والحرب قائمة بعد تفرق.

ولم يختلف الرواة من أهل الحديث في أنَّ أبا بكر لم يفرَّ يومئذ، وأنه ثبت فيمن ثبت، وإن لم يكن نقل عنه قتل أو قتال، والثبوت جهاد، وفيه وحده كفاية.

وأما رواية الشيعة فإنهم يروون أنه لم يثبت إلا على وطلحة والزبير وأبو دجانة وسهل ابن حنيف وعاصم بن ثابت، ومنهم من روى أنه ثبت معه أربعة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، ولا يعدون أبا بكر وعمرَ منهم. روى كثير من أصحاب الحديث أنَّ عثمان جاء بعد ثلاثة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسأله إلى أين انتهيت؟ فقال: إلى الأعراس، فقال: لقد ذهبتَ فيها عريضة^(١).

روى الواقدي قال: كان بين عثمان أيام خلافته وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فأرسل عبد الرحمن إلى الوليد بن عقبة فدعاه، فقال: اذهب إلى أخيك فأبلغه عنى ما أقول لك، فإنِّي لا أعلم أحداً يبلغه غيرك. قال الوليد: أفعل. قال قل له: يقول لك عبد الرحمن: شهدتُ بدرا ولم تشهدْها، وثبتُّ يوم أُحد ووليت، وشهدتُ بيعة الرضوان ولم تشهدْها، فلما أخبره قال عثمان: صدق أخى، تخلفتُ عن بدر على أبنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى مريضة، فضرب لى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بسهمى وأجرى، فكنتُ بمنزلة من

(١) في النهاية لابن الأثير: « وفي حديث أحد قال للمهزمين: لقد ذهبتَ فيها عريضة، أى واسعة.»

قال المدائني : أحصيت زوجات الحسن بن علي فكان سبعين امرأة .

قال المدائني : ولما توفّي عليّ عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس ، فقال : إن أمير المؤمنين عليه السلام توفّي ، وقد ترك خلفا ، فإن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد ؛ فبكى الناس ، وقالوا : بل يخرج إلينا ، فخرج الحسن عليه السلام ، فخطبهم فقال : أيّها الناس ؛ اتقوا الله ، فإنّا أمراءكم وأولياؤكم ، وإنّا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً ﴾ ^(١) ، فبايعه الناس .

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود ، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قيس بن سعد ابن عبادة مقدّمة له في اثني عشر ألفا إلى الشام ، وخرج وهو يريد المدائن ، فطعن بسباط وانتهب متاعه ؛ ودخل المدائن ؛ وبلغ ذلك معاوية ، فأشاعه ؛ وجعل أصحاب الحسن الذين وجّههم مع عبد الله يتسلّلون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات . فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبّخهم ، وقال : خالفتم أبي حتى حُكّم وهو كاره ، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم ، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله ، ثم بايعتموني على أن تسالموا من سألني ، وتحاربوا من حاربني ؛ وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية ، وبايعوه ؛ فحسبي منكم ، لا تغرّوني من ديني ونفسي .

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب - إلى معاوية يسأله المسألة ، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، وألا يبايع لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، وأن يكون الناس أجمعون آمنين .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ .

وكتب بذلك كتابا ، فأبى الحسين عليه السلام ، وامتنع ؛ فكلّمه الحسن حتى رضى ،
وقدم معاوية إلى الكوفة .

قال أبو الحسن : وحدّثنا أبو بكر بن الأسود ، قال : كتب ابن العباس
إلى الحسن :

أما بعد فإن المسلمين ولّوك أمرهم^(١) بعد عليّ عليه السلام ، فشمّر للحرب ، وجاهد
عدوّه ، وقارب أحبابك ، واشتر^(٢) من الظنّين^(٣) دينه بما لا يثلم^(٤) لك ديناً^(٥) ،
ووال أهل^(٦) البيوتات والشرف ، تستصلح به عشائرهم ، حتى يكون الناس جماعة ؛
فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحقّ ؛ وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ،
وعزّ الدين - خير من كثير مما يُحبّه النّس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور
وذلّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين . واقتدِ بما جاء عن أمّة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح
الكذب إلّا في حرب أو إصلاح بين الناس ؛ فإنّ الحرب خدعة ؛ ولك في ذلك سعة
إذا كنت محاربا ، ما لم تبطل حقاً .

واعلم أنّ عليّاً أباك إنّما رغِبَ الناس عنه إلى معاوية ، أنّه أساءَ بينهم في الفء ،
وسوى بينهم في العطاء ، فتقلّ عليهم ؛ واعلم أنّك تحاربُ مَنْ حارب الله ورسوله في ابتداء
الإسلام ؛ حتى ظهر أمرُ الله ، فلمّا وحدّ الرب ، ومحقّ الشرك ، وعزّ الدين ، أظهروا
الإيمان وقرءوا القرآن ؛ مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض

(١) في د : « أمورهم » . (٢) د : « واستر » .

(٣) الظنّين : « المتهم » . (٤) يثلم : يعيب .

(٥) العقدة ١ : ٣٠ ، وعيون الأخبار ١ : ١٤ « يفك » . (٦) العقود عيون الأخبار : « وول »

يحتشم ويُستحياً من ذكره بالفرار وما شابهه من العيب ، فيضطر القائل إلى الكناية إلهاماً
قلتُ له : هذا وهم^(١) ، فقال : دَعْنَا مِنْ جَدَلِكَ وَمَنْعِكَ ، ثم حلف أنه ما عني الواقديُّ
غيرهما ، وأنه لو كان غيرهما لذكره صريحاً ، وبان في وجه التنكير من مخالفتي له .

رَوَى الواقديُّ قال : لَمَّا صَاح إبليس : إنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، تَفَرَّقَ النَّاسُ ، فَمنهم من
ورد المدينة ، فكان أول من وردها يُخبر أن مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ، سعدُ بنُ عثمانَ أبو عبادة ، ثم
ورد بعده رجال حتى دخلوا على نسائهم حتى جعل النساء يقلن : أعن رسول الله تفرّون !
ويقول لهم ابنُ أمِّ مكتوم : أعن رسول الله تفرّون ؟ يؤنّب بهم ، وقد كان رسول الله
صلى الله عليه وآله خلفه بالمدينة يصلي بالناس ، ثم قال : دَلُونِي عَلَى الطَّرِيقِ - يَعْنِي طَرِيقَ
أَحَدٍ - فَذَلُّوهُ ، فُجِعَ يَسْتَجِيرُ كُلَّ مَنْ لَقِيَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى لَحِقَ الْقَوْمَ ، فَعَلِمَ بِسَلَامَةِ النَّبِيِّ
صلى الله عليه وسلّم ، ثم رجع . وكان ممن ولّى عمر وعثمان والحارث بن حاطب وثعلبة
ابن حاطب وسواد بن غزيرة وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخاربة بن عمر بلغ مَلَكٌ^(٢) ،
وأوس بن قَيْطِيٍّ فِي نَفَرٍ مِنْ بَنِي حَارِثَةَ بَلِغُوا الشَّقْرَةَ^(٣) وَلَقِيْتَهُمْ أُمَّ أَيْمَنَ تَحِيٍّ^(٤) فِي
وجوههم التراب وتقول لبعضهم : هَاكَ الْمَغْزَلُ فَاعْزِلْ بِهِ ، وهَلُمَّ . واحتجّ من قال بفرار
عمرَ بما رواه الواقديُّ فِي كِتَابِ الْمَغَازِي فِي قِصَّةِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، قَالَ : قَالَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَلَمْ تَكُنْ حَدَّثْتَنَا أَنَّكَ سَتَدْخُلُ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ وَتُعَرِّفُ
مَعَ الْمَعْرُوفِينَ ، وَهَدَيْتَنَا لَمْ يَصِلْ إِلَى الْبَيْتِ وَلَا نُحْرَ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ :
أَقُلْتُ لَكُمْ فِي سَفَرِكُمْ هَذَا ؟ قَالَ عُمَرُ : لَا ، قَالَ : أَمَا إِنَّكُمْ سَتَدْخُلُونَهُ وَتَأْخُذُ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ
وَأَحْلِقُ رَأْسِي وَرءُوسَكُمْ بِيَطْنِ مَكَّةَ وَأُعَرِّفُ مَعَ الْمَعْرُوفِينَ ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عُمَرَ وَقَالَ : أَنْسِيْتُمْ يَوْمَ

(١) كذا في ب : والذي في أ « ممنوع » .

(٢) ملل ؛ كجبل : موضع بعينه .

(٣) الشقرة : موضع معروف لبني سليم .

(٤) يقال : حثا التراب في وجهه يحشوه ويحشيه ، إذا رماه به .

أحد، ﴿ إِذِ تَصْعِدُونَ وَلَا تُلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾^(١) وأنا أدعوكم في أخراكم ! أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذِ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذِ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾^(٢) ! أنسيتم يوم كذا! وجعل يذكركم أمورا ، أنسيتم يوم كذا! فقال المسلمون : صدق الله وصدق رسوله ، أنت يارسول الله أعلم بالله منا ، فلما دخل عام القضية وحلق رأسه قال : هذا الذي كنت وعدتكم به ، فلما كان يوم الفتح وأخذ مفتاح الكعبة قال : ادعوا إلى عمر بن الخطاب ، فجاء فقال : هذا الذي كنت قلت لكم . قالوا : فلو لم يكن فرّ يوم أحد لما قال له : أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون .

القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل

قال الواقدي : حدثني موسى بن محمد بن إبراهيم ، عن أبيه قال : لما صاح الشيطان لعنه الله : إن محمدا قد قتل يحرّضهم بذلك ، تفرّقوا في كلّ وجه ، وجعل الناس يميرون على النبي صلى الله عليه وآله لا يولي عليه أحد منهم ، ورسول الله يدعوهم في أراهم ، حتى انتهت هزيمة قوم منهم إلى المهراس ، فتوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أصحابه في الشعب فأنتهى إلى الشعب وأصحابه في الجبل أوزاع ، يذكرون مقتل من قتل منهم ، ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال كعب بن مالك : فكنت أول من عرفه وعليه المغفر ، فجعلت أصيح وأنا في الشعب : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ ، فجعل يومئذ إلى بيده على فيه أي أسكت ، ثم دعا بلامتي^(٣) فلبسها ونزع لأمته .

قال الواقدي : طلع رسول الله صلى الله عليه وآله على أصحابه في الشعب بين السعدين :

(٢) سورة الأحزاب : ٢٠ .

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .

(٣) اللأمة : الدرع .

سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ ، وسعد بن مُعَاذٍ يَتَكَفَّأُ فِي الدَّرْعِ ، وَكَانَ إِذَا مَشَى تَكْفَأُ تَكْفُؤًا ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ كَانَ يَتَوَكَّأُ عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ .

قال الواقديّ : وما صلى يومئذ الظهر إلا جالسا للجرح الذي كان أصابه .

قال الواقديّ : وقد كان طلحة قال له : إنَّ بي قوة ، فقم لأحمِّلك ، فحمَّله حتَّى انتهى إلى الصَّخْرَةِ التي على فم شعب الجبل ، فلم يزل يحمِّله حتَّى رفعه عليها ثم مضى إلى أصحابه ومعه النَّفَرُ الذين ثبتوا معه ، فلمَّا نظر المسلمون إليهم ظنَّوهم قُرَيْشًا ، فجعلوا يوثُّون في الشعب هارين منهم ، ثم جعل أبو دُجَانَةَ يُليح إليهم بعمامةٍ حمراء على رأسه ، فعرفوه فرجعوا ، أو بعضهم .

قال الواقديّ : ورؤي أنه لما طاع عليهم في النَّفَرِ الذين ثبتوا معهم وهم أربعة عشر ، سبعة من المهاجرين ، وسبعة من الأنصار - جعلوا يولون في الجبل خائفين منهم يظنونهم المشركين ، جعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله يتبسَّم إلى أبي بكر وهو على جنبه ويقول له : أَلِحْ إليهم ، فجعل أبو بكر يليح إليهم وهم لا يُعرِّجون حتَّى نزع أبو دُجَانَةَ عصابَةَ حمراء على رأسه فأوفى^(١) على الجبل ، فجعل يصيح ويُليح ، فوقفوا حتَّى عرفوهم - ولقد وَضِعَ أبو بردة بن نِيَّارٍ سهمًا على كِبِدِ قوسه ، فأراد أن يرمى به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فلمَّا تكلموا وناداهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله أمسك ، وفرح المسلمون برؤيته حتَّى كأنَّهم لم تُصِبهم في أنفسهم مصيبة ، وسُرُّوا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

قال الواقديّ : ثم إنَّ قوما من قريش صعدوا الجبلَ فعَلَوْا على المسلمين وهم في الشعب . قال : فكان رافعُ بن خديج يحدث فيقول : إني يومئذ إلى جنب أبي مسعود الأنصاري وهو يذكر من قتل من قومه ، ويسأل عنهم ، فيخبر برجال : منهم سعدُ بن

(١) أوفى : أشرف وعلا .

الرَّبِيع ، وخارجة بن زهير ، وهو يسترجع ^(١) ويترحم عليهم ، وبعض المسلمين يسأل بعضا عن حميمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ، فيينا هم على ذلك ردَّ الله المشركين ليذهب ذلك الحزن عنهم ، فإذا عدوهم فوقهم قد علوا ، وإذا كتائب المشركين بالجبل ، ففسوا ما كانوا يذكرون ، وندبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وحضنا على القتال ، والله لكأنى أنظرُ إلى فلان وفلان في عرض الجبل يعُدوان هارين .

قال الواقدي : فكان عمرُ يحدث يقول ، لما صاح الشيطان : قَتِلْ مُحَمَّد ، أقبلتُ أرقى إلى الجبل ، فكأنى أروية ، فانهيتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ الآية ، وأبو سفيان في سفح الجبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو ربه : اللهم ليس لهم أن يعلوا . فانكشفوا .

قال الواقدي : فكان أبو أسيد الساعدي يحدث فيقول : لقد رأيتنا قبل أن يلقي النعاس علينا في الشعب وإنما سلم لمن أرادنا ، لما بنا من الحزن ، فألقى علينا النعاس ، فمنا حتى تناطح الحَجَف ^(٢) ، ثم فزعنا وكأنا لم يصبنا قبل ذلك نكبة . قال : وقال الزبير ابن العوام : غشينا النعاس فما منا رجل إلا وذقنه في صدره من النوم ، فأسمع معتب بن قشير - وكان من المنافقين - يقول : وإني لك لحالم : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ ^(٣) ، فأنزل الله تعالى فيه ذلك .

قال : وقال أبو اليسر : لقد رأيتني ذلك اليوم في رجال من قومي إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد أنزل الله علينا النعاس أمانة منه ، مامنهم رجل إلا يغط غطيها حتى إن الحَجَف لتناطح ، ولقد رأيت سيفَ بشر بن البراء بن معرور سقط من يده

(١) استرجع : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .
(٢) الحَجَف بالتحريك : جمع حَجَفَة ؛ وهى الترس .
(٣) سورة آل عمران : ١٥٤ .

وما يشعر به حتى أخذه بعد ماتلّم ، وإنّ المشركين لتحتنا ، وسقط سيفُ أبي طلحة أيضا ولم يُصب أهل الشكّ والنفاق نَعاسٌ يومئذ ، وإِنّما أصاب النعاس أهلَ الإيمان واليقين ، فكان المنافقون يتكلم كلّ منهم بما في نفسه ، والمؤمنون ناعسون .

قلت : سألتُ ابن النجّار المحدث عن هذا الموضع فقلت له : من قصّة أخذ تدلّ على أنّ المسلمين كانت الدولة لهم بادئ الحال ، ثم صارت عليهم ، وصاح الشيطان : قُتل محمد ، فانهزم أكثرهم ، ثم تاب أكثرُ المهزّمين إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فحاربوا دونه حرباً كثيرة طال مدتها حتى صار آخرُ النهار ، ثم أصدوا في الجبل معتصمين به ، وأصعد رسول الله صلى الله عليه وآله معهم ، فتحاجز الفريقان حينئذ ، وهذا هو الذي يدلّ عليه تأمل قصّة أحد ، إلا أنّ بعض الروايات التي ذكرها الواقديّ يقتضى غير ذلك ، نحو روايته في هذا الباب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما صاح الشيطان : إنّ محمداً قد قُتل ، كان ينادى المسلمين فلا يعرفون عليه ، وإِنّما يُصعدون في الجبل ، وإنّه وجه نحو الجبل ، فأنهى إليهم وهم أوزاع يتذاكرون بقتل من قُتل منهم ؛ وهذه الرواية تدلّ على أنّه أصدد صلى الله عليه وآله في الجبل من أوّل الحرب ، حيث صاح الشيطان ، وصياح الشيطان كان حال كون خالد بن الوليد بالجبل من وراء المسلمين لما غشهم وهم مشتغلون بالنهب واختلط الناسُ ، فكيف هذا !

فقال : إنّ الشيطان صاح . قتل محمد دفعتين : دفعة في أوّل الحرب ، ودفعة في آخر الحرب ، لما تصرّم النهار وغشيت الكتائب رسول الله صلى الله عليه وآله وقد قُتل ناصروه وأكلتهم الحرب ، فلم يبق معه إلا نفر يسير لا يبلغون عشرة ، وهذه كانت أصعب وأشدّ من الأولى ، وفيها اعتصم ، وما اعتصم في صرخة الشيطان الأولى بالجبل ، بل ثبت ووحامى عنه أصحابه ، ولقد لقي في الأولى مشقة عظيمة من ابن قميّة وعُتبة بن أبي وقاص وغيرهما ،

ولكنه لم يفارق عرضة الحرب ، وإنما فارقها وعلم أنه لم يبق له وجه مُقام في صرخته الثانية .

قلت له : فكان القوم مختلطين في الصرخة الثانية حتى يصرخ الشيطان : قُتِل محمد ! قال : نعم ، المشركون قد أحاطوا بالنبي صلى الله عليه وآله وبمن بقي معه من أصحابه ، فاخطأ المسلمون بهم ، وصاروا مغمورين بينهم ، لقتلهم بالنسبة إليهم ؛ وظن قوم من المشركين أنهم قد قتلوا النبي صلى الله عليه وآله لأنهم فقدوا وجهه وصورته ، فنادى الشيطان : قُتِل محمد ، ولم يكن قُتِل صلى الله عليه وآله ، ولكن اشتبهت صورته عليهم وظنوه غيره ، وأكثر من حامى عنه في تلك الحال على عليه السلام وأبو دُجانة وسهل ابن حنيف ، وحامى هو عن نفسه ، وجرح قوما بيده تارة بالسهم ، وتارة بالسيف ولكن لم يعلموا بأعيانهم لاختلاط القوم وثوران النقع^(١) ، وكانت قريش تظنه واحداً من المسلمين ، ولو عرفوه بعينه في تلك الثورة لكان الأمر صعباً جداً ، ولكن الله تعالى عصمه منهم بأن أزاغ أبصارهم عنه ، فلم يزل هؤلاء الثلاثة يجالدون دونه ، وهو يقرب من الجبل حتى صار في أعلى الجبل ، أصد من فم الشعب إلى تدرج هناك في الجبل ، ورقي في ذلك التدرج صاعداً حتى صار في أعلى الجبل ، وتبعه نفر الثلاثة فلجحوا به .

قلت له : فما بال القوم الذين صعدوا الجبل من المشركين ، وكيف كان إصعادهم وعودهم ؟

قال : أصدوا لحرب المسلمين لا لطلب رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ لأنهم ظنوا أنه قد قُتِل ، وهذا هو كان السبب في عودهم من الجبل ، لأنهم قالوا : قد بلغنا الغرض

(١) النقع : غبار الحرب .

الأصليّ وقتلنا محمّداً ، فما لنا والتصميم على الأوس والخزرج وغيرهم من أصحابه ، مع ما في ذلك من عظم الخطر بالأنفس !

قلت له : فإذا كان هذا قد خَطَرَ لهم ، فلماذا صعدوا في الجبل .

قال : يخطر لك خاطر ، ويدعوك داعٍ إلى بعض الحركات ، فإذا شرعتَ فيها خَطَرَ لك خاطرٌ آخر يصرفك عنها ، فترجع ولا تتمها !

قلت : نعم فما بالهم لم يقصدوا قصدَ المدينة وينهبوها ؟

قال : كان فيها عبدُ الله بنُ أبيّ في ثلثمائة مقاتل وفيها خَلق كثير من الأوس والخزرج ، لم يحضروا الحربَ وهم مسلمون ، وطوائفٌ أخرى من المنافقين لم يخرجوا ، وطوائفٌ أخرى من اليهود ، أو لؤي بأسٍ وقوّة ، ولهم بالمدينة عيالٌ وأهلٌ ونساء ، وكلُّ هؤلاء كانوا يحامون عن المدينة ، ولم تكن قريش تَأْمَنُ مع ذلك أن يأتيها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وآله من ورائها بمن يُجامعه من أصحابه فيحصلوا بين الأعداء من خلفهم ومن أمامهم ، فكان الرأى الأصوبُ لهم العدول عن المدينة وترك قصدها .

قال الواقديّ : حدّثني الضحاك بن عثمان ، عن حمزة بن سعيد ، قال : لما تحاجزوا وأراد أبو سفيان الانصرافَ ، أقبل يسيرُ على فرس له حوراء^(١) ، فوقف على أصحاب النبيّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وهم في عرض الجبل ، فنادى بأعلى صوته : أعل هبل ثم صاح : أين ابن أبي كبشة ؟ يومٌ بيوم بدر ، ألا إن الأيام دُول .

وفي رواية أنه نادى أبا بكر وعمر أيضاً ، فقال : أين ابنُ أبي قحافة ؟ أين ابن الخطّاب ؟ ثم قال : الحربُ سجال ، حنظلةٌ بحنظلة ، يعنى حنظلة بن أبي عامر بحنظلة بن

(١) حوراء : واسعة العينين .

أبي سفيان ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، أجيبه ؟ قال : نعم فأجبه ، فلما قال : أعل هبل قال عمر : الله أعلى وأجل .

ويروى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر : قل له : لله أعلى وأجل ، فقال أبو سفيان : إن لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال عمر : أو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل له : الله مولانا ولا مولى لكم ، فقال أبو سفيان : إنها قد أنعمت ، فقال : عنها يابن الخطاب ، فقال سعيد بن أبي سفيان : ألا إن الأيام دول وإن الحرب سجال ، فقال عمر : ولا سواء^(١) ؛ قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار ، فقال أبو سفيان : إنكم لتقولون ذلك لقد جئنا إذا وخسرنا ، ثم قال : يابن الخطاب ، قم إلى أ كلكم : فقام إليه فقال : أشدك بدينك : هل قتلنا محمدا ؟ قال : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، قال : أنت عندى أصدق من ابن قميّة ، ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته : إنكم واجدون في قتلاكم عنتنا ومثلا ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى سراتنا ، ثم أدركته حمية الجاهلية فقال : وأما إذ كان ذلك فلم نكرهه ؟ ثم نادى : ألا إن موعدكم بدر الصفراء ، على رأس الحول ، فوقف عمر وقفةً ينتظر ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : قل : نعم ، فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا في الرحيل ، فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أن يغيروا على المدينة فيهلك الذراري والنساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لسعد بن أبي وقاص : اذهب فأتنا بنخبر القوم ، فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا^(٢) الخليل فهو الظعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة ، والذي نفسى بيده ، إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأنجزنهم . قال سعد : فتوجهت أسعى وأرصدت نفسى إن أفرغنى شيء رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أسعى ، فبدأت بالسعى حين ابتدأت ، فخرجت في آثارهم

(١) ولا سواء : يعنى لا يستوى هذا وذاك .

(٢) جنبوا الخيل ، أى ساقوها إلى جانبهم .

حتى إذا كانوا بالعقيق^(١) وأنا بحيث أراهم وأتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل، فقلت: إنه الظعن إلى بلادهم، ثم وقفوا وقفَةً بالعقيق، وتشاوروا في دخول المدينة، فقال لهم صفوان ابن أمية: قد أصبتم القوم، فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كاللثون، ولكم الظفر، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم، فقد وليتم يوم بدر، لا والله ما تبعوكم وكان الظفر لهم. فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نهام صفوان. فلما رآهم سعد على تلك الحال منطلقين وقد دخلوا في المكن رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالمنكسر فقال: ووجه القوم يارسول الله إلى مكة، امتطوا الإبل وجنبوا الخيل. فقال: ماتقول؟ قلت: ماقلت يارسول الله، فخلا بي فقال: أحقاً ماتقول؟ قلت: نعم يارسول الله، قال: فما بالي رأيتك منكسراً؟ فقلت: كرهت ان آتى المساهين فرحاً بقولهم إلى بلادهم، فقال صلى الله عليه وسلم: إن سعداً لمُجربٌ.

قال الواقدي: وقد روى خلاف هذا، روى أن سعداً لما رجع رفع صوته بأن جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير إلى سعد: خفض صوتك فإن الحرب خدعة، فلا تُرى الناس مثل هذا الفرح بانصرافهم، وإنما ردّهم الله تعالى.

قال الواقدي: وحدثني ابن أبي سبرة، عن يحيى بن شبل، عن أبي جعفر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك، ولا تفت في أعضاء المسلمين، فذهب فرآهم قد امتطوا الإبل، فرجع، فما ملك أن جعل يصيحُ سروراً بانصرافهم.

قال الواقدي: وقيل لعمر بن العاص: كيف كان افتراق المسلمين والمشركين يوم

(١) العقيق: موضع بالمدينة فيه عوو ونخيل. (ياقوت).

أحد؟ فقال: ما تريدون إلى ذلك! قد جاء الله بالإسلام، ونفى الكفر وأهله، ثم قال: أما كررنا عليهم أصبنا من أصبنا منهم وتفرقوا في كل وجه، وفاءت لهم فئة بعد؛ فتشاورت قريش، فقالوا: لنا الغلبة، فلو انصرفنا، فإنه بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلاث الناس، وقد تحلف الناس من الأوس والخزرج، ولا نأمن أن يكرروا علينا، وفينا جراح، وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل، فمضينا، فما بلغنا الروحاء^(١) حتى قام علينا عدة منها؛ وانصرفنا إلى مكة.

قال الواقدي: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة، عن عائشة؛ قال: سمعت أبا بكر يقول: لما كان يوم أحد ورُمي رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه حتى دخلت في وجهه حلقتان من المغفر، أقبلت أسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانا، فقلت: اللهم اجعله طلحة بن عبيد الله؛ حتى توافينا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أبو عبيدة بن الجراح، فبدرني فقال: أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنزعه من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو بكر: فتركته. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عليكم صاحبكم»، يعني طلحة، فأخذ أبو عبيدة بثنيته حلقة المغفر، فزعاها وسقط على ظهره، وسقطت ثنية أبي عبيدة، ثم أخذ الحلقة بثنيته الأخرى، فكان أبو عبيدة في الناس أشرم^(٢). ويقال: إن الذي نزع الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن وهب بن كلداء؛ ويقال: أبو اليسر. قال الواقدي: وأثبت ذلك عندنا عقبة بن وهب بن كلداء.

قال الواقدي: وكان أبو سعيد الخدري يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الروحاء: موضع على أربعين ميلا من المدينة.

(٢) الأثرم: الذي لا أسنان له.

أصيب وجهه يوم أحد ، فدخلت الخلقتان من المغفر في وجنتيه ، فلما نُزِعنا جعل الدم يسربُ كما يسربُ الشنُّ^(١) ، فجعل مالك بن سنان يميحُ الدمَ بفيه ، ثم أزدردَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَنْ خَالَطَ دَمَهُ بَدَمِي فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَالِكِ بْنِ سِنَانَ . فقيل لمالك : تشرب الدم ! فقال : نعم ؛ أشربُ دم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ مَسَّ دَمُهُ دَمِي لَمْ نُصِبْهُ النَّارَ » .

قال الواقدي : وقال أبو سعيد : كُنَّا مِمَّنْ رُدَّ مِنَ الشَّيْخِينَ^(٢) لَمْ نَجِئْ مَعَ الْمُقَاتِلَةِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ النَّهَارِ بَلَّغْنَا مَصَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ ، جِئْتُ مَعَ غِلْمَانَ بَنِي خُدْرَةَ نَعْرِضُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَنْظُرُ إِلَى سَلَامَتِهِ ، فَرَجَعُ بِذَلِكَ إِلَى أَهْلِنَا ، فَلَقِينَا النَّاسَ مَتَفَرِّقِينَ بِبَطْنِ قَنَاةَ ، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا هِمَّةٌ إِلَّا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، نَنْظُرُ إِلَيْهِ ؛ فَلَمَّا رَأَى قَالَ : سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ ! قُلْتُ : نَعَمْ ، يَا أَبَى أَنْتَ وَأُمِّي ! وَدَنَوْتُ مِنْهُ ، فَقَبِلْتُ رُكْبَتَهُ وَهُوَ عَلَى فَرْسِهِ ؛ فَقَالَ : آجَرَكَ اللَّهُ فِي أَيْبِكَ ! ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا فِي وَجْنَتَيْهِ مِثْلَ مَوْضِعِ الدَّرْهِمِ فِي كُلِّ وَجْنَةٍ ، وَإِذَا شَجَّةٌ فِي جِهَتِهِ عِنْدَ أَصُولِ الشَّعْرِ ، وَإِذَا شَفْتُهُ السُّفْلَى تَدْمِي ، وَإِذَا فِي رِبَاعِيَّتِهِ الِيمْنَى شَطِيئَةً ، وَإِذَا عَلَى جُرْحِهِ شَيْءٌ أَسْوَدُ ، فَسَأَلْتُ : مَا هَذَا عَلَى وَجْهِهِ ؟ فَقَالُوا : حَصِيرٌ مُحْرَقٌ . وَسَأَلْتُ : مَنْ أَدْمَى وَجْنَتَيْهِ ؟ فَقِيلَ : ابْنُ قَمِيئَةَ ، فَقُلْتُ : فَمَنْ شَجَّهُ فِي وَجْهِهِ ؟ فَقِيلَ : ابْنُ شَهَابٍ ؛ فَقُلْتُ : مَنْ أَصَابَ شَفْتَيْهِ ؟ قِيلَ : عَتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ . فَجَعَلْتُ أَعْدُو بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى نَزَلَ بِيَابِهِ ، مَا نَزَلَ إِلَّا مَحْمُولًا ، وَأَرَى رُكْبَتَيْهِ مَجْحُوشَتَيْنِ^(٣) يَتَكَيءُ [عَلَى] السَّعْدَيْنِ^(٤) : سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ وَسَعْدِ ابْنِ عَبَّادَةَ ؛ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَأَذَّنَ بِلَاذِلٍّ بِالصَّلَاةِ ، خَرَجَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ

(١) الشن : القرية الخاق .

(٢) الشخان : موضع بالمدينة ؛ كان به معسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأحد ، وها أطمان سما به .

(٣) يقال : جحش الجلد : سحجه ؛ وهو كالخدش أو فوقه .

(٤) من أ .

يتوكأ على السَّعْدِين : سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، ثم انصرف إلى بيته والناس في المسجد يوقدون النيران يتمكدون بها من الجراح ، ثم أذن بلالٌ بالعشاء حين غاب الشفق ، فلم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجلس بلالٌ عند بابه صلى الله عليه وسلم حتى ذهبَ ثلث الليل ، ثم ناداه : الصلاة يارسول الله ! فخرج ، وقد كان نائماً ، قال : فرمقته فإذا هو أخفّ في مشيته منه حين دخل بيته ، فصليت معه العشاء ، ثم رجعت إلى بيته قد صفّ له الرجال ما بين بيته إلى مُصَلَّاه يمشى وحده حتى دخل ، ورجعت إلى أهلي فخبّرتهم بسلامته ، فحمدوا الله وناموا ، وكانت وجوه الأوس والخزرج في المسجد على النبي صلى الله عليه وسلم يحرسونه فرقاً من قريش أن تكرر .

قال الواقديّ : وخرجت فاطمة عليها السلام في نساء ، وقد رأت الذي بوجه أبيها صلى الله عليه وسلم ، فاعتنقته ، وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اشتدّ غضبُ الله على قوم دمّوا وجهَ رسوله . وذهب علىّ عليه السلام فأتى بماء من المهراس ، وقال : لفاطمة امسكي هذا السيف غير ذميم ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم محتضبا بالدم ، فقال : لئن كنت أحسنت القتال اليوم ، فلقد أحسن عاصمُ بن ثابت والحارث بن الصّمة وسهل بن حنيفة ، وسيف أبي دُجّانة غير مذموم ؛ هكذا روى الواقديّ .

وروى محمد بنُ إسحاق أنّ عليّاً عليه السلام قال لفاطمة بيتي شعر ، وهما :

أفأطِمْ هاء السَّيْفِ غير ذميمٍ فلستُ برِعْدِ يدٍ ولا بلثيمٍ
لَعَمْرِي لقد جاهدتُ في نصر أحمدٍ وطاعة ربِّ بالعباد رحيمٍ

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لئن كنت صدقت القتال اليوم لقد صدق معك سِمَاك بن خَرَشَةَ ، وسهل بن حنيفة .

قال الواقديّ : فلما أحضر عليٌّ عليه السلام ، الماء أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشرب منه ، فلم يستطع ، وقد كان عطشاً ، ووجد ريحاً من الماء كرهها ، فقال : هذا ماء آجن ، فتمضمض منه للدم الذي كان بفيه ثم مجّه ، وغسلت فاطمةُ به الدم عن أبيها صلى الله عليه وسلم ، فخرج محمد بنُ مسامةَ يطبّ مع النساء ، وكنّ أربع عشرة امرأة ، قد جئن من المدينة يتلقين الناس منهن فاطمة عليها السلام يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ، ويسقين الجرحى ويداوينهم .

قال الواقديّ : قال كعب بن مالك : رأيتُ عائشةَ وأمّ سَكيم على ظهورهما التَّربَّ تحملانها يوم أحد ، وكانت حَمْنَةُ بنتُ جَحْشٍ تسقى العطشى وتداوى الجرحى ، فلم يجد محمد بن مسامة عندهن ماء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد اشتدّ عطشه ، فذهب محمد ابن مسامة إلى قناة ومعه سقاؤه حتى استقى من حُسى - قناة عند قصور التميميين اليوم - فجاء بماء عذب ، فشرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بخير ، وجعل الدم لا ينقطع من وجهه عليه السلام وهو يقول : لن ينالوا منّا مثلاً حتى نستلم الرُّكن ! فلما رأت فاطمة الدم لا يرقأ وهي تغسل جراحه ، وعليٌّ يصبّ الماء عليها بالحنّ ، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادا ، ثم ألصقته بالجرح ، فاستمسك الدم . ويقال : إنهاداوته بصوفة محرّقة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يداوى الجراح الذي في وجهه بعظمٍ بال حتى ذهب أثره . ولقد مكث يجد وهنّ ضربة ابن قميئة على عاتقه شهراً أو أكثر من شهر ، ويداوى الأثر الذي في وجهه بعظم .

قال الواقديّ : وقال رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن ينصرف إلى المدينة: مَنْ يأتينا بخبر سعد بن الربيع؟ فأبى رأيتُه - وأشار بيده إلى ناحية من الوادي - قد شرع فيه اثنا عشر سنانا ، فخرج محمد بن مسامة - ويقال أبى بن كعب - نحو تلك الناحية . قال : فأنا وسط القتلى لتعرفهم ، إذ مررت به صريعا في الوادي ، فناديته فلم يجب ، ثم قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إليك . قال : فتنفّس كما يتنفّس الطير ؛ ثم قال :

وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لحى! قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سنانا، فقال: طعنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافتنى، أبلغ قومك الأنصار السلام وقل لهم: الله الله وما عاهدتم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة! والله مالكم عذر عند الله إن خالص إلى نبيكم ومنكم عينٌ تطرف؛ فلم أرم^(١) من عنده حتى مات؛ فرجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، فرأيت استقبل القبلة رافعا يديه يقول: «اللهم ألق سعد بن الربيع وأنت عنه راضٍ».

قال الواقدي: وخرجت السمداء بنت قيس؛ إحدى نساء بني دينار، وقد أصيب ابنها مع النبي صلى الله عليه وآله بأحد: النعمان بن عبدعمر، وسليم بن الحارث، فلما نعيها لها قالت: فما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قالوا: بخير، هو بحمد الله صالح على ماتحيين، فقالت: أرؤنيه أنظر إليه، فأشاروا لها إليه، فقالت: كل مصيبة بعدك يارسول الله جليل^(٢)! وخرجت تسوقُ بابنيها بعيرا، [تردهما إلى المدينة]^(٣)؛ فلقيتها عائشة؛ فقالت: ما وراءك؟ فأخبرتها^(٤)، قالت: فمن هؤلاء معك؟ قالت ابناي؛ حل حل^(٥) تحملهما إلى القبر.

قال الواقدي: وكان حمزة بن عبد المطلب أول من جرى به إلى النبي صلى الله عليه وآله بعد انصراف قريش - أو كان من أولهم - فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم قال: رأيت الملائكة تغسله - قالوا: لأن حمزة كان جنباً ذلك اليوم - ولم يغسل رسول الله صلى الله عليه وآله الشهداء يومئذ، وقال: لئفؤهم بدمائهم وجراحهم، فإنه ليس أحد يجرح في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة لونٌ جرحه لون الدم، وريحه ريح المسك، ثم

(١) لم أرم: لم أبرح - (٢) جليل، أى هينة .

(٤) في الواقدي: قالت: أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فبخير لم يميت، واتخذ الله من المؤمنين شهداء:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾

(٥) حل: زجر للبعير .

قال : ضَعَوْهُمْ فَأَنَا الشَّهِيدُ عَلَى هَؤُلَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَكَانَ حِمْرَةٌ أَوَّلَ مَنْ كَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعًا ، ثُمَّ جَمَعَ إِلَيْهِ الشَّهَدَاءَ فَكَانَ كَلِمًا أَتَى بِشَهِيدٍ وَضِعَ إِلَى جَنْبِ حِمْرَةٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَعَلَى الشَّهِيدِ ، حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعِينَ مَرَّةً ، لِأَنَّ الشَّهَدَاءَ سَبْعُونَ .

قال الواقدي . ويقال : كَانَ يُؤْتَى بِتِسْعَةِ وَحِمْرَةٍ عَاشِرِهِمْ ، فَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ ، وَتُرْفَعُ التَّسْعَةُ ، وَيُتْرَكُ حِمْرَةٌ مَكَانَهُ ، وَيُؤْتَى بِتِسْعَةٍ آخَرِينَ فَيُوضَعُونَ إِلَى جَنْبِ حِمْرَةٍ فَيُصَلَّى عَلَيْهِمْ وَعَلَيْهِمْ ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَيُقَالُ : إِنَّهُ كَبَّرَ عَلَيْهِ خَمْسًا وَسَبْعًا وَتِسْعًا .

قال الواقدي . وقد اختلفت الرواية في هذا ، وكان طلحة بن عبيد الله وابن عباس وجابر بن عبد الله يقولون : صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَتْلَى أَحَدٍ ، وَقَالَ : « أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلَاءِ » ؛ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَلَسْنَا إِخْوَانَهُمْ أَسْلَمْنَا كَمَا أَسْلَمُوا ، وَجَاهَدْنَا كَمَا جَاهَدُوا ! قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ أَجُورِهِمْ ، شَيْئًا ، وَلَا أَدْرَى مَا تَحْدِثُونَ بَعْدِي ! فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ : إِنَّا لَكَائِنُونَ بَعْدَكَ !

وقال أنس بن مالك وسعيد بن المسيب : لَمْ يَصَلِّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى قَتْلَى أَحَدٍ .

قال الواقدي . وقال لأهل القَتلى : احفروا وأوسعوا وأحسنوا ، وادفنوا الاثنين والثلاثة في القبر ، وقدموا أكثرهم قرآنا . وأمر بحمزة أن تمدَّ بُرْدَتَهُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْقَبْرِ ، وَكَانَتْ قَصِيرَةً ، فَكَانُوا إِذَا خَرُّوا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا خَرُّوا بِهَا رِجْلَيْهِ انْكَشَفَ وَجْهُهُ ، فَبَكَى الْمَسْأُومُونَ يَوْمَئِذٍ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : عَمَّ رَسُولُ اللَّهِ يُقْتَلُ فَلَا يُوْجَدُ لَهُ ثَوْبٌ ! فَقَالَ : بَلَى ؛ إِنَّكُمْ بِأَرْضِ جَرْدِيَّةٍ^(١) ذَاتِ أَحْجَارٍ ، وَسَتَفْتَحُ - يَعْنِي الْأَرْيَافَ وَالْأَمْصَارَ - فَيُخْرِجُ النَّاسُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ يَبْعَثُونَ إِلَى أَهْلِهِمْ ، وَالْمَدِينَةَ خَيْرَ لِمَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ؛

(١) جردية ؛ قال الواقدي : التي ليس بها شيء من الأشجار .

والذى نفسى بيده لاتصبر نفس على لأوائها وشدتها إلا كنت لها شفيعا - أو قال : شهيدا يوم القيامة .

قال الواقديّ : وأتى عبد الرحمن بن عوف في خلافة عثمان بنيا ب و طعام فقال : ولكن حمزة لم يوجد له كفن ، ومصعب بن عمير لم يوجد له كفن ، وكانا خيرا مني !

قال الواقديّ : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بمصعب بن عمير وهو مقتول مسجى ببرد خلق ، فقال : لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلّة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت اليوم أشعث الرأس في هذه البردة ! ثم أمر به فقبر ، ونزل في قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويطة بن عمرو بن حرملة ، ونزل في قبر حمزة على عليه السلام والزبير وأبو بكر وعمر ورسول الله صلى الله عليه وآله جالس على حفرة .

قال الواقديّ : ثم إن الناس أو عامتهم حملوا قتلاهم إلى المدينة ، فدفن بالبقيع منهم عدّة ، عند دار زيد بن ثابت ، ودفن بعضهم ببني سلمة ، فنادى منادى رسول الله صلى الله عليه وآله : ردوا القتلى إلى مضاجعهم - وكان الناس قد دفنوا قتلاهم - فلم يرد أحد أحدا منهم إلا رجلا واحدا أدركه المنادى ولم يدفن ، وهو شماس بن عثمان الخزوميّ ، كان قد حمل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة فقالت أمّ سلمة : ابن عمي يدخل إلى غيري ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : احموه إلى أمّ سلمة ، فحمّوه إليها فمات عندها ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يردّ إلى أحد فيدفن هناك كما هو في ثيابه التي مات فيها ، وكان قد مكث يوما وليلة ولم يذق شيئا ، فلم يصل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ولا غسله .

قال الواقديّ : فأما القبور المجتمعة هناك فكثير من الناس يظنّها قبور قتلى أحد ، وكان طلحة بن عبيد الله وعبداد بن تميم المازنيّ يقولان : هي قبور قوم من الأعراب كانوا

عامَ الرَّمَادَةِ فِي عَهْدِ عَمْرٍ هُنَاكَ ، فَاتُوا ، فَتَلَّكَ قَبُورَهُمْ . وَكَانَ ابْنُ ذُنُبٍ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ ابْنُ مُحَمَّدٍ يَقُولَانِ : لِأَنَّهُنَّ تِلْكَ الْقُبُورَ الْمُجْتَمِعَةَ ، إِنَّمَا هِيَ قَبُورُ نَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ ، قَالُوا : إِنَّا نَعْرِفُ قَبْرَ حَمْزَةَ وَقَبْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَزَامٍ وَقَبْرَ سَهْلِ بْنِ قَيْسٍ ، وَلَا نَعْرِفُ غَيْرَ ذَلِكَ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَزُورُ قَتْلَى أَحَدٍ فِي كُلِّ حَوْلٍ ، وَإِذَا نَفَّسَ بِالشَّعْبِ رَفَعَ صَوْتَهُ يَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنَعَمْ عُقْبَى الدَّارِ ! وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ عَمْرٌ بْنُ الْخَطَّابِ ؛ ثُمَّ عَثْمَانُ ، ثُمَّ مَعَاوِيَةُ ؛ حِينَ يَمُرُّ حَاجًّا وَمَعْتَمِرًا .

قَالَ : وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَأْتِيهِمْ بَيْنَ الْيَوْمَيْنِ وَالثَّلَاثَةِ فَتَبْكِي عِنْدَهُمْ وَتَدْعُو ، وَكَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَذْهَبُ إِلَى مَالِهِ بِالْغَابَةِ ، فَيَأْتِي مِنْ خَلْفِ قُبُورِ الشُّهَدَاءِ فَيَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ؛ ثَلَاثًا ، وَيَقُولُ : لَا يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا رَدُّوا عَلَيْهِ السَّلَامَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . قَالَ : وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى قَبْرِ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ ، فَوَقَفَ عَلَيْهِ ، وَدَعَا وَقَرَأَ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (١) ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ هَؤُلَاءِ شُهِدُوا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَتَوْهُمْ فزُورُوهُمْ وَسَامُوا عَلَيْهِمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِلَّا رَدُّوا عَلَيْهِ . وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقِفُ عَلَى قَبْرِ حَمْزَةَ فَيَدْعُو وَيَقْرَأُ وَيَقُولُ مِثْلَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ أُمُّ سَمَةَ رَحِمَهَا اللَّهُ ؛ تَذْهَبُ فَتَسْلَمُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ فَتُظَلُّ يَوْمَهَا ، فَجَاءَتْ يَوْمًا وَمَعَهَا غَلَامُهَا أَنْبَهَانُ ، فَلَمَّ يَسْلَمُ ، فَقَالَتْ : أَيُّ لُكْعٍ ! أَلَا تُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ! وَاللَّهِ لَا يَسْلَمُ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ إِلَّا رَدُّوا عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قَالَ : وَكَانَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍ يَذْهَبَانِ فَيَسَلُّمَانِ عَلَيْهِمْ ؛ قَالَتْ فَاطِمَةُ

أخزاعية : سلّمتُ على قبر حمزة يوماً ومعى أختٌ لى ؛ فسمعنا من القبر قائلاً يقول :
وعليكم السلام ورحمة الله ! قالت : ولم يكن قربنا أحدٌ من الناس .

قال الواقديّ : فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من دفنهم دعا بفرسه فركبه ،
وخرج المسلمون حوله عامّتهم جرّحى ، ولا مثل بنى سلّمة وبنى عبد الأشهل ، فلما كانوا
بأصل الحرّة قال : اصطّفوا ، فاصطّفت الرجال صّفين ، وخلفهم النساء وعدّتهنّ أربع
عشرة امرأةً ، فرفع يديه فدعا ، فقال : اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ،
ولا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضيل لمن هدّيت ،
ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قرّبت . اللهم إني أسألك من برّكتك ورحمتك
وفضلك وعافيتك ، اللهم إني أسألك النعيمَ المقيمَ الذى لا يحول ولا يزول ، اللهم إني أسألك
الأمن يومَ الخوف ، والغناء يومَ الفساقه ، عاندا بك ، اللهم من شرّ ما أعطيت ، ومن
شرّ ما منعت ، اللهم توفّنا مسالمين ، اللهم حبّب إلينا الإيمان ، وزينّه فى قلوبنا ، وكرّه
إلينا الكفرَ والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الرّاشدين ، اللهم عذب كفرة أهل
الكتاب الذين يكذبون رسلك ، ويصدّون عن سبيلك ، اللهم أنزل عليهم رجسك
وعذابك إله الحقّ ، آمين !

قال الواقديّ : وأقبل حتّى نزل بينى حارثة يميننا حتى طلع على بنى عبد الأشهل
وهم يبكون على قتلاهم ، فقال : لكنّ حمزة لأبواكى له ! فخرج النساء ينظرن إلى سلامة
رسول الله صلى الله عليه وآله ، فخرجت إليه أمّ عامر الأشهلّية ، وتركت النّوح ، فنظرت
إليه وعليه الدرع كما هى ، فقالت : كلّ مصيبة بعدك جليل . وخرجت كبشّة بنت عبّبة
ابن معاوية بن بلحارث بن الخزرج تعدّو نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وهو واقف
على فرسه ، وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه ، فقال سعد : يا رسول الله ، أمّى ، فقال :
مرحبا بها ! فدنت حتّى تأملتّه ، وقالت : إذ رأيتك سالما فقد شفّفت^(١) المصيبة . فعزّاهابعمرو

(١) شفت المصيبة ؛ أى هانت .

ابن معاذ، ثم قال : يا أمّ سعد : أبشري وبشري أهليهم أنّ قتلاهم قد تراقفوا في الجنة جميعا وهم اثنا عشر رجلا ، وقد شفّعوا في أهليهم ، فقالت : رضينا يا رسول الله ، ومن يبكي عليهم بعد هذا ! ثم قالت : يا رسول الله ، ادع لمن خلّفوا ، فقال : اللهم أذهب حزن قلوبهم ، وأجر مصيبتهم ، وأحسن الخلف على من خلّفوا . ثم قال لسعد بن معاذ : حلّ أباعمر و الدّابة ؛ فحلّ الفرس ، وتبعه الناس ، فقال : يا أبا عمرو ، إنّ الجراح في أهل دارك فاشية ، وليس منهم مجروح إلا يأتي يوم القيامة جرحه كأعزر ما كان ؛ اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، فمن كان مجروحا فليقرّ في داره وليداو جرحه ، ولا تبلغ معي بيتي ؛ عزمة متى . فنأدى فيهم سعد : عزمة من رسول الله صلى الله عليه وآله إلا يتبعه جريح من بني عبد الأشهل ، فتخلف كل مجروح ، وباتوا يؤقِدون النيران ويدأون الجراح ، وإنّ فيهم لثلاثين جريحا ، ومضى سعد بن معاذ مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بيته ، ثم رجع إلى نسائه فساقيهنّ ، فلم تبق امرأة إلا جاء بها إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فبكين بين المغرب والعشاء ، وقام رسول الله صلى الله عليه وآله حين فرغ من النوم لثلاث الليل ، فسمع البكاء فقال : ما هذا ؟ قيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة ، فقال : رضى الله تعالى عنكنّ وعن أولادكنّ ؛ وأمر النساء أن يرجعن إلى منازلهنّ ، قالت أمّ سعد بن معاذ : فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل ومعنا رجالنا ، فما بكت منا امرأة قطّ إلا بدأت بحمزة إلى يومنا هذا . ويقال : إنّ معاذ بن جبل جاء بنساء بني سلمة ، وجاء عبد الله بن رواحة بنساء بلحارث بن الخزرج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما أردت هذا ؛ ونهاهنّ الغد عن التّوح أشدّ النهى .

قال الواقديّ : وجعل ابن أبيّ والنافقون معه يشتمون ويسرّون بما أصاب المسالمين ، ويظهرون أقبح القول ، ورجع عبد الله بن أبيّ إلى ابنه وهو جريح ، فبات يكوي الجراحة بالنار ، حتّى ذهب عامّة الليل وأبوه يقول : ما كان خروجك مع محمد إلى هذا

الوجه برأى ؛ عصاني محمد وأطاع الولدان ! والله لكأني كنت أنظر إلى هذا ، فقال ابنه : الذي صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله . قال : وأظهرت اليهود القول السيء ، وقالوا : ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أُصيب هكذا نبي قط في بدنه وأصيب في أصحابه ؛ وجعل المنافقون يُحَدِّثون^(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ويأمرهم بالتفرق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله : لو كان من قُتِلَ منكم عندنا ما قُتِلَ ؛ حتى سمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن ، فمَشَى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذنه في قتل من سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له : يا عمر ، إن الله مُظهر دينه ، ومعرِّب نبيِّه ، ولليهود ذمَّة فلا أقتلهم . قال : فهؤلاء المنافقون يارسول الله يقولون ، فقال : أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ! قال : بلى ، وإنما يفعلون تعوذاً من السيِّف ، وقد بان لنا أمرهم ، وأبدى الله أضعافهم عند هذه النكبة ، فقال : إني نهيت عن قتل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله يا ابن الخطاب ، إن قریشا لن ينالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن^(٢) .

وروى ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إخوانكم لما أصيبوا بأحد جعلت أرواحهم في أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة فتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مطعمهم ومشرهم ورأوا حسن منقلبهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون بما أكرمنا الله وبما نحن فيه لئلا يزهدوا في الجهاد ، ويكلوا عند الحرب ! فقال لهم الله تعالى : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾^(٣) .

(٢) استلم الركن : قبله أو لسه بيده .

(١) يخدلون عنه : يمتعون من نصرته .

(٣) سورة آل عمران ١٦٩ .

القول فيما جرى للمشر كين بعد انصرافهم إلى مكة

قال الواقديّ: حدثني موسى بن شيبة، عن قطن بن وهيب الليثيّ، قال: لما تحاجز الفريقان، ووجه قريش إلى مكة، وامتطوا الإبل، وجنّبوا الخيل، سار وحشّي، عبد جبير بن مطعم على راحلته أربعا، فقدم مكة يبشر قريشا بمصاب المسلمين، فأنهى إلى التّنية التي تطلع على الحجون فنادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، صرارا، حتى ثاب الناس إليه وهم خائفون أن يأتيهم بما يكرهون، فلما رضى منهم قال: أبشروا فقد قتلنا من أصحاب محمد مقتلة لم نقتل مثيها في زحف قطّ، وجرحنا محمدا فأثبتناه بالجراح، وقتلنا رأس الكتيبة حمزة بن عبد المطلب، فتفرّق الناس عنه في كل وجه بالشامة بقتل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وإظهار السرور، وخلا جبير بن مطعم بوحشّي، فقال: انظر ما تقول! قال وحشّي: قد والله صدقت. قال: قتلت حمزة؟ قال: إى والله ولقد زرّفته بالزراق^(١) في بطنه، فخرج من بين نخديه، ثم نودى فلم يجب، فأخذت كبده وحملتها إليك لترأها. فقال: أذهبت حزن نساءنا، وبردت حرّ قلوبنا؛ فأمر يومئذ نساءه بمراعاة الطيب والدّهن.

قال الواقديّ: وقد كان عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة الخزوميّ لما انكشف المشركون بأحد في أول الأمر، خرج هاربا على وجهه، وكره أن يقدم مكة، فقدم الطائف، فأخبر ثقيفا أنّ أصحاب محمد قد ظفروا وانهزمنا، وكنت أول من قدم عليكم، ثم جاءهم الخبر بعد أن قريشا ظفرت وعادت الدولة لها.

قال الواقديّ: فسارت قريش قافلة إلى مكة، فدخلتها ظافرة، فكان ما دخل على قلوبهم من السرور يومئذ نظير ما دخل عليهم من السكابة والحزن يوم بدر، وكان ما دخل

(١) الزراق: الريح التصير، وزرقه، أى رماه.

على قلوب المساهين من الغيظ والحزن يومئذ نظير ما دخل عليهم من السرور والجدل يوم بدر، كما قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (١) وقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ آصَابِكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (٢)؛ قال: يعنى إنكم يوم بدر قُتِتم من قريش سبعين، وأسرتهم سبعين، وأما يوم أُحُد فقتل منكم سبعون، ولم يؤسر منكم أحد، فقد أصبتم قريشا بمثل ما أصابوكم يوم أُحُد، وقوله: ﴿ أَنَّى هَذَا ﴾ أى كيف هذا، ونحن موعودون بالنصر ونزول الملائكة، وفينا نبى ينزل عليه الوحي من السماء! فقال لهم فى الجواب: ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾، يعنى الرُماة الذين خالفوا الأمر وعصوا الرسول، وإِنَّمَا كَانَ النَّصْرُ وَنَزُولُ الْمَلَائِكَةِ مَشْرُوطًا بِالطَّاعَةِ وَالْأَلَا يَعِصَى أَمْرُ الرَّسُولِ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (٣)، فعلقه على الشرط!

القول فى مقتل أبى عزة الجُمحى ومعاوية بن المغيرة بن أبى العاص

ابن امية بن عبد شمس

قال الواقدى: أما أبو عزة - واسمه عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب بن حذافة ابن مُجح - فإن رسول الله صلى الله عليه وآله أخذه أسيراً يوم أُحُد - ولم يؤخذ يوم أُحُد أسيراً غيره - فقال: يا محمد، منَّ علىَّ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ المؤمن لا يُلدغ من جُحرٍ مرتين، لا ترجع إلى مكة تمسح عارضيك، فتقول: سخرتُ بِمحمدٍ مرتين. ثم أمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

(٢) سورة آل عمران ١٦٥ .

(١) سورة آل عمران ١٤٠

(٣) سورة آل عمران ١٢٥ .

قال الواقديّ : وقد سمعنا في أسره غير هذا ، حدّثني بكبير بن مسمار ، قال : لما انصرف المشركون عن أخذ نزلوا بجمراء الأسد في أول الليل ساعةً ، ثم رحلوا وتركوا أبا عزة مكانه حتى ارتفع النهار ، فلحقه المسلمون وهو مستنبه يتلدد ، وكان الذي أخذه عاصم ابنُ ثابت ، فأمره النبيّ صلى الله عليه وآله ف ضرب عنقه .

قلت : وهذه الرواية هي الصحيحة عندي ، لأنّ المسلمين لم تكن حالهم يوم أُخذ حال مَنْ يتهبأ له أسرُ أحد من المشركين في المعركة لما أصابهم من الوهن .
فأمّا معاوية بن المغيرة فرَوَى البلاذريّ أنّه هو الذي جدّع أنف حمزة ومثّل به ، وأنّه انهزم يوم أُخذ ففضى على وجهه ، فبات قريباً من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان بن أبي العاص - وهو ابن عمّه ليجأ - ف ضرب بابه ، فقالت ، أمّ كلثوم زوجته وهي ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله : ليس هو هاهنا ، فقال : ابعثي إليه ؛ فإنّ له عندي ثمنٌ بعير ابتعته منه عامٍ أوّل ، وقد جئتُه به ، فإن لم يجيء ذهب ف أرسلت إليه ، وهو عند رسول الله صلى الله عليه وآله ، فلما جاء قال لمعاوية : أهلكتني وأهلكت^(١) نفسك ! ما جاء بك ؟ قال : يا بن عمّ ، لم يكن أحدٌ أقرب إليّ ولا أمسّ رَحماً بي منك ، فجئتُك لتُجيرني ، فأدخله عثمان داره وصيّره في ناحية منها ، ثمّ خرج إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ليأخذ له منه أماناً ، فسَمِعَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّ معاوية في المدينة ، وقد أصبح بها ، فاطلبوه . فقال بعضهم : ما كان ليعدّ ومنزل عثمان ، فاطلبوه به ، فدخلوا منزل عثمان ، فأشارت أمّ كلثوم إلى الموضع الذي صيّره فيه ، فاستخرجوه من تحت حمارة لهم ، فانطلقوا به إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال عثمان حين رآه : والذي بعثك بالحقّ ماجئتُ إلّا لأطلبَ له الأمان ، فمَنبّه لي ، فوهبه له ، وأجلّه ثلاثاً ،

(١) البلاذريّ : « أهلكتني ونفسك » .

وأقسم : لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة وما حولها ليقتلنه . وخرج عثمانُ فجهزه وأشترى له بعيرا، ثم قال : ارتحل . وسار رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حمراء الأسد وأقام معاوية إلى اليوم الثالث ليعرف أخبارَ النبي صلى الله عليه وآله ، ويأتى بها قريشاً، فلما كان فى اليوم الرابع قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنَّ معاوية أصبح قريباً لم ينفذ، فاطلبوه . فأصابوه وقد أخطأ الطريقَ ، فأدركوه ، وكان اللذان أسرعاً فى طلبه زيد بن حارثة وعمار بنُ ياسر ، فوجداه بالجماء^(١) فصرَّبه زيد بالسيف ، وقال عمار : إنَّ لى فيه حقاً ، فرمياه بسهم فقتلاه ، ثم انصرفا إلى المدينة بخبره ، ويقال : إنه أدرك على ثمانية أميال من المدينة ، فلم يزل زيدٌ وعمار يرميانه بالنبل حتى مات .

قال : ومعاوية هذا أبو عائشة بنت معاوية أمَّ عبد الملك بن مروان .

قال : وذكر الواقديّ فى كتابه مثل هذه الرواية سواء .

قال البلاذرىّ : وقال ابن الكلبيّ : إنَّ معاوية بن المغيرة جدَّع أنفَ حمزة يومَ أحد وهو قتيل ، فأخذ بقرب أحد، فقتل على أحد بعد انصراف قريش بثلاث، ولا عقب له إلا عائشة أمَّ عبد الملك بن مروان . قال : ويقال : إنَّ علياً عليه السلام هو الذى قتل معاوية بن المغيرة^(٢) .

قلت : ورواية ابن الكلبيّ عندى أصحّ، لأنَّ هزيمة المشركين كانت فى الصدمة الأولى عقيبَ قتلِ بنى عبد الدار أصحاب الألوية ، وكان قتل حمزة بعد ذلك لما كرت خالد بنُ الوليد الخيل من وراء المسلمين، فاختلفوا ، وانتقض صفهم ، وقتل بعضهم بعضاً، فكيف يصحّ أن يجتمع لمعاوية كونه قد جدَّع أنفَ حمزة ، وكونه قد انهزم مع المشركين فى الصدمة الأولى ! هذا متناقض ، لأنَّه إذا كان قد انهزم فى أوّل الحرب استحال أن يكون

(١) الجماء ؟ تطلق على ثلاثة مواضع بالمدينة .

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٧ ، ٣٣٨ مع تصرف واختصار .

حاضرا عند حمزة حين قُتِل. والصحيح ما ذكره ابن الكلبي من أنه شهد الحرب كلها،
وجدع أنف حمزة ، ثم حصل في أيدي المسلمين بعد انصراف قريش ، لأنه تأخر عنهم
لعارضٍ عَرَضَ له فأدرکه حينه ، فقتل .

القول في مقتل المجذّر

ابن زياد البلويّ والحارث بن يزيد بن الصامت

قال الواقديّ : كان المجذّر بن زياد البلويّ حليف بني عوف بن الخزرج ممن شهد
بَدْرًا مع رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت له قصة في الجاهلية قبل قدوم النبي صلى الله
عليه وآله المدينة، وذلك أنّ حُضَيْرَ الكَتَّابِ، والد أُسَيْدِ بن حُضَيْرِ، جاء إلى بني عمرو بن
عوف ، فكلم سويد بن الصامت وخوات بن جُبَيْرِ وأبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر - ويقال
سهل بن حُنَيْفٍ - فقال : هل لكم أن تزوروني فأسقيكم شرابا ، وأنحر لكم، وتقيمون
عندي أيّما ! قالوا : نعم ، نحن نأتيك يوم كذا ، فلما كان ذلك اليوم جاءوه فنحّر لهم
جزورا ، وسقاهم خمرا ، وأقاموا عنده ثلاثة أيّام حتى تغير اللحم - وكان سويد بن
الصامت يومئذ شيخا كبيرا - فلما مضت الأيّام الثلاثة قالوا : ما نرانا إلا راجعين إلى
أهلنا ! فقال حُضَيْرُ : ما أحببتم ! إن أحببتم فأقيموا ، وإن أحببتم فانصرفوا ،
فخرج الفتيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من الثمل^(١)؛ فمروا لاصقين بالحرّة
حتى كانوا قريبا من بني عيينة^(٢) ، فجلس سويد يبول وهو ثملٌ سُكْرًا ، فبصُر به
إنسان من الخزرج ، فخرج حتى أتى المجذّر بن زياد ، فقال : هل لك في الغنيمة الباردة !
قال : ماهي ؟ قال : سويد بن الصامت، أعزّل لاسلّاح معه ، ثملٌ ، فخرج المجذّر بن زياد
بالسيف مُصَلَّتًا ، فلما رآه الفتيان وها أعزّلان لاسلّاح معهما وكيًا ، والعداوة بين الأوس

(٢) الواقدي : « غصينة » .

(١) الثمل بفتحين : أي السكر .

والخزرج شديدة . فانصرَفاً مسرعين ، وثبت الشيخُ ولا حراكَ به ، فوقف المجذّر بنُ زياد ، فقال : قد أمكنَ اللهُ منك ! قال : ما تريد بي ؟ قال : قَتَلَك . قال : فارفع عن الطعام ، واخفض عن الدِّماغ ، فإذا رجعتَ إلى أمِّك ، فقل : إني قتلْتُ سويدَ بنَ الصامت . فقتلَهُ ، فكان قتلهُ هو الذي هيَّجَ وقعة بُعث . فلما قَدِمَ رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله المدينة أسلمَ الحارثُ بنُ سويد بنِ الصامت ، وأسلمَ المجذّرُ فشهيداً بدرًا ، فجعلَ الحارثُ بنُ سويد يطلبُ المجذّرَ في المعركة ليقْتله بأبيه ، فلا يقدرُ عليه يومئذٍ ؛ فلما كان يومُ أحدٍ وجالَ المسلمون تلكَ الجؤلةَ ، أتاه الحارثُ من خلفه فضربَ عنقه ، فرجع رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله إلى المدينة ، ثم خرج إلى حمراءِ الأسد ، فلما رجع من حمراءِ الأسد أتاه جبرائيلُ عليه السلامُ ، فأخبره أنَّ الحارثُ بنَ سويد قتلَ المجذّرَ غيلةً ، وأمره بقتله ، فركب رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله إلى قُبَاءَ في اليومِ الذي أخبره جبرائيلُ في يومِ حارٍ - وكان ذلكَ يوماً لا يركبُ فيه رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله إلى قُبَاءَ ، وإنما كانت الأيامُ التي يأتي فيها رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله قُبَاءَ يومَ السبت . ويومَ الاثنين - فلما دخل رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله مسجدَ قُبَاءَ صلى فيه ماشاء اللهُ أن يصليَ ، وسمعتُ الأنصارُ فجاءوا يسلمون عليه ، وأنكروا إتيانه تلكَ الساعةَ ، في ذلكَ اليوم . فجلس عليه السلامُ يتحدثُ ويتصفَّحُ الناسَ حتَّى طلعَ الحارثُ بنُ سويد في ملحفةٍ مورَّسةٍ ^(١) ، فلما رآه رسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله دعا عُويمَ بنَ ساعدة فقال له : قدَّم الحارثُ بنُ سويد إلى بابِ المسجدِ فاضربَ عنقه بمجذّر بنِ زياد ، فإنه قتلَهُ يومَ أحدٍ . فأخذهُ عويمُ ، فقال الحارثُ : دعني أكلِّمَ رسولَ اللهِ - ورسولُ اللهُ صلى اللهُ عليه وآله يريد أن يركبَ ، ودعا بحماره إلى بابِ المسجدِ - فجعلَ الحارثُ يقول : قد والله قتلتهُ يا رسولَ اللهِ ، وما كان قتلي إِيَّاه رجوعاً عن الإسلامِ

(١) مورسة : مصبوغة بالورس وهو نبات باليمن معروف .

ولا ارتياها فيه ، ولكنّه حميّة الشيطان ، وأمرٌ وكتُ فيه إلى نفسى ، وإني أتوب إلى الله وإلى رسوله ممّا عمّلت ، وأخرج دينه وأصوم شهرين متتابعين ، وأعتق رقبةً . وأطعم ستين مسكينا ، إني أتوب إلى الله يا رسول الله ! وجعل يمسك بركاب رسول الله صلى الله عليه وآله وبنو المجذّر حضور ، لا يقول لهم رسولُ الله صلى الله عليه وآله شيئا ، حتى إذا استتوعب كلامه قال : قدّمه ياعويم فاضرب عنقه . ورَكِب رسول الله صلى الله عليه وآله فقدّمه عويم بن ساعدة على باب المسجد ، فضرب عنقه .

قال الواقديّ : ويقال : إنّ الذي أعلم رسول الله قتلَ الحارثَ المجذّر يومَ أحدٍ حبيب بن يساف ، نظر إليه حين قتله ، فجاء إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فأخبره ، فركب رسول الله صلى الله عليه وآله يتفحص عن هذا الأمر ، فبينما هو على حماره نزل جبرائيل عليه السلام ، فخبّره بذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله عويمًا فضرب عنقه ، ففي ذلك قال حسان :

ياحارٍ في سنة من نوم أولكم أم كنت ويحك مغترًا بجبريل^(١)
فأمّا البلاذريّ فإنه ذَكَر هذا ، وقال : ويقال إنّ الجلّاس بن سويد بن الصامت هو الذي قتل المجذّر يومَ أحدٍ غيلةً ؛ إلا أنّ شعر حسان يدلّ على أنه الحارث^(٢) .

قال الواقديّ والبلاذريّ : وكان سويد بن الصامت حين ضربه المجذّر بقى قليلا ثم مات ، فقال قبل أن يموت يخاطب أولاده :

أبلغ جُلاسا وعبد الله مألِكَةً وإن دعيت فلا تخذُلها حارِ

(١) ديوانه ٣١٨ ، وبعده :

أم كنت يابن زياد حين تقتله
وقلتم لن نرى والله مبصركم
محمد والعزيرُ الله يُخبره
بما يُكنُّ سريرات الأقاويل
بغرة في فضاء الله مجهول
وفيكُم مُحكمُ الآياتِ والقيلِ

(٢) أنساب الأشراف ١ : ٣٣٢ .

اقتل جذارة إذ ما كنت لاقِيهم والحى عَوْفاً على عُرْفٍ وإنكارٍ
قال البلاذرىّ: جذرة وجذارة أخوان ، وهما ابنا عوف بن الحارت بن
الخزرج^(١).

قلت : هذه الروايات كما ترى ، وقد ذكر ابن ماكولا في «الإكمال» أنّ الحارث بن
سويد قتل المجذّر غيلةً يوم أحد ، ثمّ التحق بمكة كافراً ، ذكره في حرف الميم من هذا
الكتاب ، وهذا هو الأشبه عندي .

القول فيمن مات من المسلمين بأحد جملة

قال الواقديّ : ذكر سعيد بن المسيّب وأبو سعيد الخدريّ أنه قتل من الأنصار
خاصّةً أحدٌ وسبعون ، ويمثله قال مجاهد .

قال : فأربعةٌ من قريش ، وهم حمزة بن عبد المطلب ؛ قتله وحشىّ ، وعبد الله بن
جحش بن رئاب ؛ قتله أبو الحكم بن الأحنس بن شريق ، وشماس بن عثمان
ابن الشريد من بني نخزوم ؛ قتله أبيّ بن خلف ، ومصعب بن عمير ؛ قتله
ابن قميّة .

قال : وقد زاد قوم خامسا ، وهو سعدٌ مولى حاطب من بني أسد بن عبد العزى . وقال
قوم أيضاً : إنّ أبا سلمة بن عبد الأسد الخزومىّ جرحَ يومَ أحد ، ومات من تلك الجراحة
بعد أيام .

قال الواقديّ : وقال قوم : قتل ابنا الهيب من بني سعد بن ليث ، وهما عبد الله

وعبد الرحمن ورجلان من بني مُزَيْنَةَ وهما وهَب بن قابوس وابن أخيه الحارث بن عُتْبَةَ ابن قابوس ؛ فيكون جميعُ من قُتِلَ من المسلمين ذلك اليوم نحو أحد وثمانين رجلاً، فأما تفصيل أسماء الأَنْصار فمذكورٌ في كتب المحدثين ، وليس هذا الموضع مكان ذكره .

القول فيمن قتل من المشركين بأحد

قال الواقديّ : قتل من بني عبد الدار طلحةُ بن أبي طلحة صاحبُ لواء قريش ؛ قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام مبارزة ، وعثمان بن أبي طلحة ؛ قتله حمزةُ بن عبدالمطلب وأبو سعيد بن أبي طلحة ؛ قتله سعدُ بن أبي وقاص ، ومسافع بن طلحة بن أبي طلحة ، قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، وكلاب بن طلحة بن أبي طلحة ؛ قتله الزبير بن العوام والحارث بن طلحة بن أبي طلحة ، قتله عاصم بن ثابت ، والجلال بن طلحة بن أبي طلحة ؛ قتله طلحة بن عبيد الله ، وأرطاة بن عبد شُرْحَبِيل ؛ قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقارظ^(١) بن شُرَيْح بن عثمان بن عبد الدار - ويُروى قاسط بالسّين والطاء المهملتين - . قال الواقديّ : لا يُدرى من قتله ، وقال البلاذريّ^(٢) : قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وصواب مولاهم : قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام وقيل : قتله قزمان^(٣) - وأبو عزيز ابن عمير أخو مُصعب بن عمير ، قتله قزمان ، فهؤلاء أحد عشر .

ومن بني أسد بن عبدالمزنيّ عبدُ الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد ؛ قتله أبو دُجَانَةَ في رواية الواقديّ ، وفي رواية محمد بن إسحاق ، قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام . وقال البلاذريّ : قال ابن الكلبيّ : إنّ عبد الله بن حميد قتل يوم بدر

(١) الواقديّ : « فارط » ، والبلاذريّ : « قاسط » .

(٢) أنساب الأشراف : ١ : ٣٣٤ .

(٣) أنساب الأشراف : « غيره » .

ومن بنى زُهْرَةَ أبو الحكم بن الأخنس بن شَرِيْق ؛ قتله عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وسباع بن عبد العزّي أنخزاعي - واسم عبد العزّي عمرو بن نضلة ابن عبّاس بن سليم ، وهو ابن أم أثمار الحجّامة بمكّة - قتله حمزة بن عبد المطلب ؛ فهذان رجلان .

ومن بنى مخزوم أميّة بن أبي حذيفة بن المغيرة ؛ قتله عليّ عليه السلام ، وهشام بن أبي أميّة بن المغيرة ؛ قتله قزمان ، والوليد بن العاص بن هشام قتله قزمان ، وخالد بن أعلم العقيلي ؛ قتله قزمان ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ؛ قتله الحارث بن الصّمة ، فهؤلاء خمسة .

ومن بنى عامر بن لؤيّ عبّيد بن حاجز ؛ قتله أبو دُجّانة ، وشَيْبَة بن مالك بن المضرب قتله طلحةُ بن عبّيد الله . وهذان اثنان .

ومن بنى جُمَحْ أبيّ بن خَلْف ؛ قتله رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ، وأبو عزّة ، قتله عاصمُ بن ثابت صَبْرًا بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله ، فهذان اثنان .

ومن بنى عبد مناة بن كنانة خالدُ بن سُفْيَان بن عُوَيْف ، وأبو السّعْثَاء ابن سُفْيَان بن عُوَيْف ، وأبو الحَمْرَاء بن سُفْيَان بن عُوَيْف ، وغراب بن سُفْيَان ابن عُوَيْف ، هؤلاء الإخوة الأربعة قَتَلَهُم عليّ بن أبي طالب عليه السلام في رواية محمد بن حبيب .

فأما الواقديّ فلم يذكُر في باب من قُتِل من المشركين بأحد لهم قاتلا معينا، ولكنه ذكر في كلام آخر قبل هذا الباب أنّ أبا سَبْرَةَ بن الحارث بن علقمة قَتَلَ أحد بنى سفّيان ابن عُوَيْف ، وأنّ رشيدا الفارسيّ مولى بنى معاوية لقي آخر من بنى سُفْيَان بن عُوَيْف مقنعا في الحديد وهو يقول : أنا ابن عُوَيْف ؛ فيعرض له سعد مولى حاطب ، فضرّ به ابن

عوفيف ضربةً جَزَّاهُ باثنتين ، فأقبل رشيد على ابن عوفيف فضربه على عاتقه - فقطع الدرع - حتى جزله اثنتين وقال : خذها وأنا الغلام الفارسي ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يراه ويسمعه : ألا قلت : أنا الغلام الأنصاري ! قال : فيعرض لرشيد أخٌ للمقتول أحد بني سفيان بن عوفيف أيضا ، وأقبل يعدو نحوه كأنه كلبٌ ، يقول : أنا ابن عوفيف ، ويضربه رشيد أيضا على رأسه وعليه المغفر ، ففلق رأسه ، وقال : خذها وأنا الغلام الأنصاري ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : أحسنت يا أبا عبد الله ! فكناه رسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ ولا ولد له .

قلت : فأما البلاذريّ فلم يذكر لهم قاتلا ، ولكنّه عدّه في جملة من قُتل من المشركين بأحد ؛ وكذلك ابن إسحاق لم يذكر من قتلهم ، فإنّ صحّت رواية الواقديّ فعلى عليه السلام لم يكن قد قتل منهم إلا واحدا ، وإن كانت رواية ابن حبيب صحيحة فالأربعة من قتلّاه عليه السلام . وقد رأيتُ في بعض كتب أبي الحسن المدائنيّ أيضا أن عليّا عليه السلام هو الذي قتل بني سفيان بن عوفيف يوم أُحد ، وروى له شعرا في ذلك .

ومن بني عبد شمس معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، قتله عليٌّ عليه السلام في إحدى الروايات ، وقيل : قتله زيد بن حارثة وعمّار بن ياسر .

لجميع من قُتل من المشركين يوم أُحد ثمانية وعشرون ، قتل عليٌّ عليه السلام منهم - ما اتفق عليه وما اختلف فيه - اثني عشر ؛ وهو إلى جملة القتلى كعدّة من قتل يوم بدر إلى جملة القتلى يومئذ ، وهو قريبٌ من النصف .

القول في خروج النبي صلى الله عليه وآله وبعد انصرافه من أحد

إلى المشركين ليوقع بهم على ما هو به من الوهن

قال الواقدي: بلغ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المشركين قد عزموا أن يردوا إلى المدينة فينهبوها، فأحب أن يريهم قوّة، فصلى الصبح يوم الأحد لثمان خلون من شوال ومعه وجوه الأوس والخزرج، وكانوا باتوا تلك الليلة في بابه يحرسونه من البيات، فيهم سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ، وأحباب بن المنذر، وأوس بن خولي، وقتادة بن النعمان في عدّة منهم. فلما انصرف من صلاة الصبح أمر بلالا أن ينادى في الناس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب عدوّكم، ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس، فخرج سعد بن معاذ راجعا إلى قومه يأمرهم بالسير، والجراح في الناس فاشية، عامّة بنى عبد الأشهل جريح، بل كلّها، فجاء سعد بن معاذ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تطلبوا عدوّكم. قال: يقول أسيد بن حضير - وبه سبع جراحات، وهو يريد أن يداويها: سمعا وطاعة لله ولرسوله! فأخذ سلاحه ولم يعرّج على دواء جراحه، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم. وجاء سعد بن عبادة قومه بنى ساعدة، فأمرهم بالسير، فلبسوا ولحقوا، وجاء أبو قتادة أهل خربا، وهم يداوون الجراح، فقال: هذا منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم بطلب العدو، فوثبوا إلى سلاحهم، ولم يعرّجوا على جراحاتهم، فخرج من بنى سلّمة أربعون جريحا، بالطّيفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحا، وبخراش بن الصّمة عشر جراحات، وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحا، وبقطبة بن عامر بن خديج بيده تسع جراحات، حتى وافوا النبي صلى الله عليه وسلم بقبر أبي عتبة، وعليهم السلاح،

(١) مغازي الواقدي ٣٢٥ وما بعدها.

وقد صفوا الرسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما نظر إليهم والجراح فيهم فاشية ، قال : اللهم ارحم بني سلمة .

قال الواقدي : وحدثني عتبة بن جيرة عن رجال [من] ^(١) قومه ؛ أن عبد الله بن سهل ورافع بن سهل من بني عبد الأشهل رجعا من أحد وبهما جراح كثيرة وعبد الله أتقاهما جرحا ، فلما أصبحا وجاء سعد بن معاذ قومه يخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بطلب العدو ، قال أحدهما لصاحبه : والله إن تركنا غزاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لغبن ، والله ما عندنا دابة نركبها ، ولا ندرى كيف نصنع ! قال عبد الله انطلق بنا . قال رافع : لا والله ما بي مشى ، قال أخوه : انطلق بنا نقصد ونجوز ، وخرجا يزحفان ، فضعف رافع ، فكان عبد الله يحمله على ظهره عقبه ، ويمشى الآخرة عقبه ، حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العشاء وهم يوقدون النيران ، فأتى بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حرسه تلك الليلة عبّاد بن بشر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما : ما حبسكما ؟ فأخبراه بعلمتهما ، فدعا لهما بخير ، وقال : إن طالت لكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل ، وليس ذلك بخير لكما .

قال الواقدي : وقال جابر بن عبد الله : يارسول الله ؛ إن مناديا نادى ألا يخرج معنا إلا من حضر القتال بالأمس ، وقد كنت حريصاً بالأمس على الحضور ، ولكن أبي خلفني على أخوات لي ، وقال : يا بني لا ينبغي لك أن تدعهن ولا رجل معهن ، وأخاف عليهن ، وهن نسيات ضعاف ، وأنا خارج مع رسول الله صلى الله عليه وآله لعل الله يرزقني الشهادة ، فتخلفت عليهن ، فاستأثر علي بالشهادة ، وكنت رجوتها ، فأذن لي يارسول الله أن أسير معك . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله . قال جابر : فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال بالأمس غيري ، واستأذنه رجال لم يحضروا القتال . فأبى ذلك

(١) من الواقدي .

عليهم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله بلوائه وهو معقود لم يحلّ من أمس ، فدفعه إلى عليّ عليه السلام ، ويقال : دَفَعَهُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مجروح ، في وجهه أثر الخلتين ، ومشجوج في جبهته في أصول الشعر ، ورباعيته قد شظيت ، وشفته قد كُلمت من باطنها ، ومنكبه الأيمن مُوهنٌ بضربة ابن قميثة ، ورُكبتاه تجحوشتان ؛ فدخل المسجد فصلى ركعتين ، والناس قد حشدوا ، ونزل أهل العوالي^(١) حيث جاءهم الصريح^(٢) . ودعا بفرسه على باب المسجد ، وتلقاه طلحة بن عبيد الله ، وقد سمع . المنادى ، فخرج ينظر متى يسير رسول الله صلى الله عليه وآله ! فإذا هو وعليه الدرّع والمغفر لا يُرى منه إلا عيناه ، فقال : ياطلحة ، سلاحك ، قال : قريبا ، قال طلحة : فأخرج ، وأعدو فألبس درعى وأخذ سيفي ، وأطرح درّقتي في صدري ، وإنّ بي لتسع جراحات ، ولأنا أهتمّ بجراح رسول الله صلى الله عليه وآله منى بجراحي ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله على طلحة ، فقال : أين ترى القوم الآن؟ قال : هم بالسيالة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذلك الذى ظننت ، أما إنهم ياطلحة ن ينالوا منّا مثل أمس حتى يفتح الله مكة علينا ، قال : وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة نفرٍ من أسلم طليعةً في آثار القوم ، فانقطع أحدهم ، وانقطع قبائل نعل الآخر ، ولحق الثالث بقريش وهم بحمراء الأسد ، ولهم زجل^(٣) يأترون^(٤) في الرجوع إلى المدينة ، وصفوان بن أمية ينهاهم عن ذلك ، ولحق الذى انقطع قبائل نعله بصاحبه ، فبصرت قريش بالرجلين ، فعظفت عليهما ، فأصابوها ، وانتهى المسلمون إلى مصرعهما بحمراء الأسد ، فقبرها رسول الله صلى الله عليه وآله في قبر واحد ، فهما القرينان .

(١) العوالي : ضيعة بينها وبين المدينة أربعة أميال .

(٢) الصريح : المغيث .

(٣) زجل ، أى صوت وجلبة .

(٤) يأترون : يتشاورون .

قال الواقديّ : اسمها سليط ونُعمان .

قال الواقديّ : قال جابر بن عبد الله : كانت عامّة أزوادنا ذلك اليوم التمر ، وحمل سعد بن عبادَة ثلاثين بعيراً تمرّاً حتى وافت حمراء الأسد ، وساق جزراً ، فنَحروا في يوم ثنتين ، وفي يوم ثلاثاً ، وأمرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بجمع الخُطَب ، فإذا أمسوا أمرهم أن يُوقِدوا النيران : فيوقد كل رجل نارا ، فلقد كنا تلك الليلة نوّقد خمسمائة نار حتى نَزى من المكان البعيد ، وذهب ذكر معسكرنا ونيراننا في كل وجه ، وكان ذلك ممّا كَبَت اللهُ به عدونا .

قال الواقديّ : وجاء معبد بن أبي معبد الخزاعيّ - وهو يومئذ مشرك - إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكانت خُزاعة سلماً^(١) للنبيّ صلى الله عليه وآله ، فقال : يا محمد عزّ علينا ما أصابك في نفسك ، وما أصابك في أصحابك ، ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك ، وأنّ المصيبة كانت بغيرك ، ثم مضى معبد حتى يجد أبا سفيان وقريشا بالروحاء^(٢) وهم يقولون : لا محمداً أصبتم ، ولا الكواعب أردقم ، فبئسما صنعتم ! وهم يجمعون على الرجوع إلى المدينة ، ويقول قائلهم فيما بينهم : ما صنعنا شيئاً ، أصبنا أشرافهم ، ثم رجعنا قبل أن نستأصلهم ، وقبل أن يكون لهم وفرّ ، وكان المتكلم بهذا عكرمة بن أبي جهل ، فلما جاء معبد إلى أبي سفيان : قال : هذا معبد ، وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟ قال : تركت محمداً وأصحابه خَلَفني يتحرّقون عليكم بمثل النيران ، وقد اجتمع معه من تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج ، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم فيثأروا منكم ، وقد غضبوا^(٣) لقومهم غضبا شديداً ولمن أصبتم من أشرافهم . قالوا : ويحك ، ماتت قول ؟ قال : والله ما أرى

(١) ساما ، أى مسالمون .

(٢) الروحاء : قطيعة كانت لعدى بن حاتم ، على نحو أربعين ميلاً من المدينة .

(٣) الواقديّ : « وغضبوا » .

أَنْ تَرْتَحِلُوا حَتَّى تَرَوْا نَوَاصِيَ^(١) الْخَيْلِ ، وَلَقَدْ^(٢) حَمَلْنِي مَا رَأَيْتُ مِنْهُمْ أَنْ قَلْتُ
أَبْيَاتًا ، قَالُوا : وَمَاهِي ؟ فَأَنْشَدَهُمْ هَذَا الشَّعْرَ :

كَادَتْ تَهْدُّ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ^(٣)
تَعْدُو بِأَسْدٍ ضِرَاءٍ لَا تَنَابِلَةٌ^(٤) عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَازِيلِ^(٥)
فَقَلْتُ وَبِلُ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِهِمْ إِذَا تَغَطَّمَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجَيْلِ !^(٦)

وقد كان صفوان بن أمية ردّ القوم بكلامه قبل أن يطلع معبد ، وقال لهم صفوان :
يا قوم ، لا تفعلوا ؛ فإن القوم قد حربوا^(٧) ، وأخشى أن يجمعوا عليكم من تخلف من الخزرج ؛
فارجعوا والدولة لكم ، فإنني لا آمن إن رجعت إليهم أن تكون الدولة عليكم . قال :
فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أرشدتم صفوان وما كان برشيد ، ثم
قال : والذي نفسى بيده لقد سوّمت لهم الحجارة ، ولو رجعوا لكانوا كأئس الذاهب ،
قال : فانصرف القوم سراعا خائفين من الطلب لهم ، ومرّ بأبي سفيان قومًا من
عبد القيس يريدون المدينة ، فقال لهم : هل أنتم مبلغو محمد وأصحابه ما أرسلكم به ؛
على أن أوقر لكم أبا عرّكم زبيبا غداً بعكاظ ؛ إن أنتم جئتموني ! قالوا : نعم ، قال : حيثما

(١) الواقدي : « حتى ترى نواصي الخيل » . (٢) الواقدي : « ثم قال معبد . . . » .
(٣) الأبيات في ابن هشام ٣ : ٥٤ . تهدّ ، أى تسقط من الإعياء . والجرد : الخيل العتاق .
والأبابيل : الجماعات .
(٤) ابن هشام : « تردى بأسد كرام » . والتنايلة : القصار .
(٥) الميل : جمع أميل ، وهو الذى لا رمح له . والمعازيل : جمع معزال ؛ وهو من لا سلاح معه .
(٦) تغطّمت : اهتزت واضطربت . والبطحاء : السهل من الأرض . والجيل : الصنف من الناس ،
وبعدها في ابن هشام :

إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبَسَلِ ضَاحِيَةٌ
لِكُلِّ ذِي إِرِيَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُولٍ
مَنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لَا وَخَشَ قَنَابِلُهُ
وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالْقَيْلِ

(٧) حربوا ، أى غضبوا .

لقيم محمدًا وأصحابه فأخبروهم أننا قد أجمعنا الرجعة إليهم ، وأنا آثاركم. وانطلق أبو سفيان إلى مكة ، وقدم الركبُ على النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه بالحمراء فأخبروهم بالذي أمرهم أبو سفيان ، فقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فأُنزل ذلك في القرآن ، وأرسل معبدٌ رجلاً من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه أنه قد انصرف أبو سفيان وأصحابه خائفين وجلين ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ثلاث إلى المدينة .

الفصل الخامس فى شرح غزاة مؤتة

نذكرها من كتاب الواقدى - ويزيد على ذلك مارواه محمد بن إسحاق

فى كتابه على عادتنا فيما تقدم

قال الواقدى^(١) حديثي^(١) ربيعة بن عثمان عن عمر بن الحكم ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله الحارث بن جُمير الأزديّ فى سنة ثمان إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شُرْحَيْيل بن عمرو الغسانيّ ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام ، قال : لعلك من رُسل محمد . قال : نعم ، فأمرَ به فأوثقَ رِباطاً ثم قدّمه فصرَبَ عنقه ، ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وآله رسولٌ غيره ، وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، فاشتدّ عليه ، وندب الناس وأخبرهم بمقتل الحارث ، فأسرَعوا وخرجوا ، ففسكروا بالجرف ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وآله الظُّهرَ جلسَ وجلسَ أصحابُه حوله ، وجاء النعمان بن مهضّ اليهوديّ فوقفَ مع الناس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : زيد بن حارثة أمير الناس ، فإن قُتل زيدُ بنُ حارثة فجعفرُ بنُ أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بنُ رَواحة ، فإن أصيب ابن رَواحة فليرض المسلمون من بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم . فقال النعمان بن مهضّ : يا أبا القاسم ، إن كنت نبياً فسيصاب من سميت قليلاً كانوا أو كثيراً ، إن الأنبياء فى بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سُمى مائة أصيبوا جميعاً . ثم جعل اليهوديّ يقول لزيد بن حارثة : اعهد فلا ترجع إلى محمد أبداً إن كان نبياً . قال زيد : أشهد أنه نبيّ صادق فلما أجمعوا

(١) أخبار غزوة مؤتة فى الواقدى ص ٤٠١ وما بعدها ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٧ وما بعدها .

المسير وَعَقَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَهُمُ اللَّوَاءَ بِيَدِهِ دَفَعَهُ إِلَى زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ، وَهُوَ لَوَاءٌ أبيض ، ومشي الناس إلى أمراء رسول الله صلى الله عليه وآله يودّ عونهم ويدعون لهم وكانوا ثلاثة آلاف ، فلما ساروا في معسكرهم ناداهم المسلمون : دَفَعَ اللَّهُ عَنْكُمْ ، ورددكم صالحين سالمين غانمين ، فقال عبد الله بن رَوَاحَةَ :

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةَ ذَاتِ فَرَعِجٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَ (١)
أَوْ طَعْنَةً بِيَدِي حِرَّانَ مَجْهَزَةً بِحَرْبَةٍ تَنْفُذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا (٢)
حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَيَّ جَدَّتِي يَا أَرْشِدَ اللَّهِ مِنْ غَايِ قَدَرَشَدَا (٣)

قلت : اتفق المحدّثون على أنّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ كان هو الأمير الأوّل ، وأنكرت الشيعة ذلك ، وقالوا : كان جعفر بن أبي طالب هو الأمير الأوّل ، فإن قُتِلَ فزيد بن حارثة ، فإن قتل فبعد الله بن رَوَاحَةَ ، وَرَوَوْا فِي ذَلِكَ رَوَايَاتٍ ، وقد وجدت في الأشعار التي ذكرها محمد بن إسحاق في كتاب المغازي ما يشهد لقولهم ، فمن ذلك ما رواه عن حسان ابن ثابت وهو :

تَأْوَبَنِي لَيْلٌ بِيَثْرَبَ أَعْسَرُ وَهَمٌّ إِذَا مَانُوْمَ النَّاسُ مُسَهْرُ (٤)
لَذِ كَرَمِي حَيْبٍ هَيَّجَتْ لِي عَبْرَةً سَفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذْكَرُّ
بَلَى إِنْ فَقَدَانَ الْحَيْبِ بَلِيَّةٌ (٥) وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ !
فَلَا يُبْعِدَنَّ اللَّهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا بِمَوْتَةٍ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحِينَ جَعْفَرُ
وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعا وأسيافُ المنيّة تَنْخَطِرُ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٩ . ذات فرج ؛ أي واسعة ، والزبد ، أصله ما يعلو الماء إذا غلا ؛ وأراد هنا ما يعلو الدم الذي ينفجر من الطعنة .

(٢) مجهزة : سريعة القتل ، وتنفذ الأحشاء : تحرقها وتصل إليها .

(٣) ابن هشام : « وقد » .

(٤) ديوانه ١٧٩ - ١٨١ ، وسيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٠ - ٤٤٢ . تأوَبني : عاودني ورجع إليّ ،

ومسهر : داع إلى السهر . (٥) الديوان : « بلاء وفقدان الحبيب » .

رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا
 غَدَاةَ غَدْوًا بِالْمُؤْمِنِينَ يَقُودُهُمْ
 أَغْرَثُ كَضْوَاءَ الْبَدْرِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 فَطَاعَنَ حَتَّى مَالَ غَيْرَ مُوسَدٍ
 فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ ثَوَابُهُ
 وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
 هُمْ جِبِلُّ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلُهُمْ
 بِهَا لَيْلٌ مِنْهُمْ جَعْفَرٌ وَابْنُ أُمِّهِ
 وَحِزَّةٌ وَالْعَبَّاسُ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ
 بِهِمْ تُفْرَجُ الْغَمَّاءُ مِنْ كُلِّ مَنَازِقٍ
 هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ
 وَمِنْهَا قَوْلُ كَعْبِ بْنِ مَالِكِ الْأَنْصَارِيِّ مِنْ قَصِيدَةٍ أَوْهَا (٣) :

نَامَ الْعَيُونُ وَدَمَعُ عَيْنِكَ يَهْمُلُ
 وَجَدًّا عَلَى النَّفْرِ الَّذِينَ تَتَابَعُوا
 سَارُوا أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ كَأَنَّهُمْ
 إِذِيهَتَدُونَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَالِيهِ
 حَتَّى تَقْوَضَتِ الصَّفُوفُ وَجَعْفَرٌ
 سَحًّا كَمَا وَكَفَ الرَّبَابُ الْمَسْبِلُ (٤)
 قَتَلِي بِمَوْتَةٍ أَسْنَدُوا لَمْ يُنْقَلُوا
 طَوْدٌ يَقُودُهُمُ الْهَزْبُ بِرِ الْمُسْبِلِ (٥)
 قَدَّامَ أَوْلِهِمْ وَنَعْمَ الْأَوَّلُ
 حَيْثُ التَّقَى جَمْعُ الْغَوَاةِ مَجْدَلٌ (٦)

- (١) شعوب : من أسماء المنية .
 (٢) ابن هشام والديوان : « محسر » .
 (٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٤٢ - ٤٤٥ ، برواية مخالفة .
 (٤) الرباب : السحاب ، والمسبل : المنصب ؛ وفي ابن هشام : « الطباب المتخصل » .
 (٥) المشبل : ذو الشبل ؛ والشبل : ولد الأسد .
 (٦) مجدل : مطروح على الجذالة ؛ وهي الأرض . وفي ابن هشام : « وعث الصفوف مجدل » .

فتغیر القمرُ المنیرُ لفقدهِ والشمس قد كسفت (١) وكادت تأفلُ
قومٌ علا بنیانهم من هاشم فرعٌ أشمٌ وسوؤدٌ متائلٌ (٢)
قومٌ بهم عصم الإله عباده وعليهم نزل الكتاب المنزلُ
فضلوا المعاشرة عفةً وتكرماً وتعمدت أخلاقهم من يجهل (٣)

قال الواقدي : فحدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، عن رافع بن إسحاق ، عن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله خطبهم فأوصاهم فقال : أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله وفي سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ، وإذ القيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث : فأيتن أجابوك إليها فاقبل منهم ، واكفف عنهم ، ادعهم إلى الدخول في الإسلام ، فإن فعلوا فاقبل واكفف . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى المهاجرين ، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين . وإن دخلوا في الإسلام وأختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجري عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم في النية ولا في الغنيمة شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية فإن فعلوا فاقبل منهم واكفف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم ، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوا أن تستنزلهم على حكم الله فلا تستنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا ! وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة وأرادوا أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسول الله ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وأصحابك ، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

(١) في ب « كاسفة » ، وهو مستقيم الوزن أيضا .

(٢) ابن هشام : وتعمدت أحلامهم .

(٣) ابن هشام : « ما يثقل » .

قال الواقدي : وحدثني أبو صفوان ، عن خالد بن يزيد ، قال : خرج النبي صلى عليه وآله مشيعاً لأهل مؤتة حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف ووقفوا حوله ، فقال : اغزوا بسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معزّلين الناس ، فلا تعرضوا لهم ، وستجدون آخرين للشيطان في رؤوسهم مفاحص ، فاقلموها بالسيف ، ولا تقتلن امرأة ، ولا صغيراً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا تقطن نخلاً ولا شجراً ، ولا تهدمن بناء .

قال الواقدي : فلما دعا ودّع عبد الله بن رواحة رسول الله صلى الله عليه وآله قال له : مرني بشيء أحفظه عنك ، قال : إنك قادم غداً بليلاً ، السجود فيه قليل ، فأكثره السجود . فقال عبد الله : زدني يا رسول الله ، قال : اذكركم الله ، فإنه عون لك على ما تطلب . فقام من عنده حتى إذا مضى ذاهباً رجع فقال : يا رسول الله : إن الله وثر يحب الوتر ، فقال : يا بن رواحة : ما عجزت فلا تعجز إن أسأت عشرًا أن تحسن واحدة . فقال ابن رواحة : لا أسألك عن شيء بعدها .

وروى محمد بن إسحاق أن عبد الله بن رواحة ودّع رسول الله صلى الله عليه وآله بشعر منه :

فثبت الله ما آتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذي نصرُوا
إني تفرستُ فيك الخير نافلةً فراسةً خالفتهم في الذي نظروا
أنت الرسولُ فمن يُحرّم نوافله والبشر منه فقد أودى به القدرُ

قال محمد بن إسحاق : فلما ودّع المسلمين بكى ، فقالوا له : ما يبكيك يا عبد الله ؟ قال : والله ما بي حب الدنيا ولا صباة إليها ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله

(١) الضرع : الصغير من كل شيء .

عليه وآله يقرأ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، ^(١) فاست أدري كيف لي بالصدّر بعد الورد ^(٢)!

قال الواقدي: وكان زيد بن أرقم يحدث، قال: كنت يتيماً في حجر عبد الله بن ربيعة، فلم أر والي يتيم كان خيراً لي منه، خرجت معه في وجهة إلى مؤتة وصبّ بي وصيبت به، فكان يرُدّني خلف رحله، فقال ذات ليلة وهو على راحلته بين شعبي رحله:

إذا بلغتني وحمّلت رحلي مسافة أربع بعد الحساء ^(٣)
فشأنك فانعمي وخالك ذمّ ولا أرجع إلى أهلي ورأى ^(٤)
وآب المسلمون وخلفوني بأرض الشام مشتهر الثواء
وزودني الأقارب من دعاء إلى الرحمن وانقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلّع نخل ولا نخل أسافلها رواء ^(٥)

فلما سمعتُ منه هذا الشعر بكيت: خففتني بالدرّة وقال: وما عليك يالكمع أن يرزقني الله الشهادة فاستريح من الدنيا ونصّبها، وهو مهمل وأحزانها وأحداها، وترجع أنت بين شعبي الرّحل!

قال الواقدي: ومضى المسلمون فنزلوا وادي القرى فأقاموا به أيّاماً، وساروا حتى نزلوا بمؤتة، وبلغهم أن هرقل ملك الروم قد نزل ماءً من مياه البلقاء في بكر وبهراء ولخّم وجذام وغيرهم مائة ألف مقاتل، وعليهم رجل من بلي، فأقام المسلمون ليلتين ينظرون.

(٢) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(١) سورة صميم : ٧١ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٢ .

(٤) ولا أرجع؛ جزم الفعل على الدعاء؛ يدعو على نفسه بأن يستشهد في هذه الواقعة ولا يرجع لأهله.

(٥) في البيت لقواء .

في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنخبره الخبر ؛ فيما أن يردنا أو يزيدنا رجالا ؛ فبينما الناس على ذلك من أمرهم جاءهم عبدُ الله بن رَواحة فشحهم ، وقال : والله ما كنا نقاتلُ الناسَ بكثرةِ عدَّة ولا كثرةِ سلاح ولا كثرةِ خَيْل ؛ إلاَّ بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به ، انطلقوا فقاتلوا ؛ فقدموا الله رأينا يومَ بدر ، وما معنا إلاَّ فرسان ، إنما هي إحدى الحسنيين : إما الظهورُ عليهم فذاك ما وعدنا اللهُ ورسولُه ، وليس لوعده خُلف ، وإما الشهادة فلحق بالإخوان ، نرافقهم في الجنان . فشجع الناس على قول ابن رَواحة .

قال الواقديّ : وروى أبو هريرة قال : شهدتُ مؤتة فلما رأينا المشركين رأينا مالا قبَل لنا به من العُدَد والسَّلاح والكَراع والذَّيَّاج والحريِر والذَّهب ، فبرقَ بَصري ، فقال لي ثابتُ بنُ أرقم : مالك يا أبا هريرة ؛ كأنك ترى جُوعا كثيرةً ! قلتُ : نعم ، قال : لم تشهدنا ببدر ، إنما لم نُنصِرْ بالكثرة .

قال الواقديّ : فالتقى القومُ ، فأخذ اللواءَ زيدُ بنُ حارثة ، فقاتلَ حتى قُتِل ، طعنوه بالرِّماح ، ثم أخذَه جعفرُ فنزل عن فرس له شقراءُ فعزَّ قَبها ، ثم قاتلَ حتى قُتِل . قال الواقديّ : قيل : إنه ضربَه رجل من الرُّوم فقطعه نصفين ، فوقع أحدُ نصفَيْه في كَرَمٍ هناك ، فوجد فيه ثلاثون أو بضعٌ وثلاثون جُرُحا .

قال الواقديّ : وقد روى نافعٌ عن ابنِ عمرَ أنه وُجِد في بدنِ جَعفر بنِ أبي طالب اثنتان وسبعون ضربة وطعنة بالسيوف والرِّماح .

قال البلاذريّ : قطعتُ يده ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقد أبدله اللهُ بهما جناحين يطيرُ بهما في الجنة » ؛ ولذلك سمى الطَّيَّار .

قال الواقديّ : ثم أخذ الراية عبدُ الله بن رَواحة فنكَل يسيراً ، ثم حمل فقاتل

حتى قُتِلَ ، فلما قُتِلَ انهزَم المسلمون أسوأ هزيمة كانت في كلِّ وجه ، ثم تراجعوا ؛ فأخذ اللواء ثابتُ بنُ أرقم ، وجعل يصيح بالأنصار ، فثابَ إليه منهم قليل ، فقال لخالد بن الوليد : خذ اللواء يا أبا سليمان ، قال خالد : لا بل خُذْهُ أنتَ فلكَ سنٌّ ، وقد شهدتَ بَدْرًا . قال ثابت : خذهُ أيُّها الرجل ، فوالله ما أخذتُهُ إلا لك . فأخذَهُ خالدٌ وحَمَلَ به ساعةً ، وجعل المشركون يحمِلون عليه حتى دَهَمَهُ منهم بَشْرٌ كثيرٌ ، فأنحازَ بالمسلمين ، وانكشفوا راجعين .

قال الواقديّ : وقد رُوِيَ أن خالدًا ثبت بالناس فلم ينهزموا ؛ والصحيح أن خالدًا انهزَم بالناس .

قال الواقديّ : حدَّثني محمد بن صالح ، عن عاصم بنِ عمرَ بنِ قتادة ، أن النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا لَقِيَ النَّاسُ بِمُوتِهِ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، وَكَشَفَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشَّامِ ، فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى مَعْرَكَتِهِمْ ، فَقَالَ : أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَجَبَّ إِلَيْهِ الْحَيَاةَ ، وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الدُّنْيَا ، فَقَالَ : الْآنَ حِينَ اسْتَحْكَمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تَحَبَّبَ إِلَيَّ الدُّنْيَا ! فَضَيَّ قُدُمًا حَتَّى اسْتَشْهَدَ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ، وَقَالَ : اسْتَغْفِرُوكَ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَهُوَ يَسْعَى ، ثُمَّ أَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَجَاءَ الشَّيْطَانُ فَمَنَّا الْحَيَاةَ وَكَرَّهَ إِلَيْهِ الْمَوْتَ ، وَمَنَّا الدُّنْيَا ، فَقَالَ : الْآنَ حِينَ اسْتَحْكَمَ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ تَمَنَّى الدُّنْيَا ! ثُمَّ مَضَى قُدُمًا حَتَّى اسْتَشْهَدَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَدَعَا لَهُ ، ثُمَّ قَالَ : اسْتَغْفِرُوا الْأَخْيَكُمُ فَإِنَّهُ شَهِيدٌ قَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، فَهُوَ يَطِيرُ فِيهَا بِجَنَاحَيْنِ مِنْ يَاقُوتٍ حَيْثُ شَاءَ . ثُمَّ قَالَ : أَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رُوَاحَةَ ، ثُمَّ دَخَلَ مَعْتَرِضًا فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ . قِيلَ : يَارَسُولَ اللَّهِ ، فَمَا أَعْتَرَضَهُ ؟ قَالَ : لَمَّا أَصَابَتْهُ الْجِرَاحُ نَبَّكَلَ فَعَاتَبَ نَفْسَهُ فَشَجَّعَ فَأَسْتَشْهَدَ ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ ؛ فَسَرَّيَ عَنْ قَوْمِهِ .

وروى محمد بن إسحاق^(١) قال : لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله زيدا وجعفر اسكت عن عبد الله بن رواحة حتى تغيرت وجوه الأنصار ، وظنوا أنه قد كان من عبد الله بعض ما يكرهون ، ثم قال : أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل شهيدا ، ثم قال : لقد رُفِعوا الى في الجنة فيما يرى النائم على سرورٍ من ذهب ، فرأيتُ في سرير ابن رواحة أزورارا عن سريري صاحبيهِ ، فقلت : لم هذا ؟ فقيل : لأنهما مضيا ؛ وتردد هذا بعض التردد ، ثم مضى .

قال : وروى محمد بن إسحاق أنه لما أخذ جعفر بن أبي طالب الراية قاتل قتالا شديداً حتى إذا لحمه القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها ؛ ثم قاتل القوم حتى قتل^(٢) ، فكان جعفر رضى الله عنه أول رجل عقر فرسه في الإسلام .

قال محمد بن إسحاق : ولما أخذ ابن رواحة الراية جعل يتردد بعض التردد ، ويستقدم نفسه يستنزها^(٣) ، وقال :

أقسمتُ يا نفسُ لتنزِلنَّه طَوْعاً وإلا سوف تُكرِهَنَّهُ
مالي أراكِ تَكرِهينِ الجنَّةَ إذ أجلب الناسُ وشدوا الرنَّة^(٤)
قد طالما قد كنتِ مطمئنَّة هل أنتِ إلا نطفة في شَنَّة^(٥) !
ثم ارتجز أيضاً فقال :

يا نفسُ إلا تُقتلى تموتِ هذا حِمامُ الموتِ قد صليتِ

(١) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٦ . (٢) بعدها في ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، وهو يقول :

يا حَبدا الجنَّةُ واقترابها طيبةً وبارداً شرابها
والرُّوم روم قد دنا عذابها كافرةً بعيدة أنسابها

* على إذ لاقيتها ضرابها *

(٣) ابن هشام : « يستنزل نفسه » . (٤) أجلب الناس : اختلطت أصواتهم وضجوا .

(٥) النطفة : القليل من الماء الصافي . والشنة : القرية الخلق .

وما تمنيتَ فقد أُعْطيتَ إن تفعلِي فعلهما هُديتِ

* وإِنْ تَأَخَّرتِ فقد شَقِيتِ *

ثم نَزَلَ عن فرسه فقاتَلَ ، فأتاه ابنُ عمِّ له بيضعةٌ من لحم ، فقال : اشدُّ بهذا صُلبك . فأخذها من يده ، فانتَهش^(١) منها نهشةً ثم سمع الحطمة^(٢) في ناحية من الناس ، فقال : وأنتَ يابن رِواحة في الدُّنيا ! ثم ألقاها من يده وأخذ سيفه ، فتقدَّم فقاتَلَ حتى قُتِل^(٣) .

قال الواقديّ : حدّثنِي داود بن سِنان ، قال : سمعتُ ثعلبة بن أبي مالك يقول : انكشَف خالد بنُ الوليد يومئذ بالناس حتى عَيَّرُوا بالفرار ، وتشاءم الناسُ به .

قال : ورَوَى أبو سعيد الخُدريّ ، قال : أقبل خالد بالناس منهزمين ، فلمَّا سمِع أهلُ المدينة بهم تلقَّوهم بالجُرف ، فجعلوا يَحْثُون في وجوههم التراب ويقولون : يا فُرَّار ، أفررتَ في سبيلِ الله ! فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله : ليسوا بالفرَّار ، ولكنهم كُرَّار ، إن شاء الله .

قال الواقديّ : وقال عبيدُ الله بنُ عبدِ الله بن عتبة : مالقَى جيشٌ بعثوا مَبَعثًا مالقَى أصحابُ مؤتة من أهل المدينة ، لقوهم بالشرِّ ، حتى إنَّ الرجلَ ينصرف إلى بيته وأهله فيدقُّ عليهم فيأبُونَ أن يفتَحُوا له يقولون : ألا تقدّمتَ مع أصحابك فقتلتَ ، وجلس الكُبراءُ منهم في بيوتهم استحياءً من الناس ، حتى أرسلَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله رجلاً ، يقول لهم : أنتم الكُرَّار في سبيلِ الله . فخرجوا .

قال الواقديّ : حدّثنِي مالك بن أبي الرِّجال عن عبدِ الله بن أبي بكر بن حَزَم ، عن أمِّ جعفر بنت محمد بن جعفر ، عن جدِّتها أسماء بنت عميس ، قالت : أصبحتُ في اليوم الذي أصيب فيه جعفر وأصحابه ، فأتاني رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وقد منَّأتُ أربعين منَّا من آدم ومجنَّتُ مجيني ، وأخذتُ بَنِيّ ، ففعلتُ وجوههم ودهنتُهم ، فدخلتُ على

(٢) الحطمة : زحام الناس .

(١) انتَهش منها : أخذ بضمه يسيراً .

(٣) سيرة ابن هشام ٣ : ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا أسماء ، أين بنو جعفر ؟ فجئت بهم إليه ، فضمهم وشمهم ، ثم ذرفت عيناه ، فبكى ، فقلت : يا رسول الله ، لعله بلغك عن جعفر شيء ! قال : نعم ، إنه قُتل اليوم ، فقمتُ أصيح ، واجتمع إلى النساء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : يا أسماء ، لا تقولى هُجراً ، ولا تضربى صدراً ، ثم خرج حتى دخل على ابنته فاطمة رضي الله عنها ، وهي تقول : واعمّاه ! فقال : على مثل جعفرٍ فلتبكِ الباكية . ثم قال : اصنعوا لآل جعفرٍ طعاماً ، فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .

قال الواقدي : وحدثني محمد بن مسلم ، عن يحيى بن أبي يعلى ؛ قال : سمعتُ عبد الله ابن جعفر يقول : أنا أحفظ حين دخل النبي صلى الله عليه وآله على أمي ، فنعى إليها أبي ، فأنظر إليه وهو يمسح على رأسي ورأس أخى ، وعيناه تهرقان بالدمع حتى قطرت إحييته ، ثم قال : اللهم إن جعفرًا قدّم إلى أحسن الثواب ، فأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته ، ثم قال : يا أسماء ، ألا أبشرك ؟ قالت : بلى بأبي وأمى . قال : فإن الله جعل لجعفر جناحين يطيرُ بهما في الجنة ، قالت : بأبي وأمى ، فأعلم الناس ذلك ! فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وأخذ بيدي يمسح بيده رأسي حتى رقى على المنبر وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى ، وإنّ الحزن ليُعرف عليه ، فتكلّم فقال : إنّ المرء كثيرٌ بأخيه وابن عمّه ، ألا إنّ جعفرًا قد استشهد ، وقد جعل الله له جناحين يطيرُ بهما في الجنة . ثم نزل ، فدخل بيته وأدخلني ، وأمر بطعام فصنع لنا ، وأرسل إلى أخى فتغدّينا عنده غداءً طيباً ، عمدت سابي خادمته إلى شعيرٍ فطحنته ، ثم نسفتّه ، ثم أنضجته وآدمته بزيت ، وجعلت عليه فلفلًا ، فتغدّبت أنا وأخى معه ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام ندور معه في بيوت نساءه ، ثم أرجعنا إلى بيتنا ، وأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك وأنا أساوم في شاة ، فقال : اللهم بارك له في صفقته ، فوالله ما بعث شيئاً ولا اشتريت إلا بورك فيه .

[فصل في ذكر بعض مناقب جعفر بن أبي طالب]

رَوَى أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي كِتَابِ "مَقَاتِلِ الطَّالِبِيِّينَ" ، أَنَّ كُنْيَةَ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَبُو الْمَسَاكِينِ ، وَقَالَ : وَكَانَ ثَالِثَ الْإِخْوَةِ مِنْ وَلَدِ أَبِي طَالِبٍ ، أَكْبَرَهُمْ طَالِبٌ ، وَبَعْدَهُ عَقِيلٌ ، وَبَعْدَهُ جَعْفَرٌ ، وَبَعْدَهُ عَلِيُّ ، وَكُلٌّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ أَكْبَرُ مِنَ الْآخِرِ بِعَشْرِ سِنِينَ ، [وَعَلَى أَصْفَرِهِمْ سَنًا] ^(١) ، وَأُمُّهُمْ جَمِيعًا فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ ^(٢) .

وَهِيَ أَوَّلُ هَاشِمِيَّةٍ وَلَدَتْ لَهَا شَيْئًا ، وَفَضَّلَهَا كَثِيرٌ ، وَقَرَّبَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتَعْظِيمُهُ لَهَا مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ .

وَرَوَى أَبُو الْفَرَجِ : لَجَعْفَرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَضْلٌ كَثِيرٌ . وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ كَثِيرٌ ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا فَتَحَ خَيْبَرَ قَدِمَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الْحَبَشَةِ ، فَالْتَزَمَهُ ^(٣) رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَيَقُولُ : مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَشَدُّ فَرَحًا ! بِقَدُومِ جَعْفَرٍ ، أَمْ بِفَتْحِ خَيْبَرَ !

قَالَ : وَقَدْ رَوَى خَالِدُ الْحَذَّاءُ ، عَنْ عِكْرِمَةَ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : مَارَكِبَ الْمَطَايَا ، وَلَا رَكِبَ الْكُورَ ^(٤) ، وَلَا انْتَعَلَ ، وَلَا احْتَذَى النَّعَالَ أَحَدٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَفْضَلَ مِنْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

قَالَ : وَقَدْ رَوَى عَطِيَّةٌ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، خَيْرُ النَّاسِ حِمَزَةٌ وَجَعْفَرٌ وَعَلِيٌّ .

وَقَدْ رَوَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : خُلِقَ النَّاسُ مِنْ أَشْجَارٍ شَتَّى ، وَخُلِقْتُ أَنَا وَجَعْفَرٌ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ — أَوْ قَالَ — مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ .

(٢) مقاتل الطالبيين ٦ ، ٧ مع تصرف .
(٤) الكور (بضم الكاف) : الرجل بأداته .

(١) من مقاتل الطالبيين .
(٣) التزمه : اعتنقه .

قال : وبالإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لجعفر : أنت أشبهتَ خَلْقِي
وخلقتي .

وقال أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " ، كانت سنُّ جعفر عليه السلام
يومَ قُتل إحدى وأربعين سنة .

قال أبو عمر : وقد روى ابن المسيّب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : مُثِّل لي
جعفر وزيد وعبدالله في خَيْمة من درّ ، كلّ واحد منهم على سرير ، فرأيت زيدا وابن
رواحة في أعناقهما صدودا ، ورأيت جعفرأ مستقيما ليس فيه صدود ، فسألتُ فقيل لي :
إنهما حين غشيهما الموتُ أعرضا وصددا بوجهيهما ، وأما جعفر فلم يفعل .

قال أبو عمر أيضا : ورؤى عن الشّعبيّ ، قال : سمعتُ عبد الله بن جعفر يقول : كنتُ
إذا سألت عمّي عليّا عليه السلام شيئا ويمعنى ، أقول له : بحقّ جعفر ، فيعطيني ^(١) .

ورؤى أبو عمر أيضا في حرف الزّاي في باب زيد بن حارثة ، أنّ رسول الله صلى الله
عليه وآله لما أتاه قتل جعفرٍ وزيد بمؤتة بكي ، وقال : أخوأي ومؤنساى ومحدثاى ^(٢) .

واعلم أنّ هذه الكلمات التي ذكرها الرضيّ رحمه الله عليه ملتقطة من كتابه عليه
السلام الذي كتبه جوابا عن كتاب معاوية النافذ إليه مع أبي مسلم الخولانيّ وقد ذكره
أهل السّيرة في كتبهم ، روى نصر بن مزاحم في كتاب " صيفين " ، عن عمر بن سعد
عن أبي ورّقاء ، قال : جاء أبو مسلم الخولانيّ في ناس من قرّاء أهل الشام إلى معاوية قبل
مسير أمير المؤمنين عليه السلام إلى صيفين فقالوا له : يا معاوية ، علام تقا تل عليّا وليس لك

(١) الاستيعاب ٨١ ، ٨٢ .

(٢) الاستيعاب ١٩١ .

مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته! فقال: ^(١) إني لا أدعى أن لي في الإسلام مثل صحبته ولا مثل هجرته ولا قرابته^(١)؛ ولكن خبروني عنكم، أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما! قالوا: بلى، قال: فليدفع إلينا قتلته لنقتلهم به، ولا قتال بيننا وبينه، قالوا: فاكتب إليه كتابا يأتيه به بعضنا، فكتب مع أبي مسلم الخولاني:

من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب . سلام عليك ، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فإنّ الله اصطفى محمداً بعلمه ، وجعله الأمينَ على وحيه ، والرسول إلى خلقه ، واجتبي له من المساهين أعواناً أيده الله تعالى بهم ، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائهم في الإسلام ، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة من بعده ، ثم خليفة خليفته من بعد خليفته ، ثم الثالث الخليفة المظلوم عثمان ، فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، عرفنا ذلك في نظرك الشّرر ، وقولك ألهجر ، وتنفسك^(٢) الصّعداء ، وإبطائك عن الخلفاء ، تقاد إلى كلّ منهم كما يقاد الفحل المحشوش^(٣) حتى تبايع وأنت كاره ، ثم لم تكن لأحد منهم بأعظم حسداً منك لابن عمك عثمان ، وكان أحقهم ألا تفعل ذلك في قرابته وصره ، فقطعت رحمة ، وقبّحت محاسنه ، وألبت^(٤) الناسَ عليه ، وبطنت وظهّرت حتى ضربتَ إليه آباط الإبل ، وقيدتَ إليه الإبل العراب ، ومحملَ عليه السلاحُ في حرّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقتل معك في الحلة وأنت تسمع في داره الهائعة^(٥) ، لا تردع الظنّ والتهمّة عن نفسك بقولٍ ولا عمل . وأقسّم قسماً صادقاً لو قت فيما كان من أمره مقاماً واحداً تُنهه الناسَ

(١-١) صفيين : « ما أقاتل علياً وأنا أدعى أن في الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولا سابقته . »

(٢) صفيين : « وفي تنفسك . »

(٣) المحشوش : الذي جعل في عظم أنفه الخشاش ، وهو بالكسر عويد يجعل في أنف البعير يشدّ به

الزمام ليكون أسرع في انقياده .

(٥) الهائعة : الصوت الشديد .

(٤) ألبت الناس : جمعهم عليه .

عنه ، ما عدل بك من قبلنا من الناس أحدا ، ولحمّا ذلك عندهم ما كانوا يعرفونك به من الجحّانة لعمّان والبغى عليه ، وأخرى أنت بها عند أنصارِ عثمان ظنّين^(١) ؛ إيوؤك قتلة عثمان ، فهم عَضُدك وأنصارُك ، ويدُك وبطانتُك ؛ وقد ذكر لي أنك تتصلّ من دمه ، فإن كنتَ صادقا فأمكنا من قتلتَه نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس إليك ، وإلا فإنه ليس لك ولأصحابك إلا السيف ؛ والذي لا إله إلا هو لنطلبنّ قتلةَ عثمان في الجبال والرّمال ، والبرّ والبحر ، حتى يقتلهم الله أو لتأحقنّ أرواحنا بالله ، والسلام^(٢) .

قال نصر : فلما قدّم أبو مسلم على عليّ عليه السلام بهذا الكتاب ، قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : أمّا بعد ، فإنك قد قمتَ بأمرٍ وليته ، ووالله ما أحبُّ أنه لغيرك . إن أعطيت الحقّ من نفسك . إن عثمان قُتل مسلما محرّما مظلوما ، فادفع إلينا قتلتَه ، وأنت أميرنا ، فإن خالفك من الناس أحدٌ كانت أيدينا لك ناصرة ، وألستنا لك شاهدة ، وكنتَ ذا عذرٍ وحجّة . فقال له عليّ عليه السلام : اغدُ عليّ غداً ، نخذ جوابَ كتابك فانصرف ، ثم رجع من غدٍ ليأخذ جوابَ كتابه ، فوجد الناس قد بلغهم الذي جاء فيه قبل ، فلبست الشيعة أسلحتهم ثم غدوا فاملئوا المسجد فنادوا : كلنا قتلةَ عثمان ، وأكثروا من الدّاء بذلك وأذن لأبي مسلم ، فدخّل ، فدفع عليّ عليه السلام جوابَ كتاب معاوية ، فقال أبو مسلم : لقد رأيت قوما مالك معهم أمر ، قال : وما ذلك ؟ قال : بلغ القوم أنّك تريد أن تدفع إلينا قتلةَ عثمان فضجّوا ، واجتمعوا ، ولبسوا السّلاح ، وزعموا أنهم قتلة عثمان . فقال عليّ عليه السلام ، والله ما أردت أن أدفعهم إليكم طرفة عين قطّ ، لقد ضربتُ هذا الأمرَ أنفه وعينه ، فما رأيتُه ينبغي لي أن أدفعهم إليك ، ولا إلى غيرك . فخرج أبو مسلم بالكتاب وهو يقول : الآن طاب الضّراب !

(١) ظنّين : متهم .

(٢) صفين ٩٧ ، ٩٨ .

وكان جوابُ عليّ عليه السلام : من عبد الله عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

أمّا بعد ؛ فإنّ أخا خولان قديم عليّ بكتابٍ منك تذكّر فيه محمداً صلى الله عليه وآله وما أنعم الله به عليه من الهدى والوحي ، فالحمد لله الذي صدّقه الوعد ، وأيده ^(١) بالنصر ، ومكّن له في البلاد ، وأظهره على أهل العداوة ^(٢) والشنآن من قومه الذين وثبوا عليه ، وشفّوا له ^(٣) ، وأظهروا تكذيبه ^(٤) وبارزوه بالعداوة ، وظهروا على إخراجه وعلى إخراج أصحابه وأهله ، وألبوا عليه [العرب ، وجادلوه على حربته] ^(٥) ، وجهّدوا في أمره كلّ الجهد ، وقتلوا له الأمور حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون ، وكان أشدّ الناس عليه تأليبا ^(٦) وتحريضا أسرته ، والأدنى فالأدنى من قومه ، إلّا من عصم الله . وذكّرت أنّ الله تعالى اجتبى له من المسلمين أعواناً أيّده الله بهم ، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ، فكان أفضلهم - زعمت - في الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة وخليفة الخليفة ، ولعمري إنّ مكانهما في الإسلام لعظيم ، وإنّ المصاب بهما لجرحٌ في الإسلام شديد ، فرحمهما الله وجزأهما أحسن ماعملاً ! وذكّرت أنّ عثمان كان في الفضل تالياً ، فإنّ يك عثمانُ محسناً فسيجزيه الله بإحسانه ، وإنّ يك مُسيئاً فسيلقَى ربّاً غفوراً لا يتعاطمه ذنب إن يغفره ، ولعمري إنّني لأرجو إذا أعطى الله الناس على قدر فضائلهم في الإسلام ونصيحتهم لله ولرسوله ، أن يكون نصيبتنا في ذلك الأوفر . إن محمداً صلى الله عليه وآله لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد له كنّا أهل البيت أوّل من آمن به وصدّقه فيما جاء ، فبتنا أحوالاً كاملةً مجرّمة ^(٧) تامة ، وما يُعبد الله في ربّع ساكنٍ من

(١) صفيين : « وتم له النصر » .

(٢) صفيين : « العدا » وهو يوافق ما في ١ .

(٣) شنف له ، أي أبنضه .

(٤) من صفيين .

(٥) صفيين : « التكديب » .

(٦) صفيين : « إلبا » .

(٧) مجرّمة ، أي كاملة .

من العرب غيرنا ، فأراد قومنا قتل نبيِّنا ، واجتياح أصلنا ، وهمُّوا بنا الهُموم ، وفعلوا بنا الأفاعيل ، ومنعونا الميرة^(١) ، وأمسكوا عنا العذب ، وأحلسونا الخوف^(٢) . وجعلوا علينا الأرصاد والعيون ، واضطرونا إلى جبل وعر ، وأوقدوا النانارا الحُرب ، وكتبوا بينهم كتابا ، لا يؤا كلوننا ، ولا يُشاربُوننا ، ولا يُنا كحوننا ، ولا يُبايعوننا ، ولا نأمن منهم حتى ندفع إليهم محمدا فيقتلوه ويمثلوا به ، فلم نكن نأمن فيهم إلا من موسم إلى موسم ، فعزم الله لنا على منعه ، والذب عن حوزته ، والرسي من وراء حُرمته ، والقيام بأسيا فإنا دونه في ساعات الخوف بالليل والنهار ، فمؤمنا يرجو بذلك الثواب ، وكافرنا يُحامي عن الأصل ، وأما من أسلم من قريش فإنهم ممانحن فيه خلاء ، منهم الخليف الممنوع ، ومنهم ذو العشيِّرة التي تدافع عنه ، فلا يبيغيه أحدٌ مثل ما بغانا به قومنا من التلغ ، فهم من القتل بمكان^(٣) نجوة وأمن ، فكان ذلك ماشاء الله أن يكون . ثم أمر الله تعالى رسوله بالهجرة ، وأذن له بعد ذلك في قتال المشركين ، فكان إذا احمرَّ البأس ، ودعيت نزال^(٤) أقام أهل بيته ، فاستقدموا ، فوقى أصحابه بهم حدَّ الأسنَّة والسيوف ، فقتل عبدة يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وجعفر وزيد يوم مؤتة ، وأراد من لو شئتُ ذكرتُ اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم غير مرَّة ، إلا أن آجالهم عُجلت ، ومنيته أخرت ، والله وليّ الإحسان إليهم ، والمِنَّة عليهم ، بما أسلفوا من أمر الصالحات ، فما سمعتُ بأحد ولا رأيتُه هو أنصح في طاعة رسوله ولا لنبيِّه ، ولا أصبر على اللاؤاء^(٥) والسراء والضراء وحين البأس ، ومواطن الكروه مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم من هؤلاء النفر الذين سميتُ لك ، وفي المهاجرين خيرٌ كثيرٌ يعرف ، جزاهم الله خيرا بأحسن

(١) الميرة بالكسر : ما يجلب ؛ ويريد بالعذب الماء .

(٢) أحلسونا الخوف ؛ أى ألزمناه .

(٣) انظر صفين ١٠٠ ، ١١١ .

(٤) دعيت نزال : الشدة .

(٥) دعيت نزال ، كقطام ؛ أى تنازلوا للحرب .

أعمالهم . وذكرت حسدى الخلفاء وإبطائى عنهم ، وبغى عليهم ؛ فأما البغى فمعاذ الله أن يكون ، وأما الإبطاء عنهم والكرهية لأمرهم فلست أعتذر إلى الناس من ذلك ؛ إن الله تعالى ذكره لما قبض نبيّه الله صلى الله عليه وسلم قالت قريش : منّا أميرٌ ، وقالت الأنصار : منّا أميرٌ ؛ فقالت قريش : منّا محمد ، نحن أحق بالأمر ، فعرفت ذلك الأنصار فسلمت لهم الولاية والسلطان ، فإذا استحقّوها بمحمد صلى الله عليه وسلم دون الأنصار فإن أولى الناس بمحمد أحقّ به منهم ، وإلا فإنّ الأنصار أعظمُ العرب فيها نصيبا ، فلا أدري : أصحابى سلموا من أن يكونوا حقّى أخذوا ، أو الأنصار ظلموا ، بل عرفت أن حقّى هو المأخوذ ، وقد تركته لهم تجاوزا لله عنهم . وأما ما ذكرت من أمر عثمان ، وقطيعى رقه ، وتأليى عليه فإن عثمان عمل ما قد بلغك ، فصنع الناس به ما رأيت ، وإنك لتعلم أنى قد كنت فى عزلة عنه إلا أن تتجنّى ؛ فتجنّى^(١) ما بدالك ؛ وأما ما ذكرت من أمر قتلة عثمان فإنّ نظرت فى هذا الأمر وضربت أنفه وعينه فلم أر دفعهم إليك ولا إلى غيرك ، ولعمري لئن لم تنزع عن غيِّك وشقاقك لتعرفنهم عن قليل يطلبونك لا يكلفونك أن تطلبهم فى برّ ولا بحر ولا سهل ولا جبل ، وقد أتانى أبوك حين ولّى الناس أبا بكر ، فقال : أنت أحقّ بمقام محمد ، وأولى الناس بهذا الأمر ، وأنا زعيمٌ لك بذلك على من خالف ، ابسط يدك أبايعك ؛ فلم أفعل ، وأنت تعلم أنّ أباك قد قال ذلك وأراده حتى كنت أنا الذى أبيت ؛ لتقرب عهد الناس بالكفر مخافة الفرقة بين أهل الإسلام ، فأبوك كان أعرف بحقّى منك ، فإن تعرف من حتى ما كان أبوك يعرف تُصب رُشدك ، وإن لم تفعل فسيغنى الله عنك ، والسلام^(٢) .

(١٠)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

وَكَيفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ
تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا ، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا ؛ دَعْتِكَ فَأَجَبْتَهَا ، وَقَادَتِكَ فَاتَّبَعْتَهَا . وَأَمْرَتِكَ
فَأَطَعْتَهَا ، وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقْفِكَ وَاقِفٌ عَلَى مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مُنْجٍ .
فَاقْعَسْ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ ، وَخُذْ أَهْبَةَ الْحِسَابِ ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ ،
وَلَا تَمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمَكَ مَا أُغْفَلَتْ مِنْ نَفْسِكَ ،
فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخِذَهُ ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ ، وَجَرَى مِنْكَ
بِحَرَى الرُّوحِ وَالْدَّمِ .

وَمَتَى كُنْتُمْ بِمَعَاوِيَةَ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ ، بَغَيْرِ قَدَمِ سَابِقٍ ،
وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ .
وَأَحْذَرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِيًا فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ ، مُخْتَلِفَ الْعِلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ .
وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ فَدَعِ النَّاسَ جَانِبًا ، وَأَخْرُجْ إِلَيَّ ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ
الْقِتَالِ ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَالْمُعْطَى عَلَى بَصَرِهِ !
فَأَنَا أَبُو حَسَنِ ، قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخًا يَوْمَ بَدْرٍ ، وَذَلِكَ السَّيْفُ
مَعِي ، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَى عَدُوِّي ؛ مَا أُسْتَبْدَلْتُ دِينًا ، وَلَا أُسْتَحَدَّثْتُ نَبِيًّا ، وَإِنِّي
لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَ كَتْمُوهُ طَائِعِينَ ؛ وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ .
وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ نَائِرًا بِدَمِ عُثْمَانَ ! وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ ، فَاطْلُبْهُ

مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا ، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ
الْجَمَالِ بِالْأَنْقَالِ وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعًا مِنَ الضَّرْبِ الْمَتَابِعِ ، وَالْقَضَاءِ
الْوَاقِعِ ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ ، إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ ، أَوْ مُبَايَعَةٌ حَائِدَةٌ .

الشَّرْحُ

الجلَّالِيْب : جمعُ جَلْبَابٍ ، وهى المِخْفَةُ فى الأَصْل ؛ واستُعير لغيرها من الثِّيَاب ،
وتجَلَّبَبَ الرجلُ جَلْبِيْبَةً ، ولم تُدغم لأنَّهَا ملحقة بـ « دَحْرَجَةٌ » .

قوله : « وتبهجتُ بزيتها » : صارت ذاتَ بهجة ، أى زينة وحُسن ، وقد بهجَ
الرجلُ بالضم ، ويؤشِكُ : يسرع .

ويقفك واقف ، يعنى الموتُ ؛ ويُرْوَى : « ولا ينحيكِ جَنِّ » ، وهو التُّرسُ ،
والرواية الأولى أصح .

قوله : « فاقعسُ عن هذا الأمر » ، أى تأخرتُ عنه ، والماضى قَعَسَ بالفتح ، ومثله
تَقَاعَسَ واقْعَنَسَسَ .

وأهبةُ الحِسابِ : عدُّته ، وتأهَّبَ : « استعدَّ ، وجمع الأهبةُ أهَبٌ .
وشمرُّ لما قد نزل بك ، أى جِدَّ واجتهد وخِفَّ ، ومنه رجلٌ شمَّرىَّ بفتح
الشين ، وتكسر .

والغواةُ : جمع غاوٍ ، وهو الضَّالُّ .
قوله : « وإلا تفعل » يقول : وإن كنت لا تفعل ما قد أمرتُك ووعظتُك به فإنى
أعرِّفك من نفسك ما أغفلت معرفته .

إنك مترَفٌ ، والمترَفُ الذى قد أترفته النِّعمة ، أى أطفته .

قد أخذ الشيطان منك مأخذه ؛ ويُروى « مأخذه » بالجمع ، أى تناول الشيطان منك لُبَّك وعقلك . ومأخذه مصدر ، أى تناولك الشيطان تناوله المعروف ، وحذف مفعول « أخذ » لدلالة الكلام عليه ، ولأنّ اللفظة تَجْرَى مَجْرَى المثل .

قوله : « وجَرَى منك مَجْرَى الرُّوح والدم » ، هذه كلمة رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ الشيطان ليجرى من ابن آدم مَجْرَى الدّم » .

ثم خرج عليه السلام إلى أمر آخر ، فقال لمعاوية : « ومتى كنتم ساسة الرعية ، ووُلاة أمرِ الأُمّة ! » ينبغى أن يُحمَل هذا الكلامُ على نبي كونهم سادة ووُلاة في الإسلام ، وإلا ففي الجاهلية لا يُنكرُ رياسة بنى عبدِ شمس . ولست أقولُ برياستهم على بنى هاشم ، ولكنهم كانوا رؤساء على كثيرٍ من بطون قريش ، ألا ترى أن بنى نوفل ابن عبد مناف ما زالوا أتباعاً لهم ، وأن بنى عبد شمس كانوا في يوم بدر قادة الجيش ، كان رئيس الجيش عُتبة بن ربيعة ، وكانوا في يوم أحد ويوم الخندق قادة الجيش ! كان الرئيس في هذين اليومين أباسُفيان بن حرب ؛ وأيضا فإنّ في لفظة أمير المؤمنين عليه السلام ما يُشعر بما قلناه ، وهو قوله : « ووُلاة أمرِ الأُمّة » فإنّ الأُمّة في العرب هم المسلمون ، أُمّة محمد صلى الله عليه وآله .

قوله عليه السلام : « بغير قدمٍ سابق » ، يقال : لفلانٍ قدمٌ صِدْق ، أى سابقة وأثرَةٌ حَسَنَةٌ .

قوله عليه السلام : « ولا شرف باسق » ؛ أى عالٍ .
وَتَمَادَى : تفاعَلَ ، من المَدَى ، وهو الغاية ، أى لم يقف بل مَضَى قُدُماً .
والغِرَّة : الغفلة : والأمنيّة : طمعُ النفس . ومختلف السريرة والعلانية : منافق .
قوله عليه السلام : « فدع الناسَ جانبا » ، منصوب على الظرف .

والمرين على قلبه : المغلوبُ عليه ، من قوله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) . وقيل : الرّين : الذنب على القريب .

وإنما قال أمير المؤمنين عليه السلام لمعاوية هذه الكلمة لأنّ معاوية قالها في رسالة كتبها ، ووقفتُ عليها من كتاب أبي العباس يعقوب بن أبي أحمد الصيّمرى الذى جمعه من كلام عليّ عليه السلام وخطبه ، وأولها :

أما بعد ، فإنّك المطبوعُ على قلبك ، المغطى على بصرك ؛ الشرّ من شيمتك ، والعُتوّ من خليقتك ، فشمّر للحرب ، واصبر للضرب ، فوالله ليرجعنّ الأمرُ إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين . هيهات هيهات ! أخطأك ما تمنى ، وهوى قلبك فيما هوى ، فاربّع على ظلمك ، وقسّ شبرك بفترك ، تعلم أين حالك من حال من يزِن الجبال حِمْلَهُ ، ويفصل بين أهل الشكِّ علمه ؛ والسلام .

فكتب إليه أمير المؤمنين عليه السلام : أمّا بعد ، يابن صخر ، يابن اللعين ؛ يزِن الجبال فيما زعمت حِمْلُك ، ويفصل بين أهل الشكِّ علمك ؛ وأنت الجاهلُ القليلُ الفقه ، المتفاوتُ العقل ، الشاردُ عن الدين .

وقلت : « فشمّر للحرب ، واصبر » ، فإن كنت صادقاً فيما تزعم ، ويُعينك عليه ابن النّابغة ، فدع الناس جانبا ، وأعفِ الفرّيقين من القتال ، وابرزْ إلىّ لتعلم أين المرينُ على قلبه ، المغطى على بصره ، فأنا أبو الحسنِ حقا ، قاتلُ أخيك وخالك وجدك ؛ شدخاً يوم بدر ، وذلك السيفُ معى ، وبذلك القلبُ ألقى عدوى !

قوله عليه السلام «شَدَخَا»؛ الشَّدخ: كَسَرُ الشَّيْءِ الأَجُوفِ، شَدَخْتُ رَأْسَهُ فَأَشَدَخْتُ، وهؤلاء الثلاثة: حنظلة بن أبي سفيان، والوليد بن عتبة، وأبوه عتبة بن ربيعة، فحنظلة أخوه، والوليد خاله؛ وعتبة جدُّه، وقد تقدّم ذكرُ قَتْلِهِ إِيَّاهُمْ فِي غَزَاةِ بَدْرٍ .

والثائر: طالب الثأر. وقوله: «قد علمت حيث وقع دمُ عثمانَ فاطلبه من هناك»، يريد به إن كنتَ تطلبُ ثأركَ من عند من أجلبَ وحاصرَ، فالَّذي فَعَلَ ذلكَ طلحةُ والزبيرُ؛ فاطلبُ ثأركَ من بني تميمٍ ومن بني أسدِ بن عبدِ العزّزي، وإن كنتَ تطلبه ممن خَذَلَ، فاطلبه من نَفْسِكَ فإنك خذَلْتَهُ، وكنتَ قادراً على أن ترفده^(١) وتُمِدَّهُ بالرجال، فخذلته وقعدت عنه بعد أن استنجدك وأستفاك بك .

وتضجّ: تصوّت . والجاحدة: المنكرة، والحائدة: العادلة عن الحقّ .

واعلم أنّ قوله: «وكأني بجاعتك يدعونني جزّ عامن السيف إلى كتاب الله تعالى»، إمّا أن يكونَ فِرَاسَةً نبويّةً صادقةً، وهذا عظيمٌ، وإمّا أن يكونَ إخباراً عن غيبٍ مفصّلٍ، وهو أعظمٌ وأعجبٌ، وعلى كلا الأمرين فهو غاية العجَب . وقد رأيت له ذِكْرَ هذا المعنى في كتاب غيرِ هذا، وهو: أمّا بعدُ، فما أعجب ما يأتيني منك، وما أعلمني بمنزلتك التي أنت إليها صائرٌ، ونحوها سائرٌ؛ وليس إبطائي عنك إلا لوقت أنا به مصدّق، وأنت به مكذّب؛ وكأني أراك وأنت تضجّ من الحرب، وإخوانك يدعونني خوفاً من السيف، إلى كتابٍ هم به كافرون، وله جاحدون .

ووقفت له عليه السلام على كتابٍ آخرٍ إلى معاوية يذكر فيه هذا المعنى، أوّله: أمّا بعد، فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الحقّ أساطير، ونبذتموه وراء

(١) ترفده: تعينه .

ظهوركم ، وحاوَلتم إطفاءه بأفواهكم ، ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُمْ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) . ولعمري لينفذ العلمُ فيك ، وليتمنَّ النورُ بصغيرك وقيامتك ، ولتخسأن طريداً مدحوراً ، أو قتيلاً مشهوراً^(٢) ؛ ولتُجزينَ بعملك حيث لا ناصرَ لك ، ولا مُصرِّخ^(٣) عندك . وقد أسهبتَ في ذكر عثمان ، ولعمري ما قتله غيرُك ، ولا خذله سواك ، ولقد ترَبَّصتَ به الدوائر ، وتمنيتَ له الأمانى ، طمعا فيما ظهر منك ، ودلَّ عليه فعلُك ، وإني لأرجو أن أُلحِقَكَ به على أعظمَ من ذنبه ، وأكبر من خطيئته .

فأنا ابن عبد المطلب صاحبُ السيف ، وإنَّ قائمه لفي يدي ، وقد علمتَ من قتلتي به من صنديد بني عبد شمس ، وفراعنة بني سهْم ومُجمح وبني مخزوم ؛ وأيَّمتُ أبناءهم ، وأيَّمتُ نساءهم^(٤) . وأذكركُ ما لستَ له ناسيا ؛ يومَ قتلتي أخاك حنظلة ، وجرتُ برجله إلى القليب^(٥) ، وأسرتُ أخاك عمرا ؛ فجعلتُ عنقه بين ساقيه رباطا ، وطلبتُك ففقرتُ ولك حُصاص^(٦) ؛ فلولا أني لا أتبعُ فارًّا ، لجعلتُك ثالثهما ، وأنا أولى لك بالله أليَّة برَّة غير فاجرة ؛ لئن جمعتني وإياك جوامع الأقدار ، لأتركنك مثلاً يتمثل به الناس أبداً ، ولأجعلنَّ بك في مناخِك حتى يحكم الله بيني وبينك ، وهو خيرُ الحاكمين .

ولئن أنسا^(٧) الله في أجلى قليلا لأغزيتنك سرايا المسلمين ، ولأنهدنَّ إليك في جحفل من المهاجرين والأنصار ، ثم لأقبلُ لك معذرة ولا شفاعة ، ولا أجيئك إلى طلب وسؤال ، ولترجعنَّ إلى تحيُّرك وتردُّدك وتلدُّدك ، فقد شاهدتَ وأبصرتَ ورأيتَ

(١) سورة التوبة ٣٢ .

(٣) المصرخ : المستغيث .

(٥) القليب : البئر .

(٧) أنسا الله في أجلى ؛ أى أخره قليلا .

(٢) مشورا : مالكا ؛ أو مصروفا عن الخير .

(٤) أيَّمت نساءهم ؛ أى تركتهن بلا أزواج .

(٦) الحصاص : شدة العدو .

سُحِبَ الموتِ كيف هطلت عليك بصيبيها^(١) حتى أعتصمت بكتاب أنت وأبوك أول من
كفر وكذب بنزوله . ولقد كنت تفرستها ، وأذنتك أنك فاعلها ، وقد مضى منها
مأمضى ، وانقضى من كيدك فيها ما انقضى ، وأنا سائرٌ نحوك على أثر هذا الكتاب ،
فاخترت نفسك ، وانظر لها ، وتداركها ، فإنك إن فطرت واستمررت على غيبك
وغوائلك^(٢) حتى يهد إليك عبادُ الله ، أرتجت عليك الأمور ، ومُنعت أمرًا هو اليوم
منك مقبول .

يا بن حرب ، إن لجالك في منازعة الأمر أهله من سفاه الرأى ، فلا يطمعك
أهل الضلال ، ولا يوبقك سفه رأى الجهال ، فوالذى نفسُ على يديه لئن برقت
في وجهك بارقة من ذى الفقار لتضعن صعقةً لا تفيق منها حتى يُنفخ في الصور النفخة
التي يُست منها ﴿ كما يُنسى الكفار من أصحاب القبور ﴾^(٣) .

قلتُ : سألتُ النقيب أبا زيد عن معاوية : هل شهد بدرًا مع المشركين ؟ فقال :
نعم شهدها ثلاثة من أولاد أبي سفيان : حنظلة وعمرو ومعاوية ، قُتل أحدهم ، وأسر الآخر ،
وأفلت معاوية هاربًا على رجليه ، فقدم مكة ، وقد انتفخ قدامه ، وورمت ساقاه ، فعالج
نفسه شهرين حتى برأ .

قال النقيب أبو زيد : ولا خلاف عند أحدٍ أن عليا عليه السلام قتل حنظلة
وأسر عمرًا أخاه . ولقد شهد بدرًا ، وهرب على رجليه من هو أعظمُ منهما ومن أخيهما
عمرو بن عبد ود فارس يوم الأحزاب ، شهدها ونجا هاربًا على قدميه ، وهو شيخ كبير ،

(٢) الغلواء : الكبر .

(١) الصيب : المطر المنصب .

(٣) الامتحنة ١٢ .

وارثت^(١) جريحا ، فوصل إلى مكة وهو وقيد^(٢) فلم يشهد أحداً ، فلما برأ شهد الخندق ، فقتله قاتل الأبطال ، والذي فاتهُ يوم بدر استدرّكه يوم الخندق .

ثم قال لى النقيب رحمه الله : أما سمعت نادرة الأعمش ومناظره ؟ فقلت : ما أعلم ما تريد ؛ فقال : سأل رجل الأعمش - وكان قد ناظر صاحبا له : هل معاوية من أهل بدر أم لا ؟ فقال له : أصلحك الله ، هل شهد معاوية بدرًا ؟ فقال : نعم من ذلك الجانب .

واعلم أن هذه الخطبة قد ذكرها نصر بن مزاحم في كتاب " صفيين " على وجه يقتضى أن ما ذكره الرضى - رحمه الله - منها قد ضم إليه بعض خطبة أخرى ، وهذه عادته ، لأن غرضه التقاط الفصيح والبلغ من كلامه ، والذي ذكره نصر بن مزاحم هذه صورته :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، سلام على من اتبع الهدى فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنك قد رأيت مرور الدنيا وانتضاءها وتصرفها وتصرفها بأهلها ، وخير ما اكتسب من الدنيا ما أصابه العباد الصالحون منها من التقوى ، ومن يقس الدنيا بالآخرة يجد بينهما بعيدا . واعلم يا معاوية أنك قد ادّعت أمراً لست من أهله^(٣) لاني القديم ولا في الحديث^(٤) ، ولست تقول فيه بأمرين يُعرف له أثر^(٥) ، ولا عليك منه شاهد [من كتاب الله]^(٥) ؛ ولست متعلقاً بآية من

(١) ارتث جريحا : حمل من المعركة رثينا ؛ أي جريحا وبه رفق .

(٢) الوقيد : الشديد المرض ، المشرف على الهلاك .

(٣ - ٤) صفيين : « لاني القديم ولا في الولاية » . (٤) صفيين : « أثر » .

(٥) من صفيين .

كتاب الله ، ولا عهدٍ من رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، فكيف أنت صانع^(١) إذا
تَشَعَّتْ عنك غيابةُ ما أنت فيه من دُنْيَا قد فتنتَ بزِينَتِهَا ، وَرَكَّنتَ إِلَى لذَاتِهَا^(٢) ،
وَخَلَّيْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ فِيهَا ، وَهُوَ عَدُوٌّ وَكَلْبٌ مُضِلٌّ جَاهِدْ مُلِيحٌ^(٣) ، مَلَحٌ ، مع
مَا قَدْ ثَبَّتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ جَهْتِهَا ، دَعْتِكَ فَأَحْبَبْتَهَا ، وَقَادَتِكَ فَاتَّبَعْتَهَا ، وَأَمَرْتِكَ فَأَطَعْتَهَا ،
فَأَقْعَسَ^(٤) عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَخَذَ أَهْبَةَ الْحِسَابِ ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَى
مَا لَا يَجْنُكَ^(٥) مَجْنُوسٌ .

ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية ، أو ولاةً لأمر هذه الأمة ، بلا قَدَمَ حَسَنٍ ،
وَلَا شَرَفٍ تَلِيدٍ عَلَى قَوْمِكُمْ ، فَاسْتَيْقِظْ مِنْ سِنْتِكَ ، وَارْجِعْ إِلَى خَالَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِمَا
سَيَنْزِلُ بِكَ ، وَلَا تُتَمَكَّنْ عَدُوُّكَ الشَّيْطَانُ مِنْ بَغِيَّتِهِ فِيكَ ؛ مع أُنَى أَعْرَفَ أَنَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ صَادِقَانِ ، نَعُوذُ^(٥) بِاللَّهِ مِنْ لُزُومِ سَابِقِ الشَّقَاءِ وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنِّي أَعْلَمُكَ مَا أَغْفَلْتَ
مِنْ نَفْسِكَ ، إِنَّكَ مُتْرَفٌ ، قَدْ أَخَذَ مِنْكَ الشَّيْطَانُ مَأْخِذَهُ ، فَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الدَّمِ فِي
الْعُرُوقِ ، وَلَسْتَ مِنْ أُمَّةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَا مِنْ رِعَايَتِهَا . وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَوْ كَانَ إِلَى
النَّاسِ أَوْ بِأَيْدِيهِمْ لِحَسَدٍ وَنَاهٍ ، وَلَا مَتَنُوا عَلَيْنَا بِهِ ، وَلَكِنَّهُ قَضَاءٌ مِمَّنْ مَنَحَنَاهُ وَأَخْتَصَّنَا بِهِ ،
عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ الصَّادِقِ الْمَصْدَقِ ، لَا أَفْلَحُ مِنْ شَكِّ بَعْدِ الْعُرْفَانِ وَالْبَيْنَةِ ! رَبِّ احْكَمْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُوِّنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ^(٦) .

قال نصر : ^(٧) فكتب معاويةُ إليه الجوابَ ^(٧) : من معاوية بن أبي سفيان إلى عليٍّ
ابن أبي طالب ، أمَّا بعد ، فدَعَجَ الحَسَدَ ، فَإِنَّكَ طَلَمَّا لَمْ تَنْتَفِعْ بِهِ ، وَلَا تُفْسِدَ سَابِقَةَ

(١-١) صفين : « إذا انشعت عنك جلايب ما أنت فيه من دنيا أهجت بزِينَتِهَا ، وركنت إلى لذتها . »

(٢) المليح : الملوح بالسيف ؛ يقال : ألح بالسيف ؛ ولوح : إذا حركه ولم به .

(٣) أقعس عن هذا الأمر ؛ أى تأخر .

(٤) كذا في صفين و ١ ، وفي ب : « يخنيك » .

(٥) صفين : « فنعوذ » .

(٦) صفين ١٢١ ، ١٢٢ .

(٧-٧) صفين : « فكتب معاوية بسم الله الرحمن الرحيم » .

جهدك بشرةٍ نَحَوْتِكَ ، فَإِنَّ الأَعْمَالَ بِخَوَاتِيمِهَا ، وَلَا تُمَحِّصْ سَابِقَتَكَ بِقِتَالِ مَنْ لَا حَقَّ
لَكَ فِي حَقِّهِ (١) ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ لَا تَضُرَّ بِذَلِكَ إِلَّا نَفْسَكَ ، وَلَا تَمَحِّقْ إِلَّا عَمَلَكَ ، وَلَا
تُبْطِلْ إِلَّا حِجَّتَكَ ؛ وَلَعَمْرِي إِنْ مَا مَضَى لَكَ مِنَ السَّابِقَاتِ لَشَبِيهِه أَنْ يَكُونَ مَمْحُوقًا ، لَمَا
اجْتَرَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ سَفْكَ الدَّمَاءِ ، وَخِلَافِ أَهْلِ الْحَقِّ ، فَاقْرَأِ السُّورَةَ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الْفَلَقُ
وَتَعَوَّذْ مِنْ نَفْسِكَ (٢) فَإِنَّكَ الْحَاسِدُ إِذَا حَسَدَ (٣) .

(١) حق الرجل وأحقه ؛ إذا غلبه على الحق .
(٢) صفين : « وتعوذ بالله من شر نفسك » .
(٣) صفين ١٢٣ .

(١١)

الأضل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدو :

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بَعْدُوْ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ ،
أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ ، كَيْمَا يَكُونُ لَكُمْ رِدْيًا ، وَدُونَكُمْ مَرَدًّا .
وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهِ وَاحِدٍ أَوْ أُثْنَيْنِ ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صِيَاصِ
الْجِبَالِ ، وَمَنَاكِبِ الْهَضَابِ ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمْ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانٍ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ .
وَأَعُوْا أَنْ مَقْدَمَةَ الْقَوْمِ عِيُونُهُمْ ؛ وَعِيُونَ الْمَقْدَمَةِ طَلَائِعُهُمْ . وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ ،
فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانزِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا أَرْتَحِلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعًا ، وَإِذَا غَشِيَكُمْ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا
الرِّمَاحَ كِفَّةً ، وَلَا تَذُقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَارًا أَوْ مَضْمُضَةً .

الشرح :

المعسكر ؛ بفتح الكاف : موضع المعسكر ، وحيث ينزل .

الأشرف : الأماكن العالية ، وقبيلها : ما استقبلت منها ، وضده الدبر .

وسفاح الجبال : أسافلها حيث يسفح منها الماء .

وأثناء الأنهار : ما أنعطف منها ، واحدها ثنى . والمعنى أنه أمرهم أن ينزلوا مسندين

ظهورهم إلى مكان عال كالهضاب العظيمة ، أو الجبال ، أو منعطف الأنهار التي تجري

مجرى الخنادق على المعسكر ليأمنوا بذلك من البيات ، وليأمنوا أيضاً من إتيان العدو لهم

من خلفهم ، وقد فسّر ذلك بقوله : كما يكون لكم ردءا ، والردء : العون ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴾ (١) .

ودونكم مردّاً ، أى حاجزا بينكم وبين العدو .

تمّ أمرهم بأن يكون مقاتلتهم - بفتح التاء ، وهى مصدر «قاتل» - من وجه واحد أو اثنين ؛ أى لا تتفرّقوا ؛ ولا يكن قتالكم العدو في جهات متشعبة ، فإنّ ذلك أدعى إلى الوهن ، واجتماعكم أدعى إلى الظفر ، ثم أمرهم أن يجعلوا رقباء في صياصي الجبال . وصياصي الجبال : أعاليها وما جرى مجرى الحصون منها ، وأصل الصياصي القرون ، ثم استعير ذلك للحصون لأنّه يمتنع بها كما يمتنع ذو القرن بقرنه . ومناكب الهضاب : أعاليها ؛ لثلا يأتىكم العدو إمّا من حيث تأمنون ، أو من حيث تخافون .

قوله عليه السلام : « مقدّمة القوم عيونهم » ، المقدّمة ، بكسر الدال ، وهم الذين يتقدّمون الجيش ، أصله مقدّمة القوم ، أى الفرقة المتقدمة . والطلائع : طائفة من الجيش تبعث ليُعلم منها أحوال العدو . وقال عليه السلام : المقدّمة عيون الجيش . والطلائع عيون المقدّمة ، فالطلائع إذا عيون الجيش .

ثم نهاهم عن التفرّق ، وأمرهم أن ينزلوا جميعاً ويرحلوا جميعاً ، لثلا يفجّأهم العدو بفتة على غير تعبية واجتماع ، فيستأصلهم ؛ ثم أمرهم أن يجعلوا الرّماح كِفّة إذا غشيهم الليل ، والكاف مكسورة ، أى أجعلوها مُستديرة حولكم كالدّائرة ، وكلّ ما استدار كِفّة بالكسر ، نحو كِفّة الميزان ، وكلّ ما استطال كِفّة بالضم نحو : كِفّة الثوب وهى حاشيته ، وكِفّة الرّمّل ، وهو ما كان منه كالحبل .

ثم نهاهم عن النوم إلا غراراً أو مضمضةً ، وكلا اللَّفظتين ماقلّ من النوم .

وقال شبيب الخارجيّ : الليلُ يكفيك الجبان ، ويصف الشجاع .
وكان إذا أمسى قال لأصحابه : أنا كم المدد ، يعني الليل .
قيل لبعض الملوك بيتٌ عدوّك . قال : أكره أن أجعل غلّبتى سرقة .

ولما فصل قحطبة من خُراسان وفي مجلته خالد بن برمك ، بينا هو على سطح بيتٍ
في قرية نزلاها وهم يتغدّون نظر إلى الصحراء فرأى أقاطيعَ ظباء قد أقبلت من جهةِ
الصحاري حتى كادت تخالط العسكر ، فقال خالد لقحطبة : أيها الأمير ، ناد في الناس :
يا خيّل الله أو كبي ؛ فإنّ العدوَّ قد قرُب منك ، وعمامة أصحابك لن يُسرجوا ويُلجموا
حتى يروا سرعان^(١) الخيل . فقام قحطبة مذعورا فلم ير شيئا يروعه ، ولم يعاين غبارا ،
فقال لخالد : ما هذا الرأي ؟ فقال : أيها الأمير ! لا تتشاغل بي ، وناد في الناس ، أما ترى
أقاطيع الوحوش قد أقبلت وفارقت مواضعها حتى خالطت الناس ! وإن وراءها جمعا
كثيفا . قال : فوالله ما أسرجوا ولا ألجموا حتى رأوا النقع^(٢) وساطع الغبار ، فسأوا ،
ولولا ذلك لكان الجيشُ قد اصْطلم^(٣) .

(١) سرعان الخيل : أوائلها .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) اصْطلم : استؤصل وأيّد .

(١٢)

الأضل :

ومن وصية له عليه السلام وصى بها معقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدمة له :

أَتَقِ اللَّهَ الَّذِي لَا بَدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ ، وَلَا مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ ، وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ ، وَسِرِّ الْبَرْدَيْنِ ، وَعَوَّزِ النَّاسِ ، وَرَفِّهِ فِي السَّيْرِ ، وَلَا تَسِرْ أَوْلَ اللَّيْلِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ سَكَنًا ، وَقَدْرَهُ مُقَامًا لَا طَعْنًا ، فَأَرْحِ فِيهِ بَدَنَكَ ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ ، فَسِرْ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ . فَإِذَا لَقَيْتَ الْعَدُوَّ فَكَيْفِ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطًّا ، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوًّا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ . وَلَا تَبَاعِدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي . وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَا نُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ .

البنرخ :

معقل بن قيس ، كان من رجال الكوفة وأبطالها ، وله رياسة وقدم ، أوفده عمّار ابن ياسر إلى عمر بن الخطاب مع الهزمران لفتح تستر^(١) وكان من شيعة علي عليه السلام ، وجهه إلى بني ساقه فقتل منهم وسبي ، وحارب المستورد بن علفة الخارجي

(١) تستر ، بضم أوله وسكون ثانيه وفتح ثالثة : أعظم مدينة بخورستان .

من تميم الرّباب ، فقتل كل واحدٍ منهما صاحبه بدجلة ، وقد ذكرنا خبرها فيما سبق ،
ومعقل بن قيس رباحي من ولد رباح بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة
ابن تميم .

قوله عليه السلام : « ولا تُقاتلن إلا من قاتلك » ، نهى عن البغي .

وسرّ البرذّين : هما الغداة والمشي ، وهما الأبردان أيضا .

ووصاه أن يرفق بالناس ولا يكلفهم السير في الحرّ .

قوله عليه السلام : « وغور بالناس » : انزل بهم القائلة ، والمصدر التغوير ، ويقال

للقائلة : الغائرة .

قوله عليه السلام : « ورفّه في السير » ، أى دَع الإبل تردُ رِفْهاً^(١) ، وهو أن ترد الماء
كلّ يوم متى شاءت ولا ترهقها وتجشمها السير . ويجوز أن يكون قوله : « ورفّه في السير » ،
من قولك : رفّيت عن الغريم ، أى نفّست عنه .

قوله عليه السلام : « ولا تسر أول الليل » ؛ قد ورد في ذلك خبرٌ مرفوع ، وفي الخبر أنه

حين تُنشر الشياطين . وقد علل أمير المؤمنين عليه السلام النهى بقوله : « فإن الله تعالى

جعله سكنا ، وقدره مقامالا ظعنا » ، يقول : لما امتنّ الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل

ليسكنوا فيه^(٢) كره أن يخالفوا ذلك . ولكن لقائل أن يقول : فكيف لم يكره السير

والحركة في آخره وهو من جملة الليل أيضا ! ويمكن أن يكون فهم من رسول الله

صلى الله عليه وآله أن الليل الذى جعل سكنا للبشر إنما هو من أوّله إلى

وقت السحر .

(١) أى ترد الماء كما شاءت .

(٢) وهو قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ .

ثم أمره عليه السلام بأن يريح في الليل بدنه وظهره ، وهي الإبل ، وبنو فلان
مُظهِرون ، أى لهم ظَهْرٌ يَنْقَلُونَ عليه ، كما تقول : منجِبون ، أى لهم نجائب .
قال الراوندى : الظَهْرُ . الخيول ، وليس بصحيح ، والصحيح ما ذكرناه .
قوله عليه السلام : « فإذا وقفت » أى فإذا وقفت ثقلك وراحك لتسير ، فليكن
ذلك حين ينبطح السحر .

قال الراوندى : « فإذا وقفت » ثم قال وقد روى : « فإذا واقفت » ، قال : يعنى
إذا وقفت تحارب العدو وإذا واقفته ، وما ذكره ليس بصحيح ولا روى ، وإنما هو
تصحيح ، ألا تراه كيف قال بعده بقليل : « فإذا لقيت العدو ! » وإنما مرأه هاهنا الوصاة
بأن يكون السير وقت السحر ووقت الفجر .

قوله عليه السلام : « حين ينبطح السحر » ، أى حين يتسع ويمتد ، أى لا يكون السحر
الأول ، أى ما بين السحر الأول وبين الفجر الأول ، وأصل الانبطاح السعة ، ومنه الأبطح
بمكة ، ومنه البطيحة ، وتبطح السيل ، أى اتسع في البطحاء ، والفجر انفجر انشق .

ثم أمره عليه السلام إذا لقي العدو أن يقف بين أصحابه وسطاً لأنه الرئيس ، والواجب
أن يكون الرئيس في قلب الجيش ، كما أن قلب الإنسان في وسط جسده ، ولأنه إذا كان
وسطاً كانت نسبته إلى كل الجوانب واحدة ، وإذا كان في أحد الطرفين بعد من الطرف
الآخر ، فربما يختل نظامه ويضطرب .

ثم نهاه عليه السلام أن يدنو من العدو دنوً من يريد أن يُنشب الحرب ، ونهاه أن
يبعدُ منهم بُعداً من يهاب الحرب ، وهي البأس ، قال الله تعالى : ﴿ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾^(١) ،

أى حين الحرب ، بل يكون على حالٍ متوسّطة بين هذين حتى يأتيه الأمر من أمير المؤمنين عليه السلام لأنه أعرف بما تقتضيه المصلحة .

ثم قال له : لا يحملنكم بغضكم لهم على أن تبدءوهم بالقتال قبل أن تدعُوهم إلى الطاعة وتُعذِرُوا إليهم أى تصيروا ذوى عذر في حربهم .

والشَّنَان : البغض ، بسكون النون وتحريكها .

[نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب]

وفي الحديث المرفوع : « لا تتمنوا العدوّ فعسى أن تبتلوأبهم ، ولكن قولوا : اللهم أكفنا شرهم ؛ وكفّ عناّ بأسهم ، وإذا جاءوك يعرفون أو يضجون فعليك الأرض جُلوساً ، وقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ، وبيدك نواصينا ونواصيهم ، فإذا غشوكم فثوروا في وجوههم » .

وكان أبو الدرداء يقول : أيّها الناس ، اعملوا عملاً صالحاً قبل الغزو ؛ فإنما تقاتلون بأعمالكم .

وأوصى أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين استعمله فقال : سرّ على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدوّ فكن بعيداً من الحملة ، فإنّي لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسرّ بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غيرة ، وأقلل من الكلام ، فإن ما وُعِيَ عنك هو عليك ؛ وإذا أتاك كتابي فأمضه ، فإنما أعمل على حسب إنفاذه ، وإذا قدم عليك وفود العجم فأنزلهم مُعظم عسكرك ، وأسبغ عليهم من النفقة ، وامنع الناس من محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين ، ولا

تَلَحَّنَ فِي عَقُوبَةِ فَإِنْ أَدْنَاهَا وَجِيعَةٌ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَيْهَا وَأَنْتَ تَكْتَفِي بِغَيْرِهَا ، وَأَقْبَلْ مِنَ النَّاسِ عِلَانِيَتَهُمْ ، وَكُلِّمَهُمْ إِلَى اللَّهِ فِي سِرِّيَتِهِمْ ، وَلَا تَعْرِضْ عَسْكَرَكَ فَتَفْضَحَهُ ، وَأَسْتُوْدِعْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا تَضِيعُ وُدَّاعَهُ .

وَأَوْصَى أَبُو بَكْرٍ أَيْضًا عِكْرَمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ حِينَ وَجَّهَهُ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ : سِرُّ عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، وَلَا تَنْزِلَنَّ عَلَى مُسْتَأْمِنٍ ، وَقَدِّمِ النَّذِيرَيْنِ يَدَيْكَ ، وَمَهْمَا قَلْتَ : إِنْ بَدَأَ فَاغْلِبْهُ ، وَلَا تَجْعَلَنَّ قَوْلَكَ لِعَوَا فِي عَقُوبَةٍ وَلَا عَفْوٍ ، فَلَا تُرْجَى إِذَا أَمَّنْتَ ، وَلَا تُخَافُ إِذَا خَوَّفَتْ . وَانظُرْ مَتَى تَقُولُ وَمَتَى تَفْعَلُ ، وَمَا تَقُولُ وَمَا تَفْعَلُ ، وَلَا تَتَوَعَّدَنَّ فِي مَعْصِيَةٍ بِأَكْثَرِ مِنْ عَقُوبَتِهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أَمَّيْتَ ، وَإِنْ تَرَكْتَ كَذَبْتَ ، وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَإِذَا لَقِيتَ فَاصْبِرْ .

وَلَمَّا وُلِّيَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ سَلَّمَ بِنُزِيَادِ خُرَّاسَانَ قَالَ لَهُ : إِنْ أَبَاكَ كُنِيَ أَخَاهُ عَظِيمًا ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُكَ صَغِيرًا ، فَلَا تَتَّكِنَنَّ عَلَى عِذْرِي مَنِّي ، فَقَدْ اتَّكَلْتَ عَلَى كِفَايَةِ مَنِّكَ ، وَإِيَّاكَ مَنِّي مِنْ قَبْلِ أَنْ أَقُولَ : إِيَّاكَ مَنِّكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الظَّنَّ إِذَا أَخْلَفَ مَنِّكَ أَخْلَفَ فَيْكَ ، وَأَنْتَ فِي أَدْنَى حِظِّكَ ، فَاطْلُبْ أَقْصَاهُ ، وَقَدْ تَبِعَكَ أَبُوكَ ، فَلَا تَرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَادْكُرْ فِي يَوْمِكَ أَحَادِيثَ غَدِّكَ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ : يَنْبَغِي لِلْأَمِيرِ أَنْ يَكُونَ لَهُ سِتَّةُ أَشْيَاءَ : وَزِيرٌ يَثِقُ بِهِ ، وَوَيْفَى إِلَى إِلَيْهِ سِرِّهِ ، وَحِصْنٌ إِذَا لَجَأَ إِلَيْهِ عَصَمَهُ - يَعْنِي فِرْسًا - وَسَيْفٌ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَقْرَانُ لَمْ يَخْفُ نَبَوْتَهُ ، وَنُخَيْرَةٌ خَفِيفَةُ الْحَمَلِ إِذَا نَابَتْهُ نَائِبَةٌ وَجَدَّهَا - يَعْنِي جَوْهَرًا - وَطَبَّاخٌ إِذَا أَقْرَى مِنَ الطَّعَامِ صَنَعَ لَهُ مَا يَهْبِجُ شَهْوَتَهُ ، وَامْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ إِذَا دَخَلَ أَذْهَبَتْ هَمَّهُ . فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ : خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ ؛ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيْرُ الْجِيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ،

ولن يُغلب اثنا عشر ألفاً من قَلِه إذا اجتمعت كلمتهم .

كان يقال : ثلاثة من كنّ فيه لم يفلح في الحرب ؛ البغي ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾^(١) ، والمكر السيئ ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾^(٢) والنكث ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾^(٣) .

يقال : خرجت خارجةً بخراسان على قتبية بن مسلم ، فأهمّه ذلك ، فقيل : ما أهمك منهم ! وجه إليهم وكيع بن أبي أسود يكفيك أمرهم ، فقال : لا أوجهه ، وإنّ وكيعاً رجل فيه كبر ، وعنده بغي ، يحقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالأته بخصمه فلم يحترس ، فوجد عدوّه فيه غرّةً ، فأوقع به .

وفي بعض كتب الفرس : إنّ بعض ملوكهم سأل : أيّ مكايد الحرب أحزم ؟ فقال : إذكاء العيون ، واستطلاع الأخبار ، وإظهار القوّة والسرور والغلبة ، وإماتة الفرق ، والاحتراس من البطانة من غير إقصاء لمن ينصح ، ولا انتصاح لمن يغشّ ، وكتمان السرّ ، وإعطاء المبلّغين على الصدق ، ومعاقبة المتوصلين بالكذب ، وألا تُخرج هارباً فتجوجه إلى القتال ، ولا تُضيق أماناً على مستأمن ، ولا تُدهشّنك الغنيمة عن المجاوزة .

وفي بعض كتب الهند : ينبغي للعاقل أن يحذر عدوّه المحارب له على كلّ حال ؛ يرهّب منه الموائبة إن قرّب ، والغارة إن بُعد ، والكمين إن انكشف ، والاستطراد إن ولى ، والمكر إن رآه وحيدا . وينبغي أن يؤخّر القتال ما وجد بُدّاً ، فإنّ النفقة عليه من الأنفس ، وعلى غيره من المال .

(٢) سورة فاطر ٤٣ .

(١) سورة يونس ٢٣ .

(٣) سورة الفتح ١٠ .

(١٣)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه :

وَقَدْ أَمَرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَى مَنْ فِي حَيْزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ ، فَاسْمَعَا لَهُ
وَأَطِيعَا ، وَأَجْعَلَاهُ دِرْعًا وَجِنًّا ، فَإِنَّهُ يَمُنُّ لَا يُخَافُ وَهَنُهُ وَلَا سَقَطَتُهُ ، وَلَا يُطَوُّهُ عَمَّا
الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمٌ ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَى مَا لُبِطُهُ عَنْهُ أَمْثَلُ .

[فصل في نسب الأشتري وذكر بعض فضائله]

الشنح :

هو مالك بن الحارث بن عبد يعقوب بن مسleme بن ربيعة بن خزيمة بن سعد بن مالك
ابن النخع بن عمرو بن علة بن خالد بن مالك بن أدد . وكان فارسا شجاعا رئيسا من
أكابر الشيعة وعظماؤها ، شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين عليه السلام ونصره ، وقال
فيه بعد موته : رحم الله مالكا ، فلقد كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله !
ولما قنت على عليه السلام على خمسة وأربعين وهم : معاوية ، وعمرو بن العاص ، وأبو
الأعور السلمي ، وحبيب بن مسleme ، وبسر بن أرطاة ، قنت معاوية على خمسة ، وهم :
على ، والحسن ، والحسين - عليهم السلام - وعبد الله بن العباس ، والأشتر ، ولعنه .
وقد روى أنه قال لما ولى على عليه السلام بنى العباس على الحجاز واليمن والعراق : فلماذا
قتلنا الشيخ بالأمس ! وإن عليا عليه السلام لما بلغته هذه الكلمة أحضره ولطفه
واعتذر إليه وقال له : فهل وليت حسنا أو حسينا أو أحدا من ولد جعفر أخي ، أو عقيلًا

أو واحدا من ولده ! وإنما وليت ولد عمي العباس ، لأنني سمعت العباس يطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله الإمارة مرارا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عم ، إن الإمارة إن طلبتها وكلت^(١) إليها ، وإن طلبتك أعنت عليها . ورأيتُ بنيه في أيام عمر وعثمان يجدون في أنفسهم إذ ولي غيرهم من أبناء الطلقاء ولم يول أحدًا منهم ، فأحببتُ أن أصل رحمتهم ، وأزيل ما كان في أنفسهم ؛ وبعد فإن علمت أحدًا من أبناء الطلقاء هو خير منهم فأتيت به . فخرج الأشر وقد زال ما في نفسه .

وقد روى المحدثون حديثا يدل على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه الله ، وهي شهادة قاطعة من النبي صلى الله عليه وآله بأنه مؤمن ، روى هذا الحديث أبو عمر بن عبد البر في كتاب " الاستيعاب " ، في حرف الجيم ، في باب « جندب » قال أبو عمر^(٢) :

لما حضرت أبا ذرّ الوفاة وهو بالرّبذة^(٣) بكت زوجته أمّ ذرّ ، فقال لها : ما يبكيك ؟ فقلت : مالي لأبكي وأنت تموت بفلاة من الأرض ، وليس عندي ثوبٌ يسعك كفنًا ، ولا بد لي من^(٤) القيام بجهازك ! فقال : أبشري ولا تبكي ، فإنني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا يموت بين امرأتين مسلمين ولدان أو ثلاثة ، فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبدا » ؛ وقد مات لنا ثلاثة من الولد . وسمعتُ أيضا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لنفرٍ أنا فيهم : « ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين » ، وليس من أولئك النفر أحدٌ إلا وقد مات في قرية وجماعة فأنا - لأشك - ذلك الرجل ، والله ما كذبتُ ولا كُذبتُ ، فانظري الطريق . قالت أمّ ذرّ : فقلتُ : أتى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطرُق ! فقال : اذهبي فتبصري . قالت : فكنت

(١) وكلتُ إليها ، أي احتجت إليها وعجزت .

(٢) بسنده عن علي بن المديني ، عن يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم ، عن مجاهد عن إبراهيم بن الأشتر . عن أبيه .

(٣) الربذة : قرية على ثلاثة أميال من المدينة المنورة قريبة من ذات عرق .

(٤) الاستيعاب : « للقيام » .

أَشْتَدَّ^(١) إِلَى الْكَثِيبِ ، فَأَصْعَدَ فَأَنْظُرُ ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَيْهِ فَأَمْرَضُهُ ، فَبَيْنَا أَنَا وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ إِذْ أَنَا بِرِجَالِ عَلِيِّ رِكَابِهِمْ^(٢) كَأَنَّهُمُ الرَّخْمُ^(٣) تَخَبُّ بِهِمْ رَوَاحِلَهُمْ ، فَأَسْرَعُوا إِلَيَّ حَتَّى وَقَفُوا عَلَيَّ وَقَالُوا : يَا أَمَةَ اللَّهِ ، مَا لَكَ ؟ فَقُلْتُ : أَمْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَمُوتُ ، تَكْفَنُونَهُ ؟ قَالُوا : وَمَنْ هُوَ ؟ قُلْتُ : أَبُو ذَرٍّ ، قَالُوا : صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَدَّوهُ بِأَبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَأَسْرَعُوا إِلَيْهِ حَتَّى دَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : أَبْشِرُوا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لِنَفْرٍ أَنَا فِيهِمْ : « لِيَمُوتَنَّ رَجُلٌ مِنْكُمْ بِقَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ تَشْهَدُهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ، وَلَيْسَ مِنْ أَوْلِيئِكَ النَّفْرُ إِلَّا وَقَدْ هَلَكَ فِي قَرْيَةٍ وَجَمَاعَةٍ ، وَاللَّهِ مَا كَذَبْتُ وَلَا كَذَّبْتُ ، وَلَوْ كَانَ عِنْدِي ثَوْبٌ يَسْعُنِي كَفْنَا لِي أَوْ لَامْرَأَتِي لَمْ أَكْفَنَّ إِلَّا فِي ثَوْبٍ لِي أَوْ لَهَا ؛ وَإِنِّي أَنشُدُكُمْ اللَّهَ إِلَّا يَكْفِنُنِي رَجُلٌ مِنْكُمْ كَانَ أَمِيرًا أَوْ عَرِيفًا أَوْ بَرِيدًا أَوْ نَقِيبًا ! قَالَتْ : وَلَيْسَ فِي أَوْلِيئِكَ النَّفْرُ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ قَارَفَ بَعْضُ مَا قَالُ ، إِلَّا فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ قَالَ لَهُ : أَنَا أَكْفِنُكَ يَا عِمٌّ فِي رِدَائِي هَذَا ، وَفِي ثَوْبَيْنِ مَعِيَ فِي عَيْنَيْتِي مِنْ غَزَلِ أُمِّي ؛ فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : أَنْتَ تَكْفِنُنِي ، فَمَاتَ فَكَفَّنَهُ الْأَنْصَارِيُّ وَغَسَلَهُ النَّفْرُ الَّذِينَ حَضَرُوهُ وَقَامُوا عَلَيْهِ وَدَفَنُوهُ ؛ فِي نَفْرِ كُلِّهِمْ يَمَانُ^(٤) .

رَوَى أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ قَبْلَ أَنْ يَرُودَ هَذَا الْحَدِيثَ فِي أَوَّلِ بَابِ جُدَدَبَ : كَانَ النَّفْرُ الَّذِينَ حَضَرُوا مَوْتَ أَبِي ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ مَصَادِفَةَ جَمَاعَةٍ ؛ مِنْهُمْ حُجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ ، وَمَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ الْأَشْتَرِ^(٥) .

قُلْتُ : حُجْرُ بْنُ الْأَدْبَرِ هُوَ حُجْرُ بْنُ عَدِيٍّ الَّذِي قَتَلَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الشَّيْئَةِ وَعِظْمَائِهَا ، وَأَمَّا الْأَشْتَرُ فَهُوَ أَشْهَرُ فِي الشَّيْئَةِ مِنْ أَبِي الْهُذَيْلِ فِي الْمَعْتَزَلَةِ .

(١) أَشْتَدَّ : أَعْدَوُ .

(٢) الرَّخْمُ : جَمْعُ رَخْمَةٍ ، الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ .

(٣) الْإِسْتِيْعَابُ : ٨٣ .

(٤) الْإِسْتِيْعَابُ : « وَفِي مِنَ الْأَنْصَارِ دَعْتَهُمْ امْرَأَتَهُ لِأَيِّهِمْ فَشَهِدُوا مَوْتَهُ ، وَغَمَضُوا عَيْنَيْهِ ، وَغَسَلُوهُ وَكَفَّنُوهُ فِي ثِيَابِ الْأَنْصَارِيِّ ، فِي خَيْرٍ مَجِيبٍ حَسَنٍ فِيهِ طَوْلٌ » .

قرئ كتاب " الاستيعاب " على شيخنا عبد الوهاب بن سُكنية المحدث وأنا حاضر ، فلما انتهى القارئ إلى هذا الخبر قال أستاذي عمر بن عبد الله الدباس - وكنت أحضرُ معه سماعَ الحديث - : لتقل الشيعة بعد هذا ما شاءت ، فما قال المرتضى والمفيد إلا بعض ما كان حُجْرَ والأشترُ يعتقدانه في عثمان ومن تقدمه ، فأشار الشيخ إليه بالسكوت ، فسكت .

ودكرنا آثار الأشتر ومقاماته بصفين فيما سبق .

والأشتر هو الذي عانق عبد الله بن الزبير يومَ الجمل فاصطربا على ظهر فرسيهما حتى وقعا في الأرض ، فجعل عبد الله يصرخُ من تحته : اقتلوني ومالك ! فلم يعلم من الذي يعنيه لشدة الاختلاط وثوران النقع^(١) ؛ فلو قال : اقتلوني والأشتر لقتلا جميعا ؛ فلما افترقا قال الأشتر :

أعائشَ لولا أنني كنتُ طأويًا ثلاثًا لألّفتِ ابنَ أختكِ هالِكًا^(٢)
غداة يُنادي والرّماح تنوشُه كوقع الصّياصي : اقتلوني ومالكًا^(٣)
فنجّاه مني شِبعه وشبابُه وأنى شيخٌ لم أكن متماسكًا
ويقال : إنّ عائشة فقدت عبد الله فسألت عنه ، فقيل لها : عهدنا به وهو معانق للأشتر ، فقالت : وائكلَ أسماء !

ومات الأشتر في سنة تسع وثلاثين متوجّها إلى مصر والياً عليها لعلي عليه السلام .
قيل : سُقي سُمًا ، وقيل : إنه لم يصحّ ذلك ، وإنما مات حتفَ أنفه .

فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل ، ولعمري لقد كان الأشتر أهلاً لذلك ، كان شديد البأس ، جواداً

(٢) الطاوى : الجائع .

(١) النقع : الغبار .

(٣) تنوشه : تتناوله .

رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً ، وكان يجمع بين اللين والعنف ، فيسطو في موضع السطوة ، ويرفق في موضع الرفق .

[نبد من الأقوال الحكيمة]

ومن كلام عمر : إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوي في غير عنف ، ولين في غير ضعف .

وكان أنوشروان إذا ولي رجلاً أمر الكاتب أن يدع في العهد موضع ثلاثة أسطر ليوقع فيها بخطه ، فإذا أتى بالعهد وقع فيه : سئس خيار الناس بالمودة ، وسفلتهم بالإخافة ، وامزج العامة رهبة برغبة .

وقال عمر بن عبد العزيز : إني لأهم أن أخرج للناس أمراً من العدل ، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم ، فأخرج معه طمعا من طمع الدنيا ، فإن نفرت القلوب من ذلك سكنت إلى هذا .

وقال معاوية : إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ؛ ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . فقيل له : كيف ؟ قال : إذا مدوها خلتها ، وإذا خلوها مدتتها .

وقال الشعبي في معاوية : كان كالجمل الطيب . إذا سكيت عنه تقدم ، وإذا ردت تأخر .

وقال يزيد ابنه : قد تبلغ بالوعيد ما لا تبلغ بالإيقاع ، وإياك والقتل ، فإن الله قاتل القتالين .

وأغلظ له رجل فحلم عنه ، فقيل له : أتحم عن هذا ؟ قال : إنا لا نحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

ونخر سليم مولى زياد عند معاوية بن زياد ، فقال معاوية : اسكت ونحك فما أدرك صاحبك بسيفه شيئاً قط إلا وقد أدركتُ أكثر منه بلساني .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : ما السياسة يا أبت ؟ قال : هيبة الخاصة لك ، مع صدق مودتها ، واقتيادك قلوبَ العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة قالها في الأشتر ، وهى قوله : « لا يخاف بطنه عما الاسراع إليه أحزم ، ولا إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل . »

قوله عليه السلام : « وعلى من فى حيزِ كما » أى فى ناحيتكما .

والمجنّ : الترس .

والوهن : الضعف .

والسقطّة : الغلطة والخطأ .

وهذا الرأى أحزم من هذا ، أى أدخل فى باب الحزم والاحتياط ، وهذا أمثل من

هذا أى أفضل .

(١٤)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدو :

لَا تُقَاتِلُونَهُمْ حَتَّى يَبْدَءَوكُمْ ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ عَلَى حُجَّةٍ ، وَتَرَكَكُمْ إِيَّاهُمْ
حَتَّى يَبْدَءَوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَى لَكُمْ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا كَانَتْ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللَّهِ فَلَا تَقْتُلُوا
مُدْبِرًا ؛ وَلَا تُصِيبُوا مُعَوِّرًا ، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَهَيِّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى
وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ ، وَسَبَّيْنَ أُمَّرَاءَكُمْ ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ ؛
إِنْ كُنَّا لِنُوْمِرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ
فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ أَوْ الْهَرَاوَةِ ، فَيُعَيِّرُ بِهَا وَعَقِبَهُ مِنْ بَعْدِهِ .

الْبُرْخ :

نهى أصحابه عن البغي والابتداء بالحرب ، وقد روى عنه أنه قال : ما نصرت على
الأقران الذين قتلهم إلا لأني ما ابتدأت بال مبارزة . ونهى - إذا وقعت الهزيمة - عن
قتل المدبر ، والإجهاز على الجريح ، وهو إتمام قتله .

قوله عليه السلام : « ولا تصيبوا معورا » هو من يمتصم منك في الحرب بإظهار
عورته لتكف عنه ، ويجوز أن يكون المعور هاهنا المريب الذي يظن أنه من القوم وأنه
حضر للحرب وليس منهم ، لأنه حضر لأمر آخر .

قوله عليه السلام : « ولا تهيجوا النساء بأذى » ، أى لا تحركن كوهن .

والفهر : الحجر : والهراوة : العصا .

وعَطَفَ « وعقبه » على الضمير المستكنّ المرفوع في « فيعيّر » ولم يؤكّد للفصل بقوله : بها ، كقوله تعالى : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾^(١) ، لما فصل بلا عطف ولم يحتج إلى تأكيد .

[نبذ من الأقوال الحكيمة]

ومما ورد في الشعر في هذا المعنى قول الشاعر^(٢) .

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْكِبَائِرِ عِنْدِي قَتْلُ بِيضَاءِ حُرَّةٍ عَطْبُولٍ^(٣)
كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْمُحْصَنَاتِ جِرُّ الدُّيُولِ

وقالت امرأة عبد الله بن خلف الخزاعيّ بالبصرة لعلّ عليه السلام بعد ظفره - وقد مرّ ببابها : يا عليّ ، يا قاتل الأحيّة ، لا مرحباً بك ! أيتّم الله منك ولدك كما أيتّم بني عبد الله بن خلف ! فلم يرُدّ عليها ، ولكنه وقف وأشار إلى ناحية من دارها ، ففهمت إشارته ، فسكتت وأنصرفت . وكانت قد سترت عندها عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، فأشار إلى الموضع الذي كانا فيه ، أي لو شئتُ أخرجتهما ! فلما فهمت أنصرفت ، وكان عليه السلام حليماً كريماً .

وكان عمر بن الخطاب إذا بعث أمراء الجيوش يقول : بسم الله ، وعلى عون الله ،

(١) سورة الأنعام ١٤٨ .

(٢) من أبيات تنسب لعمر بن أبي ربيعة ، ملحق ديوانه : ٤٩٨ .

(٣) العطبول : الشابة النتية الممتلئة ؛ وبعده :

قُتِلْتُ بِاطْلَاءٍ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ إِنَّ لِلَّهِ دَرْهَامًا مِنْ قَتِيلِ

وبركته ، فامضوا بتأييد الله ونصره . أوصيكم بتقوى الله ، ولزوم الحقّ والصبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله ، ولا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين . ولا تجبنوا عند اللقاء ، ولا تمثلوا عند الغارة ، ولا تسرفوا عند الظهور ، ولا تقتلوا هريماً . ولا امرأة ، ولا وليداً ، وتوقّوا أن تطئوا هؤلاء عند النقاء الزّحفين وعند حمة النّهضات وفي شنّ الغارات ، ولا تغلّوا عند الغنائم ، ونزّهوا الجهاد عن غرض الدنيا ، وأبشروا بالأرباح في البيع الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

واستشار قوم أكرمهم بنّ صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : أقبّلوا الخلاف على أمراءكم ، واثبتوا ، فإن أحزّم الفريقين الرّكين^(١) ، ورُبّ عجلة تهب^(٢) ريثاً .

وكان قيس بن عاصم المنقري إذا غزاه شهد معه الحرب ثلاثون من ولده يقول لهم : إياكم والبغي ، فإنه ما بغي قوم قطّ إلا ذلّوا ؛ قالوا : فكان الرجل من ولده يُظلم فلا ينتصف مخافة الذلّ .

قال أبو بكر يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة - وكانوا اثني عشر ألفاً - فهزموا يومئذ هزيمة قبيحة ، وأنزل الله تعالى قوله : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ﴾^(٣) .

وكان يقال : لا ظفر مع بغي ، ولا صحّة مع نهم ، ولا ثناء مع كبر ، ولا سُودد مع شُحّ .

(٢) الريث : الإبطاء ؛ وهو مثل .

(١) الركين : العزيز الممتنع .

(٣) سورة التوبة : ٢٥ .

[قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا ملك الهياطلة]

ومن الكلمات المستحسنه في سوء عاقبة البغي ما ذكره ابن قتيبة في كتاب "عيون الأخبار"، أن فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك ساربخنوده نحو بلاد الهياطلة، فلما انتهى إليهم اشتدّ رعب ملكهم أخصنوار منه وحذره، فناظر أصحابه ووزراءه في أمره فقال رجل منهم: أعطني موثقا من الله وعهدا تطمئنّ إليه نفسي أن تكفيني الغم بأمر^(١) أهلي وولدي، وأن تحسن إليهم، وتخلّفي فيهم، ثم أقطع يدي ورجلي والقي في طريق فيروز حتى يمرّ بي هو وأصحابه، وأنا أكفيك أمرهم^(٢)، وأورطهم مورطا تكون فيه هلكتهم. فقال له أخصنوار: وما الذي تنتفع به من سلامتنا وصلاح حالنا إذا أنت هلكت ولم تشاركنا في ذلك! فقال: إني قد بلغت ما كنت أحبّ أن أبلغ من الدنيا، وأنا موقن أن الموت لا بدّ منه، وإن تأخر أيّاما قليلة، فأحبّ أن أختم عملي بأفضل ما يحتم به الأعمال من النصيحة بسطاني، والنكاية في عدوي، فيشرف بذلك عقي، وأصيب سعادة وحظوة فيما أُمي.

ف فعل أخصنوار به ذلك، وحمله فألقاه في الموضع الذي أشار إليه، فمرّ به فيروز في جنوده، فسأله عن حاله، فأخبره أن أخصنوار فعل به ما يراه وأنه شديد الأسف، كيف لا يستطيع أن يكون أمام الجيش في غزو بلاده وتخريب مدينته، ولكنه سيّدلّ الملك على طريق هو أقرب من هذا الطريق الذي يريدون سلوكه وأخفي، فلا يشعر أخصنوار حتى يهجم عليه فينتقم الله منه بكم، وليس في هذا الطريق من المكروه إلا تغور^(٣) يومين، ثم تفضون إلى كل ما تحبون.

(١) العيون: « أن تكفيني أهلي وولدي ». (٢) العيون: « أكفيك مؤوتهم وأمرهم ».

(٣) التغور: إتيان الغور. وفي عيون الأخبار: تفويض يومين؛ أي السير في المفازة.

فقبل فيروز قوله بعد أن أشار إليه وزراؤه بالانتقام له ، والحذر منه ، [وبغير ذلك]^(١) . فخالفهم وسلك تلك الطريق ، فاتموا بعد يومين إلى موضع من المفازة لاصدر لهم عنه ، ولا ماء معهم ، ولا بين أيديهم ، وتبين لهم أنهم قد خدعوا ، فتفرقوا في تلك المفازة يمينا وشمالا يلتسون الماء ، فقتل العطش أكثرهم ، ولم يسلم مع فيروز إلا عدة يسيرة ، فانتهى إليهم أخشنوار بجيشه ، فواقهم في تلك الحال التي هم فيها من القلة والضر والجهد ، فاستمکنوا منهم ، بعد أن أعظموا^(٢) النكايه فيهم .

وأسير فيروز ، فرغب أخشنوار أن يمن عليه وعلى من بقي من أصحابه على أن يجعل له عهد الله وميثاقه ؛ ألا يفرز وهم أبدا ما بقي ، وعلى أن يحد فيما بينه وبين مملكتهم حدا لا يتجاوزه جنوده . فرضى أخشنوار بذلك ، فحلى سبيله ، وجعلا بين المملكتين حجرا^(٣) لا يتجاوزه كل واحد منهما .

فمكث فيروز برهة من دهره ، ثم حمه الأنف على أن يعود لغزو الهياطة ، ودعا أصحابه إلى ذلك ، فهو عنه ، وقالوا : إنك قد عاهدته ، ونحن نتخوف عليك عاقبة البغي والغدر ، مع ما في ذلك من العار وسوء القالة^(٤) .

فقال لهم : إنما اشترطت له ألا أجوز الحجر الذي جعلناه بيننا ، وأنا أمر بالحجر فيحمل أماننا على عجل .

فقالوا : أيها الملك ، إن العهود والمواثيق التي يتعاطاها الناس بينهم لا تحمل على ما يسره المعطى لها ، ولكن على ما يعلن به المعطى إياها ، وإنما جعلت عهد الله وميثاقه على الأمر الذي عرفه ، لاعلى الأمر الذي لم يخطر له ببال . فأبى فيروز ومضى في غزوته حتى أنهى إلى الهياطة ، وتصاف الفريقان للقتال .

(١) من عيون الأخبار . (٢) عيون الأخبار : « وأعظموا النكايه » .

(٣) عيون الأخبار : « حدا لا يتجاوزه » :

(٤) القول في الخير ، والقالة في الشر ، وفي عيون الأخبار : « المقالة » .

فأرسل أخشنوار إلى فيروز يسأله أن يبرز فيما بين صفّهم ، فخرج إليه ، فقال له أخشنوار : إنّي قد ظننتُ أنه لم يدعك إلى مُقَامِك هذا إلا الأنف ممّا أصابك ، ولعمري إن كنتا قد احتلنا لك بما رأيتَ لقد كنت التمتَ منّا أعظمَ منه ، وما ابتدأناك ببغى ولا ظلم ، وما أردنا إلا دفعك عن أنفسنا وحرينا ، ولقد كنتَ جديرا أن تكون من سوء مكافأتنا بمننا عليك وعلى من معك ، ومن نقض العهد والميثاق الذي أكدّته على نفسك أعظمَ أنفًا ، وأشدّ امتعاضا ممّا نالك منّا ، فإنّا أطلقناكم وأنتم أسارى ، ومننا عليكم وأنتم على الهلكة مُشرفون ، وحقنّا دماءكم ولنا على سفكها قُدرة . وإنّا لم نجبرك على ما شرطتَ لنا ، بل كنتَ أنتَ الراغبُ إلينا فيه ، والمريدُ لنا عليه ، ففكر في ذلك ، وميّز بين هذين الأمرين فانظر أيّهما أشدّ عارا ، وأقبح سماعا ، إن طلب رجل أمرا فلم يقدر له ولم ينجح في طلبته وسلك سبيلا فلم يظفر فيه ببغيته ، واستمكن منه عدوه على حال جهْد وضيعة منه وممن هم معه .

فمنّ عليهم وأطلقهم على شرطٍ ، شرطوه وأمرِ اصطلحوا عليه ، فاصطبر^(١) بمكروه القضاء ، واستحيا من الغدر والنكث ، أن يقال : نقض العهد وأخفر^(٢) الميثاق ، مع أنى قد ظننتُ أنه يزيدك لاجحة^(٣) ما تثق به من كثرة جنودك ، وما ترى من حسن عدّتهم ، وما أجِدني أشك أنهم أو أكثرهم كارهون لما كان من شخوصك بهم ، عارفون بأنك قد حملتهم على غير الحقّ ، ودعوتهم إلى ما يُسخط الله ، وأنهم في حربنا غير مستبصرين ، ونيأتهم على مناصحتك مدخولة .

فانظر ما قدر غناء من يُقاتل على هذه الحال ، وما عسى أن يبلغ نكايته في عدوه ، إذا كان عارفا بأنه إن ظفر فمع عار ، وإن قُتل فإلى النار ! وأنا أذكرك الله الذي جعلته

(١) عيون الأخبار : « فاضطر » .

(٢) أخفر ميثاقه : نقض عهده ؛ وفي عيون الأخبار : « خفر الميثاق » .

(٣) عيون الأخبار : « نجاحا » .

على نفسك كفيلاً ، وأذكرك نعمتي عليك وعلى مَنْ معك ، بعد يأسكم من الحياة ، وإشفائكم على الممات ، وأدعوك إلى ما فيه حظك ورشدك من الوفاء بالعهد ، والاعتداء بآبائك وأسلافك الذين مضوا على ذلك في كل ما أحبوه وكرهوه ، فأحمدوا عواقبه وحسن عليهم أثره .

ومع ذلك فإنك لست على ثقة من الظفر بنا ، وبلوغ مهمتك^(١) فينا ، وإنما تلتمس أمراً يلتمس منك مثله ؛ وتنادى عدواً الله يمنح النصر عليك ، فاقبل هذه النصيحة فقد بلغت في الاحتجاج عليك ، وتقدمت بالإعذار إليك ، ونحن نستظهر بالله الذي اعتدنا إليه ، ووثقنا بما جعلت لنا من عهده ، إذا استظهرت بكثرة جنودك ، وازدهتك عدة أصحابك ، فلو نك هذه النصيحة ، فبالله ما كان أحد من أصحابك يبالغ لك أكثر منها ، ولا يزيدك عليها ، ولا يجرمك منفعتها مخرجها مني ، فإنه ليس يزرى بالمنافع والمصالح عند ذوى الآراء صدورها عن الأعداء ، كما لا تحسن المضار أن تكون على أيدي الأصدقاء .

واعلم أنه ليس يدعوني إلى ما تسمع من مخاطبتي إياك ضعف من نفسي ، ولا من قلة جنودي ، ولكني أحببت أن أزداد بذلك حجةً واستظهاراً ، فأزداد به للنصر والمعونة من الله استيجاباً ، ولا أؤثر على العافية والسلامة شيئاً ما وجدت إليهما سبيلاً^(٢) .

فقال فيروز : لست ممن يردعه عن الأمر بهم به الوعيد ، ولا يصده التهدد والترهيب ، ولو كنت أرى ما أطلب غدراً مني ، إذا ما كان أحد أنظر ولا أشد إبقاءً مني على نفسي ، وقد يعلم الله أني لم أجعل لك العهد والميثاق إلا بما أضمرت في نفسي ، فلا يفرنك الحال التي كنت صادفتنا عليها من القلة والجهد والضعف .

(١) التهمة : الحاجة والشهوة .

(٢) في عيون الأخبار بعدها : « فأبى فيروز إلا تعلقا لحجته في الحجر الذي جعله حداً بينه وبينه » .

فقال أخشنوار : لا يعرفنك ما تخدع به نفسك من حملك الحجر أمامك ، فإن الناس لو كانوا يعطون اليهود على ما تصف من إسرار أمرٍ وإعلانٍ آخر ، إذا ما كان ينبغي لأحد أن يفتّر بأمان ، أو يثق بعهد ! وإذا ما قبل الناس شيئاً مما كانوا يعطون من ذلك ، ولكنه وضع على العلانية ، وعلى نية من تعد له اليهود والشروط . ثم انصرف . فقال فيروز لأصحابه : لقد كان أخشنوار حسن المحاورة ، وما رأيت للفرس الذي كان تحته نظيراً في الدواب ، فإنه لم يزل قوائمه ، ولم يرفع حوافره عن مواضعها ، ولا سهل ، ولا أحدث شيئاً يقطع به المحاورة في طول ما توافقنا .

وقال أخشنوار لأصحابه : لقد وافقت فيروز كما رأيتم وعليه السلاح كله ، فلم يتحرك ، ولم ينزع رجله من ركابه ، ولا حتى ظهره ، ولا التفت يميناً ولا شمالاً ، ولقد توركت أنا مرارا ، وتمطيت على فرسي ، والتفت إلى من خلفي ، ومددت بصرى فيما أمامي ، وهو منتصب ساكن على حاله ، ولولا محاورته إياي لظننت أنه لا يبصرني . وإنما أراد بما وصفنا من ذلك أن ينشر هذان الحديثان في أهل عسكرها فيشتغوا بالإفاضة فيهما ، عن النظر فيما تذاكرا . فلما كان في اليوم الثاني أخرج أخشنوار الصحيفة التي كتبها لهم فيروز ، ونصّبها على رُمح ليراها أهل عسكرو فيروز فيعرفوا غدره وبغيه ، ويخرجوا من متابعتة على هواه ، فما هو إلا أن رأوها ، حتى انتفض عسكروم واختلفوا ، وماتلبثوا إلا يسيراً حتى انهزموا ، وقتل منهم خلقٌ كثير ، وهلك فيروز ، فقال أخشنوار : لقد صدق الذي قال : لا مرد لما قدر ولا شيء أشدّ إحالة لمنافع الرأى من الهوى واللجاج ، ولا أضيع من نصيحة يمتنحها من لا يوطن نفسه على قبولها ، والصبر على مكروهاها ، ولا أسرع عقوبةً وأسوأ عاقبةً من البغي والغدر ، ولا أجلب لعظيم العار والنضوح من الأنف وإفراط العجب (١) .

(١٥)

الأضل

وكان عليه السلام يقول إذا لقي العدو محاربا :

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ ، وَنُقِلَتِ
الْأَقْدَامُ ، وَأَنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ .

اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَانِ ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ .
اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَدِينِنَا ، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا ، وَتَشْتَتِ أَهْوَانِنَا .
رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .

الشنخ :

أفضت القلوب : أى دنت وقربت ، ومنه أفضى الرجل إلى امرأته أى غشيها ،
ويجوز أن يكون « أفضت » أى بسرّها ، فحذف المفعول .

وأنضيت الأبدان : هزلت ، ومنه النضو ، وهو البعير المهزول .

وصرّح : انكشف . والشنان : البغضة .

وجاشت : تحرّكت واضطربت .

والمراجل : جمع مرجل ، وهى القدر .

والأضغان : الأحقاد ، واحدها ضغن .

وأخذ سديف مولى المنصور هذه اللفظة فكان يقول فى دعائه : اللهم إنا نشكو

إليك غيبة نبينا وتشتت أهوائنا، وما شملنا من زيف الفتن، واستولى علينا من غشوة الخيرة حتى عاد فينا دولة بعد القسمة، وأمارتنا غلبة بعد للشورة؛ وعدنا ميراثنا بعد الاختيار للأمة؛ واشتريت الملامى والمعازيف بمال اليتيم والأرملة، ورعى في مال الله من لا يرعى له حرمة، وحكم في أبشار المؤمنين أهل الذمة، وتولى القيام بأموهم فاسق كل محلة، فلا ذائد يذودهم عن هلكة، ولا راع ينظر إليهم بعين رحمة، ولا ذو شفقة يشبع الكبد الحرى من مسغبة، فهم أولو ضرع وفاقة، وأسراء فقر ومسكنة، وحلفاء كآبة وذلة. اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نهايته، واستحكم عموده، واستجمع طرئده، وحذف وليده، وضرب بجرانه، فأتخ له من الحق يداً حاصدة، تجذ سنانه، وتمش سوقه، وتصرع قائمه، ليستخفي الباطل بقبح حليته، ويظهر الحق بحسن صورته.

ووجدت هذه الألفاظ في دعاء منسوب إلى علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، ولعله من كلامه، وقد كان سديف يدعوه به.

(١٦)

الأضل :

وكان يقول عليه السلام لأصحابه عند الحرب :

لَا تَشْتَدَنَّ عَلَيكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمَلَةٌ ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا ، وَوَطَّنُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا ، وَأَذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ ، وَالضَّرْبِ الطَّلْحِيِّ ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ فَإِنَّهُ أُطْرِدُ لِلْفَسْلِ .
وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ، مَا أَسْمَعُوا وَلَكِنْ أَسْتَسْمِعُوا ، وَأَسْرُوا الْكُفْرَ ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ .

الشرح :

قال : لا تستصعبوا فرّة تفرّونها بعدها كرّة ، تجيرون بها ماتكسر من حالك ، وإِنَّمَا الَّذِي يَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَسْتَصْعِبُوهُ فَرَّةٌ لَا كَرَّةٌ بَعْدَهَا ، وَهَذَا حَضٌّ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَكْرُوا وَيَعُودُوا إِلَى الْحَرْبِ إِنْ وَقَعَتْ عَلَيْهِمْ كَسْرَةٌ .

ومثله قوله : « وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمَلَةٌ » ، والجولة : هزيمة قريبة ليست بالمعنة ^(١) .
واذمروا أنفسكم ، من ذمّه على كذا أى حضّه عليه . والطعن الدّعسيّ : الذي يُحْسَى بِهِ أَجَافُ الْأَعْدَاءِ ، وَأَصْلُ الدَّعْسِ الْحَشْوُ ، دَعَسْتُ الْوَعَاءَ : حَشَوْتَهُ .
وضرب طلحني ، بكسر الطاء وفتح اللام ، أى شديد ، واللام زائدة .

(١) المعنة ؛ من الإمعان ؛ وفي ب : « بمنعة » تحريف .

ثم أمرهم بإماتة الأصوات ، لأنَّ شِدَّةَ الصَّوْضَاءِ فِي الْحَرْبِ أَمَارَةٌ الْخَوْفِ وَالْوَجَلِ .
ثم أَقْسَمَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرَأَ وَمَنْ وَالَاهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنْ اسْتَسَلَمُوا خَوْفًا
مِنَ السَّيْفِ وَنَافَقُوا ؛ فَلَمَّا قَدَرُوا عَلَى إِظْهَارِ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ أَظْهَرُوهُ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ جَعَلَ مَحَارِبَتَهُمْ لَهُ كُفْرًا .

وقد تقدّم في شرح حال معاوية وما يدكره كثير من أصحابنا من فساد عقيدته
ما فيه كفاية .

[نَبَذَ مِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَشَابِهَةِ فِي الْحَرْبِ]

وَأَوْصَى أَيْ كَثُمُ بْنُ صَيْفِيٍّ قَوْمًا نَهَضُوا إِلَى الْحَرْبِ فَقَالَ : ابْرُزُوا لِلْحَرْبِ ، وَادْرَعُوا
اللَّيْلَ ، فَإِنَّهُ أَخْفَى لِلْوَيْلِ ، وَلَا جَمَاعَةَ لِمَنْ اخْتَلَفَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ كَثْرَةَ الصِّيَاحِ مِنَ الْفِشْلِ ،
وَالْمَرْءُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَةَ .

وَسَمِعَتْ عَائِشَةُ يَوْمَ الْجَمَلِ أَصْحَابَهَا يُكَبِّرُونَ ، فَقَالَتْ : لَا تَكَبِّرُوا هَاهُنَا ، فَإِنَّ
كَثْرَةَ التَّكْبِيرِ عِنْدَ الْقِتَالِ مِنَ الْفِشْلِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : قَدْ جَمَعَ اللَّهُ أَدَبَ الْحَرْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا . . . ﴾ (١) الْآيَتِينَ .

وَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ لِقُرَيْشٍ يَوْمَ بَدْرٍ : أَلَا تَرَوْنَهُمْ - يَعْنِي أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ - جُثِيًّا عَلَى الرُّكْبِ ، يَتَلَمَّظُونَ تَلَمُّظَ الْحَيَّاتِ !

وَأَوْصَى عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَمِيرَ سَرِيَّةٍ بَعْثَهَا ، فَقَالَ : أَنْتَ تَاجِرُ اللَّهِ لِعِبَادِهِ ، فَكُنْ
كَالْمُضَارِبِ الْكَيْسِ الَّذِي إِنْ وَجَدَ رِبْحًا تَجَرَ ، وَإِلَّا احْتَفَظَ بِرَأْسِ الْمَالِ ؛ وَلَا تَطْلُبْ

الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشدَّ حذرًا من احتيال عدوك عليك .

وفي الحديث المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال لزيد بن حارثة : لا تُشَقِّ جيشك ؛ فإن الله تعالى ينصر القوم بأضعفهم .

وقال ابن عباس - وذكر علياً عليه السلام : مارأيتُ رئيساً يُوزَنُ به ، لقد رأيتُه يومَ صفين وكان عينيه سراجاً سليطاً^(١) وهو يحمس أصحابه إلى أن انتهى إلى وأنا في كنف فقال : يا معشر المسلمين ، استشعروا الخشية ، وتجليبؤا السكينة ، وأكملوا الأمانة... الفصل المذكور فيما تقدم .

(١) السليط : زيت به يضاء .

(١٧)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه :

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَى الشَّامِ ، فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأَعْطِيكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسٍ .
وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسِ بَقِيَّتِ ؛ أَلَا وَمَنْ
أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ .

وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرَّجَالِ ، فَلَسْتُ بِأَمْضَى عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ ،
وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنْفٍ ! فَكَذَلِكَ نَحْنُ ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمِّيَّةٌ كَهَاشِمٍ ،
وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيْقِ ، وَلَا
الصَّرِيْحُ كَاللَّصِيْقِ ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ . وَلَيْتَ أَنْ خَلَفْتُ
خَلْفٌ يَتَّبِعُ سَلْفًا هَوَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ .

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذَلَّلْنَا بِهَا الْعَزِيْزَ ، وَنَعَشْنَا بِهَا الدَّلِيْلَ . وَلَمَّا
أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِيْنِهِ أَفْوَاجًا ، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعًا وَكَرْهًا ، كُنْتُمْ مِمَّنْ
دَخَلَ فِي الدِّيْنِ ؛ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً ، عَلَى حِيْنٍ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ ، وَذَهَبَ
الْمُهَاجِرُونَ الْأَوْلُونَ بِفَضْلِهِمْ ؛ فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيْبًا ، وَلَا عَلَى
نَفْسِكَ سَبِيْلًا . وَالسَّلَامُ .

الشُّنْخُ :

يقال : طلبتُ إلى فلان كذا ، والتقدير طلبتُ كذا راغبا إلى فلان ، كما قال تعالى : ﴿ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ﴾ (١) أى مُرسلا .

ويُروى « إِلَّا حُشَاشَةَ نَفْسٍ » ، بالإفراد ، وهو بقيةُ الرُّوحِ في بَدَنِ المريض .
وروى : « أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فإِلَى النَّارِ » ، وهذه الروايةُ أَلْيَقُ مِنَ الرَّوَايَةِ المذكورةِ في أكثرِ الكُتُبِ ، لأنَّ الحقَّ يأكل أهلَ الباطلِ ، وَمَنْ رَوَى تلكَ الروايةَ أضمرَ مُضَافًا تَقْدِيرُهُ « أعداءُ الحقِّ » ، ومُضَافًا آخَرَ تَقْدِيرُهُ « أعداءُ الباطلِ » . ويجوز أن يكونَ مَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فإِلَى الْجَنَّةِ ، أى من أَفْضَى بِهِ الْحَقُّ وَنُصِرْتُهُ وَالْقِيَامُ دُونَهُ إِلَى الْقَتْلِ ؛ فَإِنَّ مَصِيرَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، فيسمى الحقَّ لما كانت نُصِرْتُهُ كَالسَّبَبِ إِلَى الْقَتْلِ أَكْلًا لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْقَتْلِ ، وكذلك القولُ في الجانبِ الآخرِ .

وكان الترتيب يقتضى أن يجعل هاشمًا بإزاء عبدِ شمس ، لأنه أخوه في قُعدد (٢) ، وكلاهما ولدُ عبدٍ منآفٍ لصلبه ، وأن يكون أميةُ بإزاء عبدِ المطلب ، وأن يكون حربٌ بإزاء أبى طالب ، وأن يكون أبو سُفْيَانٍ بإزاء أمير المؤمنين عليه السلام ، لأن كلَّ واحدٍ من هؤلاء في قُعددٍ صاحبه ، إلا أن أمير المؤمنين عليه السلام لما كان في صِفِّين بإزاء معاويةَ اضطرَّ إلى أن جعل هاشمًا بإزاء أميةَ بن عبد شمس .

فإن قلت : فهلا قال : «ولا أنا كَأنت» ؟ قلتُ : قبيحٌ أن يقال ذلك ، كما لا يقال : السِّيفُ أَمْضَى مِنَ الْعَصَا ، بل قبيحٌ به أن يقولها مع أحدٍ من المسلمين كافةً ، نعم قد يقولها لا تصريحًا ، بل تعريضًا ، لأنه يرفع نفسه على أن يقيسها بأحدٍ .
وها هنا قد عرّض بذلك في قوله : « ولا المهاجرُ كالأطليق » . فإن قلت : فهل معاوية

(١) سورة النمل ١٢ .

(٢) قعدد ؛ أى قريب الآباء من الجدد الأكبر .

من الطُّلُقَاءِ؟ قلتُ : نعم ، كلُّ من دَخَلَ عليه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وآله مَكَّةَ عَمَوَّةً
بِالسَّيْفِ فمَلَكَه ثمَّ مَنَّ عليه عنِ إسلامٍ أو غيرِ إسلامٍ فهو من الطُّلُقَاءِ مَنَّ لم يُسَلِّمْ كَصَمَوَانَ
ابنِ أميَّةٍ ، ومَنَّ أسَلَّمَ كَمعاوية بنِ أبي سُفْيَانَ ، وكذلك كلُّ من أُسِرَ في حَرْبِ رسولِ الله
صَلَّى اللهُ عليه وآله ، ثمَّ امْتَنَّ عليه بِفِدَاءٍ أو بِغيرِ فِدَاءٍ فهو طَلِيقٌ ، فَمَنَّ امْتَنَّ عليه بِفِدَاءٍ
كسُهَيْلِ بنِ عمرو ، ومَنَّ امْتَنَّ عليه بِغيرِ فِدَاءٍ أبو عَزَّةَ الجَمَحِيِّ ، ومَنَّ امْتَنَّ عليه مُعَاوِضَةً أَى
أُطْلِقَ لِأَنَّهُ يَأْزَأُ أُسِيرٍ مِنَ الْمَسْلُومِينَ سَمُرُو بنِ أَمِي سُفْيَانَ بنِ حَرْبٍ ، كلُّ هؤُلاءِ مَعْدُودُونَ
مِنَ الطُّلُقَاءِ .

فإن قلتُ : فما معنى قوله : « ولا الصريح كاللصيق » ، وهل كان في نسب معاوية
شبهةٌ ليقول له هذا ؟

قلتُ : كلاًّ إنه لم يقصد ذلك ، وإِنَّمَا أَرَادَ الصَّرِيحَ بِالإِسْلَامِ وَاللَّصِيقَ فِي الإِسْلَامِ ، فَالصَّرِيحُ
فِيهِ هُوَ مَنْ أُسَلِّمَ اعْتِقَاداً وَإِخْلَاصاً ، وَاللَّصِيقُ فِيهِ مَنْ أُسَلِّمَ تَحْتَ السَّيْفِ أَوْ رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا ،
وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فَقَالَ : « كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً » .

فإن قلتُ : فما معنى قوله : « وللبئس الخلف خلفاً يتبع سلفاً هوى في نار جهنم » ؟
وهل يُعَابُ الْمُسْلِمُ بَأَن سَلَفَهُ كَانُوا كُفَّارًا !

قلتُ : نعم ، إِذَا تَبِعَ آثَارَ سَلَفِهِ وَاحْتَدَى حَذْوَهُمْ ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَاعَابَ
مَعَاوِيَةَ بَأَن سَلَفَهُ كُفَّارٌ فَقَطْ ، بَلْ بَكُوْنُهُ مُتَبِعًا لَهُمْ .

قوله عليه السلام : « وفي أيدينا بعد فضل النبوة » أي إذا فرَضْنَا تَسَاوِيَ الأَقْدَامِ
فِي مَا ثَرَأَسْلَافِكُمْ كَانَ فِي أَيْدِينَا بَعْدَ الْفَضْلِ عَلَيْكُمْ بِالنَّبُوَّةِ الَّتِي نَعَشْنَا بِهَا الْخَمْلَ ، وَأَخْمَلْنَا
بِهَا النَّبِيَّه .

قوله عليه السلام : « على حينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ » ، قال قوم من النُّجَّاحِ :

« حين » مبنى هاهنا على الفتح. وقال قوم : بل منصوب لإضافته إلى الفعل .
قوله عليه السلام : « فلا تجعلن للشيطان فيك نصيبا » ، أى لا تستلزم من أفعالك ما يدوم به كون الشيطان ضاربا فيك بنصيب ، لأنه ما كتب إليه هذه الرسالة إلا بعد أن صار للشيطان فيه أوفر نصيب ، وإنما المراد نهيه عن دوام ذلك وأستمراره .

[ذكر بعض ما كان بين عليّ ومعاوية يوم صفين]

وذكو نصر بن مراح بن بشار العقيلي في كتاب "صفين" ، أن هذا الكتاب كتبه عليّ عليه السلام إلى معاوية قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة . قال نصر : أظهر عليّ عليه السلام أنه مُصَبِّحُ معاوية ومناجزه له ، وشاع ذلك من قوله . فقزع أهل الشام لذلك ، وانكسروا لقوله . وكان معاوية بن الضحّاك بن سفيان صاحب راية بني سليم مع معاوية مُبغِضا لمعاوية وأهل الشام ، وله هوى مع أهل العراق وعليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وكان يكتب بأخبار معاوية إلى عبد الله بن الطفيل العامري ، وهو مع أهل العراق ، فيخبر بها عليّا عليه السلام ، فلما شاعت كلمة عليّ عليه السلام وجل لها أهل الشام ، وبعث ابن الضحّاك إلى عبد الله بن الطفيل : إني قائل شعرا أذعر به أهل الشام وأرغم به معاوية ، وكان معاوية لا يتهمه ، وكان له فضل ونجدة ولسان ، فقال لئلا ليستمع أصحابه :

ألا ليت هذا الليل أطبق سرّمدنا	علينا وأنا لا نرى بعده غدا
وباليتّه إن جاءنا بصباحه	وجدنا إلى مجرى الكواكب مصعدا
حذار عليّ إنه غير مخلف	مدى الدهر مالبا الملبثون موعدا
وأما قرارى في البلاد فليس لي	مقام وإن جاوزت جابلق مصعدا

كأني به في الناس كاشفُ رأسِهِ
مخوضُ غَمَارِ الموتِ في مُرْجَجِنَةٍ
على ظهرِ خَوَارِ الرِّحَالِ أَجْرَدَا
فوارسُ بدرِ والنَّضِيرِ وخَيْرِ
يُنَادُونَ في نَفْعِ العَجَاجِ مُحَمَّدًا (١)
وأحَدِ يَهْرُونِ الصَّفِيحِ المَهْنَدَا
ويومَ حنينٍ جالِدُوا عن نبيِّهم
فريقًا من الأحزابِ حتى تَبَدَّدَا (٢)
وهناك لا تَلَوِي عَجوزٌ على أُنْهَآ
وانْ أَكثرتِ من قولٍ: نَفْسِي لكِ الفِدا
فقل لابنِ حَرْبٍ ما الذِّى أنتِ صانِعٌ
أَتَثَبْتِ أمِ نَدْعوكِ في الحَرْبِ قُعْدَدَا (٣):
فلا رَأَى إلا تَرَكنَا الشَّامَ جَهْرَةً
وانْ أَبْرُقِ الفِجْجَاجُ فيها وأرْعَدَا (٤)

فلما سمع أهل الشام شعره أتوا به معاوية ، فهم نقتله ، ثم راقب فيه قومه ، فطرده من الشام ، فلحق بمصر وندم معاوية على تسييره إياه . وقال معاوية : لشعري السلمي (٥) أشد على أهل الشام من لقاء علي ، ماله قاتله الله ، لو صار خلف جابلق مصعدا لم يأمن عليا ! ألا تعلمون ما جابلق ؟ يقوله لأهل الشام ، قالوا : لا ، قال : مدينة في أقصى المشرق ليس بعدها شيء .

قال نصر : وتناقل الناس كلمة علي عليه السلام : «لأنجزهم مصبجاً» (٦) ، فقال الأشر :
قد دنا الفضلُ في الصِّباحِ ولِلِسِّلمِ رجالٌ وللحروبِ رجالٌ

(١) المرجحنة : الأمر العظيم .

(٢) جالدوا : دافعوا .

(٣) القعدد : الجبان القاعد عن الحرب ؛ وبعده في صفين :

وطني بألا يصبر القومُ موقفاً
يقفه وإن لم يجر في الدهر لمدى

(٤) الفججاج : كثير الكلام المتشعب بما ليس عنده .

(٥) صفين : « لقول السلمي » .

(٦) صفين : « لاني مناجز القول إن أصبحت » .

فرجالُ الحروبِ كلُّ خِدَبٍ مَقْمٍ لَأَتَهْدُهُ الْأَهْوَالُ^(١)
 يضربُ الفارسَ المدججَ بالسِّيفِ ف إذا فرَّ في الوغَا الأَكْفَالُ
 يابنَ هَندٍ شُدَّ الحيازيمَ للمو تِ ولا تذهبنَ بكَ الآمالُ
 إن في الصَّبحِ إن بقيتَ لأمرًا تَتَفَادَى من هوله الأبطالُ
 فيه عزُّ العراقِ أو ظفرُ الشا مِ بأهلِ العراقِ والززالُ
 فاصبروا للطَّعانِ بالأسلِ السُّمِّ رِ وَضَرْبِ تَجْرِي به الأمثالُ^(٢)
 إن تكونوا قتلتم النَّفَرَ اليِّ ضَ وَغالتَ أولئك الآجالُ^(٣)
 فلنا مثاهم غداة التَّلَاقِ وقليل من مثلهم أبدالُ
 يخضبون الوشيجَ طَعْنًا إذا جرتَ من الموتِ بينهم أذبالُ^(٤)
 طلبُ الفوزِ في المعادِ وفيه نُسْتَهانُ النفوسِ والأموالُ

قال : فلما انتهى إلى معاوية شعرُ الأشر قال : شعرٌ منكر ، من شاعرٍ منكر ،
 رأس أهل العراق وعظيمهم ، ومسعّر حربهم ، وأول الفتنه وآخرها ، قد رأيت أن أعاد عليًا
 وأسأله إقرارى على الشام ، فقد كنت كتبتُ إليه ذلك فلم يجب إليه ، ولأكتبن
 ثانية فأتى في نفسه الشكّ والرقة . فقال له عمرو بن العاص وضحك : أين أنت يا معاوية
 من خدعة عليّ ! قال : ألسنا بنى عبد مناف ! قال : بلى ، ولكن لهم النبوة دونك ،
 وإن شئت أن تكتب فاكتب ؛ فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام مع رجل من
 السكاسك يقال له عبد الله بن عتبة ، وكان من نافلة أهل العراق :

أما بعد فإنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على

(١) الخدب : الشديد الصاب ، والمقحم ، من قحم في الأمر كنصر تجوما ؛ إذا رمى بنفسه فيه
 نجاة بلا روية .
 (٢) الأسل : الرماح . والشم : العوالى .
 (٣) يقال : غاله غول ؛ إذا أهلكه .
 (٤) الوشيج : شجر الرماح .

بعض ، ولئن كنا قد غلبنا على عقولنا لقد بقي لنا منها ما نندم به على ماضى ، ونصلح به ما بقى ، وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمنى لك بيعة وطاعة ، فأبيت ذلك على ، فأعطانى الله مامنت ، وأنا أدعوك اليوم إلى مادعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف ، وقد والله فارقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ؛ ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يُستدلّ به عزيز ، ولا يسترقّ به حرٌّ ، والسلام .

فلما انتهى كتاب معاوية إلى على عليه السلام قرأه ، ثم قال : العَجَب لمعاوية وكتابه !^(١) ودعا عبيد بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب جوابه^(٢) .

أما بعد ، فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنّها بعضنا على بعض ، فإنى لو قتلتُ فى ذات الله ، وحييتُ ؛ ثم قُتلتُ ثم حييتُ سبعين مرة لم أرجع عن الشدّة فى ذات الله والجهاد لأعداء الله ، وأما قولك : إنه قد بقى من عقولنا ما نندم به على ماضى ، فإنى ما نقصتُ عقلى ، ولا ندمتُ على فعلى . وأما طلبك الشام فإنى لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرّجاء فلست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهلُ الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك : إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا فضل على بعض ! فلعمرى إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا الحقّ كاللبطل ، وفى أيدينا بعد فضل النبوة التى أذللتنا بها العزيز وأعزّزنا بها الذليل . والسلام .

فلما أتى معاوية كتابُ على عليه السلام كتّمه عن عمرو بن العاص أياما ، ثم دعاه

(١-١) صفين : « ثم دعا عبيد الله بن أبى رافع كاتبه ، فقال : اكتب إلى معاوية . »

فأقرأه إياه ، فشمت به عمرو - ولم يكن أحد من قريش أشدَّ إعظاماً لعلِّي من عمرو بن العاص منذ يوم لقيه وصفح عنه - فقال عمرو فيما كان أشار به على معاوية :

ألا لله دركُ يابنِ هَندٍ ودرُّ الأمرين لك الشهودِ !
أَتطمع لا أبا لك في عليٍّ وقد قرع الحديدَ على الحديدِ !
وترجوا أن تُحَيِّره بشكِّ وتأمّل أن يهابك بالوعيدِ ^(١)
وقد كشفَ القناعَ وجرَّ حرباً يشيبُ لهولها رأسَ أوليدِ
له جأواءُ مُظلمةٌ طَحونٌ فوارسُها تلَهَّب كالأسودِ ^(٢)
يقول لها إذا رجعتُ إليه ^(٣) وقد ملّت طعانَ القومِ : عودي
فإن وردت فأولها وروداً وان صدّت فليس بنى صدودِ
وما هي من أبي حسنٍ بُنكرٍ ولا هو من مسائك بالبعيدِ
وقلتَ له مقالةٌ مستكينٍ ضعيفِ الرّكنِ منقطعِ الوريدِ
دَعَن لي الشامَ حسبك يابنِ هَندٍ من السّواتِ والرأيِ الزّهيدِ
ولو أعطاكها ما زددتَ عِزّاً ولا لك لو أجابك من مزيدِ
فلم تكسِرْ بذاك الرأيِ عوداً لرّكته ولا ما دونِ عودِ ^(٤)

فلما بلغ معاوية شعرُ عمرو دعاه فقال له : العجب لك ! تفيل رأبي ، وتعظم عليّا وقد فضحك ! فقال : أما تفيل رأبي فقد كان ، وأما إعظامي عليّا فإنك بإعظامه أشدَّ معرفةً منّي ، ولكنك تطويه وأنا أنشره . وأما فضيحتي فلم يفتضح أمرؤ لقيّ أبا حسن ^(٥) .

(١) صفين : « وترجوا أن يهابك بالوعيد » .

(٢) الجأواء : الكتيبة يعلوها السواد لكثرة الدروع .

(٣) صفين : إذا دلفت إليه » .

(٤) الركة . الضعف . (٥) صفين ٥٣٥ - ٥٤٠

(١٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ ، وَمَغْرَسُ الْفِتَنِ ، فَحَادِثُ أَهْلِهَا بِالْإِحْسَانِ
إِلَيْهِمْ ، وَأَحْلُلُ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ .

وَقَدْ بَلَّغَنِي تَنْمُرُكَ لِبْنِي تَمِيمٍ ، وَغَلِظْتُكَ عَلَيْهِمْ ؛ وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِيبْ
لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرٌ ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسَبِّحُوا بِوَعْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ،
وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِمًا مَاسَةً ، وَقِرَابَةً خَاصَّةً ، نَحْنُ مَا جُورُونَ عَلَى صِلَتِهَا ، وَمَا زُورُونَ
عَلَى قَطِيعَتِهَا .

فَارْبَعُ أَبَا الْعَبَّاسِ رَحِمَكَ اللَّهُ فِيمَا جَرَى عَلَى يَدِكَ وَلِسَانِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ !
فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي
فِيكَ ، وَالسَّلَامُ .

الشيخ :

قوله عليه السلام : مهبط إبليس : موضع هبوطه .

ومغرس الفتن : موضع غرسها ، ويروى « ومغرس الفتن » ، وهو الموضع الذي

ينزل فيه القوم آخر الليل للاستراحة ، يقال غرسوا وأغرسوا .

وقوله عليه السلام : « حادِثُ أَهْلِهَا » ، أى تعهدهم بالإحسان ، من قولك :

حادثت السيف بالصقال .

والتشمر للقوم : الغلظة عليهم ، والمعاملة لهم بأخلاق النمر ، من الجرأة والثوب ،
وسند كرتصديق قوله عليه السلام : « لم يغب لهم نجمٌ إلا طلع لهم آخر » .
والوغم : الترة ، والأوغام : الترات ، أى لم يهدر لهم دمٌ فى جاهلية ولا إسلام ،
يصفهم بالشجاعة والحمية .

ومأزورون ، كان أصله « موزورن » ، ولكنه جاء بالألف ليحاذى به ألف
« مأجورون » وقد قال النبي صلى الله عليه وآله مثل ذلك .

قوله عليه السلام : « فاربِعُ أبا العباس » ، أى قِفْ وتثبت فى جميع ماتعمده فعلا
وقولا من خيرٍ وشر ، ولا تعجل به فإني شريكك فيه إذ أنت عاملى والنائب عني .
ويعنى بالشر هاهنا الضرر فقط ، لا الظلم والفعل القبيح .

قوله عليه السلام : « وكن عند صالح ظنى فيك » ، أى كن واقفا عنده كأنك
تشاهده فتمنعك مشاهدته عن فعلٍ مالا يجوز .
قال الراى يقيل ، أى ضعف وأخطأ .

[فصل فى بنى تميم وذكربعض فضائلهم]

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتاب " التاج " ، أن لبنى تميم ماثر لم
يشرَ لهم فيها غيرهم . أما بنو سعد بن زيد مناة فلها ثلاث خصال يعرفها العرب :
إحداها : كثرة العدد فإنه أضعف عددها على بنى تميم حتى ملأت السهل والجبل
عدلت مضر كثرة ، وعامة العدد منها فى كعب بن سعد بن زيد مناة ، ولذلك قال أوس
ابن مفرأء :

كَعْبِي مِنْ خَيْرِ الْكَعَابِ كَعْبًا مِنْ خَيْرِهَا فَوَارِسًا وَعَقْبًا
* تَعْدِلُ جَنْبًا وَتَمِيمُ جَنْبًا *

وقال الفرزدق أيضا فيهم هذه الأبيات :

لو كنتَ تَعْلَمَ ما بَرِمَلِ مُوسَيْلِ فَقَرَى عُثْمَانَ إِلَى ذَوَاتِ حُجُورِ
لعلتَ أَنْ قَبَانِلا وَقَبَانِلا مِنْ آلِ سَعْدِ لَمْ تَدِنْ لِأَمِيرِ

وقال أيضا :

تَبَكَّى عَلَى سَعْدٍ وَسَعْدٌ مَقِيمَةٌ بِيَبْرِينَ قَدْ كَادَتْ عَلَى النَّاسِ تَضْعُفُ (١)

ولذلك كانت تسمى سعد الأكثرين . وفي المثل : « في كل واد بنو سعد » (٢) .

والثانية : الإفاضة في الجاهلية ، كان ذلك في بني عطار ، وهم يتوارثون ذلك كإبراً عن كابر ، حتى قام الإسلام ، وكانوا إذا اجتمع الناس أيام الحج بمنى لم يبرح أحد من الناس ديناً وسنة حتى يجوز القائم بذلك من آل كرب بن صفوان ، وقال أوس ابن مغراء :

ولا يريون في التعريف موقفهم حتى يقال : أجزوا آل صفواناً

وقال الفرزدق :

إذا ما التقينا بالحصب من منى صبيحة يوم النحر من حيث عرفوا (٣)

ترى الناس ما سرنا يسرون حولنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

والثالثة : أن منهم أشرف بيت في العرب الذي شرفته ملوك نلم . قال المنذر بن

المنذر بن ماء السماء ذات يوم وعنده وفود العرب ودعا ببردئ أبيه محرّق بن المنذر

فقال : ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسبا . فأحجم الناس ، فقال أحيمر بن

(١) ديوانه ٥٦٩ .

(٢) جمع الأمثال ٢ : ٨٣ ؛ ولفظه فيه : « في كل أرض سعد بن زيد » ؛ قاله الأصبط بن قريم .

(٣) عرفوا ؛ أى وقفوا بعرفات .

خَلَفَ بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم : أنا لهما ، قال الملك :
بماذا ؟ قال : بأنَّ مُضَرَ أكرمُ العرب وأعزُّها وأكثرُها عددا ، وأنَّ تَمِيمًا كاهلُها (١)
وأكثرُها ، وأنَّ بَيْتَها وعددها في بني بهدلة بن عوف ، وهو جدِّي . فقال : هذا
أنت في أصلِك وعشيرتك ، فكيف أنت في عِترتك وأدانيك !

قال : أنا أبو عَشْرَةَ ، وأخو عَشْرَةَ ، وعمُّ عَشْرَةَ . فدفعهما إليه ، وإلى هذا أشار
الزُّبَيْرِ قَانُ بنُ بدر في قوله :

وَبُرْدَا ابنِ ماءِ المِزْنِ عَمِّي اِكْتَسَاهُمَا
بِفَضْلِ مَعَدِّ حَيْثُ عُدَّتْ مَحَاصِلُهُ
قال أبو عُبَيْدَةَ : ولهم في الإسلام خِصْلَةٌ ، قدِمَ قَيْسُ بنُ عاصمِ المَنقرِيّ على رسولِ الله
صلى الله عليه وآله في نفرٍ من بني سعد ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « هذا
سَيِّدُ أَهْلِ الوَبْرِ » ، فجعله سَيِّدَ خِنْدِفٍ وقَيْسُ ممن يَسْكُنُ الوَبْرَ .

قال : وأما بنو حَنْظَلَةَ بن مالك بن زيد مناة بن تميم فلهم خِصَالٌ كثيرة . قال : في
بني دارم بن مالك بن حَنْظَلَةَ ، وهو بيتُ مُضَرَ ، فمن ذلك زُرَّارَةُ بنِ عُدَسِ بن زيد بن
دارم يقال : إنه أشرفُ البيوتِ في بني تميم ، ومن ذلك قَوْسُ حَاجِبِ بنِ زُرَّارَةَ المَرْهونَةُ
عند كِسْرَى عن مُضَرَ كُلِّهَا ، وفي ذلك قيل :

وَأَقْسَمَ كِسْرَى لا يَصَالِحُ واحِداً
مِنَ النَّاسِ حَتَّى يَرَهُنَ القَوْسَ حَاجِبُ
ومن ذلك في بني مُجَاشِعِ بن دارم صَعَصَعَةُ بن ناجية بن عقاب بن محمد بن سُفْيَانَ
ابن مجاشع ، وهو أوَّلُ من أحيا الوَيْدَ ، قام الإسلامُ وقد اشترى ثلاثمائة مَوْءُودَةٍ فَأَعْتَقَهُنَّ
وربَّاهن ، وكانت العرب تَتِيذُ البناتِ خِوْفَ الإِملاقِ .

ومن ذلك غَالِبُ بن صَعَصَعَةَ ، وهو أبو الفِرْزَدِقِ ، وغالبُ هو الذي قرى مائة
ضَيْفٍ ، واحتمَلْ عَشْرَ دِياتٍ لِقَوْمٍ لا يَعْرِفُهُمْ ، وكان من حديث ذلك أنَّ بني كَلْبِ

(١) كاهلها ، أى أعلاها .

ابن وبرة افتخرتَ بينها في أُنْدِيتِها ، فقالت : نحن لبأسُ العربِ وقلبُها ، ونحن الذين
لأننا زاع حسباً وكرمًا . فقال شيخُ منهم : إنَّ العربَ غيرُ مقرّةٍ لكم بذلك ، إنَّ لها
أحسابا ، وإنَّ منها لبابا ، وإنَّ لها فعالا ، ولكن ابعثوا مائةً منكم في أحسنِ هيئةٍ وبرة
ينفرونَ من مرثوا به في العربِ ويسألونه عَشْرَ دياتٍ ، ولا يَنْتَسِبونَ له ، فمن قرأهم وبذلَ
لهم الدِّيَّاتِ فهو الكريمُ الذي لا يُنْزَعُ فضلا ؛ فخرجوا حتّى قدِموا على أرضِ بني تميم
وأسد ، فنَفَرُوا الأحياءَ حيًّا فحياً ، وماءً فماءً ، لا يجدونَ أحداً على ما يريدون ؛ حتّى مرّوا على
أَكْشَمِ بنِ صَيْفِيٍّ ، فسألوه ذلك ، فقال : مَنْ هؤلاءِ القَتلى ؟ وَمَنْ أنتم ؟ وما قَصَّتْكم ؟ فإنَّ
لكم لَشَأْناً باختلافكم في كلامِكُمْ ! فعدَلُوا عنه ، ثم مرّوا بقتيبة بن الحارث بن شهاب
اليربوعيّ فسألوه عن ذلك ، فقال : مَنْ أنتم ؟ قالوا : من كلبِ بنِ وبرة . فقال : إني لأبغى
كلباً بدم ، فإن انسأخ الأشهر الحرّم وأنتم بهذه الأرض وأدرَككم الخليلُ نكَلْتُ بكم
وأثكَلْتُكم أمهاتِكُمْ . فخرجوا من عنده مرعوبين ، فرمّوا بعطارد بن حاجب بن زُرارة ،
فسألوه ذلك ، فقال : قولوا بيّاناً وخذوها ، فقالوا : أمّا هذا فقد سألكم قبل أن يُعْطِيَكُم
فتركوه ، ومرّوا ببني مجاشع بن دارم فأتوا على وادٍ قد امتلأ إبلا فيها غالبُ بنِ صَعْصَعَةٍ هِنَا^(١)
منها إبلا ، فسألوه القرى والدِّيَّاتِ ، فقال : ها كم البزل قبل النزول فابتزّوها من البرك وحوزوا
دياتكم ، ثم انزلوا ، فتنزلوا وأخبروه بالحال ، وقالوا : أرشدك اللهُ من سيّدِ قوم ! لقد أرحتنا
من طول النَّصَبِ ، ولو عَلِمْنَا لقصدنا إليك ، فذلك قول الفرزدق :

فَلَهُ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَ غَالِبٍ قَرَى مائةً ضيقاً ولم يتكلم^(٢)
وإذ نبحت كلبٌ على الناس إنهم أحقُّ بتاج الماجد المتكرم

(١) هنا الإبل يهنؤها : طلاها بالهاء ، وهو النظران .

(٢) ديوانه ٧٥٩ ، وروايته : « ألا هل علمت ميتا قبل غالب » .

فلم يجعل عن أحسابها غير غالب جرى بعناني كل أبلج خضرم^(١)
قال : فأما بنو يربوع بن حنظلة ، فمنهم . ثم من بني رياح بن يربوع عتاب بن هرمي
ابن رياح ، كانت له ردافة الملوك ، ملوك آل المنذر ، و ردافة الملك أن يثنى به في الشرب ،
وإذا غاب الملك خلفه في مجلسه ، وورث ذلك بنوه كبراً عن كابر ، حتى قام الإسلام ،
قال لبيد بن ربيعة :

وشهدت أنجبة الأكارم غالباً كعبي وأرداف الملوك شهود^(٢)
ويربوع أول من قتل قتيلاً من المشركين ، وهو واقد بن عبد الله بن ثعلبة بن
يربوع ، حليف عمر بن الخطاب ، قتل عمرو بن الحضرمي في سرية نخلة ، فقال عمر
ابن الخطاب يفتخر بذلك :

سقيناً من ابن الحضرمي رماحناً بنخلة لما أوقد الحرب واقد
وظل ابن عبد الله عثمان بيننا يئازعه غل من القد عاند^(٣)
ولها جواد العرب كلها في الإسلام ؛ بدأ العرب كلها جوداً ، خالد بن عتاب بن ورقاء
الرياحي . دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، وكان يشنؤه لكثرة باؤه^(٤) ونفره ،
فتجهمه وتنكر له ، وأغلظ في خطابه حتى قال : من أنت لأأم لك ! قال : أوما تعرفني
يا أمير المؤمنين ؟ أنا من حيهم من أوفى العرب ، وأحلم العرب ، وأسود العرب ، وأجود العرب
وأشجع العرب ، وأشعر العرب . فقال سليمان : والله لتحتجن لما ذكرت أو لأوجعن ظهرك ،
ولأبعدن دارك . قال : أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة ؛ رهن قوسه عن العرب
كلها وأوفى . وأما أحلم العرب فالأحنف بن قيس يضرب به المثل حلاً ، وأما أسود
العرب فقيس بن عاصم ، قال له رسول الله صلى الله عليه وآله : « هذا سيد أهل الوبر » ؛

(١) الأبلج : الواضح . والحضرم : الجواد المعطاء .

(٢) الغل بالضم : طوق من حديد يجعل في العنق ، والجمع أغلال .

(٣) لم أجد في ديوانه .

(٤) البأو : الفخر .

وأما أشجعُ العربِ فالخريش بنُ هلال السعديّ ؛ وأما أجودُ العربِ فخالدُ بنُ عتّاب ابن ورقاء الرياحيّ ، وأما أشعرُ العربِ فهأنذا عندك ! قال سليمان : فما جاء بك ؟ لا شيء لك عندنا ، فأرجع على عقبك ؛ وغمه ما سمع من عِزّه ، ولم يستطع له ردًا ، فقال الفرزدق في أبيات :

أَتَيْنَاكَ لَا مِنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا إِلَيْكَ وَلَا مِنْ قَلَّةٍ فِي مَجَاشِعِ^(١)

قلتُ : ولو ذكر عُتَيْبَةُ بنُ الحارث بن شهاب اليزبوعيّ وقال : إنه أشجعُ العربِ لكان غيرَ مُدافع . قالوا : كانت العرب تقول : لو وَقَعَ القمرُ إلى الأرض لما التَّقَفَهُ إِلَّا عُتَيْبَةُ بنُ الحارث لثقافته بالرُّمَح . وكان يقال له : صياد الفوارس وسمّ الفوارس ، وهو الذي أسرَّ بسطامَ بن قيس ، وهو فارس ربيعة وشجاعها ، ومكث عنده في القيد مدة حتّى استوفى فِدَاءَهُ وَجَزَّ ناصيته ؛ وخلق سبيله على ألا يفزوا بنى يربوع . وعُتَيْبَةُ هذا هو المقدم على فرسان العرب كلها في كتاب طبقات الشجعان ومقاتل الفرسان ، ولكن الفرزدق لم يذكره وإن كان تميميًا ، لأن جريرا يفتخر به ، لأنه من بنى يربوع ، فحملته عداوة جرير على أن عدل عن ذكره .

قال أبو عبيدة : ولبنى عمرو بن تميم خِصَالٌ تعرفها لهم العرب ولا يَنَازِعُهُمْ فِيهَا^(٢)

أحد ؛ فمنها أكرمُ الناس عمّا وعمّة ، وجدًّا وجدّة ، وهو هند بن أبي هالة ، واسم أبي هالة نباش بن زُرارة أحد بنى عمرو بن تميم ، كانت خديجة بنت خويلد قبل

(١) ديوانه ٤٩١ .

(٢) ١ : « عليها » .

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَحْتَ أَبِي هَالَةَ ، فَوَلَدَتْ لَهُ هِنْدًا ، ثُمَّ تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهَنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ غُلَامٌ صَغِيرٌ ، فَتَبَنَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ثُمَّ وَلَدَتْ خَدِيجَةَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الْقَاسِمَ وَالطَّاهِرَ وَزَيْنَبَ وَرَقِيَّةَ وَأُمَّ كَلْثُومَ وَفَاطِمَةَ ، فَكَانَ هَنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ أَخَاهُمْ لِأُمَّهُمْ ، ثُمَّ أَوْلَدَ هَنْدُ بْنُ أَبِي هَالَةَ هَنْدَ بْنَ هَنْدٍ ، فَهَنْدُ الثَّانِي أَوْ كَرُمُ النَّاسِ جَدًّا وَجَدَّةً ، يَعْنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ ، وَأَوْ كَرُمُ النَّاسِ عَمًّا وَعَمَّةً - يَعْنِي بَنِي النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَنَاتِهِ .

وَمِنْهَا أَنْ لَمْ أَحْكَمْ الْعَرَبُ فِي زَمَانِهِ أَوْ كَثْمُ بْنُ صَيْفِيٍّ ؛ أَحَدُ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَيْمٍ ، كَانَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ حِكْمًا وَمَثَلًا وَمَوْعِظَةً سَائِرَةً .

وَمِنْهَا ذُو الْأَعْوَازِ ، كَانَ لَهُ خَرَاجٌ عَلَى مَضْرُوفَةٍ تُوَدِّيهِ إِلَيْهِ ، فَشَاخَ حَتَّى كَانَ يُحْمَلُ عَلَى سَرِيرٍ يُطَافُ بِهِ عَلَى مِيَاهِ الْعَرَبِ ، فَيُوَدِّيهِ إِلَيْهِ الْخَرَاجُ ، وَقَالَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرٍ النَّهْشَلِيُّ وَكَانَ ضَرِيرًا :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ خَلْفَ مَا تُنَاشِي أَنْ السَّبِيلَ سَبِيلُ ذِي الْأَعْوَازِ

وَمِنْهَا هَالَالُ بْنُ أَحْوَزِ الْمَازِنِيِّ الَّذِي سَادَ تَمِيمًا كُلَّهَا فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَمْ يَسُدَّهَا غَيْرُهُ .

قَالَ : وَدَخَلَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ الْخَزْرَوِيَّ مَسْجِدَ الْكُوفَةِ ، فَانْتَهَى إِلَى حَلْقَةٍ فِيهَا أَبُو الصَّقْعَبِ التَّيْمِيُّ ، مِنْ تَيْمِ الرَّبَابِ ، وَالْخَزْرَوِيَّ لَا يَعْرِفُهُ ، وَكَانَ أَبُو الصَّقْعَبِ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ ، فَلَمَّا سَمِعَ عِلْمَهُ وَحَدِيثَهُ حَسَدَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : مِنْ تَيْمِ الرَّبَابِ ؛ فَظَنَّ الْخَزْرَوِيُّ أَنَّهُ وَجَدَ فُرْصَةً ، فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ سَعْدِ الْأَكْثَرِينَ وَلَا مِنْ حَنْظَلَةِ الْأَكْرَمِينَ ، وَلَا مِنْ عَمْرٍو الْأَشْدِيِّنَ ! فَقَالَ أَبُو الصَّقْعَبِ : فَمِمَّنِ أَنْتَ ؟ قَالَ مِنْ بَنِي خَزْرُومٍ . قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَنْتَ مِنْ هَاشِمِ الْمُنْتَخَبِينَ ، وَلَا مِنْ أُمِيَّةِ الْمُسْتَخْلَفِينَ ،

ولا من عبد الدار المستحجبين ، فبِمَ تَفخَرَ ؟ قال : نحن رِيحانة قريش ، قال أبو الصقعب :
قُبِحَ لِمَا جِئْتَ بِهِ ! وهل تدري لم سَمَّيتَ مخزوم رِيحانة قريش ؟ سَمَّيتَ لِحُطْوَةِ نِسَائِهَا
عند الرجال ، فأفحَمَه .

رَوَى أبو العباس المبرِّدُ في كتاب " الكامل " ، أن معاوية قال للأخنف بن قيس
وجارية ^(١) بنِ قُدَّامة ورجالٍ من بني سعد معهما كلاما أحفظَهم ، فرَدُّوا عليه جواباً مُقدِّعاً ،
وامرأته فاختة بنت قرظة في بيتٍ يَقْرُبُ منهم ، وهي أم عبد الله بن معاوية ، فسمعتُ
ذلك ، فلما خرجوا قالت : يا أمير المؤمنين ، لقد سمعتَ من هؤلاء الأجلاف كلاماً تَلَقَّوكَ
به فلم تُنكِرِ ، فكذتُ أن أخرج إليهم فأسطَوْا بهم ! فقال معاوية : إن مضرَ كاهِلُ
العَرَبِ ، وتيميا كاهِلُ مُضرٍ ، وسعدا كاهِلُ تميمٍ ، وهؤلاء كاهِلُ سعد ^(٢) .

وَرَوَى أبو العباس أيضاً أن عبد الملك ذَكَرَ يوماً بني دارِمٍ فقال أحدُ جُلَسَائِهِ :
يا أمير المؤمنين ، هؤلاء قومٌ مَحْظُوظُونَ - يعني في كثرة النَسْلِ وِنَمَاءِ الذرية - فلذلك انتَشَرَ
صِيَّتُهُمْ . فقال عبد الملك : ماتقول ! هذا وقد مضى منهم لَقِيْطُ بْنُ زُرَّارة ولم يُخَلِّفْ عَقِيباً ،
ومضى قَعْقَاعُ بْنُ مَعْبَدٍ بْنُ زُرَّارة ولم يُخَلِّفْ عَقِيباً ، ومضى مُحَمَّدُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ عَطَّارِ بْنِ
حَاجِبِ بْنِ زُرَّارة ولم يُخَلِّفْ عَقِيباً ! والله لا تَنسَى العَرَبُ هذه الثلاثة أبداً ^(٣) .

قال أبو العباس : إنَّ الأَصمعيَّ قال : إنَّ حَرَباً كانت بالبادية ثم اتصَلتْ بالبصرة ،
فَتَفَاقَمَ الأمرُ فيها ، ثم مَشَى بين الناس بالصلح ، فَأَجْتَمَعُوا في المسجد الجامع . قال : فُبِعِثْتُ
وأنا غلامٌ إلى ضِرَّارِ بْنِ القَعْقَاعِ من بني دارِمٍ ، فاستأذنتُ عليه ، فَأُذِنَ لِي ، فدخلتُ ،
فإذا به في شِمْلَةٍ يَخْلُطُ بزرّاً لعنِزٍ له حُلُوبٌ ، فخَبَرْتَهُ بمَجْتَمَعِ القومِ ، فَأَمْهَلَ حَتَّى أَكَلتِ
العَنزُ ، ثم غَسَلَ الصَّحفة وصاح : يا جارية ، غَدَّينا ، فَأَتَتْهُ بِنَزِيَّتِ وتَمِرٍ ، فدعاني ، ففَقَدَرْتَهُ

(١) ب : « حارثة » ، والصواب ما في ١ والكامل .

(٢) الكامل ١ : ٣٠٨ .

(٣) الكامل ١ : ٦٥ .

أن آكل معه حتى إذا قضى من أكله وحاجته وطرا وتب إلى طينٍ مُلَقَى في الدار، فغسل به يده ، ثم صاح : يا جارية ، اسقيني ماءً ؛ فأنته بماء ، فشر به ومسح فضله على وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ماء الفرات بتمر البصرة بزيت الشام ، متى نؤدى شكر هذه النعم ! ثم قال : على بردائي ، فأنته برداء عدني^(١) فارتدى به على تلك الشملة . قال الأصمعي : فتجافيتُ عنه استقباحاً لزيه ، فلما دخل المسجد صلى ركعتين ، ثم مشى إلى القوم ، فلم تبق حُبوةٌ إلا حلت إعظاماً له ، ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحياء في ماله ثم انصرف^(٢) .

قال أبو العباس : وحدثني أبو عثمان المازني ، عن أبي عبيدة ، قال : لما أتى زيادُ ابنُ عمرو المرَبَدَ في عقب قتل مسعود بن عمرو العتكي ، وجاء زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي ليثأر به من بني تميم صف أصحابه ، فجعل في الميمنة بكر بن وائل ، وفي الميسرة عبد القيس ، وهم لُكَيْز بن أفضى بن دُعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة ، وكان زياد بن عمرو العتكي في القلب ، فبلغ ذلك الأحنف بن قيس ، فقال : هذا غلامٌ حدث ، شأنه الشهرة ، وليس يبالي أين قَدَف بنفسه ! فندب أصحابه ، فجاءه حارثة بن بدر الغداني ، وقد اجتمعت بنو تميم ، فلما أتى^(٣) قال : قوموا إلى سيديكم ، ثم أجلسه فناظره ، فجعلوا سعداً والرباب في القلب ورئيسهم عبس بن طلق الطعان المعروف بأخي كهمس ، وهو أحد بني صريم بن يربوع ، فكانوا بجذاء زياد بن عمرو ومن معه من الأزد ، وجعل حارثة بن بدر الغداني في بني حنظلة بجذاء بكر بن وائل ، وجعل عمرو بن تميم بجذاء عبد القيس ، فذلك حيث يقول حارثة بن بدر للأحنف :

سيكفيك عبسُ أخو كهمسٍ مقارعةَ الأزدِ في المرَبَدِ^(٤)
ويكفيك عمرو على رسلها لُكَيْز بن أفضى وما عددوا

(١) عدني : منسوب إلى عدن أين ، وهي جزيرة باليمن ، تنسب إليها الثياب العدنية .

(٢) الكامل : ١ : ١٣٩ .

(٣) الكامل : « طلع » .

(٤) في هذا البيت إقواء .

وَنَكْفِيكَ بَكَرًا إِذَا أَقْبَلْتُ بِضَرْبِ يَشِيبُ لَهُ الْأَمْرُدُ

وَلُكَيْزُ بْنُ أَفْصَى تَعَمَّ عَبْدَ الْقَيْسِ . قَالَ : فَلَمَّا تَوَاقَفُوا بَعَثَ إِلَيْهِمُ الْأَحْنَفُ : يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ مِنَ الْيَمَنِ وَرَبِيعَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، أَنْتُمْ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَمِيمِ الْكُوفَةِ ، وَأَنْتُمْ جِيرَانُنَا فِي الدَّارِ ، وَوِدْنَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَنْتُمْ بَدَأْتُمُونَا بِالْأَمْسِ ، وَوَطَّئْتُمْ حَرِيمَنَا ، وَحَرَّقْتُمْ عَلَيْنَا ، فَدَفَعْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا ، وَلَا حَاجَةَ لَنَا فِي الشَّرِّ مَا طَلَبْنَا فِي الْخَيْرِ مَسَلْنَا ، فَتَيَمَّمُوا بِنَا طَرِيقَةً مُسْتَقِيمَةً ^(١) . فَوَجَّهَ إِلَيْهِ زِيَادُ بْنُ عَمْرٍو ، تَخَيَّرَ خَلَّةً مِنْ ثَلَاثٍ : إِنْ شِئْتَ فَانْزِلْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ عَلَى حَكْمِنَا ، وَإِنْ شِئْتَ نَخْلُ لَنَا عَنِ الْبَصْرَةِ ، وَارْحَلْ أَنْتَ وَقَوْمُكَ إِلَى حَيْثُ شِئْتُمْ ، وَإِلَّا فَدَوُوا قَوْلَانَا ، وَاهْدُرُوا دِمَاءَكُمْ ، وَليُودَ مَسْعُودَ دِيَةِ الْمُشْعِرَةِ .

.. قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : وَتَأْوِيلُ قَوْلِهِ : « دِيَةِ الْمُشْعِرَةِ » ، يَرِيدُ أَمْرَ الْمُلُوكِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا قُتِلَ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ وَدِيَّ عَشْرَ دِيَّاتٍ - فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْأَحْنَفُ : سَنَخْتَارُ . فَانْصَرَفُوا فِي يَوْمِكُمْ ، فَهَزَّ الْقَوْمُ رَايَتَهُمْ وَأَنْصَرَفُوا ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ بَعَثَ الْأَحْنَفُ إِلَيْهِمْ : إِنَّكُمْ خَيْرْتُمُونَا خِلَالًا لَيْسَ لَنَا فِيهَا خِيَارٌ ، أَمَّا النُّزُولُ عَلَى حَكْمِكُمْ فَكَيْفَ يَكُونُ وَالْكَلْمُ ^(٢) يَقْطُرُ ، وَأَمَّا تَرْكُ دِيَارِنَا فَهُوَ أَخُو الْقَتْلِ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ ^(٣) 》 ، وَلَكِنَّ الثَّلَاثَةَ إِنَّمَا هِيَ تَحْمَلُ عَلَى الْمَالِ ، فَنَحْنُ نُبْطِلُ دِمَاءَنَا ، وَنَدِي قَتْلَكُمْ ، وَإِنَّمَا مَسْعُودُ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَقَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ . فَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ عَلَى أَنْ يَقِفُوا أَمْرَ مَسْعُودَ ، وَيُعْمِدُوا السِّيفَ ، وَتُودَى سَائِرُ الْقَتْلَى مِنَ الْأَزْدِ وَرَبِيعَةَ ، فَضَمَّنَ ذَلِكَ الْأَحْنَفُ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ إِيَّاسَ بْنَ قَتَادَةَ الْمَجَاشِعِيِّ رَهِينَةً حَتَّى يُودَى هَذَا الْمَالُ ، فَرَضَى بِهِ الْقَوْمُ ، فَفَخِرَ بِذَلِكَ الْفَرَزْدَقُ ، فَقَالَ لَجْرِيرَ :

(٢) الكلم : الجرح .

(١) الكامل : « قاصدة » .

(٣) سورة النساء ٦٦ .

ومنا الذى أعطى يديه رهينة لغارى معد يوم ضرب الجمجم^(١)
عشية سأل المربدان كلاهما مجاجة موت بالسيف الصوارم
هنالك لو تبغى كليباً وجدتها أذلّ من القردان تحت المناسم
ويقال: إن تيمّا فى ذلك الوقت مع باديتها وحلفائها من الأساورة والزطّ والسباجمة
وغيرهم كانوا زهاء سبعين ألفاً، وفى ذلك يقول جرير:

سائلٌ ذوى يمنٍ ورهطٍ محرّقى والأزد إذ ندبوا لنا مسعوداً^(٢)
فاتاهم سبعون ألف مدججٍ متسرّبلين يلامقاً وحديداً^(٣)
قال الأحنف بن قيس: فكثرت على الديات فلم أجدها فى حاضرة تميم، فخرجت
نحو يبرين إلى بادية تميم، فسألت عن المقصود هناك، فأرشدت إلى قبة، فإذا شيخٌ
جالس بفنائها مؤتزر بشملة، مُحْتَبٍ بجبل، فسألتُ عليه، وانتسبتُ له، فقال لى:
ما فعل رسولُ الله صلى الله عليه وآله؟ قلتُ: توفى. قال: فما فعل عمر بن الخطاب الذى
كان يحفظ العرب ويحوطها؟ قلتُ: توفى. قال: فأى خير فى حاضرتمك بعدهما؟ قال:
فذكرتُ له الديات التى لزمتمنا للأزد وربيعة، قال: فقال لى: أقم، فإذا راعٍ قد أراح
عليه ألف بعير، فقال: خذها، ثم أراح علينا آخر مثلها، فقال: خذها، فقلتُ: لأحتاج
إليها. قال: فانصرفتُ بالألف عنه، ووالله ما أدرى من هو إلى الساعة^(٤)!

(١) ديوانه ٨٦١. والفران، مثنى غار، وهو الجيش. (٢) ديوانه ١٧٢؛ وهو مسعود بن عمرو العنكى.

(٣) اليلامق: جم يلمق؛ وهو القباء، فارسى معرب. وفى الكامل: «يلامعا»، واليلامع: هو الدرغ.

(٤) الكامل ١: ١٤٠ - ١٤٣.

(١٩)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلَ بَلَدِكَ شَكَوُوا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً ، وَاحْتِقَارًا
وَجَفْوَةً ، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلًا لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرِّ كَيْهَمٍ ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجَفَّوْا
لِعَمْدِهِمْ ، فَالْبَسَ لَهُمْ جَلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ تَشْبُهُهُ بِطَرْفِ مِنَ الشِّدَّةِ ، وَدَاوِلَ لَهُمْ بَيْنَ
الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَأَمْزَجَ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ .
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْبُنْجُ :

الدّهاقين : الزعماء أربابُ الأملاك بالسّواد ، واحدهم دهقان بكسر الدال ،
ولفظه معرّب .

وداويل بينهم ، أى مرّة هكذا ومرّة هكذا ، أمره أن يسلك معهم منبجاً
متوسطاً ، لا يُدنيهم كلّ الدنوّ لأنهم مُشركون ، ولا يقصّهم كلّ الإقصاء لأنهم
مُعاهدون ، فوجب أن يعاملهم معاملةً آخذةً من كلّ واحدٍ من القسمين بنصيب .

(٢٠)

الأضل

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة - وعبد الله عامل أمير المؤمنين عليه السلام يومئذ عليها وعلى كور الأهواز وفارس وكرمان وغيرها :

وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللَّهِ قَسَمًا صَادِقًا ، لَنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِئَةِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، لِأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً تَدْعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ ؛ ضَيْئِلَ الْأَمْرِ . وَالسَّلَامُ .

الشرح :

سيأتي ذكر نسب زياد وكيفية استلحاق معاوية له فيما بعد إن شاء الله تعالى . قوله عليه السلام : « لِأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةً » ، مثل قوله : « لِأَحْمِلَنَّ عَلَيْكَ حَمَلَةً » ، والمراد تهديده بالأخذ واستصفاء المال .

ثم وصف تلك الشدة فقال : « إِنَّمَا تَتْرَكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ » ، أى أفقرك بأخذ ما احتجت من بيت مال المسادين .

وثقيل الظهر ، أى مسكين لا تقدر على مئونة عيالك .

وضئيل الأمر ، أى حقير ، لأنك إنما كنت نبيها بين الناس بالغنى والثروة ، فإذا افتقرت صغرت عندهم ، واقتحمتك أعينهم .

(٢١)

الأضل

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد أيضا :

فَدَعَ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِدًا ، وَأَذْكَرُ فِي الْيَوْمِ غَدًا ، وَأَمْسِكَ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ
ضُرُورَتِكَ ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ ، أترَجُّو أَنْ يُعْطِيكَ اللَّهُ أَجْرَ
الْمَتَوَاضِعِينَ ، وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ ! وَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ أَنْ تَمْنَعَهُ
الصَّعِيفَ وَالْأرْمَلَةَ ، وَأَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ ؛ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا
أَسْلَفَ ، وَقَادِمٌ عَلَى مَا قَدَّمَ . وَالسَّلَامُ .

الشنخ :

المتمرِّغ في النِّعَمِ : المتقلِّب فيه . ونهاه عن الإسراف وهو التبذير في الإنفاق ،
وأمره أن يُمْسِكَ من المال ما تدعو إليه الضرورة ، وأن يقدم فضول أمواله وما ليس له
إليه حاجة ضرورية في الصدقة فيدخره ليوم حاجته ، وهو يوم البعث والنشور .
قلتُ : قَبَّحَ اللَّهُ زيادا ! فإنه كافأ إناعام على عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له
بملاحة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبِّيه والإسراف في لعنه ، وتهجين
أفعاله ، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضى باليسير منه ، ولم يكن يفعل ذلك لطلب
رضا معاوية ، كلا ، بل يفعله بطبعه ، ويعاديه بباطنه وظاهره ، وأبى الله إلا أن يرجع إلى
أمه ، ويصحح نسبه ، وكلُّ إناء ينضح بما فيه . ثم جاء ابنه بعد نفتم تلك الأعمال السيئة
بما ختم ، وإلى الله ترجع الأمور !

(٢٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رحمه الله تعالى ، وكان ابنُ عباس يقول : ما انتفعتُ بكلامٍ بعدَ كلامِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله كانتفاعي بهذا الكلام :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسْرُهُ دَرَكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ ، وَيَسُوهُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ ، وَلْيَكُنْ أَسْفُكَ عَلَى مَا فَاتَكَ مِنْهَا ، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحًا ، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعًا ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

الشَّيْخُ :

يقول : إنَّ كلَّ شيءٍ يصيب الإنسانَ في الدُّنيا من نفعٍ وضرٍّ فبقضاءِ الله وقدرِهِ تعالى ؛ لكنَّ الناسَ لا ينظرونَ حقَّ النظرِ في ذلك ، فيسَرُّ الواحدُ منهم بما يصيبه من النِّفع ، ويُساءُ بفوْتِ ما يفوته منه ، غيرَ عالمٍ بأنَّ ذلك النِّفعَ الَّذي أصابه ، كان لا بدَّ أن يصيبه ، وأنَّ ما فاتته منه كان لا بدَّ أن يفوته ، ولو عرَفَ ذلك حقَّ المعرفة لم يفرح ولم يحزن .

ولقائلٍ أن يقول : هَبْ أن الأمورَ كلِّها بقضاءِ وقَدَرٍ ، فلم لا ينبغي للإنسانِ أن يفرح بالنِّفع وإن وقع بالقَدَرِ ، ويُساءُ بفوْتِهِ أو بالضررِ وإن وقعَ بقَدَرٍ ! أليس العُرْيَانُ يُساءُ

بقدم الشتاء وإن كان لا بدّ من قدومه ، والمحمومُ غيباً^(١) يساء بتجدد نوبة الحمى ، وإن كان لا بدّ من تجددّها ! فليس سبب الاختيار في الأفعال ممّا يوجب أن لا يسرّ الإنسان ولا يساء بشيء منها .

والجواب ينبغى أن يُحمَل هذا الكلامُ على أن الإنسان ينبغى أن لا يعتقد في الرزق أنه أتاہ بسعيه وحرّكته فيفترح مُعجّباً بنفسه ، معتقداً أن ذلك الرزق ثمرةُ حرّكته واجتهاده ، وكذلك ينبغى ألا يساء بفوات ما يفوته من المنافع لأنّ نفسه في ذلك ناسباً لها إلى التقصير وفسادِ الحيلة والاجتهاد ، لأنّ الرزق هو من الله تعالى لا أثر للحركة فيه ، وإن وقع عندها ؛ وعلى هذا التأويل ينبغى أن يُحمَل قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ * لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَافَاتِكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢﴾ .

من النظم الجيد الروحانيّ في صفة الدنيا والتحذير منها ، والوصاة بترك الاعتزازِ بها ، والعمل لما بعدها ، ما أورده أبو حيان في كتاب ” الإشارات الإلهية ” ، ولم يسمّ قائله :

دارُ الفجائعِ والهمومِ ودا	ر البثّ والأحزانِ والبَلوى
مرُّ المذاقةِ غبّ ما احتلبتُ	منها يدّاكِ وبيّة المرعى
بيننا الفتى منها بمنزلةٍ	إذ صار تحت ترابها ملقى
تقفو مساويها محاسنها	لا شيء بين النعى والبشرى
ولقلّ يومٌ ذرّ شارقه	إلا سمعت بهالكِ يُنعى
لا تعبنّ على الزمانِ لما	يأتى به فلقه يرضى

(٢) سورة الحديد ٢٢ ، ٢٣ .

(١) الغب من الحمى : ما تأخذ يوماً وتدع يوماً .

للمرء رزقٌ لا يفوت ولو جَهد الخلائقُ دونَ أن يفنى
يا عامرَ الدنيا المعدَّ لها ماذا عمِلتَ لدارك الأخرى !
ومهدَّ الفرشَ الوطيئةَ لا تُفعلُ فرَاشَ الرقَّةِ الكبرى
لو قد دُعيتَ لقد أجبتَ لما تُدعى له فانظر متى تُدعى !
أتركُ تُحصى كم رأيتَ من الـ أحياء ثم رأيتهم موتى
من أصبحتَ دنياه همته فتى ينالُ الفايةَ القُصوى !
سبحانَ من لا شيء يعدُّه كم من بصير قلبه أعمى !
والموتُ لا يخفى على أحدٍ ممن أرى وكأنه يخفى
والليلُ يذهبُ والنهارُ بأحبابي ، وليس عليهما عدوى

(٢٣)

الأصل

ومن كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضرب به ابن ملجم لعنه الله :

وَصِيَّتِي لَكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَلَا تُضَيِّعُوا سَنَّتَهُ ، أَقِيمُوا هَذِينَ الْعُمُودَيْنِ ، وَأَوْقِدُوا هَذِينَ الْمِصْبَاحَيْنِ ، وَخَلَاكُمْ ذَمًّا !
أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ ، وَغَدًا مُفَارِقُكُمْ ، إِنْ أَبَقَ فَأَنَا وِلِيُّ دَمِي ، وَإِنْ أَفَنُ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي ، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ ، فَاعْفُوا : ﴿ أَلَّا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١) .

وَاللَّهُ مَا فَجَّأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدُ كَرِهْتُهُ ، وَلَا طَالِعُ أَنْ كَرِهْتُهُ ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ ، وَطَالِبٍ وَجَدَ ؛ ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ (٢) .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَقُولُ وَقَدْ مَضَى بَعْضُ هَذَا الْكَلَامِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ الْخُطْبِ ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ هَاهُنَا زِيَادَةٌ أَوْجَبَتْ تَكَرُّرَهُ .

الشرح :

فإن قلت : لقائل أن يقول : إذا أوصاهم بالتوحيد واتباع سنة النبي صلى الله عليه وآله

فلم يبقَ شيءٌ بعد ذلك يقول فيه : أقيموا هذين العمودين وخلاكم ذم ؛ لأن سنة النبي صلى الله عليه وآله فعل كل واجب . وتجنب كل قبيح ؛ فغلام ذم فماذا يقال ؟
والجواب أن كثيرا من الصحابة كلفوا أنفسهم أمورا من النوافل شاقة جدا ، فمنهم من كان يقوم الليل كله ، ومنهم من كان يصوم الدهر كله ، ومنهم المرابط في الشغور ، ومنهم المجاهد مع سقوط الجهاد عنه لقيام غيره به ، ومنهم تارك النكاح ، ومنهم تارك المطامع والملابس ؛ وكانوا يتفاخرون بذلك ، ويتنافسون فيه ، فأراد عليه السلام أن يبين لأهله وشيعته وقت الوصية أن المهم الأعظم هو التوحيد ، والقيام بما يعلم من دين محمد صلى الله عليه وآله أنه واجب ، ولا عليكم بالإخلال بما عدا ذلك ، فليت من المائة واحدا نهض بذلك ، والمراد ترغيبهم بتخفيف وظائف التكليف عنهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١) . وقال صلى الله عليه وآله !
« بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ » .

قوله : « وخلاكم ذم » : لفظة تقال على سبيل المثل أي قد أعذرتهم ، وسقط عنكم الذم . ثم قسم أيامه الثلاثة أقساما فقال : أنا بالأمس صاحبكم أي كنت أرجى وأخاف ، وأنا اليوم عبرة لكم ، أي عظة تعتبرون بها . وأنا غدا مفارقكم ، أي كون في دار أخرى غير داركم . ثم ذكر أنه إن بقي ولم يمت من هذه الضربة فهو ولي دمه ، إن شاء عفا ، وإن شاء اقتص ، وإن لم يبق فالفناء الموعد الذي لا بد منه .

ثم عاد فقال : وإن أعف ، والتقسيم ليس على قاعدة تقسيم المتكلمين . والمعنى منه مفهوم ، وهو إما أن أسلم من هذه الضربة أولا أسلم ، فإن سلمت منها فأنا ولي دمي ؛ إن شئت عفوت فلم اقتص ، وإن شئت اقتصت ، ولا يعني بالقصاص هاهنا القتل ، بل ضربة بضربة ، فإن سرت إلى النفس كانت السراية مهدرة كقطع اليد .

ثم أوماً إلى أنه إن سلم عفا بقوله : إن العفو لي إن عفوت قرينة .
ثم عدنا إلى القسم الثاني من التسمين الأولين ، وهو أنه عليه السلام لا يسلم من هذه ؛
فولاية الدم إلى الورثة ، إن شاءوا اقتصوا وإن شاءوا عفاوا .
ثم أوماً إلى أن العفو منهم أحسن ، بقوله : « وهو لكم حسنة » ، بل أمرهم أمراً
صريحاً بالعفو ، فقال : فاعفوا ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . وهذا لفظ الكتاب
العزیز ، وينبغي أن يكون أمره بالعفو في هذا الكلام محمولاً على الندب .
ثم أقسم عليه السلام أنه ما نجأ من الموت أمرٌ أنكره ولا كرهه ، نجأني الشيء :
أتاني بغتةً .

ثم قال : « ما كنتُ إلا كقاربٍ وَرَدَ » ، والقارب : الذي يسير إلى الماء وقد
بقى بينه وبينه ليلة واحدة ، والاسم : القرب ، فهم قاربون ، ولا يقال « مقربون » ،
وهو حرف شاذٌّ .

(٣٤)

الأضد

ومن وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد منصرفه من صفين :

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ ابْتِغَاءً وَجْهَ اللَّهِ
لِيُوجِبَ بِهِ الْجَنَّةَ ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمْنَةَ .

الشنخ :

قد عاتبت العمانية وقالت : إن أبا بكر مات ولم يخلف ديناراً ولا درهما ، وإن علياً عليه السلام مات وخلف عقاراً كثيراً - يعنون نخلاً - قيل لهم : قد علم كلُّ أحدٍ أنَّ علياً عليه السلام استخرج عيوناً بكديده بالمدينة ويذبح وسويعة ، وأحياناً بها مواتاً كثيراً ، ثم أخرجها عن ملكه ، وتصدق بها على المسلمين ، ولم يمت وشيء منها في ملكه ، ألا ترى إلى ما تضمنته كتب السير والأخبار من منازعة زيد بن عليٍّ وعبد الله ابن الحسن في صدقات عليٍّ عليه السلام ، ولم يورث عليٌّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلا عبيده وإماءه وسبعائة درهم من عطائه ، تركها ليشتري بها خادماً لأهله قيمتها ثمانية وعشرون ديناراً ، على حسب المائة أربعة دنانير ، وهكذا كانت المعاملة بالدرهم إذ ذاك ، وإنما لم يترك أبو بكر قليلاً ولا كثيراً لأنه ما عاش ، ولو عاش لترك ، ألا ترى أن عمر أصدق أم كلثوم أربعين ألف درهم ، ودفعها إليها ! وذلك لأن هؤلاء طالت أعمارهم ، فمنهم من درت عليه أخلاف التجارة ، ومنهم من كان يستعمر الأرض ويزرعها ، ومنهم من استفضل من رزقه من الفء^(١) .

(١) الفء : الغنيمة .

وفضلهم أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان يعمل بيده ، ويحراث الأرض ويستقي الماء ويفرس النخل ، كل ذلك يبشّره بنفسه الشريفة ، ولم يستبق منه لوقت ولا لعقبه قليلا ولا كثيرا ؛ وإنما كان صدقة ؛ وقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وله ضياع كثيرة جليلة جدا بخيبر وفدك وبني النضير ، وكان له وادي نخلة وضياع أخرى كثيرة بالطائف ، فصارت بعد موته صدقة بالخبر الذي رواه أبو بكر . فإن كان عليّ عليه السلام معيبا بضياعه ونخله فكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهذا كفر وإلحاد ! وإن كان رسول الله صلى الله عليه وآله إنما ترك ذلك صدقة فرسول الله صلى الله عليه وآله مآروى عنه الخبر في ذلك إلا واحد من المسلمين ، وعليّ عليه السلام كان في حياته قد أثبت عند جميع المسلمين بالمدينة أنها صدقة ، فالتهمة إليه في هذا الباب أبعد . وروى : « ويُعطيني به الأمانة » ، وهي الأمانة .

الأصل :

منها :

فإنه يقوم بذلك الحسن بن عليّ يأكل منه بالمعروف ، ويُنفق منه بالمعروف ، فإن حدث بحسن حدث وحسين حتى ، قام بالأمر بعده وأصدره مصدره ؛ وإن لابن فاطمة من صدقة عليّ مثل الذي لبني عليّ .

وإني إنما جعلت القيام بذلك إلى ابني فاطمة ابتغاء وجه الله ، وقربة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتكريما لحرمة ، وتشريفا لوصلته ، ويشترط على الذي يجعله إليه أن يترك المال على أصوله ، ويُنفق من ثمره حيث أمر به وهدي له ، وألا يبيع من أولاد نجيل هذه القرى ودية حتى تُشكل أرضها غراسا .

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي أَلَّتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ فَتُمْسِكْ عَلَيَّ
وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ : فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ قَدْ أُفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ
وَحَرَّرَهَا الْعَتَقُ .

قَالَ السَّيِّدُ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :
قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ « وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ نَخْلِهَا وَدِيَّةً » ، الْوَدِيَّةُ :
الْفَسِيمةُ ، وَجَمْعُهَا وَدِيٌّ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « حَتَّى تُشَكِلَ أَرْضَهَا غِرَاسًا » هُوَ مِنْ أَفْصَحِ الْكَلَامِ ،
وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّ الْأَرْضَ يَكْتُرُ فِيهَا غِرَاسُ النَّخْلِ حَتَّى يَرَاهَا النَّاطِرُ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ
الْصِّفَةِ الَّتِي عَرَفَهَا بِهَا ، فَيُشَكِلُ عَلَيْهِ أَمْرُهَا وَيَحْسِبُهَا غَيْرَهَا .

الشَّرْحُ :

جَعَلَ لِلْحَسَنِ ابْنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وِلَايَةَ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِ ، وَأَذِنَ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهُ
بِالْمَعْرُوفِ ، أَيْ لَا يُسْرِفُ ، وَإِنَّمَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ مَقْدَارَ الْحَاجَةِ ، وَمَا جَرَتْ بِمِثْلِهِ عَادَةٌ مِنْ
يَتَوَلَّى الصَّدَقَاتِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ (١) .

ثُمَّ قَالَ : فَإِنْ مَاتَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ بَعْدَهُ حَيًّا فَالْوِلَايَةُ لِلْحَسَنِ ، وَالْمَاءُ فِي « مَصْدَرِهِ »
تَرْجِعُ إِلَى الْأَمْرِ ، أَيْ يَصْرِفُهُ فِي مَصَارِفِهِ الَّتِي كَانَ الْحَسَنُ يَصْرِفُهَا فِيهَا . ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ لَهُذَيْنِ
الْوَالِدِينَ حِصَّةً مِنْ صَدَقَاتِهِ أَسْوَدَةً بِسَائِرِ الْبَنِينَ ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَدْ يَتَوَهَّمُ مَتَوَهَّمٌ

أَنَّهُمَا لَكُونَهُمَا قَدْ فَوَّضَ إِلَيْهِمَا النَّظْرُ فِي هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، قَدْ مُنِعَا أَنْ يُسْهِمَا فِيهَا بَشِيءٌ ، وَإِنْ الصَّدَقَاتُ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُهَا غَيْرُهُمَا مِنْ بَنِي عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّنْ لَا وِلَايَةَ لَهُ مَعَ وَجُودِهَا ، ثُمَّ يَبِينُ لِمَاذَا خَصَّهُمَا بِالْوِلَايَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ لِشَرَفِهِمَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَتَقَرَّبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنْ جَعَلْتُ لِسَبْطِيهِ هَذِهِ الرِّيَاسَةَ ، وَفِي هَذَا رَمَزٌ وَإِزْرَاءٌ مِنْ صَرَفِ الْأَمْرِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مَعَ وَجُودِ مَنْ يَصْلُحُ لِلْأَمْرِ ، أَيْ كَانَ الْأَلِيْقُ بِالْمَسَاهِينِ وَالْأَوْلَى أَنْ يَجْعَلُوا الرِّيَاسَةَ بَعْدَهُ لِأَهْلِهِ قُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ ، وَطَاعَةً لَهُ ، وَأَنْفَقَةً لِقَدْرِهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ تَكُونَ وَرَثَتُهُ سُوْقَةً ، يَلِيهِمُ الْأَجَانِبُ ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْ شَجَرَتِهِ وَأَصْلِهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ هَيْبَةَ الرِّسَالَةِ وَالنَّبُوَّةِ فِي صَدُورِ النَّاسِ أَعْظَمُ إِذَا كَانَ السُّلْطَانُ وَالْحَاكِمُ فِي الْخَلْقِ مِنْ بَيْتِ النَّبُوَّةِ ؛ وَلَيْسَ يُوجَدُ مِثْلُ هَذِهِ الْهَيْبَةِ وَالْجَلَالِ فِي نَفُوسِ النَّاسِ لِلنَّبُوَّةِ إِذَا كَانَ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ بَعِيدَ النَّسَبِ مِنْ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ عَلَيْهِ السَّلَامُ !

ثُمَّ اشْتَرَطَ عَلَى مَنْ بَلَى هَذِهِ الْأَمْوَالَ أَنْ يَتْرَكَهَا عَلَى أَصُولِهَا ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهَا ، أَيْ لَا يَقْطَعُ النَّخْلَ وَالثَّمْرَ وَيَبِيعُهُ خَشْبًا وَعَيْدَانًا ، فَيَفْضِي الْأَمْرَ إِلَى خِرَابِ الضِّيَاعِ وَعُطْلَةِ الْعَقَارِ . قَوْلُهُ : « وَأَلَا يَبِيعُ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » أَيْ مِنَ الْفُسْلَانِ الصَّغَارِ ، سَمَّاهَا ، أَوْلَادًا ، وَفِي بَعْضِ النُّسخِ لَيْسَتْ « أَوْلَادٌ » مَذْكُورَةً ، وَالْوَدِيَّةُ : الْفَسِيلَةُ .

تُشَكِّلُ أَرْضَهَا : تَمْتَلِي بِالْغِرَاسِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ طَرِيقَةٌ وَاضِحَةٌ .

قَوْلُهُ : « أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ » ، كُنْيَاةٌ لَطِيفَةٌ عَنْ غِشْيَانِ النِّسَاءِ ، أَيْ مِنَ السَّرَارِيِّ ؛ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَذْهَبُ إِلَى حِلِّ بَيْعِ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ ، فَقَالَ : مَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي لَهَا وَلَدٌ مِنِّي ؛ أَوْ هِيَ حَامِلَةٌ مِنِّي وَقَسَمْتُ تَرَكَتِي فَلْتَكُنْ أُمُّ ذَلِكَ الْوَلَدِ مِيبَعَةً عَلَى ذَلِكَ الْوَلَدِ ، وَيُحَاسَبُ بِالثَّمَنِ مِنْ حَصَّتِهِ مِنَ التَّرَكَةِ ، فَإِذَا بَاعَتْ عَلَيْهِ عَتَقَتْ عَلَيْهِ ، لِأَنَّ الْوَلَدَ إِذَا اشْتَرَى الْوَالِدَ عَتَقَ الْوَالِدَ

عنه ، وهذا معنى ، قوله « فتمسك على ولدها » ، أى تقوم عليه بقيمة الوقت الحاضر ،
وهى من حظه ، أى من نصيبه وقسطه من التركة .

قال : فإن مات ولدها وهى حيّة بعد أن تقوم عليه فلا يجوز بيعها لأنها خرجت عن
الرقّ بانتقالها إلى ولدها ، فلا يجوز بيعها .

فإن قلت : فلماذا قال : فإن مات ولدها وهى حيّة ؟ وهلا قال : فإذا قومت
عليه عتقت ؟

قلت : لأنّ موضع الاشتباه هو موت الولد وهى حيّة ، لأنه قد يظنّ ظانّ أنه إنما
حرّم بيعها لمكان وجود ولدها ، فأراد عليه السلام أن يبيّن أنها قد صارت حرّة مطلقا
سواء كان ولدها حيّا أو ميتا .

(٢٥)

الأضل

ومن وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وإتما ذكرنا هنا
جُملاً منها ليعلم بها أنه عليه السلام كان يقيم عماد الحق ، ويشرع أمثلة العدل في صغير
الأمر وكبيرها ، ودقيقها وجليلها :

أَنْطَلِقَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِمًا ، وَلَا تَجْتَازَنَّ
عَلَيْهِ كَارَهَا ، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى أُخِيٍّ
فَانزِلْ بِمَأْتِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ ، ثُمَّ امْضُ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ؛ حَتَّى
تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ .

وَلَا تُخْذِجْ بِالتَّجِيَّةِ لَهُمْ ثُمَّ تَقُولُ : عِبَادَ اللَّهِ ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيَّ اللَّهُ وَخَلِيفَتُهُ ،
لَاخُذْ مِنْكُمْ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَنُؤَدُّوهُ
إِلَى وَلِيِّهِ !

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : لَا ، فَلَا تَرَاجِعْهُ ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَاَنْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
تُخَيِّفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ ، أَوْ تَعَسِفَهُ أَوْ تُرْهَقَهُ ؛ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ؛ فَإِنْ كَانَ
لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَإِنْ أَكْثَرَهَا لَهُ ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ
عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ ، وَلَا عَنِيفٍ بِهِ .

وَلَا تُتَفَرَّنْ بِبَهِيمَةٍ وَلَا تُفْزِعَنَّهَا ، وَلَا تُسَوِّءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا .
وَأُصْدِعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيْرُهُ ، فَإِذَا أُخْتَارَ فَلَا تُعْرِضَنَّ لِمَا أُخْتَارَهُ .
ثُمَّ أُصْدِعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ ، ثُمَّ خَيْرُهُ ، فَإِذَا أُخْتَارَ فَلَا تُعْرِضَنَّ لِمَا أُخْتَارَهُ ؛ فَلَا تَزَالُ
كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللَّهِ فِي مَالِهِ ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ .

فَإِنْ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلَّهُ ، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوْلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللَّهِ فِي مَالِهِ .

وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً ، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ ؛
وَلَا تَأْمَنْنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِيَدَيْهِ ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ
فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ ، وَلَا تُوكَلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً ، غَيْرَ مُعَنَّفٍ وَلَا مُجْحِفٍ ،
وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتَعِبٍ .

ثُمَّ أَحْذَرُ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ ، نُصَيِّرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ
فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ إِلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصْلِيهَا ، وَلَا يَمْصُرْ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بَوْلِدَهَا ،
وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً ، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا ، وَلْيُرَقِّهِ عَلَى اللَّأْغِبِ ،
وَلْيَسْتَأْزِنِ بِالنَّقَبِ وَالظَّالِعِ ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْعُدْرِ ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ
الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطَّرْقِ ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ ، وَلْيَمَهِّلْهَا عِنْدَ النَّطَافِ وَالْأَعْشَابِ ،
حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللَّهِ بُدْنًا مُنْقِيَاتٍ ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مُجْهُودَاتٍ ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ
اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشيخ :

وقد كرر عليه السلام قوله : « لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ »

في ثلاثة مواضع من هذا الفصل :

الأول قوله : « حتى يوصله إلى وليهم ليقسمه بينهم » .

الثاني قوله عليه السلام : « نصيره حيث أمر الله به » .

الثالث قوله : « لَنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللَّهِ » ، والبلاغة لا تقتضى ذلك ، ولكنى أظنه أحبَّ أن يَحْتَاطَ ، وأن يدفع الظنَّةَ (١) عن نفسه ، فإن الزَّمان كان في عهده قد فَسَدَ ، وساءت ظُنُونُ النَّاسِ ، لا سيَّما مع ما رآه من عُثْمَانَ واستثنائه بِمَالِ النَّبِيِّ .

ونعود إلى الشرح . قوله عليه السلام : « عَلَى تَقْوَى اللَّهِ » ، « عَلَى » ليست متعلِّقة بـ « انطَلِقْ » ، بل بِمَحذُوفٍ ، تقديرُه : مُوَاطِبًا .

قوله : « وَلَا تُرْوَعَنَّ » أى لَا تُفَزَّعَنَّ ، وَالرَّوْعُ الْفَزَعُ ، رُعْتُهُ أَرُوْعُهُ ، وَلَا تُرْوَعَنَّ بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ وَضَمِّ حَرْفِ الْمِضَارَعَةِ ، مِنْ رَوَّعْتَ لِلتَّكْثِيرِ .

قوله عليه السلام : « وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارَهَا » ، أى لَا تَمْرُنَّ بَبُيُوتِ أَحَدٍ مِنَ الْمَسَاهِينِ يَكْرَهُ مُرُورَكَ . وَرُؤْيُ : « وَلَا تَخْتَارَنَّ عَلَيْهِ » ، أى لَا تَقْسِمِ مَالَهُ وَتَخْتَرِ أَحَدَ الْقِسْمِينَ ، وَالْهَاءُ فِي « عَلَيْهِ » تَرْجِعُ إِلَى « مُسَلِّمًا » وَتَفْسِيرُ هَذَا سِيَّاتِي فِي وَصِيَّتِهِ لَهُ أَنْ يَصَدَّعَ الْمَالَ ثُمَّ يَصْدَعَهُ ، فَهَذَا هُوَ النَّهْيُ عَنْ أَنْ يَخْتَارَ عَلَى الْمُسْلِمِ . وَالرَّوَايَةُ الْأُولَى هِيَ الشَّهُورَةُ .

قوله عليه السلام : « فَأَنْزَلْ بِمَأْتِهِمْ » ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَرِيبَ يُحَمَّدُ مِنْهُ الْاِنْتِقَابُ ، وَيُسْتَهْجَنُ فِي الْقَادِمِ أَنْ يُخَالَطَ بَبُيُوتِ الْحَيِّ الَّذِي قَدِمَ عَلَيْهِ فَقَدْ يَكُونُ مِنَ النِّسَاءِ مِنْ لَا تَلِيْقُ رُؤْيَتُهُ ، وَلَا يَحْسُنُ سِمَاعُ صَوْتِهِ ، وَمِنَ الْأَطْفَالِ مَنْ يَسْتَهْجِنُ أَنْ يَرَى الْغَرِيبَ أَنْبَسَاطَهُ عَلَى أَبْوِيهِ وَأَهْلِهِ ، وَقَدْ يَكْرَهُ الْقَوْمُ أَنْ يَطَّلَعَ الْغَرِيبُ عَلَى مَا كَلَّمَهُمْ وَمَشَرَ بِهِمْ وَمَلَبَسَهُمْ وَبَوَاطِنِ أَحْوَالِهِمْ ، وَقَدْ يَكُونُونَ فَقَرَاءً فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْرِفَ فَقَرَهُمْ فَيَحْتَقِرَهُمْ ، أَوْ أَغْنِيَاءَ أَرْبَابَ ثَرَوَةٍ كَثِيرَةٍ فَيَكْرَهُونَ أَنْ يَعْلَمَ الْغَرِيبُ ثَرَوَتَهُمْ فَيَحْسُدَهُمْ ، ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يَمْضِيَ إِلَيْهِمْ غَيْرَ مُتَسَرِّعٍ وَلَا عَجَلٍ وَلَا طَائِشٍ نَزِقٍ ، حَتَّى يَقُومَ بَيْنَهُمْ فَيَسْلَمَ عَلَيْهِمْ

(١) : الظنَّة النهمة .

ويحييهم تحيةً كاملة ، غير مخدجة ، أى غير ناقصة ، أخذت الناقه إذا جاءت بولدها ناقص الخلق ، وإن كانت أيامه تامة ، وخدجت : ألت الولد قبل تمام أيامه . ورؤى : « ولا تُخدج بالتحية » ، والباء زائدة .

ثم أمره أن يسألهم : هل فى أموالهم حق لله تعالى ؟ يعنى الزكاة ، فإن قالوا : لا ، فلينصرف عنهم ، لأن القول قول رب المال ، فله قد أخرج الزكاة قبل وصول المصدق إليه .

قوله : « وأنعم لك » ، أى قال : نعم .

ولا تعسفه ، أى لا تطلب منه الصدقة عسفاً ، وأصله الأخذ على غير الطريق .
ولا ترهقه : لا تكلفه العسر والمشقة .

ثم أمره أن يقبض ما يدفع إليه من الذهب والفضة ، وهذا يدل على أن المصدق كان يأخذ العين والورق كما يأخذ المشية ، وأن النصاب فى العين والورق تدفع زكاته إلى الإمام ونوابه ، وفى هذه المسألة اختلاف بين الفقهاء .

قوله : « فإن أكثرها له » : كلام لا مزيد عليه فى الفصاحة والرياسة والدن ، وذلك لأن الصدقة المستحقة جزء يسير من النصاب ، والشريك إذا كان له الأكثر حرم عليه أن يدخل ويتصرف إلا بإذن شريكه ، فكيف إذا كان له الأقل .

قوله : « فلا تدخلها دخول متسلط عليه » ، قد علم عليه السلام أن الظلم من طبع الولاة ، وخصوصاً من يتولى قبض المشية من أربابها على وجه الصدقة ، فإنهم يدخلونها دخول متسلط حاكم قاهر ، ولا يبقى لرب المال فيها تصرف ، فمنهى عليه السلام عن مثل ذلك .

قوله : « ولا تفرّجَ بهيمةً ، ولا تفرّجَ عنها » ، وذلك أنهم على عادة السوء يُهَجِّجُونَ^(١) بالقطيع حتى تنفر الإبل ، وكذلك بالشاء إظهاراً للقوة والقهر ، وليمكن أعوانهم من اختيار الجيّد ، ورَفُض الرديء .

قوله : « ولا تسوِّءَنَّ صاحبها فيها » أى لا تغمّوه ولا تُخزّوه ، يقال : سوّأته فى كذا سوّأيةً ومساويةً .

قوله : « واصدعَ المالَ صدعين وخيره » ، أى شقّه نصفين ثم خيره ، فإذا اختار أحد النصفين فلا تعرّضنّ لما اختار ، ثم اصدع النصف الذى مارتضاه لنفسه صدعين وخيره ، ثم لا تزال تفعل هكذا حتى تُتبقّى من المال بمقدار الحقّ الذى عليه ، فاقبضه منه ، فإن استقالك فأقله ، ثم اخلط المال ، ثم عدّ لثل ماصنعت حتى يرضى ، وينبغى أن يكون المعيات الخمس وهى المهلوسة والمكسورة وأخواتهما يخرجها المصدّق من أصل المال قبل قسمته ثم يقسم وإلا فربّما وقعت فى سهم المصدّق إذا كان يعتمد ما أمره به من صدع المال مرّة بعد مرّة .

والعود : المُسِنَّ من الإبل ، والمهرمة : المسِنَّه أيضاً ، والمكسورة : التى أحد قوائمها مكسورة العظم أو ظهرها مكسور ، والمهلوسة : المريضة قد هلسها المرض وأفنى لحمها ، والهلاس : السّل . والعوّار : بفتح العين : العيب ، وقد جاء بالضم .

والمعنّف : ذو العنف بالضم وهو ضدّ الرّفق . والمجحف : الذى يسوق المال سوقاً عنيفاً فيجحف به أى يهلكه أو يذهب كثيراً من لحمه ونقيه^(٢) .

والمُملَغَب : المُتعب ، واللُّغوب : الإعياء .

وحَدَرَتُ السفينة وغيرها - بغير ألف أحدرها بالضم .

(١) يقال : هجج بالسبع : صاح به ، وبالجمل زجره .

(٢) التقي ، بكسر النون وسكوت القاف : المخ .

قوله : « بين ناقة وبين فصيلها » الأوضح حذف بين الثانية ؛ لأنّ الاسمين ظاهران ،
وإنّما تكرر إذا جاءت بعد المضمّر ، كقولك : المال بيني وبين زيدٍ وبين عمرو ، وذلك
لأنّ الجرور لا يُعطف عليه إلاّ باعادة حرف الجرّ والاسم المضاف ، وقد جاء : المالُ بين
زيدٍ وعمرو ، وأنشدوا :

بين السّحاب وبين الرّيح ملحمَةٌ قعاقعٌ وظبّي في الجوّ تخترط^(١)
وأيضاً :

بين النّدىّ وبين برقة ضاحكٍ غيثٌ الضّرّيكِ وفارسٌ مقدّم^(٢)
ومن شعر الحماسة :

وإنّ الذي يديني وبين بني أبي وبين بني عمّي لمختلفٌ جدّاً^(٣)

وليس قولٌ من يقول : إنه عطف بين الثالثة على الضمير الجرور بأولى من قول
من يقول : بل عطف بين الثالثة على بين الثانية ، لأنّ المعنى يتمّ بكلّ واحد منها .

قوله عليه السلام : « ولا تمضّر لبنها » ، المنصر حَلْب مافى الضرع جميعه ، نهاه من أن
يحب اللبن كلّه فيبقى الفصيلُ جائعاً ؛ ثم نهاه أن يُجهدها ركوباً ، أى يُتعبها ويحمّلها
مشقّةً ؛ ثم أمره أن يعدل بين الركاب في ذلك ، لا يخصّ بالركوب واحدةً بعينها ،
ليكون ذلك أروحَ لهنّ ، ليرفّه على اللاّغب ، أى ليرتّكه وليعفّه عن الركوب ليستريح .
والرفاهية : الدعة والراحة .

والنّقب : ذو النّقب ، وهو رقّة خُفّ البعير حتى تكاد الأرضُ تجرحه : أمره أن
يستأنى بالبعير ذى النّقب ، من الأناة ، وهى المهلة .

(١) الملحمة : الحرب ، والقعاقع : حكاية أصوات الترسة في الحرب . والظبي : جمع ظبة ، وهو حد السيف .
(٢) برقة ضاحك : موضع بعينه . (٣) ديوان الحماسة ٣٠ : ١٧٢ ، والبيت للقعن الكندى .

والظالع : الذى ظَلَعَ ، أى عَمَزَ فى مَشِيهِ .
والغُدْرُ : جمع غدير الماء . وجوادُ الطريق : حيث لا يَنْبِتُ المرعى .
والنُّطافُ : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى القليل .
والبُدْنُ بالتشديد : السَّمَانُ ، واحدها بادن .
ومُنْقِيَاتُ : ذواتُ نَقْيٍ ، وهو المُنْحَ فى العَظْمِ ، والشحْمُ فى العَيْنِ من السَّمَنِ ، وَأَنْقَتَ
الإبلُ وغيرُها : سَمَتَ وصارَ فيها نَقْيًا ، وناقاةُ مُنْقِيَةٌ ، وهذه الناقاة لا تُنْقِي .

(٢٦)

الأضل :

ومن عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة :

أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ ؛ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ ، حَيْثُ لَشَاهِدَ غَيْرُهُ ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ .

وَأَمْرُهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيَخَالَفَ إِلَى غَيْرِهِ فِيمَا أَسْرَرَ ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفِ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتُهُ ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ ، فَقَدْ أَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ .

وَأَمْرُهُ أَلَّا يَجْبِهَهُمْ ، وَلَا يَعْضَهُمْ ، وَلَا يَرْعَبَ عَنْهُمْ تَفْضُلًا بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ فَإِنَّهُمْ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ ، وَالْأَعْوَانُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ .
وَإِنَّ لَكَ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ، وَحَقًّا مَعْلُومًا ، وَشُرْكَاءَ أَهْلِ مَسْكِنَةٍ ، وَضِعْفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ .

وَإِنَّا مُؤَفِّوُكَ حَقَّكَ ، فَوْقَهُمْ حُقُوقَهُمْ ، وَإِلَّا تَفَعَّلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُومًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَبُؤْسَى لِمَنْ خَصَّمَهُ عِنْدَ اللَّهِ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ ، وَالْغَارِمُونَ وَأَبْنُ السَّبِيلِ !

وَمَنْ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ ، وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ ، وَلَمْ يُنْزَهُ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا ، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الدَّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى ؛ وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأُمَّةِ . وَالسَّلَامُ .

الشُّنْحُ :

حيث لا شهيد ولا وكيلَ دونه ، يعنى يومَ القيامة .

قوله : « ألا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر » ، أى لا ينافق فيعمل الطاعة في الظاهر .
والمعصية في الباطن .

ثم ذكر أن الذين يتجنبون النفاق والرياء هم المُخلصون .

وَأَلَا يُجِبُّهُمْ : لا يواجههم بما يكرهونه ، وأصل الجبُّ لقاء الجبهة أو ضربها ،
فلما كان المواجه غيره بالكلام القبيح كالضارب جبته به سُمي بذلك جبها .

قوله : « ولا يعضهم » : أى لا يرميهم بالبُهتان والكذب ، وهى العضيمة ،
وعَضَتُ فلانا عَضها ، وقد عَضَتِ يافلان ، أى جئت بالبُهتان .

قوله : « ولا يرغب عنهم تفضلاً » ، يقول : لا يحقرهم ادعاءً لفضله عليهم ، وتمييزه
عنهم بالولاية والإمرة ؛ يقال فلان يرغب عن القوم ، أى يأنف من الانبئ إليهم ، أو من
المخالطة لهم .

وكان عمرُ بن عبد العزيز يدخلُ إليه سالم مولى بنى مخزوم وعمرُ فى صدر بيته فيتنجى
عن الصدر ، وكان سالم رجلاً صالحاً ، وكان عمر أراد شراءه وعتقه ، فأعتقه مواليه ؛ فكان
يسميه : أخى فى الله ؛ فقيل له : أنتنجى لسالم ! فقال : إذا دخل عليك من لا ترى لك عليه
فضلاً فلا تأخذ عليه شرف المجلس . وهم السراج ليلة بأن يحمّد ، فويب إليه رجاء بن حيوه
ليصلحه ، فأقسم عليه عمرُ بن عبد العزيز ، فجلس ، ثم قام عمر فأصلحه ، فقال له رجاء : أتقوم
أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعتُ وأنا عمرُ بن
عبد العزيز .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : « لا تَرَفَعُونِي فَوْقَ قَدْرِي فَتَقُولُوا فِي مَاقَالَتِ النَّصَارِيِّ فِي ابْنِ مَرْيَمَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي رَسُولًا » .

ثم قال : إنَّ أَرْبَابَ الْأَمْوَالِ الَّذِينَ تَجِبُ الصَّدَقَةُ عَلَيْهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ إِخْوَانُكَ فِي الدِّينِ ، وَأَعْوَانُكَ عَلَى اسْتِخْرَاجِ الْحَقُوقِ ، لِأَنَّ الْحَقَّ إِنَّمَا يُمْكِنُ الْعَامِلُ اسْتِيفَاؤُهُ بِمَعَاوَنَةِ رَبِّ الْمَالِ وَاعْتِرَافِهِ بِهِ ، وَدَفْعِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا كَانُوا بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَمْ يُجْزُ لَكَ عَضُّهُمْ وَجَبْهُمُ وَإِدْعَاءُ الْفَضْلِ عَلَيْهِمْ .

ثم ذكر أنَّ لِهَذَا الْعَامِلِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا مِنَ الصَّدَقَةِ ، وَذَلِكَ بِنَصِّ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ؛ فَكَمَا نُوْفِيكَ نَحْنُ حَقِّكَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُوْفِيَ شُرَكَاءَكَ حَقُوقَهُمْ ، وَهَمَّ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالْفَارِغُونَ وَسَائِرُ الْأَصْنَافِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْقُرْآنِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ فَوَّضَهُ فِي صَرْفِ الصَّدَقَاتِ إِلَى الْأَصْنَافِ الْمَعْلُومَةِ ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِأَنْ يَحْمِلَ مَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ لِيُوزَّعَهُو عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مُسْتَحَقِّيهِ كَمَا فِي الْوَصِيَّةِ الْأُولَى ، وَيَجُوزُ لِلْإِمَامِ أَنْ يَتَوَلَّى ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، وَأَنْ يَكِلَّهُ إِلَى مَنْ يَثِقُ بِهِ مِنْ عَمَّالِهِ .

وانتصب « أهل مسكنة » لأنه صفة « شركاء » ، وفي التحقيق أنَّ « شركاء » صفةٌ أيضاً موصوفها محذوف ، فيكون صفةً بعد صفة .

وقال الراوندي : انتصب « أهل مسكنة » لأنه بدلٌ من « شركاء » ، وهذا غلط ، لأنه لا يُعطى معناه ليكون بدلاً منه .

وقال أيضا : بؤسى ، أى عذابا وشدة ، فظنَّه منونًا وليس كذلك ، بل هو بؤسَى على وزن « فُعَلَى » كفضلى ونعمى ، وهى لفظة مؤنثة ؛ يقال : بؤسى لفلان ، قال الشاعر :

أرى الحلم بؤسى للفتى فى حياتهِ ولا عيش إلا ما حَبَاكَ به الجهلُ

والسائلون هاهنا هم الرقاب المذكورون في الآية ، وهم المكاتبون يتعدّر عليهم أداء مال الكتابة ، فيسألون الناس ليتخلّصوا من ربقة الرق . وقيل : هم الأسارى يطلبون فكّك أنفسهم ، وقيل : بل المراد بالرقاب في الآية الرقيق ، يسأل أن يبتاعه الأغنياء فيعتقوه . والمدفوعون هاهنا هم الذين عناهم الله تعالى في الآية بقوله : ﴿ وفي سبيل الله ﴾^(١) ، وهم فقراء الغزاة ، سأمهم مدفوعين لفقريهم . والمدفوع والمدفع : الفقير ، لأن كل أحد يكرهه ويدفعه عن نفسه . وقيل : هم الحجيج المنتقطع بهم ، سأمهم مدفوعين لأنهم دُفِعوا عن إتمام حجّهم ، أو دُفِعوا عن العود إلى أهلهم .

فإن قلت : لم حملت كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما فسّرت به ؟ قلت : لأنه عليه السلام إنما أراد أن يذكر الأصناف المذكورة في الآية ، فترك ذكر المؤلّفة قلوبهم لأن مهمهم سقط بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقد كان يدفع إليهم حين الإسلام ضعيف ، وقد أعزّه الله سبحانه ، فاستغنى عن تأليف قلوب المشركين ، وبقيت سبعة أصناف ، وهم الفقراء والمساكين والعمالون عليها والرقاب والغارمون وفي سبيل الله وابن السبيل .

فأما العمالون عليها فقد ذكرهم عليه السلام في قوله : « وإن لك في هذه الصدقة نصيبا مفروضا » ، فبقيت ستة أصناف أتى عليه السلام بألفاظ القرآن في أربعة أصناف منها ، وهي : الفقراء ، والمساكين ، والغارم ، وابن السبيل ، وأبدل لفظتين وهما الرقاب وفي سبيل الله بلفظتين وهما السائلون والمدفوعون .

فإن قلت : ما يقوله الفقهاء في الصدقات ؟ هل تُصرف إلى الأصناف كلّها أم يجوز صرفها إلى واحد منها ؟

(١) سورة التوبة ٦٠ .

قلت : أما أبو حنيفة فإنه يقول : الآية قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة فهي مختصة بها لا تتجاوزها إلى غيرها ، كأنه تعالى قال : إمامي لهم لا لغيرهم ، كقولك : إنما الخلافة لقريش ، فيجوز أن تصرف الصدقة إلى الأصناف كلها ، ويجوز أن تصرف إلى بعضها ، وهو مذهب ابن عباس وحذيفة وجماعة من الصحابة والتابعين . وأما الشافعي فلا يرى صرفها إلا إلى الأصناف المعدودة كلها ، وبه قال الزهري وعكرمة .

فإن قلت : فمن الغارم وابن السبيل ؟

قلت : الغارمون الذين ركبهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب . وقيل : هم الذين يحمّلون الحمالات فدينوا فيها وغرموا ، وابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ، فهو - وإن كان غنيا حيث ماله موجود - فقير حيث هو بعيد .

وقد سبق تفسير الفقير والمسكين فيما تقدم .

قوله : « فقد أحلّ بنفسه الذلّ والخزى » ، أى جعل نفسه محلاّ لهما ، ويروى : « فقد أحلّ بنفسه » بالخاء المعجمة ، ولم يذكر الذلّ والخزى أى جعل نفسه محلاّ ، ومعناه جعل نفسه فقيرا ، يقال : خلّ الرجل : إذا افتقر ، وأحلّ به غيره ، وبغيره أى جعل ، غيره فقيرا ، وروى : « أحلّ » بنفسه بالخاء المهملة ، ولم يذكر « الذلّ والخزى » . ومعنى « أحلّ بنفسه » أباح دمه ، والرواية الأولى أصحّ ، لأنه قال بعدها : « وهو فى الآخرة أذلّ وأخزى » .

وخيانة الأمة : مصدر مضاف إلى المفعول به ، لأنّ الساعى إذا خان فقد خان الأمة كلها ؛ وكذلك غشّ الأمة ، مصدر مضاف إلى المفعول أيضا ؛ لأنّ الساعى إذا غشّ فى الصدقة فقد غشّ الإمام .

(٢٧)

الأصل:

ومن عهدله عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر -رضى الله عنه- حين قلده مصر:

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَأَبْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظْمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ ، وَلَا يَيْئَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُسَائِلُكُمْ مَعَشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمُسْتَوْرَةِ ، فَإِنْ يُعَذِّبُ فَآتَمُّ أَظْلَمُ ؛ وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ .

وَأَعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّ الْمُنْقِمِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَلَمْ يُشَارِكُهُمْ أَهْلُ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سَكِنَتْ ، وَأَكَلُوا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ ، فَحَظُّوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظَى بِهِ الْمُتَرَفُونَ ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبْلَغِ ؛ وَالْمُتَجَرِّ الرَّابِحِ ؛ أَصَابُوا الذِّمَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ حَيْرَانُ اللَّهِ غَدًا فِي آخِرَتِهِمْ ، لَا تَرُدُّ لَهُمْ دَعْوَةً ، وَلَا يَنْقُفُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الذِّمَّةِ .

فَاخْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ ، وَأَعِدُّوا لَهُ عِدَّتَهُ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ؛ يَحْخِرُ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا ؛ أَوْ شَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا ، فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا ! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا !

وَأَنْتُمْ طَرَدْتُمْ الْمَوْتَ ؛ إِنْ أَقْتَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ ، وَهُوَ الْأَزْمُ لَكُمْ مِنْ ظِلْمِكُمْ . الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ ؛ وَالذُّنْيَا تَطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ .

فَاَحْذَرُوا نَارًا قَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ ؛ دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ ، وَلَا تَسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةً ، وَلَا تُفْرَجُ فِيهَا كَرْبَةٌ .

وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللَّهِ ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا مَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَى قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَإِنْ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنًّا بِاللَّهِ أَشَدَّهُمْ خَوْفًا لِلَّهِ .

وَأَعْلَمُ يَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ ، أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ ، فَأَنْتَ مُحْتَقِقٌ أَنْ تُخَالَفَ عَلَى نَفْسِكَ ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَا تُسَخِطَ اللَّهُ بِرِضَا أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ؛ فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْقًا مِنْ غَيْرِهِ ، وَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ .

صَلِّ الصَّلَاةَ لَوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا ، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفِرَاقٍ ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاسْتِغَالٍ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبِعَ لِصَلَاتِكَ .

الشرح :

آس بينهم : اجعلهم أسوة ، لا تفضل بعضهم على بعض في اللحظة والنظرة ، ونبه بذلك على وجوب أن يجعلهم أسوة في جميع ما عدا ذلك ، من العطاء والإنعام والتقريب ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ ﴾ (١) .

قوله : « حتى لا يطمع العطاء في حيفك لهم » ، الضمير في « لهم » راجع إلى الرعية لا إلى العطاء ، وقد كان سبق ذكرهم في أول الخطبة ، أي إذا سلكت هذا المسلك لم يطمع العطاء في أن تحيف على الرعية وتظلمهم وتدفع أموالهم إليهم ، فإن ولاة الجور

هكذا يفعلون ، يأخذون مال هذا فيعطونه هذا . ويجوز أن يرجع الضمير إلى العطاء ، أى حتى لا يطمع العطاء في جورك في القسم الذى إنما تفعله لهم ولأجلهم ، فإن ولاية الجور يطمع العطاء فيهم أن يحيفوا في القسمة في النية ، ويخالفوا ما حده الله تعالى فيها ، حفظا لقلوبهم ، واستماله لهم ، وهذا التفسير أليق بالخطابة ؛ لأن الضمير في « عليهم » في الفقرة الثالثة عائد إلى الضعفاء ؛ فيجب أن يكون الضمير في « لهم » في الفقرة الثانية عائداً إلى العطاء .

قوله : « فإن يعذب فأنتم أضلم » أفعال هاهنا بمعنى الصفة ، لا بمعنى التفضيل ، وإنما يراد فأنتم الظالمون ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ ^(١) . وكقولهم : الله أكبر . ثم ذكر حال الزهاد فقال : أخذوا من الدنيا بنصيب قوى ، وجعلت لهم الآخرة ؛ ويروى أن الفضيل بن عياض كان هو ورفيق له في بعض الصحارى ، فأكلا كسرة يابسة ، واغترفا بأيديهما ماءً من بعض الغدران ، وقام الفضيل فحطّ رجله في الماء ، فوجد برّده ، فالتذّب به وبالحال التي هو فيها ، فقال لرفيقه : لو علم الملوكُ وأبناء الملوكِ ما نحن فيه من العيش واللذة لحسدونا .

وروى : « والمنجّر المريح » ، فالرابع فاعلٌ من ربح ربحاً ، يقال : بيع رابح أى يُربح فيه ، والمربح : اسم فاعل قد عدّى ماضيه بالهمزة ، كقولك : قام وأقمته . قوله : « جيرانُ الله غداً في آخرتهم » ؛ ظاهر اللفظ غيرُ مراد ، لأنّ البارئُ تعالى ليس في مكان وجهةٍ ليكونوا جيرانه ، ولكن لما كان الجار يُكرم جاره سمّاهم جيران الله ، لإكرامه إياهم ، وأيضاً فإن الجنة إذا كانت في السماء والعرش هو السماء العليا ، كان في الكلام محذوف مقدّر ، أى جيرانُ عرش الله غداً .

قوله : « فَإِنَّه يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَخَطْبٍ جَلِيلٍ ، بِمُخَيَّرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَدًا وَشَرٌّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَدًا » ، نصّ صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد ، وأنّ من دخل النار من جميع المكلفين فليس بخارج ، لأنّه لو خرج منها لكان الموت قد جاءه بشرّ معه خير ، وقد نفى نفيًا عامًّا أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير ألبتّة .

قوله : « من عاملها » ، أى من العامل لها .

قوله : « طُرْدَاءُ الْمَوْتِ » ، جمع طَرِيد ، أى يطردكم عن أوطانكم ويُخرجكم منها ، لا بدّ من ذلك ، إِنْ أَقَمْتُمْ أَخَذَكُمْ ، وَإِنْ هَرَبْتُمْ أَدْرَكَكُمْ .

وقال الراوندىّ : طُرْدَاءُ هَاهُنَا : جَمْعُ طَرِيدَةٍ وَهِيَ مَاطَرْدَتٌ مِنَ الصَّيْدِ أَوْ الْوَسِيقَةِ^(١) ، وليس بصحيح ، لأنّ « فعيلة » بالتأنيث لا تُجْمَعُ عَلَى فِعْلَاءٍ . وقال النحويّون : إِنْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَجْعَلْكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾^(٢) جَاءَ عَلَى « خَلِيفٍ » لِأَعْلَى « خَلِيفَةٌ » ، وَأَنْشَدُوا لِأَوْسَ بْنِ حَجْرٍ بَيْتًا ، اسْتَعْمَلَهَا جَمِيعًا فِيهِ ، وَهُوَ :

إِنَّ مِنَ الْقَوْمِ مَوْجُودًا خَلِيفَتَهُ وَمَا خَلِيفُ أَبِي لَيْلَى بِمَوْجُودٍ^(٣)

قوله : « أَلْزَمَ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ » ، لأنّ الظلّ لا تصحّ مفارقتة لذي الظلّ مادام في الشمس ، وهذا من الأمثال المشهورة .

قوله : « مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ » ، أى ملازمٌ لكم ، كالشيء المعقود بناصية الإنسان أين ذهب ذهب معه .

وقال الراوندىّ : أى الموت غالبٌ عليكم ، قال تعالى : ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾^(٤) ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَخَذَ بِنَاصِيَتِهِ لَا يُمْكِنُهُ الْخِلَاصُ ، وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : « أَخَذَ بِنَوَاصِيكُمْ » .

قوله : « وَالْدُنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ » من كلام بعض الحكماء : الموت والناس كسطورٍ

(١) الوسيقة : الجماعة من الإبل ، إذا سوقت طردت معاً .

(٢) سورة النمل ٦٢ .

(٣) ديوانه ٢٥ ، وروايته : « وما خليف أبي وهب » .

(٤) سورة الرحمن ٤١ .

في صحيفة يقرؤها قارئاً ويطوى ما يقرأ ، فكلما ظهر سطره خفي سطره .

ثم أمره عليه السلام بأن يجمع بين حُسن الظن بالله وبين الخوف منه ، وهذا مقامٌ جليل لا يصل إليه إلا كلُّ ضامرٍ مهزول ، وقد تقدّم كلامنا فيه . وقال علي بن الحسين عليه السلام : لو أنزل الله عزّ وجلّ كتاباً أنه معذبٌ رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونه ، وأنه راحمٌ رجلاً واحداً لرجوتُ أن أكونه ، أو أنه معذبٌي لاحتالة ما زدتُ إلا أجتهداً لئلا أرجع إلى نفسي بلائمة .

ثم قال : « وَلَيْتَكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي » ، يقال للأقاليم والأطراف : أجناد ، تقول : وِلِيَّ جُنْدِ الشَّامِ ، وِوِلِيَّ جُنْدِ الأَرْدُنِّ ، وِوِلِيَّ جُنْدِ مِصْرَ .

قوله : « فأنت محقوق » ، كقولك حقيق وجدير وخليق ، قال الشاعر :

وَإِنِّي لِمُحْقَوْنٌ بَأَلَّا يَطْوِلَنِي نَدَاهُ إِذَا طَوَّلْتَهُ بِالْقَصَائِدِ

وتُنافِحُ : تُجَالِدُ ، ناحتُ بالسيف أي خاصمتُ به .

قوله : « ولو لم يكن إلا ساعة من النهار » ، المراد تأكيد الوصاة عليه أن يخالف على نفسه ، وألا يتبع هواها ، وأن يُخاصِمَ عن دينه ، وأن ذلك لازمٌ له ، وواجبٌ عليه ، ويلزم أن يفعله دائماً فإن لم يستطع فليفعله ولو ساعة من النهار ، وينبغي أن يكون هذا التقييد مصروفاً إلى المناخة عن الدين ، لأن الخصام في الدين قد يمنعه عنه مانع ، فأما أمره إياه أن يخالف على نفسه فلا يجوز صرفُ التقييد إليه ، لأنه يُشعرُ بأنه مفسوخٌ له أن يتبع هوى نفسه في بعض الحالات ، وذلك غيرُ جائز ، بخلاف الخاصمة والنضال عن المعتقد .

قال : « وَلَا تُسَخِّطِ اللهُ بَرَضاً أَحَدَ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلْفاً مِنْ غَيْرِهِ ، وَليْسَ مِنْ اللهِ خَلْفٌ فِي غَيْرِهِ » ، أخذَه الحَسَنُ البَصْرِيُّ فقال لعمر بن هُبَيْرَةَ

أمير العراق : إن الله ما نَعَمُكَ من يزيدَ ، ولم يَمْنَعُكَ يزيدُ من الله - يعنى يزيدَ بن عبد الملك .

ثم أمره بأن يصلي الصلاة لوقتها ؛ أى فى وقتها ، ونهاه أن يحمله الفراغ من الشغل على أن يُعجِّلها قبل وقتها ، فإنها تكون غير مقبولة ، أو أن يحمله الشغل على تأخيرها عن وقتها فيأثم .

ومن كلام هشام بن عتبة أخى ذى الرثمة - وكان من عقلاء الرجال - قال المبرد فى الكامل : حدثنى العباس بن المَرَج الرِّياشىُّ بإسناده ، قال هشام لرجل أراد سفرا : اعلم أن لكل رُفقة كَلْبًا يَشْرَ كَهم فى فضل الزَّاد ، وَيَهْرُ دونهم ، فإن قدرت ألا تكون كلب الرُفقة فأفعل ، وإيتاك وتأخير الصلاة عن وقتها ، فإنك مُصَلِّها لا محالة ، فصَلِّها وهى تُقبَل منك (٢) .

قوله : « واعلم أن كل شىء من عملك تبعٌ لصلاتك » ، فيه شبهة من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الصَّلَاةُ عِمَادُ الإِيْمَانِ ، ومن ترَكَها فقد هَدَمَ الإِيْمَانَ . » وقال صلى الله عليه وآله : « أوَّل ما يحاسبُ به العبدُ صَلَاتَه ، فإن سَهَّلَ عليه كان ما بعدَه أسهَل ، وإن اشتدَّ عليه كان ما بعدَه أشدَّ » .

ومثل قوله : « ولا تُسَخِّطِ اللهَ برضا أحد من خلقه » ، مارواه المبرد فى " الكامل " ، عن عائشة قالت : من أرضى اللهَ بإسخط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أرضى الناسَ بإسخط اللهَ وكَله الله إلى الناس .

ومثل هذا مارواه المبرد أيضا قال : لما وُلِّي الحسنُ بن زيد بن الحسن المدينة قال لابن هرمة : إني لستُ كمن باعَ لك دينه رجاءَ مدحك ، أو خوفَ ذمِّك ، فقد رزقتنى (٣)

(١) الكامل : « بإسناده » .

(٢) الكامل ١ : ٢٦٢ .

(٣) الكامل : قد أفادنى الله بولادة نبيه المادح » .

الله عزَّ وجلَّ بولادة نبيِّه صلى الله عليه وآله المادِح ، وجنَّبني المباح ، وإنَّ من حَقِّه علىَّ
ألاَّ أُغْضِيَ علىَّ تقصير في حقِّ الله . وأنا أقسم بالله ، لئن أتيت بك سكرانَ لأضربنك حدًّا
للخمر ، وحدًّا للشكر ، ولأزيدنَّ لموضع حرمتك بي ، فليكن تركك لها لله عزَّ وجلَّ
تُعْنُ^(١) عليه ، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم ، فقال ابن هرمة^(٢) :

نهاني ابنُ الرسولِ عن المُدامِ وأدبني بآدابِ الكرامِ
وقال لي اصطبرْ عنها ودعها لخوفِ اللهِ لا خوفِ الأنامِ
وكيف تصبِّرى عنها وحبي لها حُبٌّ تمكِّن في عظامي !
أرى طيبَ الحلالِ علىَّ حُبُّنا وطيبَ النَّفسِ في حُبِّ الحرامِ^(٣)

(١) كذا في ١ والكامل ، وفي ب : « تعز » .

(٢) الكامل : « فهض ابن هرمة وهو يقول » .

(٣) الكامل ١ : ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الأضل :

ومن هذا العهد :

فإنه لا سواء ، إمام الهدى وإمام الردى ، وولي النبي وعدو النبي ؛ ولقد قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله : إني لا أخاف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً ؛ أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيمنعه الله بشركه ، ولكني أخاف عليكم كل منافق الجنان ، عالم اللسان ، يقول مات عرفون ، ويفعل ماتنكرون .

الشنح :

الإشارة بإمام الهدى إليه نفسه ، وإمام الردى إلى معاوية ، وسماء إماما ، كما سمي الله تعالى أهل الضلال أئمة ، فقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ (١) ثم وصفه بصفة أخرى وهو أنه عدو النبي صلى الله عليه وآله ليس يعني بذلك أنه كان عدواً أيام حرب النبي صلى الله عليه وآله وتقريش ، بل يريد أنه الآن عدو النبي صلى الله عليه وآله ، لقوله صلى الله عليه وآله له عليه السلام : « وعدوك عدوى ، وعدوى عدو الله ». وأول الخبر : « وليك ولي ، وولي ولي الله » ، وتمامه مشهور ، ولأن دلائل النفاق كانت ظاهرة عليه من فلتات لسانه ومن أفعاله ، وقد قال أصحابنا في هذا المعنى أشياء كثيرة ، فلتطلب من كتبهم ، خصوصا

(١) سورة القصص ٤١ .

من كُتِبَ شيخنا أبي عبد الله ، ومن كتب الشيخين أبي جعفر الإسكافي ، وأبي القاسم البلخي ، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما تقدم .

ثم قال عليه السلام : « إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إني لا أخاف على أمتي مؤمنا ولا مشركا » أي ولا مشركا يُظهر الشرك ، قال : لأن المؤمن يمنع الله بإيمانه أن يُضِلَّ الناس . والمشرك مُظهر الشرك ، يَتَمَعه الله بإظهار شركه ويخذه ، ويصرف قلوب الناس عن اتباعه ، لأنهم ينفرون منه لإظهاره كلمة الكفر ، فلا تطمئن قلوبهم إليه ، ولا تسكن نفوسهم إلى مقالته ، ولكنني أخاف على أمتي المنافق الذي يُسرُّ الكفر والضلal ، ويُظهر الإيمان والأفعال الصالحة ، ويكون مع ذلك ذا لسن وفصاحة ، يقول بلسانه ما تعرفون صوابه ، ويفعل سرا ما تنكرونه لو اطعتم عليه ، وذلك أن من هذه صِفته تسكن نفوس الناس إليه ؛ لأن الإنسان إنما يحكم بالظاهر فيقلده الناس ؛ فيضلهم ويوقعهم في المفاسد .

[كتاب المعتضد بالله]

ومن الكتب المستحسنة الكتاب الذي كتبه المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله في سنة أربع وثمانين ومائتين ووزيره حينئذ عبيد الله بن سليمان ، وأنا أذكره مختصرا من تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .

قال أبو جعفر : وفي ^(١) هذه السنة عزَم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر ، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس ، ، فخوفه عبيد الله بن سليمان اضطراب العامة ،

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢١٦٤ وما بعدها .

وأنه لا يأمن أن تكون فتنة ، فلم يلتفت إليه . فكان أول شيء بدأ به المعتضد من ذلك التقدم^(١) إلى العامة بلزوم أعمالهم ، وترك الاجتماع والعصبية^(٢) ، [والشهادات عند السلطان إلا أن يسألوا]^(٣) ، ومنع^(٤) القصاص عن القعود على الطرقات ، وأنشأ هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت بالجانبيين من مدينة السلام في الأربعاء والحال والأسواق يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ثم منع يوم الجمعة لأربع بقين منه ، ومنع القصاص من القعود في الجانبيين ، ومنع أهل الحلق من القعود في المسجدين ، ونودي في المسجد الجامع بنهى الناس عن الاجتماع وغيره وبمنع القصاص وأهل الحلق من القعود ، ونودي : إنّ الذمة قد برئت ممن اجتمع من الناس في مناظرة أو جدال ، وتقدم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين ألا يترحموا على معاوية ، ولا يذكروه [بخير]^(٣) ، وكانت عادتهم جارية بالترحم عليه ، وتحدث الناس أن الكتاب الذى قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر ، فلما صلى الناس بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب ، فلم يُقرأ : وقيل : إن عبید الله بن سليمان صرفه عن قراءته ، وإنه أحضر يوسف بن يعقوب القاضى ، وأمره أن يعمل الحيلة فى إبطال ما عزم المعتضد عليه ، فمضى يوسف فكلم المعتضد فى ذلك ، وقال له : إنى أخاف أن تضرب العامة ، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة ، فقال : إن تحركت العامة أو نطقت وضعت السيف فيها . فقال : يا أمير المؤمنين ، فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون فى كل ناحية ، ويميل إليهم خلق كثير ، تقربتهم من رسول الله صلى عليه وآله ، وما فى هذا الكتاب من إطرائهم - أو كما قال - وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل ، وكانوا هم أبسط

(٢) الطبرى : « الفضية » .

(٤) الطبرى : « ومنع » .

(١) الطبرى : « الأمر بالتقدم » .

(٣) من الطبرى .

السنة ، وأثبت حجةً منهم اليوم . فأمسك المعتضد فلم يردّ إليه جواباً ، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء . وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله الله صلى الله عليه وآله :

أما بعد ، فقد انتهى إلى أمير المؤمنين ما عليه جماعة العامة من شبهةٍ قد دخلتهم في أديانهم ، وفسادٍ قد لحقهم في معتقدهم ، وعصبيةٍ قد غلبت عليها أهواؤهم ، ونطقت بها ألسنتهم ، على غير معرفه ولا روية ، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بينة ولا بصيرة ، وخالفوا السنن المتبعة ، إلى الأهواء المبتدعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ^(١) ﴾ . خروجا عن الجماعة ، ومسارعةً إلى الفتنة ، وإيثاراً للفرقة ، وتشتيها للكلمة ، وإظهاراً لموالاة من قطع الله عنه الموالاة ، وبتر منه العصمة ، وأخرجه من الملة ، وأوجب عليه اللعنة ، وتعظيماً لمن صغر الله حقه ، وأوهن أمره ، وأضعف رُكنه ، من بنى أمية ، الشجرة الملعونة ، ومخالفة لمن استنقذهم الله به من الهلكة ، وأسبغ عليهم به النعمة من أهل بيت البركة والرحمة ، ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ^(٢) ﴾ .

فأعظم أمير المؤمنين ما انتهى إليه من ذلك ؛ ورأى ^(٣) ترك إنكاره حرّ جاعليه في الدين ، وفسادا لمن قلده الله أمره من المسلمين ، وإهمالا لما أوجبه الله عليه من تقويم الخالفين ، وتبصير الجاهلين ، وإقامة الحجّة على الشاكّين ، وبسط اليد على المعاندين ^(٤) ! وأمير المؤمنين يخبركم معاشر المسلمين أنّ الله جل ثناؤه لما ابتعث محمداً صلى الله عليه وسلم بدينه ، وأمره أن يصدع بأمره ، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلى ربه ، وأنذرهم وبشرهم ،

(٢) سورة البقرة ١٠٥ .

(٤) الطبري : « العاندين » .

(١) سورة القصص ٥٠ .

(٣) الطبري : « ترك » .

ونصح لهم وأرشدهم ، فكان من استجاب له ، وصدق قوله ، واتبع أمره مُفَيَّرٌ^(١) يسير من بنى أبيه ، من بين مؤمن بما أتى به من ربه ، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له ، وإشفاقاً عليه ، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته ، وكافرهم مجاهدٌ بنصرتِه وحميته ، يدفعون من نابذه ، ويقهرون من عازَّه وعانده ، ويتوثقون له ممن كانفه وعاضده ، ويبايعون من سمح بنصرتِه ، ويتجسسون أخبار أعدائه ، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأى العين ، حتى بلغ المدى ، وحان وقت الاهتدا ، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة ، وأحسن هدى ورغبة ، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة ، وأهل بيت الدين ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . معدن الحكمة ، وورثة النبوة ، وموضع الخلافة . أوجب الله لهم الفضيلة ، وأزم العباد لهم الطاعة .

وكان ممن عانده وكذَّبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم ، يتلقونه بالضرر والتثريب^(٢) ، ويقصدونه بالأذى والتخويف ، وينابذونه بالعداوة ، وينصبون له الحاربة ويصدون من قصده ، وينالون بالتعذيب من اتبعه ، وكان أشدهم في ذلك عداوة ، وأعظمهم له مخالفه ، أولهم في كلِّ حرب ومناصبه ، ورأسهم في كلِّ إجلاب وفتنة ، لا يرفع على الإسلام راية إلا كان صاحبها وقائدها ورئيسها ؛ أبا سفيان بن حرب صاحب أحد والخندق وغيرهما ، وأشياعه من بنى أمية الملعونين في كتاب الله ، ثم الملعونين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله في مواطن عدَّة ، لسابق علم الله فيهم ، وماضى حكمه في أمرهم ، وكفرهم ونفاقهم . فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً ، ويدافع مكابداً ، ويحلب منابداً ، حتى قهره السيف ، وعلا أمرُ الله وهم كارهون ، فتعوذ بالإسلام غير منطوي عليه ، وأسرَّ الكفر غير مقلع عنه ، فقبله وقبل ولده على علمٍ منه بحاله وحالهم . ثم أنزل الله

(١) الطبرى : « نقر » .

(٢) التثريب : « العتاب واللوم » .

تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾^(١) ، ولا خلاف بين أحد في أنه تعالى وتبارك أراد بها بنى أمية .

ومما ورد من ذلك في السنة ، ورواه ثقات الأمة ، قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه^(٢) : « لعن الله الراكب والقائد والسائق » .

ومنه ما روتاه الرواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان : تلقفوها يا بنى عبد شمس تلقف الكفرة ، فوالله ما من جنة ولا نار ؛ وهذا كفر صراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

ومنه ما يروى من وقوفه على ثنية أخذ من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده : هاهنا رمينا محمدا وقتلنا أصحابه .

ومنها الكلمة التي قالها للعباس قبل الفتح وقد عرضت عليه الجنود : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً ، فقال له العباس : ويحك ! إنه ليس بملك ، إنها النبوة .
ومنها قوله يوم الفتح وقد رأى بلالا على ظهر الكعبة يؤذّن ويقول : أشهد أن محمداً رسول الله : لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد .

ومنه الرؤيا التي رآها رسول الله صلى الله عليه وآله فوجم لها . قالوا : فما رأتى بعدها ضاحكاً^(٣) ؛ رأى نفرأ من بنى أمية ينزون^(٤) على منبره نزوة القردة .

ومنها طرد رسول الله صلى الله عليه وآله آل الحکم بن أبي العاص لحما كاته إياه في

(١) سورة الإسراء ٦٠ .
(٢) الطبري : « يسوق به » .
(٣) بعدها في الطبري : فأنزل الله : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ .
(٤) ينزون : يتبون ويعدون .

مِشِيته ، وألحقه الله بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله آفةً باقيةً حين التفت إليه فرآه يتخَلَّج يحكيه ، فقال : « كن كما أنت » ، فبقي على ذلك سائر عمره .

هذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أوّل فتنه كانت في الإسلام ، واحتقابه^(١) كلّ حرام سُنِفَ فيها أو أريق بعدها .

ومنها ما أنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله ليلة القدر ، خيرٌ من ألف شهر ! قالوا : ملك بنى أمية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله دعا معاوية ليكتب بين يديه ، فدافع بأمره واعتلّ بطعامه ؛ فقال صلى الله عليه وآله : « لا أشبع الله بطنه » . فبقي لا يشبع وهو يقول : والله ما أترك الطعام شبعاً ، ولكن إعياء !

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « يطلع من هذا الفجّ رجل من أمّتي يُحشّر على غير ملّتي » ؛ فطلع معاوية .

ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » . ومنها الحديث المشهور المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال : « إن معاوية في تابوت من نار ، في أسفل درّك من جهنّم ، ينادي : يا حنّان يا منّان . فيقال له : ﴿ آلاَءُ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(٢) .

ومنها أفتراؤه بالحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكّانا ، وأقدمهم إليه سبّقا ، وأحسنهم فيه أثراً وذِكْراً ، على بن أبي طالب ، ينازعه حقّه بباطله ، ويجاهد أنصاره بضلاله وأعدائه ، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه ، من إطفاء نور الله ، ووجود دينه

(١) يقال : احتقب فلان الإثم ؛ إذا ارتكبه .

(٢) سورة يونس ٩١ .

﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) ؛ ويستهوى أهل الجهالة ،
 ويموء لأهل القباوة بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول الله صلى الله عليه وآله الخبر عنهم ،
 فقال لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » ؛ تدعوهم إلى الجنة ويدعونك إلى النار ،
 مؤثراً للعاجلة ، كافراً بالأجلّة ؛ خارجاً من رِبْقَةٍ^(٢) الإسلام ، مستحلاًّ للدم الحرام ؛
 حتّى سُفِكَ في فتنته ، وعلى سبيل غوايته وضلالته مالا يُحصى عدده من أختيار المساهين ،
 الذابّين عن دين الله والناصرين لحقّه ، مجاهداً في عداوة الله ، مجتهداً في أن يُعصى الله
 فلا يُطاع ، وتُبطل أحكامه فلا تقام ، ويُخالف دينه . فلا بدّ وأن تعلو كلمة الضلال
 وترتفع دعوة الباطل ، وكلمة الله هي العليا ، ودينه المنصور ، وحكمه النافذ ، وأمره الغالب
 وكيد من عاداه وحاده المغلوب الداحض ؛ حتى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها ،
 وتطوّق تلك الدماء وما سُفِكَ بعدها ، وسنّ سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها ،
 وأباح المحارم لمن ارتكبها ، ومَنع الحقوق أهلها ، وغرّته الآمال ، واستدرّجه الإمهال .
 وكان ممّا أوجب الله عليه به اللعنة قتله من قتل صبراً^(٣) من خيار الصحابة
 والتابعين ، وأهل الفضل والدين ، مثل عمرو بن الحمق الخزاعيّ وحجّر بن عديّ
 الكنديّ ، فيمن قتل من أمثالم ، على أن تكون له العزّة والملك والغلبة ، ثم ادّعاؤه زياد
 ابن سُميّة أخاً ، ونسبته إياه إلى أبيه ، والله تعالى يقول : ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ
 عِنْدَ اللَّهِ ﴾^(٤) ، ورسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ملعون من ادعى إلى غير أبيه ،
 أو انتفى إلى غير مواليه » . وقال : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، فخالف حكم الله تعالى
 ورسوله جهاراً ، وجعل الولد لغير الفراش والحجر لغير العاهر ، فأحلّ بهذه الدعوة من
 محارم الله ورسوله في أمّ حبيبة أمّ المؤمنين وفي غيرها من النساء من شعور ووجوه قد

(٢) الربقة : الواحدة من العرى التي في الجبل .

(٤) سورة الأحزاب . ٥ .

(١) سورة التوبة ٣٢ .

(٣) صبرا ، أى حبساً .

حرّمها الله وأثبت بها من قرّبي قد أبعدّها الله ، ما لم يدخل الدّين خللاً مثله ، ولم ينل الإسلامَ تبديلاً يشبهه .

ومن ذلك إثاره لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السّكّير النخيّر صاحب الدّيكة والفهود والقردة ، وأخذ البيعة له على خيار المسلمين بالقهر والسّطوة والتوعّد والإخافة ، والتهديد والرّهبة ، وهو يعلم سفّهه ، ويطلع على رهقه وخبيثه ؛ ويؤمن سكراته وفعلاته ، وفجوره وكفره . فلما تمكّن - فأنذله الله - فيما تمكّن منه ، طلب بثارات المشركين وطوائهم عند المساهين ، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرّة الوقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفسح ، فشفي عند نفسه غليله ؛ وظنّ أنه قد انتقم من أولياء الله ، وبلغ الثأر لأعداء الله ؛ فقال مجاهراً بكفره ، ومظهراً لشرّ كه :

ليت أشياخي بيّدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل^(١)
قول^(٢) من لا يرجع إلى الله ولا إلى دينه ولا إلى رسوله ولا إلى كتابه ، ولا يؤمن بالله وبما جاء من عنده .

ثم أغلظ ما انتهك ، وأعظم ما اجترم ، سفكه دمّ الحسين بن عليّ عليه السلام ، مع موقعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه ومنزله من الدّين والفضل والشهادة له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنّة ؛ اجترأ على الله ، وكفراً بدينه ، وعداوة لرسوله ، ومجاهرة لعترته ، واستهانة لحرمة ، كما بما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفرة التّرك

(١) لعبد الله بن الزبيري ؛ من كلته يوم أحد ؛ سيرة ابن هشام ٣ : ٩٦ وبعده في الطبري :

قَدْ قَتَلْنَا الْقَوْمَ مِنْ سَادَاتِكُمْ وَعَدَلْنَا مَيْلَ بَدْرٍ فَأَعْتَدَلُ
فَاهَلُّوا وَاسْتَهَلُّوا فَرِحًا ثُمَّ قَالُوا يَا بَزِيدُ لَا تَسَلْ
لَسْتُ مِنْ خِنْدِفٍ إِنْ لَمْ أَنْتَقِمْ مِنْ بَنِي أَحْمَدَ مَا كَانَ فَعَلُ
لَعْنَتِ هَاشِمٍ بِالْمَلِكِ فَلَا خَبْرَ جَاءَ وَلَا وَحْيَ نَزَلَ

(٢) الطبري : هذا هو المروق من الدين وقول من لا يرجع «

والديلم ، ولا يخاف من الله نقمة ، ولا يُراقب منه سَطْوَةَ ، فَتَبَّرَ اللهُ عَمْرَهُ ، أَخْبَثَ أَصْلَهُ
 وفرعَه ، وسلبه ماتحت يده ، وأعدَّ له من عذابه وعقوبته ، ما استحقَّه من الله بمعصيته .
 هذا إلى ما كان من بنى مروان من تبديل كتاب الله ، وتعطيل أحكام الله ،
 واتخاذ مال الله بينهم دُولًا ، وهدم بيت الله ، واستحلالهم حرمة ، ونصبهم الجانيق
 عليه ، ورَمِيهم بالنيران إِيَّاهُ ، لا يألون له إحراقًا وإخرابًا ، ولِمَا حَرَّمَ اللهُ منه استباحة
 وانتهابها ، ولَمَن لجأ إليه قَتلاً وَتَنكِيلًا ، ولَمَن أَمَّنَهُ اللهُ به إخفاقةً وَتَشْرِيدًا ؛ حَتَّى إِذَا
 حَقَّتْ عَلَيْهِمُ كَلِمَةُ الْعَذَابِ ، وَاسْتَحَقُّوا مِنَ اللهِ الْأَنْتِقَامَ ، وَمَلَأُوا الْأَرْضَ بِالْجُورِ وَالْعُدْوَانِ ،
 وَعَمَّوا عِبَادَ اللهِ بِالظُّلْمِ وَالْاِقْتِسَارِ ، وَحَلَّتْ عَلَيْهِمُ السَّخَطَةُ ، وَنَزَلَتْ بِهِمْ مِنَ اللهِ
 السَّطْوَةُ ، أَتَاكَ اللهُ لَمْ مِنْ عِتْرَةِ نَبِيِّهِ وَأَهْلِ وِرَاثَتِهِ ، وَمَنْ اسْتَخْلَصَهُ مِنْهُمْ خِلَافَتَهُ ، مِثْلَ
 مَا أَتَاكَ مِنْ أَسْلَافِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَبَائِهِمُ الْمُجَاهِدِينَ ، لِأَوْلَائِهِمُ الْكَافِرِينَ ، فَسَفَكَ اللهُ بِهِ
 دِمَاءَهُمْ وَدِمَاءَ آبَائِهِمْ مَرْتَدِّينَ ، كَمَا سَفَكَ بِأَبَائِهِمْ مُشْرِكِينَ ، وَقَطَعَ اللهُ دَابِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا أَمَرَ لِيُطَاعَ ، وَمِثْلَ لِيُتَمَثَّلَ ، وَحَكْمَ لِيُفْعَلَ ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ
 وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ ^(١) ، وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
 وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ ^(٢) .

فَالْعَنُوا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، وَفَارِقُوا مَنْ لَاتَنَالُونَ الْقُرْبَةَ مِنَ اللهِ إِلَّا
 بِمَفَارِقَتِهِ ؛ اللَّهُمَّ الْعَنْ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبِ بْنِ أُمِّيَّةَ ، وَمَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَيَزِيدَ بْنَ
 مَعَاوِيَةَ ، وَمُرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ ، وَوَلَدَهُ وَوَلَدِوَلَدَهُ ! اللَّهُمَّ الْعَنْ أُمَّةَ الْكُفْرِ ، وَقَادَةَ الضَّلَالِ ،
 وَأَعْدَاءَ الدِّينِ ، وَجَاهِدِي الرَّسُولِ ، وَمَعْطَلِي الْأَحْكَامِ ، وَمُبَدِّلِي الْكِتَابِ ، وَمَنْتَهِكِي
 الدِّمَّ الْحَرَامَ ! اللَّهُمَّ إِنَّا نَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ مُوَالَاةِ أَعْدَائِكَ ، وَمَنْ الْإِنْعِمَاضِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِكَ ،

كما قلت : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ (١).

أيها الناس، اعرّفوا الحقّ. تعرّفوا أهله، وتأمّلوا سبيل الضلالة تعرفوا سبيلها، ففقدوا
عندما وقفكم الله عليه، وانفدوا كما أمركم الله به، وأمير المؤمنين يستعصم بالله لكم،
ويسأله توفيقكم، ويرغب إليه في هدايتكم. والله حسبه، وعليه توكله، ولا قوّة إلا
بالله العليّ العظيم (٢).

قلت : هكذا ذكر الطبريّ الكتاب، وعندى أنّه الخطبة، لأن كلّ ما يُخطب به فهو
خطبة، وليس بكتاب، والكتاب ما يكتب إلى عامل أو أمير ونحوهما، وقد يقرأ الكتاب
على المنبر فيكون كأنّ الخطبة، ولكن ليس بخطبة، ولكنّه كتابٌ قرئ على الناس.
ولعلّ هذا الكلام كان قد أنشئ ليكون كتاباً، ويكتب به إلى الآفاق، ويؤمروا
بقراءته على الناس، وذلك بعد قراءته على أهل بغداد. والذي يؤكّد كونه كتاباً، وينصر
مقاله الطبريّ، أنّ في آخره : « كتب عبيد الله بن سليمان في سنة أربع وثمانين ومائتين »،
وهذا لا يكون في الخطب، بل في الكتب، ولكنّ الطبريّ لم يذكر أنّه أمر بأن يكتب
إلى الآفاق ولا قال : وقع العزم على ذلك، ولم يذكر إلا وقوع العزم على أن يقرأ في
الجوامع ببغداد.

(١) سورة المجادلة ٢٢ .

(٢) الطبريّ حوادث سنة ٢٨٤ بتصرف واختصار .

(٢٨)

الإصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا ، وهو من محاسن الكتب :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذَكُّرٌ فِيهِ أَصْطِفَاءُ اللَّهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
لِدِينِهِ ، وَتَأْيِيدَهُ إِيَّاهُ لِمَنْ أَيْدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَلَقَدْ خَبَأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَبًا ؛
إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبِلَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَنَا ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَدِيَّتِنَا ، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ
كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَى النَّضَالِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ؛ فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنْ تَمَّ
أَعْتَرَلَكَ كُلُّهُ ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ نَهْمُهُ . وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ ، وَالسَّائِسَ
وَالْمُسُوسَ ! وَمَا لِلطُّلُقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلُقَاءِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَرْتِيبِ
دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ ! هَيْهَاتَ ، لَقَدْ حَنَّ قِدْحُ لَيْسَ مِنْهَا ، وَطَفِقَ يَحْكُمُ
فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا !

أَلَا تَرَبِّعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ
أَخْرَكَ الْقَدْرُ ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ ؛ فَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التِّيهِ ،
رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ .

أَلَا تَرَى - غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ ؛ وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَحَدْتُ - أَنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَلِكُلِّ فَضْلٍ ، حَتَّى إِذَا اسْتَشْهَدَ شَهِيدُنَا
قِيلَ : سَيِّدُ الشَّهَادَةِ ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ
صَلَاتِهِ عَلَيْهِ !

أَوْ لَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْمًا قَطَّعَتْ أَيْدِيَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُلِّ فَضْلٍ ، حَتَّىٰ إِذَا فُعِلَ
بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ ، قِيلَ : الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجُنَّاحِينَ !
وَلَوْ لَا مَانَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنْ تَزَكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ ، لَدَكَرَ ذَاكَ فَضَائِلَ جَمَّةً ،
تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ .

فَدَعُ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ ، فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا ، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا ،
لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا ، وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا ؛ فَنَكْحُنَا
وَأُنْكَحُنَا ؛ فِإِنَّ الْأَكْفَاءَ وَلَسْتُمْ هُنَاكَ . وَأَيُّ يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيُّ
وَمِنْكُمْ الْمُكَذَّبُ ، وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ
الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صَنِيبَةُ النَّارِ ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْخَطْبِ ؛ فِي
كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ !

فَإِسْلَامُنَا مَا قَدْ سُمِعَ ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ ، وَكِتَابُ اللَّهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَدَّ عَنَّا ،
وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَہِ وَتَعَالَى : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (١) ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلىُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، فَذَحْنُ مَرَّةٍ أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ ، وَتَارَةٌ أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ .

وَلَمَّا أَحْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
فَلَجَّوْا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ ، وَإِنْ يَكُنْ بغيرِهِ
فَالْأَنْصَارُ عَلَىٰ دَعْوَاهُمْ .

وَزَعَمْتَ أَيُّ لِكُلِّ الْأَخْلَفَاءِ حَسَدَتْ ، وَعَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغِيَّتٌ ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ
كَذَلِكَ فَلَيْسَتْ الْجُنَايَةُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونُ الْعُذْرُ إِلَيْكَ .

* وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارَهَا *

وَقُلْتَ : إِنِّي كُنْتُ أَقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ لِلْمَخْشُوشِ حَتَّى أَبَايِعَ ؛ وَلَعَمْرُ اللَّهِ لَقَدْ
أَرَدْتُ أَنْ تَدُمَّ فَمَدَحْتَ ؛ وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ ! وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاظَةٍ فِي
أَنْ يَكُونَ مَظْلُومًا مَالَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي دِينِهِ ، وَلَا مُرْتَابًا بَيِّنِيهِ !

وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَى غَيْرِكَ فَصَدَّهَا ، وَلَكِنِّي أَطَلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَحَحَ
مِنْ ذِكْرِهَا .

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُمَانَ ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ
لِرِحْمِكَ مِنْهُ ؛ فَأَيْنَا كَانَ أَعْدَى لَهُ ، وَأَهْدَى إِلَى مَقَاتِلِهِ ! أَمِنْ بَدَلٍ لَهُ نُصْرَتَهُ
فَأَسْتَقْعِدَهُ وَأَسْتَكْفَهُ ، أَمِنْ أَسْتَنْصِرُهُ فَتَرَخِي عَنْهُ وَبَثَّ الْمُنُونَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى أَتَى
قَدْرُهُ عَلَيْهِ ! كَلَّا وَاللَّهِ لَقَدْ ﴿ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْوَجِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ
إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) .

وَمَا كُنْتُ لِأَعْنَدِرَ مِنْ أُنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَانًا ؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ
إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ .

* وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ *

وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلَا صَحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ
أَسْتِعْبَارٍ ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ ، وَبِالسَّيْفِ مَخُوفِينَ ، ف

* لَبِثُ قَلِيلًا يَلْحَقُ الْهَيْجَا حَمَلٌ *

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ ، سَاطِعٍ
قَتَامُهُمْ ، مُتَسَرِّبِلِينَ سَرَائِيلَ الْمَوْتِ ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ ، وَقَدْ صَحِبْتَهُمْ
ذُرِّيَّةً بَدْرِيَّةً ، وَسُيُوفَ هَاشِمِيَّةً ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدَّكَ
وَأَهْلِكَ ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

الشرح :

[كتاب معاوية إلى علي]

سألت النقيبَ أبا جعفرٍ يحيى بن أبي زيدٍ ؛ فقلتُ : أرى هذا الجوابَ مُنطبقاً على
كتابِ معاوية الذي بعثه مع أبي مُسلمٍ الخولانيّ إلى عليّ عليه السلام ؛ فإن كان هذا هو
الجوابُ فالجوابُ الذي ذكره أربابُ السيرة وأوردَه نصرُ بنُ مُزاحمٍ في كتابِ صِفِّينَ إذن
غيرُ صحيحٍ ، وإن كان ذلك الجوابُ ، فهذا الجوابُ إذنُ غيرُ صحيحٍ ولا ثابتٍ ، فقال لي :
بل كلاهما ثابتٌ مرُويٌّ ، وكلاهما كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام وألفاظُهُ ، ثم أمرني أن
أكتبَ ما عليه عليّ عليه السلام ، فكتبته ، قال رحمه الله :

كان معاويةٌ يُتَسَقِّطُ (٢) عليّاً وينعى عليه ما عساه يدكره من حالِ أبي بكرٍ وعمرٍ ،
وأنهما غصباه حقّه ، ولا يزالُ يكيدهُ بالكتابِ يكتبهُ ، والرّسالةُ يبعثُها يطلبُ غرته ؛
ليَنفُثَ بما في صدرِهِ من حالِ أبي بكرٍ وعمرٍ ، إمّا مكاتبةً أو مُراسلةً ، فيجعلُ ذلك حجةً

(٢) يتسقطه : يتنقصه .

(١) سورة هود ٨٣ .

عليه عند أهل الشام ، ويضيفه إلى ما قرّره في أنفسهم من ذنوبه كإزعم ، فقد كان غمسه (١) عندهم بأنه قتل عثمان ومالاً على قتله ، وأنه قتل طلحة والزبير ، وأمر عائشة ، وأراق دماء أهل البصرة . وبقيت خصلة واحدة ، وهو أن يثبت عندهم أنه يتبرأ من أبي بكر وعمر ، وينسبهما إلى الظلم ومخالفة الرسول في أمر الخلافة ، وأنهما وثبا عليهما غلبة ، وغصبا إياها ؛ فكانت هذه الطامة الكبرى ليست مقتصرة على فساد أهل الشام عليه ، بل وأهل العراق الذين هم جندُه وبطانته وأنصاره ؛ لأنهم كانوا يعتقدون إمامة الشيخين ؛ إلا القليل الشاذ من خواص الشيعة ، فلما كتب ذلك الكتاب مع أبي مسلم الخولاني قصد أن يغضب علياً ويحرجه ويوجهه إذا قرأ ذكر أبي بكر ، وأنه أفضل المسلمين ، إلى أن يخلط خطه في الجواب بكلمة تقتضي طعناً في أبي بكر ، فكان الجواب مجمماً (٢) غير بين ، ليس فيه تصريح بالتظلم لهما ، ولا التصريح ببراءتهما ، وتارة يترحم عليهما ، وتارة يقول : أخذنا حقّ وقد تركناه لهما ، فأشار عمرو بن العاص على معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستفزاً فيه علياً عليه السلام ويستخفاه ، ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلقان به في تقييح حاله وتهجين مذهبه . وقال له عمرو : إن علياً عليه السلام رجل نزق تيباه ، وما استطعت منه الكلام بمثل تقريظ أبي بكر وعمر ، فاكتب . فكتب كتاباً نفذه إليه مع أبي أمارة الباهلي ، وهو من الصحابة ، بعد أن عزم على بعثته مع أبي الدرداء . ونسخة الكتاب : من عبد الله معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب .

أما بعد ، فإن الله تعالى جدّه أوصفني محمداً عليه السلام لرسالته ، واختصّه بوحيه وتأدية شريعته ، فأنتقد به من العمالية ، وهدى به من الغواية ، ثم قبضه إليه رشيداً حميداً ، قد بلغ الشّرع ، وحقّ الشّرك ، وأحمد نار الإفك ، فأحسن الله جزاءه ، وضاعف عليه لعمه وآلاءه . ثم إن الله سبحانه اختصّ محمداً عليه السلام بأصحاب أيدوه وآزروه ونصروه

(١) غمسه : اتهمه .

(٢) مجمماً : غير واضح .

وكانوا كما قال الله سبحانه لهم : ﴿ أَشِدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ ﴾ ^(١) ؛ فكان أفضلهم مرتبة ، وأعلامهم عند الله والمسلمين منزلة ؛ الخليفة الأول ، الذي جَمَعَ الكلمة ، ولم الدعوة ، وقَاتَلَ أهل الرِّدَّة ، ثم الخليفة الثاني الذي فَتَحَ الفتوح ، ومَصَّرَ الأمصار وأذَلَّ رِقَابَ المشركين . ثم الخليفة الثالث المظلوم الذي نَشَرَ المِلَّةَ ، وطَبَّقَ الآفاقَ بالكلمة الحنيفية .

فلما أُسْتُوثِقَ الإسلامَ وضربَ بِحِجْرٍ انه عدوتَ عليه فَبَغَيْتَهُ الغوائل ، ونَصَبتَ له المكاييد ، وضربتَ له بطنَ الأمرِ وظهره ، ودَسَّستَ عليه ، وأغرَيْتَ به ، وقعدتَ حيثُ استنصرَكَ عن نصرِهِ ، وسألتَ أن تُدرِكَه قبل أن يمزِقَ فما أدركته ، وما يومُ المسلمين منك بواحد !

لقد حسدتَ أبا بكرٍ والتَّوَيْتَ عليه ، ورُمْتَ إفسادَ أمره ، وقعدتَ في بَيْتِكَ ، واستغَوَيْتَ عِصَابَةً مِنَ النَّاسِ حَتَّى تَأَخَّرُوا عَن بَيْعَتِهِ ، ثم كرهتَ خِلافةَ عُمَرَ وَحَسَدتَهُ واستَطَلتَ مُدَّتَهُ ، وسُررتَ بقتله ، وأظهرتَ الشَّمَاتَةَ بِمُصَابِهِ ؛ حتى إنك حاولتَ قتلَ ولدهِ لِأَنَّهُ قَتَلَ قَاتِلَ أَبِيهِ ، ثم لم تكن أشدَّ منك حَسداً لابنِ عَمِّكَ عُثْمَانَ ؛ نشرتَ مَقَابِحَهُ ، وطَوَيْتَ مَحَاسِنَهُ ، وطعنتَ في فِئَتِهِ ، ثم في دينه ، ثم في سيرته ، ثم في عقله ؛ وأغرَيْتَ به السفهاءَ من أصحابِكَ وشيعتِكَ ، حَتَّى قتلوه بِمَحْضَرٍ مِنْكَ ، لاتدفعَ عنه بلسانٍ ولا يدٍ ؛ وما من هؤلاءِ إِلَّا مَنْ بَغَيْتَ عَلَيْهِ ، وتلكَّاتَ في بَيْعَتِهِ ؛ حَتَّى حُمِلتَ إِلَيْهِ قَهْرًا ، تُسَاقُ بِخِزَانِمِ الاقْتِسَارِ كَمَا يُسَاقُ الفحلُ الخشوش ، ثم نهضتَ الآنَ تطلبُ الخِلافةَ ، وقتلَهُ عُثْمَانَ خُلصًا وَوَكْ سَجْرًا وَوَكْ والمحدِّقون بك ، وتلك من أمانى النَّفوسِ ، وضلالاتِ الأهواءِ .

فدَعِ الججاجَ والعبثَ جانبا ، وادفعِ إلينا قَتْلَةَ عُثْمَانَ ، وأعدَّ الأمرَ شورى بين المسلمين ليَتَّفِقُوا على مَنْ هُوَ لِلَّهِ رِضًا . فلا بيعةَ لك في أعناقنا ، ولا طاعةَ لك علينا ، ولا عُتْبَى لك

عندنا ، وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف . والذي لإله إلا هو لأُطْبِنَ قَتَلَةَ عُمَانَ
أين كانوا ، وحيث كانوا ؛ حتى أقتلهم أو تلتحق رُوحى بالله .

فأما ما لا تزال تمنّ به من سابقَتِكَ وجهادك فإنّي وجدتُ الله سبحانه يقول :
﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْأَلُوا قُلَّ لَّا تَمْتُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ
لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) . ولو نظرت في حالِ نفسك لوجدتها
أشدَّ الأنفس امتنانا على الله بعملها ؛ وإذا كان الامتنان على السائل يُبطل أجرَ الصدقة ،
فالامتنان على الله يُبطل أجرَ الجهاد ، ويجعله ﴿ كَصَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ
فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) .

قال النقيب أبو جعفر : فلما وصل هذا الكتابُ إلى عليّ عليه السلام مع أبي أمانة
الباهليّ ، كَلَّمَ أبا أمانة بنحوٍ مِمَّا كَلَّمَ به أبا مُسلم الخولانيّ ، وكتب معه هذا الجواب .
قال النقيب : وفي كتاب معاويةَ هذا ذِكرُ لفظ الجمل الخشوش أو الفحل الخشوش ،
لا في الكتاب الواصل مع أبي مسلم ، وليس في ذلك هذه اللفظة ، وإتفايه : « حسدت الخلفاء
وبغيت عليهم ، عرفنا ذلك من نظرك الشَّرُّر (٣) ، وقولك الهُجْر (٤) وتنفسك الصَّعْداء ،
وإبطائك عن الخلفاء » .

قال : وإنما كثيرٌ من الناس لا يعرفون الكتابين ؛ والمشهور عندهم كتابُ أبي مسلم
فيجعلون هذه اللفظة فيه ، والصحيح أنها في كتاب أبي أمانة ، ألا تراها عادت

(١) سورة الحجرات ١٧ .

(٢) سورة البقرة ٢٦٤ .

(٣) يقال : شرره وإليه : نظر إليه بأحد شقيه ؛ أو هو نظر فيه إعراض .

(٤) الهجر (بضم فسكون) : القبيح من الكلام .

في جوابه ولو كانت في كتاب أبي مسلم لعادت، في جوابه !
انتهى كلامُ النقيب أبي جعفر .

ونحن الآن مبتدئون في شرح ألفاظ الجواب المذكور .
قوله : « فلقد خبأ لنا الدهرُ منك عجباً » ، موضعُ التعجب أن معاويةَ يُخبرَ عليّاً عليه السلام باصطفاء الله تعالى محمداً وتشريفه له ، وتأَييده له ؛ وهذا ظريف لأنه يجري كإخبار زيدٍ عمراً عن حالِ عمرو ، إذ كان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كالشيء الواحد . وخبأ مهموز ، والمصدرُ الخبءُ ، ومنه الخباية ، وهي الخبء إلا أنهم تركوا همزها ، والخبء أيضاً والخبء على « فَعِيل » ماخِيءٌ .
وبلاءُ الله تعالى : إنعامه وإحسانه .

وقوله عليه السلام : « كناقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرَ » ، مَثَلٌ قديم . وهَجَرَ : اسمُ مدينة لا ينصرف للتعريف والتأنيث . وقيل : هو اسمُ مذكَرٍ مصروف ، وأصلُ المَثَلِ « كَمَسْتَبْضِعِ تَمْرٍ إِلَى هَجَرَ ^(١) » ، والنسبة إليه هاجريٌّ على غير قياس ، وهي بلدة كثيرة النخل يُحمل منها التمر إلى غيرها ، قال الشاعر في هذا المعنى :

أُهدى له طُرفُ الكلامِ كما يَهْدَى لَوَالِي البَصْرَةِ التَّمْرُ
قوله : « وداعى مسدده إلى النضال » ، أى معلّمه الرَّمَى ، وهذا إشارة إلى قول
القائل الأول :

(١) يجمع الأمثال ٢ : ١٥٢ ؛ قال أبو عبيد : هذا من الأمثال المتذلة ومن قديمها ؛ وذلك أن هجر معدن التمر ؛ والمستبضع لايه مخطيء ؛ ويقال أيضاً : كاستبضع التمر لى خبير ؛ قال النابغة الجعدي :
وإنَّ امرأً أهدى إليك قصيدةً كاستبضع تَمراً إلى أرضِ حَيِّيرَا

أَعْلَمَهُ الرَّمَّيَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رِمَانِي^(١)
هكذا الرواية الصحيحة بالسین المهملة ، أى استقام ساعده على الرسمى ، وسدّدتُ
فلانا : علمته النضال ، وسهمٌ سديد : مُصِيب ، ورمحٌ سديد ، أى قلّ أن تخطيء
طعنته ، وقد ظرّف القاضى الأَرَجَانِيّ فى قوله لسديد الدولة محمد بن عبد الكريم
الأنباريّ كاتب الإنشاء :

إلى الذى نَصَبَ المكارمَ للورى غَرَضًا يَلُوح من المدى المتباعدِ
نَثَلَ الأُمثالِ مِنْ كِنانته فما وَجَدتْ يدها سوى سديدٍ واحدِ
ومن الأمثال فى هذا المعنى : « سَمْنُ كَلْبِكَ يَا كَلْكُ »^(٢) ، ومنها : « أَحْشَكُ
وَتَرَوْنِي ! »^(٣) .

قوله عليه السلام : « وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان » ، أى
أبو بكر وعمر .

قوله عليه السلام : « فذكرت أمرا إن تمّ اعتزلك كله ، وإن نقص لم يلحقك
ثلمه » ، من هذا المعنى قولُ الفرزدق لجريز ، وقد كان جريز في مهاجراته إياه يَفخَرُ عليه
بقيس عيلان ، فقد كانت لجريز فى قيس خوولة ، يعيره بأيامهم على بنى تميم ، فلما قتل
بنو تميم قُتيبة بن مسلم الباهليّ بخراسان قال الفرزدق يَفخِرُ :
أتانى وأهلى بالمدينة وقعةٌ لآل تميم أفعدت كل قائم^(٤)

(١) استدّ : استقام ؛ والبيت ينسب إلى معن بن أوس ، أو مالك بن فهم الأزدي ، أو عقيل بن
علفة ؛ وبعده :

فَلَا ظَفِرَتْ يَمِينُكَ حِينَ تَرْمِي وَشَلَّتْ مِنْكَ حَامِلَةَ الْبَنَانِ

وانظر اللسان ٤ : ١٩١ .

(٢) جمع الأمثال ١ : ٣٣٣ ؛ قالوا : أول من قال ذلك حازم بن المنذر .

(٣) جمع الأمثال ١ : ٢٠٠ ؛ أراد : تردت على .

(٤) ديوانه ٨٥٣ .

كَأَنَّ رَعُوسَ النَّاسِ إِذْ سَمِعُوا بِهَا مَشْدَخَةٌ هَامَاتُهَا بِالْأَمَامِ
وَمَا بَيْنَ مَنْ لَمْ يُؤْتِ سَمْعًا وَطَاعَةً وَبَيْنَ تَمِيمٍ غَيْرِ جَزِّ الْحَلَاقِمِ
ثُمَّ خَرَجَ إِلَى خِطَابِ جَرِيرٍ بَعْدَ أُبَيَاتٍ تَرَكَنَا ذِكْرَهَا ، فَقَالَ :

أَتَغْضَبُ إِنْ أَذْنَا قُتَيْبَةَ جُرَّتَا جَهَارًا وَلَمْ تَغْضَبْ لِقَتْلِ ابْنِ حَازِمِ !
وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا نَقَلْنَا دِمَاغَهُ إِلَى الشَّامِ فَوْقَ الشَّاحِجَاتِ الرَّوَاسِمِ
تَذْذِبُ فِي الْخِلَاةِ تَحْتَ بُطُونِهَا مَحْدَقَةُ الْأَذْنَابِ جُلْحُ الْمَقَادِمِ
وَمَا أَنْتَ مِنْ قَيْسٍ فَتَنْبِجُ دُونَهَا وَلَا مِنْ تَمِيمٍ فِي الرَّءُوسِ الْأَعَاظِمِ
تَخَوَّفْنَا أَيَّامَ قَيْسٍ وَلَمْ تَدَعْ لَعِيلَانَ أَنْفًا مُسْتَقِيمَ الْخِيَاشِمِ
لَقَدْ شَهِدْتَ قَيْسٌ فَمَا كَانَ نَصْرُهَا قُتَيْبَةَ إِلَّا عَضَّهَا بِالْأَبَاهِمِ

فَقَوْلُهُ :

* وَمَا أَنْتَ مِنْ قَيْسٍ فَتَنْبِجُ دُونَهَا *

هُوَ مَعْنَى قَوْلِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِمَعَاوِيَةَ : « فَذَكَرْتَ أَمْرًا إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ » ،
وَابْنُ حَازِمٍ الْمَذْكُورُ فِي الشُّعْرِ هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَازِمٍ ، مِنْ بَنِي سُؤْلِيمٍ ، وَسُؤْلِيمٌ مِنْ قَيْسِ
عَيْلَانَ ، وَقَتَلْتَهُ تَمِيمٌ أَيْضًا ، وَكَانَ وَالِيَّ خِرَاسَانَ .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ » ، الرَّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالرَّفْعِ ،
وَقَدْ رَوَاهَا قَوْمٌ بِالنَّصْبِ ، فَمَنْ رَفَعَ احْتَجَّ بِقَوْلِهِ : وَمَا أَنْتَ وَبَيْتِ أُبَيْكَ وَالْفَخْرُ .

وَبِقَوْلِهِ :

* فَمَا الْقَيْسِيُّ بَعْدَكَ وَالْفَخَارُ *

وَمَنْ نَصَبَ فَعَلِيَّ تَأْوِيلُ « مَالِكٌ وَالْفَاضِلُ » ، وَفِي ذَلِكَ مَعْنَى الْفِعْلِ ، أَيْ مَا تَصْنَعُ ، لِأَنَّ

هذا الباب لا بدّ أن يتضمّن الكلام فيه فعلا ، أو معنَى فعلٍ ، وأنشدوا :

* فما أنتَ والسَّيرِ في مَتَلَفٍ (١) .

والرفع عند النحوّيين أولى .

ثم قال : « وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز » التّصّبُ هاهنا لا غير ، لأجل اللام

في الطلقاء .

ثم قال عليه السلام بين المهاجرين الأوّلين وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ، هذا الكلامُ يتقضى ما يقول من يطعن في السّلف ، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أنكرَ على معاوية تعرّضه بالمفاضلة بين أعلام المهاجرين ، ولم يذكر معاوية إلاّ لهفاضلة بينه عليه السلام وبين أبي بكر وعمر ، فشهادة أمير المؤمنين عليه السلام بأنهما من المهاجرين الأوّلين ومن ذوى الدّرجات والطّبقات التي اشتبه الحالُ بينهما وبينه عليه السلام في أىّ الرجال منهم أفضل ، وأنّ قدّر معاوية يصغر أن يدخل نفسه في مثل ذلك شهادةً قاطعةً على علوّ شأنهما ، وعظم منزلتهما .

قوله عليه السلام : « هيهات ، لقد حنّ قدحٌ ليس منها » هذا مثلٌ يضرب لمن يدخل نفسه بين قوم ليس له أن يدخل بينهم ؛ وأصله القداح من عودٍ واحد يجعل فيها قدح من غير ذلك الخشب ، فيصوّت بينها إذا أرادها المفيض ، فذلك الصوت هو حنينه .

قوله « وطقق يحكم فيها من عليه الحكم لها » ، أى وطقق يحكم في هذه القصة

(١) لأسامة بن الحارث الهذلي ؛ وبقيته :

* يُعبّرُ بالدَّكْرِ الضابِطِ *

وانظر ديوان الهذليين ٢ : ١٩٥ .

أو في هذه القضية مَنْ يجب أن يكون الحكم لها عليه لا له فيها؛ ويجوز أن يكون الضمير يرجع إلى الطبقات .

ثم قال : « أَلَا تَرَبَّعَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظُلْمِكَ ! » أَى أَلَا تَرْتَفِقُ بِنَفْسِكَ وَتَكْفُرُ ، وَلَا تَحْمِلُ عَلَيْهَا مَا لَا تَطِيقُهُ ، وَالظَّلْعُ : مَصْدَرٌ ظَلَعَ الْبَعِيرُ يَظْلَعُ أَى غَمَزَ فِي مَشْيِهِ .
قوله : « وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ » ، أَوَّلُ الذَّرْعِ بَسْطُ الْيَدِ ؛ يُقَالُ : ضَمَيْتُ بِهِ ذَرْعًا : أَى ضَاقَ ذَرْعِي بِهِ . فَتَقْلُوا الْأَسْمَ مِنَ الْفَاعِلِيَّةِ فِجْعُولَهُ مَنْصُوبًا عَلَى التَّمْيِيزِ ؛ كَقَوْلِهِمْ : طَبْتُ بِهِ نَفْسًا .

قوله : « وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخْرَكَ الْقَدْرُ » ، مِثْلُ قَوْلِكَ : ضَعِ نَفْسَكَ حَيْثُ وَضَعَهَا اللَّهُ ؛ يُقَالُ ذَلِكَ لِمَنْ يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ اسْتِحْقَاقِهِ .

ثم قال : « فَمَا عَلَيْكَ غَلْبَةُ الْمَغْلُوبِ ، وَلَا عَلَيْكَ ظَفَرُ الظَّافِرِ » ، يُقَالُ : وَمَا الَّذِي أَدْخَلَ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ، وَأَنْتَ مَنْ بَنَى أُمِّيَّةً ، لَسْتَ هَاشِمِيًّا وَلَا تَيْمِيًّا وَلَا عَدُوًّا هَذَا فِيمَا يَرْجَعُ إِلَى أَنْسَابِنَا ، وَلَسْتَ مُهَاجِرًا وَلَا ذَا قَدَمٍ فِي الْإِسْلَامِ فَتَزَاحِمِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَرْبَابَ السَّوَابِقِ بِأَعْمَالِكَ وَاجْتِهَادِكَ ، فَإِذَنْ لَا يَضُرُّكَ غَلْبَةُ الْغَالِبِ مِنْهَا وَلَا يَسْرُكُ ظَفَرُ الظَّافِرِ . وَيُرْوَى أَنْ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ كَانَ يُنْشِدُ يَوْمَ مَرَجِ رَاهِطٍ وَالرَّءُوسُ تُنْدَرُ عَنْ كَوَاهِلِهَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسِ الْفَهْرِيِّ :

وَمَا ضَرَّهْمُ غَيْرُ حَيْنِ النَّفْوِ سِ أَى غَلَامِي قُرَيْشٍ غَابُ

قوله عليه السلام : « وَإِنَّكَ لَذَهَابٌ فِي التَّيِّهِ ، رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ » ، يَحْتَمِلُ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّيِّهِ مَعْنِيَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى الْكِبَرِ ، وَالْآخَرُ التَّيِّهِ مِنْ قَوْلِكَ : تَاهَ فُلَانٌ فِي الْبَيْدَاءِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) ؛ وَهَذَا الثَّانِي أَحْسَنُ

يقول : إنَّك شديد الإيغال في الضلال . و « ذهاب » فعَّال ؛ للتكثير ، ويقال : أُرض متية ، مثل معيشة ، أى يتأه فيها .

قال عليه السلام : « رَوَّاعٌ عَنِ الْقَصْدِ » ، أى تترك ما يلزمك فعله وتعذر عما يجب عليك أن تجيب عنه إلى حديث الصحابة ، وما جرى بعد موت النبي صلى الله عليه وآله ، ونحن إلى الكلام في غير هذا أحوَج إلى الكلام في البيعة وحقن الدماء والدخول تحت طاعة الإمام .

ثم قال : « أَلَا تَرَى غَيْرَ مَخْبِرٍ لَكَ ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ أَحَدَّثَ » ، أى لست عندى أهلاً لأن أخبرك بذلك أيضاً ، فإنك تعلمه ، ومن يعلم الشيء لا يجوز أن يُخبر به ؛ ولكن أذكر ذلك لأنه تحدَّثُ بنعمة الله علينا ، وقد أمرنا بأن نحدَّث بنعمته سبحانه .

قوله عليه السلام : « إِنْ قَوْمًا اسْتَشْهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ، المراد هاهنا ، سيّد الشهداء حمزة رضى الله عنه ، وينبغى أن يُحمَل قولُ النبي صلى الله عليه وآله فيه إنه سيّد الشهداء على أنه سيّد الشهداء في حياة النبي صلى الله عليه وآله ؛ لأنّ عليّاً عليه السلام مات شهيداً ؛ ولا يجوز أن يقال : حمزة سيّده ، بل هو سيّد المسلمين كلّهم ، ولا خلاف بين أصحابنا رحمهم الله أنّه أفضل من حمزة وجعفر رضى الله عنهما ، وقد تقدّم ذكر التّكبير الذى كبره رسول الله صلى الله عليه وآله على حمزة في قصة أُحد .

قوله عليه السلام : « وَلِكُلِّ فَضْلٌ » ، أى ولكل واحد من هؤلاء فضل لا يُجحد . قوله : « أَوْلَا تَرَى أَنْ قَوْمًا قُطِعَتْ أَيْدِيهِمْ » ، هذا إشارة إلى جعفر ؛ وقد تقدّم ذلك في قصة مؤتة .

قوله : « وَلَوْلَا مَانَهَى اللَّهُ عَنْهُ » ، هذا إشارة إلى نفسه عليه السلام .

قوله : « ولا تمجّها آذانُ السامعين » أى لا تقذفها ، يقال : مَجَّ الرجل من فيه ، أى قذفه .
قوله عليه السلام « فدع عنك من مالت به الرَمِيّة » ، يقال للصيد : يرمى هذه الرميّة ،
وهى « فميلة » بمعنى مفعولة ، والأصل فى مثلها ألا تلحقها الهاء ، نحو كفت خضيب ، وعين
كحيل ، إلا أنّهم أجروها مجرى الأسماء لا التّعوت ، كالقصيدة والقطيعة .
والمعنى : دَعْ ذَكَرَ من مالٍ إلى الدنيا ومالت به ، أى أمالته إليها .

فإن قلت : فهل هذا إشارة إلى أبى بكر وعمر ؟ قلت : ينبغى أن ينزّه أمير المؤمنين
عليه السلام عن ذلك ، وأن تُصرّف هذه الكلمة إلى عثمان ، لأنّ معاوية ذكره فى
كتابه وقد أوردناه ، وإذا أنصف الإنسان من نفسه علم أنه عليه السلام لم يكن يذكرهما
بما يذكر به عثمان ، فإنّ الحال بينه وبين عثمان كانت مضطربةً جدًّا .

قال عليه السلام : « فإن صنائع ربنا ، والناسُ بعدُ صنائعُنا » ، هذا كلام عظيم ، عالٍ
على الكلام ، ومعناه عالٍ على المعانى ، وصنِيعَةُ المَلِكِ من يصطنعه الملك ويرفع قدره .
يقول : ليس لأحد من البشر علينا نعمة ، بل الله تعالى هو الذى أنعم علينا ، فليس بيننا
وبينه واسطة ، والناس بأسرهم صنائعنا ؛ فنحن الواسطةُ بينهم وبين الله تعالى ،
وهذا مقامٌ جليل ظاهره ما سمعت ، وباطنه أنهم عبيدُ الله ، وأنّ الناس عبيدهم .
ثم قال : « لم يمنعنا قديم عزنا ، وعادى طولنا » ؛ الطول : الفضل . وعادى أى قديم ،
بئرٌ عادية .

قوله : « على قومك أن خلطناهم بأنفسنا فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ، ولستم
هناك » ؛ يقول : تزوّجنا فيكم وتزوّجتم فينا كما يفعل الأكفاء ، ولستم أكفاءنا . وينبغى
أن يُحمل قوله : « قديم وعادى » على مجازه لاعلى حقيقته ، لأنّ بنى هاشم وبنى أمية لم
يفترقا فى الشرف إلا منذ نشأ هاشم بن عبد مناف وعرف بأفعاله ومكارمه ، ونشأ حينئذ
أخوه عبد شمس وعرف بمثل ذلك ، وصار لهذا بنون ولهذا بنون ، وادعى كلٌّ من الفريقين

أنه أشرف بالفعال من الآخر ، ثم لم تكن المدّة بين نشء هاشم وإظهار محمد صلى الله عليه وآله الدعوة إلا نحو تسعين سنة ، ومثل هذه المدّة القصيرة لا يقال فيها : « قديمٌ عزنا وعادى طولنا » ، فيجب أن يُحمَل اللفظُ على مجازِهِ ، لأنّ الأفعال الجميلة كما تكون عاديةً بطول المدّة تكون بكثرة المناقب والمآثر والمفاخر ، وإن كانت المدّة قصيرةً . ولفظةٌ قديمٌ ترد ولا يُراد بها قديم الزمان ، بل من قولهم : لفلانٍ قديمٌ صدقٌ وقديمٌ أثرٌ ، أى سابقة حسنة .

[مناقحات بنى هاشم وبنى عبد شمس]

وينبغي أن نذكر ها هنا مناقحات بنى هاشم وبنى عبد شمس . تزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله ابنتيه رقية وأمّ كلثوم من عثمان بن عفان بن أبي العاص ، وزوّج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس فى الجاهلية ، وتزوّج أبو لهب بن عبد المطلب أمّ جميل بنت حرب بن أمية فى الجاهلية ، وتزوّج رسول الله صلى الله عليه وآله أمّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وتزوّج عبد الله بن عمرو بن عثمان فاطمة بنت الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام .

وروى شيخنا أبو عثمان عن إسحاق بن عيسى بن عليّ بن عبد الله بن العباس قال : قلتُ لمنصور أبي جعفر : مَنْ أ كفاؤنا ؟ فقال : أعداؤنا ، فقلت : مَنْ هُم ؟ فقال : بنو أمية .

وقال إسحاق بن سليمان بن عليّ : قلتُ للعبّاس بن محمد : إذا اتّسعنا من البنات ، وضيقنا من البنين ، وخفنا بوار الأيامى فإلى مَنْ نُخرِجُهِنَّ من قبائل قريش ؟ فأنشدنى :
عبدُ شمسٍ كان يتلوه هاشمًا وهما بعدُ لأمّ ولأب

فَعَرَفْتُ مَا أَرَادَ وَسَكَتُ .

وَرَوَى أَيُّوبُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ سَلِيمَانَ ، قَالَ : سَأَلْتُ الرَّشِيدَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ فَأَحْمَدَ صِهْرَهُمْ ، وَقَالَ : « مَا ذَمَّمْنَا مِنْ صِهْرِنَا فَإِنَّا لَا نَذَمُّ صِهْرَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ » .

قَالَ شَيْخُنَا أَبُو عُمَانَ : وَلَمَّا مَاتَ الْإِبْتَنَانُ تَحْتَ عُثْمَانَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِأَصْحَابِهِ : « مَا تَنْتَظِرُونَ بَعَثَانَ ، أَلَا أَبُو أَيُّمِّمَ ، أَلَا أَخُو أَيُّمِّمَ ؛ زَوْجَتُهُ ابْنَتَيْنِ ، وَلَوْ أَنَّ عِنْدِي ثَلَاثَةٌ لَفَعَلْتُ » . قَالَ : وَلِذَلِكَ سَمِّيَ ذَا النَّوْرَيْنِ .

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَأَيُّ يَكُونُ ذَلِكَ ! » ، أَيَّ كَيْفَ يَكُونُ شَرَفُكُمْ كَشَرَفِنَا ، وَمِنَّا النَّبِيُّ وَمِنْكُمْ الْمَكْذِبُ - يَعْنِي أَبُو سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ ، كَانَ عَدُوَّ رَسُولِ اللَّهِ وَالْمَكْذِبَ لَهُ وَالْمُجَلَّبَ عَلَيْهِ - وَهُؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ : بِإِزَاءِ أَبِي سُفْيَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَمَعَاوِيَةَ بِإِزَاءِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَيَزِيدُ بِإِزَاءِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ بَيْنَهُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ مَا لَا تَبْرُكُ عَلَيْهِ الْإِبِلُ .

قَالَ : « وَمِنَّا أَسَدُ اللَّهِ » ، يَعْنِي حُمَيْرَةَ ، « وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ » ، يَعْنِي عُتْبَةَ ابْنَ رَبِيعَةَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ بَدْرٍ .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : الْمَكْذِبُ مَنْ كَانَ يَكْذِبُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنَادًا مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَسَدُ الْأَحْلَافِ : أَسَدُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى ، قَالَ : لِأَنَّ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى كَانُوا أَحَدَ الْبَطُونِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا فِي حِلْفِ الْمُطَيِّبِينَ ، وَهُمْ بَنُو أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ، وَبَنُو تَمِيمِ بْنِ مَرْثَةَ ، وَبَنُو زَهْرَةَ ، وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ . وَهَذَا كَلَامٌ طَرِيفٌ جَدًّا ، لِأَنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَجْعَلَ بِإِزَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكْذِبًا

من بنى عبد شمس ، فقال : المكذب من كذب النبي صلى الله عليه وآله من قریش عنادا ، وليس كلُّ من كذبه عليه السلام من قریش يُعير معاوية به . ثم قال : أسد الأحلاف أسد بن عبد العزى ؛ وأى عارٍ يلزم معاوية من ذلك ، ثم إن بنى عبد مناف كانوا فى هذا الحلف وعلى ومعاوية من بنى عبد مناف ، ولكن الراوندى يظلم نفسه بتعرُّضه لما لا يعلمه .

قوله : « ومنا سيدا شتاب أهل الجنة » ، يعنى حسنا وحسنا عليهما السلام ، « ومنكم صبية النار » ، هى الكلمة التى قالها النبي صلى الله عليه وآله لعقبة بن أبى معيط حين قتله صبراً يوم بدر ، وقد قال كالمستعطف له عليه السلام : من للصبية باحمد ؟ قال : النار . وعقبة بن أبى معيط من بنى عبد شمس . ولم يعلم الراوندى ما المراد بهذه الكلمة ، فقال : صبية النار أولاد مروان بن الحكم الذين صاروا من أهل النار عند البلوغ ، ولما أخبر النبي صلى الله عليه وآله عنهم بهذه الكلمة كانوا صبية ، ثم ترعرعوا واختاروا الكفر ، ولا شبهة أن الراوندى قد كان يفسر من خاطره ما خطر له .

قال : قوله عليه السلام : « ومنا خير نساء العالمين » ، يعنى فاطمة عليها السلام ، نص رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك ؛ لا خلاف فيه .

« ومنكم حمالة الحطب » ، هى أم جميل بنت حرب بن أمية ، امرأة أبى لهب الذى ورد نص القرآن فيها بما ورد .

قوله : « فى كثير مما لنا وعليكم » ، أى أنا قادر على أن أذكر من هذا شيئاً كثيراً ، ولكنى أكتفى بما ذكرت .

فإن قلت : فماذا يتعلق « فى » فى قوله « فى كثير » ؟ قلت : بمحذوف تقديره : هذا الكلام داخل فى جملة كلام كثير تتضمن ما لنا وعليكم .

قوله عليه السلام : « فإسلامنا ما قد سميع ، وجاهليتنا لا تدفع » ، كلام قد تعلق به

بعض من يتعصب للأُمويّة . وقال : لو كانت جاهليّة بنى هاشم في الشرف كما سلامهم
لعدّ من جاهليّتهم حسب ما عدّ من فضيلتهم في الإسلام .

[فضل بنى هاشم على بنى عبد شمس]

وينبغي أن نذكر في هذا الموضوع فضل هاشم على عبد شمس في الجاهليّة ، وقد يمتزج
بذلك بعض ما يمتازون به في الإسلام أيضا ، فإن استقصاه في الإسلام كثير ، لأنّه لا يمكن
جحد ذلك ، وكيف والإسلام كُله عبارة عن محمد صلى الله عليه وآله ، وهو هاشميّ !
ويدخل في ضمن ذلك ما يحتجّ به الأُمويّة أيضا ، فنقول : إنّ شيخنا أبا عثمان قال : إنّ
أشرف خصال قريش في الجاهليّة اللّواء ، والندوة ، والسّفاية ، والرّفاة ، وزمزم ، والحجّابة
وهذه الخصال مقسومة في الجاهليّة لبنى هاشم وعبدالدار وعبد العزّي دون بنى عبد شمس .
قال : على أن معظم ذلك صار شرفه في الإسلام إلى بنى هاشم ، لأنّ النبي صلى الله عليه
وآله لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة بيده ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة ، فالشرف راجع
إلى من ملك المفتاح ، لا إلى من دُفع إليه ، وكذلك دفع صلى الله عليه وآله اللّواء إلى
مصعب بن عمير فالذي دفع اللّواء إليه وأخذه مُصعب من يديه أحقّ بشرفه وأولى بمجده
وشرفه راجع إلى رهطه من بنى هاشم .

قال : وكان محمد بن عيسى الخزوميّ أميرا على اليمن ، فهجاه أبيّ بن مُدج فقال :

قل لابن عيسى المستغيث من الشّهوة بالوعورة
الناطق العوّاء في جُلّ الأمور بلا بصيرة
ولّد المفيرة تسعة كانوا صنّاديد العشيّة^(١)

(١) الصناديد : الشجعان .

وأبوكَ عَاشِرَهُم كَمَا نَبَتَتْ مَعَ النَّخْلِ الشَّعِيرَةَ
إِنَّ النُّبُوَّةَ وَالْخَلَاءَ فَمَا وَالسَّقَايَةَ وَالْمَشُورَةَ
فِي غَيْرِكُمْ فَكَفَّفَ إِلَيْكَ يَدًا مَجْدَمَةً قَصِيرَةَ

قال : فَأَنْبَرَى لَهُ شَاعِرٌ مِنْ وَالدِ كُرَيْزِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، كَانَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَيْسَى بِالْيَمَنِ يَهْجُو عَنْهُ ابْنَ مَدْلَجٍ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٌ ، قَالَ فِيهَا :

لَا لِيُؤَاءِ يَعُدُّ يَابْنَ كُرَيْزٍ لَا وَلَا رِفْدَ بَيْتِهِ ذِي السَّنَاءِ
لَا حِجَابٌ وَلَا يَسْ فَيَكُمُ سَوَى الْكُتُبِ رِ وَبُقُضِ النَّبِيِّ وَالشَّهْدَاءِ
بَيْنَ حَاكٍ وَخُجَّاجٍ وَطَرِيدٍ وَقَتِيلٍ يَلْعَنُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ
وَلَهُمْ زَمَزَمٌ كَذَاكَ وَجَبْرِي لُ وَنَجْدُ السَّقَايَةِ الْفِرَاءِ

قال شيخنا أبو عثمان : فالشهداء على حمزة ، وجعفر ، والحاكمي والخلاج هو الحكم ابن أبي العاص ، كان يحكى مشية رسول الله صلى الله عليه وآله ، فالتفت يوما فرآه ، فدعا عليه ، فلم يزل مخلاج المشية عقوبة من الله تعالى^(١) . والطريد اثنان : الحكم بن أبي العاص ، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وهما جدّا عبد الملك بن مروان من قبل أمه وأبيه .

وكان النبي صلى الله عليه وآله طرد معاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثلاثا فحيره الله ، ولم يزل يتردد في ضلاله حتى بعث في أثره عليا عليه السلام وعمارا فقتلاه . فأما القتلى فكثير ، نحو سبينة وعتبة ابني ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وحنظلة بن أبي سفيان وعقبة بن أبي معيط ، والعاص بن سعيد بن أمية ، ومعاوية بن المغيرة ، وغيرهم .

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عمرا ، وهاشم لقب ، وكان أيضا يقال له القمر ، وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

(١) كذا في الأصول ، وفي نهاية ابن الأثير : « كان يجلس خلف النبي عليه السلام ، فإذا تكلم اختلج بوجهه ، فرآه فقال له : كن كذلك ، فلم يزل يختلج حتى مات . أي يجرى شفثيه وذقنه استهزاء وحكاية لفعل النبي عليه السلام » .

إلى القمر السارى المنير دعوته ومطعمهم في الأزل من قمع الجزر^(١)
قال : ذلك في شيء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمة إلى
هاشم ، وقال ابن الزبعرى :

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمخ خالصه لعبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش والقائلون هلم للأضياف
عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون مجاف^(٢)
فعم كما ترى أهل مكة بالأزل والعجف ، وجعله الذى هشم لهم أخبز ثريداً ،
فغلب هذا اللقب على اسمه حتى صار لا يعرف إلا به ، وليس لعبد شمس لقب كريم ،
ولا اشتق له من صالح أعماله اسم شريف ، ولم يكن لعبد شمس ابن يأخذ بضبعه ،
ويرفع من قدره ، ويزيد في ذكره ، ولهاشم عبد المطلب سيد الوادى غير مدافع ،
أجمل الناس جمالا ، وأظهرهم جودا ، وأكملهم كالا ، وهو صاحب الفيل ، والطير
الأبايل ، وصاحب زمزم ، وساق الحجيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس وأمية
في نفسه ليس هناك ، وإنما ذكر بأولاده ولا لقب له ، ولعبد المطلب لقب شهيد واسم
شريف : شيبة الحمد ، قال مطرود الخزاعى في مدحه :

يا شيبة الحمد الذى تثنى له أيامه من خير ذخر الداخر
المجد ما حجت قريش بيته ودعا هذيل فوق غصن ناصر
والله لا أنساكم وفعالكم حتى أغيب في سفاة القابر
وقال حذافة بن غانم العدوى وهو يمدح أبا لهب ، ويوصى ابنه خارجة بن حذافة
بالإتناء إلى بنى هاشم :

أخرج إما أهلكن فلا تزل لهم شاكرا حتى تغيب في القبر

(١) القمع بالتحريك : جمع قعة ، وهى أعلى السنام والجزر (بضمين) وسكن هنا للشعر : جم
جزور ، وهى الناقة .
(٢) فى البيت إقواء .

بنى شَيْبَةَ الحمدِ الكريمِ فعَالُهُ يضيءُ ظلامَ الليلِ كالقمرِ البدرِ
لِسَاقِ الحَجِيجِ ثمَّ للشَيْخِ هَاشِمٍ وعَبِدِ مَنْافٍ ذَلكَ السَّيِّدُ العَمْرُ
أبو عُتْبَةَ المَلقَى إِلَى جَوَارِهِ أَعْرَضَ هِجَانُ اللّونِ من نَفَرٍ عُرِّ
أبوكمُ قُصِيَّ كَانَ يُدْعَى مَجْمَعًا بهِ جَمَعَ اللهُ القَبَائِلَ مِن فِهْرِ

فأبو عُتْبَةَ هو أبو لَهَبٍ ، عبد العُزَيِّ بن عبد المطلب بن هاشم ، وأبناء
عُتْبَةَ وَعُتْبِيَّةَ .

وقال العَبْدِيُّ حين احتفل في الجاهليَّة فلم يترك :

لَا تَرَى فِي النَّاسِ حَيًّا مِثْلَنَا مَا خَلَا أَوْلَادَ عَبْدِ المَطْلِبِ

وإنَّما شَرَّفَ عبد شمس بأبيه عبدِ مَنْافِ بنِ قُصَيِّ وبنِي أبنِهِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمْسٍ ،
وهَاشِمَ شَرَّفَ بِنَفْسِهِ وبأبيه عبدِ مَنْافِ ، وبابنِهِ عبدِ المَطْلِبِ ، والأمرُ في هَذَا بيِّنٌ ، وهو
كما أَوْضَحَهُ الشَّاعِرُ في قولِهِ :

إنَّما عبدُ مَنْافٍ جَوْهَرٌ زَيْنَ الجَوْهَرِ عبدُ المَطْلِبِ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول : إنَّ عبد شمس لم يكن شريفا في نفسه ، ولكن الشرف
يتفاضل ، وقد أعطى اللهُ عبدَ المَطْلِبِ في زمانِهِ ، وأَجْرَى على يَدَيْهِ ، وأظهر من كرامته
مَلا يُعْرَفُ مثله إلا لنبيِّ مُرْسَلٍ ، وإنَّ في كلامِهِ لأَبْرَهَةَ صاحِبِ الفَيْلِ وتوعده إياه ربِّ
الكعبة وتحقيق قولِهِ من اللهُ تعالى ونصرة وعيدِهِ بجنسِ الفَيْلِ ، وقتلِ أصحابِهِ بالطَّيْرِ الأَبابِيلِ
وحجارةِ السَّجَّيلِ حتى تُرِكَوا كالعَصْفِ المَأْكُولِ - لأَعْجَبُ البُرْهاناتِ ، وأسنى الكراماتِ ،
وإنَّما كان ذلك إرهاباً للنبوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وتأسيساً لما يريدُهُ اللهُ بِهِ من الكرامةِ ،
وليُجْعَلَ ذلك البهائم متقدِّمًا لَهُ ، ومردوداً عَلَيْهِ ، وليكون أشهرَ في الآفاقِ ، وأَجَلِّ في
صدرِ الفراعنةِ والجبابرةِ والأَكاسِرَةِ ، وأَجْدَرُ أَنْ يَقْهَرَ المَعانِدِ ، وَيَكْشِفَ غِباوَةَ
الجاهلِ . وبعد ، فمن يُنَاهِضُ وَيُنَاضِلُ رجالاً ولدوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ولو عزلنا

مأ كرمه الله به من النبوة حتى تقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما وفي به بشر ،
ولا عدله شيء ، ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله به عبد المطلب من تفجر العيون وبنابيع
الماء من تحت كلكل بعيره وأخفافه بالأرض القسي^(١) ، وبما أعطى من المساهمة وعند المقارعة
من الأمور العجيبة ، والحصل البائنة ، لقلنا ، ولكننا أحببنا ألا نحتج عليكم إلا
بالموجود في القرآن الحكيم ، والمشهور في الشعر القديم ، الظاهر على السنة الخاصة والعامّة
ورواة الأخبار وجمال الآثار .

قال : ومما هو مذكور في القرآن عدا حديث الفيل قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ
قُرَيْشٍ ﴾ ، وقد اجتمعت الرواة على أن أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن
عبد مناف ، فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات
قام نوفل مقامه - وكان أصغرهم . والإيلاف ، هو أن هاشما كان رجلا كثير السفر والتجارة ،
فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، وشرك في تجارته رؤساء القبائل
من العرب ومن ملوك اليمن والشام ، نحو العباهلة باليمن ، واليكنوم من بلاد الحبشة ،
ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم منعه ربحا فيما يربح ، وساق لهم إبلا مع إبله ، فكفاهم
مؤونة الأسفار ، على أن يكفوه مؤونة الأعداء في طريقه ومُنصرّفه ، فكان في ذلك صلاح
عام للفرقيتين ، وكان المقيم راجحا ، والمسافر محفوظا ؛ فأخصبت قريش بذلك ، وحملت معه
أموالها ، وأتاها الخير من البلاد السافلة والعالية ، وحسنت حالها ، وطاب عيشها . قال :
وقد ذكر حديث الإيلاف الحارث بن الحنشل السلمي ، وهو خال هاشم والمطلب
وعبد شمس ، فقال :

إِنَّ أَخِيَّ هَاشِمًا لَيْسَ أَخًا وَاحِدٍ

الْأَخِذِ الْإِيلَافِ وَالْقَائِمِ لِلْقَاعِدِ

قال أبو عثمان : وقيل : إن تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ هو

خوف من كان هؤلاء الإخوة يَمرون به من القبائل والأعداء وهم مُغتربون ومعهم

(١) الأرض القسي : التي لا تنبت نباتا .

الأموال ؛ وهذا ما فسّرنا به الإيلاف آنفا ؛ وقد فسّره قومٌ بغير ذلك ، قالوا : إنّ هاشما جعل على رؤساء القبائل ضرائبَ يؤدّونها إليه ليحيميَ بها أهلَ مكة ، فإنّ ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطُلاب الطوائل كانوا لا يؤمنون على الحرم ، لا سيّما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ، ولا للشهر الحرام قدرا ، مثل طيء وخثعم وقضاعة وبعض بلحارث بن كعب ، وكيفما كان الإيلاف فإنّ هاشما كان القائم به دون غيره من إخوته .

قال أبو عثمان : ثم حلف الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرفُ حلف كان في العرب كلّها ، وأكرمُ عقدٍ عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الإسلام لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب . قال النبي صلى الله عليه وآله - وهو يذكر حلف الفضول : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دُعيتُ إلى مثله في الإسلام لأجبت » . ويكفي في جلالته وشرفه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله شهده وهو غلام ، وكان عتبة بن ربيعة يقول : لو أنّ رجلا خرج ممّا عليه قومُه لداخلتُ في حلف الفضول ، لما أرى من كاله وشرفه ، ولما أعلم من قدره وفضيلته .

قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمّي حلف الفضول ، وسمّيت تلك القبائل الفضول ، فكان هذا الحلف في بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة ، وبني تميم بن مرّة ، تعاقدوا في دار ابن جدعان في شهرٍ حرام قياما يماسحون بأكفهم صعدا ليكوننّ مع المظلوم حتى يؤدّوا إليه حقه ما بلّ بحر صوفة ، وفي التأسي في المعاش والتسامح بالمال . وكانت النباهة في هذا الحلف للزبير بن عبد المطلب ولعبد الله بن جدعان ، أما ابن جدعان فلا إنّ الحلف عقده في داره ؛ وأمّا الزبير فلا أنّه هو الذي نهض فيه ، ودعا إليه ، وحثّ عليه ، وهو الذي سمّاه حلف الفضول ، وذلك لأنّه لما سمع الزبيدي المظلوم

ثَمَنَ سِلْعَتَهُ قَدْ أَوْفَى عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ وَقُرَيْشٍ فِي
أُنْدِيَّتِهَا قَائِلًا :

يَا لِلرِّجَالِ لِمَ ظَلَمُوا بِضَاعَتَهُ بِيَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الْحَيِّ وَالنَّفَرِ
إِنَّ الْحَرَامَ لَمَنْ تَمَّتْ حَرَامَتُهُ وَلَا حَرَامَ لثَوْبِي لِابْسِ الْغَدْرِ
حَمِيٍّ وَحَلْفٍ لِيَعْقِدَنَّ حِلْفًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَطُونٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَمْنَعُونَ الْقَوِيَّ مِنْ ظُلْمِ
الصَّعِيفِ ، وَالْقَاطِنِ مِنْ عَنَفِ الْغَرِيبِ ، ثُمَّ قَالَ :

حَلَفْتُ لِنَعْقِدَنَّ حِلْفًا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ
نُسَمِّيهِ الْفُضُولَ إِذَا عَقَدْنَا يَعْزُّهُ بِهِ الْغَرِيبُ لَدَى الْجَوَارِ
وَيَعْلَمُ مَنْ حَوْلَى الْبَيْتِ أَنَّا أَبَاةُ الضَّمِيمِ نَهَجْرُ كُلِّ عَارِ
فَبَنُو هَاشِمٍ هُمُ الَّذِينَ سَمَّوْا ذَلِكَ الْحَلْفَ حِلْفَ الْفُضُولِ ، وَهُمْ كَانُوا سَبَبَهُ ، وَالْقَائِمِينَ بِهِ
دُونَ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ الْعَاقِدَةِ لَهُ ، وَالشَّاهِدَةَ لِأَمْرِهِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ شَهِدَهُ وَلَمْ يَقُمْ بِأَمْرِهِ !
قَالَ أَبُو عَثْمَانَ : وَكَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ شَجَاعًا أَيْبًا ، وَجَمِيلًا بَهِيًّا ، وَكَانَ خَطِيبًا
شَاعِرًا ، وَسَيِّدًا جَوَادًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَوْلَا الْحَمْسُ لَمْ يَلْبَسَ رِجَالٌ ثِيَابَ أَعْزَةِ حَتَّى يَمُوتُوا
ثِيَابَهُمْ شِمَالًا أَوْ عِبَاءً بِهَا دَنْسٌ كَمَا دَنْسَ الْحَمِيَّتُ (١)
وَلَكِنَّا خَلَقْنَا إِذَا خَلَقْنَا لَنَا الْحَبْرَاتِ وَالْمِسْكَ الْفَتِيَّتُ (٢)
وَكَأْسٌ لَوْ تُبَيِّنُ لَهُمْ كَلَامًا لَقَالَتْ إِيمًا لَهُمْ سُبَيْتُ (٣)
تُبَيِّنُ لَنَا الْقَدَى إِنْ كَانَ فِيهَا رَضِينِ الْحَلْمِ يَشْرِبُهَا هَبَيْتُ (٤)

(١) الحميت ، كأمير : الرزق الصغير يتخذ للسمن .

(٢) الحبرات ، بكسر ففتح : ضرب من برود اليمن . والفتيت والفتوت بمعنى .

(٣) سبيت : جابت . (٤) الهبيت : الجبان الداهل .

ويقطع نخوة المختالِ عنّا رقيقُ الحدّ ضربته صموتُ
بكفٍّ مجرّبٍ لا عيبَ فيه إذا لقي الكريهةَ يستميتُ

قال : والزبير هو الذي يقول :

وأسحَمَ من راحِ العراقِ مملأً محيطٌ عليه الجيشُ جلدَ مرأثره
صَبَحْتُ به طَلَقًا يَرَا حُ إلى الندى إذا ما انتشى لم يختصره معاقره
ضعيفٌ بجنب الكأس قبضُ بنانه كليل على جلد النديم أظافره

قال : وبنو هاشم هم الذين ردّوا على الزبيرى ثمن بضاعته ، وكانت عند العاص
ابنِ وائل ، وأخذوا للبارقيّ ثمن سلعته من أبي بن خلف الجحى ، وفي ذلك
يقول البارقيّ :

ويأبى لكم حلفُ الفضولِ ظلامتى بنى جمحٍ والحقّ يؤخذ بالفصْبِ

وهم الذين انتزعوا من نبيه بن الحجاج قتل الحسناء بنت التاجر الخثعمي ، وكان كابره
عليها حين رأى جمالها ، وفي ذلك يقول نبيه بن الحجاج :

وخشيتُ الفضولَ حين أتونى قد أرانى ولا أخافُ الفضولاً
إنى والذى يَحْجُجُ له شُمُ طُ إيادٍ وهلّوا تهليلاً
لبراءٍ منى قُتيلة يالللّه اس هل يتبعون إلا القتولا !

وفيها أيضاً يقول :

لولا الفضولُ وأنه لا آمن من عروائها^(١)
لدنوتُ من أبياتها ولطفتُ حول خبائها^(٢)

(١) العرواء ، كالغلاء : قرة الحمى ومسها في أول رعدتها .

(٢) الخباء ككساء ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

في كلمته التي يقول فيها :

حَيُّ النَّخِيلَةِ إِذْ نَأَتْ مَنَا عَلَى عُدَوَائِهَا
لَا بِالْفِرَاقِ تُنِيلُنَا شَيْئًا وَلَا بِلِقَائِهَا
حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَالَةً فِي مَشِيهَا وَوِطَائِهَا

في رجالٍ كثيرٍ انتزعوا منهم الظلمات ، ولم يكن يظلم بمكة إلا رجالٌ أقوياء ، ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يعدُّ أحدٌ مثلها ، ولا يأتي بما يتعلق بها ، وذلك أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر متساندين ، فكان حربُ بن أمية على بني عبد شمس ، وكان الزبيرُ بن عبد المطلب على بني هاشم ، وكان عبد الله بن جدعان على بني تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم ، وكان على كل قبيلة رئيس منها ، فهم متكاثرون في التساند ، ولم يحقق واحدٌ منهم الرئاسة على الجميع ، ثم أب هاشمُ بما لا تبلغُهُ يدُ متناول ، ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله قال : شهدتُ الفجار وأنا غلام ، فكنتُ أنبلُ فيه على عومتى ، ففني مقامه عليه السلام أن تكون قريش هي التي فجرت ، فسُميت تلك الحربُ حرب الفجار ، وثبت أن الفجور إنما كان من حاربهم ، وصاروا يمينه وبركته ولما يريد الله تعالى من إعزاز أمره وإعظامه الغالين العالين ، ولم يكن الله ليُشهده فجرةً ولا غدرَةً ، فصار مشهده نصرًا ، وموضعه فيهم حجةً ودليلاً .

قال أبو عثمان : وشرفُ هاشمٍ متصل ، من حيث عددت كان الشرفُ معك كابرًا عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإنَّ الحكم بن أبي العاص كان عاديًّا في الأعلام ، ولم يكن له سناء في الجاهلية .

وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضعوفا ، وكان صاحب عَهَار^(١) يدلُّ على ذلك قول نفيل بن عدى جدِّ عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حربُ بنُ أمية وعبدُ المطلب بن هاشم ، فنفرَ عبدُ المطلب وتعجَّب من إقدام حربٍ عليه وقال له :

أَبوك مُعَاهِرٌ وَأَبوه عَفٌّ وَذادَ الفيلَ عن بلدٍ حرامٍ^(٢)

وذلك أن أمية كان تعرِّض لامرأة من بنى زهرة ، فضربه رجل منهم بالسيف ، فأراد بنو أمية ومن تبعهم إخراج زهرة من مكة ، فقام دونهم قيسُ بن عدى السهميَّ - وكانوا أخواله ، وكان منيع الجانب ، شديد العارضة ، حميَّ الأنفس ، أبيَّ النفس - فقام دونهم وصاح : « أصبح ليلٌ » ، فذهبت مثلا ، ونادى : الآن الظاعنُ مقيم . وفي هذه القصة يقول وهب بن عبد مناف بن زهرة جدِّ رسول الله صلى الله عليه وآله :

مهلاً أميَّ فإنَّ البغيَّ مهلكةٌ لا يكسبنك يومَ شرِّه ذكرُ
تبدو كوا كبه والشمسُ طالعةٌ يُصبُّ في الكأس منه الصِّبرُ والمقِرُّ^(٣)

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحدٌ من العرب ، زوج ابنه أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أبا معيط بن أبي عمرو بن أمية . والمقِيتون في الإسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم ، فأما أن يتزوجها في حياة الأب وبينها عليها وهو يراه ؛ فإنه شيء لم يكن قطُّ .

قال أبو عثمان : وقد أقرَّ معاوية على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيهما كان أسود في الجاهلية ؟ أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسوداً منا واحداً ، وكنا

(١) العهار : التزق والحفة والطيش .

(٢) ذاد الفيل : منعه .

(٣) المقر ، ككتف : الصبر أو شبيهه به .

أكثر منهم سيّدا ؛ فأقرّ وادّعى ، فهو في إقراره بالنقص مخصوم ، وفي ادعائه
الفضل خصيم

وقال جحش بن رثاب الأسديّ حين نزل مكة بعدموت عبد المطلب: والله لأتزوجن
ابنة أكرم أهل هذا الوادي ، ولأحالفن أعزّهم ، فتزوج أميمة بنت عبد المطلب ، وحالف
أبا سفيان بن حرب. وقد يُمكن أن يكون أعزّهم ليس بأكرمهم ، ولا يُمكن أن يكون
أكرمهم ليس بأكرمهم ؛ وقد أقرّ أبو جهل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين
قال : تحاربنا نحن وهم ، حتى إذا صرنا كهاتين قالوا : منا نبى . فأقرّ بالتقصير ، ثم ادعى
المساواة ؛ ألا تراه كيف أقرّ أنه لم يزل يطلب شأوهم^(١) ثم ادعى أنه لحقهم ! فهو
مخصوم في إقراره ، خصيم في دعواه ، وقد حكم لهاشم دغفل بن حنظلة النسابة حين سأله
معاوية عن بني هاشم : فقال : هم أطمع للطعام ، وأضرب للهام^(٢) ، وهاتان خصمتان
يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم ، وقد لطم
حرب جاراً خلف بن أسعد جدّ طلحة الطلحات ، فجاء جاره فشكاً ذلك إليه ، فمشى
خلف إلى حرب وهو جالس عند الحجر ، فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراضٍ ،
فما انتطح فيه عنزان^(٣) . ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد موته ، فخالفه
أبو الأزيهر الدؤسيّ ، وكان عظيم الشأن في الأزديّ ، وكانت بينه وبين بنى الوليد بن
المغيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه هشام بن الوليد وأبو الأزيهر
قاعد في مقعد أبي سفيان بنى الحجاز ، فضرب عنقه ، فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً
ولا قوداً في بنى المغيرة . وقال حسان بن ثابت يذكّر ذلك :

(١) الشأو : الناية .

(٢) الهام : الرعوس .

(٣) هذا مثل يضرب للأمر يقع ولا يختلف فيه اثنان .

غدا أهل حِصْنِي ذِي الْحِجَازِ بِسُحْرَةٍ وِجَارُ ابْنِ حَرْبٍ لَا يَرُوحُ وَلَا يَغْدُو
كَسَاكَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ ثِيَابَهُ فَأَبْلٍ وَأَخْلِقُ مِثْلَهَا جُدَدًا بَعْدُ

فهذه جملة صالحة مما ذكره شيخنا أبو عثمان .

ونحن نورد من كتاب ” أنساب قريش “ للزبير بن بكار ما يتضمن شرحا لما أجمله شيخنا أبو عثمان أو لبعضه ، فإن كلام أبي عثمان لحمة وإشارة ، وليس بالمشروح . قال الزبير : حدثني عمر بن أبي بكر العدوي من بني عدى بن كعب قال : حدثني يزيد بن عبد الملك بن المغيرة بن نوفل ، عن أبيه ، قال : اصطلحت قريش على أن ولي هاشم بعد موت أبيه عبد مناف السقاية والرفادة ، وذلك أن عبد شمس كان يسافر ، قل أن يقيم بمكة ، وكان رجلا معيلا^(١) ؛ وكان له ولد كثير ، وكان هاشم رجلا مؤسرا ، فكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال : يا معشر قريش ، إنكم جيران الله ، وأهل بيته ، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته ، فهم لذلك ضيف الله ، وأحق ضيف بالكرامة ضيف الله ، وقد خصكم الله بذلك ، وأكرمكم به ، ثم حفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره ؛ فأكرموا ضيفه وزواره ؛ فإنهم يأتون شعثا غربا من كل بلد ضوامر كالكداح ، وقد أرجفوا وتفلوا وقملوا^(٢) وأرملوا ، فأقروهم وأعينوهم . قال : فكانت قريش تترافد على ذلك ، حتى إن كل أهل بيت ليرسلون بالشيء اليسير على قدر حالهم ، وكان هاشم يخرج في كل سنة مالا كثيرا ، وكان قوم من قريش يترافدون ؛ وكانوا أهل يسار ، فكان كل إنسان ربما أرسل بمائة مثقال ذهب هرقلية^(٣)

(١) يقال : أعال الرجل يعيل ؛ إذا كثر عياله .

(٢) أرجفوا : أكتروا من ذكر الأخبار السيئة ، وقملوا : كثر فيهم القمل . وأرملوا : فقد زادهم .

(٣) هرقلية : نسبة إلى هرقل ملك الروم ؛ وهو أول من ضرب الدينارين .

وكان هاشم يأمر بحياض من آدم تجعل في مواضع زمزم من قبل أن تحفر ؛ يُستقى فيها من البئار التي بمكة ، فيشرب الحاج ، وكان يطعمهم أول ما يطعم قبل يوم التروية بيوم بمكة وبمئى وجمع وعرفة ، وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر ، ويحمل لهم الماء فيسقون بمئى ، والماء يومئذ قليل ، إلى أن يصدر الحاج من مئى ، ثم تنقطع الضيافة ، وتتفرق الناس إلى بلادهم .

قال الزبير : وإنما سمي هاشما لهشمه التريد ، وكان اسمه عمرا ، ثم قالوا : «عمرو العلاء» لمعاليه . وكان أول من سن الرحلتين : رحلة إلى الحبشة ، ورحلة إلى الشام ، ثم خرج في أربعين من قريش فبلغ غزوة ، فمرض بها ، فمات ، فدفنوه بها ، ورجعوا بتركته إلى ولده . ويقال : إن الذي رجع بتركته إلى ولده أبو رهم عبد العزى بن أبي قيس العامري من بنى عامر بن لؤى .

قال الزبير : وكان يقال لهاشم والمطلب : البدران ، ولعبد شمس ونوفل الأبهران .

قال الزبير : وقد اختلف في أى ولد عبد مناف أسن ، والتثبت عندنا أن أسنهم

هاشم . وقال آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان :

يا أمين الله إني قائلٌ قول ذى دينٍ وبرٍ وحسبٍ
عبدُ شمسٍ لا تُهنأ إماما عبدُ شمسٍ عمُّ عبد المطلبِ
عبدُ شمسٍ كان يتلو هاشمًا وهما بعدُ لأُمَّ ولأبِّ

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن عثمان بن عبد الرحمن ،

قال : قال عبد الله بن عباس : والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الإيلاف وأجاز لها

العيرات^(١) لهاشم ، والله ما شدت قريش رحالاً ولا حبلاً بسفر ، ولا أناخت بعيراً لحصر

(١) العيرات ، بكسر ففتح : كل ما امتير عليه لإبلا كانت أو حميراً أو بغالاً ، واحده عير .

إلا بهاشم ، والله إنه أول من سقى بمكة ماءً عذبا ، وجعل باب الكعبة ذهاباً لعبد المطلب . قال الزبير : وكانت قريش تجاراً لا تعدو تجارتهم مكة إنما تقدم عليهم الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ، يتبايعون بها بينهم ، ويبيعون من حولهم من العرب ، حتى رحل هاشم ابن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة من ثريد ، ويدعو الناس فيأكلون ، وكان هاشم من أحسن الناس خلقاً وتاماً ، فذكر لقيصر ، وقيل له : هاهنا شاب من قريش يهشم الخبز ، ثم يصب عليه المرق ، ويفرغ عليه اللحم ، ويدعو الناس . قال : وإنا كنا الأعاجم والروم تصنع المرق في الصحاف ، ثم تأتدم عليه بالخبز ، فدعا به قيصر ، فلما رآه وكلمه أعجب به ، وجعل يرسل إليه فيدخل عليه ، فلما رأى مكانه سأله أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر ، وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ، ففعل . فبذلك أرتفع هاشم من قريش . قال الزبير : وكان هاشم يقوم أول نهار اليوم الأول من ذي الحجة فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها فيخطب قريشا فيقول : يامعشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوهاً ، وأعظمها أحلاماً ، وأوسطها أنساباً ، وأقربها أرحاماً . يامعشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ منكم جاراً من جاره ، فأكرموا ضيفه وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعناً غباً من كل بلد . قورب هذه البنية ، لو كان لي مال يحمّل ذلك لكفيتموه ، ألا وإني أخرج من طيب مالي وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ؛ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بجرمة هذا البيت ألا يخرج منكم رجل من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً ، ولم تقطع فيه رحم ولم يفتصب . قال : فكانت قريش تخرج من صفو أموالها ما احتمله أحوالها ، وتأتي بها إلى هاشم فيضعه في دار الندوة لضيافة الحاج .

قال الزبير : ومما رثي به مطرود الخزاعي هاشماً قوله :

مات الندى بالشام لما أن ثوى أودى بغزة هاشم لا يبعد
فجفانه رذم لمن ينتابه والنصر أدنى باللسان وباليد^(١)

ومن مرثيه له :

يا عين جودي وأذرى الدمع واحتفلي وأبكي خبيثة نفسي في الملمات
وأبكي على كل فياض أخى حسب ضخم الدسيعة وهاب الجزيلات
ماضى الصريمة على الهمة ذى شرف جلد النخيزة تحمال العظيمات
صعب المقادة لا نكس ولا وكل ماض على الهول متلاف الكريمات
تحض توسط من كعب إذا نسبوا بمجبوحة المجد في الشم الرفيعات
فأبكي على هاشم في وسط بلقعة تسقى الرياح عليه وسط غزات
يا عين بكى أبا الشعث الشجيات يبكينة حسراً مثل البنيات
يبكين عمرو العلاء إذ حان مصرعه سمح السجية بسام العشيات
يبكينه معولات في معاوزها يطول ذلك من حزن وعولات
محزّات على أوساطهنّ لما جرّ الزمان من أحداث المصيبات
أبيت أرعى نجوم الليل من ألم أبكى وتبكى معي شجواً بنياتي

قال الزبير : وحدثنى إبراهيم بن المنذر ، عن الواقدي ، عن عبد الرحمن بن الحارث ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : أول من سنّ دية النفس مائة من الإبل عبد المطلب ، فجرت في قريش والعرب سنته ، وأقرّها رسول الله صلى الله عليه وآله . قال : وأمّ عبد المطلب سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد ، من بني النجّار من الأنصار ، وكان سبب

(١) في ب « ردم » ، بالدال صوابه من ا ؛ والرذم ككتب : الفصاح المتلثة تصب جوانبها .

تزوج هاشمٍ بها أنه قدِم في تجارة له المدينة ، فنزل على عمرو بن زيد ، فجاءته سلمى بطعامٍ فأعجبت هاشما ، فخطبها إلى أبيها ، فأنكحها إياها ، وشرط عليه أن تلد عند أهلها ، فبقي عليها بالمدينة ، وأقام معها سنتين ، ثم ارتحل بها إلى مكة ، فحملت وأنزلت ، فخرج بها إلى المدينة ، فوضعها عند أهلها ، ومضى إلى الشام ، فمات بفزة من وجهه ذلك ، وولدت عبد المطلب ، فسمته شيبه الحمد لشعرة بيضاء كانت في ذوائبه حين ولد ؛ فكث بالمدينة ست سنين أو ثمانيا . ثم إن رجلا من تهامة مرَّ بالمدينة ، فإذا غلمانٌ ينتضلون ، وغلامٌ منهم يقول كلما أصاب : أنا ابن هاشم بن عبد مناف ، سيّد البطحاء ، فقال له الرجل : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا ابن هاشم بن عبد مناف . قال : ما اسمك ؟ قال : شيبه الحمد ، فانصرف الرجل حتى قدِم مكة ، فيجد المطلب بن عبد مناف جالسا في الحجر ، فقال : قم إلى يابا الحارث ، فقام إليه ، فقال : تعلم أتي جئت الآن من يثرب فوجدتُ بها غلمانا ينتضلون ... وقصَّ عليه ما رأى من عبد المطلب ، وقال : إنه أضربُ غلامٍ رأيتُه قط ، فقال له المطلب : أغفلته والله ! أما إنى لا أرجع إلى أهلى ومالى حتى آتية ، فخرج المطلب حتى أتى المدينة ، فأتاها عشاء ، ثم خرج براحلته حتى أتى بنى عدى بن النجار فإذا الغلمان بين ظهري المجلس ، فلما نظر إلى ابن أخيه قال للقوم : هذا ابن هاشم ؟ قالوا : نعم ، وعرفه القوم فقالوا : هذا ابن أخيك ، فإن كنت تريد أخذه فالساعة ؛ لانعم أمه ، فإنها إن علمت حُلنا بينك وبينه . فأناخ راحلته ، ثم دعاه فقال : يا بن أخى ، أنا عمك ، وقد أردتُ الذهاب بك إلى قومك ، فأرغب ، قال : فوالله ما كذب أن جلس على عجز الراحلة ، وجلس المطلب على الراحلة ثم بعثها فانطلقت ، فلما علمت أمه قامت تدعو حزنها على أنها ، فأخبرت أنه عمه ، وأنه ذهب به إلى قومه . قال : فانطلق به المطلب فدخل به مكة ضحوة ، مُردفه خلفه ، والناس في أسواقهم ومجالسهم ، فقاموا يرحبون به ويقولون : من هذا الغلام معك ؟ فيقول : عبدٌ لى أبتعتُه بيثرب ، ثم خرج به

حتى جاء إلى الخزورة فأبتاع له حلة ، ثم أدخله على امرأته خديجة بنت سعد بن سهم ، فرجّلت شعره ، ثم ألبسه الحلة عشيّة ، فجاء به فأجلسه في مجلس بني عبدمناف ، وأخبرهم خبره ، فكان الناس بعد ذلك إذا رأوه يطوف في سبكك مكة وهو أحسن الناس يقولون : هذا عبدُ المطلب - لقول المطلب : هذا عبدي - فلجّ به الاسم ، وترك به شيبة .

وروى الزبير روايةً أخرى أنّ سلهى أم عبد المطلب حالت بين المطلب وبين أبنائها شيبة ، وكان بينها وبينه في أمره محاورة ، ثم غلبها عليه ؛ وقال :

عرفتُ شيبَةَ والنَّجَّارُ قَدْ حَلَفْتُ أَبْنَاؤُهَا حَوْلَهُ بِالنَّبْلِ تَنْتَضِلُ

فأما الشعر الذي لحذافة العذرى والذي ذكره شيخنا أبو عثمان فقد ذكره الزبير بن

بكار في كتاب النسب ، وزاد فيه :

كَنَسَلِ الْمَلُوكِ ، لَا يَبُورُ وَلَا يَجْرِي	كُهُولُهُمْ خَيْرُ الْكُهُولِ وَنَسَاهُمْ
تَفَلَّقُوا عَنْهُمْ بَيْضَةَ الطَّائِرِ الصَّقْرِ	مُلُوكٌ وَأَبْنَاءُ الْمَلُوكِ وَسَادَةٌ
تَجَدَّهُ عَلَى أَجْرَاءِ وَالِدِهِ يَجْرِي	مَتَى تَلَقَّ مِنْهُمْ طَاحِجًا فِي عِنَانِهِ
وَهُمْ نَكَلُوا عَنْهَا غَوَاةَ بَنِي بَكْرِ	هُمْ مَلِكُوا الْبَطْحَاءَ مَجْدًا وَسُودُودًا
وَهُمْ تَرَكَوْا أَىَ السَّفَاهَةِ وَالْهَجْرِ	وَهُمْ يَغْفِرُونَ الذَّنْبَ يُنْقَمُ مِثْلُهُ
لَهُمْ شَاكِرًا حَتَّى تُغَيَّبَ فِي الْقَبْرِ	أَخْرَجُ إِذَا أَهْلِكَنَّ فَلَا تَزَلُ

قال الزبير : وحدثني عن سبب هذا الشعر محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن أبيه ، قال : إن ركبنا من جذام خرجوا صادرين عن الحج من مكة ، فنقدوا رجلا منهم عالية بيوت مكة ، فليقون حذافة العذرى ، فربطوه وانطلقوا به ؛ فتلقاهم عبدُ المطلب مقبلا من الطائف ومعه ابنه أبو لهب يقود به ؛ وعبدُ المطلب حينئذ قد ذهب بصره ، فلما نظر إليه حذافة بن غانم هتف به ؛ فقال عبدُ المطلب لابنه :

وَيْلَكَ ! مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : هَذَا حُدَافَةُ بْنُ غَانِمٍ مَرْبُوطًا مَعَ رَكْبٍ . قَالَ : فَأَلْحَقَهُمْ فَسَلِّمَهُمْ
 مَا شَأْنُهُمْ وَشَأْنُهُ ، فَلَحِقَهُمْ أَبُو هُبَيْبٍ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ ، فَرَجَعَ إِلَى أَبِيهِ ، فَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ !
 مَا مَعَكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا مَعِيَ شَيْءٌ ؛ قَالَ : فَأَلْحَقَهُمْ لَا أُمَّ لَكَ ! فَأَعْطَاهُمْ بِيَدِكَ ، وَأَطْلِقِ
 الرَّجُلَ ، فَلَحِقَهُمْ أَبُو هُبَيْبٍ ، فَقَالَ : قَدْ عَرَقْتُمْ تِجَارَتِي وَمَالِي ، وَأَنَا أَحْلِفُ لَكُمْ لِأَعْطَيْتُمْكُمْ
 عِشْرِينَ أَوْقِيَّةً ذَهَبًا ، وَعِشْرًا مِنَ الْإِبِلِ وَفَرَسًا ، وَهَذَا رِدَائِي رَهْنٌ . فَاقْبَلُوا ذَلِكَ مِنْهُ ،
 وَأَطْلِقُوا حُدَافَةَ ، فَلَمَّا أَقْبَلَ بِهِ وَقَرُّبًا مِنْ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، سَمِعَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ صَوْتَ أَبِي هُبَيْبٍ ،
 وَلَمْ يَسْمَعْ صَوْتَ حُدَافَةَ ، فَصَاحَ بِهِ : وَأَبِي إِنَّكَ لِعَاصٍ ؛ أَرْجِعْ لَا أُمَّ لَكَ ! قَالَ : يَا أَبَتَا
 هَذَا الرَّجُلُ مَعِيَ ؛ فَنَادَاهُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ : يَا حُدَافَةَ ؛ أَسْمَعْنِي صَوْتَكَ . قَالَ : هَآنَذَا
 بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا سَاقِي الْحَجِيجِ أُرْدِفْنِي ؛ فَأَرْدَفَهُ حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ ؛ فَقَالَ حُدَافَةُ
 هَذَا الشَّعْرُ .

قال الزبير : وحدثني عبدُ الله بن مُعَاذٍ ، عن مَعْمَرٍ ، عن ابنِ شَهَابٍ ، قال : أوَّلُ
 مَا ذُكِرَ مِنْ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَنْ قَرِيْشًا خَرَجَتْ فَارَةً مِنَ الْحَرَمِ خَوْفًا مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ ،
 وَعَبْدُ الْمَطْلَبِ يَوْمَئِذٍ غُلَامٌ شَابٌّ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أُخْرَجُ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ ابْنِي الْعِزَّةَ فِي غَيْرِهِ !
 فَجَلَسَ فِي الْبَيْتِ وَأَجَلَّتْ ^(١) قَرِيْشٌ عَنْهُ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ :

لَا هَمَّ إِنْ الْمَرْءُ يَمُّ نَعُ رَحْمَتُهُ فَا مَنَعُ حَلَالِكُ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالِكُ ^(٢)

فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا فِي الْحَرَمِ حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ الْفِيلَ وَأَصْحَابَهُ ، فَرَجَعَتْ قَرِيْشٌ وَقَدْ عَظُمَ فِيهِمْ
 بَصِيرُهُ ^(٣) وَتَعْظِيمُهُ مُحَارَمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَبَيْنَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ - وَكَانَ أَكْبَرَ وَلَدِهِ وَهُوَ الْحَارِثُ
 ابْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ قَدْ بَلَغَ الْحُلْمَ - أَرَى عَبْدُ الْمَطْلَبِ فِي الْمَنَامِ ، فَمَقِيلَ لَهُ : احْفَرِ زَمْرَمَ ، حَبِيْثَةُ
 الشَّيْخِ الْأَعْظَمِ . فَاسْتَيْقِظَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ بَيِّنْ لِي الشَّيْخَ ، فَأَرَى فِي الْمَنَامِ مَرَّةً أُخْرَى :

(٢) المحال : القدرة .

(١) أجلت : تفرقت .

(٣) ب « بصيرته » تحريف ، صوابه في أ .

إِحْفَرْتُمْ^(١) بين الفَرث والدم ، في مَبْحَث الغراب ، في قَرْيَةِ النمل ، مستقبلة الأنصاب
المُحَرِّ . فقام عبد المطلب فمشى حتى جلس في المسجد الحرام ينتظر ما مُيِّمِي له من الآيات ،
فَنَحَرَ بقرَةً في الحزْوَرة ، فأفلتت من جازِرها بِمُشَاشَةِ نَفْسِها حتى غَلَبَ عليها الموتُ في
المسجد في موضع زَمَزَمَ ، فاحتمل لِحْمًا من مكانِها ، وأقبلَ غراب يَهْوِي حتى وقع في
الفَرث فَبَحَثَ عن قريّة النمل ، فقام عبدُ المطلب يُخْفِرها ، فجاءته قريش فقالت له : ما هذا
الصنع ، إنا لم نكن نراك بالجِهل ؛ لِمَ تَحْفِرُ في مسجدنا ؟ فقال عبد المطلب : إني لحافر
هذا البئر ، ومجاهدٌ من صدّتي عنها ، فطَفِقَ يَحْفِرُ هو وابنه الحارث ، وليس له يومئذ
ولد غيره ، فيسفه عليهما الناسُ من قريش فيُنَازِعُونِهما ويقَاتِلُونِهما . وتناهى عنه ناسٌ من
قريش لما يعلمون من زعيقِ نسبه وصدِّقه ، واجتهاده في دينهم يومئذ ، حتى إذا أتعبه
الحفر ، واشتدَّ عليه الأذى نَدَرَ إِنْ وفي له عشرة من الولدان ينحَرُ أحدهم ، ثم حفر فأدرك
سُيُوفًا دُفِنَتْ في زَمَزَمَ حين دفنت ، فلما رأت قريش أنه قد أدرك السيوف قالت :
يا عبد المطلب ، اُحْذُنَا^(٢) مما وجدت . فقال عبدُ المطلب : بل هذه السيوف لبيت الله ، ثم
حَفَرَ حتى أنبط الماء ، فخفرها في القرار ، ثم بَجَرها حتى لا تَنزِفَ ، ثم بنى عليها حوضًا
وطَفِقَ هو وابنه يَنْزِعَانِ فيمِلَانِ ذلك الحوض ، فيشرب منه الحاج ، وَيَكْسِرُهُ قوم حَسَدَة
له من قريش بالليل ، فيُصَلِحُهُ عبدُ المطلب حين يُصْبِحُ ، فلما أكَثَرُوا فسادَهُ دعا عبدُ المطلب
ربّه ، فَأَرَى ، فقيل له : قل : اللهم إني لا أُحِلُّها لمغتسلٍ ، وهي لشاربٍ حلٌّ وبلٌّ ، ثم
كفيتهم ، فقام عبد المطلب حين اختلفَ قريش في المسجد ، فنَادَى بالَّذِي أَرَى ، ثم انصرف
فلم يكن يُفْسِدُ حوضه عليه أحدٌ من قريش إلا رُمِيَ في جسده بداء ، حتى تركوا حوضه
ذلك وسقايته . ثم تزوّج عبدُ المطلب النساء ، فوُلِدَ له عشرة رَهَطٌ ، فقال : اللهم إني

(١) تكتم ، بضم فسكون : اسم بئر زمزم .

(٢) احذنا : اعطنا .

كنتُ نذرتُ لك نحرَ أحدِهِم ، وإني أُقرِعُ بينهم ، فأصيبُ بذلك من شئتُ ، فأقرِعَ بينهم ، فطارت القرعة على عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكان أحبَّ ولده إليه ، فقال عبد المطلب : اللهم هو أحبُّ إليك أم مائة من الإبل ! فنجرها عبد المطلب مكان عبد الله ، وكان عبد الله أحسن رجل رُئى في قريش قط .

وروى الزبير أيضا قال : حدثني إبراهيم بن المنذر . عن عبد العزيز بن عمران ، عن عبد الله ابن عثمان بن سليمان قال : سمعتُ أبي يقول : لما حفرت زمزم ، وأدرك منها عبد المطلب ما أدرك ، وجدتُ قريش في أنفسها مما أعطى عبد المطلب ، فلقية خوَيْلد بن أسد بن عبد العزى فقال : يا بن سلمى ، لقد سقيت ماء رغدا ، وثلت عادية حسدا ، فقال : يا بن أسد ، أما إنك تشرك في فضلها ، والله لا يساعدنى أحدٌ عليها ببر ، ولا يقوم معي بارزاً إلا بذلتُ له خير الصهر ، فقال خوَيْلد بن أسد :

أقول وما قولى عليهم بسبةٍ
إليك ابن سلمى أنت حافرُ زمزم
حفيرة إبراهيم يوم ابن هاجر
وركضة جبريل على عهد آدم

فقال عبد المطلب : ما وجدت أحدا ورث العلم إلا قدم غير خوَيْلد بن أسد .

قال الزبير : فأما ركضة جبريل فإن سعيد بن المسيب قال : إن إبراهيم قدم بإسماعيل وأمه مكة ، فقال لهما : كلا من الشجر ، واشربا من الشعاب . وفارقهما ، فلما ضاقت الأرض تقطعت المياه ، فعطشا ، فقالت له أمه : اصعد وانصب في هذا الوادى فلا أرى موتك ولا ترى موتى ، ففعل ، فأنزل الله تعالى ملكا من السماء على أم إسماعيل ، فأمرها فصرت به ، فاستجاب لها ، وطار الملك ف ضرب بجناحيه مكان زمزم ، فقال : اشربا ، فكان سيفا يسبح ، ولو تر كاه ما زال كذلك أبدا ، لكنها فرقت^(١) عليه من العطش ، فقرت^(٢) له في السقاء ، وحفرت في البطحاء ، فلما نضب الماء طوياه ؛ ثم

(٢) كذا في الأصول .

(١) فرقت : خافت .

هلك الناس ، ودفنته الشيول . ثم أرى عبدُ المطلب في المنام أن أحفر زمزم لا تُثرب^(١) ولا تدم ، تُروى الحجاج الأعظم . ثم أرى مرةً أخرى أن أحفر الرّواء ، أعطيتها على رغم الأعداء . ثم أرى مرةً أخرى ، أن أحفر تُكتم ، بين الأنصاب الحمر ، في قرية النمل . فأصبح يحفر حيث أرى . فطفقت قريش يستهزئون به ، حتى إذا بدا عن الطيّ وجد فيها غزالا من ذهب ، وحلية سيف ، فضرب عليها بالسهم ؛ فخرج سهم البيت ؛ فكان أول حليّ حليّ به الكعبة .

قال الزبير : وكان حربُ بنُ أمية بن عبدِ شمس نديم عبدِ المطلب ، وكان عبيدُ بن الأبرص تربّه ، وبلغ عبيد مائةً وعشرين سنةً ، وبقي عبد المطلب بعده عشرين سنة .

قال : وقال بعض أهل العلم : توفي عبدُ المطلب عن خمس وتسعين سنة ، ويقال : كان يُعرف في عبد المطلب نور النبوة ، وهيبةُ الملك ، وفيه يقول الشاعر :

إنني واللّات والبيّتِ الذي لَزَّ بالهَبْرِزِ عبدِ المطلبِ^(٢)

قال الزبير : حدّثني عمي مصعب بن عبد الله ، قال : بينا عبد المطلب يطوف بالبيت بعد ما أسنّ وذهب بصره ، إذ زحمه رجل ، فقال : من هذا ؟ فقيل : رجل من بني بكر . قال : فما منعه أن يُنكّب عني وقد رأني لا أستطيع لأن أنكّب عنه ! فلما رأى بنيه قد توالوا عشرة قال : لا بدّ لي من العصا ؛ فإن اتخذتها طويلةً شقت عليّ ؛ وإن اتخذتها قصيرةً قويتُ عليها ، ولكن ينحذب لها ظهري ؛ والحديّة ذلّ ، فقال بنوه : أو غير ذلك ؟ يوافيك كلّ يوم منّا رجل تتوكأ عليه فتطوف في حوائجك . قال : ولذلك قال الزبير : ومكّارم عبد المطلب أ كثر من أن يُحاطَ بها ؛ كان سيّد قريش غير مُدافعٍ نفساً وأباً وبيتاً وجمالا وبهاء وكالا وفعالا ؛ قال أحدُ بني كنانة يمدحه :

(٢) الهبرز : الأسد .

(١) لا تُثرب عليه : لا تمنعه .

إني وما سترت قريشٌ والذى تعزُّو لآلِ كلهنّ ظباء^(١)
ووَحَقٌّ من رفع الجبالِ مُنيفةً والأرضَ مدًّا فوقهنّ سماء^(٢)
مُثنٍ ومهدٍ لابنِ سلمى مِدحةً فيها أداءُ ذِمَامِه ووفاءُ

قال الزبير : فأما أبو طالب بنُ عبد المطلب - واسمه عبد مناف ، وهو كافلُ رسول
الله صَلَّى اللهُ عليه وآله ، وحاميه من قريش وناصره ، والرفيق به ، الشقيق عليه ، ووصيُّ
عبد المطلب فيه - فكان سيد بنى هاشم في زمانه ، ولم يكن أحد من قريش يسودُّ في
الجاهلية بمالٍ إلا أبو طالب وعُتبة بن ربيعة .

قال الزبير : أبو طالب أول من سنَّ القسامة^(٣) في الجاهلية في دم عمرو بن علقمة ،
ثم أثبتتها السنة في الإسلام ، وكانت السقاية في الجاهلية بيد أبي طالب ، ثم سلها إلى
أخيه العباس بن عبد المطلب .

قال الزبير : وكان أبو طالب شاعراً مجيداً ، وكان نديمه في الجاهلية مسافرُ بن عمرو
ابن أمية بن عبد شمس ، وكان قد حُبِن^(٤) فخرج ليتداوى بالحيرة ، فمات بهبالة^(٥) ،
فقال أبو طالب يرثيه :

ليت شعري مسافرُ ابنُ أبي عمِّ رو وليثُ يقولها المحزونُ
كيف كانت مذاقةُ الموتِ إذ مُتَّ وماذا بعدَ المماتِ يكونُ !
رَحَل الرَّكْبَ قافلينِ إلينا وخيلى في مَرَمَسٍ مَدْفونُ
بُورِكِ الميثُ الغريبُ كما بو ركَّ نَضْرُ الرِّيحانِ والزيتونُ

(١) تعزو : تنسب ؛ وفي ب : « كأنهن » تحريف .

(٢) المنيفة : العالية .

(٣) القسامة بالفتح : الأيمان تقسم على أولياء القتل إذا ادعوا الدم .

(٤) حُبِن : موضع .

(٥) هبالة : الاستسقاء .

رُزءٌ مَيِّتٌ عَلَى هُبَالَةٍ قَدْ حَا لَتَ فَيَافٍ مِنْ دُونِهِ وَحُزُونٌ
مِدْرَةٌ يَدْفَعُ الْخِصُومَ بِأَيْدِيهِ وَبَوَاجِهِ يَزِينُهُ الْعَرَنِينَ^(١)
كَمْ خَلِيلٍ وَصَاحِبٍ وَابْنِ عَمٍّ وَحَمِيمٍ قَفَّتْ عَلَيْهِ الْمَنُونُ!
فَتَعَزَّيْتُ بِالْجَلَادَةِ وَالصَّبْرِ وَوَأِنِّي بِصَاحِبِي لَضَنِينُ

قال الزبير : فلما هلك مسافرٌ نادى أبو طالب بعده عمرو بن عبد بن أبي قيس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي ، ولذلك قال عمرو لعلي عليه السلام يوم الخندق حين بارزه : إن أباك كان لي صديقا .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن نصر بن مزاحم ، عن معروف بن خربوذ ، قال : كان أبو طالب يحضر أيام الفجار ، ويحضرُ معه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ غلام ، فإذا جاء أبو طالب هُزِمَتْ قيس ، وإذا لم يجيء هُزِمَتْ كنانة ، فقالوا لأبي طالب : لا أبالك ! لاتعب عنا ، ففعل .

قال الزبير : فأما الزبير بن عبد المطلب فكان من أشرف قريش ووجوهها ، وهو الذي استثنته بنو قصي على بني سهم حين هجا عبد الله بن الزبير بن قصي بن قصي فأرسلت بنو قصي عتبة بن ربيعة بن عبد شمس إلى بني سهم ، فقال لهم : إن قومكم قد كرهوا أن يعجلوا عليكم ، فأرسلوني إليكم في هذا السفية الذي هجاهم في غير ذنب اجتمروا إليه ، فإن كان ماصنع عن رأيكم فبئس الرأي رأيكم ، وإن كان عن غير رأيكم فادفعوه إليهم . فقال القوم : نبرأ إلى الله أن يكون عن رأينا . قال : فأسأله عن رأيهم ، فقال بعض بني سهم : إن شئتم فعلنا ؛ على أن من هجانا منكم دفعتموه إلينا . فقال عتبة : ما يمنعني أن أقول ما تقول إلا أن الزبير بن عبد المطلب غائب بالطائف ،

(١) الأيد : الشدة . والعرين : الأنف .

وقد عرفت أنه سيفرغ لهذا الأمر فيقول : ولم أكن أجعل الزبير خطرا لابن الزبَعْرَى ، فقال قائل منهم : أيها القوم ، ادفعوه إليهم ، فلعمري إن لكم مثل الذي عليكم ، فكثُر في ذلك الكلام واللَّغَط ، فلما رأى العاصُ بنُ وائل ذلك دعا بُرْمَةَ ، فأوثق بها عبد الله ابن الزبَعْرَى ، ودَفَعَه إلى عتبة بن ربيعة ، فأقبل به مربوطا حتى أتى به قومه ؛ فأطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه ، فأغرى ابن الزبَعْرَى أناس من قريش بقومه بنى سهم ، وقالوا له : أهجهم كما أسلموك ، فقال :

لَعَمْرِي مَا جَاءَتْ بِنُكْرٍ عَشِيرَتِي وَإِنْ صَاحَتْ إِخْوَانَهَا لَا أَلُومُهَا
فَوَدَّ جُنَاةَ الشَّرِّ أَنْ سَيُوفِنَا بِأَيْمَانِنَا مَسْلُوقَةً لَا نَشِيْمُهَا
فَيَقْطَعُ ذُو الصَّهْرِ الْقَرِيبَ وَيَتْرُكُوا غَمَاغَمَ مِنْهَا إِذْ أَجَدَتْ يَرِيْمَهَا^(١)
فَإِنَّ قَصِيًّا أَهْلُ مَجْدٍ وَثَرَوَةٍ وَأَهْلُ فِعَالٍ لَا يُرَامُ قَدِيمُهَا
هُمْ مَنَعُوا يَوْمِي عَكَظَ نِسَاءِنَا كَمَا مَنَعَ الشَّوْلُ الْهَجَانَ قُرُومَهَا^(٢)
وَإِنْ كَانَ هَيْجٌ قَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا وَهَلْ يَمْنَعُ الْخِرَازَةَ إِلَّا حَمِيمُهَا !
مَحَاشِدُ لِمَقْرِي سَرَاعٌ إِلَى النَّدَى مَرَازِبَةُ غَلْبٍ رِزَانٌ حُلُومُهَا^(٣)

قال : فقدِم الزبير بن عبد المطلب من الطائف ، فقال قصيدته التي يقول فيها :

فلولا الحسُّ لم يلبس رجالٌ ثيابَ أعزة حتى يموتوا^(٤)
وقد ذكرنا قطعةً منها فيما تقدّم .

قال الزبير : وقال الزبير بن عبد المطلب أيضا في هذا المعنى :

-
- (١) يريمها : يطلبها .
(٢) الشائلة من الإبل : التي أتى عليها من حملها سبعة أشهر تحف لبنها . وجمعه شول ، وهجان الإبل : كرامها .
(٣) المرزبان : الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك ، معرب ؛ والأصل فيه أحد مرازبة الفرس ، وغلب : جمع أغلب ، وهو في الأصل الغليظ الرقبة ، يصفون أبدأ السادة بغلظ الرقبة وطولها .
(٤) الحس هنا : قريش ومن ولدت ؛ سموا حسا لأنهم تحمسوا في دينهم ؛ أي تشددوا .

قومي بنو عبد منافٍ إذا أظلم من حولي بالجندلِ
لا أسدّ لن يُسلموني ولا تيمّم ولا زهرةً للنيطلِ^(١)
ولا بنو الحارث إن مرّ بي يومٌ من الأيام لا ينجلي
يأيها الشاتمُ قومي ولا حقّ له عندهمُ أقبلِ
إني لهم جارٌّ لئن أنت لم تُقصر عن الباطل أو تعدلِ

قال الزبير : ومن شعر الزبير بن عبد المطلب :

ياليت شعري إذا ما حمتي وقعت ماذا تقول ابنتي في النوح تنعاني !
تنعى أباً كان معروف الدّفاع عن الـ مولى المضافِ وفكاً كآء عن العاني^(٢)
ونعمَ صاحبُ عانٍ كان رافده إذا تضحّج عنه العاجز الواني^(٣)

قال الزبير : وكان الزبير بن عبد المطلب ذا نظر وفكر ، أتى فقيل له : مات فلانٌ
— لرجل من قريش كان ظلوماً — فقال : بأيّ عقوبة مات ؟ قالوا : مات حتف أنفه ! فقال :
لئن كان ما قلتُموه حقاً إنّ للناس معاداً يؤخذ فيه للمظلوم من الظالم .

قال : وكان الزبير يكنى بأبي الطاهر ، وكانت صفية بنت عبد المطلب كنت ابناً
الزبير بن العوام أبا الطاهر دهنراً بكنية أخيها ، وكان للزبير بن عبد المطلب ابنٌ يقال له
الطاهر ، كان من أطرف فتيان مكة ، مات غلاماً ، وبه سمى رسولُ الله صلى الله عليه
وآله ابنه الطاهر ، وباسم الزبير سمّت أخته صفية ابناً الزبير ، وقالت صفية ترثي أباها
الزبير بن عبد المطلب :

بكيّ زبيرٍ الخير إذ مات إن كنتِ على ذى گرم باكيّة

(٢) العاني : الأسير .

(١) النيطل : الموت الوحى .

(٣) التضجيع في الأمر : التقصير فيه .

لو لفظته الأرضُ مالمُتها أو أصبحتُ خاشعة عارِيه
 قد كان في نفسِي أن أترك الموتى ولا أتبعهم قافِيه
 فلم أطق صَبْرًا على رُزئه وجدتهُ أقربَ إخوانِيه
 لو لم أقل من في قولاً له لقصت العبرة أضلاعيه
 فهو الشامى والياني إذا ماخضروا ، ذو الشفرة الداميه
 وقال ضرار بن الخطَّاب بيكيه :

بكى ضباعُ على أبيه لك بكاءً محزونٍ أليمٍ
 قد كنتُ أنشدُه فلا رثَّ السَّلاح ولا سايِمٍ
 كالكوكب الدرِّي يع لو ضوءه ضوء النجوم
 زخرت به أعراقه ونمائه والدُّه الكريم
 بين الأغرِّ وهاشمٍ فرعين قد فرعا القروم

فأما القَتولُ الخُثعمِيَّة التي اغتصبها نبيه بنُ الحجاج السَّهمي من أبيها ، فقد ذكر الزبير بن بكار قصتها في كتاب ” أنساب قريش ” .

قال الزبير : إن رجلاً من خُثعم قدم مكة تاجراً ومعه ابنة يقال لها القَتول ، وأوضأ نساء العالمين ، فعلقها نبيه بن الحجاج السَّهمي ، فلم يبرح حتى غاب أبها عليها ، ونقلها إليه ، فقيل لأبيها : عليك بحلف الفضول ، فاتاهم فشكا إليهم ذلك ، فاتوا نبيه بن الحجاج فقالوا له : أخرج ابنة هذا الرجل - وهو يومئذ منتبذ^(١) بناحية مكة ، وهي معه - وإلا فإننا من قد عرفنا ، فقال : يا قوم ، متعونني بها الليلة ، فقالوا : قبحك الله !

(١) منتبذ ، أى متنع بناحية مكة .

ما أجهلك ، لا والله ولا شخب لقحة ، فأخرجها إليهم فأعطوها أباهما ، فقال نبيه بن
الحجاج في ذلك قصيدة أولها :

راح صحى ولم أحي القسولا لم أودعهم وداعا جميلا (١)
إذ أجد الفضول أن يمنعوها قد أراني ولا أخاف الفضولا

في أبيات طويلة .

وأما قصة البارقي فقد ذكرها الزبير أيضا .

قال : قدم رجل من ثمالة من الأزدمكة ، فباع سلعة من أبي بن خلف الجمحي
فقطله بالثمن ؛ وكان سيئ الخالطة ، فأتى الثمالي أهل حلف الفضول فأخبرهم ، فقالوا : اذهب
فأخبره أنك قد أتيتنا ، فإن أعطاك حقك وإلا فارجع إلينا ، فاتاه فأخبره بما قال أهل حلف
الفضول ؛ فأخرج إليه حقه فأعطاه ، فقال الثمالي :

أيفجر بي بطن مكة ظالما أبي ولا قومي لدى ولا صحبي
وناديت قومي بارقا لتجيبني وكم دون قومي من فيافي ومن سهب (٢)
ويأبي لكم حلف الفضول ظلامتي بني مجح والحق يؤخذ بالغضب

وأما قصة حلف الفضول وشرفه فقد ذكرها الزبير في كتابه أيضا ، قال : كان بنو سهم
وبنو مجح أهل بغي وعدوان ؛ فأكثروا من ذلك ، فأجمع بنوهاثم وبنو المطلب وبنو أسد
وبنو زهرة وبنو تيم على أن تحالفوا وتعاقدوا على رد الظلم بمكة ، وألا يُظلم أحد

(١) ب : « صحى » تحريف ، صوابه في أ .

(٢) الفيف : المغازة التي لا ماء فيها ؛ وإذا أنتت فهي الفيفاء وجمعها الفياقي ، والسهب بفتح السين :
الأرض الواسعة ، يجمع على سهب (بضمهتين) وسكنت الهاء للشعر .

إلا منعه ، وأخذوا له بحقه ، وكان حلفهم في دار عبد الله بن جدعان ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم ، ولو دعيت به اليوم لأجبت ، لا يزيد الإسلام إلا شدة » .

قال الزبير : كان رجلاً من بني أسد قد قدم مكة معتمراً ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي ، فأواها إلى بيته ، ثم تعيب ، فابتغى الأسدی^(١) متاعه فلم يقدر عليه ، فجاء إلى بني سهم يستعديهم عليه ، فأغلظوا له ، فعرف أن لا سبيل له إلى ماله ، وطوّف في قبائل قريش يستنفر بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك أشرف على أبي قبيس حين أخذت قريش مجالسها ، ونادى بأعلى صوته :

يا للرجال لمظلومٍ بضاعتُهُ ببطن مكة نأى الأهل والنفر
ومحرّمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرته يا آل فهر وبين الحجر والحجر^(٢)
هل مُنصفٍ من بني سهمٍ فمرّجِعْهُ ما غيَّبوا أم حلالٍ مالٍ معتمراً^(٣) !

فأعظمت ذلك قريش ، وتكلّموا فيه ؛ فقال المطيبون : والله إن قننا في هذا ليغضبنّ الأحلاف ؛ وقالت الأحلاف : والله إن قننا في هذا ليغضبنّ المطيبون ؛ فقالت قبائل من قريش : هاؤوا فلنحتلف حلفاً جديداً ؛ لننصرنّ المظلوم على الظالم ما بلّ بحر صوفة . فاجتمعت هاشم والمطلب وأسد وتيم وزهرة في دار عبد الله بن جدعان ورسول الله صلى الله عليه وآله يومئذ معهم وهو شابّ ابن خمس وعشرين سنة لم يوح إليه بعد ، فتحالفوا ألا يُظلم بمكة غريبٌ ولا قريبٌ ولا حرٌّ ولا عبدٌ إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه ، ويردّوا إليه مظلمته من أنفسهم ومن غيرهم ، ثم عمدوا إلى ماء زمزم فجعلوه في جفنة ، ثم بعثوا به إلى البيت ، فغسلوا به أركانها ، ثم جمعوه وأتوهم به فشرّبوه ، ثم انطلقوا إلى العاص بن وائل

(٢) ب : « يا أهل » .

(١) في ١ ، وب : « الزبيدي » ، تصحيف .

(٣) ١ ، ب : « ضلال » تحريف .

فقالوا له : أدِّ إلى هذا حقِّه ، فأدَّ إليه حقَّه ، فكثروا كذلك دهرًا لا يُظلم أحد بمكة إلا أخذوا له حقَّه ؛ فكان عتبة بنُ ربيعة بن عبد شمس يقول : لو أنَّ رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس ؛ حتى أدخل في حِلْف الفضول .

قال الزبير : وحدثني محمد بن حسن ، عن محمد بن طلحة ، عن موسى بن محمد ، عن أبيه ، أنَّ الحلف كان على ألا يدعوا بمكة كلها ولا في الأحابيش مظلوما يدعوهم إلى نصرته إلا أنجدوه حتى يردوا عليه ماله ومظلمته ، أو يُبلوا في ذلك عُذرا ؛ وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى التآسي في المعاش .

قال الزبير : ويقال : إنه إنما سمَّى حِلْف الفضول لأن رجلا كانوا في وجوهم تحالفوا على ردِّ المظالم ، يقال لهم فضيل وفضال وفضل ومفضل ، فسَمَّى هذا الحلف حِلْف الفضول ؛ لأنه أحياتك السنة التي كانت ماتت .

قال الزبير : وقدم محمد بن جبير بن مطعم على عبد الملك بن مروان - وكان من علماء قريش - فقال له : يا أبا سعيد ، ألم نكن - يعني بنى عبد شمس - ، وأنتم في حلف الفضول ؟ فقال : أمير المؤمنين أعلم ؛ قال : لتخبرني بالحق ، قال : لا والله يا أمير المؤمنين ؛ لقد خرجنا نحن وأنتم منه ، وما كانت يدنا ويدكم إلا جميعا في الجاهلية والإسلام .

قال الزبير : وحدثني محمد بنُ حسن ، عن إبراهيم بن محمد ، عن يزيد بن عبد الله ابن الهادي الليثي ، أنَّ محمد بن الحارث أخبره ، قال : كان بين الحسين بن عليّ عليه السلام وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان كلام في مال كان بينهما بذى المروة ، والوليد يومئذ أمير المدينة في أيام معاوية ، فقال الحسين عليه السلام : أيستطيل الوليد على بسلطانة !

أقسم بالله لينصفني من حتى أو لآخذن سيفي ثم أقوم في مسجد الله فأدعو بمحلف الفضول! فبلغت كلمته عبد الله بن الزبير ، فقال : أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ، ثم لأقومن معه حتى ينتصف أو نموت جميعاً . فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري ، فقال مثل ذلك ، فبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي ، فقال مثل ذلك ، فبلغ ذلك الوليد ابن عتبة ، فأنصف الحسين عليه السلام من نفسه حتى رضى .

قال الزبير : وقد كان للحسين عليه السلام مع معاوية قصة مثل هذه ، كان بينهما كلامٌ في أرض للحسين عليه السلام ، فقال له الحسين عليه السلام : اختر مني ثلاث خصال ؛ إما أن تشتري مني حتى ، وإما أن تردّه عليّ ، أو تجعل بيني وبينك ابن عمر أو ابن الزبير حكماً ؛ وإلا فالرابعة ، وهي الصيِّم . قال معاوية : وما هي ؟ قال : أهتف بمحلف الفضول ، ثم قام فخرج وهو مغضب ، فرأى بعبد الله بن الزبير فأخبره ، فقال : والله لئن هتفت به وأنا مضطجع لأقعدن ، أو قاعد لأقومن ، أو قائم لأمشين ، أو ماشٍ لأسعين ، ثم لتنفدن روحى مع روحك ، أو لينصفنك . فبلغت معاوية ، فقال : لا حاجة لنا بالصيِّم ؛ ثم أرسل إليه أن ابعث فانتقد مالك ؛ فقد ابتعناه (١) منك .

قال الزبير : وحدثني بهذه القصة على بن صالح عن جدّي عبد الله بن مُصعب ، عن أبيه ، قال : خرج الحسين عليه السلام من عند معاوية وهو مغضب ، فلقى عبد الله بن الزبير ، فحدثه بما دار بينهما ، وقال : لأخيرته في خصال ، فقال له ابن الزبير ما قال ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : لقد لقيني الحسين خيِّرك في ثلاث خصال ، والرابعة الصيِّم ، قال معاوية : فلا حاجة لنا بالصيِّم ، أظنك لقيته مغضباً ! فهات الثلاث ، قال : أن تجعلني

(١) ب : « واتبعناه » .

أو ابن عمر بينك وبينه . قال : قد جعلتك بيني وبينه ، أو جعلت ابن عمر أو جعلت كما جميعا . قال أو تُقرّ له بحقه ثم تسأله إياه . قال : قد أقررت له بحقه وأنا أسأله إياه ، قال : أو تشره منه ، قال : قد اشتريته منه ، فما الصيلم؟ قال : يهتف بمجلف الفضول ، وأنا أول من يجيبه . قال : فلا حاجة لنا في ذلك .

وبلغ الكلام عبد الله بن أبي بكر والمسور بن مخرمة ، فقالا للحسين مثل ما قاله ابن الزبير .

فأما تفجر الماء من تحت أخفاف بعير عبد المطلب في الأرض الجرز فقد ذكره محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة ، قال : لما أنبط^(١) عبد المطلب الماء في زمزم حسدته قريش ، فقالت له : يا عبد المطلب ، إنها بئر أينا إسماعيل ، وإن لنا فيها حقاً فاشركنا معك . قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر أمرٌ خصصتُ به دونكم وأعطيتُهُ من بينكم ، قالوا له : فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال : فاجعلوا بيني وبينكم حكماً أحاكمكم إليه ، قالوا : كاهنة بنى سعد بن هذيم ، قال : نعم ، وكانت بأشراف الشام ، فركب عبد المطلب في نفرٍ من بنى عبد مناف ، وخرج من كل قبيلة من قبائل قريش قوم ، والأرض إذ ذاك مفاوز^(٢) ، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام نَفد ما كان مع عبد المطلب وبنى أبيه من الماء فعطشوا عطشاً شديداً ، فاستسقوا قومهم ، فأبوا أن يسقوهم ، وقالوا : نحن بمفازة ونحشى على أنفسنا مثل الذي أصابكم . فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وخاف على نفسه وأصحابه المهلاك ، قال لأصحابه : ماترون؟ قالوا : ما رأينا إلا تَبَعُ لِرَأْيِك ، فمرنا بما أحببت ، قال : فإنني أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منا حفرةً لنفسه بمامعه الآن من القوة ؛ فكلما مات رجل دفنَه أصحابه في حفرة ؛ حتى يكون رجلٌ واحد ، فضيعة

(١) أنبط الماء : استخرجه وطلبه .

(٢) المفاوز : جمع مفازة ، وهي البرية الفقير ، أو التي لا ماء فيها ؛ وسميت مفازة لأن من خرج منها وتباعد عنها فاز وغنم .

رجل واحد أيسر من ضيعة ركب ، قالوا : نِعَمَ ما أشرتَ ! فقام كل رجل منهم فحفر حفيرةً لنفسه ، وقعدوا ينتظرون الموت . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن إلقاءنا بأيدينا كذا للموت ؛ لا نضرب في الأرض فنطلب الماء لعجز ؛ قوموا فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض الأرض ، ارتحلوا . فارتحلوا ومن معهم من قبائل قريش ينتظرون إليهم ما هم صانعون ، فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ، فلما انبعثت به انفجر من تحت خفها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملأوا أسقيتهم ، ثم دعا القبائل من قريش فقال لهم : هلموا إلى الماء ، فقد أسقانا الله ، فاشربوا واستقوا ، فجاؤا فشربوا واستقوا ، ثم قالوا : قد والله قضى الله لك علينا ، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا ، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً . فرجعوا رجوعاً معه ، لم يصلوا إلى الكاهنة وخلقوا بينه وبين زمزم (١) .

وروى صاحب كتاب الواقدي أن عبد الله بن جعفر فاخر يزيد بن معاوية بين يدي معاوية ؛ فقال له : بأي آباءك تفاخرني ؟ أبحرَب الذي أجرناه ، أم بأمية الذي ملكناه ، أم بعبد شمس الذي كفلناه ! فقال معاوية : لحرَب بن أمية يقال هذا ! ما كنت أحسب أن أحداً في عصر حرَب يزعم أنه أشرف من حرَب ! فقال عبد الله : بلى أشرف منه من كفاً عليه إناؤه وجلله (٢) بردائه ! فقال معاوية ليزيد : رويدا يا بُنى ، إن عبد الله يفخر عليك بك لأنك منه وهو منك . فاستحيا عبد الله وقال : يا أمير المؤمنين يدان انتشطتا (٣) وأخوان اصطرعا . فلما قام عبد الله ، قال معاوية ليزيد : يا بُنى إياك ومنازعة

(١) سيرة ابن هشام ١ : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(٢) جلله بردائه : غطاه ؛ وفي حديث علي : « اللهم جلت تلة عثمان خزياباً » ، أي غطاه به وألبسهم إياه .

(٣) انتشطتا ، على البناء لهجول ؛ انتزعتنا واختلستا .

بنى هاشم فإنهم لا يجهلون ماعلموا، ولا يجدُ مُبغضهم لهم سبًا ، قال: «أما قوله: أبحرَب الذي أجرناه ، فإن قريشا كانت إذا سافرت فصارَتْ، على العقبة لم يتجاوزها أحدٌ حتى تجوز قريش ، فخرج حربٌ ليلةً فلما صار على العقبة لقيه رجلٌ من بنى حاجب بن زُرارة تيميٌّ فتنحَّح حربٌ بنُ أمية وقال: أنا حرب بن أمية ، فتنحَّح التيميٌّ وقال: أنا ابن حاجب ابن زُرارة ، ثم بدر فجاز العقبة ، فقال حرب: لاهَا اللهُ لا تدخل بعدها مكة وأنا حيٌّ ! فكث التيميُّ حينًا لا يدخل ، وكان متجره بمكة ، فاستشار بها بمن يستجير من حرب ، فأشير عليه بعبدِ المطلب أو بابنه الزبير بن عبدِ المطلب . فركب ناقته وصار إلى مكة كيلا ، فدخلها وأناخ ناقته بباب الزبير بن عبد المطلب ، فرغت^(١) الناقة ؛ فخرج إليه الزبير فقال : أمستجير فُتجار ، أم طالبُ قرى فتقرى ! فقال :

لأقيتُ حرًا بالثنية مقبلاً	والليلُ أبلغ نوره للسارى
فعلًا بصوتٍ واكتنى ليروعنى	ودعا بدعوة مُعلنٍ وشعارٍ
فتركته خلفي وجزت أمامه	وكذاك كنتُ أكونُ في الأسفار
فمضى يهددنى ويمنع مكة	ألا أحلَّ بها بدارٍ قرارٍ
فتركته كالكلب يندبح وحده	وأيتتُ قرمَ مكارمٍ ونخارٍ ^(٢)
ليثًا هزبرًا يستجارُ بقربه	رحبَ المباءة مكرمًا للجارٍ ^(٣)
وحلفتُ بالبيتِ العتيق وحجّه	وبزمزمِ والحجرِ والأستارِ
إنَّ الزبيرَ لمأنعني بمهندٍ	صافي الحديدِ صارمٍ بتارٍ

فقال الزبير : اذهب إلى المنزل فقد أجزتكَ . فلما أصبح نادى الزبير أخاه الغيداق ،

(١) يقال : رغت الناقة ترغو رغاء : صوتت وضجت . وفي المثل : « كفى برغائها منادياً » ، أى أن رغاء الناقة يقوم مقام النداء في التعرض للضيافة والقرى .
 (٢) القرم من الرجال : السيد المعظم .
 (٣) الهزبر : الأسد ، والمباءة : المراح الذي تبيت فيه الإبل .

نفرجا متقلدين سيفيهما ، وخرج التيميُّ معهما ، فقالا له : إنَّا إذا أجرنا رجلا لم نمشِ أمامه ، فامش أماننا ترمُك أبطارنا كي لا تُختلس مِن خلفنا . فجعل التيميُّ يشقُّ مكة حتى دخل المسجد ، فلما بَصُرَ به حرب قال : وإِنَّك لها هنا ! وسبق إليه فلطمه ، وصاح الزبيرُ : نَكِكتك أمك ! أتَلطمه وقد أجرته ! فثنى عليه حَرْبُ فلطمه ثانية ، فانتصَى الزبير سيفه ، فحمل على حَرْب بين يديه ، وسعى الزبير خلفه فلم يرجع عنه حتى هَجَم حرب على عبد المطلب داره ، فقال : ما شأنك ؟ قال : الزبير ، قال : اجلس ، وكفأ عليه إناء كان هاشم يهشم فيه الثريد ، واجتمع الناس ، وانضمَّ بنو عبد المطلب إلى الزبير ، ووقفوا على باب أبيهم بأيديهم سُيوفهم ، فأزَّر عبد المطلب حربا بإزار كان له ، وورداه برداء له طرْفان ، وأخرجه إليهم ، فعملوا أن أباهم قد أجاره .

وأما معنى قوله : « أم بأمية الذي ملكناه ! » ، فإن عبد المطلب راهنَ أمية بن عبد شمس على فرسين ، وجعل الخطرَ مَن سبقت فرسه مائةً من الإبل وعشرة أعبدٍ وعشر إماء واستعباد سنة ، وجزَّ الناصية . فسبق فرسُ عبد المطلب فأخذ الخطرَ فقسمه في قریش ، وأراد جزَّ ناصيته ، فقال : أو أفتدى منك باستعباد عشر سنين ! ففعل ، فكان أمية بعدُ في حَشَمِ عبد المطلب وعَضاريطه^(١) عشر سنين .
وأما قوله : « أمٌ بعبد شمس الذي كفلناه ! » فإن عبد شمس كان مُملقا لا مالَ له ، فكان أخوه هاشم يكفله ويمونه إلى أن مات هاشم .

وفي كتاب ” الأغاني ” ، لأبي الفرج أن معاوية قال لدغفل^(٢) النسابة : رأيت عبد المطلب ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيتَه ؟ قال : رأيتَه رجلا نبيلًا جميلًا وضيئًا ، كأنَّ على

(١) العَضاريط : جمع عَضْرط ، وهو الرجل الذى يخدم بطعام بطنه .

(٢) فى الأصول : « دغبل » ، تصحيف ؛ وصوابه من الأغاني .

وجبه نور النبوة^(١). قال : أفرايت أمية بن عبد شمس^(٢) ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيته ؟ قال : رأيته رجلاً ضئيلاً^(٣) منحنيًا أعمى يقوده عبده ذكوان ، فقال معاوية : ذلك ابنه أبو عمرو ، قال : أنتم تقولون ذلك ، فأما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده^(٤) .

ونقلت من كتاب "هاشم وعبد شمس" لابن أبي رُوثة الدباس .
قال : روى هشام بن الكلبي عن أبيه ، أن نوفل بن عبد مناف ظلم عبد المطلب ابن هاشم أركاحاً له بمكة - وهي الساحات - وكان بنو نوفل يداً مع عبد شمس ، وعبد المطلب يداً مع هاشم ، فاستنصر عبد المطلب قومًا من قومه فقصروا عن ذلك ، فاستنجد أخواله من بني النجار بيثرب ، فأقبل معه سبعون راكباً ، فقالوا لنوفل : لا والله يا أبا عدي ، ما رأينا بهذا الغائط ناشئاً أحسن وجهاً ، ولا أمد جسمًا ، ولا أعف نفساً ، ولا أبعده من كل سوء من هذا الفتى - يعنون عبد المطلب - وقد عرفت قرابته منا ، وقد منعتة ساحات له ، ونحن نحب أن ترد عليه حقه ، فردّه عليه ، فقال عبد المطلب :

تأبى مازنُ وبنو عدِيٍّ وذُبيانُ بنُ تيمِّ اللاتِ ضيمي
وزادتُ مالكٌ حتى تناهتُ ونكبتُ بعدُ نوفلُ عن حريمي

قال : ويقال إن ذلك كان سبب مخالفة خزاعة عبد المطلب .

قال : وروى أبو اليقظان سُحيم بن حفص ؛ أن عبد المطلب جمع بنيه عند وفاته - وهم عشرة يومئذ - فأمرهم ونهاهم وأوصاهم وقال : إياكم والبغى ، فوالله ما خلق الله شيئاً

(١) الأغاني : « من رأيت من عليّة قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطاب بن هاشم وأمّية بن عبد شمس ، فقال : صفها لي ، فقال : كان عبد المطاب أبيض مديد القامة حسن الوجه ، في جبينه نور النوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » .

(٢) الأغاني : « قال : فصف لي أمية » . (٣) الأغاني : « نحيف الجسم ضريراً » .

(٤) الأغاني ١ : ١٢ (طبعة دار الكتب) .

أعجل عقوبة من البغي ، وما رأيت أحداً بقي على البغي إلا إخوانكم من بني عبد شمس .
وروى الوليد بن هشام بن قحذم ، قال : قال عثمان يوما : وددت أني رأيت رجلا
قد أدرك الملوك يحدثني عما مضى ؛ فذُكر له رجل بحضرة موت ، فبعث إليه فحدثه حديثا
— طويلا تركنا ذكره — إلى أن قال : رأيت عبد المطلب بن هاشم ؟ قال : نعم ، رأيت رجلا
قعدا ^(١) أبيض طويلا مقرون الحاجبين ، بين عينيه غرة يقال إن فيها بركة ، وإن فيه
بركة ، قال : أفرايت أمية بن عبد شمس ؟ قال : نعم ، رأيت رجلا آدم دميما قصيرا
أعمى يقال : إنه نكد ، وإن فيه نكد ، فقال عثمان : « يكفيك من شر سماعه ^(٢) »
وأمر بإخراج الرجل .

وروى هشام بن الكلبي أن أمية بن عبد شمس لما كان غلاما ، كان يسرق الحاج
فسمي حارسا .

وروى ابن أبي روبة في هذا الكتاب أن أول قتيل قتله بنو هاشم من
بني عبد شمس عفيف بن أبي العاص بن أمية ، قتله حمزة بن عبد المطلب ، ولم أقف على
هذا الخبر إلا من كتاب ابن أبي روبة .

قال : ومما يصدق قول من روى أن أمية بن عبد شمس استعبده عبد المطلب شعر
أبي طالب بن عبد المطلب حين تظاهرت عبد شمس ونوفل عليه وعلى رسول الله صلى
الله عليه وآله وحصروها في الشعب ، فقال أبو طالب :

توالى علينا موليانا كلالهما إذا سئلا قالوا إلى غيرنا الأمر
بلى لها أمرٌ ولكن ترأجماً كما ارتجمت من رأس ذي القلع الصخر
أخصّ خصوصا عبد شمس ونوفلا هما نبذانا مثل ما تنبذ الخمر
هما أغعضا للقوم في أخويهما فقد أصبحت أيديهما وهما صفر

(١) القعد : الحسن الهيئة .

(٢) مثل ، ولفظه في جمع الأمثال ١ : ١٩٤ : « حسبك من شر سماعه » ، وأول من قاله أم الربيع
ابن زياد العبسي .

قَدِيمًا أَبُوهُمْ كَانَتْ عِبَادًا لَجَدْنَا بِنِي أُمَّةٍ شَهْلَاءَ جَاشَ بِهَا الْبَحْرُ
لَقَدْ سَفَّهُوا أَحْلَامَهُمْ فِي مُحَمَّدٍ فَكَانُوا كَجُعْرِ بِنْسٍ مَا ضَفَطَتْ جُعْرٌ^(١)

ثم نرجع إلى حكاية شيخنا أبي عثمان ، وقد نمزجه بكلام آخر لنا أولغيرِ نأمنِ تعاطي
الموازنة بين هذين البيتين.

قال أبو عثمان : فإن قالت أمية : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم
ابن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، أربعة خلفاء في نسق ،
قلنا لهم : ولبنى هاشم : هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن
عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجّاد ، كان يصلّي كل يوم ليلة ألف ركعة ،
فكان يقال له السجّاد لعبادته وفضله ، وكان أجمل قريش على وجه الأرض وأوسمها ،
وولد ليلة قتل علي بن أبي طالب عليه السلام فُسميَ باسمه ، وكنى بكنيته ، فقال عبد الملك :
لا والله لأحتمل لك الاسم ولا الكنية ، فغير أحدهما ، فغير الكنية فصيرها أبا محمد بن
عبد الله ، وهو البحر ، وهو حَبْر قريش ، وهو المفقّه في الدين المعلم التأويل ، ابن العباس
ذي الرأي ، وحليم قريش ، بن شيبه الحمد ، وهو عبد المطلب سيّد الوادي بن عمرو ، وهو
هاشم ، هَشم الثريد ، وهو القمر سُميَ بذلك لجماله ، ولأنهم كانوا يقتدون ويهتدون برأيه ،
أبن المغيرة وهو عبد مناف ، بن زيد ، وهو قُصَيّ وهو جمّح ، فهؤلاء ثلاثة عشر سيّدا
لم يُحرّم منهم واحد ، ولا قصر عن الغاية ، وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق
له من فعله الكريم ، ومن خلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة ، أو موضع للخلافة أو سيّد
في قديم الدهر منيع ، أو ناسك مُقدّم ، أو فقيه بارع ، أو حلیم ظاهر الرّكّانة^(٢) ؛ وليس
هذا لأحد سواهم ، ومنهم خمسة خلفاء في نسق ، وهم أكثر ممّا عدته الأموية ، ولم يكن

(١) ضفطت : أحدثت ، والجعر : جمع جعراء ، وهي الاست .

(٢) الركّانة : الوقار والهيبة .

مروانُ كالمَنصور لأنَّ المنصور مَلِكُ البلاد ودَوَّخَ الأقطار ، وضَبَطَ الأطراف اثنتين وعشرين سنةً ، وكانت خلافة مروانَ على خلاف ذلك كلِّه ، وإِثْمًا بَقِيَ في الخِلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيدَ بن معاوية حين قال لابنها خالد من بَعْلِها الأوَّل : يا ابن الرطبة . ولئن كان مَرَوَانُ مستوجبا لاسم الخِلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلا عن الأطراف ، فابن الزبير أَوْلَى بذلك منه ، فقد كان مَلِكُ الأَرْضِ إِلَّا بعضَ الأَرْدُنِّ ، ولكن سُلطانَ عبد الملك وأولاده لما اتَّصل بسُلطان مَرَوَانِ اتَّصل عند القوم ما أُتقطع منه وأخْفَى مَوْضِعَ الوَهْنِ عند من لا عِلْمَ له ، وسِنُو المَهْدِيِّ كانت سِنِي سلامة ، وما زال عبدُ الملك في انتقاض وانتكاث ، ولم يكن ملك يزيد كملك هارون ، ولا مُلك الوليدِ كملك المَعْتَصِمِ .

قلت : رَحِمَ اللهُ أبا عثمان ! لو كان اليومَ لَعَدَّ من خلفاءِ بني هاشم تسعةً في نَسَقِ : المستعصم بن المستنصر بن الطاهر بن المستنصر بن المستنصر بن المستنصر بن المقتدر بن المقتدر . والطالبيون بصر يعُدُّون عشرةً في نَسَقِ : الأمير بن المستعلي بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعتز بن المنصور بن القائم بن المهدي .

قال أبو عثمان : وتفخَّرَ عليهم بنو هاشم بأن سِنِي مُلكهم أ كثر ، ومدته أطول ، فإنه قد بلغت مدة مُلكهم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة . ويفخرون أيضاً عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحقِّ العصبة والعمومة ، وأن ملكهم في مَغْرَسِ نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان ، بل ليس لبني مَرَوَانِ فيها سبب ، ولا بينهم وبينها نَسَبٌ ، إلا أن يقولوا : إننا من قريش فيساووا في هذا الاسم قريش الظواهر ، لأن رواية الراوي : «الأئمة من قريش» واقعة على كلِّ قرشيٍّ ، وأسباب الخِلافة معروفة ، وما يدعيه كلُّ جيل معلوم ؛ وإلى كلِّ ذلك قد ذهبَ الناس ، فمنهم من ادَّعاه لعلِّ عليه السلام لاجتماع القرابة والسابقة والوصية ؛ فإن كان الأمرُ كذلك فليس لآل أبي سفيان وآل مروان فيها دعوى ، وإن كانت

إنما تُنال بالوراثه ، وتُستحقّ بالعمومه ، وتُستوجب بحقّ العصبه ، فليس لهم أيضا فيها دعوى . وإن كانت لا تُنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قَدَمٌ مذكور ، ولا يومٌ مشهور ، بل كانوا إذ لم تكن لهم سابقه ، ولم يكن فيهم ما يستحقّون به الاخلافة ، ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشدّ المنع ، لكان أهون ، وكان الأمر عليهم أيسر ، قد عرفنا كيف كان أبو سُفيان في عداوة النبيّ صلى الله عليه وآله وفي محاربه له ، وإجلاله عليه وغزوه إياه ، وعرفنا إسلامه حيث أسلم ، وإخلاصه كيف أخلص ، ومعنى كلمته يومَ الفتح حين رأى الجنود وكلامه يومَ حنين ، وقوله يومَ صعد بلالٌ على الكعبه ، فأذن . على أنه إنما أسلم على يدى العباس رحمه الله ، والعباس هو الذى منع الناس من قتله ، وجاء به رديفا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وسأله فيه أن يُشرّفه وأن يكرّمه وينوّه به ، وتلك يدٌ بيضاء ، ونعمة غراء ، ومقامٌ مشهود ، ويومٌ حنين غير مجحود ، فكان جزاء بنى هاشم من بنيه أن حاربوا عليا ، وسمّوا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحمّوا النساء على الأقتاب حواسر^(١) ، وكشفوا عن عورة عليّ بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يُصنع بذرارىّ المشركين إذا دخلتْ دُورهم عنوة ، وبعث معاوية بسُرّ بن أرطاة إلى المين ؛ فقتل أثنى عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم ، وقتلَ عبيدُ الله بنُ زياد يومَ الطّف تسعةً من صُلبِ عليّ عليه السلام ، وسبعةً من صُلبِ عَقيل ، ولذلك قال ناعيم :

عَيْنِ جودِي بِعَبْرَةٍ وَعَوِيلِ وَأَنْدَبِي إِنْ نَدَبَتْ آلَ الرَّسُولِ
تَسْعَةَ كُلِّهِمْ لَصُلبِ عَلِيٍّ قَدْ أَصِيبُوا وَسَبْعَةَ لَعَقِيلِ

ثم إن أُمّية تزعم أنّ عَقيلا أعان معاوية على عليّ عليه السلام ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب ! وإن كانوا صادقين فما جازوا عَقيلا بما صنع ! وضرب عنق مسلم

(١) حواسر : كواشف .

ابن عقيل صَبْرًا وَغَدْرًا بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ،
ولذلك قال الشاعر :

فإن كنتِ لا تَدْرِينَ ما الموتُ فأنظري إلى هاني في السوق وابن عقيل^(١)
ترى بطلا قد هشم السيف وجهه^(٢) وآخر يهوى من طمار قتييل
وأكلت هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم
من نقر بين ثنيتي الحسين عليه السلام بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحرّة عون بن
عبد الله بن جعفر ، ويوم الطّفّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر . وقتل يوم الحرّة أيضاً
من بني هاشم الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والعبّاس بن
عُتْبَةَ بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العبّاس بن ربيعة بن الحارث
ابن عبد المطلب .

قلت : إنَّ أبا عثمان قايَسَ بين مدّتي مُلكهما وهو حينئذ في أيّام الوراق ، ففضل
هؤلاء عليهم ، لأن مُلكهم أطول من مُلكهم بعشر سنين ، فكيف به لو كان اليوم
حيّاً ، وقد امتدَّ مُلكهم خمسمائة وستّ عشرة سنة ! وهذا أكثر من ملك البيت
الثالث من ملوك الفرس بنحو ثلاثين سنة . وأيضاً فإن كان الفخرُ بطول مدّة الملك
فبنو هاشم قد كان لهم أيضاً ملكٌ بمصر نحو مائتين وسبعين سنة ، مع ما ملكوه بالمغرب
قبل أن ينتقلوا إلى مصر .

(١) البيتان في اللسان ٦ : ١٧٤ ؛ ونسبها إلى سليم بن سلام الحنفي .
(٢) اللسان : قد عقر السيف « . وطمار : المكان العالي ؛ قال صاحب اللسان : « وينشد من طمار
بفتح الراء وكسر ها ، مجرى وغير مجرى » قال : « ويروى : قد قرح السيف وجهه » .

قال أبو عثمان : وقالت هاشمٌ لأُمَيَّةَ : قد علم الناسُ ما صنعتمُ بنا من القتلِ
والتشريدِ ، لا لذنْبِ أئِنَّناه إليكم ، ضربتمُ عليَّ بنَ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ بالسَّيِّطِ
مرتينِ ، علي أن تزوِّجَ بنتَ عمِّه الجعْفَرِيَّةَ الَّتِي كانت عند عبدِ الملكِ ، وعلى أن تحلِّتموه
قتل سليط ، وسمَّتمُ أبا هاشمِ عبدَ الله بنَ محمد بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ عليه السلام ،
وَنَبَشْتُمُ زَيْداً وصَلَبْتُموه ، وألقيتمُ رأسَه في عرْصَةِ الدارِ توطأُ بالأقدامِ ، وينقرُ دماغه
الدَّجاجُ ، حتى قال القائلُ :

اطرُدِ الدِّيكَ عن ذُوابة زَيْدٍ طالما كان لا تطأهُ الدَّجاجُ

وقال شاعركم أيضاً :

صلبنا لكم زَيْداً على جِدْعِ نَخْلَةٍ ولم نر مَهدياً على الجِدْعِ يُصَلِّبُ
وقسَّتمُ بعثمانٍ علياً سفاهةً وعثمانُ خيرٌ من عليٍّ وأطيبُ

فرؤى أن بعض الصالحين من أهل البيت عليهم السلام قال : اللهم إن كان كاذبا
فسلط عليه كلبا من كلابك ، فخرج يوماً بسفر له ، فعرض له الأسد فافترسه . وقتلهم الإمام
جعفراً الصادق عليه السلام ، وقتلتم يحيى بن زيد ، وسميت قاتله : نائر مروان ،
وناصر الدين ، هذا إلى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله
أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وما صنع مروان بإبراهيم الإمام ، أدخل رأسه في جراب
نورة حتى مات ، فإن أنشدتم :

أفاض المدامع قتلى كددي وقتلى بكثوة لم ترمس
وبالزَّابيين نفوس توت وأخرى بنهر أبي فطرس

أنشدنا نحن :

واذكروا مصرع الحسين وزيدا وقتيلاً بجانب المهراس

والقتيل الذي بنجران أمسى ثاويًا بين غربةٍ وتناسٍ
وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه ، وأنه كان رجلا لافقه له ، ولا يعرف بالزهد ولا
الصلاح ، ولا برواية الآثار ، ولا بصحبة ولا ببعدهمة ، وإنما ولي رستاقا من رساتيق
دار بجرّد لابن عامر ، ثم ولي البحرين معاوية ، وقد كان جمع أصحابه ومن تابعه لبيباع ابن
الزبير حتى ردّه عبيد الله بن زياد ، وقال يوم صرح راهط ، والرءوس تندر^(١) عن كواهلها
في طاعته :

وما ضرهم غـير حينِ النفوس وأىّ غلاميّ قريش غلب
هذا قول من لا يستحقّ أن يلي ربعا من الأرباع ، ولا خمسا من الأخماس ، وهو أحد
من قتلته النساء لكلمة كان حتفه فيها .

وأما أبوه الحكم بن العاص فهو طريدُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ولعينه والمتخلج
في مشيته ، الحاكي لرسولِ الله صلى الله عليه وآله ، والمستمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريدا
لأبي بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ، ولم يقبلا شفاعَةَ عثمان ، فأمّا ولىّ أدخله ،
فكان أعظم الناس شؤما عليه ، ومن أكبر الحجاج في قتله وخلعه من الخلافة ، فعبد
الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرقُ الناس في الكفر لأن أحدَ
أبويّه الحكم هذا ، والآخر من قبل أمّه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ؛ كان النبي صلى
الله عليه وآله طرده من المدينة ، وأجلّه ثلاثا ، فخيرّه الله تعالى حين خرج ، وبقي مترددا
متلذذا حولها لا يهتدى لسبيله ، حتى أرسل في أثره عليّا عليه السلام وعمارًا ، فقتلاه ، فأنتم
أعرقُ الناس في الكفر ، ونحن أعرقُ الناس في الإيمان ؛ ولا يكون أميرُ المؤمنين إلا
أولاهم بالإيمان ، وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم بأن أحدا لم يجد تسعين عاما لا طواعين فيها إلا منذ
ملكوا ، قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء بعمال الخراج

(١) تندر ؛ أى تسقط فلا يحاسب بها .

بالتعليق والزّهق والتجريد والتسهير والمسالد والنورة والجورتين والعذراء والجامعة
والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيرا كثيرا ، وفي الطاعون يقول العُمانيّ الراجز
يذكر دَوْلتنا :

قد رفعَ اللهُ رِمَاحَ الجنِّ وأذهبَ التعذيبَ والتَّجَنِّيَّ

والعرب تسمي الطواعين رِمَاحَ الجنِّ ، وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمرك ما خشيتُ على أبيِّ رِمَاحَ بني مقيِّدةِ الحِمَارِ

ولكنني خشيتُ على أبيِّ رِمَاحَ الجنِّ أو إِيَّاكَ حَارِ

يقول بعضُ بني أسد للحارث الغسانيّ الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشمٌ عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبةَ ، ولم يُحوِّلوا القبلةَ ، ولم
يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يتختموا في أعناق الصحابة ، ولم يغيِّروا أوقات الصلوات ، ولم
ينقشوا أ كفّ المسلمين ، ولم يأكلوا الطعامَ ويشرَبوا على منبر رسول الله صلى الله عليه
 وآله ، ولم يهبوا الحرم ، ولم يطئوا المسامات دار في الإسلام بالسِّبَاء .

قلت : نقلت من كتاب ” افتراق هاشم وعبد شمس “ لأبي الحسين محمد بن علي بن
نصر المعروف بابن أبي رُوبة الدباس قال : كان بنو أميَّة في ملكهم يؤذَنون ويقيمون
في العيد ويخطبُون بعد الصلاة ، وكانوا في سائر صلواتهم لا يجهرون بالتكبير في الركوع
والسجود ، وكان لهشام بن عبد الملك خصيٌّ إذا سجد هشام وهو يصلي في المقصورة قال :
لا إله إلا الله ؛ فيسمع الناس فيسجدون ، وكانوا يقعدون في إحدى خطبتي العيد والجمعة
ويقومون في الأخرى ، قال : ورأى كعب مروان بن الحكم يخطب قاعدا ، فقال : انظروا

إلى هذا يَخْطُبُ قاعداً ، واللهُ تعالى يقول لرسوله : ﴿ وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ (١) .

قال : وأوّل من قعد في الخُطْبِ معاويةُ ، وأوّل من أذّن وأقام في صلاة العيد بشرُّ ابنِ مَرْوان ، وكان عمّال بنى أمية يأخذون الجزية ممّن أسلم من أهل الذمة ، ويقولون : هؤلاء فرّوا من الجزية ، ويأخذون الصدقة من الخليل ، وربما دخلوا دار الرجل قد نفق (٢) فرسه أو بابه ، فإذا أبصروا الآخية ، قالوا : قد كان هاهنا فرس ، فهات صدقتها ، وكانوا يؤخرون صلاة الجمعة تشاغلاً عنها بالخطبة ، ويطيّلون فيها ، إلى أن تتجاوز وقت العصر ، وتكاد الشمس تصفرّ ؛ فعل ذلك الوليد بن عبد الملك ويزيد أخوه والحجاج عاملهم ، ووكل بهم الحجاج المسالّخ معه والسيوف على رؤوسهم ، فلا يستطيعون أن يصلّوا الجمعة في وقتها .

وقال الحسن البصرى : واعجباً من أخيفش (٣) أعيمش ! جاءنا ففتننا عن ديننا ، وصعد على منبرنا ، فيخطب والناس يلتفتون إلى الشمس فيقول : ما بالكم تلتفتون إلى الشمس ! إنّا والله ما نصلّى للشمس ، إنما نصلّى لربّ الشمس ! أفلا تقولون : ياعدوّ الله ، إن الله حقّاً بالليل لا يقبله النهار ، وحقّاً بالنهار لا يقبله بالليل ؛ ثم يقول الحسن : وكيف يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم عابج (٤) قائمٌ بالسيف !

قال : وكانوا يسبون ذراري الخوارج من العرب وغيرهم ؛ لما قتل قريب وزحّاف الخارجيّان ، سبي زياد ذراريهما ، فأعطى شقيق بن ثور السدوسي إحدى بناتهما ، وأعطى عباد بن حصين الأخرى . وسديت بنت لعبيدة بن هلال الشكري ، وبنّت لقطريّ ابن الفجاءة المازنيّ ، فصارت هذه إلى العباس بن الوليد بن عبد الملك ، واسمها أم سلمة ؛

(١) سورة الصف ١١ .

(٢) نفق فرسه ؛ أى مات .

(٣) الحفش بالتحريك : ضيق في البصر وضعف في العين . (٤) العليج : الرجل القوى الضخم .

فوطئها بملك اليمين على رأيهم ، فولدت له المؤمل ، ومحمدا ، وإبراهيم ، وأحمد ، وحصينا ؛
بنى عباس بن الوليد بن عبد الملك . وسُبيَ واصلُ بن عمرو القنا واسترقَّ ، وسُبيَ سعيدُ
الصغير الحُروريَّ واسترقَّ ، وأم يزيد بن عمر بن هُبيرة ، وكانت من سبي عُمان الذين
سباهم مجاعة ، وكانت بنو أمية تبيع الرجل في الدين يَلزمه وترى أنه يصير بذلك رقيقا .
كان معن أبو عمير بن معن الكاتب حرًّا مولى لبنى العنبر ، فبيعَ في دين عليه ،
فاشتهراه أبو سعيد بن زياد بن عمرو العتكيَّ ، وباع الحجاج على بن بشير بن الماحوز لكونه
قتلَ رسولَ المهلب على رجلٍ من الأزد .

فأما الكعبة فإنَّ الحجاج في أيام عبد الملك هدمها ، وكان الوليدُ بن يزيد يصلي
إذا صلى أوقات إفاقة من السكر إلى غير القبلة ، فقليل له ، فقرأ : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَسَمَّ
وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (١) .

وخطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله صلى الله عليه وآله
بالمدينة ، فقال : تبَّاهم ! إنما يطوفون بأعوادٍ ورمَّةٍ بالية ! هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين
عبد الملك ! ألا يعلمون أن خليفة المرء خيرٌ من رسوله !

قال : وكانت بنو أمية تحتم في أعناق المسلمين كما تُوسم الخيلُ علامةً لاستعبادهم .
وباع مسلمُ بن عقبة أهل المدينة كفةً ، وفيها بقايا الصحابة وأولادها وصُلحاء التابعين
على أن كلاً منهم عبد قن^(٢) لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية ، إلا على بن الحسين
عليه السلام ، فإنه بايعه على أنه أخوه وابن عمه .

قال : وناقشوا أكفَّ المسلمين علامةً لاسترقاقهم ، كما يُصنع بالعلوج من الروم
والحبشة . وكانت خطباء بنو أمية تأكل وتشرب على المنبر يوم الجمعة لإطالتهم

(١) - سورة البقرة ١١٥ .

(٢) العبد القن : الذي ولد عندك ولا يستطيع أن يخرج عنك .

في الخطبة ، وكان المسلمون تحت منبر الخطبة يأكلون ويشربون .

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بني مروان ، وهاشم على عبد شمس ؛ بأن الملك كان في أيديهم فانتزعه منهم ، وغلبوهم عليه بالبطش الشديد ، وبالحيله اللطيفة ، ثم لم ينزعه إلا من يد أشجعهم شجاعة ، وأشدّهم تدبيرا ؛ وأبعدهم غورا ، ومن نشأ في الحروب ورُبّي في النغور ، ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطى الوفاء من أصحابه والصبر من قواده ، فلم يغدر منهم غادر ، ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة ، وعامر بن ضبارة ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، ولا أحد من سائر قواده حتى من أحبابه وكتابه كعبد الحميد الكاتب ، ثم لم يلقه ، ولا لقي تلك الحروب في عامّة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن عليّ ، وصالح بن عليّ ، وداود بن عليّ ، وعبد الصمد بن عليّ ، وقد لقيهم المنصور نفسه .

قال : وتفخر هاشم أيضا عليهم بقول النبي صلى الله عليه وآله - وهو الصادق المصدّق : « نُقِلْتُ من الأصلاب الزاكية ، إلى الأرحام الطاهرة ، وما أفرقت فرقتان إلا كنت في خيرها » . وقال أيضا : « بعثت من خيرة قريش » .

ومعلوم أن بني عبد مناف افترقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يدا . قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس ، وكذلك ولد الحسين بن عليّ عليه السلام ، هذا مع قرب ميلادها ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : شوهاه ولود خير من حسناء عقيم . وقال : « أنا مكاثر بكم الأمم » .

وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبي صلى الله عليه وآله قدم من سفر ،

فأراد الرجال أن يَطْرُقُوا النساءَ لَيْلًا ، فقال : « امهلوا حتى تَمْتَشِطَ (١) الشَّعْثَةَ ،
وتستحدَّ (٢) المَغِيْبَةَ ، فإذا قدِمْتُمْ فالكَيْسُ الكَيْسُ » . قالوا : ذهب إلى طَلَبِ الولدِ ،
وكانت العربُ تَفْخَرُ بكثرةِ الولدِ ، وتمدَحُ الفَحْلَ القَبِيْسَ (٣) ، وتذُمُّ العاقِرَ والعقيمَ .
وقال عامرُ بنُ الطُّفَيْلِ يعنى نفسه :

لَبِئْسَ الفَتَى إِنْ كُنْتُ أَعَوَرَ عَاقِرًا جَبَانًا فَمَا عُدْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرٍ !
وقال عَلْقَمَةُ بنُ عَلَاتَةَ يَفْخَرُ على عامِرٍ : آمَنْتُ وَكَفَّرَ ، وَوَفَيْتُ وَغَدَرَ ،
وَوَلَدْتُ وَعَقَرَ .

وقال الزُّبَيْرِيُّ قَان :

فَأَسْأَلُ بَنِي سَعْدِ وَغَيْرَهُمْ
أَيَّ امْرِئٍ أَنَا حِينَ يَحْضُرُنِي
وَإِذَا هَلَكْتُ تَرَكْتُ وَسْطَهُمْ
وقال طَرْفَةُ بنُ العَبْدِ :

فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بنَ خَالِدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادِنِي
وَمَدَحَ النَّابِغَةَ الذُّبْيَانِيَّ نَاسًا فَقَالَ :
لَمْ يَجْرَمُوا طَيْبَ النِّسَاءِ وَأُمَّهَمْ
ولو شاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بنَ مَرَّثِدِ (٥)
بنونَ كرامٍ سادةٍ لِمَسْوَدِ
طفحتُ عليكِ بناتٍ مِدَّ كَارِ (٦)

(١) تمتشط : ترحل شعرها وتصففه ، والشعثة : المتلبدة الشعر .

(٢) المغيبة : التي غاب عنها زوجها . والاستحداد حلق العانة (٣) القبيس كأمير : الفحل السريع الإلقاح .

(٤) يقال : نبه فلان ؛ أى شرف فهو نابه ونبيه .

(٥) ديوانه ٥٨ .

(٦) ديوانه ٣٧ ، وروايته : « لم يجرموا حسن النساء » . وطفحت : اتسعت وغلبت . والناق ،

مأخوذ من تنق السقاء ، يقال : انتق سقاءك ، أى انفض ما فيه ، وإنما يريد أنها تنفض ما في رحمها .

والمذكار : التي تلد الذكور .

وقال نهشل بن حرّى :

على بنى يشدّ الله عظمهمُ والنَّبَعُ يُنْبِتُ قُضْبَانًا فَيَكْتَهِلُ
وَمَكَتَ الْفِرْزْدِقُ زَمَانًا لَا يُؤَلِّدُ لَهُ فَعَيَّرْتُهُ أَمْرًا تَهُ ، فقال :

قالت أراه واحداً لا أخاله يؤمّله فى الوارثين الأبعد^(١)

لعلك يوماً أن ترىنى كأنما بنى حوالى الليوث الحوارد^(٢)

فإنّ تمياً قبل أن يلد الحصى أقامَ زماناً وهو فى الناس واحدٌ

وقال الآخر ، وقد مات إخوته ، وملاً حوضه ليسقى ، فجاء رجلٌ صاحب عشيرة
وعترة ، فأخذ بضبعه فنجاه ، ثم قال لراعيه : اسقِ إبلك :

لو كان حوض حمارٍ مشربت به إلا بإذن حمارٍ آخر الأبد

لكنه حوض من أودى بإخوته ريب المنون فأمسى بيضة البلد

لو كان يُشكى إلى الأموات مالتى أحياء بعدهم من قلة العدد

ثم أشتكيت لأشكاني وأنجدنى قبرٌ بسنجارٍ أو قبرٌ على فخد^(٣)

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

واستُ بالأكثر منهم حصى وإتما العزة للكثير

قال : وقد ولد رجال من العرب كلٌّ منهم يلد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا

بذلك مفخراً ، منهم عبد الله بن عمير الليثى ، وأنس بن مالك الأنصارى ، وخليفة بن

بر السعدى ، أتى على عامتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله

ابن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن

مات من ولده فى حياته ! وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع ، وفيها أعم

(١) ديوانه ١٧٢ ، وروايته : « تقول أراه » .

(٢) الحوارد : المعتلون ؛ ورواية الديوان :

فإن عسى أن تبصرينى كأنما بنى حوالى الأسود اللوابد

(٣) سنجان : بلد على ثلاثة أيام من الموصل .

وأفشى من سنن الطُفولِيَّةِ ، وأمرُ جعفرِ بنِ سليمانَ قد عاينه عالمٌ من الناس ، وعامتهم أحياء ، وليس خبر جعفرِ كخبرِ غيره من الناس .

قال الهيثم بنُ عديّ : أفضى الملكُ إلى ولدِ العباسِ ، وجميع ولدِ العباسِ يومئذٍ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفرُ بنُ سليمانَ وحده عن مثل ذلك العدد من الرجال . ومن قرُب ميلاده وكثر نسله حتى صار كبعض القبائل والعجائر أبو بكر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، والمهلب بنُ أبي صُفرة ، ومُسلم بنُ عمرو الباهليّ ، وزياد ابن عبيد أميرُ العراق ، ومالكُ بنُ مِسمع . وولدُ جعفرِ بنِ سليمانَ اليومَ أكثرُ عدداً من أهل هذه القبائل . وأربعةٌ من قريش ترك كلُّ واحد منهم عشرة بنين مذكورين معروفين وهم : عبدُ المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمّية بنُ عبد شمس ، والمغيرة بنُ المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وليس على ظهر الأرض هاشمياً إلا من ولد عبد المطلب ، ولا يشكُّ أحدٌ أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع ، فهذا ما في الكثرة والقلة .

قلتُ : رحمَ اللهَ أبا عثمان ! لو كان حيّاً اليومَ لرأى ولدَ الحسنِ والحسين - عليهما السلام - أكثرَ من جميع العرب الذين كانوا في الجاهلية على عصرِ النبي صلى الله عليه وآله للسليين منهم والكافرين ، لأنهم لو أحصوا لما نقص ديوانهم عن مائتي ألف إنسان .

قال أبو عثمان : وإن كان الفخر بنبل الرأي ، وصواب القول ، فمن مثلُ عباس بن عبد المطلب وعبدِ الله بنِ العباس ! وإن كان في الحكمِ والسؤددِ وأصالةِ الرأي والغناء العظيمِ فمن مثلُ عبد المطلب ! وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل ومعرفةِ التأويل وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال ، فمن مثلُ عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعبد الله بن عباس !

قالوا: خطبنا عبد الله بن عباس خُطبةً بمكة أيام حصار عثمان لو شهدها الترك والديلم لأسلموا.

وفي عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ بملتقطاتٍ لا ترى بينها فضلاً
شفي وكفى مافي النفوس فلم يدع لذي إزبة في القول جداً ولا هزلاً

وهو البحر، وهو الخبر؛ وكان عمرُ يقول له في حديثه عند إجابة الرأي: غصّ ياغواص^(١)؛ وكان يقدمه على جلة السلف.

قلت: أبى أبو عثمان إلا إعراضاً عن عليّ عليه السلام، هلاً قال فيه كما قال في عبد الله! فلمعمرى لو أراد لو جد مجالا، ولألفي قولاً وسيعا؛ وهل تعلم الناس الخطب والعهود والفصاحة إلا من كلام عليّ عليه السلام! وهل أخذ عبد الله رحمه الله الفقه وتفسير القرآن إلا عنه! فرحم الله أبا عثمان، لقد غلبت البصرة وطينتها على إصابته رأيه! قال أبو عثمان: وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان، فمن كحمزة بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب! وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال: أ كيس، وكان لا يرصى أن يقول: شجاع، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات، فتقول: شجاع، فإذا كان فوق ذلك قالت: بطل، فإذا كان فوق ذلك قالت: بهمة، فإذا كان فوق ذلك قالت: أ كيس. وقال العجاج:

* أ كيس عن حوَّائه سخيّ *

وهل أكثر ما يعدّ الناس من جرّحاهما وصرّعاها إلا سادتكم وأعلامكم! قتل حمزة وعليّ عليه السلام عتبة والوليد، وقتلاً شبيهاً أيضاً، شرّ كما عبدة بن الحارث فيه؛ وقتل عليّ عليه السلام حنظلة بن أبي سفيان. فأما آباء ملوككم من بني مروان فإنهم كما قال

(١) يريد أنه درب بالأمور، عارف بدقيقها وجليلها.

عبدُ الله بن الزبير لما أتاه خبر المصعب : إنا والله مانموت حَبَجًا^(١) كما يموت آلُ أبي العاص ، والله ما قُتِلَ منهم قَتِيلٌ في جاهليَّة ولا إسلام ، وما نموت إلا قَتَلًا ؛ قَعَصًا^(٢) بالرماح ، وموتًا تحتَ ظلالِ السِّيوف .

قال أبو عثمان : كأنه لم يعد قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قتلًا ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفان ؛ إذ كان إنما قتل محاصرًا ، ولا قتل مروان ابن الحكم ؛ لأنه قتل خنقًا ، خنقته النساء . قال : وإنما فخر عبد الله بن الزبير بما في بني أسد بن عبد العزى من القتلى ، لأن من شأن العرب أن يفخروا بذلك ، كيف كانوا قاتلين أو مقتولين ، ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القتلى إلا في القوم المعروفين بالبأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمحاربة ، كآل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب !

قال : وفي آل الزبير خاصة سبعة مقتولون في نسق ولم يوجد ذلك في غيرهم ، قُتِلَ عمارة وحمزةُ ابنا عبد الله بن الزبير يوم قديد في المعركة ، قتلهما الإباضية ، وقُتِلَ عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجاثليق^(٣) في المعركة أكرم قتل ، وبإزائه عبد الملك بن مروان ، وقُتِلَ الزبير بوادي السباع مُنصرَفَه عن وقعة الجمل ، وقُتِلَ العوام بن خويلد في حرب الفجار ، وقُتِلَ خويلد بن أسد بن عبد العزى في حرب خزاعة ، فهؤلاء سبعة في نسق .

قال : وفي بني أسد بن عبد العزى قَتَلَى كثيرون غير هؤلاء ، قُتِلَ المنذر بن الزبير بمكة ، قَتَلَه أهل الشام في حرب الحجاج ، وهو على بغل ورد كان نفرًا به فأصعد به في الجبل .

(١) في الأصول : « حبجا » تحريف ؛ وفي اللسان : « الحبح بفتح الحين ، من أكل البعير لحاء العرفج ويسمن عليه وربما بشم منه فقتله ، يعرض ببني مروان لكثرة أكلهم وإسرافهم في ملاذ الدنيا وأنهم يموتون بالتخمة » . وانظر نهاية ابن الأثير .

(٢) القمص : الموت الوحى ، يقال : مات قعصًا ؛ إذا أصابته ضربة أو رمية فات مكانه .

(٣) الجاثليق : رئيس النصارى في بلاد الإسلام .

وإياه يعنى يزيد بن مفرغ الحميرى وهو يهجو صاحبكم عبداً لله بن زياد ويعيره بفراره
يوم البصرة :

لأبن الزبير غداة تدمر منذراً أولى بكل حفيظة ودفاع
وقتل عمرو بن الزبير، قتله أخوه عبد الله بن الزبير، وكان فى جوار أخيه عبيدة بن
الزبير فلم يُغن عنه، فقال الشاعر يحرّض عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير، ويعيره
بإخفاره جوار عمرو أخيهما :

أعبيد لو كان الحجير لو لولت بعد الهدو برنة أسماء

أعبيد إنك قد أجزت وجزر كم تحت الصفيح تنوبه الأصداء^(١)

أضرب بسيفك ضربة مذكرة فيها أداء أمانة ووفاء

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام، قتله سعد بن صفح الدوسى جد
أبى هريرة من قبل أمه، قتله بناحية اليمامة، وقتل معه أصرم وبعك أخويه ابني العوام
ابن خويلد، وقد قتل منهم فى محاربة النبى صلى الله عليه وآله قوم مشهورون، منهم
زمنة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، كان شريفاً، قتل يوم بدر،
وأبوه الأسود، كان المثل يضرب بعزته بمكة، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وهو
يذكر عاقر الناقة: « كان عزيزاً مئيعاً كأبى زمنة »، ويكنى زمنة بن الأسود بأحكيمة، وقتل
الحارث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً؛ وقتل عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث
ابن الأسود بن المطلب بن أسد يوم بدر أيضاً، وقتل نوفل بن خويلد يوم بدر أيضاً؛
قتله على بن أبى طالب عليه السلام، وقتل يوم الحرة يزيد بن عبد الله بن زمنة بن
الأسود، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً^(٢) قال له: بايع لأمير المؤمنين يزيد

(١) الصفيح: الحجارة الرقائق، والأصداء: جمع صدى، وهو ما يرد على الصوت.

(٢) صبرا، أى حبساً.

ابن معاوية على أنك عبدٌ قنُّله ، قال : بل أبايعه على أنى أخوه وابن عمِّه ، ف ضربَ عنقه . وقُتِلَ إسماعيل بنُ هَبَّار بنِ الأسود ليلاً ؛ وكان ادعى حيلةً فخرج مُصرخاً لمن استصرخه ؛ فقتل ؛ فاتهم به مُصعب بنُ عبد الله بن عبد الرحمن ، فأحلفه معاوية خمسين يمينا ، وخلقى سبيله ، فقال الشاعر :

ولا أجيب بليلٍ داعياً أبداً أخشى الغرور كما غرَّ ابنُ هَبَّارِ
باتوا يجرِّونه في الحشِّ مُنعِراً بسُّ الهدية لابنِ العمِّ والجارِ

وقُتِلَ عبدُ الرحمن بنُ العوَّام بنِ خُوَيْلِدٍ في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي ، وقُتِلَ أبْنُه عبدُ الرَّحْمَنِ يومَ الدار مع عثمان ، فعبد الله بنُ عبد الرحمن بن العوَّام بنِ خُوَيْلِدٍ قَتِيلُ ابنِ قَتِيلِ ابنِ قَتِيلِ أربعة . ومن قَتَلَاهُم عيسى بنُ مُصعبِ ابنِ الزبير ، قُتِلَ بين يدي أبيه بمسكن^(١) في حربِ عبد الملك ، وكان مُصعبُ [يُسكني أبا عيسى وأبا عبد الله وفيه يقول الشاعر] :

لَتَبَّكَ أبا عيسى ، وعيسى كلاهما موالِي قُرَيْشٍ كَهْلُهَا وصَمِيمُهَا
ومنها مُصعبُ بنُ عكَّاشة بنِ مُصعبِ بنِ الزُّبَيْرِ ، قُتِلَ يومَ قُدَيْدٍ في حربِ الخوارج ، وقد ذكره الشاعر فقال :

قُمْنَ فاندُبْنَ رِجَالًا قَبَلُوا بقُدَيْدٍ ولُنُقِصَانِ العَدَدِ
ثم لا تعدلنَ فيها مُصعباً حين يُيَكِّي من قَتِيلِ بِأَحَدِ
إنَّه قد كان فيها باسلاً صارماً يُقدِمُ إقدامَ الأَسَدِ

ومنها خالد بنُ عثمان بنِ خالد بنِ الزبير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن ابن حسن ، فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنها عتيق بنُ عامر بن عبد الله بن الزبير ، قُتِلَ بقُدَيْدٍ أيضاً ، وسُمِّيَ عتيقاً باسم جدِّه أبي بكر الصِّدِّيقِ .

(١) مسكن ، كسجد : موضع بالكوفة .

قلت : هذا أيضا من تحامل أبي عثمان ، هَلَّا ذَكَرَ قَتْلِي الطّفّ وهم عشرون سيّدا من بيتٍ واحدٍ قُتِلوا في ساعةٍ واحدةٍ ! وهذا ما لم يَقَعْ مثله في الدنيا لافي العَرَبِ ولا في العَجَمِ . ولما قُتِلَ حذيفة بنُ بدر يومَ الهبَاءِ^(١) وقُتِلَ معه ثلاثة أو أربعة من أهل بيته ضَرَبَتْ العَرَبُ بذلك الأمثالَ واستَعَظَموه ، فجاء يوم الطّفّ ، « جرى الوادي فطمّ على القَرَى^(٢) »

وهلّا عدد القَتلى من آل أبي طالب فإنهم إذا عُدُّوا إلى أبّام أبي عثمان كانوا عددا كثيرا أضعاف ما ذكره من قَتلى الأسديين ! قالوا أبو عثمان : وإن كان الفخر والفضل في الجود والسّماح فمن مثله عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ! ومن مثله عميد الله بن العباس بن عبد المطلب ! وقد اعترضت الأموية هذا الموضع فقالت : إنّما كان عبدُ الله بنُ جعفر يهَب ما كان معاوية ويزيد يهَبان له ، فمن فضل جودنا جاد .

قالوا : ومعاوية أوّل رجلٍ في الأرض وَهَبَ ألفَ ألفِ درهم ، وأبْنُه أوّل من ضاعَفَ ذلك ، فإنه كان يميّز الحسنَ والحسين ابني عليّ عليه السلام في كلّ عامٍ لكلّ واحدٍ منهما بألف ألفِ درهم ، وكذلك كان يميّز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، فلمّا مات وقام يزيدُ وفد عليه عبدُ الله بنُ جعفر ، فقال له : إنّ أميرَ المؤمنين معاوية كان يَصِلُ رَحِمِي في كلّ سنةٍ بألف ألفِ درهم ، قال : فلك ألفا ألفِ درهم ، فقال : بأبي أنت وأُمّي ! أما إنّي ما قُلتُها لأبنِ أنثى قبلك ، قال : فلك أربعةُ آلاف ألفِ درهم . وهذا الاعتراض ساقط ، لأن ذلك إن صحّ لم يُعدَّ جودا ولا جائزة ولا صلة رَحِمٍ ، هؤلاء

(١) يوم الهبَاء من أيام العرب المشهورة .

(٢) قال صاحب مجمع الأمثال ١ : ١٥٨ « أي جرى سيل الوادي فطم ، أي دفن ، يقال : طم السيل الركبة ، أي دفنها . والقري : مجرى الماء في الروضة والجمع أقرية وقريان . . . أي أتى على على القري ، يعني أهلكه بأن دفنه .

قومٌ كان يخافهم على مُلكِهِ ، ويعرف حقهم فيه ، وموقعهم من قلوب الأمة ، فكان يدبّر في ذلك تديباً ، ويريع^(١) أمورا ، ويصانع عن دولته وملكه ، ونحن لم نعد قطّ ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتّابهم وبنى عمّهم جوداً ، فقد وهب المأمون للحسن ابن سهل غلّة عشرة آلاف ألفٍ فما عدّ ذلك منه مكرّمة ، وكذلك كلُّ ما يكون داخلًا في باب التجارة وأستمالة القلوب ، وتديب الدولة ، وإتّما يكون الجود ما يدفعه الملوك في الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسماو ونحوهم ؛ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وثّق الجند أعطيتهم احتسب ذلك في جوده ؛ فالعالات شئٌ ؛ والإعطاء على دفع المكروه شئٌ ؛ ، والتفضل والجود شئٌ . ثم إن الذين أعطاهم معاوية يزيد هو بعض حقهم ، والذي فضل عليهما أكثر مما خرج منهما .

وان أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصرهم فضيحة ظاهرة ، فإن نساء خلفاء بني عباس أكثر معروفان رجال بني أمية ، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لآتى ذلك على جميع صنائع بني مروان ، وذلك معروف ، ولو ذكر معروف الخيزران وسلسبيل لملمت الطوامير الكثيرة به ، وما نظن خالصة مولاتهم إلا فوق أجواد أجوادهم ، وإن شئت أن تذكر مواليهم وكتّابهم فاذكر عيسى بن ماهان ، وابنه علياً ، وخالد بن برمك وابنه يحيى ، وابنه جعفرًا والتفضل وكتّابهم منصور بن زياد ومحمد بن منصور وفتى العسكر ، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان يُبخل على الطعام ، وكان جعفر بن سليمان كثيرًا ما يذكر ذلك ؛ وكان معاوية يُبغض الرجل النهيم على مائدته ، وكان

(١) يريع : يزيد .

المنصورُ إذا ذكروهم يقول: كان عبدُ الملك جباراً لا يُبالي ما صنع، وكان الوليدُ مجنوناً، وكان سليمان همُّهُ بطنُهُ وفرَجُهُ، وكان عمرُ أعور بين عميان، وكان هشامُ رجل القوم، وكان لا يذكر ابن عاتكة. ولقد كان هشام مع ما استثناه به يقول: هو الأحوال السَّرَّاق، ما زال يُدخل إعطاء الجند شهرًا في شهرٍ وشهرًا في شهر؛ حتى أخذ لنفسه مقدار رِزق سنةٍ، وأنشده أبو النجم العجلى أَرْجوزته التي أوَّلها:

* الحمد لله الوهوب الجزل *

فما زال يُصَفِّقُ بيديهِ أُستحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس، فقال:

* والشمسُ في الأفق كعَيْنِ الأَحْوَلِ *

فأمر بوجء^(١) عنقه وإخراجه، وهذا ضعف شديد، وجهلٌ عظيم. وقال خاله إبراهيم بن هشام الخزومي: ما رأيتُ من هشام خطأ قطَّ إلا مرتين: حدًا به الحادي مرَّةً فقال:

إِنَّ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْبُخْتِيُّ أ كَرَمَ مِنْ تَمَشَّى بِهِ الْمَطِيُّ

فقال: صدقت. وقال مرَّةً: والله لأشكونَّ سليمانَ يومَ القيامةِ إلى أمير المؤمنين عبد الملك. وهذا ضعف شديد، وجهل مُفْرِط.

وقال أبو عثمان: وكان هشامُ يقول: واللهِ إني لأستحي أن أعطيَ رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم، ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار فاعتدّها في جوده وتوسّعها، وإنما اشترى بها ملكه، وحصّن بها عن نفسه وما في يديه. قال له أخوه مسلة: أطمع أن تلي الخلافة وأنت بخيل جبان! فقال: ولكني حلِيمٌ عَفِيفٌ، فاعترف بالجبن والبخل؛ وهل تقوم الخلافة مع واحد منهما! وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم، والتّعزير الشديد. ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب.

(١) الوجء: الضرب.

ولقد قدّم المنصورُ عليهم عمرَ بنَ عبد العزيز بقوله : أعورُ بين عُمان ؛ وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً ، فكيف وقد جلد خُبَيْب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدٍ ، وصَبَّ على رأسه جرّة من ماء بارد في يوم شاتٍ ، حتى كُرِّ (١) فمات ، فما أقرَّ بدّمه ، ولا خرج إلى وليّه من حقّه ، ولا أعطى عقلاً ولا قوداً ؛ ولا كان خُبَيْب ممن أتت عليه حدود الله وأحكامه وقصاصه ؛ فيقال : كان مطيعاً بإقامتها ، وأنه أزهقَ الحدُّ نفسه ! واحتسبوا الضرب كان أدبا وتعزيراً ، فما عذره في الماء البارد في الشتاء ، على أثر جلد شديد ! ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصى ، فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه ، فقال رجاء بن حيوة في بعض من يدخل ومن يخرج : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر ، أو تشير بي في هذا الشأن ؛ فوالله مالى عليه من طاقة ! فقال له رجاء : قاتلك الله ؛ ما أحرصك عليها !

ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج ؛ قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلاً منّا أهل البيت ! وقال في خلافته : لولا بيعةٌ في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعوص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق وبين أحسن قریش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر ؛ فما كان عليه من الضرر والحرج ، وما كان عليه من الوكف (٢) والنقص أن لو قال : بين علي بن العباس وعلي بن الحسين بن علي ! وعلى أنه لم يرد التيمم ولا العدوى ، وإنما دبر الأمر للأمرى ، ولم يكن عنده أحدٌ من هاشم يصلح للشورى ، ثم دبر الأمر لبيبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عُوجل بالسم . وقدّم عليه عبدُ الله بنُ حسن بن حسن ، فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومر كبه

(١) كُرِّ ، أى أصابه كزاز ؛ كغراب ورمات ؛ وهو داء يجيء من شدة البرد .

(٢) الوكف ، محرّكة : الإثم .

وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين لم يدعه بيت بالشام ليلة واحدة ، وقال له : الحق بأهلك ، فإنك لم تغنهم شيئاً هو أنفك منك ولا أردد عليهم من حياتك . أخاف عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشتهي وتحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه ، فلعله يبذر في قلوبهم بذراً ، ويفرس في صدورهم غرساً ، وكان أعظم خلق قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ، ويربى على كل ذى غاية ، صاحب شناعة ، وكان يصنع ذلك الكتب ، مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شوذب الخارجي : لم لا تلعن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟ فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ! قال : مالى به عهد . قال : أفيسمعك أن تمسك عن لعن فرعون ، ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي ! فرأى أنه قد خصمه ^(١) وقطع حجته ، وكذلك يظنه كل من قصر عن مقدار العالم ، وجاوز مقدار الجاهل ، وأى شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان ! هؤلاء قوم لهم حزب وشيعة ، وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبه في أمرهم ، وفرعون على خلاف ذلك ، وضده لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالى ولا صنائع ولا في أمره شبهة . ثم إن عمر ظنين ^(٢) في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم ، وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون ، وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج ، فكيف استويا عنده !

وشكا إليه رجل من رهطه ديناً فادحاً ، وعيالا كثيرا ؛ فاعتل عليه ، فقال له : فهلاً اعتللت على عبد الله بن الحسن ! قال : ومتى شاورتك في أمري ! قال : أو مشيراً

(٢) الظنين : المتهم .

(١) خصمه : غلبه .

ترانى ! قال : أو هل أعطيته إلا بعض حقه ! قال : ولم قصرت عن كله ؟ فأمر بإخراجه وما زال إلى أن مات محروما منه .

وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذي حسن أمره ، وشبهه على الأغنياء حاله ، أنه قام بعقب قوم قد بدلوا عامة شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وآله ، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالإسلام في أمر صغر في جنبه عابنوا منه ، وأنفوه عليه ، فجعلوه بما نقص من تلك الأمور الفضيعة في عداد الأئمة الراشدين ، وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون عليا عليه السلام على منابريهم ، فلما نهى عمر عن ذلك عد محسنا ، ويشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيًّا وَلَمْ تُخَفْ بَرِيًّا وَلَمْ تَتَّبِعْ مَقَالَةَ مَجْرَمٍ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي عليه السلام قد كان لهم عادة ، حتى مدح من كف عنه ؛ ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة - وكان إذا خطب بها لعن عليا والحسن والحسين عليهم السلام - قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللَّهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيًّا وَحُسَيْنًا مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامٍ
أَيْسَبُ الْمُطَهَّرُونَ جُدُودًا وَالكَرَامُ الْآبَاءُ وَالْأَعْمَامِ
يَأْمَنُ الطَيْرُ وَالْحِمَامُ وَلَا يَأْ مَنْ آلُ الرَّسُولِ عِنْدَ الْمَقَامِ !
طَبَتَ بَيْتًا وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلًا أَهْلُ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالْإِسْلَامِ !
رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِمْ كَلِمًا قَامَ قَائِمٌ بِسَّلَامِ !

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان - وكان ممن ينأله بزعمهم إلى هشام بن عبد الملك ، وهو يخطب على المنبر بعرفة - فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت

الخلفاء تستحبّ فيه لعن أبي تراب^(١) ، فقال هشام : ليس لهذا جئنا ، ألا ترى أن ذلك يدلّ على أنه قد كان لعنه فيهم فاشياً ظاهراً ، وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن عليّاً عليه السلام ويقول : قتل جدّيّ جميعاً ؛ الزبير وعثمان .

وقال المغيرة وهو عاملُ معاوية يومئذ لصعصعة بن ضوحان : قمّ فالعن عليّاً ، فقام فقال : إن أميركم هذا أمرني أن ألعن عليّاً ، فالعنوه لعنه الله ! وهو يُضمر المغيرة . وأما عبدُ الملك فحسبك من جهله بتبديله شرائع الدين والإسلام ، وهو يريد أن يلبّيّ أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ، وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع نبي هاشم الخلافة أن يلعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منابرهِ ، ويرمي بالفجور في مجالسه ، وهذا قرّة عين عدوّهِ وعيرِ وليهِ ، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً : إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون^(٢) . وهو لاء سلفه وأمتّه ، وبشفقتهم قام ذلك المقام ، وبتقدّمهم وتأسيسهم نال تلك الرياسة ، ولولا العادة المتقدّمة ، والأجناد المجنّدة ، والصنائع القائمة ، لكان أبعدَ خلق الله من ذلك المقام ، وأقربهم إلى المهلكة إن رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يريد بن معاوية ؛ وهذا الكلامُ نقضٌ لسُلطانهِ ، وعداوةٌ لأهلهِ ، وإفسادٌ لقلوبِ شيعتِهِ ، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا أنه لم يقدر على إظهار قوته ، إلا بأن يظهر عجز أمتّه لكفّك ذلك منه . فهذا ما ذكرته هاشمٌ لأنفسها .

[مفاخر بني أمية]

قالت أمية : لنا من نوادر الرجال في العقل والدّهاء والأدب والمكر ما ليس لأحد ،

(١) أبو تراب ؛ من كني أمير المؤمنين على بن أبي طالب .

(٢) المأفون : الضعيف .

ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد ، زعم الناس أن الدهاة أربعة: معاوية بن أبي سفيان ، وزيد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة، فمنّا رجلان ، ومن سائر الناس رجلان . ولنا في الأجواد سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ؛ لم يوجد لهما نظير إلى الساعة . وأما نواذر الرجال في الرأي والتدبير فأبو سفيان بن حرب ، وعبد الملك ابن مروان ، ومسleme بن عبد الملك ، وعلى أنهم يعدّون في العلماء والرؤساء، فأهل الحجاز يضربون المثل في الحلم بمعاوية ، كما يضرب أهل العراق المثل فيه بالأحنف .

فأما الفتوح والتدبير في الحرب فمعاوية غير مدافع ؛ وكان خطيبا مصقعا ، ومجربا مظفرا ، وكان يجيد قول الشعر إذا آثر أن يقوله ، وكان عبد الملك خطيبا حازما مجربا مظفرا ، وكان مسleme شجاعا مدبرا وسائسا مقدما ، وكثير الفتوح كثير الأدب . وكان يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، وكان الوليد بن يزيد خطيبا شاعرا ، وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين ، وكان بشر بن مروان شاعرا ناسبا ، وأديبا عالما ؛ وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيبا شاعرا ، جيد الرأي ، أديبا كثير الأدب ، حكيا ؛ وكان أول من أعطى الترجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات .

قالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعبّاس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان ابن محمد ، وأبوه محمد بن مروان بن الحكم ، وهو صاحب مصعب ، وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا يُجهل ، وآثار بأرمينية لا تُنكر ، ولهم يوم العقر ؛ شهده مسleme والعبّاس ابن الوليد .

قالوا : ولنا الفتوح العظام ، ولنا فارس ، وخراسان ، وأرمينية ، وسجستان ، وإفريقية ، وجميع فتوح عثمان ؛ فأما فتوح بني مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن

تحتاج إلى عدد أو إلى شاهد . والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خُفِّ حافر أن يبلغه؛ حتى لم يَحْتَجِزْ منهم إلا ببحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون وصياصي ثلاثة رجال : قُتَيْبَةُ بنُ مسلم بخراسان ، وموسى بن نُصَيْرِ يافريقية ، والقاسمُ ابنُ محمد بن القاسم الثَّقَفِيُّ بالسُّنْدِ والهنْدِ ؛ وهؤلاء كلُّهم عمالنا وصنائعنا . ويقال : إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبدالله بن عامر ، وزِيَاد ، والحجاج ، فرجلان من أنفسنا والثالث صَدِيعُنَا .

قالوا : ولنا في الأجواد وأهل الأقدار بنو عبدالله بن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ، وفي خالدٍ يقول الشاعر :

إلى خالدٍ حتى أحنأ بخالدٍ فَنِعَمَ الفتى يُرْجَى ونِعَمَ المؤمِّلُ !
ولنا سعيد بن خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد ، وهو عقيد الندى ، كان يسبت ستة أشهر ويُفِيق ستة أشهر ، ويرى كحيلة من غيرا كتحال ، ودهينا من غير تدهين ؛ وله يقول موسى شهوات :

أبا خالدٍ أعنى سعيدَ بن خالدٍ أبا العرفَ لأعنى ابنَ بنتِ سعيدِ (١)
ولكنني أعنى ابنَ عائشةَ الذي أبو أبويه خالدُ بن أسيدِ
عقيد الندى ما عاشَ يرضى به الندى فإن مات لم يرضَ الندى بعقيدِ (٢)

قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجاد ، ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول ، ويصدق فيه القائل . قدم مدح عبدالله بن قيس الرقييات من الناس : آل الزبير عبدالله ومُصعبا وغيرهما ، فكان يقول كما يقول غيره ، فلما صار إلينا قال :

ما نَقَمُوا من بني أمية إلا أنهم يَحْمَلُونَ إن غضبوا (٣)

(١) الأغاني ٣ : ٣٥٢ (طبعة دار الكتب) .

(٢) عقيد الندى : الكريم بطبعه .

(٣) ديوانه ٤ .

وَأَنَّهُمْ مَعْدَنُ الْمُلُوكِ فَمَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
وَقَالَ نَصِيبٌ :

مِنَ النَّفَرِ الشَّمِّ الَّذِينَ إِذَا أُتَجَّوْا أَقْرَبَتْ لِنَجْوَاهُمْ لُؤْيٌ بْنُ غَالِبٍ^(١)
يُحْيُونَ بَسَامِينَ طَوْرًا وَنَارَةً يُحْيُونَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الْحَوَاجِبِ^(٢)

وَقَالَ الْأَخْطَلُ :

شُمْسُ الْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَّرُوا^(٣)
قَالُوا : وَفِينَا يَقُولُ شَاعِرُكُمْ وَالْمُتَشَبِّعُ لَكُمْ، الْكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ :

فَالآنَ صِرْتَ إِلَى أُمِّيَّةٍ وَالْأُمُورُ لَهَا مَصَايِرُ^(٤)

وَفِي مَعَاوِيَةَ يَقُولُ أَبُو الْجَهْمِ الْعَدَوِيُّ :

نَقَلَّبَهُ لِنَخْبِرَ حَالَتِيهِ فَنَخْبِرُ مِنْهَا كَرَمًا وَلِينًا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا إِذَا مَلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْنَا

وَفِيهِ يَقُولُ :

تَرِيحَ إِلَيْهِ هَوَادِي الْكَلَامِ إِذَا ضَلَّ خَطْبَتَهُ الْمِهْدَرُ^(٥)

قَالُوا : وَإِذَا نَظَرْتُمْ فِي امْتِدَاحِ الشُّعْرَاءِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ عَرَفْتُمْ صِدْقَ مَا نَقُولُهُ .

قَالُوا : وَفِي إِرْسَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ عُمَانَ ، وَاسْتِعْمَالِهِ عَلَيْهَا

عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ وَهُوَ ابْنُ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً دَلِيلٌ عَلَى مَوْضِعِ الْمَنْعَةِ أَنْ تَهَابَ الْعَرَبُ

وَتَعَزَّى قَرِيشٌ ؛ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلَ الْفَتْحِ : « فَتَيَانُ أَضْنَ بَهُمَا عَلَى النَّارِ :

عَتَّابُ بْنُ أَسِيدٍ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ » فَوَلَّى عَتَّابًا ، وَتَرَكَ جُبَيْرَ بْنَ مُطْعِمٍ .

(١) الشم : جمع أشم ، وهو كناية عن الرفعة والعلو وشرف النفس .

(٢) شوس : جمع أشوس ؛ والشوس بالتحريك : النظر بمؤخر العين تكبرا وغيظا .

(٣) ديوانه ١٤ ، وشمس : جمع شمس ؛ وهو الرجل العسر في عداوته ؛ الشديد الخلاف على

من عانده .

(٤) الأغاني ١٥ : ١١١ ، وروايته : « والأموار إلى المصاير » .

(٥) المهذر : الكثير الخطأ في الكلام .

وقال الشعبي : لو وُلِد لي مائة ابنٍ لسميتهم كلهم عبد الرحمن ؛ للذي رأيتُ في قریش من أصحاب هذا الاسم ، ثم عدَّ عبد الرحمن بن عتَّاب بن أسيد ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وعبد الرحمن بن الحکم بن أبي العاص ؛ فأما عبد الرحمن بن عتَّاب فإنه صاحبُ الخليل يومَ الجمل ، وهو صاحبُ الكفِّ والخاتم ، وهو الذي مرَّ به عليٌّ وهو قتيلٌ فقال : لهفي عليك يعسوبَ قریش ، هذا اللبَّاب المَحض من بني عبد مناف ! فقال له قائل : لشدَّ ما أتيتَه اليومَ يا أمير المؤمنين ! قال : إنَّه قام عني وعنه نسوةٌ لم يقمن عنك .

قالوا : ولنا من الخطباء معاويةُ بن أبي سفيان ، أخطبُ الناس قائماً وقاعداً ، وعلى منبرٍ ، وفي خُطبةِ نكاح . وقال عمر بن الخطَّاب : ما يتصدَّني شيءٌ من الكلام كما يتصدَّني خطبةُ النكاح ، وقد يكون خطيباً من ليس عنده في حديثه ووصفه للشيء احتجاجة في الأمر لسانٌ بارع . وكان معاويةٌ يجري مع ذلك كله .

قالوا : ومن خُطبائنا يزيدُ بن معاوية ، كان أعرابياً اللسان ، بدويَّ اللهجة . قال معاوية : وخطب عنده خطيب فأجاد : لأرمينته بالخطيب الأشدق يريد يزيد بن معاوية ، ومن خُطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتحييره تحبير ، ولا كارتجاله ارتجال . ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه ، فسمع كلامه ، فقال : إن ابن سعيد هذا الأشدق .

وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إليّ ولم يوص بي ، قال : فبم أوصى إليك ؟ قال : ألا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومنا سعيدُ بن عمرو بن سعيد ، خطيبُ ابنِ خطيبِ ابنِ خطيب ، تكلم الناسُ عند عبد الملك قياما وتكلم قاعدا . قال عبد الملك : فتكلم وأنا والله أحبَّ عثرته وإسكاته ، فأحسنَ حتى استنطقته واستزدته ؛ وكان عبد الملك خطيباً ، خطب

الناس مرّة فقال : ما أنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما ، ولم تسيرُوا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما ، ولكلٍّ من النّصفه نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة . قالوا : ولنا زيادٌ وعبيد الله بنُ زياد ، وكانا غنّيين في صحة المعاني ، وجودة اللفظ ، ولهما كلامٌ كثير محفوظ .

قالوا : ومن خطبائنا سليمان بنُ عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك .
ومن خطبائنا ونسّا كِنّا يزيدُ بنُ الوليد الناقص . قال عيسى بن حاضر : قلت لعمر بن عُبيد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح^(١) ، ثم صرّف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل ، وعمل بالعدل ، وبدل نفسه وقتل ابن عمّه في طاعة ربه ، وكان نكالا لأهله ، ونقص من أعطياتهم مازادته الجبارة ، وأظهر البراءة من آبائه ، وجعل في عهده شرطاً ولم يجعله جزماً ؛ لا والله لكانه ينطق عن لسان أبي سعيد - يريد الحسن البصري - قال : وكان الحسن من أنطق الناس .

قالوا : وقد قرئ في الكتب القديمة : يامبذر الكنوز ، ياساجداً بالأسحار ، كانت ولايتك رحمة بهم ، وحجة عليهم . قالوا : هو يزيد بن الوليد .

ومن خطبائنا ثمّ من ولد سعيد بن العاص عمرو بن خولة ، كان ناسباً فصيحا خطيباً . وقال ابن عائشة الأكبر : ما شهد خطيباً قطّ إلا ولجلج هيبة له ومعرفةً بانتقاده .
ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس ، وأبين الناس ، كان مسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأنحي كور عمّامتي على أذنيّ لأسمع كلام عبد الأعلى .

(١) كلح ، كنعن ، كنعن في عبوس .

وكانوا يقولون : أشبه قريش نعمةً وجهارةً واقتداراً وبياناً بعمر بن سعيد عبد الأعلى بن عبد الله .

قالوا : ومن خطبائنا ورجالنا الوليد بن عبد الملك ، وهو الذي كان يقال له فحل بني مروان ، كان يركب معه ستون رجلاً لصلبه .

ومن ذوى آدابنا وعلماؤنا وأصحاب الأخبار ورواية الأشعار والأنساب بشر بن مروان أمير العراق .

قالوا : ونحن أكثر نساءً منكم ، منّا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه : لو أقتت للناس ولى عهد ؟ قال : ومن جعل لى هذا العهد فى أعناق الناس ؟ والله لولا خوفى الفتنة لما أقتت عليها طرفة عين ، والله لا أذهب بمرارتها ، وتدهبون بحلاوتها ؛ فقالت له أمه : لوددت أنك حبيضة ، قال : أنا والله ووددت ذلك .

قالوا : ومنّا سليمان بن عبد الملك الذى هدم الديماس ^(١) وردّ المسيرين ، وأخرج المسجونين ، وترك القريب . واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس ، حتى سُمى المهديّ ، وقيلت الأشعار فى ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز ، شبه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر ، وباسمه سُمى ؛ وهو أشجّ قريش المذكور فى الآثار المنقولة فى الكتب ، العدل فى أشدّ الزمان ، وظلف ^(٢) نفسه بعد اعتياد النعم ، حتى صار مثلاً ومفخرًا . وقيل للحسن : أما زويت أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لا يزداد الزمان إلا شدةً ، والناس إلا شحًا ، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ! قال : بلى ؛ قيل : فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله

(١) الديماس : سجن كان للحجاج .

(٢) ظلف نفسه : منعها .

وسيرته ! فقال : لا بدّ للناس من متنفس . وكان مذكورا مع الخطباء ، ومع النّسّاك ،
ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبدُ الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان ناسكا زكيا طاهرا ، وكان
من أتقى النّاس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيرا ما يعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعوص ، إسماعيل بن أمية .
ابن عمرو بن سعيد بن العاص ؛ وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إلى من
الأمر شيء لجعلتها شوري بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وصاحب الأعوص .

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى ، قتله داود بن عليّ ، ومن
نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يُهدب^(١) ثوبا ولا يصبغه ، ولا يتخلّق
بخلوق^(٢) ، ولا اختار طعاما على طعام ، ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف ، وينهى عنه .
قالوا : ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ؛ أراد عمر أخوه أن يجعله وليّ
عهدِه لما رأى من فضله وزهده ، فسميا فيهما جميعا .

ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفّان ، كان يصليّ كلّ يوم ألف
ركعة ، وكان كثير الصدقة ، وكان إذا تصدّق بصدقة قال : اللهم إنّ هذا لوجهك ، فخفف
عني الموت . فانطلق حاجّا ، ثم تصبّح بالنوم فذهبوا يُنبّهونه للرّحيل ، فوجدوه ميتا ،
فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعبُ فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبة من طين ،
فالتّم^(٣) مع النّساء ، وكان إليه محسنا .

ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

(١) يهدب : يقطع .

(٢) الخلوق : الطيب .

(٣) التدم مع النّساء : ضرب صدره معهن في النياحة .

قالوا : فنحن نعدّ من الصلاح والفضل ما سمعتموه ، ومالم نذكره أكثر ، وأنتم تقولون :
 أمية هي الشجرة الملعونة في القرآن ، وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب ،
 كما أن الطيب لا يثمر الخبيث ، فإن كان الأمر كما تقولون ، فعثمان بن عفان ثمرة خبيثة .
 وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وآله دفع ابنتيه إلى خبيث ، وكذلك يزيد بن
 أبي سفيان صاحب مقدمه أبي بكر الصديق على جيوش الشام ، وينبغي لأبي العاص بن
 الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكون كذلك ، وينبغي لمحمد
 ابن عبد الله المدبج أن يكون كذلك ، وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بنى أمية ،
 وكذلك عبد الله بن عثمان بن عفان سبط رسول الله صلى الله عليه وآله ، الذي مات
 بعد أن شدن^(١) ونقر الديك عينه فمات ، لأنه من بنى أمية ، وكذلك ينبغي أن
 يكون عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولآه
 مكة أم القرى وقبلة الإسلام ، مع قوله عليه السلام « فتيمان أضن بهما عن النار : عتاب
 ابن أسيد ، وجبير بن مطعم » . وكذلك ينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن
 الخطاب كذلك ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؛
 وينبغي ألا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عد عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؛
 وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر^(٢) والحبيس في
 سبيل الله ، ووالى النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ، ووالى أبي بكر على جميع أجناد
 الشام ، ورابع أربعة في الإسلام ، والمهاجر إلى أرض الحبشة كذلك . وكذلك أبان
 ابن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة ، والقديم في الإسلام ، والحبيس على الجهاد ، ويجب
 أن يكون ملعونا حينئذ ، وكذلك أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وهو بدرى من
 المهاجرين الأولين ، وكذلك أمامة بنت أبي العاص بن الربيع ، وأمها زينب بنت

(١) شدن : قوى وترعرع ؛ وأصله في الطب .

(٢) مرج الصفر : موضع .

رسول الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي مُعَيْط ، وكان النبي صلى الله عليه وآله يُخْرِجُهَا مِنَ الْمَغَازِي ، وَيَضْرِبُ لَهَا بِسَمِّهِمْ ، وَيُصَافِحُهَا ، وَكَذَلِكَ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَهِيَ مِنْ مِهَاجِرَةِ الْحَبْشَةِ .

قالوا : وَمِمَّا نَفَخَرُ بِهِ وَلَيْسَ لِبَنِي هَاشِمٍ مِثْلُهُ ؛ أَنْ مَنَّا رَجُلًا وَوُلِّيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مِنْهَا عَشْرُونَ سَنَةً خَلِيفَةً ، وَهُوَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ . وَلَنَا أَرْبَعَةٌ أَخَوَةٌ خَلَفَاءُ : الْوَلِيدُ ، وَسَلِيمَانُ ، وَهَشَامُ ، وَبَنُو عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَلَيْسَ لَكُمْ وَيزيد ، إِلَّا ثَلَاثَةٌ إِخْوَةٌ : مُحَمَّدٌ ، وَعَبْدُ اللَّهِ ، وَأَبِي إِسْحَاقَ وَأَوْلَادَ هَارُونَ .

قالوا : وَمِمَّا رَجُلٌ وَلِدَ سَبْعَةً مِنَ الْخُلَفَاءِ وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْرَانَ ، أَبُو يَزِيدَ بْنِ عَاتِكَةَ ، خَلِيفَةٌ ، وَجَدُّهُ عَبْدُ الْمَلِكِ خَلِيفَةٌ ، وَأَبُو جَدِّهِ مَرْوَانَ الْحَكَمُ خَلِيفَةٌ ، وَجَدُّهُ مِنْ قَبْلِ عَاتِكَةَ ابْنَةُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ أَبُو هَا يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ وَهُوَ خَلِيفَةٌ ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَهُوَ خَلِيفَةٌ ، فَهَؤُلَاءِ خَمْسَةٌ ، وَأُمُّ عَبْدِ اللَّهِ هَذَا عَاتِكَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِمَّانَ بْنِ عَمَّانَ ، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍاءَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ فَهَذَانِ خَلِيفَتَانِ ، فَهَذِهِ سَبْعَةٌ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَلَدُوا هَذَا الرَّجُلَ .

قالوا : وَمِمَّا امْرَأَةٌ أَبُو هَا خَلِيفَةٌ ، وَجَدُّهَا خَلِيفَةٌ ، وَابْنُهَا خَلِيفَةٌ ، وَأَخُو هَا خَلِيفَةٌ ، وَبَعَلُّهَا خَلِيفَةٌ ، فَهَؤُلَاءِ خَمْسَةٌ ، وَهِيَ عَاتِكَةُ بِنْتُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، أَبُو هَا يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ خَلِيفَةٌ ، وَجَدُّهَا مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ خَلِيفَةٌ ، وَابْنُهَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ خَلِيفَةٌ ، وَأَخُو هَا مَعَاوِيَةُ بْنُ يَزِيدَ خَلِيفَةٌ ، وَبَعَلُّهَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ خَلِيفَةٌ . قالوا : وَمَنْ وَلَدَ الْمَدْبُجَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَصْفَرَ امْرَأَةً وَلَدَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ وَعِمَّانٌ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ ، وَهِيَ عَائِشَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍاءَ ابْنِ عِمَّانَ بْنِ عَمَّانَ ، وَأُمُّهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ عِمَّانَ بْنِ عَمْرٍاءَ بْنِ الزَّيْبِرِ ، وَأُمُّ عَمْرٍاءَ أَسْمَاءُ ذَاتُ النَّطَّاقِينَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَأُمُّ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍاءَ بْنِ عِمَّانَ - وَهُوَ

المدبج - فاطمة بنت الحسين بن عليّ عليه السلام ، وأمّ الحسين بن عليّ عليه السلام
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ وأمّ فاطمة بنت الحسين بن عليّ عليهما السلام
أمّ إسحاق بنت طلحة بن عبد الله ، وأمّ عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ابنة
عبد الله بن عمر بن الخطاب .

قالوا : ولنا في الجمال والحسن ما ليس لكم ، منا المدبج ، والديباج ، قيل ذلك لجماله .
ومنا المطرف ، ومنا الأرجوان ، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سُمي
المطرف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

نمّا الفاروقُ إنك وابن أروى أبوكَ فأنتَ مُصدِعُ النهارِ

والمدبج هو الديباج ، كان أطولَ الناس قياماً في الصلاة ، وهلك في
سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دعى بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس
ابن الوليد بن عبد الملك ، كان هو وأخوه الحارثُ أبنَي العباس بن الوليد من الفجاءة
بنتِ قطري بن الفجاءة ، إمام الخوارج ، وكانت سُبَيْتُ فوقعتْ إليه ، فلما قام عمر بن
عبد العزيز أنتَ وجوه بني مازن وفيهم حاجبُ بنُ ذبيان المازنيُّ الشاعر ،
فقال حاجب :

أتيناك زواراً ووفداً إلى التي أضاءت فلا يخفى على الناس نورها
أبوها عميدُ الحىّ جمعاً وأمها من الحنظليات الكرام حجورها
فإن تك صارت حين صارت فإنها إلى نسبِ زالكِ كرام نقيرها

فبعث عمر بن عبد العزيز إلى العباس بن الوليد إما أن تردّها إلى أهلها ، وإما أن
تزوجها ، فقال قائل ذات يوم للمؤمل : يا ابن الخلائف الأربعة ، قال : ويلاك من الرابع !

قال : قَطْرِي ، فأما الثلاثة فالوليدُ وعبدُ الملك ومروان ، وأما قَطْرِي فَبُويَع بالخِلافة ،
وفيه يقول الشاعر :

* وأبو نعامَةَ سيّد الكُفّارِ *

قالوا : ومن أين صار محمد بنُ عليّ بن عبد الله بن العباسِ أحقّ بالدعوة والخِلافة
من سائر إخوته ! ومن أين كان له أن يَضَعَها في بيته دون إخوته ! وكيف صار بنو الأَخ
أحقّ بها من الأعمام !

وقالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يُستَحَقّ بالميراث ، فالأقرب إلى العباسِ أحقّ ،
وإن كان بالسّنّ والتجربة فالعمومة بذلك أولى .

قالوا : فقد ذكرنا جملاً من حال رجالنا في الإسلام ، وأما الجاهلية فلنا الأعياصُ .
والعباس (١) .

ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بنُ العاص كان إذا اعتم لم يعتم (٢) بمكة أحد ،
ولنا حرب بن أمية رئيسُ يوم الفِجار ، ولنا أبو سُفيان بنُ حرب رئيسُ أحدٍ والخندق ،
وسيّد قريش كلها في زمانه .

وقال أبو الجهم بنُ حذيفة العدويّ لعمرَ حين رأى العباس وأبا سُفيان على فراشه :
دون الناس : ما نرانا نستريح من بني عبد مناف على حال ! قال عمر : بئس أخو العشيّة .
أنت ! هذا عمّ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وهذا سيّد قريش .

(١) في الأغاني ١ : ١٤ (طبعة دار الكتب) بسنده عن الزبير بن بكار شيوخه : « الأعياص :
العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والعويس ؛ ومنهم العنابس ؛ وهم : حرب وأبو حرب وسفيان
وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ؛ وإنما سموا العنابس ؛ لأنهم نبتوا مع أخيم حرب بن أمية بعكاظ ،
وعقلوا أنفسهم وقاتلوا قتالا شديداً ؛ فشيّها بالأسد ، والأسد يقال لها : العنابس ، واحداً عنيسة . »
(٢) اعتم : أرخى عمامته .

قالوا : ولنا عتبة بن ربيعة ، ساد مملقا ، ولا يكون السيد إلا مترفا ، لولا مارأوا عنده من البراعة والتبيل والكمال . وهو الذي لما تحاكت بجيلة وكلب في منافرة جرير والفرافصة ، وتراهنوا بسوق عكاظ ، وصنعوا الرهن على يده دون جميع من شهد على ذلك المشهد ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله ، ونظر إلى قريش مقبلة يوم بدر : « إن يكن منهم عند أحد خيرٌ فعند صاحب الجمل الأحمر » ، وما ظنك بشيخ طابوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدرُوا على بيضة يدخل رأسه فيها ، وقد قال الشاعر :

* وإنا أناسٌ يملأ البيض هأمنا *

قالوا : وأمية الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس ، قال الشاعر :

من الأعياص أو من آل حربٍ أغرَّ كغرةِ القرسِ الجوادِ^(١)

سُموا بذلك في حرب الفجار حين حَفَرُوا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها ، وقالوا : نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سُموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود ، وإنما سُموا الأعياص لأنها أسماء الأصيل ، فالعنابس : حرب وسُفيان وأبوسُفيان وعمرو ، والأعياص : العيص ، وأبو العيص ، والعاص ، وأبو العاص وأبو عمرو ، ولم يعقب من العنابس إلا حرب ، وما عَقَب الأعياصُ إلا العيص ، ولذلك كان معاوية يشكو القلّة .

قالوا : وليس لبني هاشم والمطلب مثل هذه القسمة ، ولا مثل هذا اللقب المشهور . وهذا ما قالته أمية عن نفسها .

(١) من أبيات في الأغاني ١ : ١٤ - ١٦ ؛ ونسبها إلى عبد الله بن فضالة الأسيدي .

[ذكر الجواب عما فخرت به بنو أمية]

ونحن نذكر ما أجاب به أبو عثمان عن كلامهم ، ونضيفُ إليه من قبلنا أموراً لم يذكرها ، فنقول : قالت هاشم : أما ذكرتم من الدهاء والمكر فإن ذلك من أسماء فجّار العقلاء ، وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار ، وقد بلغ أبو بكر وعمر من التدبير وصواب الرأي ، والخبرة بالأمر العامة ، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما أن يقال : كانا داهيين ، ولا كانا مكيرين . وما عامل معاوية وعمرُو ابنُ العاص علياً عليه السلام قطّ بمعاملةٍ إلا وكان علىُّ عليه السلام أعلمَ بها منهما ، ولكن الرجل الذي يُحارب ولا يستعمل إلا ما يحلّ له أقلّ مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحلّ وما لا يحلّ ، وكذلك من حدّث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب ليس لكذبه غاية ، ولا لما يؤلّد ويصنع نهاية ، والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ، ومعنى محدود ! ويدلّ على ما قلنا أنكم عدتُم أربعةً في الدهاء ، وليس واحدٌ منهم عند المسلمين في طريق المتقين ، ولو كان الدهاء مرتبةً والمكر منزلةً لكان تقدّم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عيباً شديداً في السابقين الأولين ، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر وعمرَ وعثمان وعليّاً ثم قال : الدهاء أربعة ، وعدّهم ، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه ، لأنّ الدهاء والمكر ليس من صفات الصالحين ؛ وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميعُ العقلاء ، ألا ترى أنّه قد يحسن أن يقال : كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله أكرمَ الناس ، وأحلمَ الناس ، وأجودَ الناس ، وأشجعَ الناس ، ولا يجوز أن يقال : كان أمكرَ الناس ، وأدهى الناس ، وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مكرٍ وخديعة ، وبكل أديٍّ ومكيدة !

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم من عبد الله ابن جعفر ، وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن عليّ ! وأين أنتم من جود خلفاء بني

العبّاس ، كحمّد المهديّ ، وهارون ، ومحمد بن زبيّدة ، وعبدالله المأمون ، وجعفر المقتدر! بل لعلّ جود بعض صنائع هؤلاء كبنّي برمك وبنّي الفرات ، أعظم من جود الرّجلين اللّذين ذكرتموها ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية .

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية ، فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلماً لكانوا محتملين لذلك ، ولكنّ الوجه في هذا ألا يُشتقّ للرجل اسمٌ إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يتبين بذلك عند أصحابه حتّى يصير بذلك اسماً يسمّى به ، ويصير معروفاً به ، كما عُرف الأحنف بالحلم ، وكما عُرف حاتمٌ بالجود ، وكذلك هريم ، قالوا : هريم الجواد ، ولو قلتم : كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس ، لقلنا : ولعله يكون قد كان حلماً ، ولكن ليس كلّ حلم يكون صاحبه به مذكورا ، ومن إشكاله بائنا .

وإنكم لتظلمون خصومكم في تسميتكم معاوية بالحلم ، فكيف من دونه ، لأنّ العرب تقول : أحلم الحلمين ألا يتعرّض ثم يحلم ، ولم يكن في الأرض رجلاً أكثر تعرّضا من معاوية ، والتعرّض هو السّفه ، فإن ادّعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرّضه كلّها باطلة ، فإنّ لتائل أن يقول ، وكلّ خبر روّيته في حمله باطل ، ولقد شهِر الأحنف بالحلم ، ولكنه تكلم بكلامٍ كثيرٍ يجرّح في الحلم ويثلم في العِرض^(١) ، ولا يستطيع أحد أن يحكي عن العبّاس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب لفظاً فاحشاً ، ولا كلمة ساقطة ، ولا حرفاً واحداً مما يحكي عن الأحنف ومعاوية .

وكان المأمون أحلم الناس ، وكان عبدالله السفّاح أحلم الناس . وبعد ، فمن يستطيع أن يصف هاشماً أو عبد المطلب بالحلم دون غيره من الأخلاق والأفعال حتّى يسميه بذلك ، ويخصّ به دون كلّ شيء فيه من الفضل ! وكيف وأخلاقهم متساوية ، وكلّها في الغاية ! ولو أنّ رجلاً كان أظهر الناس زهداً ، وأصدقهم للعدوّ لقاءً ، وأصدق الناس لساناً ؛

(١) يثلم في العِرض ؛ أى ينال منه ويقع فيه .

وأجود الناس كفاً ، وأفصحهم منطقا ، وكان بكل ذلك مشهورا ، لمنع بعض ذلك من بعض ، ولما كان له اسمُ السيد المقدم ، والكامل المعظم ، ولم يكن الجوادُ أغلب على اسمه ، ولا البيان ولا النجدة .

وأما ما ذكرتم من الخطابة والفصاحة والسؤدد والعلم بالأدب والنسب ، فقد علم الناس أن بني هاشم في الجملة أرقُّ ألسنةً من بني أمية ، كان أبو طالب والزبير شاعرين ، وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شاعرا ، ولم يكن من أولاد أمية بن عبد شمس لصُلبه شاعر ، ولم يكن في أولاد أمية إلا أن تعدوا في الإسلام العرجي من ولد عثمان ابن عفان ، وعبد الرحمن بن الحكم ، فنعد نحن الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معاوية بن جعفر ، ولنا من المتأخرين محمد بن الحسين بن موسى المعروف بالرضي ، وأخوه أبو القاسم ، ولنا الحماني ، وعلي بن محمد صاحب الزنج ، وكان إبراهيم ابن الحسن صاحب باخرى^(١) أديبا شاعرا فاضلا ؛ ولنا محمد بن علي بن صالح الذي خرج في أيام المتوكل .

قال أبو الفرج الأصفهاني : كان من فتيان آل أبي طالب وقتاً كههم وشجعانهم وظرأفهم وشعرائهم ، وإن عدتم الخطابة والبيان والفصاحة لم تعدوا كعلي بن أبي طالب عليه السلام ، ولا كعبد الله بن العباس ؛ ولنا من الخطباء زيد بن علي بن الحسين ، وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس ، وداود وسليمان ابنا جعفر ابن سليمان .

قالوا : كان جعفر بن الحسين بن الحسن ينازع زيد بن علي بن الحسين في الوصية ،

(١) باخرى : بلدة قرب الكوفة بها قبر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي .

وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمانُ بنُ جعفر بن سليمان بن عليّ والي مَكَّةَ ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أميرٌ إلَّا وسليمانُ أبين منه قاعداً ، وأخطب منه قائماً . وكان داود إذا خطب استخفّر^(١) فلم يردّه شيء .

قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح بن عليّ ، كان خطيباً بليغاً ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضراً - فقال له : كيف رأيتَ أرضَ كذا ؟ قال : مسافى ریح ، ومنابت شيخ . قال : فأرضَ كذا ، قال : هَضَبَاتٌ^(٢) حُمْر ، ورَبَوَاتٌ^(٣) عُفْر ، حتى أتى علي جميع مأسأله عنه ، فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدُّون من الكلام .

قالوا : وأما ما ذكرتم من نَسَاكِ الملوك ؛ فلنا عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، وبزُهده وبدينه يضرب المثل ، ولنا محمد بن الواثق من خلفاء بني العباس ، وهو الملقب بالمهتديّ ، كان يقول : إني لآنفُ لبني العباسِ إلَّا يكون منهم مثل عمر بن عبد العزيز ، فكان مثله وفوقه . ولنا القادر أبو العباس بن إسحاق بن المقتدر ، ولنا القائم عبد الله بن القادر ، كانا على قدمٍ عظيمة من الزهد والدين والنسك ، وإن عدتُم النساك من غير الملوك فأين أنتم عن عليّ بن الحسين زين العابدين ! وأين أنتم عن عليّ بن عبد الله بن العباس ! وأين أنتم عن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، الذي كان يقال له : عليّ الخَيْر ، وعليّ الأغر ، وعليّ العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلَّا وأبرّ قَسَمَهُ ! وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ! وأين أنتم عن عليّ بن محمد الرضا ، لا لبس الصوف طولَ عمره ، مع سعة أمواله ، وكثرة ضياعه وغلاته !

(١) استخفّر الرجل في منطقة : مضى فيه .

(٢) الهضبات : جمع هضبة ؛ وهي الجبل الطويل المتنع ، ولا يكون ذلك إلَّا في حمر الجبال .

(٣) الربوات ، جمع ربوة ، وهي أعلى الجبل .

وأما ما ذكرتم من الفتوح، فلنا الفتوح المعتصمية التي سارت بها الركبآن، وضربت بها الأمثال، ولنا فتوح الرشيد، ولنا الأناشيد الشريفة في قتل بابك الخرمي بعد أن دامت فنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة. وإن شئت أن تعد فتوح الطالبين بإفريقية ومصر وما ملكوه من مدن الروم والفرنج والجلالقة^(١) في سني ملكهم، عدت الكثير الجم الذي يخرج عن الحصر، ويحتاج إلى تاريخ مفرد يشتمل على جلود كثيرة.

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد، وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب عليه السلام، وعبد الله بن العباس، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وأبي علي بن الحسين بن علي، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه. ويقال: إن أبا حنيفة من تلامذته، وكذلك سفيان الثوري، وحسبك بهما في هذا الباب، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدى المذهب، وكذلك أبو حنيفة.

ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين! وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد: وجدت علي بن الحسين وهو أفتقه أهل المدينة يعول على أخبار الآحاد.

ومن مثل محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم الذي قرّر علوم التوحيد والعدل! وقالت المعتزلة: غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول، وأبي هاشم الثاني!

وإن ذكرتم النجدة والبسالة والشجاعة فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام، وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر!

ومن مثل حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله! ومن مثل الحسين بن علي عليهما السلام! قالوا يوم الطف: مارأينا مكثوراً^(٢) قد أفرّد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه، كان كالليث المحرّب، يحطم الفرسان حطماً. وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطى

(١) الجلالقة: أهل جلق، وهي دمشق.

(٢) المكثور: الغلوب في الكثرة.

بِيَدِهِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ هُوَ وَبَنُوهُ وَإِخْوَتُهُ وَبَنُو عَمِّهِ بَعْدَ بَذْلِ الْأَمَانِ لَهُمْ ، وَالتَّوْتِيقَةَ بِالْأَيْمَانِ الْمَغْلَظَةِ ، وَهُوَ الَّذِي سَنَّ لِلْعَرَبِ الْإِبَاءَ . وَاقْتَدَى بَعْدَهُ أَبْنَاءُ الزُّبَيْرِ وَبَنُو الْمُهَلَّبِ وَغَيْرُهُمْ .

وَمِنْ لَكُمْ مِثْلُ مُحَمَّدٍ وَإِبْرَاهِيمَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ! وَمِنْ لَكُمْ كَزَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَهَا حَيْثُ خَرَجَ مِنْ عِنْدِ هِشَامٍ : مَا أَحَبَّ الْحَيَاةَ إِلَّا مَنْ ذَلَّ ؛ فَلَمَّا بَلَغَتْ هِشَامًا قَالَ : خَارِجٌ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ! فَخَرَجَ بِالسَّيْفِ ، وَنَهَى عَنِ الْمَنْكِرِ ، وَدَعَا إِلَى إِقَامَةِ شِعَارِ اللَّهِ حَتَّى قُتِلَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا .

وَقَدْ بَلَغْتُمْ شَجَاعَةَ أَبِي إِسْحَاقَ الْمُعْتَصِمِ ، وَوَقُوفَهُ فِي مَشَاهِدِ الْحَرْبِ بِنَفْسِهِ حَتَّى فَتَحَ الْفَتْوحَ الْجَلِيلَةَ . وَبَلَغْتُمْ شَجَاعَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ؛ وَهُوَ الَّذِي أزال مُلْكَ بَنِي مَرْوَانَ ، وَشَهِدَ الْحُرُوبَ بِنَفْسِهِ ، وَكَذَلِكَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَهُوَ الَّذِي اتَّبَعَ مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ إِلَى مِصْرَ حَتَّى قَتَلَهُ .

قَالُوا : وَإِنْ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَخْرُ فِي تَوَاضُعِ الشَّرِيفِ ، وَإِنْصَافِ السَّيِّدِ ، وَسَجَاحَةِ (١) الْخُلُقِ وَلِينِ الْجَانِبِ لِلْعَشِيرَةِ وَالْمَوَالِي ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ ذَلِكَ مَا لِبَنِي الْعَبَّاسِ ؛ وَلَقَدْ سَأَلْنَا طَارِقَ بْنَ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ مَوْلَى لِبْنِي أُمِّيَّةَ ، وَصَنِيْعَةٌ مِنْ صَنَائِعِهِمْ - فَقُلْنَا : أَيُّ الْقَبِيلَتَيْنِ أَشَدُّ نَحْوَةً وَأَعْظَمَ كِبْرِيَاءً وَجَبْرِيَّةً ؛ أَبْنُو مَرْوَانَ ؟ أَمْ بَنُو الْعَبَّاسِ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَبَنُو مَرْوَانَ فِي غَيْرِ دَوْلَتِهِمْ أَعْظَمَ كِبْرِيَاءً مِنْ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي دَوْلَتِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ أَدْرَكَ الدَّوْلَتَيْنِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ شَاعِرُهُمْ :

إِذَا نَابَهُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ رَأْيَتَهُ يَتَّقِيهِ فَرَشَّحَهُ لِكُلِّ عَظِيمٍ

(١) سَجَاحَةُ الْحَاقِ : سَهُولَتُهُ وَلِينُهُ .

وإن تاهَ تِيَّاهُ سِوَاهُمْ فَإِنَّمَا يَتِيَهُ لَنُوكٍ أَوْ يَتِيَهُ لُؤْمٌ^(١)

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تيّاهاً فهو دعيّ .

قالوا : وإن كان الكبرُ مَفْخَرًا يمدح به الرجال ويُعدّ من خِصال الشرف والفضل ،

فولانا عمارة بنُ حَمزةَ أعظمُ كبراً من كلِّ أُمويٍّ كان ويكون في الدنيا ، وأخبارُهُ في كِبَرِهِ وِتيهه مشهورة مُتعالمة .

قالوا : وإن كان الشرف والفَخْرُ في الجمال وفي السِمال وفي البسطة في الجسم وتمام

القوام ، فمن كان كالعبّاس بن عبد المطلب !

قالوا : رأينا العبّاسَ يطوف بالبيت وكأنه فُسْطاط^(٢) أبيض .

ومن مثل عليّ بن عبد الله بن العبّاس وولَدِهِ ، وكان كلُّ واحد منهم إذا قام إلى

جَنب أبيه كان رأسُهُ عند شحمةِ أُذُنِهِ ، وكانوا من أطول الناس ، وإنك لتجد ميراثَ ذلك اليومِ في أولادهم .

ثم الذي رواه أصحاب الأخبار وحَمال الآثار في عبد المطلب من التمام والقوام والجمال

والبهاء ، وما كان من لقب هاشمٍ بالقمر لجماله ، ولأنهم يستضيئون برأيه ، وكأرواه

الناس أن عبد المطلب ، ولَدَ عَشْرَةَ كان الرجلُ منهم يأكل في المجلسِ الجذعة^(٣)

ويشرب الفرق^(٤) ، وترد أنفهم قبل شِفاهِهم ، وإن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون

بالمبيت كأنهم جمالٌ جُونٌ^(٥) قال : بهؤلاء تُمنع مكة ؛ وتشرف مكة !

وقد سمعتم ما ذكروه الناس من جمال السِّفّاح وحُسْنِهِ ، وكذلك المهديّ وابنه

هارون الرشيد ، وابنه محمد بن زبيدة وكذلك هارون الواثق ، ومحمد المنتصر

والزبير المعتز .

(١) ب : « لنول » تصحيف ؛ وصوابه في أ . والنوك : الحمق ، واللوم أصله « اللؤم » : بالهمزة ،

وخفف للشعر .

(٢) الفسطاط : الخيمة . (٣) الجذعة من الضأن : الصغيرة .

(٤) الفرق ، بكسر فسكون : مكيال بالمدينة ، يسع ثلاثة أصع ، أو ستة عشر رطلا .

(٥) الجون من الإبل والحيل : جمع جون ، بفتح فسكون ، وهو الأدهم .

قالوا : مارئي في العرَب ولا في العجم أحسن صورةً منه ؛ وكان المكتفى على بن المعتضد بارعَ الجمال ، ولذلك قال الشاعر يَضرب المثل به :

والله لا كلمته ولو أنه كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفى

فَجَعَلَهُ ثالثَ القمَرين . وكان الحسن بن عليّ عليه السلام أصبحَ الناسَ وجهاً ، كان يُشبهه برسولِ الله صلى الله عليه وآله ، وكذلك عبد الله بن الحسن المخص .

قالوا : ولنا ثلاثة في عصرِ بنو عمّ ، كلهم يسمّى عليّاً ، وكلهم كان يصلح للخلافة بالفقه والنسك والمركب ، والرأى ، والتجربة ، والحال الرفيعة بين الناس : علي بن الحسين بن عليّ ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ، كل هؤلاء كان تاماً كاملاً بارعاً جامعاً . وكانت لبابة بنت عبد الله بن العباس عند علي بن عبد الله بن جعفر ، قالت : مارأيتُهُ ضاحكاً قطّ ولا قاطباً ، ولا قال شيئاً احتاج إلى أن يعتذر منه ، ولا ضرب عبداً قطّ ، ولا ملكه أكثر من سنة .

قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عمّ ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة ، وكلهم يسمّى محمداً ، كما أن كل واحد من أولئك يسمّى عليّاً ، وكلهم يصلح للخلافة ، بكرم النسب وشرف الخصال : محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ ، ومحمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، ومحمد بن عليّ ابن عبد الله بن جعفر .

قالوا : كان محمد بن عليّ بن الحسين لا يُسمع المبتلى الاستعاذة ، وكان ينهى الجارية والغلام أن يقولوا للمسكين : ياسائل ؛ وهو سيّد فقهاء الحجاز ؛ ومنه ومن أبنه جعفر تعلم الناسُ الفقه ، وهو الملقّب بالباقر ، باقر العلم ؛ لقبه به رسولُ الله صلى الله عليه وآله ولم يُخلق بعد ، وبشّر به ، ووعد جابر بن عبد الله برويته ، وقال : ستراه طفلاً ، فإذا رأيتَه فأبلغه عني السلام ، فعاش جابراً حتى رآه ، وقال له : ما وصّى به .

وتوعد خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه ، وقال : والله
إني لأعرف رجلاً حجازياً الأصل ، شامياً الدار ، عراقياً الهوى ، يريد محمد بن
علي بن عبد الله ابن العباس .

قالوا : وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية فإننا نذكر فاطمة بنت رسول
الله صلى الله عليه وآله ، وهي سيّدة نساء العالمين ، وأمّها خديجة سيّدة نساء العالمين ،
وبعلها علي بن أبي طالب سيّد المسلمين كافة ، وابن عمّها جعفر ذو الجناحين ، وذو
الهِجْرَتَيْنِ ، وابناها الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ، وجدّها أبو طالب بن
عبد المطلب أشدّ الناس عارضةً وشكّيمةً ، وأجودهم رأياً ، وأشهمهم نفساً ، وأمنعهم لما
وراء ظهره ، منع النبي صلى الله عليه وآله من جميع قريش ، ثم بني هاشم وبني المطلب ،
ثم منع بني إخوانه من بني أخواته من بني مخزوم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادوا
مع الإقلال ، وهو مع هذا شاعرٌ خطيب . ومن يُطيق أن يُفاخر بني أبي طالب ، وأمهم
فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهي أوّل هاشمية وُلدت لهاشمي ، وهي التي رُبّي رسول الله
في حجرها ، وكان يدعوها أمّي ، ونزل في قبرها ، وكان يُوجب حقّها كما يُوجب حقّ
الأمّ ! من يستطيع أن يُسامي رجلاً ولد لهم هاشم مرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمّهم .
قالوا : ومن العجائب أنّها وُلدت أربعةً كلّ منهم أسنّ من الآخر بعشر سنين : طالب ،
وعقيل ، وجعفر ، وعليّ .

ومن الذي يعدّ من قريش أو من غيرهم ما يعدّه الطالبيون عشرةً في نسق ؛ كلّ واحد
منهم عالمٌ زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاكٍ ، فمنهم خلفاء ، ومنهم مُرشدون :
ابن ابن ابن ابن ، هكذا إلى عشرة ، وهم الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى بن
جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليهم السلام ؛ وهذا لم يتفق لبيت من بيوت
العرب ولا من بيوت العجم .

قالوا: فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين: أم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش، فزينب امرأة من بني أسد بن خزيمه، ادعيتموها بالحلف^(١) لا بالولادة، وفينا رجل ولدته أمان من أمهات المؤمنين، محمد بن عبد الله بن الحسن الخضر، ولدته خديجة أم المؤمنين، وأم سلمة أم المؤمنين، وولدته مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن علي، وفاطمة سيّدة نساء العالمين ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله، وفاطمة بنت أسد بنت هاشم؛ وكان يقال: خير النساء الفواطم والعواتك وهن أمهاته.

قالوا: ونحن إذا ذكرنا إنسانا فقبل أن نعدّ من ولده نأتى به شريفا في نفسه، مذكورا بما فيه دون ما في غيره، قلتم لنا: عاتكة بنت يزيد، وعاتكة في نفسها كامرأة من عرض قریش، ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به المفاخرة. ونحن نقول: منّا فاطمة، وفاطمة سيّدة نساء العالمين، وكذلك أمها خديجة الكبرى، وإنما تُذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وآله وذكر إحداهما القرآن، وهنّ المذكورات من جميع نساء العالم من العرب والعجم.

وقلتم لنا: عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ولده سبعة من الخلفاء؛ وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك، ونحن نقول: منّا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، كلهم سيّد، وأمّه العالیه بنت عبید الله بن العباس، وإخوته داود وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أغرّ محجّل، ثم ولدت الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر، ومن جاء بعدها من خلفاء بني العباس.

وقلتم: منّا عبد الله بن يزيد، وقلنا: منّا الحسين بن علي سيّد شباب أهل الجنة،

(١) الحلف، بكسر الحاء وسكون اللام: العهد بين القوم.

وأولى الناس بكلِّ مكرمةٍ ، وأطهرهم طهارةً ، مع النجدة والبصيرة والفقهِ والصبر والحلم والأَنف^(١) ، وأخوه الحسن سيّد شباب أهل الجنة ، وأرفع الناس درَجةً ، وأشبههم برسول الله خلَقوا وخلقًا ، وأبوها عليّ بنُ أبي طالب .

قال شيخنا أبو عثمان : وهو الذي تركُ وصفه أبلغ في وصفه ، إذ كان هذا الكتابُ يعجز عنه ، ويحتاج إلى كتابٍ يفرده ، وعمّهما ذو الجناحين ، وأمّهما ، فاطمة وجدّتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وإبراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأمّ كلثوم ، وجدّتاها آمنَةُ بنتُ وهب والدةُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفاطمة بنت أسد بنِ هاشم ، وجدّهما رسولُ الله صلى الله عليه وآله الخرس لكلِّ فاخر ، والغالبُ لكلِّ مُنافر ، قل ماشئتُ ؛ واذكر أَى باب شئتُ من الفضل ، فإنك تجدهم قد حوَّوه .

وقالت أمية : نحن لانُنكر فخرَ بنى هاشم وفضلهم في الإسلام ، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية ، إذ كان الناسُ في ذلك الدهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشمٌ وأمّية ، بل يقولون : كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تمييزهم في أمر عليّ وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تحزّبهم وحرّبتهم مع عليّ ومعاوية .

ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرقٌ بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف ؛ ألا ترى أن أبا قحافة سمع رَجَّةً شديدةً ، وأصواتا مرتفعةً ، وهو يومئذ شيخٌ كبيرٌ مكفوف ، فقال : ما هذا ؛ قالوا : قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فما صنعتُ قريش ؟ قالوا : ولّوا الأمر ابنك ؛ قال : ورضيتُ بذلك بنو عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : ورضى بذلك بنو الغنيرة ؟ قالوا : نعم ، قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا مُعطى

(١) الأنف بفتحين ؛ مثل الأنفة ؛ ومعناها الشمم والإباء .

لما منع! ولم يقل: أَرْضِيَ بِذَلِكَ بنو عبد شمس؟ وإنما جمعهم على عبد مناف لأنه كذلك كان يقال .

وهكذا قال أبو سُفْيَانِ بن حَرْبٍ لعلِّي عليه السلام ، وقد سَخِطَ إمارة أبي بكر : أَرْضَيْتُمْ يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ أَنْ تَلِيََ عَلَيْكُمْ تَيْمٌ ! ولم يقل : أَرْضَيْتُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ ؟ وكذلك قال خَالِدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ حين قَدِمَ مِنَ الْيَمَنِ وقد اسْتَخْلَفَ أَبُو بَكْرٍ : أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ أَنْ تَلِيََ عَلَيْكُمْ تَيْمٌ ؟

قالوا : وكيف يُفَرِّقُونَ بين هَاشِمٍ وعبد شمس ، وهما أَخَوَانٌ لِأَبِ وَأُمِّ ! ويدلُّ على أن أمرهما كان واحداً ، وأنَّ اسمهم كان جامعاً ، قولُ النبي صلى الله عليه وآله وصنيعه حين قال : « مَنْ أَخْبَرَ فَرَسٍ فِي الْعَرَبِ ، عُكَّاشَةَ بْنِ مَحْصَنٍ » وكان أَسَدِيًّا ، وكان حَلِيفًا لبني عبد شمس ، وكلٌّ من شهد بَدْرًا من بني كَبِيرِ بْنِ دَاوُدَ كانوا حلفاء بني عبد شمس ، فقال ضَرَارُ بْنُ الْأَزُورِ الْأَسَدِيُّ : ذَاكَ مِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فقال عليه السلام : « بَلْ هُوَ مِنَّا بِالْحَلْفِ » ، فجعل حَلِيفَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ حَلِيفَ بَنِي هَاشِمٍ ، وهذا يَبِينُ لَا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هَذِهِ الصِّفَةِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْهُ .

قالوا : ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت ، فكيف صرنا نتزوج بنات النبي وبنات بني هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أ كفاء ، وأمرنا واحدٌ ! وقد سمعتم إسحاق بن عيسى يقول لحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عتّاب بن أسيد : لولا حيُّ أ كرمهم الله بالرسالة ، لزعمت أنك أشرف الناس ؛ أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة !

قالت هاشم : قلم : لولا أنا كُنَّا أ كفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم ، فقد نجد القوم يستون في حسب الأب ، ويفترقون في حسب الأنفس ، وربما استووا في حسب أبي

القبيلة ، كاستواء قريش في النَّضر بن كِنانة، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤي ، وعامر ابن لؤي ، وكاختلاف ابن قصي وعبد مناف وعبد الدار وعبد العزّي ، والقوم قد يساوي بعضهم بعضاً في وجوه ، ويفارقونهم في وجوه ، ويستجيزون بذلك القدر منا كحتمهم ، وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم ، وقديزوج السيّد ابن أخيه وهو حارص ابن حارص^(١) على وجه صلة الرّحم ، فيكون ذلك جائزاً عندهم ، ولو جوه في هذا الباب كثيرة ، فليس لكم أن تزعموا أنكم أ كفاؤنا من كل وجه، وإن كننا قد زوجناكم وساوينناكم في بعض الآباء والأجداد. وبعد ، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرّجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب ، أفترعمون أنهم أ كفاؤكم عينا بعين! وأما قولكم: إن الحيين كان يقال لهما عبد مناف فقد كان يقال لهما أيضا مع غيرهما من قريش وبنيتها : بنو النَّضر . وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(٢) ، فلم يدع النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَحَدًا مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، وكانت عشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف وفوق ذلك قصي ، ومن ذلك أن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أُتِيَ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزِ بْنِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ - وَأُمِّ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزِ أُمِّ حَكِيمِ الْبَيْضَاءِ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ - قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَذَا أَشْبَهُ بِنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ تَقَلَّ فِي فِيهِ فَازْدَرَدَهُ ، فَقَالَ : أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مَشْفِيًا ، فَكَانَ كَمَا قَالَ . فَنِي قَوْلِهِ : « هُوَ أَشْبَهُ بِنَا مِنْكُمْ بِكُمْ » خَصَلَتَانِ : إِحْدَاهُمَا أَنَّ عَبْدَ شَمْسٍ وَهَاشِمًا لَوْ كَانَا شَيْئًا وَاحِدًا كَمَا أَنَّ عَبْدَ الْمَطْلَبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَمَّا قَالَ : « هُوَ بِنَا أَشْبَهُ بِكُمْ مِنْكُمْ » ، وَالْأُخْرَى أَنَّ فِي هَذَا الْقَوْلِ تَفْصِيلًا لِبَنِي هَاشِمٍ عَلَى بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ خَرَجَ خَطِيئًا جَوَادًا نَبِيًّا وَسَيِّدًا مَشْفِيًا ، لَهُ مَصَانِعٌ وَأَنْبَارٌ كَرِيمَةٌ ، لِأَنَّهُ قَالَ : « هُوَ بِنَا أَشْبَهُ بِكُمْ مِنْكُمْ » . وَأُتِيَ عَبْدَ الْمَطْلَبِ

(١) الحارص : الرجل الرذل الفاسد . (٢) سورة الشعراء ٢١٤ .

بعامر بن كُرَيْز وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء فتأمله ، وقال : وعظامِ هاشم ما ولدنا ولدا أحرَض منه ، فكان كما قال عبدُ الله يُحَمِّق ، ولم يَقُل « وعظامِ عبدِ مناف » لأن شرف جدّه عبد مناف له فيه شُرْكَاء ، وشرف هاشم أبيه خالصٌ له .

فأمّا ما ذكرتم من قول أبي سُفْيَانِ وَخَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ : أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ أَنْ تَلِيََ عَلَيْكُمْ تَيْمٌ ! فَإِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ كَلِمَةٌ تَحْرِيطُ وَتَهْيِيجُ ، فَكَانَ الْأَبْلَغُ فِيمَا يَرِيدُ مِنْ اجْتِمَاعِ قُلُوبِ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ يَدْعُوهُمُ لِأَبٍ ، وَأَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى وَاحِدٍ ، وَإِنْ كَانَا مُفْتَرِقَيْنِ ، وَهَذَا الْمَذْهَبُ سَدِيدٌ ، وَهَذَا التَّوْبِيرُ صَحِيحٌ .

قال معاوية بنُ صَعْصَعَةَ لِأَشْهَبِ بْنِ رُمَيْلَةَ ، وَهُوَ نَهْشَلِيٌّ وَلِلْفَرَزْدَقِ بْنِ غَالِبٍ ، وَهُوَ مُجَاشِعِيٌّ وَلِمُسْكَنِ بْنِ أَنَيْفٍ وَهُوَ عَبْدَلِيٌّ : أَرْضَيْتُمْ مَعْشَرَ بَنِي دَارِمٍ أَنْ يَسُبَّ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَمَّ أَعْرَاضَكُمْ كَلْبِ بْنِ كَلَيْبٍ ! وَإِنَّمَا نَسَبَهُمْ إِلَى دَارِمِ الْأَبِ الْأَكْبَرِ الْمَشْتَمَلِ عَلَى آبَاءِ قِبَائِلِهِمْ لِيَسْتَوُوا فِي الْحَمِيَّةِ وَيَتَفَقَّهُوا عَلَى الْأَنْفِ ، وَهَذَا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ تَدْبِيرٌ صَحِيحٌ .

قالوا : ويدلُّ على ماقلنا ماقاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين ؛ قال حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ لِأَبِي سُفْيَانَ الْجَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ :

وَأَنْتَ مَنْوُوطٌ نَيْطٌ^(١) فِي آلِ هَاشِمٍ كَمَا نَيْطَ خَلْفِ الرَّأكِبِ الْقَدَاحِ الْفَرْدُ

لم يقل : « نَيْطٌ فِي آلِ عَبْدِ مَنْفٍ » .

وقال آخر :

مَا أَنْتَ مِنْ هَاشِمٍ فِي بَيْتِ مَكْرُمَةٍ وَلَا بَنِي جُمَحٍ الْخَضِرِ الْجَلَاعِيدِ^(٢)

(١) ب : « ينط » ريف . (٢) الجلاعيد : الصلاب الشداد .

ولم يقل : « ما أنت من آل عبد مناف » ، وكيف يقول هذا ، وقد علم الناس أن عبد مناف ولد أربعة : هاشما والمطلب وعبد شمس ونوفلا ؛ وأن هاشما والمطلب كانا يداً واحدة ، وأن عبد شمس ونوفلا كانا يداً واحدة ، وكان مما بطأ بيني نوفل عن الإسلام إبطاء إخوتهم من بني عبد شمس ، وكان مما حثّ بني المطلب على الإسلام فضل محبتهم لبني هاشم ؛ لأن أمر النبي صلى الله عليه وآله كان بيننا ، وإنما كانوا يمتنعون منه من طريق الحسد والبغضة ، فمن لم يكن فيه هذه العلة لم يكن له دون الإسلام مانع ، ولذلك لم يصحب النبي صلى الله عليه وآله من بني نوفل أحدٌ فضلاً أن يشهدوا معه المشاهد الكريمة ، وإنما صحبه حلفاؤهم كيعلى بن منبه وعتبة بن غزوان وغيرهما ، وبنو الحارث بن المطلب كلهم بدرى : عبيد ، وطقيل ، وحصين ؛ ومن بني المطلب مسطح بن أثانة بدرى .

وكيف يكون الأمر كما قلتم وأبو طالب يقول لمطعم بن عدى بن نوفل في أمر النبي صلى الله عليه وآله ، لما تمالأت قريش عليه :

جَزَى اللهُ عَنَا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا جِزَاءَ مُسِيءٍ عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ
أَمُطِعِمَ إِمَّا سَامِنِي الْقَوْمَ خُطَّةً فَأَتَى مَتَى أَوْكَلْتُ فَلَسْتُ بِأَكِلِ
أَمُطِعِمَ لَمْ أَخْذُلْكَ فِي يَوْمِ شِدَّةٍ وَلَا مَشْهَدٍ عِنْدَ الْأُمُورِ الْجَلَائِلِ

ولقد قسم النبي صلى الله عليه وآله قسمةً فجعلها في بني هاشم وبني المطلب ، فاتاه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وجبير بن مطعم ابن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، فقال له : يا رسول الله ، إن قرابتنا منك وقرابة بني المطلب واحدة ، فكيف أعطيتهم دوننا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله : « إنا لم نزل وبني المطلب كهاتين » ، وشبك بين أصابعه ، فكيف تقولون : كنا شيئاً واحداً ، وكان الاسم الذي يجمعنا واحداً !

ثم نرجع إلى أفتخار بنى هاشم ، قالوا : وإن كان الفخر بالأيد^(١) والقوة ، واهتصار^(٢) الأقران ومُباطشة الرجال ، فمن أين لسكم كمحمد بن الحنفية ، وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على دِرْعِ فاضلة ، فحذَّبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله . وسمعتم أيضا حديث الأيد^(٣) القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمدا قعد له ليقيمه فلم يستطع ، فكأنما يُحرك جبلا ، وأن الرومي قعد ليقيمه محمد فرفعه إلى فوق رأسه ، ثم جلد به الأرض ؛ هذا مع الشجاعة المشهورة ، والفقه في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والإخبار عن الغيوب ، حتى ادعى له أنه المهدي ، وقد سمعتم أحاديث أبي إسحاق المعتصم ، وأن أحمد بن أبي دُوادٍ عَضَّ ساعده بأسنانه أشدَّ العَضِّ فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظنُّ الأسنَّةَ ولا السَّهْمَ تُؤثرُ في جَسَدِهِ ، وسمعتم ما قيل في عبد الكريم المطيع ، وأنه جذبَ ذنبَ ثورٍ فاستلته من بين وركيه .

وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاجة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب عليه السلام وقد بلغ من سجاجة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدُّعابة ! ومن الذي يسوي بين عبد شمس وبين هاشم في ذلك ! كان الوليدُ جبَّارا ، وكان هشامُ شرِّسَ الأخلاق ، وكان مروانُ بنُ محمد لا يزال قاطبا عابسا ، وكذلك كان يزيدُ بنُ الوليد الناقص ، وكان المهدي المنصورُ أسرى خلق الله وألطفهم خلقا ، وكذلك محمد الأمين وأخوه المأمون ، وكان السفاح يُضرب به المثل في السُّرور وسجاجة الخلق .

قالوا : ونحن نعدُّ من رهطنا رجالا لا تعدُّون أمثالهم أبداً ، فنمَّا الأمراء بالدِّيم الناصر الكبير ، وهو الحسن الأطروش بن علي بن الحسن بن عمر بن علي بن عمر الأشرف

(١) الأيد (بفتح فسكون) : القوة . (٢) اهتصر القرن : جذبته بشدة .

(٣) الأيد : الشجاع الشديد .

ابن زيد العابدين، وهو الذى اسلمت الديلم على يده ، والناصر الأصغر وهو أحمد بن يحيى ابن الحسن بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبأ ، وأخوه محمد بن يحيى ، وهو الملقب بالمرتضى ، وأبوه يحيى بن الحسن وهو الملقب بالهادى . ومن ولد الناصر الكبير النائر، وهو جعفر بن محمد بن الحسن الناصر الكبير ، وهم الأمراء بطبرستان وجيلان وجرجان ومازندران وسائر ممالك الديلم ؛ ملكوا تلك الأصقاع مائة وثلاثين سنة ، وضرَبوا الدنانير والدرهم بأسمائهم ، وخطب لهم على المنابر ، وحاربوا الملوك السامانية ، وكسروا جيوشهم ، وقتلوا أمراءهم ، فهؤلاء واحدٌهم أعظمُ كثيراً من ملوك بني أمية ، وأطول مدةً وأعدل وأنصف وأكثر نسكاً وأشدَّ حُضاً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن يجرى مجرى مجراهم الداعي الأكبر والداعي الأصغر ملكاً الديلم ، قاداً الجيوش . واصطنعوا الصنائع .

قالوا : ولنا ملوك مصر وإفريقية ، ملكوا مائتين وسبعين سنة ، فتحو الفتوح واستردوا ما تغلب عليه الروم من مملكة الإسلام ، واصطنعوا الصنائع الجليلة .

ولهم الكُتَّاب والشعراء والأمراء والقواد ، فأولهم المهدي عبيد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب وآخرهم العاضد ، وهو عبد الله بن الأمير أبي القاسم بن الحافظ أبي اليمون بن المستعلى بن المستنصر بن الطاهر بن الحاكم بن عبد العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم ابن المهدي ؛ فإن افتخرت الأموية بملوكها فى الأندلس من ولد هشام بن عبد الملك ، واتصال ملكهم وجعلهم بإزاء ملوكنا بمصر وإفريقية ، قلنا لهم : ألا إننا نحن أزلنا ملككم بالأندلس ، كما أزلنا ملككم بالشام والمشرق كله ، لأنه لما ملك قرطبة

الظافر من بني أمية وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الملقب بالناصر ،
خرج عليه علي بن حميد بن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن
عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، قتلته ، وأزال ملكه .
وملك قرطبة دار ملك بني أمية ، ويلقب بالناصر . ثم قام بعده أخوه القاسم بن حمود ،
ويلقب بالعتلى ؛ فنحن قتلناكم وأزلنا ملككم في المشرق والمغرب ، ونحن لكم على
الرصد^(١) حيث كنتم ؛ اتبعناكم فقتلناكم وشردناكم كل مشرد ، والفخر للغالب على
المغلوب ، بهذا قضت الأمم قاطبة .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله ، منّا يحيى بن محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس ، كان شجاعاً جريئاً^(٢) وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح
فاستعرض أهلها ، حتى ساخت^(٣) الأقدام في الدم .

ومنّا يعقوب بن إبراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحاً ،
وهو المعروف بأبي الأسباط ، ومنّا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي ، كانا أعظم من ملوك
بني أمية ، وأجل قدرًا وأكثر أموالاً ومكاناً عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان
من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يد كل واحدة منهن جام^(٤) من ذهب وزنه
ألف مثقال ، مملوء مسكاً ، وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم
يكون ليت شعري غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رئي جعفر بن سليمان راكباً قط إلا
ظن أنه الخليفة .

ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جواداً أيّداً شديد البطش ، قالوا ما رئي أخوان

(١) على الرصد : مترصدون لكم .
(٢) في ب : « حرباً » تصحيف .
(٣) ساخت : خاضت .
(٤) الجام : إناء من الذهب أو الفضة .

أشدّ قوّة من محمد ورِيطة أخته ولدَى أبي العباس السّفاح ، كان محمد يأخذ الحُد يد فيلويه فتأخذه هي فترده .

ومن رجالنا محمد بن إبراهيم طباطبَا صاحب أبي السّرايا ، كان ناسكا عابدا فقيهاً عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية .

ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، وهو الذي شيّد ملك المنصور وحارب أبنّي عبد الله بن حسن ، وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحاً أديباً شاعراً .

ومن رجالنا عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، حجّ بالناس وولى الشّام ، وكان فصيحاً خطيباً .

ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس وجواداً ممدوحاً أديباً شاعراً ، وأخوه عيسى بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس ، وأجود الناس ، كان يلبس الثياب ، وقد حدّد ظفّره فيخْرِقها بظفّره لثلاثاً تعاد إليه . وعبد الله بن أحمد ابن عبد الله بن موسى الهادي ، وكان أديباً ظريفاً .

ومن رجالنا عبد الله بن المعتز بالله ، كان أوحد الدنيا في الشعر والأدب والأمثال الحكيمية والسؤدد والرياسة ، كان كما قيل فيه لما قُتل :

للهِ دَرَكٌ مِنْ مَيْتٍ بِمَضِيْعَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعِلْمِ وَالْأَشْعَارِ وَالْخُطْبِ (١)
مَا فِيهِ لَوْ وَلَا لَوْ لَا فَتَنْقِصَهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكَتْهُ حِرْفَةُ الْأَدَبِ

ومن رجالنا النقيب أبو أحمد الحسين بن موسى شيخُ نبي هاشم الطالبين والعباسيين في عصره ، ومن أطاعه الخلفاء والملوك في أقطار الأرض ورجعوا إلى قوله ، وابناه عليّ ومحمد وهما المرتضى والرضي ، وهما فريدا العصر في الأدب والشعر والفقهِ والكلام ، وكان الرضى شجاعاً أديباً شديد الأنف .

(١) لعل بن بسام ، ابن خلکان ١ : ٢٥٩ .

ومن رجالنا القاسمُ بن عبدِ الرحيمِ بن عيسى بن موسى الهادى ، كان شاعراً ظريفاً .
ومن رجالنا القاسمُ بن إبراهيم طباطبا . صاحب المصنّفات والورع والدّعاء إلى الله وإلى
التوحيد والعدّل ومنازمة الظالمين ، ومن أولاده أمراء اليمين .

ومن رجالنا محمدُ الفأفأ بن إبراهيم الإمام ، كان سيّداً مقدّماً ، ولى الموسمَ وحجَّ
بالناس ، وكان الرشيد يُسايّره ، وهو مقنّع بطيّلسانه .

ومن رجالنا محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين صاحب أبي السرايا ، سادَّ
حدّثاً ، وكان شاعراً أديباً فقيهاً ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولما أُسِرَ وحلَّ إلى
المأمون أكرّمه وأفضّل عليه ، ورعى له فضله ونسبه .

ومن رجالنا موسى بن عيسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس ، كنيته
أبو عيسى ، وهو أجلُّ ولدِ عيسى وأنبأهم ، ولى الكوفة وسوّادها زماناً طويلاً للهديّ ،
ثم الهادى ، وولى المدينة وإفريقية ومصر الرشيد ، قال له ابن السّمك لما رأى تواضعه :
إنّ تواضعك فى شرفك لأحبُّ إلىّ من شرفك ؛ فقال موسى : إنّ قومنا - يعنى بنى هاشم -
يقولون : إنّ التواضع أحدُ مصائد الشرف .

ومن رجالنا موسى بن محمد أخو السّفّاح والمنصور ، كان نبيلاً عندهم ، هو وإبراهيمُ
الإمام لأُمٍّ واحدة ، رأى فى منامه قبل أن يصير من أمرهم ما صار أنّه دخل بُستانا فلم
يأخذ إلّا عنقوداً واحداً عليه من الحبِّ المتراصِّ ماربك به عليم ، فلم يؤلّده لإعيسى ، ثم
وُلد لعيسى من ظهره أحدٌ وثلاثون ذكراً وعشرون أنثى .

ومن رجالنا عبدُ الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام ، وهو
عبدُ الله الحض ، وأبوه الحسن بن الحسن ، وأمّه فاطمة بنتُ الحسين ، وكان إذا قيل : مَنْ

أَجْمَلُ النَّاسِ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ، فَإِذَا قِيلَ: مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ الْحُسَيْنِ، فَإِذَا قَالُوا: مَنْ أَشْرَفُ النَّاسِ؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْحُسَيْنِ.

وَمِنْ رِجَالِنَا أَخُوهُ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَعَمَّهُ زَيْدُ بْنُ الْحُسَيْنِ وَبَنُوهُ مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ
وَمُوسَى وَيَحْيَى؛ أَمَّا مُحَمَّدٌ وَإِبْرَاهِيمُ فَأَمْرُهُمَا شَهُورٌ، وَفَضْلُهُمَا غَيْرُ مُجْحُودٍ، فِي الْفِقْهِ وَالْأَدَبِ
وَالنُّسْكِ وَالشُّجَاعَةِ وَالسُّؤْدُودِ. وَأَمَّا يَحْيَى صَاحِبُ الدَّيْلَمِ فَكَانَ حَسَنَ الْمَذْهَبِ وَالْمُهْدَى، مَقْدَمًا
فِي أَهْلِ بَيْتِهِ، بَعِيدًا مِمَّا يُعَابُ عَلَى مِثْلِهِ، وَقَدْ رَوَى الْحَدِيثَ وَأَكْثَرَ الرَّوَايَةِ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ
مُحَمَّدٍ، وَرَوَى عَنْ أَكْبَرِ الْحَدِيثِيِّينَ، وَأَوْصَى جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ إِلَيْهِ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَإِلَى
وَلَدِهِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ. وَأَمَّا مُوسَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُسَيْنِ؛ فَكَانَ شَابًا نَجِيًّا صَبُورًا شَجَاعًا
سَخِيًّا شَاعِرًا.

وَمِنْ رِجَالِنَا الْحُسَيْنُ الْمَثَلِيُّ، وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، كَانَ مُتَأَلِّهَاً^(١) فَاضِلًا وَرِعًا، يَذْهَبُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَذْهَبَ
أَهْلِهِ. وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ مَقْدَمًا فِي
أَهْلِهِ، يُقَالُ: إِنَّهُ أَشْبَهُ أَهْلَ زَمَانِهِ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

وَمِنْ رِجَالِنَا عَيْسَى بْنُ زَيْدٍ، وَيَحْيَى بْنُ زَيْدٍ أَخُوهُ، وَكَانَا أَفْضَلَ أَهْلِ زَمَانِهِمَا شَجَاعَةً
وَزُهْدًا وَفَقْهًا وَنُسْكًَا.

وَمِنْ رِجَالِنَا يَحْيَى بْنُ عَمْرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ زَيْدٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ. كَانَ قَفِيهَا
فَاضِلًا شَجَاعًا فَصِيحًا شَاعِرًا، وَيُقَالُ: إِنَّ النَّاسَ مَا أَحْبَبُوا طَالِبِيًّا قَطَّ دَعَا إِلَى نَفْسِهِ حَبَّ مِثْلِهِمْ
يَحْيَى، وَلَا رَثِي أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمِثْلِ مَارِثِي بِهِ.

(١) مُتَأَلِّهَاً: مُتَعَبِّدًا.

قال أبو الفرج الأصفهاني: كان يحيى فارساً شجاعاً شديد البدن، مجتمِع القلب، بعيداً عن زهو الشباب وما يُعابُ به مثله، كان له عمودٌ حديدٌ ثقيلٌ يصحبه في منزله، فإذا سَخِطَ على عبدٍ أو أمةٍ من حشمه لَوَاهُ في عنقه فلا يَقْدِرُ أحدٌ أن يحلّه عنه حتى يحلّه هو^(١).
ومن رجالنا محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام صاحب الطالقان؛ لُقِبَ بالصوفي لأنه لم يكن يلبس إلا الصوف الأبيض، وكان عالماً فقيهاً، دينياً زاهداً، حسن المذهب، يقول بالعدل والتوحيد.

ومن رجالنا محمد بن علي بن صالح بن عبد الله بن موسى بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام. كان من فتيان آل أبي طالب وفتاً بهم وشجعانهم وظرفائهم وشعرائهم، وله شعرٌ لطيف محفوظ.
ومنهم أحمد بن عيسى بن زيد، كان فاضلاً عالماً مقدّماً في عشيرته، معروفاً بالفضل؛ وقد روى الحديث ورؤى عنه.

ومن رجالنا موسى بن جعفر بن محمد - وهو العبد الصالح - جَمَعَ من الفقه والدين والنسك والحلم والصبر. وابنه علي بن موسى المرشح للخلافة، والمخطوب له بالعهد، كان أعلم الناس، وأسخى الناس، وأكرم الناس أخلاقاً.

قالوا: وأما ما ذكرتم من أمر الشجرة الملعونة، فإنّ المفسرين كلهم قالوا ذلك ورووا فيه أخباراً كثيرة عن النبي صلى الله عليه وآله، ولستم قادرين على جحد ذلك، وقد عرّقتكم تأخركم عن الإسلام وشدة عداوتكم للرّسول الداعي إليه، ومحاربتكم في بدر وأحد والخندق، وصدّكم الهدى عن البيت، وليس ذلك مما يوجب أن يعمّم اللّعن حتى

لا يفادر واحدا ، فإن زعم ذلك زاعمٌ فقد تعدّى . وأما اختصاصُ محمد بن عليّ بالوصية والخلافة دون إخوته ؛ فقد علمتم أن وراثته السيادة والمرتبة ليس من جنس وراثته الأموال ؛ ألا ترى أن المرأة والصبي والمجنون يرثون الأموال ولا يرثون المراتب ! وسواء في الأموال ، كان الابن حارِضا^(١) باثرا ، أو بارعا جامعاً .

وقيل : وراثته المقام سبيلُ وراثته اللواء ، دفع رسول الله صلى الله عليه وآله لواء بني عبد الدار إلى مُصعب بن عمير ، ودفع عمر بن الخطاب لواء بني تميم إلى وكيع بن بشر ، ثم دفعه إلى الأحنف حين لم يوجد في بني زرارة مَنْ يستحق وراثته اللواء ؛ فإن كان الأمر بالسنن فإنما كان بين محمد بن عليّ وأبيه عليّ بن عبد الله أربع عشرة سنة ، كان عليّ يَحْضِبُ بالسَّواد ، ومحمد يَحْضِبُ بالحمرة ، فكان القادم يقدم عليهما ، والزائر يأتيهما ، فيظنُّ أكثرهم أن محمدا هو عليّ ، وأن عليا هو محمد ، حتى ربما قيل لعلّيّ : كيف أصبح الشيخ من علته ؛ ومتى رجَعَ الشيخ إلى منزله ؛ وأخرى أن أمه كانت العالية بنت عبد الله بن العباس ، فقد ولده العباس مرتين ، وولده جواد بن العباس ؛ كما ولده خيرهم وحبرهم ؛ ولم يكن لأحد من إخوته مثل ذلك . وكان بعض ولد محمد أسنَّ من عامة ولد عليّ ، ووُلِدَ محمد المهدى بن عبد الله المنصور والعباس بن محمد بن عليّ في عام واحد ، وكذلك محمد بن سليمان بن عليّ ، ولم يكن لأحد من ولد عليّ بن عبد الله بن العباس - وإن كانوا فضلاء نجباء كرماء نبلاء - مثل عقله ولا كجماله ؛ كان إذا دخل المدينة ومكة جلس الناس على أبواب دورهم والنساء على سطوحهنّ للنظر إليه ، والتعجب من كماله وبهائه ، وقد قاتل إخوته أعداءه في دفع الملك إلى ولده غير مكرهين ولا مجبرين ؛ عليّ أن محمدا إنما أخذ الأمر عن أساس مؤسس ، وقاعدة مقررّة ، ووصية انتقلت إليه من أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وأخذها أبو هاشم عن أبيه محمد ، وأخذها محمد عن عليّ بن أبي طالب أبيه .

(١) الحارِض : الفاسد .

قالوا : لما سمّت بنو أمية أبا هاشمٍ مَرَضَ فَرَجٍ مِنَ الشَّامِ وَقَيْدًا ^(١) يَوْمَ الْمَدِينَةِ ، فَمَرَّ بِالْحِمِيَةِ ^(٢) وَقَدْ أَشْفَى ، فَاسْتَدْعَى مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ فَدَفَعَ الْوَصِيَّةَ إِلَيْهِ ، وَعَرَّفَهُ مَا يَصْنَعُ ، وَأَخْبَرَهُ بِمَا سَيَكُونُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنِّي لَمْ أَدْفَعْهَا إِلَيْكَ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ، وَلَكِنَّ أَبِي أَخْبَرَنِي عَنْ أَبِيهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِذَلِكَ ، وَأَمَرَنِي بِهِ ، وَأَعْلَمَنِي بِلِقَائِي إِيَّاكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ، ثُمَّ مَاتَ فَتَوَلَّى مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ تَجْهِيْزَهُ وَدَفَنَهُ وَبَثَّ الدُّعَاةَ حَيْثُ دَفِنَ فِي طَلَبِ الْأَمْرِ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لِرِجَالِ الدَّعْوَةِ ، وَالْقَائِمِينَ بِأَمْرِ الدَّوْلَةِ ، حِينَ اخْتَارَهُمُ لِلتَّوَجُّهِ ، وَانْتَخَبَهُمُ لِلدَّعَاءِ ، وَحِينَ قَالَ بَعْضُهُمْ : نَدْعُو بِالْكُوفَةِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بِالْبَصْرَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بِالْجَزِيرَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِالشَّامِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بِمَكَّةَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بِالْمَدِينَةِ . وَاحْتَجَّ كُلُّ إِنْسَانٍ لِرَأْيِهِ ، وَاعْتَلَّ لِقَوْلِهِ - فَقَالَ مُحَمَّدٌ : أَمَّا الْكُوفَةُ وَسَوَادُهَا فَشَيْعَةُ عَلِيٍّ وَوَلَدِهِ ، وَأَمَّا الْبَصْرَةُ فَعُمَانِيَّةٌ تَدِينُ بِالْكَفِّ ، وَقَبِيلُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُقْتَوْلِ يَدِينُونَ بِمَجْمِيعِ الْفِرْقِ ، وَلَا يُعِينُونَ أَحَدًا ، وَأَمَّا الْجَزِيرَةُ فَحَرُورِيَّةٌ مَارِقَةٌ ، وَالخَارِجِيَّةُ فِيهِمْ فَاشِيَّةٌ ، وَأَعْرَابٌ كَأَعْلَاجٍ ^(٣) ، وَمُسْلِمُونَ فِي أَخْلَاقِ النَّصَارَى ، وَأَمَّا الشَّامُ فَلَا يَعْرِفُونَ إِلَّا آلَ أَبِي سُفْيَانَ ، وَطَاعَةَ بَنِي مَرْوَانَ ، عِدَاوَةً رَاسِخَةً ، وَجَهْلًا مَتْرَاكًا ؛ وَأَمَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَلَيْسَ يَتَحَرَّكُ مَعْنَا فِي أَمْرٍ نَاهَذَا مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَلَا يَقُومُ بِنَصْرِنَا إِلَّا شَيْعَتُنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِجُرَّاسَانَ ، فَإِنَّ هُنَاكَ الْعَدَدَ الْكَثِيرَ ، وَالْجَلْدَ الظَّاهِرَ ، وَصُدُورًا سَلِيمَةً ، وَقُلُوبًا مَجْتَمِعَةً ، لَمْ تَتَقَسَّمْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَتَوَزَّعْهَا النَّحْلُ ، وَلَمْ تَشْغَلْهَا دِيَانَةٌ ، وَلَا هَدَمَ فِيهَا فُسَادٌ ، وَلَيْسَ لَهُمُ الْيَوْمَ هَمٌّ ^(٤) الْعَرَبِ ، وَلَا فِيهِمْ تِجَارِبُ كَتِجَارِبِ الْأَتْبَاعِ مَعَ السَّادَاتِ ، وَلَا تَحَالَفٌ كَتَحَالَفِ الْقَبَائِلِ ، وَلَا عَصَبِيَّةٌ كَعَصَبِيَّةِ الْعَشَائِرِ ، وَمَا زَالُوا يُنَالُونَ وَيُمْتَهُونَ ، وَيُظْمَنُونَ فِيكَظْمُونُ ، وَيَنْتَظُرُونَ الْفَرَجَ ، وَيُؤْمَلُونَ

(١) الوقيذ : المريض المشرف على الهلاك .

(٢) الحمية ، كجهينة بلده بالبقاء . (٣) الأعلاج : جمع علاج ؛ الرجل من كفار العجم :

(٤) : « هم » .

دولة ، وهم جنده لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات وكلى ، وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات نخمة ، تخرج من أجواف منكرة .

وبعد ، فكأنى أتفاءلُ جانبَ المشرقِ فإنَّ مطعَ الشمسِ سراجُ الدنيا ، ومصباحُ هذا الخلقِ . نجاء الأمرُ كما دبر ، وكما قدر ، فإن كان الرأى الذى رأى صواباً فقد وافق الرشاد ، وطبّق المِفْصَل ، وإن كان ذلك عن رواية متقدّمة ، فلم يتلقَ بلك الرواية إلا عن نبوة .

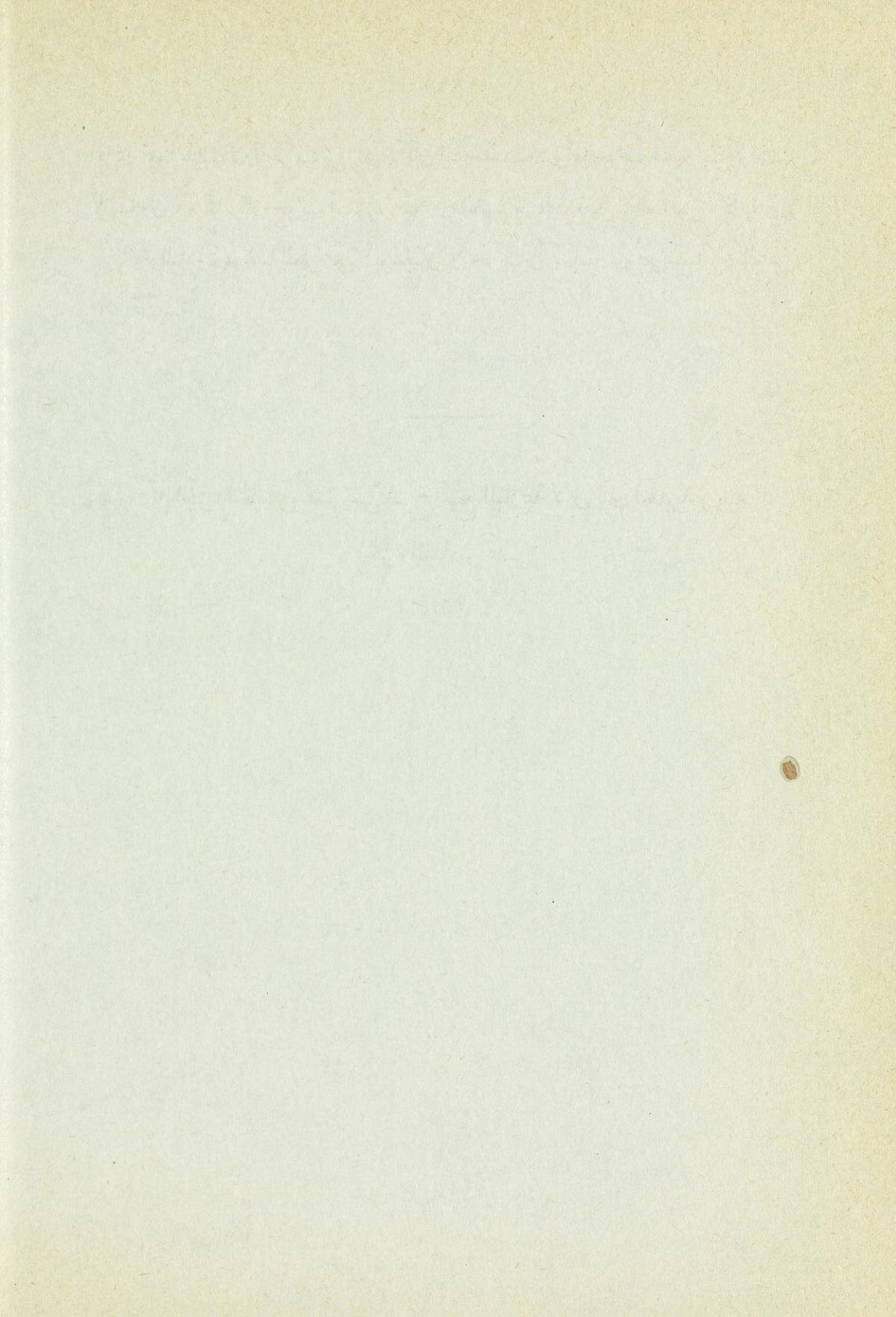
قالوا : وأما قولكم : إنَّ منا رجلاً مكَّت وأربعين سنة أميراً وخليفة ، فإنَّ الإمارة لا تعدّ فخراً مع الخلافة ، ولا تُضمُّ إليها ، ونحن نقول : إنَّ منا رجلاً مكَّت سبعاً وأربعين سنة خليفة ، وهو أحمد الناصر بن الحسن المستضى ؛ ومنا رجلاً مكَّت خمساً وأربعين سنة خليفة ، وهو عبد الله القائم ومكَّت أبوه أحمد القادر ثلاثاً وأربعين سنة خليفة ، فلكهما أكثر من ملك بنى أمية كلهم ، وهم أربع عشرة خليفة . ويقول الطالبيون : منا رجلاً مكَّت ستين سنة خليفة ، وهو معد بن الطاهر صاحب مصر ، وهذه مدة لم يبلغها خليفة ولا ملك من ملوك العرب في قديم الدهر ولا في حديثه .

وقلم لنا : عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء ، ونحن نقول : لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء ، جدّها المنصور خليفة ، وعمُّ أبيها السفاح خليفة وعمُّها المهدي خليفة ، وابن عمِّها الهادي خليفة ، وبعلمها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنا بعلمها المأمون والمعتمد خليفتان .

قالوا : وأما ما ذكرتموه من الأعياص والعنابس فإنا نسألكم فيما زعمتموه أصلاً بهذه التسمية ، وإنما سموا الأعياص لِمكانِ العيص وأبى العيص والعاص وأبى العاص ، وهذه أسماؤهم ، الأعلام ليست مشتقة من أفعال لهم كريمة ولا خسيصة . وأما العنابس ،

فإنما سُموا بذلك لأنَّ حَرَبَ بنِ أُمَيَّةٍ كانَ أَسْمُهُ عَنبَسَةَ ؛ وأما حَرَبٌ فَلَقَبُهُ ، ذَكَرَ ذَلِكَ النَّسَابُونَ ، وَلَمَّا كانَ حَرَبٌ أَمْثَلَهُمْ سَمَّوْا جَماعَتَهُمْ بِأَسْمِهِ ، فَقِيلَ : العَنابِسُ ، كما يُقالُ : المَهالِبَةُ والمَنادِرَةُ ، ولِهذا المَعنى سُمِّيَ أَبُو سَفيانِ بنِ حَرَبِ بنِ عَنبَسَةَ ، وَسُمِّيَ سَعِيدُ بنُ العاصِ ابْنَ عَنبَسَةَ .

تم الجزء الخامس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و يليه
الجزء السادس عشر



فهرس الخطب*

- ١٠ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٧٩ - ٨٠
- ١١ - من وصية له عليه السلام وصى بها جيشا بعثه إلى العدو ٨٩
- ١٢ - من وصية له عليه السلام أوصى بها معقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف ٩٢
- ١٣ - من كتاب له عليه السلام إلى أميرين من أمراء جيشه ٩٨
- ١٤ - من وصية له عليه السلام لعسكره بصفين قبل لقاء العدو ١٠٤
- ١٥ - من كلام كان يقوله عليه السلام إذا لقي عدوًا محاربا ١١٢
- ١٦ - من كلام كان يقوله لأصحابه عند الحرب ١١٤
- ١٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتاب منه إليه ١١٧
- ١٨ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن عباس وهو عامله على البصرة . ١٢٥
- ١٩ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ١٣٧
- ٢٠ - من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ١٣٨
- ٢١ - من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه أيضا ١٣٩
- ٢٢ - من كتاب له عليه السلام إلى ابن عباس ١٤٠
- ٢٣ - من كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصية لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم ١٤٣

(*) وهي الخطب الواردة في نهج البلاغة .

- ٢٤ - من وصية له عليه السلام بما يعمل في أمواله ، كتبها بعد
منصرفه بن صفين .
١٤٦ - ١٤٨
- ٢٥ - من وصية له عليه السلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات
١٥١ - ١٥٢
- ٢٦ - من عهد له عليه السلام إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة
١٥٨
- ٢٧ - من عهد له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر حين قلده مصر
١٦٣ - ١٧٠
- ٢٨ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا وهو من محاسن الكتب
١٨١ - ١٨٢
-

فهرس الموضوعات*

صفحة

٩-٣	عليه وسلم
١١-١٠	القول في الملائكة نزلت بأحد وقاتلت أم لا
١٩-١١	القول في مقتل حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه
٢٥-١٩	القول فيمن ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد
٤٣-٢٥	القول فيما جرى للمسلمين بعد إصعادهم في الجبل
٤٥-٤٤	القول فيما جرى للمشركين بعد انصرافهم إلى مكة
٤٨-٤٥	القول في مقتل أبي عزة الجمحي ومعاذ بن المغيرة
٥١-٤٨	القول في مقتل المجذّر بن زياد البلوى الحارث بن يزيد بن الصامت
٥٢-٥١	القول فيمن مات من المسلمين بأحد جملة
٥٤-٥٢	القول فيمن قتل من المشركين بأحد
٦٠-٥٥	القول في خروج النبي صلى الله عليه وسلم بعد انصرافه من أحد إلى المشركين ليوقع بهم على ماهو به من الوهن
٧٢-٦١	الفصل الخامس في شرح غزاة مؤتة
٧٨-٧٢	فصل في ذكر بعض مناقب جعفر بن أبي طالب
٩٧-٩٥	نبذ من الأقوال الحكيمة في الحروب

صفحة	
١٠٢-٩٨	فصل في نسب الأشتر وذكر بعض فضائله
١٠٣-١٠٢	نبد من الأقوال الحكيمة
١٠٦-١٠٥	نبد من الأقوال الحكيمة
١١١-١٠٧	قصة فيروز بن يزدجرد حين غزا ملك الهياطلة
١١٦-١١٥	نبد من الأقوال المتشابهة في الحرب
١٢٤-١٢٠	ذكر بعض ما كان بين علي ومعاوية يوم صفين
١٣٦-١٢٦	فصل في بني تميم وذكر بعض فضائلهم
١٨٠-١٧١	كتاب المعتضد بالله
١٨٧-١٨٤	كتاب لمعاوية إلى علي
١٩٨-١٩٥	مناكحات بني هاشم وبني عبد شمس
٢٥٧-١٩٨	فضل بني هاشم على بني شمس
٢٨٤-٢٥٧	مفاخر بني أمية
٢٨٤-٢٧٠	ذكر الجواب عما نخرت به بنو أمية
٢٩٥-٢٨٥	افتخار بني هاشم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السادس عشر

دار الحياة، المكتبة العربية
عيسى الباني الجليلي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م - ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - إيران ١٤٠٤ هـ ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

(٢٩)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة :

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَنْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَعْبُوا عَنْهُ ، فَعَفَوْتُ عَنْ
مُجْرِمِكُمْ ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ ، فَإِنْ خَطَّتْ بِكُمْ
الْأُمُورُ الْمُرْدِيَّةُ ، وَسَفَهُ الْآرَاءِ الْجَائِرَةِ ، إِلَى مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي ، فَهَذَا نَدَا قَدْ قَرَّبْتُ
جِيَادِي ، وَرَحَلْتُ رِكَابِي .

وَلَيْنَ الْجَائِئِمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَا وَقَعَنَّ بِكُمْ وَقَعَةٌ لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ
إِلَيْهَا إِلَّا كَلْعَقَةٍ لَاعِقٍ ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِدِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلُهُ ، وَلِدِي النَّصِيحَةِ
حَقَّهُ ، غَيْرَ مُتَجَاوِزٍ مُتَمَهِّمًا إِلَى بَرِيٍّ ، وَلَا نَاكِثًا إِلَى وَفِيٍّ .

الْبُرْج :

ما لم تغبوا عنه ، أى لم تسهوا عنه ولم تغفلوا ، يقال : غبيتُ عن الشيء أغبى غباوة ؛ إذا
لم يفتن ، وغبى الشيء على كذا إذا لم تعرفه ، وفلان غبى على « فمعل » ، أى قليل
الفطنة ، وقد تغابى ؛ أى تغافل ؛ يقول لهم : قد كان من خروجكم يوم الجمل عن الطاعة ،

ونشرِكم جبلَ الجماعة ، وشقاقِكم لي ما لستم أغبياء عنه ، ففغرت ورفعت السيف ،
وقبلت التوبة والإناة .

والمدبرها هنا : الهارب ، والمقبيل : الذي لم يفرّ؛ لكن جاءنا فاعتذر وتنصّل .
ثم قال : فإن خطت بكم الأمور ، خطأ فلان خُطوة يخطو ، وهو مقدار ما بين
القدمين ، فهذا لازم ، فإن عدّيته ، قات : أخطيت بفلان ، وخطوت به ، وها هنا
قد عدّاه بالبلاء .

والمردية : المهلكة ، والجائرة : العادلة عن الصواب . والمنابذة ، مفاعلة ، من نبذت
إليه عهدَه أي ألقيته وعدلت عن السلم إلى الحرب ، أو من نبذت زيدا ، أي اطرحته
ولم أحفل به .

قوله : « قرّبت جيادى » ، أي أمرت بتقريب خيلى إلى الأركب وأسير إليكم .
ورحلت ركابى ، الركاب الإبل ، ورحلتها : شدت على ظهورها الرّحل ، قال :
رَحَلَتْ سُمَيَّةٌ غُدُوَّةً أَجْمَالَهَا غَضَبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَّالَهَا^(١)

كلّعة لاعق ، مثل يضرب للشئ الحقير التافه ، ويروى بضم اللام ، وهى ما تأخذه
الملّعة .

ثم عاد فقال مازجا الحشونة باللين : مع أنى عارف فضل ذى الطاعة منكم ، وحقّ
ذى النصيحة ، ولو عاقبت لما عاقبت البرىء بالسقيم ، ولا أخذت الوفى بالنّاكث .

خطب زياد بالبصرة الخطبة الغراء المشهورة ، وقال فيها : والله لأخذن البرىء بالسقيم ،
والبرىء باللئيم ، والوالد بالولد ، والجار بالجار ، أو تستقيم إلى قناتكم . فقام أبو بلال مرداس

ابن أديّة يهمس ، وهو حينئذ شيخ كبير ، فقال : أيها الأمير ، أنبأنا الله بخلاف ما قلت ،
وحكم بغير ما حكمت ، قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (١) ، فقال زياد :
يا أبا بلال ، إنى لم أجهل ما علمت ؛ ولكننا لا نخلص إلى الحق منكم حتى نخوض إليه
الباطل خوفاً .

وفي رواية الرياشي : «لأخذن الولي بالولي» ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والصحيح
بالسقيم ، حتى يلتقى الرجل منكم أخاه فيقول : انجُ سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لي
قناتكم .

الأضل:

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَاتَّقِ اللَّهَ فِيمَا لَدَيْكَ ، وَأَنْظِرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ ، وَأَرْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذِرُ
بِجَهَالَتِهِ ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَامًا وَاضِحَةً ، وَسُبُلًا نِيرَةً ، وَمَحَجَّةً مَهْجَةً ، وَغَايَةَ مُطْلَبَةً ،
يَرُدُّهَا إِلَّا كِيَّاسٌ ، وَيُخَالِفُهَا إِلَّا أَنْكَاسٌ ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ ، وَخَبَطَ
فِي التِّيهِ ، وَغَيَّرَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ ، وَأَحْلَلَ بِهِ نِقْمَتَهُ .

فَنَفْسِكَ نَفْسِكَ ! فَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَكَ ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ ،
فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَى غَايَةِ خُسْرٍ ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرًّا ،
وَأَفْحَمَّتْكَ غِيًّا ، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ ، وَأَوَعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ .

الْبُخ:

قوله : « وغاية مُطلبة » ؛ أي مساعفة لطالبيها بما يطلبه ، تقول: طلب فلان مِني كذا
فأطلبته ؛ أي أسففت به . قال الراونديّ: مُطلبة بمعنى متطلّبة ، يقال: طلبت كذا وتطلّبتّه ؛
وهذا ليس بشيء ، ويخرج الكلام عن أن يكون له معنى .

والأكياس : العقلاء ، والأنكاس : جمع نكس ؛ وهو الدنيء من الرجال ،
ونكب عنها : عدل .

قوله : « وحيث تناهت بك أمورك » ، الأولى ألا يكون هذا معطوفا ولا متصلا

بقوله ، فقد بين الله لك سبيلك ، بل يكون كقولهم لمن يأمرونه بالوقوف : حيث أنت ، أى قف حيث أنت ؛ فلا يذكرون الفعل ؛ ومثله قولهم : مكانك ، أى قف مكانك .

قوله : « فقد أجزيت » ، يقال : فلان قد أجرى بكلامه إلى كذا ، أى الغاية التى يقصدها هى كذا ، مأخوذ من إجراء الخيل للمسابقة ، وكذلك قد أجرى بفعله إلى كذا ، أى انتهى به إلى كذا . وروى : « قد أوحتك شراً » أو أورطتك فى الوحل ، والنّى ضدُّ الرشاد .

وأقحمتك غيياً : جعلتك مقتحماً له .

وأوعرت عليك المسالك : جعلتها وعرة .

وأول هذا الكتاب :

أما بعد ، فقد بلغننى كتابك تذكر مشاغبتى ، وتستقبح موازرتى ، وتزعمنى متحيراً وعن الحق مقصراً ، فسبحان الله ، كيف تستجيز الغيبة ، وتستحسن العضية ! إئننى لم أشاغب إلا فى أمر معروف ، أو نهى عن منكر ، ولم أتجبر^(١) إلا على باغٍ مارق ، أو ملحد منافق ، ولم آخذ فى ذلك إلا بقول الله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ ﴾^(٢) ، وأما التقصير فى حق الله تعالى فعاذ الله ! وإنما المقصر فى حق الله جل ثناؤه من عطل الحقوق المؤكدة ، وركن إلى الأهواء البتدعة ، وأخذ إلى الضلالة المحيرة ؛ ومن العجب أن تصف يا معاوية الإحسان ، وتخالف البرهان ، وتنكث الوثائق التى هى لله عز وجل طلبية ، وعلى عباده حجة ، مع نبذ الإسلام ، وتضييع الأحكام ، وطمس الأعلام ،

(١) ب « ولم أضجر » وما أثبتته عن « د » .

(٢) سورة المجادلة ٢٢

والجرى فى الهوى ، والتهوس^(١) فى الردى ، فاتق الله فيما لديك ، وانظر فى حقّه عليك ...
الفصل المذكور فى الكتاب .

وفى الخطبة زيادات يسيرة لم يذكرها الرضى رحمه الله ، منها :
وإنّ للناس جماعة يد الله عليها ، وغضب الله على من خالفها ، فنفسك نفسك قبل
حلول رمسك ، فإنك إلى الله راجع ، وإلى حشره مهطع^(٢) وسيبهظك كربه ، ويحلّ بك
نمته ، فى يوم لا يغنى النادم ندمه ، ولا يقبل من المعتذر عذره ، ﴿ يوم لا يغنى مولى
عن مولى شيئاً ولا هم يُنصرون ﴾^(٣) .

(٢) المهطع : الذى ينظر فى ذل وخشوع .

(١) التهوس فى الردى : الوقوع فيه

(٣) سورة الدخان ٤١ .

الأضل:

ومن وصيته عليه السلام للحسن عليه السلام كتبها إليه بمحاضرين عند
انصرافه من صفين :

مِنَ أَوْلَادِ الْفَنَانِ ، الْمُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ ، الذَّامِّ
لِلدُّنْيَا ، السَّاكِنِ مَسَاكِنِ الْمَوْتَى ، الطَّاعِنِ عَنْهَا غَدًا .
إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمَّلِ مَا لَا يُدْرِكُ ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ ؛ غَرَضِ
الْأَسْقَامِ ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا ، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ ، وَغَرِيمِ
الْمَنَابَا ، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ ، وَنُصْبِ الْآفَاتِ ،
وَصَرِيحِ الشَّهَوَاتِ ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ .

الشنخ:

[ترجمة الحسن بن عليّ وذكر بعض أخباره]

قال الزبير بن بكار في كتاب "أنساب قريش" : ولد الحسن بن عليّ عليه السلام
لنصف من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله
حسنًا ، وتوفّي ليالي خلون من شهر ربيع الأول سنة خمسين .

قال : والمروى أن رسول الله صلى الله عليه وآله سمّى حسنًا وحسينًا رضي الله عنهما
يوم سابعهما ، واشتق اسم حسين من اسم حسن .

قال : وروى جعفر بن محمد عليه السلام أن فاطمة عليها السلام حلقت حسنا وحُسينا يوم سابعهما ووزنت شعرهما فتصدّقت بوزنه فضة .

قال الزُّبير : وروت زينب بنت أبي رافع ، قالت : أتت فاطمة عليها السلام بابنيها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في شكّوه^(١) الذي توفّي فيه ، فقالت : يا رسول الله ، هذان ابناك ، فورثتهما شيئاً ؛ فقال : أما حسن فإن له هيبتي وسوددي ، وأما حسين فإن له جراتي وجودي .

وروى محمد بن حبيب في أماليه أن الحسن عليه السلام حجّ خمس عشرة حجّة ماشياً تقاد الجنائب معه ، وخرج من ماله مرتين ، وقاسم الله عزّ وجلّ ثلاث مرات ماله ؛ حتى أنه كان يعطى نعلاً ويمسك نعلاً ، ويعطى خُفّاً ، ويمسك خُفّاً .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب أيضاً أن الحسن عليه السلام أعطى شاعراً ، فقال له رجل من جلسائه : سبحان الله ! أعطى شاعراً يعصى الرحمن ، ويقول البهتان ! فقال : يا عبد الله ، إن خير ما بذلت من مالك ما وقّيت به عرضك ؛ وإن من ابتغاء الخير اتقاء الشرّ .

وروى أبو جعفر ، قال : قال ابنُ عباسٍ رحمه الله : أوّل ذلّ دخل على العرب موتُ الحسن عليه السلام .

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : سقى الحسن عليه السلام السمّ أربع مرات ، فقال : لقد سقيته مرارا فما شقّ علىّ مثل مشقته هذه المرّة . فقال له الحسين عليه السلام : أخبرتني من سقاك ؟ قال : لتقتله ؟ قال : نعم ؛ قال : ما أنا بمخبرك ؛ إن يكن صاحبي الذي أظنّ فالله أشدّ نعمة ، وإلا فما أحبُّ أن يُقتل بي برىء .

(١) الشكو : المرض .

وروى أبو الحسن ، قال : قال معاوية لابن عباس ، ولقيه بمكة : يا عجباً من وفاة الحسن ! شرب علّة بماء رومة^(١) ، ففضى نحبّه ، فوجّم ابنُ عباس ، فقال معاوية : لا يحزنك الله ولا يسوءك ، فقال : لا يسوءني ما أبقاك الله ! فأمر له بمائة ألف درهم .

وروى أبو الحسن قال : أوّل من نعى الحسنَ عليه السلام بالبصرة عبد الله بن سلمة ، نعاه لزياد ، فخرج الحكم بن أبي العاص الثقفيّ ، فنعاه ، فبكى الناس - وأبو بكره يومئذ مريض ، فسمع الضجّة ، فقال : ما هذا ؟ فقال امرأته ميسة بنت سخام الثقفيّة : مات الحسن بن عليّ ، فالحمد لله الذي أراح الناس منه ! فقال : اسكتي ويحك ! فقد أراحه الله من شرّ كثير ، وفقد الناسُ بموته خيراً كثيراً ، يرحم الله حسناً !

قال أبو الحسن المدائنيّ : وكانت وفاته في سنة تسع وأربعين ، وكان مرضه أربعين يوماً ، وكانت سنّه سبعمائة وأربعين سنة ، دسّ إليه معاوية سمّاً على يد جعدة بنت الأشعث ابن قيس زوجة الحسن ، وقال لها : إن قتلتيه^(٢) بالسّمّ فلك مائة ألف ، وأزوّجك يزيد ابني . فلما ماتَ وقي لها بالمال ، ولم يزوّجها من يزيد . قال : أخشى أن تصنع بابني كما صنعت بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب عن المسيّب بن نجبة ، قال : سمعتُ أمير المؤمنين عليه السلام ، يقول : أنا أحدثكم عنّي وعن أهل بيتي ؛ أمّا عبد الله ابن أخي فصاحب لهو وسباح ، وأمّا الحسنُ فصاحب جفنة وخوان ، فتّى من فتیان قريش ؛ ولو قد التقت حلقنا البيطان^(٣) لم يُغن عنكم شيئاً في الحرب ، وأمّا أنا وحسين فنحن منكم وأنتم منّا .

(١) د : « بماء رومة » . (٢) د : « قتلتيه » .

(٣) مثل يضرب للأمر إذا اشتد وجاوز الحد .

قال أبو جعفر : وروى ابن عباس ، قال : دخل الحسن بن عليّ عليه السلام على معاوية بعد عام الجماعة وهو جالس في مجلس ضيق ، فجلس عند رجله ، فتحدّث معاوية بما شاء أن يتحدّث ، ثم قال : عجبا لعائشة ! تزعم أنّي في غير ما أنا أهله . وأنّ الذي أصبحت فيه ليس لي بحقّ ، مالها ولهذا ! يغفر الله لها ، إنما كان ينازعني في هذا الأمر أبو هذا الجالس ، وقد استأثر الله به ؛ فقال الحسن : أو عجب ذلك يا معاوية ! قال : إي والله ، قال : أفلا أخبرك بما هو أعجب من هذا ؟ قال : ما هو ؟ قال : جلوسك في صدر المجلس وأنا عند رجلك ؛ فضحك معاوية ، وقال : يا ابن أخي ، بلغني أنّ عليك ديناً ، قال : إن لعلّ ديناً ، قال : كم هو ؟ قال : مائة ألف ، فقال : قد أمرنا لك بثلثمائة ألف ؛ مائة منها لدينك ، ومائة تقسمها في أهل بيتك ، ومائة لخاصة نفسك ؛ فقم مكرماً ، واقبض صلتك . فلما خرج الحسن عليه السلام ، قال يزيد بن معاوية لأبيه : تالله ما رأيت رجلاً استقبلك بما استقبلك به ؛ ثم أمرت له بثلثمائة ألف ! قال : يا بنيّ ، إن الحقّ حقهم ، فمن أتاك منهم فاحث له .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب ، قال : قال عليّ عليه السلام : لقد تزوّج الحسن وطلق حتى خفت أن يثير عداوة ، قال أبو جعفر : وكان الحسن إذا أراد أن يطلق امرأة جلس إليها ، فقال : أيسرك أن أهبّ لك كذا وكذا ؟ فتقول له ماشئت ، أو نعم ؛ فيقول : هو لك ؛ فإذا قام أرسل إليها بالطلاق ؛ وبما سمّي لها .

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : تزوّج الحسن بن عليّ عليه السلام هنداً بنت سهيل ابن عمرو . وكانت عند عبد الله بن عامر بن كُرَيْز ، فطلقها - فكتب معاوية إلى أبي هريرة أن يخطبها على يزيد بن معاوية ، فلقية الحسن عليه السلام ، فقال : أين تريد ؟ قال : أخطب هنداً بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية ، قال الحسن عليه السلام :

فاذكرني لها ، فأتاها أبو هريرة ، فأخبرها الخبر ، فقالت : اختر لي ، فقال : أختار لك الحسن . فتزوجته ، فقدم عبد الله بن عامر المدينة فقال للحسن : إن لي عند هند وديعةً ، فدخل إليها والحسن معه ، فخرجت حتى جلست بين يدي عبد الله بن عامر ، فرق لها رقة عظيمة^(١) ، فقال الحسن : ألا أنزل لك عنها ؟ فلا أراك تجد محللاً خيراً لكأمني ! قال : لا ، ثم قال لها : وديعتي ، فأخرجت سَفَطَيْنِ فِيهِمَا جَوْهَرٌ ؛ ففتحهما وأخذ من أحدهما قبضة وترك الآخر^(٢) عليها ؛ وكانت قبل ابن عامر عند عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ؛ فكانت تقول : سيدهم جميعاً الحسن ، وأسخاهم ابن عامر ، وأحبهم إليّ عبدُ الرحمن بن عتاب .

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : تزوج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلّقها ، فخطبها المنذر ، فأبت أن تتزوجه ، وقالت : شهرّ بي ! فخطبها عاصم بن عمر بن الخطاب ، فتزوجها ، فأبلغه المنذر عنها شيئاً فطلّقها ؛ فخطبها المنذر ، فقيل لها : تزوجيه ، فقالت : لا والله ما أنعمل ؛ وقد فعل بي ما قد فعل مرتين ؛ لا والله لا يراني في منزله أبداً .

وروى المدائني ، عن جويرية بن أسماء ، قال : لما مات الحسن عليه السلام ، أخرجوا جنازته ، فحمل مروان بن الحكم سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : تحمل اليوم جنازته وكنت بالأمس تجرّعه الفيظ ؟ قال مروان : نعم ؛ كنت أفعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال .

وروى المدائني عن يحيى بن زكريا ، عن هشام بن عروة ، قال : قال الحسن عند وفاته : ادفنوني عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ إلا أن تخافوا أن يكون في ذلك شرٌّ ، فلما أرادوا دفنه ، قال مروان بن الحكم : لا يدفن عثمان في حشّ كوكب^(٣) ، ويدفن الحسن هاهنا ،

(١) د : « شديدة » . (٢) د : « الباقي » .

(٣) حش كوكب ، بفتح أوله وتشديد ثانيه : موضع عند بقيع النرقد ، اشتراه عثمان رضي الله عنه ، وزاده في البقيع ، ولما قتل أتي معه .

فاجتمع بنو هاشم وبنو أمية ، وأعان هؤلاء قوم وهؤلاء قوم ، وجاءوا بالسلاح ، فقال أبو هريرة لمروان : أتمنع الحسن أن يدفن في هذا الموضع ، وقد سمعت رسول الله صلى عليه وآله يقول : « الحسن والحسين سيّد شباب أهل الجنة » ! قال مروان : دعنا منك ، لقد ضاع حديث رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كان لا يحفظه غيرك وغير أبي سعيد الخدري ! وإنما أسلمت أيام خيبر ، قال أبو هريرة ؛ صدقت ، أسلمت أيام خيبر ، ولكنني لزمّت رسول الله صلى الله عليه وآله ولم أكن أفارقه ؛ وكنت أسأله ، وعُنيّت بذلك حتى علمت من أحبّ ومن أبغض ، ومن قرّب ومن أبعّد ، ومن أقرّ ومن نفى ، ومن لعن ومن دعا له ؛ فلما رأت عائشة السلاح والرجال ، وخافت أن يعظم الشرّ بينهم ، وتسفك الدماء ، قالت : البيت بيتي ، ولا آذن لأحد أن يُدفن فيه ، وأبى الحسين عليه السلام أن يدفنه إلا مع جدّه ؛ فقال له محمد بن الحنفية : يا أخي ، إنه لو أوصى أن ندفنه لدفناه أو نموت قبل ذلك ، ولكنه قد استثنى ، وقال : « إلا أن تخافوا الشرّ » ، فأى شرّ يرى أشدّ مما نحن فيه ! فدفنوه^(١) في البقيع .

قال أبو الحسن المدائنيّ : وصل نعيّ الحسن عليه السلام إلى البصرة في يومين وليلتين ، فقال الجارود : بن أبي سبرة^(٢) :

إذا كان شرّاً سارَ يوماً وليلةً وإن كان خيرٌ أحرّ السّيرَ أربعاً

إذا ما برّيد الشرّ أقبل نحوّنا بإحدى الدّواهي الرّبّ دساراً وأسرعاً

وروى أبو الحسن المدائنيّ ، قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلّح الحسن عليه السلام له فأرسل معاوية إلى الحسن عليه السلام يسأله أن يخرج فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك وهو لي حلال لصلاح الأمة وألفتهم ، أفتراني أقاتل معك ! نخطب معاوية أهل الكوفة ، فقال : يا أهل الكوفة ،

(١) د : « فدفن » . (٢) د : « هيرة » .

أترؤني قاتلتكم على الصلّاة والزّكاة والحجّ ، وقد علمتُ أنّكم تصلّون وتركّون
وتحجّون ؛ ولكنني قاتلتكم لأتأمّر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم
كارهون ؛ ألا إنّ كلّ مالٍ أو دمٍ أصيب في هذه الفتنة فطلّولٌ ، وكلّ شرط شرطته
فنتحت قدميّ هاتين ؛ ولا يُصلّح الناسَ إلاّ ثلاث : إخراج العطاء عند محله ، وإيقال الجنود
لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنّهم إن لم تغزوهم غزوّكم . ثم نزل .

قال المدائنيّ : فقال المسيّب بن نجبة للحسن عليه السلام : ما ينقض عجبني منك !
بايعة معاوية ومعك أربعون ألفا ، ولم تأخذ لنفسك وثيقةً وعقدا ظاهرا ، أعطاك أمرا
فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أريد بها^(١) غيرك ، قال . فما ترى ؟ قال : أرى
أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينه وبينك . فقال : يامسيّب ، إنني لو أردت
بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية بأصبر عند اللقاء ، ولا أثبت عند الحرب منّي ، ولكنني أردت
صلاحتكم ، وكفّ بعضكم عن بعض ؛ فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح برّ ،
أو يُستراح من فاجر .

قال المدائنيّ ودخل عبّيدة بن عمرو الكنديّ على الحسن عليه السلام - وكان
ضرب على وجهه ضربة وهو مع قيس بن سعد بن عبادة - فقال : ما الذي أرى بوجهك ؟
قال : أصابني مع قيس . فالتفت حُجْر بن عدى إلى الحسن ، فقال : لوددت أنك كنت
متّ قبل هذا اليوم ، ولم يكن ما كان ، إنّا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين
بما أحبّوا . فتغيّر وجه الحسن ، وغمز الحسين عليه السلام حُجْرا ، فسكت ، فقال الحسن
عليه السلام : يا حُجْر ، ليس كلّ الناس يحبّ ما تحبّ ولا رأيه كراييك ، وما فعلت
إلا إبقاءً عليك ، والله كلّ يوم في شأن .

(١) عبارة د : « ما أريد بما قال غيرك » .

قال المدائني: ودخل عليه سفيان بن أبي ليلى النهدي، فقال له: السلام عليك يا مذلَّ المؤمنين! فقال الحسن: اجلس يرحمك الله، إن رسول الله صلى الله عليه وآله رُفِعَ له مُلْكُ بنى أمية، فنظر إليهم يعلون منبره واحدا فواحدا، فشق ذلك عليه، فأنزل الله تعالى في ذلك قرآنا قال له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾^(١). وسمعت علياً أبي رحمه الله يقول: سيلى أمر هذه الأمة رجل واسع البلعوم، كبير البطن، فسألته: من هو؟ فقال: معاوية. وقال لى: إن القرآن قد نطق بملك بنى أمية ومدتهم، قال تعالى: ﴿كَلِيلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٢)، قال أبى: هذه ملك بنى أمية.

قال المدائني: فلما كان عام الصلح، أقام الحسن عليه السلام بالكوفة أياماً، ثم تجهز للشخص إلى المدينة، فدخل عليه المسيب بن نجبة الفزاري وظبيان بن سحارة التيمي ليودعاه، فقال الحسن: الحمد لله الغالب على أمره؛ لو أجمع الخلق جميعاً على ألا يكون ما هو كائن ما استطاعوا. فقال أخوه الحسين عليه السلام: لقد كنت كارها لما كان طيب النفس على سبيل أبى حتى عزم على أخى، فأطعته، وكأنما يجذ أنفى بالمواسى، فقال المسيب: إنه والله ما يكبر علينا هذا الأمر إلا أن تضاموا وتنتقصوا، فأما نحن، فإنهم سيطلبون مودتنا بكل ما قدروا عليه، فقال الحسين: يامسيب، نحن نعلم أنك تحبنا، فقال الحسن عليه السلام: سمعت أبى يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «من أحب قوماً كان معهم»، فعرض له المسيب وظبيان بالرجوع، فقال: ليس [لى]^(٣) إلى ذلك سبيل، فلما كان من غدٍ خرج، فلما صار بديرٍ هندٍ نظر إلى الكوفة، وقال: وَلَا عَنْ قَلِيٍّ فَارَقْتُ دَارَ مَعَاشِرِي هُم المانعون حَوَزَتِي وَذِمَارِي

(١) سورة الإسراء: ٦٠ . (٢) سورة القدر ٣ .

(٣) من «د» .

ثم سار إلى المدينة .

قال المدائني : فقال معاوية يومئذ للوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط بمد شخصي الحسن عليه السلام : يا أبا وهب ، هل رمت ؟ قال : نعم ، وسموت .

قال المدائني : أراد معاوية قول الوليد بن عقبة يحرّضه على الطلب بدم عثمان :

أَلَا أَبْلُغُ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ فَإِنَّكَ مِنْ أَخِي ثِقَةَ مُلِيمٍ^(١)
قَطَعْتَ الدَّهْرَ كَالسِّدِّمِ الْعَتِيِّ تَهْدَرُ فِي دِمَشْقٍ وَلَا تَرِيمُ^(٢)
فَلَوْ كُنْتَ الْقَتِيلَ وَكَانَ حَيًّا لَشَمَّرَ لَا أَلْفٌ وَلَا سَثُومُ
وَإِنَّكَ وَالْكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ كِدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ^(٣)

وروى المدائني ، عن إبراهيم بن محمد ، عن زيد بن أسلم ، قال : دخل رجل على الحسن عليه السلام بالمدينة ، وفي يده صحيفة ، فقال له الرجل : ما هذه ؟ قال : هذا كتاب معاوية ، يتوعدّ فيه على أمر كذا ، فقال الرجل : لقد كنت على النصف ، فما فعلت ؟ فقال له الحسن عليه السلام : أجل ، ولكنني خشيت أن يأتي يوم القيامة سبعون ألفا أو ثمانون ألفا ، تشخب أوداجهم دما ، كلهم يستعدي الله فيم هُريق دمه !

قال أبو الحسن : وكان الحصين^(٤) بن المنذر الرقاشي يقول : والله ما وفي معاوية للحسن بشيء مما أعطاه ؛ قتل حُجْرًا وأصحاب حُجْر^(٥) ، وبايع لابنه يزيد ، وسم الحسن .

(١) المليم : من أتى من الأمر ما يلام عليه .

(٢) في اللسان : « السدم : الذي يرغب عن خلقه فيجال بينه وبين الألفه ويقيد إذا هاج فبرعى حوالى الدار ، وإن صال جعل له حجام يمنعه عن فتح فمه ، ومنه قول الوليد بن عقبة . . . واستشهد بالبيت .

(٣) الحلم ، بالتحريك : فساد الجلد ؛ قال صاحب اللسان في شرح البيت : « يقول أنت تسمى في بي إصلاح أمر قد تم فساده ؛ كهذه المرأة التي تدبغ الأديم الحلم الذي وقعت فيه الحلة فنقبت وأفسدته فلا ينتفع به » .

(٤) د : « الحصين » ، (٥) حجر بن عدى .

قال المدائنيّ : وروى أبو الطفيل ، قال : قال الحسن عليه السلام لمولّى له : أتعرف معاوية بن خديج ؟ قال : نعم ، قال : إذا رأيته فأعلمني ؛ فراه خارجاً من دار عمرو ابن حريث ، فقال : هو هذا ! فدعاه ، فقال له : أنت الشّاتم عليّاً عند ابن آكلة الأكباد ! أما والله لئن وردت الحوض ولم ترده لترينه مشمرا عن ساقيه ، حاسرا عن ذراعيه ، يذود عنه المنافقين .

قال أبو الحسن : وروى هذا الخبر أيضا قيس بن الربيع ، عن بدر^(١) بن الخليل ، عن مولى الحسن عليه السلام .

قال أبو الحسن : وحدّثنا سليمان بن أيّوب ، عن الأسود^(٢) بن قيس العبدىّ ، أنّ الحسن عليه السلام لقي يوماً حبيب بن مسلمة فقال له : يا حبيب ، ربّ مسيرٍ لك في غير طاعة الله ! فقال : أمّا مسيرى إلى أبيك فليس من ذلك ، قال : بلى والله ؛ ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك في دنياك ، لقد قعد بك في آخرتك ، ولو كنت إذ فعلت شرّاً قلت خيراً ، كان ذلك ، كما قال عز وجل : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾^(٣) ، ولكنك كما قال سبحانه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٤) .

قال أبو الحسن : طلب زياد رجلاً من أصحاب الحسن ، ممن كان في كتاب الأمان ، فكتب إليه الحسن :

من الحسن بن عليّ إلى زياد ؛ أمّا بعد ؛ فقد علمت ما كنّا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لي فلان أنّك تعرّضت له ، فأحبّ ألاّ تعرّض له إلاّ بخير . والسلام .

(١) في د : « زيد » . (٢) د : « أبي الأسود » .

(٣) سورة التوبة ١٠٢ . (٤) سورة المطففين ١٤ .

فلما آتاه الكتاب ، وذلك بعد ادعاء معاوية إياه غضب حيث لم ينسبه إلى أبي سفيان ، فكتب إليه :

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن ؛ أما بعد ، فإنه آتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وإيم الله لأطلبنه بين جلدك ولحمك ، وإن أحب الناس إليّ لهما أن آكله لآحمت أنت منه [والسلام] (١) .

فلما قرأ الحسن عليه السلام الكتاب ، بعث به إلى معاوية ، فلما قرأه غضب وكتب :

من معاوية بن أبي سفيان إلى زياد . أما بعد ، فإن لك رأيين : رأيا من أبي سفيان ورأيا من سمية ، فأما رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم ، وأما رأيك من سمية فما يكون من مثلها . إن الحسن بن عليّ عليه السلام كتب إليّ بأنك عرضت لصاحبه ، فلا تعرض له ، فإنني لم أجعل [لك] (١) عليه سبيلا ؛ وإن الحسن ليس ممن يرمى به الرجوان (٢) ، والعجب من كتابك إليه لا تنسبه إلى أبيه أو إلى أمه ، فالآن حين اخترت له ، والسلام .

* * *

قلت : جرى في مجلس بعض الأكابر وأنا حاضر القول في أن عليا عليه السلام شرف فاطمة عليها السلام فقال إنسان كان حاضر المجلس : بل فاطمة عليها السلام شرفت به وخاض الحاضرون في ذلك بعد إنكارهم تلك اللفظة ، وسألني صاحب المجلس أن أذكر ما عندي في المعنى وأن أوضح : أيما أفضل : عليٌّ أم فاطمة ؟ فقلت : أمّا أيهما أفضل ؛ فإن أريد بالأفضل الأجمع للمناقب التي تتفاضل بها الناس ، نحو العلم والشجاعة ونحو ذلك ، فعليٌّ أفضل ، وإن أريد بالأفضل الأرفع منزلةً عند الله ، فالذي

(١) عن « د » .

(٢) الرجوان: ثنية رجا ، والرجا مقصور: ناحية كل شيء . ويقال : رمى به الرجوان: إذا استهان

به ، فكأنه رمى به هنالك ، أراد أنه طرح في المهالك .

استقرّ عليه رأى المتأخرين من أصحابنا، أن علياً أرفع المسلمين كافة عند الله تعالى بعد رسول الله صلى الله عليه وآله من الذكور والإناث ؛ وفاطمة امرأة من المسلمين ، وإن كانت سيّدة نساء العالمين ؛ ويدلّ على ذلك أنه قد ثبت أنه أحبّ الخلق إلى الله تعالى بحديث الطائر ، وفاطمة من الخلق ، وأحبّ الخلق إليه سبحانه أعظمهم ثواباً يوم القيامة ، على ما فسرّه المحققون من أهل الكلام ، وإن أريد بالأفضل الأشرف نسبا ، ففاطمة أفضل لأنّ أباه سيّد ولد آدم من الأولين والآخين ، فليس في آباء عليّ عليه السلام مثله ولا مقارنه ، وإن أريد بالأفضل من كان رسول الله صلى الله عليه وآله أشدّ عليه حُنوًّا وأمسّ به رحماً ، ففاطمة أفضل ، لأنّها ابنته ؛ وكان شديد الحبّ لها والحنوّ عليها جدًّا ، وهي أقرب إليه نسبا من ابن العمّ ، لا شبهة في ذلك .

فأمّا القول في أنّ عليا شرف بها أو شرفت به ، فإنّ عليا عليه السلام كانت أسباب شرفه وتميّزه على الناس متنوعة ، فمنها ما هو متعلّقٌ بفاطمة عليها السلام ، ومنها ما هو متعلّقٌ بأبيها صلوات الله عليه ، ومنها ما هو مستقلٌّ بنفسه .

فأمّا الذي هو مستقلٌّ بنفسه ، فنحو شجاعته وعفته وحلمه وقناعته وسجاجة أخلاقه وسماحة نفسه . وأمّا الذي هو متعلّقٌ برسول الله صلى الله عليه وآله فنحو علمه ودينه وزهده وعبادته ، وسبقه إلى الإسلام وإخباره بالغيوب .

وأما الذي يتعلّق بفاطمة عليها السلام فنكاحه لها ؛ حتى صار بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله الصهر المضاف إلى النسب والسبب ؛ وحتى إنّ ذريته منها صارت ذريّة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وأجزاء من ذاته عليه السلام ؛ وذلك لأنّ الولد إنّما يكون من منىّ الرجل ودم المرأة ، وهما جزآن من ذاتي الأب والأمّ ، ثم هكذا أبداً في ولد الولد ومن بعده من البطون دائماً . فهذا هو القول في شرف عليّ عليه السلام بفاطمة .

فأما شرفها به فإنها وإن كانت ابنة سيد العالمين ، إلا أن كونها زوجة على أفادها نوعاً من شرف آخر زائداً على ذلك الشرف الأوّل ؛ ألا ترى أن أباهما لو زوجها أباهريرة أو أنس بن مالك لم يكن حالها في العظمة والجلالة كحالها الآن ، وكذلك لو كان بنوها وذريتها من أبي هريرة وأنس بن مالك لم يكن حالهم في أنفسهم كحالهم الآن .

قال أبو الحسن المدائنيّ : وكان الحسن كثير التروّج ، وتزوج خوّلة بنت منظور بن زيان الفزارية ، وأمّها مليكة بنت خارجة بن سنان ، فولدت له الحسن بن الحسن . وتزوج أم إسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابناً سماه طلحة ، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاريّ - واسم أبي مسعود عقبة بن عمر - فولدت له زيد بن الحسن ، وتزوج جعدة بنت الأشعث بن قيس ، وهي التي سقته السم ، وتزوج هند ابنة [سهيل بن عمرو ، وحفصة ابنة] ^(١) عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتزوج امرأة من كلب ، وتزوج امرأة من بنات عمرو بن أتهم المنقرّيّ ، وامرأة من ثقيف ، فولدت له عمرًا ، وتزوج امرأة من بنات علقمة ابن زرارة ، وامرأة من بني شيبان من آل همام بن مرّة ، فقيل له : إنها ترى رأى الخوارج ، فطلقها ، وقال ؛ إنّي أكره أن أضمّ إلى نحريّ بحمّة من بحمّ جهنم .

وقال المدائنيّ : وخطب إلى رجل فزوّجه ، وقال له : إنّي مزوّجك ، وأعلم أنك ملق طلق غلق ^(٢) ؛ ولكنك خير الناس نسباً ، وأرفعهم جداً وأباً . قلت : أما قوله ملق طلق ؛ فقد صدق ؛ وأما قوله غلق فلا ؛ فإن الغلق الكثير الضجر ، وكان الحسن عليه السلام أوسع الناس صدراً وأسججهم خلقاً .

(١) من « د » .

(٢) الملّق : الفقير .

قال المدائني : أحصيت زوجات الحسن بن علي فكنّ سبعين امرأة .

قال المدائني : ولما توفّي عليّ عليه السلام خرج عبد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس ، فقال : إن أمير المؤمنين عليه السلام توفّي ، وقد ترك خلفا ، فإن أحببتم خرج إليكم ، وإن كرهتم فلا أحد على أحد ؛ فبكى الناس ، وقالوا : بل يخرج إلينا ، فخرج الحسن عليه السلام ، فخطبهم فقال : أيّها الناس ؛ اتقوا الله ، فإننا أمراؤكم وأولياؤكم ، وإنّا أهل البيت الذين قال الله تعالى فينا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ (١) ، فبايعه الناس .

وكان خرج إليهم وعليه ثياب سود ، ثم وجّه عبد الله بن عباس ومعه قيس بن سعد ابن عبادة مقدّمة له في اثني عشر ألفا إلى الشام ، وخرج وهو يريد المدائن ، فطعن بسباط وانهب متاعه ؛ ودخل المدائن ؛ وبلغ ذلك معاوية ، فأشاعه ؛ وجعل أصحاب الحسن الذين وجههم مع عبد الله يتسلّون إلى معاوية ، الوجوه وأهل البيوتات . فكتب عبد الله بن العباس بذلك إلى الحسن عليه السلام فخطب الناس ووبّخهم ، وقال : خالفتم أبي حتى حُكّم وهو كاره ، ثم دعاكم إلى قتال أهل الشام بعد التحكيم ، فأبيتم حتى صار إلى كرامة الله ، ثم بايعتموني على أن تسالموا منّ سالمني ، وتحاربوا منّ حاربني ؛ وقد أتاني أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية ، وبايعوه ؛ فحسبي منكم ، لا تغروني من ديني ونفسي .

وأرسل عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب - إلى معاوية يسأله المسألة ، واشترط عليه العمل بكتاب الله وسنة نبيّه ، وألا يبايع لأحد من بعده ، وأن يكون الأمر شورى ، وأن يكون الناس أجمعون آمنين .

وكتب بذلك كتابا ، فأبى الحسين عليه السلام ، وامتنع ؛ فكلّمه الحسن حتى رضى ،
وقدم معاوية إلى الكوفة .

قال أبو الحسن : وحدّثنا أبو بكر بن الأسود ، قال : كتب ابن العباس
إلى الحسن :

أمّا بعد فإن المسلمين وتوّك أمرهم^(١) بعد علىّ عليه السلام ، فشمّر للحرب ، وجاهد
عدوك ، وقارب أصحابك ، واشتر^(٢) من الظنّين^(٣) دينه بما لا يثلم^(٤) لك ديناً^(٥) ،
ووال أهل^(٦) البيوتات والشرف ، تستصلح به عشائركم ، حتى يكون الناس جماعة ؛
فإن بعض ما يكره الناس - ما لم يتعد الحقّ ؛ وكانت عواقبه تؤدى إلى ظهور العدل ،
وعزّ الدين - خير من كثير مما يُحبّه الدس إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور
وذلّ المؤمنين ، وعزّ الفاجرين . واقتدِ بما جاء عن أئمة العدل ، فقد جاء عنهم أنه لا يصلح
الكذب إلا في حرب أو إصلاح بين الناس ؛ فإنّ الحرب خدعة ؛ ولك في ذلك سعة
إذا كنت محاربا ، ما لم تبطل حقاً .

واعلم أنّ عليّاً أبك إنّما رغِبَ الناس عنه إلى معاوية ، أنّه أساء بينهم في النية ،
وسوى بينهم في العطاء ، فثقل عليهم ؛ واعلم أنّك تحارب منّ حارب الله ورسوله في ابتداء
الإسلام ؛ حتى ظهر أمر الله ، فلهما وحدّ الرب ، ومحقّ الشرك ، وعزّ الدين ، أظهروا
الإيمان وقرءوا القرآن ؛ مستهزئين بآياته ، وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى ، وأدوا الفرائض

(١) في د : « أمورهم » . (٢) د : « واستر » .

(٣) الظنّين : « المتهم » . (٤) يثلم : يعيب .

(٥) العقد ١ : ٣٠ ، وعيون الأخبار ١ : ١٤ « يفك » . (٦) العقد وعيون الأخبار : « وول »

وهم لها كارهون ؛ فلما رأوا أنه لا يميز في الدين إلا الأتقياء الأبرار ، توسّموا بسما الصالحين ، ليظنّ المسلمون بهم خيرا ، فما زالوا بذلك حتى شكّوهم في أماناتهم ، وقالوا : حسابهم على الله ؛ فإن كانوا صادقين فأخواننا في الدين ، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخرسين ؛ وقد منيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم ؛ والله ما زادهم طول العمر إلا غيّا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مقتا ؛ فجاهدوهم ولا ترض دنيّة ، ولا تقبل خسفاً (١) ؛ فإنّ عليا لم يُجب إلى الحكومة حتى غلب على أمره فأجاب ؛ وإنهم يعلمون أنّه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل ، فلمّا حكموا بالهوى ، رجع إلى ما كان عليه حتى أتى عليه أجله ، ولا تخرجنّ من حقّ أنت أولى به ، حتى يحول الموت دون ذلك . والسلام .

قال المدائنيّ : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان . أما بعد فإنّ الله بعث محمدا صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقّ ، وقمع به الشّرّك ، وأعزّ به العرب عامّة ، وشرفّ به قريشا خاصّة ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ (٢) ؛ فلمّا توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه ، فلا تنازعونا سلطانه ، فعرفت العرب لقريش ذلك ؛ وجاهدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات ! ما أنصفتنا قريش وقد كانوا ذوى فضيلة في الدّين ، وسابقة في الإسلام ؛ ولا غرو (٣) إلاّ منازعته إيّانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله ألاّ يؤتينا في هذه الدنيا شيئا ينقصنا عنده في الآخرة . إنّ عليا لمّا توفاه الله ولّاني المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ؛ وانظر لأمة محمد

(١) خسفا ، أى ذلا . (٢) سورة الزخرف ٤٤ .

(٣) لا غرو ؛ أى لا يجب .

صلى الله عليه وآله ، ما تحمّنُ به دماءها ، وتصلح به أمرها . والسلام .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سويد التيميّ ، تيمّ الربّاب ، وجندب الأزديّ ،

فقدما على معاوية فدعواه إلى بيعة الحسن عليه السلام فلم يجبهما ، وكتب جوابه :

أمّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحقّ الأولين والآخرين بالفضل
كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده ، فصرّحتُ بتهمة أبي بكر الصديق وعمر
وأبي عبيدة الأمين ، وصلحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك ؛ إنّ الأُمَّة لما تنازعت
الأمر بينها رأت قريشا أخلقها به^(١)؛ فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين
أنّ يولّوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشأها له ؛ وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر
ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ويذبّ عن حرم الإسلام ذبّه
ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنّك
أضبط لأمر الرعيّة ، وأحوظُ على هذه الأُمَّة ، وأحسن سياسة ، وأكيد للعدوّ ، وأقوى
على جمع النّيء ، لسلمتُ لك الأمر بعد أبيك ؛ فإنّ أباك سعى على عثمان حتى قُتِل مظلوما ،
فظالب الله بدمه ؛ ومن يطلبه الله فلن يفوته . ثم ابتزّ الأُمَّة أمرها ، وفرّق جماعتها ، فخالفه
نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام ، وادّعى أنّهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم
فسفكت الدماء ؛ واستحلّت الحرم ، ثم أقبل إلينا لا يدّعي علينا بيعة ؛ ولكنه يريد أن
يملكنا اغترارا ، فخاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ،
ليحكما بما تصلح عليه الأُمَّة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا وعليه
مثله وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما ، فأمضى الحكمان عليه الحكم بما علمت ، وخلعاه ،
فوالله مارضى بالحكم ، ولاصبر لأمر الله ؛ فكيف تدعونني إلى أمر إنّما تطلبه بحق أبيك ،
وقد خرج منه ! فانظر لنفسك ولدينك . والسلام .

(١) في د « أحقها » .

قال : ثم قال للحارث وجندب : ارجعا فليس بيني وبينكم إلا السيف ؛ فرجعا وأقبل إلى العراق في ستين ألفا ؛ واستخلف على الشام الضحّاك بن قيس الفهريّ والحسن مقيم بالكوفة ، لم يشخص حتى بلغه أنّ معاوية قد عبر جسر منبج ، فوجه حجر بن عدى يأمر العمال بالاحتراس ، ويذبّ الناس ، فسارعوا . فعمد لقيس بن سعد بن عبادة على اثني عشر ألفا ، فنزل دير عبد الرحمن ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث ابن عبد المطب ، وأمر قيس بن سعد بالمسير ، وودّعه وأوصاه ، فأخذ على الفرات وقرى الفلوجة ، ثم إلى مسكن . وارتحل الحسن عليه السلام متوجّها نحو المدائن ، فأتى ساباط فأقام بها أيّاما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن قام فخطب الناس ، فقال : أيّها الناس ؛ إنكم بايعتموني على أن تسالموا منّ سالمت وتحاربوا منّ حاربت ، وإني والله ما أصبحت احتملا على أحد من هذه الأمة ضعيفة في شرق ولا غرب ، ولما تكروهون في الجماعة والألفة والأمن ، وصلاح ذات البين خير مما تجبون في الفرقة ، والخوف والتباغض والعداوة ، وإنّ عليا أبي كان يقول : لا تكروهوا إمارة معاوية ؛ فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرعوس تُندَر^(١) عن كواهلها كالحنظل . ثم نزل .

فقال الناس : ما قال هذا القول إلا وهو خالغ نفسه ومسلم الأمر لمعاوية ، فثاروا به فقطعوا كلامه ، وانتهبوا متاعه ، وانتزعوا مطرّفا كان عليه ، وأخذوا جارية كانت معه ، واختلف الناس فصارت طائفة معه ؛ وأكثرهم عليه ، فقال : اللهم أنت المستعان ، وأمر بالرحيل ، فارتحل الناس ، وأتاه رجل بفرس ، فركبه وأطاف به ببعض أصحابه ، فنعوا الناس عنه وساروا ، فقدمه سنان بن الجراح الأسديّ إلى مظلم ساباط ، فأقام به ؛ فلما دنا منه تقدّم إليه يكلمه ، وطعنه في نخذه بالمعول^(٢) طعنة كادت تصل إلى العظم ، فغشى عليه وابتدره أصحابه ، فسبق إليه عميد الله الطائيّ ، فصرع سنانا وأخذ ظبيان بن عمارة المعول

(١) تندر : تقطع . (٢) المعول : حديدة ينقر بها الصخر .

من يده ، فضربه به ففقطع أنفه ، ثم ضربه بصخرة على رأسه فقتله ؛ وأفاق الحسن عليه السلام من غشيتته ، فعصبوا جرحه وقد ترف وضعف ، فقدموا به المدائن وعليها سعد بن مسعود ، عمّ المختار بن أبي عبيد ، وأقام بالمدائن حتى برى من جرحه .

قال المدائني ؛ وكان الحسن عليه السلام أكبر ولد علي ، وكان سيّداً سخياً حلماً خطيباً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يحبّه ؛ سابق يوماً بين الحسين وبينه فسبق الحسن ، فأجلسه على نخذة اليمى ، ثم أجلس الحسين على الفخذ اليسرى ، فقيل له : يا رسول الله أيهما أحب إليك ؟ فقال : أقول كما قال إبراهيم أبونا ، وقيل له : أى ابنك أحب إليك ؟ قال : أكبرهما وهو الذى يلد ابني محمداً صلى الله عليه وسلم .

وروى المدائني عن زيد بن أرقم ، قال : خرج الحسن عليه السلام وهو صغير ، وعليه بُرّده ورسول الله صلى الله عليه وآله يخطب ، فعثر فسقط ، فقطع رسول الله صلى الله عليه وآله الخطبة ، ونزل مسرعاً إليه ، وقد حمله الناس ، فقتلّمه وأخذته على كتفه ، وقال : إنّ الولد لفتنة ، لقد نزلت إليه وما أدري ! ثم صعد فأتى الخطبة .

وروى المدائني ، قال : لقي عمرو بن العاص الحسن عليه السلام فى الطواف ، فقال له : يا حسن ، زعمت أنّ الدين لا يقوم إلاّ بك وبأبيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية ، فجعله راسياً بعد ميّله ، وبيّنا بعد خفائه ، أفرضى الله بقتل عثمان ؛ أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطّحين ، عليك ثياب كغرقاء^(١) البيض ، وأنت قاتل عثمان ، والله إنه لألمّ للشعث ، وأسهل للوعث ، أن يوردك معاوية حياض أبيك ؛ فقال الحسن عليه السلام : إنّ لأهل النار علاماتٍ يُعرفون بها ، إلحاداً لأولياء الله ؛ وموالاتاً لأعداء الله ، والله إنّك

(١) الغرقاء : القشرة المترقة بدياض البيض .

لتعلم أن علياً لم يرتب في الدين، ولا يشك في الله ساعة ولا طرفة عين قط، وإيم الله لتنتهين
يا بن أم عمرو أو لأنقذن حصنك بنوافذ أشد من القعصية^(١) : فإياك والتهجم على، فإني
من قد عرفت؛ لست بضعيف الغمزة، ولا هش المشاشة^(٢)؛ ولا مريء المأكلة، وإني من
قريش كواسطة القلادة، يُعرف حسبي، ولا أدعي لغير أبي، وأنت من تعلم ويعلم الناس،
تحاكت فيك رجال قريش، فغلب عليك جزارؤها، الأهمم حسبا، وأعظمهم لؤما،
فإياك عني، فإنك رجس، ونحن أهل بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا
تطهيرا. فأفحيم عمرو وانصرف كئيبا.

* * *

وروى أبو الحسن المدائني قال: سأل معاوية الحسن بن علي بعد الصلح أن يخاطب
الناس، فامتنع، فناشده أن يفعل، فوضع له كرسي، فجلس عليه، ثم قال: الحمد لله الذي
توحد في ملكه، وتفرّد في ربوبيته، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء. والحمد لله
الذي أكرم بنا مؤمنكم، وأخرج من الشرك أولكم، وحقن دماء آخركم، فبلاؤنا عندكم
قديما وحديثا أحسن البلاء، إن شكرتم أو كفرتم. أيها الناس، إن ربّ عليّ كان
أعلم بعليّ حين قبضه إليه، ولقد اختصه بفضل لم تعتادوا مثله، ولم تجدوا مثل سابقته،
فهيها هيها! طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم وهو صاحبكم، وعدوكم في بدر
وأخواتها، جرّعكم رنقا، وسقاكم علقا، وأذلّ رقابكم، وأشرككم بريقكم، فلستم بملومين
على بغضه. وإيم الله لا ترى أمة محمد خفضا ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية، ولقد
وجّه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا؛ لطاعتكم طواغيتكم، وانضوائكم
إلى شياطينكم، فعند الله أحسب ما مضى وما ينتظر من سوء دعتكم، وحيث
حكمكم. ثم قال: يا أهل الكوفة لقد فارقم بالأمس سهم من مراعى الله، صائب

(١) القعصية: الأسنّة، منسوبة إلى قعضب اسم رجل كان يعمل الأسنّة في الجاهلية.

(٢) المشاش في الأصل: رعوس العظام.

على أعداء الله ، نكال على فجّار قريش ، لم يزل أخذنا بمخارجها ، جاثماً على أنفاسها ؛ ليس بالملومة في أمر الله ، ولا بالسرّوقة لمال الله ، ولا بالفروقة في حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزّأه ، دعاه فأجاب ، وقاده فاتّبعه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته . ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجَلٌ أو كاد ؛ وأصاب مثبت أو كاد ، ماذا أردت من خطبة الحسن !

فأمّا أبو الفرج على بن الحسين الأصفهانيّ ، فإنّه قال : كان في لسان أبي محمد الحسن عليه السلام ثقل كالفأفة ؛ حدثني بذلك محمد بن الحسين الأشنانيّ ، قال : حدثني محمد بن إسماعيل الأحمسيّ ، عن مفضل بن صالح ، عن جابر . قال : كان في لسان الحسن عليه السلام رنة^(١) ، فكان سلمان الفارسي رحمه الله يقول : أتته من قبّل عمّه موسى بن عمران عليه السلام^(٢) .

قال أبو الفرج : ومات شهيداً مسموماً ، دسّ معاوية إليه وإلى سعد بن أبي وقاص حين أراد أن يعهد إلى يزيد ابنه بالأمر بعده سماً ، فاتا منه في أيّام متقاربة ؛ وكان الذي تولّى ذلك من الحسن عليه السلام زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس بمالٍ بذله لها معاوية . ويقال : إن اسمها سكينه ، ويقال عائشة ويقال : شعناء^(٣) ، والصحيح أن اسمها جعدة .

قال أبو الفرج : فروى عمرو بن ثابت ؛ قال : كنت أختلف إلى أبي إسحاق

(١) ١ ، ب : « رنة » ، تصحيف ، والصواب ما أثبتته من د ومقاتل الطالبيين ، والرتة : بحلة الكلام مع قلة المبالاة .

(٢) مقاتل الطالبيين ٥٠ . (٣) ب : « شيئا » .

السَّيِّعِيَّ [سنة] (١) ، أسأله عن الخطبة التي خطب بها الحسن بن عليّ عليه السلام عقيب وفاة أبيه ؛ ولا (٢) يحدثني بها ؛ فدخلت إليه في يوم شاتٍ وهو في الشمس ، وعليه برنسه ، فكأنه غول ، فقال لي : مَنْ أنت ؟ فأخبرته ، فسكى ، وقال : كيف أبوك ، وكيف أهلك ؟ قلت : صالحون ، قال : في أيّ شيء تتردد منذ سنة ؟ قلت : في خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه (٣) .

حدثني هُبيرة بن مريم (٤) ، قال : خطب الحسن عليه السلام بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال : قد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون ، ولا يدركه الآخرون [بعمل] (٥) . لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيسبقه بنفسه ؛ ولقد كان يوجهه برأيته ، فيكنفه جبرائيل عن يمينه ، وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه ؛ ولقد توفّي في الليلة التي عرج فيها بعيسى بن مريم ؛ والتي توفّي فيها يوشع بن نوح ، وما خلف صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يتناع بها خادما لأهله .

ثم خنقته العبرة فسكى وبكى الناس معه ثم قال : أيها الناس ، مَنْ عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير ، أنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، والذين افترض الله مودّتهم في كتابه ، إذ يقول : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ (٦) ، فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت .

قال أبو الفرج : فلما انتهى إلى هذا الموضع من الخطبة ، قام عبد الله بن العباس بين

(١) من د ومقاتل الطالبين . (٢) د : « فلا » .

(٣) مقاتل الطالبين ٥١ . (٤) كذا في مقاتل الطالبين .

(٥) من مقاتل الطالبين . (٦) سورة الشورى ٢٣ .

يديه ؛ فدعا الناس إلى بيعته ، فاستجابوا وقالوا : ما أحبه إلينا وأحقه بالخلافة ! فبايعوه ، ثم نزل من المنبر^(١) .

قال أبو الفرج : ودس معاوية رجلاً من حمير إلى الكوفة ، ورجلا من بني القين إلى البصرة يكتبان إليه بالأخبار ، فدلّ على الحميري^(٢) وعلى القينيّ ، فأخذوا وقتلوا^(٣) .
وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

أما بعد ؛ فإنك دسست إلى الرجال ، كأنك تحبّ اللقاء ؛ لا أشك في ذلك فتوقّعه إن شاء الله . وبلغني أنك شمت بما لم يشمت به ذو الحجي ؛ وإنما مثلك في ذلك كما قال الأوّل :

فإنّا ومنّ قد مات منا لكالذي يروح فيمسي في البيت ليغتدي^(٤)
فقلّ للذي يبغي خلاف الذي مضى تجهّز لأخرى مثلها فكأنّ قد
فأجابه معاوية :

أما بعدُ ، فقد وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت فيه ؛ ولقد علمت بما حدث فلم أفرح ولم أحزن ، ولم أشمت ولم آس ، وإن عليّاً أباك لكما قال أعشى بني قيس ابن ثعلبة :

فأنّت الجوادُ وأنّت الذي إذا ما القلوب ملأن الصدورا^(٥)
جديرٌ بطعنة يوم اللقا ء يضربُ منها النساء النحورا
وما مزيدٌ من خليج البحر ر يعلو الإكام ويعلو الجسورا
بأجودَ منه بما عنده فيعطى الألوف ويعطى البُدورا^(٦)

(٢) مقاتل الطالبيين : « فدل على الحميري عند الحام » .

(٤) في مقاتل الطالبيين ، البيت الثاني قبل الأول .

(١) مقاتل الطالبيين ٥٢ .

(٣) مقاتل الطالبيين ٥٢ .

(٥) ديوانه ٧٢ .

(٦) مقاتل الطالبيين ٥٣ .

قال أبو الفرج : وكتب عبد الله بن العباس من البصرة إلى معاوية :
أما بعد ، فإنك ودسك أخا بني القين إلى البصرة ، تلمس من غفلات قريش بمثل
ما ظفرت به من يمانيتك ، لكما قال أمية بن أبي الأسكر^(١) :
لعمرك إني وألخزاعي طارقاً كنعجة عادٍ حتفها تحفرُ
أثارت عليها شفرة بكراعها فظلت بها من آخر الليل تنحرُ
شمت بقومٍ من صديقك أهلكوا أصابهم يومٌ من الدهر أصفر^(٢)
فأجابه معاوية :

أمّا بعد ، فإن الحسن بن عليّ ، قد كتب إلى بنحو مما كتبت به ، وأنبأني بما لم يحقّق
سوء ظن^(٣) ورأى فيّ ، وإنك لم تصب مثلي ومثلكم ، وإنما مثلنا كما قال طارق الخزاعيّ
يجيب أمية عن هذا الشعر :

فوالله ما أدري وإني لصادقٌ إلى أيّ من يظنني أتعدّرُ
أعنف إن كانت زينة أهلكت ونال بني لحيان شرّاً فأنفروا^(٤)

(١) كذا في الأغاني ومقاتل الطالبين وهو الصواب ، وفي ب : « أمية بن أبي الصلت » .

(٢) في الأغاني : « أعسر » .

(٣) مقاتل الطالبين : « بما لم يحقّق سوء ظن ورأى فيّ » .

(٤) أنفروا : شردوا ، وفي الأغاني : « ونفروا » ، والخبر في الأغاني ١٨ : ١٦١ ، ١٦٢ ؛ ومقاتل الطالبين

٥٣ ، ٥٤ ، وفي الأغاني عن أبي عمرو الشيباني : « أصيب قوم من بني جندع بن ليث بن بكر بن هوازن
رهط أمية بن الأسكر ، يقال لهم : بنو زينة ، أصابهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع في
غزوة بني المصطلق ، وكانوا جيرانه يومئذ ، ومعهم ناس من بني لحيان بن هذيل ، ومع بني جندع رجل من
خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم ، وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلها ومشركها يميلون إلى
النبي صلى الله عليه وسلم على قريش ؛ فقال أمية بن الأسكر لطارق الخزاعي :

* لعمرك إني وألخزاعي طارقاً *

وأورد أبيات أمية ورد طارق ؛ ثم قال : « وهذه الأبيات الابتداء والانتهاة تمثل بابتدائها ابن عباس

في رسالة له إلى معاوية ، وتمثل بجوابها معاوية في رسالة أجابه بها » .

قال أبو الفرج : وكان أول شيء أحدثه الحسن عليه السلام أنه زاد المقاتلة مائة مائة ، وقد كان عليّ عليه السلام فعل ذلك يوم الجمل ، وفعله الحسن حل الاستخلاف ، فتبعه الخلفاء من بعده في ذلك^(١) .

قال : وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع حرب بن عبد الله الأزدي^(٢) .
 من الحسن^(٣) بن عليّ أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان ، سلام عليك ، فإني أحمدُ
 إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمة للعالمين ، ومنّة
 للمؤمنين ، وكافّة للناس أجمعين ، ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾^(٤) ،
 فبلغ رسالاتِ الله ، وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصّر ولا وانٍ ، وبعد أن أظهر
 الله به الحقّ ، ومحقّ به الشّرك ، وخص به قريشاً خاصّة فقال له : ﴿ وَإِنَّهُ لَدِكْرٌ لَّكَ
 وَلِقَوْمِكَ ﴾^(٥) . فلما توفّي تنازعت سلطانه العرب ، فقالت قريش : نحن قبيلته وأسرته
 وأولياؤه ، ولا يحلّ لكم أن تنازعونا سلطان محمد وحقّه ، فرأت العرب أن القول ما قالت
 قريش ، وأنّ الحجة في ذلك لهم على من نازعهم أمر محمد ، فأنعمت^(٦) لهم ، وسلّمت إليهم .
 ثم حاجبنا نحن قريشاً بمثل ما حاجبّت به العرب ، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها ،
 إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب يالانتصاف والاحتجاج ، فلمّا صرنا أهل بيت محمد
 وأولياءه إلى محاجبتهم ، وطلب النّصف^(٧) منهم باعدونا واستولوا بالإجماع على ظلمنا
 ومراغمتنا^(٨) والعنت^(٩) منهم لنا ، فلموعد الله ، وهو الوليّ النّصير ؟

(١) مقاتل الطالبين ٥٥ .

(٢) مقاتل الطالبين : « مع جندب بن عبد الله الأزدي » .

(٣) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسن . . . » .

(٤) سورة يس ٧ . (٥) سورة الزخرف ٤٤ .

(٦) أنعمت لهم ؛ أي قالت لهم : « نعم » . (٧) النصف : الإنصاف .

(٨) راغمهم : نابذهم وعاداهم . (٩) العنت : المشقة وفي د « والعبث » .

ولقد كنّا تعجبنا لتوثب التوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة في الإسلام ، وأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب^(١) في ذلك مغمزاً يثلمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمرٍ لست من أهله ، لا بفضل في الدين معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حسيبك ، فسترده فتعلم لمن عقبى الدار ، وبالله لتلقين عن قليل ربك ، ثم ليجزينك بما قدمت يدك ، وما الله بظلام للعبيد .

إنّ علياً لما مضى لسبيله - رحمة الله عليه يوم قبض ويوم منّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبعث حياً - ولآنى المسلمون الأمر بعده ، فأسأل الله ألا يؤتينا في الدنيا الزائلة شيئاً ينقصنا به في الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنما حملنى على الكتاب إليك الإعذار فيما بينى وبين الله عزّ وجلّ في أمرك ، ولك في ذلك إن فعلته الحظّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمدادى في الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى ، فإنك تعلم أنّى أحقّ بهذا الأمر منك عند الله وعند كلّ أوّاب حفيظ ، ومن له قلب منيب . واتق الله ودع البغى ، واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير في أن تلقى الله من دماهم بأكثر مما أنت لاقية به ، وادخل في السلم والطاعة ، ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحقّ به منك ، ليطفىء الله النائرة^(٢) بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلح ذات البين ، وإن أنت أبيت إلا التمدادى في غيئك سرت^(٣) إليك بالمسلمين فما كمتك ، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فكتب معاوية إليه^(٤) :

(١) الأحزاب : هم الذين تحزبوا وتظاهروا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وخطان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد في غزوة الخندق .

(٢) النائرة : العدو والشحناء . (٣) مقاتل الطالبين : « نهدت » .

(٤) في مقاتل الطالبين « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله . . . » .

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن عليّ ، سلام الله عليك ، فإنّي أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أمّا بعد ، فقد بلغني كتابك ، وفهمت ما ذكرت به محمدا رسول الله من الفضل ، وهو أحقّ الأولين والآخرين بالفضل كلّه قديمه وحديثه ، وصغيره وكبيره ، وقد والله بلغ وأدّى ، ونصح وهدى ؛ حتى أتقذ الله به من الهلكة ، وأنار به من العمى ، وهدى به من الجهالة والضلالة ، فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته ؛ وصلوات الله عليه يوم ولد ، ويوم بُعث ، ويوم قبض ، ويوم يُبعث حياً !

وذكرت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وتنازع المسلمين الأمر بعده ، وتغلّبهم على أبيك ، فصرّحت بتهمة أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وأبي عبيدة الأمين وحواريّ (١) رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصُلحاء المهاجرين والأنصار ، فكرهت ذلك لك ؛ إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظنّين (٢) ولا المسيء ، ولا اللئيم ، وأنا أحبّ لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إنّ هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيّها لم تجهل فضلكم ولا سابقتم ، ولا قرابتكم من نبيّكم ، ولا مكانكم في الإسلام وأهله ، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيّها ، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامهم أن يولّوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما ، وأعلمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختروا أبا بكر ، وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل ، والناظرين للأمة ، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التّهمة ، ولم يكونوا متّهمين ، ولا فيما أتوا بالخطئين ، ولو رأى المسلمون أنّ فيكم منّ يعنى غناه ، ويقوم مقامه ، ويذبّ عن حريم الإسلام ذبّه ،

(١) هو الزبير بن العوام .

(٢) ب : « ظنين » .

ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ، ولكنهم علموا في ذلك بما رأوه صلاحاً للإسلام وأهله ،
والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً .

وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح ، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال
التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ، فلو علمت أنك أضبط
مَنّي للرعيّة ، وأحوطُ على هذه الأئمة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ،
وأكيد للعدوّ ، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ، ورأيتك لذلك أهلاً ، ولكن قد علمت
أنّي أطولُ منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأئمة تجربة ، وأكبر منك سنّاً ، فأنت أحق أن
تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني ، فادخل في طاعتي ، ولك الأمر من بعدى ، ولك ما في
بيت مال العراق من مالٍ بالغاً ما يبلغ ، تحمله إلى حيث أحببت ، ولك خراج أيّ كُور
العراق شئت ؛ معونةً لك على نفقتك يجيئها أمينك ويحملها إليك في كل سنة ؛ ولك
الآنستولى عليك بالإساءة ، ولا نقضى دونك الأمور ، ولا نعصى في أمر أردت به طاعة
الله . أعاننا الله وأيّاك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء . والسلام .

قال جنذب : فلما أتيت الحسنَ بكتاب معاوية ، قلت له : إنّ الرجل سائر إليك ،
فابدأه بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله ، فإنّما أن تُقدّر أنه ينقاد (١) لك ؛
فلا والله حتى يرى منّا أعظم من يوم صفّين . فقال : أفعل ، ثم قعد عن مشورتى
وتناسى قولى (٢) .

قالوا : وكتب معاوية إلى الحسن :

(١) د ومقاتل الطالبين : « تيمناً لك » .

(٢) مقاتل الطالبين ٥٥ - ٥٩ .

أما بعد^(١) ، فإنَّ الله يفعل في عباده ما يشاء ، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، فاحذر أن تكون منيبتك على أيدي رعا من الناس ، وائس^(٢) من أن تجدنا^(٣) غمزة^(٤) ، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت ، وأجريت لك ما شرطت ، وأكون في ذلك كما قال أعشى بن قيس بن ثعلبة :

وإنَّ أحدُ أسدى إليك أمانةً فأوفٍ بها تُدعى إذا متَّ وإفياً
ولا تحسدِ المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفُه إن كان في المال فانيا

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أولى الناس بها . والسلام .

فأجابه الحسن :

أما بعد^(٥) فقد وصل إليَّ كتابك ، تذكر فيه ما ذكرت ، فتركت جوابك خشية البغى [منى]^(٦) عليك ، والله أعوذ من ذلك ، فاتبع الحقّ تعلم أنّي من أهله ، وعلىَّ إثمٌ أن أقول فأكذب . والسلام .

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثمّ كتب إلى عمّاله على النواحي بنسخة

واحدة :

من^(٧) عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان^(٧) ومن قبّله من المسلمين . سلام عليكم ، فإنّي أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أمّا بعد ، فالحمد لله الذي كفاكم مؤنّعدوكم وقتل خليفتم ، إن الله بلطفه ، وحسن صنعه ، أتاح لعلّي بن أبي طالب رجلاً من عباده ،

(١) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد » .

(٢) ب ، أيس ، وأثبت ما في ١ ، د ومقاتل الطالبين .

(٣) ١ ، د ومقاتل الطالبين . (٤) الغمزة : المطعن .

(٥) في مقاتل الطالبين : بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد . . . » .

(٦) من د .

(٧-٧) مقاتل الطالبين : « بسم الله الرحمن الرحيم من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان » .

فاغتاله فقتله ، فترك أصحابه متفرقين مختلفين ؛ وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ؛ فأقبلوا إلىّ حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجُندكم وحسن عدتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثَّار ، وبلغتم الأمل ، وأهلك الله أهل البغي والعدوان . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(١) .

قال : فاجتمعت العساكر إلى معاوية ، فسار بها قاصداً إلى العراق . وبلغ الحسن خبره ومسيره نحوه ؛ وأنه قد بلغ جسر مذيّج ، فتحرّك عند ذلك ، وبعث حُجْر بن عدى فأمر العمال والناس بالتهيؤ للمسير ، ونادى النّادى : الصلاة جامعة ! فأقبل الناس يثوبون ويجمعون . وقال الحسن : إذا رضيت جماعة النّاس فأعلمني ؛ وجاءه سعيد بن قيس الهمدانيّ ، فقال له : اخرج ، فخرج الحسن عليه السلام ، وصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ؛ فإنّ الله كتب الجهاد علىّ خلقه ، وسمّاه كرهاً^(٢) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : اصبروا إنّ الله مع الصابرين ، فلستم أيّها الناس نائلين ما تحبّون إلا بالصبر على ما تكرهون .

بلغني أنّ معاوية بلغه أنّا كنا أزمعنا على المسير إليه ؛ فتحرّك لذلك ، اخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة حتى ننظر وتنظروا ، وزيروا وتروا .

قال : وإنه في كلامه ليتخوّف خذلان الناس له ، قال : فسكتوا فما تكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف .

فلما رأى ذلك عدى بن حاتم قام فقال : أنا ابن حاتم ! سبحان الله ! ما أقبح هذا المقام ! ألا تجيئون إمامكم وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُضَر [أين المسلمون ؟ أين

(١) مقاتل الطالبين ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) هو من قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ .

الخواضون من أهل مصر] ^(١) الذين ألسنتهم كالحارِيق ^(٢) في الدَّعة ، فإذا جَدَّ الجِدَّةُ فروَّاغون كالثعالب ، أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها .

ثم استقبل الحسن بوجهه ، فقال : أصاب الله بك المرشد ، وجنبتك المكاره ، ووقفك لما يُيمد ورده وصدده ^(٣) . قد سمعنا مقاتلتك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى معسكري ، فمن أحب أن يوافيني فليوافق .

ثم مضى لوجهه ، نخرج من المسجد ودابته بالباب ، فركبها ومضى إلى النخيلة ، وأمر غلامه أن يلحقه بما يصلحه . وكان عدى بن حاتم أول الناس عسكراً ^(٤) .

وقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ومعتل بن قيس الرياحي وزياد بن صعصعة ^(٥) التيمي ، فأنبوا الناس ولاموهم وحرّضوهم ، وكلموا الحسن عليه السلام بمثل كلام عدى ابن حاتم في الإجابة والقبول ، فقال لهم الحسن عليه السلام : صدقتم رحمكم الله ! ما زلتُ أعرّفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ثم نزل .

وخرج الناس فمعسكروا ، ونشطوا للخروج ، وخرج الحسن إلى العسكر ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطّاب ، وأمره باستحثاث الناس وإشخاصهم إليه ، فجعل يستحثهم ويستخرجهم حتى يلتئم العسكر .

وسار ^(٦) الحسن عليه السلام في عسكر عظيم وعدة حسنة ، حتى نزل دير عبد الرحمن ،

(١) من مقاتل الطالبين .

(٢) الحارِيق : جمع مخراق ؛ وهو النديل أو نحوه يلوى فيضرب به .

(٣) كذا في مقاتل الطالبين ، د .

(٤) ١ : « عسكرا » .

(٥) في ١ ، د « حفصة » .

(٦) مقاتل الطالبين : « ثم إن الحسن . . . » .

فأقام به ثلاثا حتى اجتمع الناس ، ثم دعا عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ، فقال له :
يا بن عمّ ، إني باعث إليك اثني عشر ألفا من فرسان العرب وقرّاء مصر ، الرجل منهم يزيد^(١)
الكتيبة ، فسرّ بهم ، وألنّ لهم جانبك ، وابسّط لهم وجهك ، وافرش لهم جناحك ،
وأدّهم من مجلسك ، فإنّهم بقية ثقات أمير المؤمنين ، وسرّ بهم على شطّ الفرات حتى تقطع بهم
الفرات ، ثمّ تصير إلى مسكن ، ثمّ امض حتى تستقبل بهم معاوية ، فإن أنت لقيته فاحبسّه حتى
أتيك ، فإنّي على أترك وشيكاً ، وليكن خبرك عندي كلّ يوم ، وشاور هذين - يعنى قيس
ابن سعد وسعيد بن قيس - وإذا لقيت معاوية فلا تقاّنه حتى يقاّتك ، فإن فعل فقاّته ،
وإن أصبت فقيس بن سعد على الناس ، وإن أصيب قيس بن سعد فسعيد بن قيس
على الناس^(٢) .

فسار عبيد الله حتى انتهى إلى شينور^(٣) ، حتى خرج إلى شاهی^(٤) ، ثمّ لزم
الفرات والفلوجة^(٥) ؛ حتى أتى مسكن^(٦) ، وأخذ الحسن على حمّام عمر حتى أتى
دير كعب ، ثمّ بكر فنزل ساباط دون القنطرة ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلّاة جامعة !
فاجتمعوا ، فصعد المنبر فخطبهم فقال : الحمد لله كلّما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله
كلّما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، واثمنه على الوحي ، صلى
الله عليه وآله . أما بعد ، فوالله إنّي لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه وأنا
أنصح خلقه لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضعيفة ، ولا مرید له بسوء ولا غائلة .
ألا وإنّ ما تکرهون في الجماعة خير لكم مما تحبّون في الفرقة ؛ ألا وإنّي ناظر لكم خيراً

(١) : « يزن » . (٢) بعدما في مقاتل الطالبين : « ثم أمره بما أراد » .

(٣) شينور : صقع بأعراق ، وفي ب « سينور » تحريف .

(٤) شاهی : موضع قرب النادسية .

(٥) ياقوت : « فلایج السواد : قراها ، واحدها الفلوجة ، والفلوجة الكبرى ، والفلوجة الصغرى :

قرتان كبيرتان من سواد بغداد والكوفة قرب عين التمر » .

(٦) مسكن : موضع على نهر دجيل .

من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيي . غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته^(١) ورضاه ، إن شاء الله ! ثم نزل .

قال : فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصالح معاوية ، ويكل الأمر إليه ، كَفَرَ والله الرجل ! ثم شدوا على فسطاطه . فاتبوه حتى أخذوا مصلاَه من تحته ؛ ثم شدَّ عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن جمال الأزديّ ، فترع مطرفه عن عاتقه ، فبقي جالسا متقلدا سيفا بغير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراداه ، ولاموه وضعفوه لما تكلم به ؛ فقال : ادعوا إلى ربيعةَ وهمدان ، فدعوا له ، فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، ومعهم شوب^(٢) من غيرهم ، فلما مرَّ في مظلم سابات^(٣) ، قام إليه رجل من بني أسد ، ثم من بني نصر بن قعين يقال له جراح بن سنان ، ويده معول ، فأخذ بلجام فرسه^(٤) ، وقال : الله أكبر ! يا حسن ! أشرك أبوك ، ثم أشركت أنت^(٥) . وطعنه بالمعول ، فوقع في فخذه ، فشقته حتى بلغت أريته^(٦) ، وسقط الحسن عليه السلام إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه ، ونفرا جميعا إلى الأرض ؛ فوثب عبد الله بن الأخطل^(٧) الطائىّ ، ونزع المعول من يد جراح بن سنان ، فحخصضه^(٨) به ، وأكبَّ ظبيان بن عمارة عليه ، فقطع أذنه ، ثم أخذاه الآجر فشدَّ خا رأسه ، ووجهه حتى قتله .

(١) مقاتل الطالبين : « لما فيه المحبة والرضا » .

(٢) الشوب : الأخطال من الناس .

(٣) مظلم سابات : مضاف إلى سابات التى قرب المدائن : موضع هناك ، قال ياقوت : « ولا أدرى

لم سمي بذلك » .

(٤) مقاتل الطالبين : « فرسه » .

(٥) مقاتل الطالبين : « يا حسن ، أشركت كما أشرك أبوك من قبل » .

(٦) الأرية : أصل الفخذ . (٧) مقاتل الطالبين : « الخطل » .

(٨) ١ : « فخصضه » .

وَحُمِلَ الحِسن عليه السلام على سريرٍ إلى المدائن ، وبها سعيد^(١) بن مسعود الثقفي والياً عليها من قبله ، وقد كان على عليه السلام ولّاه المدائن فأقرّه الحِسن عليه السلام عليها ، فأقام عنده يعالج نفسه . فأما معاوية فإنه وافى حتى نزل قرية يقال لها الحلوية^(٢) بمسكن ، وأقبل عبید الله بن عباس حتى نزل بإزائه ؛ فلما كان من غدٍ وجّه معاوية بجيئه إليه فخرج إليهم عبید الله فيمن معه فضربهم حتى ردّهم إلى معسكرهم ؛ فلما كان الليل أرسل معاوية إلى عبید الله بن عباس أن الحِسن قد راسلني في الصلح ؛ وهو مسلم الأمر إلىّ ، فإن دخلت في طاعتي الآن كنت متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع ، ولك إن أحببتني الآن أن أعطيك ألف ألف درهم ، أعجل لك في هذا الوقت نصفها ؛ وإذا دخلت الكوفة النصف الآخر ؛ فانسلّ عبید الله إليه ليلاً ، فدخل عسكر معاوية ، فوقّ له بما وعده ، وأصبح الناس ينتظرون عبید الله أن يخرج فيصليّ بهم ؛ فلم يخرج حتى أصبحوا ، فطلبوه فلم يجدوه ، فصلّى بهم قيس بن سعد بن عبادة ، ثم خطبهم فبثّتهم^(٣) ، وذكر عبید الله فنال منه ، ثم أمرهم بالصبر والنّهوض إلى العدو ، فأجابوه بالطاعة وقالوا له : انهض بنا إلى عدونا على اسم الله ، فنزل فنهض بهم .

وخرج إليه بُسر بن أرطاة فصاح إلى أهل العراق : ويحكم ! هذا أميركم عندنا قد بايع وإمامكم الحِسن قد صالح ، فعلام تقتلون أنفسكم !

(١) مقاتل الطالبين : « سعد » .

(٢) ب : « الحيوضة » .

(٣) في مقاتل الطالبين : « أيها الناس ، لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل الوله الورع « أي الجبان » . إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ؛ إن أباه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يقاتل بيدر ، فأسرّه أبو الميسر كعب بن عمرو الأنصاري ، فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ فداءه فقسّمه بين المسلمين ، وإن أخاه ولاء على أمير المؤمنين على البصرة ، فسرق مال الله ومال المسلمين ، فاشترى به الجوارى ؛ وزعم أن ذلك له حلال ؛ وأن هذا ولاء على اليمن . فهرب من بسر ابن أرطاة ، وترك ولده حتى قتلوا ، وصنع الآن هذا الذي صنع . قال : فتنادى الناس : الحمد لله الذي أخرجنا من بيننا ، فانهض بنا إلى عدونا ، فنهض بهم » .

فقال لهم قيس بن سعد : اختاروا إحدى اثنتين ؛ إمّا القتال مع غير إمام ، وإما أن تبايعوا بيعة ضلال ، فقالوا : بل نقاتل بلا إمام ، نخرجوا فضربوا أهل الشام حتى ردّوهم إلى مصافهم .

فكتب معاوية إلى قيس بن سعد يدعو ويثنيه ، فكتب إليه قيس : لا والله لا تلقاني أبداً إلا بيني وبينك الرّمح . فكتب إليه معاوية حينئذ لما يؤس منه :

أما بعد ؛ فإنك يهودىّ ابن يهودىّ ، تُشقى نفسك وتقتلها فيما ليس لك ؛ فإن ظهر أحبّ الفريقين إليك نذك وغدرك ، وإن ظهر أبغضهم إليك نكل بك وقتلك ؛ وقد كان أبوك أوتر غير قوسه ، ورمى غير غرضه ؛ فأكثر الحزب وأخطأ المِفصل ، نخذله قومه ، وأدركه يومه ، فمات بجوران طريدا غريبا . والسلام .

فكتب إليه قيس بن سعد :

أما بعد ؛ فإنما أنت وثن ابن وثن ، دخلت في الإسلام كرها ، وأقت فيه فرقا ، وخرجت منه طوعا ؛ ولم يجعل الله لك فيه نصيبا ، لم يقدم إسلامك ، ولم يحدث نفاقك ؛ ولم تزل حرباً لله ولرسوله ، وحزباً من أحزاب المشركين ، وعدواً لله ولنبيه وللمؤمنين من عباده . وذكرت أبى ، فلعمري ما أوتر إلا قوسه ، ولا رمى إلا غرضه ، فشغب عليه من لا يُشققُ عباره ، ولا يُبلغُ كعبه ؛ وزعمت أنى يهودىّ ابن يهودىّ ، وقد علمت وعلم الناس أنى وأبى أعداء الدّين الذى خرجت منه ، وأنصار الدين الذى دخلت فيه ، وصرت إليه . والسلام .

فلما قرأ معاوية كتابه غاظه ، وأراد إجابته ، فقال له عمرو : مهلا ، فإنك إن كاتبته أجابك بأشدّ من هذا ؛ وإن تركته دخل فيما دخل فيه الناس . فأمسك عنه .

قال : وبعث معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح ، فدعواه

إليه ، فزهداه في الأمر ، وأعطياه ما شرط له معاوية ، وألا يتبع أحد بما مضى ، ولا ينال أحد من شيعة عليّ بمكروه ، ولا يذكر عليّ إلا بخير ، وأشياء شرّطها الحسن . فأجاب إلى ذلك ، وانصرف قيس بن سعد فيمن معه إلى الكوفة ، وانصرف الحسن أيضا إليها ، وأقبل معاوية قاصدا نحو الكوفة ، واجتمع إلى الحسن عليه السلام وجوه الشيعة وأكابر أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام يلومونه ، ويكون إليه جزءا مما فعله (١) .

قال أبو الفرج : فحدثني محمد بن أحمد بن عبيد ، قال : حدثنا الفضل بن الحسن البصريّ قال : حدثنا ابن عمرو ، قال : حدثنا مكّي بن إبراهيم ، قال : حدثنا السريّ ابن إسماعيل ، عن الشعبيّ ، عن سفيان بن أبي ليلى . قال أبو الفرج : وحدثني به أيضا محمد بن الحسين الأشنادانيّ ، وعليّ بن العباس المقاتميّ (٢) ، عن عباد بن يعقوب ، عن عمرو بن ثابت ، عن الحسن بن الحكم ، عن عدى بن ثابت ، عن سفيان بن أبي ليلى ، قال : أتيتُ الحسن بن عليّ حين بايع معاوية ، فوجدته بقاء داره ، وعنده رهط ، فقلت : السلام عليك يا مدلّ المؤمنين ؛ قال : وعليك السلام يا سفيان ، ونزلت فعقلت راحتي ، ثم أتيته فجلست إليه ، فقال : كيف قلت يا سفيان ؟ قلت : السلام عليك يا مدلّ المؤمنين ! فقال : لم جرى هذا منك إلينا ؟ قلت : أنت والله بأبي وأمي أذلت رقابنا حيث أعطيت هذا الطاغية البيعة ، وسلّمت الأمر إلى اللعين ابن آكلة الأكباد ، ومعك مائة ألف كلهم يموت دونك ، فقد جمع الله عليك أمر الناس . فقال : يا سفيان ، إننا أهل بيت إذا علمنا الحقّ تمسكنا به ، وإني سمعتُ عليا يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « لا تذهب الليالي والأيام حتى يجتمع أمرُ هذه الأمة على رجل واسع السرّ (٣) ،

(١) مقاتل الطالبين ٦٤-٦٧ .

(٢) ب : « المقاتمي » تحريف .

(٣) في ب « السر » .

ضخم البلعوم ، يأكل ولا يشبع ، لا ينظر الله إليه ، ولا يموت حتى لا يكون له في السماء عاذر ، ولا في الأرض ناصر « ، وإنه معاوية ، وإني عرفت أن الله بالغ أمره .

ثم أذن المؤذن ، فقمنا على حالب نحلب ناقته ، فتناول الإناء ، فشرب قائماً ، ثم سقاني ، وخرجنا نمشي إلى المسجد ، فقال لي : ما جاء بك يا سفيان ؟ قلت : حبكم والذي بعث محمداً بالهدى ودين الحق ! قال : فأبشر يا سفيان ، فإني سمعتُ علياً يقول ؟ سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : يرد على الحوض أهل بيتي ومن أحبهم من أمتي كهاتين - يعني السبابتين ، أو كهاتين يعني السبابة والوسطى - إحداهما تفضل على الأخرى ، أبشر يا سفيان ؛ فإن الدنيا تسع البرِّ والفاجر ؛ حتى يبعث الله إمام الحق من آل محمد صلى الله عليه وآله (١) .

قلت : قوله : « ولا في الأرض ناصر » ، أي ناصر ديني ؛ أي لا يمكن أحداً أن ينتصر له بتأويل ديني يتكلف به عذراً لأفعاله القبيحة .

فإن قلت : قوله : « وإنه معاوية » من الحديث المرفوع ، أو من كلام عليٍّ عليه السلام ، أو من كلام الحسن عليه السلام ؟ قلت : الظاهر أنه من كلام الحسن عليه السلام ، فإنه قد غلب على ظنه أن معاوية صاحب هذه الصفات ، وإن كان القسم الأولان غير ممتنعين .

فإن قلت : فمن هو إمام الحق من آل محمد ؟ قلت : أمّا الإمامية فترجم أنه صاحبهم الذي يعتقدون أنه الآن حيٌّ في الأرض ؛ وأمّا أصحابنا فيزعمون أنه فاطميٌّ يخلقه الله في آخر الزمان .

قال أبو الفرج : وسار معاوية حتى نزل النُّخَيْلَةَ ، وجمع الناس بها فخطبهم قبل أن يدخل الكوفة خطبة طويلة لم ينقلها أحد من الرواة تامة ، وجاءت منقطعة في الحديث ، وسند كرم ما انتهى إلينا منها^(١) .

فأما الشعبي فإنه روى أنه قال في الخطبة : ما اختلف^(٢) أمر أمة بعد نبيا إلا وظهر أهل باطلها على أهل حقها ، ثم انتبه فندم فقال : إلا هذه الأمة فإنها وإنها
وأما أبو إسحاق السبيعي فقال : إن معاوية قال في خطبته بالنُّخَيْلَةِ : ألا إن كل شيء أعطيته الحسن بن عليّ تحت قدمي هاتين لا أفي به .

قال أبو إسحاق ؛ وكان والله غدارا .

وروى الأعمش عن عمرو بن مرّة ؛ عن سعيد بن سويد ، قال : صلّى بنا معاوية بالنُّخَيْلَةِ الجمعة ، ثم خطبنا ، فقال : والله إني ما قاتلتكم لتصلّوا ، ولا لتصوموا ، ولا لتحتجّوا ولا لتركّوا ، إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمّر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون .

قال : وكان عبد الرحمن بن شريك إذا حدّث بذلك ، يقول : هذا والله هو التّهتك .

قال أبو الفرج : وحدثني أبو عبيد محمد بن أحمد ، قال : حدثني الفضل بن الحسن البصري ، قال : حدثني يحيى بن معين قال : حدثني أبو حفص اللّبان^(٣) ، عن عبد الرحمن ابن شريك ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن حبيب بن أبي ثابت ، قال : خطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين عليهما السلام جالسان تحت المنبر ، فذكر عليا عليه

(١) مقاتل الطالبين : « من ذلك » . (٢) مقاتل الطالبين : « ما اختلفت أمة » .

(٣) في د « الأبار » .

السلام فنال منه ، ثم نال من الحسن ، فقام الحسين عليه السلام ليردّ عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال : أيها الذكر عليّاً ؛ أنا الحسن ، وأبي عليّ ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدّي رسول الله وجدك عُتبة بن ربيعة ، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة ، فلعن الله أمحلنا ذكراً ، والأمننا حسبا ، وشرّاً قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً ! فقال طوائف من أهل المسجد : آمين .

قال الفضل : قال يحيى بن معين : وأنا أقول : آمين .

قال أبو الفرج : قال أبو عبيد : قال الفضل : وأنا أقول : « آمين » ، ويقول عليّ بن

الحسين الأصفهاني ^(١) : آمين .

قلت : ويقول عبد الحميد بن أبي الحديد مصنف هذا الكتاب : آمين .

قال أبو الفرج : ودخل معاوية الكوفة بعد فراغه من خطبته بالنخيلة بين يديه خالد ابن عُرفطة ، ومعه حبيب بن حمّاد يحمل رايته . فلما صار بالكوفة دخل المسجد من باب الفيل ، واجتمع الناس إليه .

قال أبو الفرج : فحدثني أبو عبيد الصيرفيّ وأحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن محمد بن عليّ بن خلف ، عن محمد بن عمرو الرازيّ ، عن مالك بن سعيد ، عن محمد بن عبد الله الليثي ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، قال : بينما عليّ بن أبي طالب عليه السلام على منبر الكوفة ، إذ دخل رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ملئت خالد بن عرفطة ، فقال : لا والله [ما] ^(٢) مات ولا يموت حتى يدخل من باب المسجد ، وأشار إلى باب الفيل ، ومعه راية ضلالة يحملها حبيب بن حمّاد .

قال : فوثب رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا حبيب بن حمّاد ، وأنا لك شيعة ، فقال :

(١) مقاتل الطالبيين ٧٠ . (٢) تكملة من « د » .

فإنه كما أقول : فوالله لقد قدم خالد بن عرفطة على مقدمة معاوية يحمل رايته حبيب ابن حماد (١) .

قال أبو الفرج : وقال مالك بن سعيد ، وحدثني الأعمش بهذا الحديث ، قال : حدثني صاحب هذه الدار - وأشار إلى دار السائب أبي عطاء - أنه سمع عليا عليه السلام يقول هذا (٢) .

قال أبو الفرج : فلما تمّ الصلح بين الحسن ومعاوية أرسل إلى قيس بن سعد يدعوه إلى البيعة ، فجاءه - وكان رجلاً طوّالاً يركب الفرس المشرف ورجلاه تخطّان في الأرض ، وما في وجهه طاقة شعر ، وكان يسمّى خصى الأنصار . فلما أرادوا إدخاله إليه قال : إني حلفت ألا ألقاه إلا وبينى وبينه الرمح أو السيف ، فأمر معاوية برمح وسيف فوضعا بينه وبينه ليبرّ يمينه (٣) .

قال أبو الفرج : وقد روى أنّ الحسن لما صالح معاوية اعتزل قيس بن سعد في أربعة آلاف فارس فأبى (٤) أن يبايع ، فلما بايع الحسن أدخل قيس ليبايع ؛ فأقبل على الحسن ، فقال : أفي حلّ أنا من بيعتك ؟ فقال : نعم ، فألقى له كرسيّ ، وجلس معاوية على سرير والحسن معه ، فقال له معاوية : أتبايع يا قيس ؟ قال : نعم ، ووضع يده على فخذه ، ولم يمدّها إلى معاوية ، فجاء معاوية من سريره (٥) ، وأكبّ على قيس حتى مسح يده ، على يده وما رفع إليه قيس يده (٦) .

(١) مقاتل الطالبين : « حبيب بن عمار » .

(٢) مقاتل الطالبين ٧٠ ، ٧١ ، وهناك : « يقول هذه المقالة » .

(٣) ابن أبي الحديد ٧١ ، ٧٢ . (٤) د : « وأبى » .

(٤) في « د » : « فجثا معاوية على سريره » ، وكذا في مقاتل الطالبين .

(٦) مقاتل الطالبين ٧٢ .

قال أبو الفرج : ثم إن معاوية أمر الحسن أن يخطب ، فظن أنه سيُحصَر ، فقام فخطب ، فقال في خطبته^(١) : إنما الخليفةُ من سار بكتاب الله وسنة نبيه ؛ وليس الخليفةُ من سار بالجور ؛ ذاك رجل ملك مُلكاً تمتع به قليلاً ؛ ثم تنخّمه ، تنقطع لذته ، وتبقى تبعته ﴿ وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾^(٢) . قال : وانصرف الحسن إلى المدينة ، فأقام بها ، وأراد معاوية البيعة لابنه يزيد ؛ فلم يكن عليه شيء أثقل من أمر الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص ، فدرس إليهما سمّاً فاتا منه .

قال أبو الفرج : فحدثني أحمد بن عبيد الله بن عمّار ، عن عيسى بن مهزبان ، عن عبيد بن الصباح الحرّاز ، عن جرير ، عن مغيرة ، قال : أرسل معاوية إلى بنت الأشعث ابن قيس - وهي تحت الحسن - فقال لها : إني مزوجك يزيد ابني عليّ أن تسمي الحسن^(٣) ، وبعث إليها بمائة ألف درهم . ففعلت ، وسمت الحسن ، فسوغها المال ولم يزوجها منه ، فخلف عليها رجل من آل طلحة ، فأولدها ؛ فكان إذا وقع بينهم وبين بطن قريش كلام عيروهم ، وقالوا : يا بني مُسمّة الأزواج^(٤) .

قال : حدثني أحمد ، قال : حدثني يحيى بن بكير ، عن شعبة ، عن أبي بكر بن حفص ، قال : توفّي الحسن بن عليّ وسعد بن أبي وقاص في أيام متقاربة ؛ وذلك بعد ماضى من ولاية إمارة معاوية عشر سنين ؛ وكانوا يروون أنه سقاها السم^(٥) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عون ، عن عمران بن إسحاق ، قال : كنت مع الحسن والحسين عليهما السلام في الدار ، فدخل الحسن المخرج ، ثم خرج ، فقال : لقد سقيت السمّ مرارا ، ما سقيت مثل هذه المرّة ؛ لقد لفظت قطعة من كبدي فجعلت

(١) ب : « الخطبة » ، وأثبت ما في ا ، د . (٢) سورة الأنبياء ١١١ .

(٣) مقاتل الطالبين « ابن علي » . (٤) مقاتل الطالبين ٧٣ .

(٥) مقاتل الطالبين ٧٣ : « سقاها سما » .

أقلبها بموِدٍ معي . فقال الحسين : وَمَنْ سَقَاكَ ؟ قال : وما تريد منه ؟ أتريد أن تقتله !
إن يكن هو هو ، فالله أشدّ نِقمة منك ، وإن لم يكن هو فما أحبّ أن يؤخذ
بي برى^(١) .

قال أبو الفرج : دفن الحسن عليه السلام في قبرِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه
 وآله في البقيع ، وقد كان أوصى أن يدفن مع النبي صلى الله عليه وآله ، فنعج مروان بن
 الحكم من ذلك ، وركبت بنو أمية في السلاح ، وجعل مروان يقول :
 * ياربّ هَيْجَا هي خيرٌ من دَعَا^(٢) *

يدفن عثمان في البقيع ، ويدفن الحسن في بيت النبي صلى الله عليه وسلم !
والله لا يكون ذلك أبدا وأنا أحمل السيف ، وكادت الفتنة تقع ، وأبى الحسين
 عليه السلام أن يدفنه إلا مع النبي صلى الله عليه وسلم وآله ، فقال له عبد الله بن جعفر :
 عزمت عليك يا أبا عبد الله بحق ألا تكلم بكلمة ! فضوا به إلى البقيع ، وانصرف
 مروان^(٣) .

قال أبو الفرج : وقد روى الزبير بن بكار أنّ الحسن عليه السلام أرسل إلى عائشة
 أنّ تاذن له أنّ يدفن مع النبي صلى الله عليه وآله ، فقالت : نعم ، فلما سمعت بنو أمية
 بذلك استلأموا في السلاح ، وتنادوا هم وبنو هاشم في القتال ؛ فبلغ ذلك الحسن ، فأرسل
 إلى بني هاشم : أما إذا كان هذا فلا حاجة لي فيه ؛ ادفنوني إلى جنب أُمِّي ، فدفن إلى جنب
 فاطمة عليها السلام^(٤) .

قال أبو الفرج : فأما يحيى بن الحسن صاحب كتاب "النسب" ، فإنه روى أن عائشة

(٢) مطلع أرجوزة للبيد ، الأغاني ١٦ : ٢٢ - ساسي -

(٤) مقال الطالبيين ٧٥ .

(١) مقال الطالبيين ٧٤

(٣) مقال الطالبيين ٧٤ .

ركبت ذلك اليوم بغلاً واستنفرت بنو أمية مروان بن الحكم ومن كان هناك منهم
ومن حشمهم وهو قول القائل :

* فيوماً على بغلٍ ويوماً على جمل (١) *

قلت : وليس في رواية يحيى بن الحسن ما يؤخذ على عائشة ، لأنه لم يرو أنها استنفرت
الناس لما ركبت البغل ، وإنما المستنفرون هم بنو أمية ؛ ويجوز أن تكون عائشة ركبت
لتسكين الفتنة ، لا سيما وقد روى عنها أنه لما طلب منها الدفن قالت : نعم ، فهذه الحال
والقصة من مناقب عائشة .

قال أبو الفرج : وقال جويرية بن أسماء : لما مات الحسن وأخرجوا جنازته جاء مروان
حتى دخل تحتها فحمل سريره ، فقال له الحسين عليه السلام : أتحمل اليوم سريره وبالأمس
كنت تجرّعه الغيظ ! قال مروان : كنت أفعل ذلك بمن يوازن (٢) حلمه الجبال (٣) .

قال : وقدم الحسين عليه السلام للصلاة عليه سعيد بن العاص ، وهو يومئذ أمير المدينة،
وقال : تقدّم فلولا أنها سنة لما قدمتك (٣) .

قال : قيل لأبي إسحاق السبّعيّ : متى ذلّ الناس ؟ فقال : حين مات الحسن ؛
وادّعى زياد ، وقتل حُجْر بن عدى (٣) .

قال : اختلف الناس في سنّ الحسن عليه السلام وقت وفاته ، فقيل : ابن ثمان وأربعين
— وهو المرويّ عن جعفر بن محمد عليه السلام في رواية هشام بن سالم — وقيل : ابن ستّ
وأربعين ، وهو المرويّ أيضاً عن جعفر بن محمد عليه السلام في رواية أبي بصير .

(٢) د : « يوازي » ؛ وهو وجه أيضا .

(١) مقاتل الطالبين ٧٤ .

(٣) مقاتل الطالبين ٧٦ .

قال : وفي الحسن عليه السلام يقول سليمان بن قتة يرثيه ، وكان محباً له :
يا كذّاب الله من نعى حسناً ليس لتكذيب نعيه ممن (١)
كنت خليلي وكنت خالصتي لكلّ حي من أهله سكن
أجول في الدار لا أراك وفي الدار أناس جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت أنهم أضحووا وبينى وبينهم عدن

ثم نرجع إلى تفسير ألفاظ الفصل ..

أما قوله : « كتبها إليه بحاضرين » ؛ فالذي كُنّا نقرؤه قديماً ؛ « كتبها إليه بالحاضرين »
على صيغة التثنية ؛ يعني حاضر حلب وحاضر قنسرين ، وهي الأرباض والضواحي المحيطة
بهذه البلاد ؛ ثم قرأناه بعد ذلك على جماعة من الشيوخ بغير لام ؛ ولم يفسروه ؛ ومنهم
من يذكره بصيغة الجمع لا بصيغة التثنية ، ومنهم من يقول بخصائرين ، يظنونه تثنية
خاصرة أو جمعها ، وقد طلبت هذه الكلمة في الكتب المصنفة ، سيما في البلاد
[والأرضين (٢)] فلم أجدها ، ولعلّي أظفر بها فيما بعد فألحقها في هذا الموضوع .

قوله : « من الوالد الفان » ، حذف الياء هاهنا للاندواج بين « الفان » و « الزمان » ،
ولأنه وقف ، وفي الوقف على المنقوص يجوز مع اللام حذف الياء وإثباتها ، والإثبات هو
الوجه ، ومع عدم اللام يجوز الأمران وإسقاط الياء هو الوجه .

قوله : « المقرّ للزمان » أي المقرّ له بالغلبة ، كأنه جعل نفسه فيما مضى خصماً للزمان

بالقهر .

قوله : « المدبر العمر » ، لأنه كان قد جاوز الستين ، ولم يبق بعد مجاوزة الستين
إلا إدبار العمر ، لأنها نصف العمر الطبيعي الذي قلّ أن يبلغه أحدٌ ، فعلى تقدير أنه

(١) مقاتل الطالبين ٧٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٤٤ . (٢) من ١ .

يبلغه ، فكلّ ما بعد الستين أقلّ مما مضى ، فلا جرم يكون العمر قد أدر .

قوله : « المستسلم للدهر » ؛ هذا أكد من قوله : « المقرّ للزمان » لأنه قد يقرّ الإنسان

لخصمه ولا يستسلم .

قوله : « الذام للدنيا » هذا وصف لم يستحدثه عند الكبر ، بل لم يزل عليه ، ولكن

يجوز أن يزيد ذمّه لها ، لأنّ الشيخ تمقّص قواه التي يستعين بها على الدنيا والدين جميعا ،

ولا يزال يتأفّف من الدنيا .

قوله : « الساكن مساكن الموتى » ، إشعار بأنّه سيموت ، وهذا من قوله تعالى : ﴿ وَسَكَنتُمْ

فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ (١) .

قوله : « الظاعن عنها غداً » ، لا يريد الغد بعينه ، بل يريد قرّب الرّحيل والظّمّن .

وهذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام كلام من قد أيقن بالفراق ، ولا ريب

في ظهور الاستكانة والخضوع عليه ، ويدلّ أيضا على كرب وضيق عطنٍ ، لكونه

لم يبلغ أربه من حرب أهل الشام ، وانعكس ما قدره بتخاذل أصحابه عنه ، وتفوذ حكم

عمرو بن العاص فيه لحقّ أبي موسى وغباوته وانحرافه أيضا .

قوله : « إلى المولود » هذه اللفظة بإزاء « الوالد » .

قوله : « المؤمل ما لا يدرك » ، لو قال قائل : إنه كنى بذلك عن أنه لا ينال الخلافة بعد

موتى وإن كان مؤملا لها لم يُبعد ، ويكون ذلك إخبارا عن غيب ، ولكن الأظهر أنّه لم

يرد ذلك ، وإنما أراد جنس البشر لا خصوص الحسن ، وكذلك سائر الأوصاف التي تلي

هذه اللفظة لا تخصّ الحسن عليه السلام بعينه ، بل هي وإن كانت له في الظاهر بل هي للناس

كلّهم في الحقيقة ، ألا ترى إلى قوله بعدها : « السالك سبيل من قد هلك » ، فإن كل

واحد من الناس يؤمل أمورا لا يدركها ، وكلّ واحد من الناس سالك سبيل من هلك قبله

قوله عليه السلام : « غرض الأَسقام » لأنَّ الإنسان كالمهدف لآفات الدنيا وأعراضها .
قوله عليه السلام : « ورهينة الأيام » الرهينة هاهنا : المهزول يقال : إنه رهين وإنه
لرهينة ؛ إذا كان مهزولاً بالياء قال الراجز :

إِذَا تَرَى جِسْمِي خَلَاءٍ قَدْ رَهَنْ هَزَلًا وَمَا مَجْدُ الرَّجَالِ فِي السَّمَنِ^(١)

ويجوز أن يريد بالرهينة واحدة الرهائن ؛ يقال للأسير أو للزمن أو للعاجز عند الرحيل :
إنه لرهينة ؛ وذلك لأنَّ الرهائن محتبسة عند مرتبتها .
قوله : « ورمية المصائب » ، الرمية ما يرمى .

قوله : « وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا » ؛ لأنَّ الإنسان طوع شهواته ، فهو
عبد الدنيا ، وحركاته فيها مبنية على غرور لا أصل له ، فهو تاجر الغرور لا محالة ؛ ولما كانت
المنايا تطالبه بالرحيل عن هذه الدار كانت غريماً له يقتضيه ما لا بدَّ له من أدائه .

قوله : « وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحران ، ونصب الآفات ، وسريع
الشهوات » ، لما كان الإنسان مع الموت ، كما قال طرفة :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لِكَاطُولِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ^(٢)

كان أسيراً له لا محالة ؛ ولما كان لا بدَّ لكلِّ إنسان من الهمِّ كان حليف الهموم ؛
وكذلك لا يخلو ولا ينفك من الحزن ، فكان قريناً له ، ولما كان معرضاً للآفات كان نصيباً
لها ، ولما كان إنما يهلك بشهواته كان سريعاً لها .

قوله : « وخليفة الأموات » قد أخذ من قال : إنَّ امرأً ليس بينه وبين آدم إلا أب
ميت ، لمعرق في الموت .

واعلم أنه عدَّ من صفات نفسه سبعمائة ، وعدَّ من صفات ولده أربع عشرة صفة ، فجعل

(١) الصحاح ٢١٢٨ من غير نسبة .

(٢) من المعلقة بشرح التبريزي ٨٦ . الطول : الجبل ، وثنياء : مائتي منه .

(٣) ١ : « صريعها » .

بإزاء كلِّ واحدة بما له اثنتين ، فليلمح ذلك .

[بعض ما قيل من الشعر في الدهر وفعله بالإنسان]

ومن جيد ما نعى به شاعر نفسه ، ووصف ما نقص الدهر من قواه ، قول عوف بن محمّ

الشيبيانيّ في عبد الله بن طاهر أمير خراسان :

يَا بَنَ الَّذِي دَانَ لَهُ الْمَشْرِقَانُ وَأَلْبَسَ الْأَمْنَ بِهِ الْمَغْرِبَانُ^(١)
إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلِّغْتَهَا
وَبَدَّلْتَنِي بِالشُّطَاظِ أَنْحِنَا وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السَّنَانِ^(٢)
وَقَارِبْتُ مِنِّي خُطَاً لَمْ تَكُنْ مَقَارِبَاتٍ وَثَنَتْ مِنْ عَنَانِ
وَعَوَّضْتَنِي مِنْ زَمَاعٍ الْفَتَى وَهَمَّهُ هَمُّ الْجَبَانِ الْهَدَانِ^(٣)
وَأَنْشَأْتَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَرَى عِنَانَةً مِنْ غَيْرِ نَسْجِ الْعِنَانِ^(٤)
وَلَمْ تَدْعُ فِيَّ لِمَسْتَمِعٍ إِلَّا لِسَانِي وَكَفَانِي لِسَانَ^(٥)
أَدْعُو بِهِ اللَّهُ وَأُثْنِي بِهِ عَلَى الْأَمِيرِ الْمَصْعَبِيِّ الْهَيْجَانِ^(٦)

(١) أمالي القالي ١ : ٥٠ ، وروايته :

* طرّاً وقد دان له المغربان *

(٢) الشطاط: حسن القوام والاعتدال . والصعدة : القناة المستوية تبت كذلك لا تحتاج إلى تثقيف .

(٣) الزماع : المضاء في الأمر والعزم عليه . والهدان : الأحمق الجافي .

(٤) العنان هنا : السحاب : يشير بهذا إلى ضعف بصره . وأنه لا يرى الورى إلا من وراء سحابة .

(٥) الأمالي : « ويجسب لسان » .

(٦) الهيجان . الكريم ؛ وبعده في الأمالي :

فقرّباني بأبي أنتمّا من وطني قبلَ اصفرار البنانِ
وقبل منعاى إلى نسوة أوطانها حرّانُ والرقتانِ

ومن الشعر القديم الجيد في هذا المعنى قول سالم بن عونة الضبي :

لا يبعذنَّ عَصْرُ الشباب ولا لذاته ونباته النَّصْرُ
والشرفاتُ من الخدور كأيِّ ماض الغمام يَجُودُ بالقطرِ
وطراد خيل مثلها التقتا لحفيظةٍ ومقاعد الخمرِ
لَوْلَا أولئك ما حلفت مَتَى عوليتُ في خَرَجٍ إلى قبرى
هربت زبيبة أن رأت ثَرَمِي (١) وأن انحنى لتقدمِ ظهري
من بعد ما عهدت فادلفني يومٌ يمرُّ وليلة تسرى
حتى كائى خاتلُ قنصاً (٢) والمرء بعد تمامه يجرى
لا تهزنى منى زيب فما فى ذلك من عَجَبٍ ولا سخرِ
أو لم تَرى لقمان أهلكه ما اقتات من سنة ومن شهرِ
وبقاء نسرٍ كلما انقرضت أيامه عادتُ إلى نسرِ
ما طال من أمدٍ على لبُدٍ رجعت محارته إلى قصرِ
ولقد حَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ وعلمت ما آتِي مِنَ الأمرِ

أنا أستفصح قوله : « ما اقتات من سنة ومن شهر » جعل الزمان كالقوت له ، ومن اقتات الشيء فقد أكله ، والأكل سبب المرض ، والمرض سبب الهلاك .

(١) الثرم : انكسار السن .

(٢) الخاتلة : مشى الصياد قليلا قليلا فى خفية لئلا يسمع الصيد حسه .

(٣) فى اللسان : « تزعم العرب أن لقمان هو الذى بعثته عاد فى وفدها إلى الحرم يستسق لها ؛ فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر ، من أطب عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسها القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر ، فاختر النصور ، فكان آخر نسوره يسمى لبدا ؛ وقد ذكرته الشعراء ؛ قال النابغة :

أضحتُ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليهما الذى أخنى على لبُدٍ

الأصل :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ ، وَإِقْبَالَ
الْآخِرَةِ إِلَيَّ ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرٍ مِنْ سِوَايَ ، وَالِإِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي ، غَيْرَ أَيْ
حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي - فَصَدَّقَنِي رَأْيِي ، وَصَرَفَنِي عَنْ
هَوَايَ ، وَصَرَّحَ لِي بِمَحْضِ أَمْرِي ، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدِّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَمَبٌ ،
وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ - وَجَدْتُكَ بَعْضِي ، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي ، حَتَّى كَأَنَّ
شَيْئًا لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي ، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي ، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ
مَا يَمِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي ، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا مُسْتَظْهِرًا بِهِ إِنَّ أَنَا بَقِيْتُ لَكَ
أَوْ فَنَيْتُ .

الشَّرْحُ :

يزعني : يكفني ويصدني ، وزعتُ فلاناً ، ولا بد للناس من وزعة .
وسوى ، لفظة تقصر إذا كسرت سيناها ، وتمدد إذا فتحتها ؛ وهي هاهنا بمعنى غير ،
ومن قبلها بمعنى شيء منكراً ، كقوله :
* رَبِّ مَنْ أَنْضَجَتْ غَيْظًا قَلْبَهُ (١) *

والتقدير : غير ذكر إنسان سواي ، ويجوز أن تكون « مَنْ » موصولة ، وقد حذف
أحد جزأي الصلة ، والتقدير عن ذكر الذي هو غيري ، كما قالوا في : ﴿ لَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ
شِيْعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ ﴾ ، أي هو أشد . يقول عليه السلام : إن فيما قد بان لي من تنكر الوقت
وإدبار الدنيا وإقبال الآخرة شاغلاً لي عن الاهتمام بأحد غيري ، والاهتمام والفكر
في أمر الولد وغيره ممن أخلفه ورأى .

(١) بقيته : * تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَمْ *

والبيت لسويد بن أبي كاهل البشكري . المفضليات ١٩٨ .

ثم عاد فقال : إلا أن همى بنفسى يقتضى اهتامى بك ، لأنك بمضى بل كلّى ، فإن كان
اهتامى بنفسى يصرفنى عن غيرى لم تكن أنت داخلا فى جملة من يصرفنى همى بنفسى
عنهم ؛ لأنك لست غيرى .

فإن قلت : أفهذا الهمّ حدث لأمير المؤمنين عليه السلام الآن ، أو من قبل لم يكن عالما
بأن الدنيا مدبرة ، والآخرة مقيلة ؟

قلت : كلا بل لم يزل عالما عارفا بذلك ، ولكنه الآن تأكد وقوى ، بطريق
علوّ السنّ وضعف القوى ، وهذا أمر يحصل للإنسان على سبيل الإيجاب ، لا بدّ من حصوله
لكلّ أحد ، وإن كان عالما بالحال من قبل ؛ ولكن ليس العيان كالخبر .

ومن مستحسن ما قيل فى هذا المعنى قول أبى إسحاق الصابى :

أقبيك الردى إني تنبّهت من كرى وسهوه على طول المدى أعتريانى
فأبئت شخصا دانياً كلن خافياً على البعد حتى صار نُصب عيانى
هو الأجل المحتوم لى جدّ جدّه وكان يرينى غفلة المتوانى
له نذرٌ قد آذنتنى بهجمه له لست منها آخذاً بأمانِ
ولا بدّ منه ممهلاً أو معاجلاً سيأتى فلا يثنيه عنى ثانِ

وأول هذه القصيدة وهو داخل له فى هذا المعنى أيضا :

إذا ما تعدّت بى وسارت محبةً لها أرجلٌ يسعى بها رجلاّنِ
وما كنت من فرسانها غير أنّها وقت لى لما خانت القدمانِ
نزلتُ إليها عن سراة حصانى بحكم مشيبٍ أو فراشِ حصانِ^(١)
فقد حملت منى ابن سبعين سالكاً سيلا عليها يسلك الثقلانِ

كما حمل المهْدَ الصبيُّ وقبلها ذعرت أسودُ الثيلِ بالنزوانِ (١)
ولى بعدها أخرى تسمى جنازة (٢) جنيبة يومَ للمنيّةِ داني
تسير على أقدامٍ أربعةٍ إلى ديار البلي معدودهنّ ثمانِ
وإني على عيِّثِ الرديّ في جوارحي وما كفّ من خطوى وبطشِ بناني
وإن لم يدعُ إلا فؤادا مُروّعاً به غيرُ باقٍ من الحدّثانِ (٣)
تلوّم تحت الحجبِ ينفثُ حُكمه إلى أذنٍ تُصغى لنطقِ لسانِ (٤)
لأعلمُ أنّي ميت عاقَ دفنه ذمّاً قليل في غدٍ هو فانِ
وإنّ فمّاً للأرضِ غرثانِ حامّاً يراصد من أكلّي حضورِ أوانِ
به شرّةٌ عمّ الوريّ بفجائعِ تركن فلاناً ثاكلاً لفلانِ
غداً فاعرّاً يشكو الطوى وهو راتع فا تلتقى يوماً له الشفقتانِ
إذا عاضنا بالنّسلِ ممن نعوّله تلا أوّلاً منه بهلكِ ثانِ
إلى ذات يومٍ لا ترى الأرضِ وارثاً سوى الله من إنسٍ تراه وجانِ

قوله : « تفرّد بي دون هموم الناس همّ نفسي » أي دون الهموم التي قد كانت تعتريني

لأجل أحوال الناس .

فصدّقني رأيي ؛ يقال : صدقته كذا أي عن كذا ، وفي المثل : « صدقني سنّ بكره »
لأنه لما نفر قال له : هدع (٥) ، وهي كلمة تسكن بها صفار الإبل إذا نفرت ؛ والمعنى أن هذا
الهمّ صدقني عن الصفة التي يجب أن يكون رأيي عليها وتلك الصفة هي ألا يفكر في

(١) الثيل : الشجر الكثير الملتف . (٢) الجنازة بالكسر : ما يحمل عليه الميت .

(٣) الحدّثان : غير الدهر ونوابه . (٤) تلوّم : أي انتظر .

(٥) في اللسان : « هدع هدع ، بكسر الفاء وفتح الدال وتسكين العين : كلمة يسكن بها صفار الإبل .

عند النفار ؛ ولا يقال ذلك لجلتها ولا مسانها ؛ وزعموا أن رجلاً أتى السوق ببكر له يبيعه ، فساومه رجل .

فقال : بكم البكر ؟ فقال : إنه جل ؛ فقال : هو بكر ؛ فبينما هو يماريه إذ نقر البكر ، فقال صاحبه :

هدع هدع ، ليسكن نفاره ، فقال المشتري : صدقني سنّ بكره ؛ وإنما يقال : هدع للبكر ليسكن » .

أمر شيء من الموجودات أصلاً إلا الله تعالى ونفسه ؛ وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى جدا وهي ألا تفكر في شيء قطّ إلا في الله وحده ، وفوق هذه الطبقة طبقة أخرى تجلّ عن الذكر والتفسير ، ولا تصلح لأحد من المخلوقين إلا النادر الشاذ ، وقد ذكرها هو فيما سبق ، وهو ألا يفكر في شيء أصلاً ، لا في المخلوق ولا في الخالق ؛ لأنه قد قارب أن يتحد بالخالق ، ويستغنى عن الفكر فيه .

قوله : « وصرّفتني عن هواي » أي عن هواي وفكري في تدبير الخلافة وسياسة الرعيّة والقيام بما يقوم به الأئمة .

قوله عليه السلام : « وصرّح لي محض أمرى » يروى بنصب محض « ورفعه » ؛ فمن نصب فتقديره : عن محض أمرى ؛ فلمّا حذف الجار نصب ، ومن رفع جعله فاعلاً . وصرّح : كشف أو انكشف .

قوله : « فأفضى بي إلى كذا » ، ليس بمعنى أنه قد كان من قبل يمازج جدّه باللعب ؛ بل المعنى أنّ همومه الأولى قد كانت بحيث يمكن أن يتخلّلها وقت راحة أو دُعاة لا يخرج بها عن الحق ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يمزح ولا يقول إلا حقا ، فالآن قد حدث عنده هم لا يمكن أن يتخلّله من ذلك شيء أصلاً ، ومدار الفرق بين الحالتين - أعنى الأولى والثانية على إمكان اللعب لا نفس اللعب وما يلزم من قوله : « أفضى لك بي هذا لهم » إلى انتفاء إمكان اللعب أن تكون همومه الأولى قد كان يمازجها اللعب ؛ ولكن يلزم من ذلك أنها قد كانت يمكن ذلك فيها إمكانا محضاً على أنّ اللعب غير منكر إذا لم يكن باطلاً ، ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وآله : « المؤمن دعب لعب » ، وكذلك القول في قوله : « وصدق لا يشوبه كذب » أي لا يمكن أن يشوبه كذب ؛ وليس المراد بالصدق والكذب هاهنا مفهومهما المشهورين ؛ بل هو من قولهم : صدّقونا اللقاء ، ومن قولهم : حمل عليهم فما كذب ! قال زهير :

ليثٌ بعثرَ يصطاد اللبثَ إذا ما كذبَ الليثَ عن أقرانه صدَقاً^(١)
أى أفضى بي هذا الهمَّ إلى أن صدقتنى الدنيا حربها ، كأنه جعل نفسه محارباً للدنيا ،
أى صدقتنى الدنيا حربها ولم تكذب ، أى لم تجبن ولم تخنُ .
أخبر عن شدة اتحاد ولده به ، فقال وجدتك بعضى ، قال الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا أ كبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الرِّيح على بعضهم لا متنتع عيني من الغمض

وغضب معاوية على ابنه يزيد ، فهجره ، فاستعطفه له الأحنف ، قال له : يا أمير المؤمنين ،
أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماء ظليلة ، وأرض ذليلة ، فإن غضبوا
فأرضهم ، وإن سألوا فأعطيهم ، فلا تكن عليهم قفلاً فيملؤا حياتك ، ويتمنوا موتك .
وقيل لابنة الخس^(٢) : أى ولديك أحب إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والمريض
حتى يبرأ ، والغائب حتى يقدم .

غضب الطرمّاح على امرأته فشفع فيها ولده منها صمصام ، وهو غلام لم يبلغ عشرة ،
فقال الطرمّاح :

أصمصامُ إن تشفع لأُمَّك تلقها لها شافعُ في الصّدْر لم يتزحزح^(٣)
هلّ الحبّ إلا أنها لو تعرّضت لذبحك يا صمصامُ قلتَ لها : اذبحي
أحاذر يا صمصامُ إن متّ أن يلى تُرائي وإيّاك امرؤٌ غير مصلح
إذا صكّ وسط القوم رأسك صكّة يقول له الناهى : ملكت فأسجّح

وفى الحديث المرفوع : « إن ريح الولد من ريح الجنة » .

(١) ديوانه ٥٤ : وكذب ، أى لم يصدق الحملة . وعثر : قبل تبالة .

(٢) ب : « الحسن » تحريف ، صوابه من ا ، د .

(٣) ديوانه ١٣٦ ، وفيه : « لم يتزحزح » .

وفي الحديث الصحيح أنه قال لحسن وحسين عليهما السلام : « إنكم لتجبتون ، وإنكم لتبخّلون ، وإنكم لمن ربحان الله » .

ومن ترقيص الأعراب قول أعرابية لولدها :

ياحبذا ريحُ الولدِ ريحُ الخزامى في البلدِ

أهكذا كلّ ولدٍ أم لم يلدْ قبلي أحدٌ !

وفي الحديث المرفوع : « من كان له صبيّ فليستصب له » .

وأنشد الرياشي :

من سرّه الدهر أن يرى الكبدا يمشى على الأرض فليرَ الولدا

الأضل :

فإني أوصيك بتقوى الله - أي بُني - ولزوم أمره ؛ وعمارة قلبك بذكره ،
والاعتصام بحبّله ، وأى سببٍ أوثق من سبب بينك وبين الله ؛ إن أنت
أخذت به !

أحى قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره بالحكمة ،
وذللّه بذكر الموت ؛ وقرّره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا ؛ وحدّره صولة الدهر
وفحش تقلب الليالي والأيام ؛ وأعرض عليه أخبار الماضين ، وذكّره بما أصاب
من كان قبلك من الأولين .

وسرّ في ديارهم وآثارهم ، فأنظر فيما فعلوا ، وعمّا انتقلوا ، وأين حلّوا ونزلوا !
فإنك تجدهم انتقلوا عن الأحبة ، وحلّوا دار الغربة ؛ وكأنك عن قليل قد
صرت كأحدهم .

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ
وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلِّفْ ؛ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقِ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ ، فَإِنَّ الْكَفَّ
عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ .

الشرح :

قوله عليه السلام : « وأى سبب أوثق » ؛ إشارة إلى القرآن لأنه هو المعبر عنه بقوله
تعالى : ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (١) .

ثم أتى بلفظتين متقابلتين ، وذلك من لطيف الصنعة ؛ فقال : « أحي قلبك بالموعظة ،
وأمته بالزهادة » ؛ والمراد إحياء دواعيه إلى الطاعة وإماتة الشهوات عنه .

قوله عليه السلام : « واعرض عليه أخبار الماضين » معنى قد تداوله الناس ،
قال الشاعر :

سل عن الماضين إن نطقت عنهم الأجداث والتُّركُ
أى دار للبلى نزلوا وسيل للردى سلكوا

قوله عليه السلام : « ودع القول فيما لا تعرف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله
لعبد الله بن عمرو بن العاص : « يا عبد الله ، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس ،
مرجت عهودهم وأماناتهم وصار الناس هكذا ! » - وشبك بين أصابعه - ؛ قال عبد الله :
فقلت : مُرّنى يا رسول الله ، فقال : « خذ ما تعرف ، ودع ما لا تعرف ، وعليك بخويصة
تفسك » .

قوله : « والخطاب فيما لم تكلف » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « من حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، وقال معاوية في عبد الملك بن مروان وهو حينئذ غلام : إن لهذا الغلام لهمة ، وإنه مع ذلك تارك ثلاث آخذ بثلاث : تارك مساءة الصديق جدًّا وهزلاً ، تارك ما لا يعنيه ، تارك ما لا يعتذر منه ، آخذ بأحسن الحديث إذا حدث ، وبأحسن الاستماع إذا حدث ، وبأهون الأمرين إذا خُوف .

قوله عليه السلام : « وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالتك » ، مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وآله : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » ، وفي خبر آخر : « إذا رابك أمره فدعه » .

الأضل :

وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ ، وَبَابِنِ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهدِكَ ، وَجَاهِدْ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ .
وَخُضِ الْعِمْرَاتِ إِلَى الْحَقِّ حَيْثُ كَانَ ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ ؛ وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ !
وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى إِلَهِكَ ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَى كَهْفِ حَرِيْرٍ ،
وَمَا نِعَ عَزِيْرٍ .

وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ ؛ فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحَرَمَانَ ، وَأَكْثَرَ الْأَسْتِخَارَةِ ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي ، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحًا ، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ .

الشَّرْحُ :

أمره أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهما واجبان عندنا ، وأحد الأصول الخمسة التي هي أصول الدين .

ومعنى قوله : « تكن من أهله » ؛ لأن أهل المعروف هم الأبرار الصالحون ، ويجب إنكار المنكر باللسان ، فإن لم ينجح فباليد ، وتفصيل ذلك وترتيبه مذكور في كتبي الكلامية .

قوله : « وَخُصِّ الغمرات إلى الحق » ، لا شبهة أن الحسن عليه السلام لو تمكن لخاضها إلا أن مَنْ فقد الأنصار لا حيلة له .

* وهل ينهض البازي بغير جناح *

والذي خاضها مع عدم الأنصار هو الحسين عليه السلام ، ولهذا عظم عند الناس قدره ، فقدمه قوم كثير على الحسن عليه السلام .

فإن قلت : فما قول أصحابكم في ذلك ؟

قلت : هما عندنا في الفضيلة سيان ، أما الحسن فلو قوفه مع قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا ﴾ ، وأما الحسين فلا عزاز الدين .

قوله : « فنعم التصبر » قد تقدم منا كلام شافٍ في الصبر .

وقوله : « وأكثر الاستخارة » : ليس يعني بها ما يفعله اليوم قوم من الناس من سَطَّرَ رقائق وجعلها في بنادق ، وإنما المراد أمره إياه بأن يطلب الخيرة من الله فيما يأتي . ويذر .

قوله : « لا خير في علم لا ينفع » قول حق ، لأنه إذا لم ينفع كان عبثاً .

قوله : « ولا ينتفع بعلم لا يحقُّ تعلمه » ، أى لا يجب ولا يندب إليه ؛ وذلك لأن النفع إنما هو نفع الآخرة ، فما لم يكن من العلوم مرغبا فيه إما بإيجاب أو ندب فلا انتفاع به في الآخرة ، وذلك كعلم الهندسة والأرثماطيق ونحوها .

الأصل :

أَيُّ بُنَى ، إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنًّا ، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهَنًا ، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ ، وَأَوْرَدْتُ خِصَالًا مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أَفْضِيَ إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي ، أَوْ أَنْ أَنْقُصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُفِصْتُ فِي جِسْمِي ، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفَنِّ الدُّنْيَا ، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ .

وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أَلْقَى فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبْلَتْهُ ؛ فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُو قَلْبُكَ ، وَيَسْتَعْلَ لُبُّكَ ، لِتَسْتَقْبَلَ بِحِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ ، فَتَكُونَ قَدْ كُفَيْتَ مَثُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعُوفِيَتْ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ ، فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ .

الشَّرْحُ :

هذه الوصية كتبها عليه السلام للحسن بعد أن تجاوز الستين ، وروى أنه ذكر عند رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الستين والسبعين ، فقال : « معترك المنايا » .
قوله عليه السلام : « أو أن أنقص في رأيي » هذا يدل على بطلان قول من قال :
إنه لا يجوز أن ينقص في رأيه ، وأن الإمام معصوم عن أمثال ذلك ، وكذلك قوله

للحسن : « أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى وفتن الدنيا » يدلّ على أن الإمام لا يجب أن يعصم عن غلبات الهوى ؛ ولا عن فتن الدنيا .

قوله : « فتكون كالصَّعب النَّفور » ؛ أى كالبعير الصعب الذى لا يُمكن رَاكبا ، وهو مع ذلك نفور عن الأُنس .

ثم ذكر أن التعلّم إنما هو فى الصِّبَا ، وفى المثل : « النِّلام كالطَّين يقبل الختم ما دام رطباً » .

وقال الشاعر :

اختم وطينك رطبٌ إن قدرت فكهم^١ قد أمكن الختم أقواماً فما ختموا
ومثل هو عليه السلام قلب الحدّث بالأرض الخالية ، ما ألقى فيها من شىء قبلته ،
وكان يقال : التعلّم^(١) فى الصغر كالنقش فى الحجر ، والتعلّم^(١) فى الكبر كالخطّ على الماء .
قوله : « فأناك من ذلك ما كنّا نأتيه » أى الذى كنّا نحن نتجشم المشقه فى
اكتسابه ، وتكلّف طلبه ؛ يأتيك أنت الآن صفوّاً عفوّاً .

الأضلّ :

أى بنى ، إني وإن لم أكن عمّرتُ عُمرَ من كان قبلي ، فقد نظرتُ فى أعْمالِهِمْ ،
وفكّرتُ فى أخبارِهِمْ ، وسرتُ فى آثارِهِمْ ؛ حتّى عدتُ كأحدِهِمْ ؛ بل كأني بما
أنتهى إلى من أمورههم ؛ قد عمّرتُ مع^(٢) أوْلِهِمْ إلى آخرِهِمْ ؛ فعرفتُ صفو ذلك من
كدرِهِ ، ونفعه من ضرره ؛ فاستخاضتُ لك من كلِّ أمرٍ جليله ، وتوحّيتُ لك

(١) د : « العلم » . (٢) د « من » .

جَمِيلَهُ ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُوَلَهُ ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ
الشَّفِيقَ ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمْرِ وَمُقْتَبِلُ
الدَّهْرِ ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ ، وَأَنْ أَبْتَدِثُكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
وَتَأْوِيلِهِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ
إِلَى غَيْرِهِ . ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبَسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ
وَأَرَائِهِمْ ، مِثْلَ الَّذِي أَلْتَبَسَ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَى مَا كَرِهْتُ مِنْ
تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَيَّ أَمْرًا لَا أَمْنٌ عَلَيْكَ فِيهِ ^(١) الْهَلَكَةَ ،
وَرَجَوْتُ أَنْ يُوقَفَكَ اللَّهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، وَأَنْ يَهْدِيكَ لِقَصْدِكَ ، فَمَهَّدْتُ إِلَيْكَ
وَصَيَّتِي هَذِهِ .

الْبَيْتُ :

هذا الفصل وما بعده يشعر بالنهاى عن علم الكلام حسب ما يقتضيه ظاهر لفظه ،
ألا تراه قال له : كنت عازما على أن أعلمك القرآن وتفسيره والفقهاء وهو المعرفة بأحكام
الشريعة ، ولا أجاوز ذلك بك إلى غيره ، ثم خفت أن تدخل عليك شبهة في أصول الدين
فيلتبس عليك في عقيدتك الأصلية ما يلتبس على غيرك من الناس ، فعدلت عن العزم
الأول إلى أن أوصيك بوصايا تتعلق بأصول الدين .

ومعنى قوله عليه السلام : « وكان ^(٢) إحصاء ذلك » إلى قوله : « لا آمن عليك
به الهلكة » ، أى فكان إحصاء الأمور الأصلية عندك وتقرير الوصية التي أوصيك بها في
ذهنك فيما رجع إلى النظر في العلوم ^(٣) الإلهية ؛ وإن كنت كارها للخوض [معك] ^(٤)

(١) د « فيه من » (٢) ١ : « فكان » .

(٣) د « الأمور » . (٤) من ١ .

فيه وتنبهك عليه أحبّ إلىّ من أن أتركك سدّي مهملًا ، تتلاعب بك الشبهة ، وتعتورك الشكوك في أصول دينك ، فربّما أفضى ذلك بك إلى الهلكة .

فإن قلت : فلماذا كان كارها تنبيه ولده على ذلك ، وأنتم تقولون إن معرفة الله واجبة على المكلفين ؛ وليس يليق بأمير المؤمنين أن يكره ما أوجبه الله تعالى !

قلت : لعله علم إمّا من طريق وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، أو من طريق معرفته بما يصلح أن يكون لطفًا لولده ومعرفته ، بما يكون مفسدة له ، لكثرة التجربة له ، وطول الممارسة لأخلاقه وطباعه أن الأصلاح له ألا يخوض في علم الكلام الخوض الكلّي وأن يقتنع بالمبادئ والجمال ، فصالح البشر تختلف ؛ فربّ إنسانٍ مصلحته في أمرٍ ذلك الأمر بعينه مفسدة لغيره ، ونحن وإن أوجبنا المعرفة فلم نوجب منها إلاّ الأمور المجمّلة ، وأما التفصيلات الدقيقة الغامضة ، فلا تجب إلاّ عند ورود الشبهة ، فإذا لم تقع الشبهة في نفس المكلف لم يجب عليه الخوض في التفصيلات .

قوله عليه السلام : « قد عمّرتُ مع أولهم إلى آخرهم » العين مفتوحة والميم مكسورة مخففة ، تقول : عمر الرجل يعمر عمراً وعمراً على غير قياس ؛ لأن قياس مصدره التحريك أى عاش زماناً طويلاً ، واستعمل في القسم أحدهما فقط ، وهو المفتوح .

قوله عليه السلام : « حيث عنانى من أمرك » أى أهمنى ، قال :

﴿ عَنَانِي مِنْ صُدُودِكَ مَا عَنَّا *

قوله : « وأجمعت عليه » أى عزّمت .

ومقتبل الدهر ، يقال : اقتبل الغلام فهو مقتبل بالفتح وهو من الشواذ ، ومثله أحصن الرجل إذا تزوج فهو مُحصّن ، وإذا عفّ فحصّن أيضا ، وأسهب إذا أطال الحديث فهو مسهب ، وألّج إذا افتقر فهو ملفّج ؛ وينبغى أن يكون له من قوله : « تنبيهك له » بمعنى

« عليه » ، أو تكون على أصلها ، أي ما كرهت تنبيهك لأجله .

فإن قلت : إلى الآن ما فسرت ، لما ذا كره تنبيهه على هذا الفن ؟

قلت : بلى قد أشرت إليه ؛ وهو أنه كره أن يعدل به عن تفسير القرآن وعلم الفقه إلى الخوض في الأمور الأصولية فنبيهه على أمور يجره النظر وتأمّل الأدلة والشبهات إليها دقيقة يُخاف على الإنسان من الخوض فيها أن تضطرب عقيدته ، إلا أنه لم يجد به بدءاً من تنبيهه على أصول الديانة ، وإن كان كارها لتعريضه لخطر الشبهة ، فنبيهه على أمور جميلة غير مفصلة ، وأمره أن يلزم ذلك ولا يتجاوزَه إلى غيره وأن يُمسك عما يشبهه عليه ، وسيأتي ذكر ذلك :

الأصل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَى اللَّهِ وَالْاِقْتِصَارُ عَلَى مَا فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَى عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدْعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاطِرٌ ، وَفَكَرُّوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَى الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا ، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلِّفُوا ، فَإِنَّ أَبْتَ نَفْسِكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا ؛ فَلْيَكُنْ طَلِبَكَ ذَلِكَ بِتَفْهَمٍ وَتَعَلُّمٍ ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ ، وَعُلُقِ الْخُصُومَاتِ .

وَأَبْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْهَيْكِ ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ ، وَتَرَكَ كُلَّ شَائِبَةٍ أَوْلَجْتِكَ فِي شُبُهَةٍ ، أَوْ أَسْلَمْتِكَ إِلَى ضَلَالَةٍ ، فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ كَهَمًّا وَاحِدًا ، فَانظُرْ فِيهَا فَسَرَتْ لَكَ ؛ وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ ؛ وَفَرَاغَ نَظَرِكَ وَفِكَرِكَ ،

فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعُشْوَاءَ ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّالِمَاءَ ، وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبِطَ أَوْ خَلَطَ ، وَالْإِمْسَاكُ عَنِ ذَلِكَ أَمْثَلُ .

الشَّرْحُ

أمره أن يقتصر على القيام بالفرائض ، وأن يأخذ بسنة السلف الصالح من آبائه وأهل بيته ؛ فإنهم لم يقتصروا على التقليد ؛ بل نظروا لأنفسهم ، وتأمّلوا الأدلة ، ثم رجعوا آخر الأمر إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمسالا عمّا لم يكفّوا .

فإن قلت : من سلفه هؤلاء الذين أشار إليهم ؟

قلت : المهاجرون الأوّلون من بني هاشم وبني المطلب كحمزة وجعفر والعباس وعبيدة ابن الحارث ، وكأبي طالب في قول الشيعة وكثير من أصحابنا ، وكعبد المطلب في قول الشيعة خاصة .

فإن قلت : فهل يكون أمير المؤمنين عليه السلام نفسه معدودا من جملة هؤلاء !

قلت : لا ، فإنه لم يكن من أهل المبادئ والجمال المقتصر بهم في تكليفهم العقليات على أوائل الأدلة ، بل كان سيّد أهل النظر كافة وإمامهم .

فإن قلت : ما معنى قوله : لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم ؟

قلت : لأنهم إذا تأمّلوا الأدلة وفكروا فيها فقد نظروا لأنفسهم كما ينظر الإنسان لنفسه ليخلصها من مضرّة عظيمة سبيلها أن تقع به إن لم ينظر في الخلاص منها ؛ وهذا هو الوجه في وجوب النظر في طريق معرفة الله ، والخوف من إهال النظر .

فإن قلت : ما معنى قوله : « إلى الأخذ بما عرفوا ، والإمساك عمّا لم يكفّوا » ؟

قلت: الأخذ بما عرفوا، مثل أدلة^(١) حدوث الأجسام وتوحيد الباري وعدله، والإمساك عما لم يكلفوا، مثل النظر في إثبات الجزء الذي لا يتجزأ وتقيه، ومثل الكلام في الخلا والملا؛ والكلام في أن هل بين كل حركتين مستقيمتين سكنون أم لا؟ وأمثال ذلك مما لا يتوقف أصول التوحيد والعدل عليه، فإنه لا يلزم أصحاب الجمل والمبادئ أن يخوضوا في ذلك؛ لأنهم لم يكلفوا الخوض فيه؛ وهو من وظيفة قوم آخرين.

قوله عليه السلام: «فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا»، هذا الموضوع فيه نظر؛ لأننا قد قلنا: إنهم لم يعلموا التفاصيل الدقيقة، فكيف يجعلهم عالين بها؟ ويقول: «أن تعلم كما علموا» وينبغي أن يقال إن الكاف وما عملت فيه في موضع نصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف؛ وتقديره فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك علما كما علموا دون أن تعلم التفاصيل الدقيقة؛ وجاز انتصاب «علما» والعامل فيه «تقبل» لأن القبول من جنس العلم، لأن القبول اعتقاد والعلم اعتقاد؛ وليس لقائل أن يقول: فإذا كان قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي، لأن الفصل بينهما قد جاء كثيرا، قال الشاعر:

جَزَى اللهُ كَفَاءً مِثْلَهَا مِنْ سَعَادَةٍ سَرَتْ فِي هَلَاكِ الْمَالِ وَالْمَالُ نَائِمٌ

ويجوز أن يقال: كما علموا الآن بعد موتهم؛ فإنهم بعد الموت يكونون عالين بجميع ما يشتهه علمه على الناس في الحياة الدنيا، لأن المعارف ضرورية بعد الموت، والنفوس باقية على قول كثير من المسلمين وغيرهم.

واعلم أن الذي يدعو إلى تكلف هذه التأويلات أن ظاهر الكلام كونه يأمر بتقليد النبي صلى الله عليه وآله والأخذ بما في القرآن وترك النظر العقلي؛ هذا هو ظاهر الكلام؛ ألا تراه كيف يقول له: الاقتصار على ما فرضه الله عليك، والأخذ بما مضى عليه أهل

بيتك وسلفك ؛ فإنهم لما حاولوا النظر رجعوا بأخذه إلى السمعيات ، وتركوا العقليات ؛
لأنها أفضت بهم إلى ما لا يعرفونه ؛ ولا هو من تكليفهم .

ثم قال له : فإن كرهت التقليد المحض ، وأحببت أن تسلك مسلكهم في النظر ،
وإن أفضى بك الأمر بأخرة إلى تركه والعود إلى المعروف من الشرعيّات وماورد به
الكتاب والسنة ، فينبغي أن تفطر وأنت مجتمع الهمّ خالٍ من الشبهة ، وتكون طالبا
للحقّ ، غير قاصد إلى الجدل والمراء ؛ فلما وجدنا ظاهر اللفظ يقتضى هذه المعاني ، ولم يجز
عندنا أن يأمر أمير المؤمنين عليه السلام ولده^(١) مع حكمته وأهلية ولده بالتقليد وترك
النظر ، رجعنا إلى تأويل كلامه على وجه يخرج به عليه السلام من أن يأمر بما لا يجوز لمثله
أن يأمر به .

واعلم أنه قد أوصاه إذا همّ بالشروع في النظر بمحض ما ذكره التكلمون ،
وذلك أمور :

منها أن يرغب إلى الله في توفيقه وتسديده .

ومنها أن يطلب المطلوب النظرى بتفهم وتعلم ؛ لا بجدال ومغالبة ومراء وخاصة .

ومنها اطراح العصبية لمذهب بعينه ، والتورّط في الشبهات التي يحاول بها نصرة
ذلك المذهب .

ومنها ترك الإلّف والعادة ، ونصرة أمر يطلب به الرياسة ؛ وهو المعنى بالشوائب
التي توجب في الضلال .

ومنها أن يكون صافي القلب ، مجتمع الفكر ، غير مشغول السرّ بأمرٍ من جوع

[أو شِبَع]^(١) أو شَبَق أو غضب ؛ ولا يكون ذا هوم كثيرة ، وأفكار موزعة مقسمة ؛ بل يكون فكره وهمه همًا واحدًا .

قال : فإذا اجتمع لك كل ذلك فانظر ، وإن لم يجتمع لك ذلك ونظرت كنت كالناقة العسواء الخابطة لا تهتدى ، وكمن يتورط في الظلماء لا يعلم أين يضع قدمه ! وليس طالب الدين من كان خابطا أو خالطا ، والإمساك عن ذلك أمثل وأفضل .

الأضل :

فَتَفَهُمَ يَا بَنِيَّ وَصِيَّتِي ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمَيَّتُ ، وَأَنَّ الْمُفْنِي هُوَ الْمُعِيدُ ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِي هُوَ الْمُعَافِي ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَى مَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمَاءِ وَالِابْتِلَاءِ وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلًا ثُمَّ عُلِمْتَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصْرُكَ ، ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ !

الشرخ :

قد تعلق بهذه اللفظة وهو قوله : « أو ماشاء مما لا تعلم » ، قوم من التناسخية ؛ وقالوا : المعنى بها الجزاء في الهياكل التي تنتقل النفوس إليها . وليس ماقالوه بظاهر ، ويجوز أن يريد عليه السلام أن الله تعالى قد يجازى المذنب في الدنيا بنوع من العقوبة ، كالأسقام والفقير وغيرها ، والعقاب وإن كان [مفعولا]^(٢) على وجه الاستحقاق والإهانة فيجوز لمستحقه وهو البارئ

(١) من « د » . (٢) من د .

أن يقتصر منه على الإيلام فقط ، لأنّ الجميع حقّه ، فله أن يستوفى البعض ويسقط البعض ، وقد روى « أو بما شاء » بالباء الزائدة ، « وروى بما لا يعلم » . وأما^(١) الثواب فلا يجوز أن يجازى به المحسن في الدنيا ، لأنه على صفة لا يمكن أن تجامع^(٢) التكليف ، فيحمل لفظ الجزاء على جزاء العقاب خاصة .

ثم أعاد عليه السلام وصيته الأولى ، فقال : وإن أشكل عليك شيء من أمر القضاء والقدر ، وهو كون الكافر مخصوصا بالنعماء والمؤمن مخصوصا بضرب من الابتلاء ، وكون الجزاء قد يكون في المعاد ، وقد يكون في غير المعاد ، فلا تقدح جهالتك به في سكون قلبك إلى ما عرفتك جملته ، وهو أنّ الله تعالى هو المحي المميت ، الفنى المعيد ، المبلى المعافى ، وأنّ الدنيا بنيت على الابتلاء والإنعام ، وأنهما لمصالح وأمور يستأثر الله تعالى بملهما ، وأنه يجازى عباده إما في الآخرة أو غير الآخرة ، على حسب ما يريد ويختاره . ثم قال له : إنّما خلقت في مبدأ خلقتك جاهلا ، فلا تطلبن نفسك غاية من العلم لا وصول لها إليها ، أو لها إليها وصول بعد أمور صعبة ، ومتاعب شديد ، فمن خلق جاهلا حقيق أن يكون جهله مدّة عمره أكثر من علمه استصحابا للأصل .

ثم أراد أن يؤنسه بكلمة استدرك بها إيحاشه ، فقال له : وعساك إذا جهلت شيئا من ذلك أن تعلمه فيما بعد ، فما أكثر ما تجهل من الأمور وتتحير فيه ، ثم تبصره وتعرفه ! وهذا من الطب^(٣) اللطيف ، والرّقى الناجمة ، والسّحر الحلال .

(٢) ب : « يجتمع » ، وما أثبتته من أ .

(١) ١ : « فأما » .

(٣) الطب : المعالجة .

الأضل :

فَاعْتَصِمِ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ ، فَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُدُكَ ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ .

واعلم يا بني أن أحدا لم ينسبني عن الله سبحانه كما أنبأ عليه نبينا صلى الله عليه وسلم؛ فأرض به رائداً ، وإلى النجاة قائداً ، فإنني لم آلك نصيحة ، وإنك لن تبلى في النظر لنفسك ، وإن اجتهدت مبلغ نظري لك .

الشرح :

عاد إلى أمره باتباع الرسول صلى الله عليه وآله ، وأن يعتمد على السمع وما وردت به الشريعة ونطق به الكتاب ، وقال له : إن أحداً لم يخبر عن الله تعالى كما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وآله ؛ وصدق عليه السلام ! فإن التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب أنبياء بني إسرائيل لم تتضمن من الأمور الإلهية ما تضمنه القرآن ، وخصوصاً في أمر المعاد؛ فإنه في أحد الكتابين مسكوت عنه ، وفي الآخر مذكور ذكرًا مضطرباً ، والذي كشف هذا القناع في هذا المعنى ، وصرح بالأمر هو القرآن . ثم ذكر له أنه أنصح له من كل أحد ؛ وأنه ليس يبلغ وإن اجتهد في النظر لنفسه ما يبلغه هو عليه السلام له ، لشدة حبه له وإيثاره مصلحته . وقوله : «لم آلك نصحا» لم أقصر في نصحك ، ألى الرجل في كذا يألو ، أى أقصر فهو آل والفعل لازم ، ولكنه حذف اللام فوصل الفعل إلى الضمير فنسبه ، وكان أصله : لا آلوك نصحا ونصحا ، منسوب على التمييز ، وليس كما قاله الراوندى إن انتصابه على أنه مفعول ثان ، فإنه إلى مفعول واحد لا يتعدى ، فكيف إلى اثنين !

ويقول هذه امرأة آليّة أى مقصّرة وجمعها أوائل ، وفى المثل : «إلا حظيّة فلا آليّة» ، أصله فى المرأة تصلّف عند بعلمها ، فتوصى حيث فاتمها الحظوة ألا تألوه فى التودّد إليه والتحبّب إلى قلبه .

قوله : « ومنه شفقتك » ، أى خوفك .

ورائد : أصله الرجل يتقدّم القوم فيرتاد بهم الرعى .

الأضلّ:

وَاعْلَمَ يَا بَنِيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكَ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ
وَسُلْطَانِهِ ، وَلَعَرَفْتَ أَعْمَالَهُ وَصِفَاتِهِ ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ ، لَا يُضَادُّهُ
فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ ، وَلَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَمْ يَزَلْ ، أَوَّلَ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوْلِيَّةٍ ، وَآخِرَهُ
بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَآيَةٍ ، عَظُمَ أَنْ تُنْبِتَ رَبُّو بَيْتَهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ .
فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ ، وَقِلَّةِ
مَقْدَرَتِهِ ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ ، وَعَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ ، وَالرَّهْمِينَةَ
مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالْخَشْيَةَ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالشَّفَقَةَ مِنْ سُخْطِهِ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ
إِلَّا بِحَسَنِ ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنِ قَبِيحٍ .

الشرح :

يمكن أن يستدلّ بهذا الكلام على نفى الثانى من وجهين :

أحدهما أنّه لو كان فى الوجود ثانٍ للبارئ تعالى لما كان القول بالوحدانيّة حقًا ، بل كان الحقّ هو القول بالثنائية ، ومحال ألا يكون ذلك الثانى حكميا ، ولو كان الحقّ هو

إثبات ثانٍ حَكِيمٍ لوجب أن يبعث رسولا يدعُو المكلفين إلى التثنية ، لأنّ الأنبياء كلهم دعوا إلى التوحيد، لكن التوحيد على هذا الفرض ضلالٌ ، فيجب على الثاني الحكيم أن يبعث من ينبئه المكلفين على ذلك الضلال ويرشدهم إلى الحق وهو إثبات الثاني ، وإلا كان منسوباً في إهال ذلك إلى السّفه واستفساد المكلفين ، وذلك لا يجوز ؛ ولكننا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ في الإلهية فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً ، وإذا لم يكن ضلالاً كان حقاً ؛ فنقيضه وهو القول بإثبات الثاني باطل .

الوجه الثاني : أنه لو كان في الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريقٌ إلى إثباته ، إمّا من مجرد أفعاله ، أو من صفات أفعاله ، أو من صفات نفسه ، أو من هذا ولا من هذا ، فمن التوقيف .

وهذه هي الأقسام التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام ؛ لأنّ قوله : « أتتكَ رسله » هو التوقيف ، وقوله : « ولرأيت آثار ملكه وسلطانه » ، هي صفات أفعاله ، وقوله : « ولعرفت أفعاله وصفاته » هما القسمان الآخران .

أما إثبات الثاني من مجرد الفعل فباطل ؛ لأنّ الفعل إنما يدلّ على فاعل ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات أفعاله وهي كون أفعاله محكمة متقنة ، فإن الإحكام الذي نشاهده إنما يدلّ على عالم ولا يدلّ على التعدّد ، وأما صفات ذات الباري فاعلم بها فرع على العلم بذاته ، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور .

وأما التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعوننا إلى الثاني ؛ وإذا بطلت الأقسام كلّها ، وقد ثبت أن مالا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته بطل القول بإثبات الثاني .

ثم قال : « لا يضادّه في مُلكه أحد » ليس يريد بالضدّ ما يريده المتكلمون من نفى ذات هي معاكسة لذات الباري تعالى في صفاتها ، كمضادّة السواد للبياض ، بل مراده نفى الثاني لا غير ، فإنّ نفى الضدّ بحث آخر لا دخول له بين هذا الكلام .

ثم ذكر له أن الباري تعالى قديم سابق للأشياء ، لا سبقاً له حدّ محدود ، وأول معين ، بل لا أول له مطلقاً .

ثم قال : وهو مع هذا آخر الأشياء ، آخريّة مطلقّة ليس تنتهي إلى غاية معينة .

ثم ذكر أن له ربوبيّة جلّت عن أن تحيط بها الأبصار والعقول .

وقد سبق منّا حوض في هذا المعنى ، وذكرنا من نظمنا في هذا النمط أشياء لطيفة ،

ونحن نذكرها هنا من نظمنا أيضاً في هذا المعنى ، وفي فننا الذي اشتهرنا به ، وهو المناجاة والمخاطبة على طريقة أرباب الطريقة ما لم نذكره هناك ، فمن ذلك قولي :

فَلَا وَاللَّهِ مَا وَصَلَ ابْنُ سَيْنَا	وَلَا أَعْنَى ذَكَاءِ أَبِي الْحُسَيْنِ
وَلَا رَجَعَا بِشَيْءٍ بَعْدَ بَحْثٍ	وَتَدْقِيقٍ سِوَى خَفِيِّ حُنَيْنِ
لَقَدْ طَوَّفْتُ أَطْلُبُكُمْ وَلَكِنْ	يَحُولُ الْوَقْتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنِي
فَهَلْ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْوَقْتِ أَحْظَى	بِوَصْلِكُمْ غَدًا وَتَقَرَّرَ عَيْنِي !
مُنَى عِشْنًا بِهَا زَمَنًا وَكَانَتْ	تُسَوِّفُنَا بِصَدَقٍ أَوْ بَمِئِنِ
فَإِنْ أَكْذَبْتَ فَذَلِكَ ضِيَاعُ دِينِي	وَإِنْ أَجَدْتَ فَذَلِكَ حُلُولُ دِينِي (١)

ومنها :

أُمُولَايَ قَدْ أَحْرَقْتُ قَلْبِي فَلَا تَسْكُنْ	غَدًا مَحْرَقًا بِالنَّارِ مَنْ كَانَ يَهْوَاكَ
أَتَجْمَعُ لِي نَارَيْنِ : نَارَ مَحَبَّةٍ	وَنَارَ عَذَابٍ أَنْتَ أَرْحَمُ مِنْ ذَاكَ !

ومنها :

قَوْمَ مُوسَى تَاهُوا سَنِينَ كَمَا قَدْ	جَاءَ فِي النَّصِّ قَدْرُهَا أَرْبَعُونَ (٢)
وَلِيَ الْيَوْمَ تَأَهًُّا فِي جَوَى مِنْ	لَا أَسْمَى وَحُبَّهُ تَحْسُونَا
قُلْ لِأَجَابِنَا إِلَامَ نَرُومُ أَلْ	وَصَلَّ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَتَمَعُونَا

(١) : « أجذب » .

(٢) : إشارة إلى قوله تعالى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر » (الأعراف : ١٤٤)

كم نناجيكُمُ فلا ترشدُونَا ونناديكُمُ فلا تسمعونا !
حسبنا علمكم بأننا مواليكمُ وإن كنتم لنا كارهينا
ففسى تدرك السعادة أرباب الـ معاصي فيصبحوا فائزينا !
ومنها :

والله ما آسى من الدنيا على مالٍ ولا ولدٍ ولا سلطانِ
بل في صميم القلب منى حسرة تبقى معي وتلّف في أكفاني
إني أراك بباطني لا ظاهري فالحسنُ مشغلةٌ عن العرفانِ
يا من سهرت مفكراً في أمره خمسينَ حولًا دائمَ الجولانِ
فرجعت أحمق من نعمة بيّهس وأضلّ سعياً من أبي غبشان
ومنها :

وحقك إن أدخلتني النار قلت لـ ذين بها قد كنت ممن أحبهُ
وأفريت عمري في علومٍ دقيقة وما بغيتي إلا رضاه وقربُه
هبوني مسيئاً أو تنعّ الحلم جهله وأوبقه بين البرية ذنبه (١)
أما يقتضى شرع التكرّم عتقه أيحسن أن ينسى هواه وحبّه !
أما كان ينوى الحقّ فيما يقوله ألم تنصر التوحيد والعدل كتبهُ !
أما ردّ زيغ ابن الخطيب وشكّه وإلحاده إذ جلّ في الدين خطبهُ !
أما قلتم من كان فينا مجاهدا سيكرّم مثواه ويُعذب شربهُ !
ونهديه سُبلاً من هداانا جهاده ويدخله خير المداخل كسبهُ
فأى اجتهاد فوق ما كان صانعاً وقد أحرقت زرق الشياطين شهبهُ !
وما نال قلبُ الجيش جيش محمد كما نال من أهل الضلالة قلبهُ

(١) كذا في ا ، ب ، وفي د : « أرتع » .

فإن تصفحوا ينعم وإن تتجرّموا
فتعذيبكم حُلُو المذاقة عَذْبُهُ
وآية صدق الصّبّ أن يعذب الأذى
إذ كان من يهوى عليه يصبّه

ومنها :

إذا فكرت فيك يحار عقلي
وأصحو تارة فيشوب ذهني
فيا من تاهت العقلاء فيه
ويامن كاعت الأفكار عنه
ويامن ليس يعلمه نبي
ويا من ليس قداماً وخلفاً
ولا فوق السماء ولا تدلى
ويامن أمره من ذاك أجلى
سألتك باسمك المكتوم إلا
وجدت لها بما تهوى فانت المعلم
وألحق بالجانين الكبار
ويقدح خاطري كشواظ نار
فأمسوا كلهم صرعى عقار
فآبت بالمتاعب والخسار
ولا ملك ولا يدريه دار
ولا جهة اليمين ولا اليسار
من الأرضين في لجج البحار
من ابن ذكاء أو صبح النهار
فككت النفس من رق الإسار
ويامن كاعت الأفكار عنه
ويامن ليس يعلمه نبي
ويا من ليس قداماً وخلفاً
ولا فوق السماء ولا تدلى
ويامن أمره من ذاك أجلى
سألتك باسمك المكتوم إلا
وجدت لها بما تهوى فانت المعلم

ومنها :

يارب إنك عالم بحبتي لك واجتهادي
وتجردي للذب عنك على مرامجة الأعدا
بالعدل والتوحيد أصدع معلناً في كل نادى
وكشفت زيغ ابن الخطيب ولبسه بين العباد
ونقضت سائر ما بيننا ه من الضلالة والفساد

وأبنت عن إغوائه في دين أحمد ذى الرشاد
وجعلت أوجه ناصريه محمات بالسواد
وكفت من غلوائهم بعد التمرد والعناد
فكأنما نخل الرما د عليهم بعد الرماد
وقصدت وجهك أبتغي حسن الثوبة في المعاد
فأفض على العبد الفقير إليك نور السداد
وارزقه قبل الموت معرفة المصائر والبادي
وأفكك أسير الحرص بالأصفاد من أسر الضماد
واغسل بصفو القرب من أبوابكم كدر البعاد
وأعضه من حر الغليل بوصلكم برد الفؤاد
وارحم عيوننا فيك ها مية قلباً فيك صاد
ياساطح الأرض لها د وممسك السبع الشداد

الأصل :

يَا بَنِيَّ، إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ
الْآخِرَةِ وَمَا أُعَدَّ لِأَهْلِهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لَتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذَرُ عَلَيْهَا .
إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفَرُوا، نَبَأَ بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيدٌ، فَأَمَّوْا مَنْزِلًا
خَصِيبًا، وَجَنَابًا مَرِيحًا، فَاحْتَمَلُوا وَعَثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفَرَّاقَ الصَّدِيقِ، وَخَشُونَةَ السَّفَرِ،
وَجُشُوبَةَ الطَّعْمِ؛ لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ
ذَلِكَ أَلْمًا، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَمًا. وَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ

وَأَدْنَاهُمْ إِلَىٰ مَحَلَّتِهِمْ .

وَمَثَلٌ مِنْ أَعْتَرَبَهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ ، فَنَبَأَ بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيدٍ ،
فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهُ إِلَيْهِمْ ، وَلَا أَفْظَحَ عِنْدَهُمْ ، مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ ؛ إِلَىٰ مَا
يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ .

النَّيْحُ :

حذا عليه يحذو ، واحتذى مثاله ، يحتذى ، أى اقتدى به . وقوم سَفَرٌ ، بالتسكين ،
أى مسافرون .

وأَمْثُوا : قصدوا . والمنزل الجديد : ضدّ المنزل الخصب .

والجناب المَرِيعُ بفتح الميم : ذو الكلاء والعشب ، وقد مرَّع الوادى ، بالضمّ .

والجناب : الفناء . ووعثاء الطريق : مشقتها .

وجُشُوبَةُ المَطْعَمِ : غِلْظُهُ ، طعام جَشِيبٌ وَجَشُوبٌ ، ويقال إنه الذى لا أَدَمَ (١) معه .

يقول : مثل من عرف الدنيا وعمل فيها للآخرة ، كمن سافر من منزل جذب إلى منزل

خصيب ، فلقى فى طريقه مشقة ؛ فإنه لا يكثرث بذلك فى جنب ما يطلب ؛ وبالعكس من

عمل للدنيا وأهمل أمر الآخرة ، فإنه كمن يسافر إلى منزل ضنك ويهجر منزلا

رحيبا طيبا ، وهذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « الدنيا سِجْنُ المؤمن

وجنة الكافر » .

(١) الأدم : ما يؤتدم به .

الأفضل :

يَأْبَى، اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَانًا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ،
وَكَرِهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ
يُحْسِنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا
تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ
يُقَالَ لَكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ؛ فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ
خَازِنًا لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هَدَيْتَ لِقَصْدِكَ، فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ .

الشنخ :

جاء في الحديث المرفوع : « لا يكمل إيمان عبدٍ حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ،
ويكره لأخيه ما يكره لنفسه » . وقال بعض الأسارى لبعض الملوك : افعلى معى ما تحب أن
يفعل الله معك ؛ فأطلقه ؛ وهذا هو معنى قوله عليه السلام : « ولا تظلم كما لا تحب
أن تُظلم » .

وقوله : « وأحسن » من قول الله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

وقوله : « واستقبح من نفسك » ، سئل الأحنف عن المروءة ، فقال : أن تستقبح من

نفسك ما تستقبحه من غيرك . وروى : « وارض من الناس لك » وهى أحسن .

وأما العجب وما ورد فى ذمه فقد قدمنا فيه قولاً مقنعاً .

قوله عليه السلام : « واسع في كدحك » أى أذهب ما اكتسبت بالإتفاق ؛ والكدح هاهنا : هو المال الذى كدح فى حصوله ، والسعى فيه إتفاقه ؛ ، وهذه كلمة فصيحة ، وقد تقدم نظائر قوله : « ولا تكن خازنا لغيرك » .

ثم أمره أن يكون أخشع ما يكون لله إذ هداه لرشده ، وذلك لأن هدايته إياه إلى رشده نعمة عظيمة منه ، فوجب أن يقابل بالخشوع لأنه ضرب من الشكر .

الأضل :

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقًا ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ ، وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْارْتِيَادِ ، وَقَدْرِ بِلَاغِكَ مِنَ الزَّادِ ، مَعَ خَفَّةِ الظَّهِيرِ ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالًا عَلَيْكَ ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَيُؤَا فَيْكَ بِهِ غَدًا حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاعْتَنِمَهُ وَحَمَلَهُ إِيَّاهُ ، وَأَكْثَرَ مِنْ تَرْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا تَطَلَّبَهُ فَلَا تَجِدُهُ .
وَاعْتَنِمِ مَنْ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَثُودًا ، الْمُخْفُ فِيهَا أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمُثْقَلِ ، وَالْمُبِطِيُّ عَلَيْهَا أَقْبَحُ أَمْرًا مِنَ الْمُسْرِعِ ، وَأَنَّ مَهْبِطَهَا بِكَ لَا مَحَالَةَ ؛ إِمَّا عَلَى جَنَّةٍ أَوْ عَلَى نَارٍ ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نَزْوِكَ ، وَوِطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ ، وَلَا إِلَى الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ .

السُّرْحُ :

أمره في هذا الفصل بإنفاق المال والصَّدَقَة والمعروف . فقال ؛ إنَّ بين يديك طريقاً بعيد المسافة ، شديد المشقَّة ، ومن سلك طريقاً فلا غنى له عن أن يرتاد لنفسه ، ويتزوَّد من الزاد قدر ما يبلغه الغاية ، وأن يكون خفيف الظهر في سفره ذلك ؛ فإياك أن تحمل من المال ما يثقلُك ؛ ويكون وبالأعلى عليك ؛ وإذا وجدت من الفقراء والمساكين مَنْ يحمل ذلك الثقل عنك فيوافيك به غداً وقت الحاجة فحمِّله إياه ، فلعلك تطلب مالك فلا تجده . جاء في الحديث المرفوع : « خمس من أتى الله بهنَّ أو بواحدة منهنَّ أوجب له الجنة : مَنْ سقى هامةً صاديةً ، أو أطمع كبداً هافيةً ، أو كسا جلدة عاريةً ، أو حمل قدماً حافيةً ، أو أعتق رقبة عانية . »

قيل لحاتم الأصمَّ : لو قرأت لنا شيئاً من القرآن ! قال : نعم ؛ فاندفع فقراً : ﴿ اَلَمْ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُوْنَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ ﴾ يكنزون^(١) ، فقالوا أيها الشيخ ما هكذا أنزل ! قال : صدقم ؛ ولكن هكذا أنتم !

الأصل :

وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَدِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ ، وَتَكْفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ ، وَتَسْتَرْجِمَهُ لِيَرْحَمَكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ ، وَلَمْ يُلْجِئِكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ ،

(١) سورة البقرة ١ - ٣ ، والقراءة : « ومما رزقناهم ينفقون » .

وَلَمْ يَمْنَعَكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَمْ يُعَاجِلَكَ بِالنِّمَّةِ ، وَلَمْ يَفْضَحَكَ حَيْثُ
تَعَرَّضْتَ لِلْفَضِيحَةِ ، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ ، وَلَمْ يُنَاقِشَكَ بِالْجَرِيْمَةِ ،
وَلَمْ يُؤَيِّسِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ ، بَلْ جَعَلَ نَزْوَعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً ، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ
وَاحِدَةً ، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْرًا . وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ ، وَبَابَ الْإِسْتِعْتَابِ .
فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ ،
وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ ، وَاسْتَعْنَيْتَهُ
عَلَى أُمُورِكَ ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ ، مِنْ زِيَادَةِ
الْأَعْمَارِ ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ .

ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ ، بِمَا أَدْرَكَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ؛ فَتَمَّتْ
سِتْرَتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالِدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ ، وَاسْتَمَطَرْتَ شَائِبَ رَحْمَتِهِ ، فَلَا يُقْنِطَنَّكَ
إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ لِيَكُونَ
ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ ، وَأَجْزَلَ لِعِطَاءِ الْآمِلِ . وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تَعْطَاهُ ،
وَأُوْتَيْتَ خَيْرًا مِنْهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا ، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ
قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَكَ دِينَكَ لَوْ أُوتِيْتَهُ ، فَلَتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ ،
وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ ، وَلَا تَبْقَى لَهُ .

الْبَيْحُ :

قد تقدم القولُ في الدُّعَاءِ .

قوله : « بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة » ، هذا متفق عليه بين أصحابنا ، وهو

أن تارك القبيح لأنه قبيح يستحق الثواب .

قوله : « حسب سيئتك واحدة وحسب حسنك عشرا » ؛ هذا إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (١) .

قوله : « وأبثته ذات نفسك » ، أى حاجتك .

ثم ذكر له وجوها في سبب إبطاء الإجابة :

منها أن ذلك أمر عائد إلى النية ، فلعلها لم تكن خالصة .

ومنها أنه ربما أخرت ليكون أعظم لأجر السائل ؛ لأن الثواب على قدر المشقة .

ومنها أنه ربما أخرت ليعطى السائل خيراً مما سأل ، إما عاجلاً أو آجلاً ؛

أو في الحالين .

ومنها أنه ربما صرف ذلك عن السائل ، لأن في إعطائه إيّاه مفسدة في الدين .

قوله : « فللال لا يبقى لك ولا تبقى له » ، لفظ شريف فصيح ، ومعنى صادق محقق

فيه عظة بالغة ؛ وقال أبو الطيب :

أَيْنَ الْجَبَّارَةُ الْأَكْسَرَةُ الْأَلَى كُنُزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا (٢)

ويروى : « من يحجبه عنك » .

وروى : « حيث الفضيحة » أى حيث الفضيحة موجودة منك .

واعلم أن في قوله : « قد أذن لك في الدعاء ، وتكفل لك بالإجابة » إشارة إلى قوله

تعالى : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (٣) .

وفي قوله : « وأمر أن تسأله ليعطيك » إشارة إلى قوله : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ (٤) .

(١) سورة الأنعام ١٦٠ . (٢) ديوانه ٢ : ٣٣٤ .

(٣) سورة غافر ٦٠ . (٤) سورة النساء ٣٢ .

وفي قوله : « وتسترحه ليرحمك » إشارة إلى قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١).

وفي قوله : « ولم يمنعك إن أسأت من التوبة » إشارة إلى قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢).

الأضل :

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا ، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ ؛ وَأَنَّكَ فِي مَنْزِلِ قُلْعَةٍ ، وَدَارِ بُلْعَةٍ ، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو هَارِبُهُ ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَى حَالٍ سَيِّئَةٍ ؛ قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ ، فَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ .

يَا بُنَيَّ ، أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ ، حَتَّى يَأْتِيكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ حِذْرَكَ ، وَشَدَدَتْ لَهُ أَرْكَ ، وَلَا يَأْتِيكَ بَعْتَهُ فَيَبْهَرَكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَى مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا ، وَتَكَالِبَهُمْ عَلَيْهَا ، فَقَدْ نَبَأَكَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَنَعَتَكَ لَكَ نَفْسَهَا ، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا ، فَإِنَّمَا أَهْلِبَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ ، يَهْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَيَأْكُلُ عَزِيْزُهَا ذَلِيْلَهَا ، وَيَقْهَرُ كَبِيْرُهَا صَغِيْرَهَا .

نَعْمَ مُعْقَلَةٌ ، وَأُخْرَى مُهْمَلَةٌ ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهُمَا ، وَرَكَبَتْ مَجْهُولَهُمَا .
سُرُوحٌ عَاهَةٌ بِوَادٍ وَعَثٌ ، لَيْسَ لَهَا رَاعٌ يُقِيمُهَا ، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا . سَلَكَتْ
بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَى ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَى ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا ،
وَعَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا ، وَاتَّخَذُوهَا رَبًّا فَلَبِيتَ بِهِمْ وَلَبِئُوا بِهَا ، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا .
رُويْدًا يُسْفِرُ الظَّلَامَ ، كَأَنَّ قَدْ وَرَدَتْ الْأَظْطَانُ ! يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ
أَنْ يَلْحَقَ !

الشَّرْحُ :

يقول : هذا منزل قُلْعَةٌ ؛ بضم القاف وسكون اللام ؛ أى ليس بمستوطن ؛ ويقال :
هذا مجلس قُلْعَةٌ ، إذا كان صاحبه يحتاج إلى أن يقوم مرّة بعد مرّة . ويقال أيضا :
هم على قُلْعَةٍ ، أى على رِحْلَةٍ ، والقُلْعَةُ أيضا : هو المال العارية ، وفي الحديث : « بئس المال
القُلْعَةُ » ؛ وكله يرجع إلى معنى واحد .

قوله : « ودار بلْعَةٌ » ، والبلْعَةُ : ما يتبلّغ به من العيش .

قوله : « سروح عاهة » ، والسروح : جمع سَرَحَ ؛ وهو المال السارح . والعاهة :
الآفة ؛ أعاه القومُ أصابت ماشيتهم العاهة .

ووادٍ وَعَثٌ : لا يثبت الحافرُ وأُخْلِفَ فيه ؛ بل يغيب فيه ، ويشقّ على مَنْ
يمشى فيه .

وأوعث القوم : وقعوا في الوعث .

ومسيم يُسِيمُهَا : راعٍ يرعاها .

قوله : « رويدا يسفر الظلام . . . » إلى آخر الفصل ، ثلاثة أمثال محرّكة لمن عنده

استعداد . واستقر أني أبو الفرج محمد بن عباد رحمه الله وأنا يومئذ حدثت هذه الوصية فقرأتها عليه من حفظي ، فلما وصلت إلى هذا الموضع صاح صيحة شديدة ، وسقط - وكان جبّاراً قاسى القلب .

* * *

[أقوال حكيمة في وصف الدنيا وفناء الخلق]

واعلم أنا قدمنا في وصف الدنيا والفناء والموت من محاسن كلام الصالحين والحكماء ما فيه الشفاء ، ونذكر الآن أشيلاءً آخر .

فن كلام الحسن البصريّ : يا بن آدم ، إنّما أنت أيام مجموعة ، فإذا مضى يوم مضى بعضك .

عن بعض الحكماء : رحم الله امرأة لا يفرّه ما يرى من كثرة الناس ، فإنه يموت وحده ، ويقبر وحده ، ويحاسب وحده .

وقال بعضهم : لا وجه لمقاساة الهموم لأجل الدنيا ولا الاعتداد بشيء من متاعها ، ولا التخلّي منها ، أمّا ترك الاهتمام لها ، فمن جهة أنّه لا سبيل إلى دفع الكائن من مقدورها ؛ وأمّا ترك الاعتداد بها ؛ فإنّ مرجع كلّ أحد إلى تركها ، وأمّا ترك التخلّي عنها فإنّ الآخرة لا تدرك إلاّ بها .

ومن كلام بعض الحكماء : أفضل اختيار الإنسان ما توجه به إلى الآخرة ، وأعرض به عن الدنيا ؛ وقد تقدّمت الحجّة وأذننا بالرحيل ، ولنا من الدنيا على الدنيا دليل ؛ وإنّما أهدنا في مدّة بقائه صريع لمرض ، أو مكتئب بهمّ ، أو مطروق بمصيبة ، أو مترقب لخوف ، لا يأمن المرء أصناف لذّته من المطعوم والمشروب أن يكون موته فيه ، ولا يأمن مملوكه

وجاريتيه أن يقتلاه بجديد أو سمّ ؛ وهو مع ذلك عاجز عن استدامة سلامة عقله من زوال ،
وسمعه من صمّم ، وبصره من عمى ، ولسانه من خرس ، وسائر جوارحه من زمانة ، ونفسه
من تَلَف ، وماله من بوارٍ ، وحبيبه من فراق ؛ وكلّ ذلك يشهد شهادة قطعية أنه فقير
إلى ربّه ، ذليل في قبضته ، محتاج إليه . لا يزال المرء بخير ما حاسب نفسه ، وعمر آخرته
بتخريب دنياه ؛ وإذا اعترضته بحار المكاره ، جعل معارها الصبر والتأسي ، ولم يغترّ بتتابع
النعم ، وإبطاء حلول النقم ، وأدام صحبة التقى ؛ وفطم النفس عن الهوى ؛ فإنما حياته كبضاعة
ينفق من رأس المال منها ؛ ولا يمكنه أن يزيد فيها ؛ ومثل ذلك يوشك فناؤه
وسرعة زواله .

وقال أبو العتاهية في ذكر الموت :

وسيضحك الباكون بعدك ^(١)	سُبَّاشِرُ التَّربَاءِ خَدِّكَ
وليلخفنّ الموتُ عهدكُ	وليزلنّ بك البلي
أفنى أباك بليّ وجدكُ ^(٣)	وليفنينك مثل ما ^(٢)
روطيبها وسكنتَ لحدكُ ^(٤)	لو قد رحلتَ عن القُصو
لِصَالِحٍ قَدْ كَانَ عِنْدَكَ	لَمْ تَنْتَفِعْ إِلَّا بَفَع

(١) ديوانه ٨٦ ، ٨٧ ، والترباء : التراب ، ورواية الديوان :

* لَتَبَّاشِرُ الْأَجْدَاثِ وَحَدِّكَ *

(٢) الديوان : « بالذى » .

(٣) الديوان : « به وجدك » .

(٤) الديوان :

لَوْ قَدْ ظَعَنْتَ عَنِ الْبِيُو تِ وَدَوَّحِهَا وَسَكَنْتَ لِحَدِّكَ

وترى الذين قسمت ما لك بينهم حصصاً وكذلك^(١)
يتلذذون بما جمعوا لهم ولا يجدون فقدك

الأصل :

وَأَعْلَمَ يَا بُنَيَّ أَنْ مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ
وَاقِفًا ، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا وَادِعًا .

وَأَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلٍ مَنْ كَانَ
قَبْلَكَ .

فَخَفِضْ فِي الطَّلَبِ ، وَأَجْمِلْ فِي الْمَكْتَسَبِ ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرْبٍ ؛
وَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمُخْرُومٍ .

وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَرَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتَكَ إِلَى الرَّعَائِبِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ
بِمَا تَبْدُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضًا . وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ حُرًّا . وَمَا خَيْرُ
خَيْرٍ لَا يُنَالُ^(٢) إِلَّا بِشَرٍّ ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ . وَإِنْ اسْتَطَعْتَ
أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ذُو نِعْمَةٍ فَاَفْعَلْ ، فَإِنَّكَ مُدْرِكُ قَسَمِكَ ، وَآخِذُ سَهْمِكَ ،
وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَكْرَمُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ
كُلُّ مَنْهُ .

(١) الديوان :

وَكُنَّ جَمْعَكَ قَدْ غَدَا مَا بَيْنَهُمْ حِصَصًا وَكَذَلِكَ

(٢) د : « لا يوجد » .

الْبَرْخُ :

مثل الكلمة الأولى قول بعض الحكماء - وقد نسب أيضا إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

أهل الدنيا كركبٍ يُسار بهم وهم نيام .

قوله : « نفضنَّ في الطلب » من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنَّ روح

القدس نفث في رُوعي أنَّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فأجمِلوا في الطلب » .

وقال الشاعر :

ما اعتاضَ بادلُ وجهه بسؤاله

عِوضاً ولو نال الغِنَى بسؤالِ

وإذا النِّوالِ إلى السُّؤالِ قرنته (١)

رجحَ السُّؤالُ وخَفَّ كلُّ نوالِ

وقال آخر :

رددتُ رونقَ وجهي عن صحيفته

ردَّ الصَّقالِ بهاءَ الصَّارِمِ الخِدمِ (٢)

وما أبالي وخيرُ القولِ أصدقه

حققت لي ماء وجهي أم حَفَنَت دمي

وقال آخر :

وإني لأختار الزهيد على الغِنَى

وأجزأ بالمال القراح عن المحضِ

وأدرِع الإملاق صبرا وقد أرى

مكانَ الغِنَى كي لا أهينَ له عِرْضِي

وقال أبو محمد الزبيدي في المأمون :

أَبَقِيَ لَنَا اللهُ الإِمَامَ وَزَادَهُ

شَرَفًا إِلَى الشَّرَفِ الَّذِي أَعْطَاهُ

وَاللهُ أَكْرَمَنَا بِأَنَا مَعْشَرَ

عُتَقَاءَ مِنْ نَعَمِ العِبَادِ سِوَاهُ

وقال آخر .

كَيْفَ النُّهُوضُ بِمَا أُؤَلِّيتَ مِنْ حَسَنِ

أَمْ كَيْفَ أَشْكُرُ مَا طَوَّقْتَ مِنْ نَعَمِ !

(١) د : « وزنته » . (٢) الخدم : القاطع .

مَلَّكَتَنِي مَاءَ وَجِهِ كَادِيسْكُبُهُ ذَلَّ السُّؤَالُ وَلَمْ تَفْجَعْ بِهِ هِمْنِي
وقال آخر :

لَا تَحْرِصَنَّ عَلَى الْحُطَامِ فَإِنَّمَا يَأْتِيكَ رِزْقُكَ حِينَ يُؤْذَنُ فِيهِ
سَبَقَ الْقَضَاءُ بِقَدْرِهِ وَزَمَانِهِ وَبِأَنَّهُ يَأْتِيكَ أَوْ يَأْتِيهِ
وكان يقال : ما استغنى أحدٌ بالله إلا افتقر الناس إليه .

وقال رجل في مجلس فيه قوم من أهل العلم : لا أدري ما يحمل من يوقن بالقدر على
الحرص على طلب الرزق ! فقال له أحد الحاضرين : يحمله القدر ، فسكت .
أقول : لو كنت حاضرا لقلت : لو حمله القدر لما نهاه العقلاء عن الحرص ، ولما مدحوه
على العفة والقناعة فإن عاد وقال : وأولئك ألبأهم القدر إلى المدح والذم والأمر والنهي ؛
فقد جعل نفسه وغيره من الناس ؛ بل من جميع الحيوانات بمنزلة الجمادات التي يحرّكها
غيرها ومن بلغ إلى هذا الحد لا يكلم
وقال الشاعر :

أرَاكَ تَزِيدُكَ الْأَيَّامَ حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لَا تَمُوتُ
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صَرْتَ يَوْمًا إِلَيْهَا قَلْتَ حَسْبِي قَدْ رَضِيتُ !
أبو العتاهية :

أَيَّ عَيْشٍ يَكُونُ أَطْيَبَ مِنْ عَيْدٍ شِ كِفَافٍ قُوتٍ بِقَدْرِ الْبَلَاغِ^(١)
قَرَّتَنِي الْأَيَّامَ عَقْلِي وَمَالِي وَشِبَابِي وَصَحَّتِي وَفِرَاقِي^(٢)
وأوصى بعض الأدباء ابنه فكتب إليه :

(١) ديوانه ١٦٤ ، والأغاني ٤ : ٤٠ والبلاغ : الكفاية .

(٢) الديوان والأغاني : « غبنتي الأيام » .

كُنْ حَسَنَ الظَّنِّ بِرَبِّ خَلْقِكَ بِنِيِّ وَاحْمَدُهُ عَلَى مَا رَزَقَكَ
وَاعْلَمْ أَنَّ الحِرْصَ يَطْفِي رَوْنَقَكَ فِجَانِ الحِرْصِ وَحَسَنَ خَلْقِكَ
وَاصدُقْ وَصَادِقُ أَبَدًا مَنْ صَدَقَكَ دَارِ مُعَادِيكَ وَمُقٍ مِنْ وَمَقَكَ
وَاجْعَلْ لِأَعْدَائِكَ حِزْمًا مَلَقَكَ وَجَنِّبَنَّ حَشْوَةَ الكَلَامِ مَنْطِقَكَ
هَذِي وَصَاةَ وَالِدٍ قَدْ عَشَقَكَ وَصَاةَ مَنْ يَقْلِقُهُ مَا أَقْلَقَكَ
* أَرشِدُكَ اللهُ لَهَا وَوَقِّقَكَ *

أبو العتاهية :

أَجَلُ الغِنَى مِمَّا يُؤَمَّلُ أَسْرَعُ وَأَرَاكَ تَجْمَعُ دَائِمًا لَا تَشْبَعُ^(١)
قَل لِي لِمَنْ أَصْبَحْتَ تَجْمَعُ دَائِمًا^(٢) أَلْبَعْلُ عِرْسِكَ لَا أَبَاكَ تَجْمَعُ !

وأوصى زياد ابنه عبيد الله عند موته ، فقال : لا تدنسن عرضك ، ولا تبدلن وجهك ،
ولا تخلقن جدتك بالطلب إلى من إن ردك كان رده عليك عيبا ، وإن قضى حاجتك
جعلها عليك منّا ، واحتمل الفقر بالتنزه عما في أيدي الناس^(٣) ، وازم القناعة بما قسم لك ،
فإن سوء عمل الفقير يضع الشريف ، ويخمل الذكّر ، ويوجب الحرمان .

الأصل :

وَتَلَايِكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكَكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ ،
وَحِفْظُ مَا فِي الوِعَاءِ بِشِدَّةِ الوِكَاءِ ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلْبِ مَا فِي يَدَيَّ
غَيْرِكَ ، وَمَرَارَةُ اليَأْسِ ، خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ العِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ
الغِنَى مَعَ الفُجُورِ ، وَالْمَرَةُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ !

(١) ديوانه ١٤٤ . (٢) الديوان : « تجمع ما » .

(٣) د « عما في يدي غديك » .

مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ .
قَارِنُ أَهْلِ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ ، وَبَابِنُ أَهْلِ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ .
يُشْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ ! وَظَلَمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ !
إِذَا كَانَ الرَّفِيقُ خُرْقًا ، كَانَ الْخُرْقُ رِفْقًا .
رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً ، وَالدَّاءُ دَوَاءً . وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ ،
وَعَاشَ الْمُسْتَنْصَحُ .

وِإِيَّاكَ وَالْإِتِّكَالَ عَلَى الْمَعْنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى . وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ ،
وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ . بَادِرِ الْفُرْصَةَ ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ نَعْصَةً . لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ
يُصِيبُ ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَثُوبُ ، وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ . وَلِكُلِّ
أَمْرٍ عَاقِبَةٌ ، سَوْفَ يَا تُبَيْكُ مَا قَدَّرَ لَكَ .
التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ ، وَرُبَّ سَيْرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ !

الْبَيْتُ:

هذا الكلام قد اشتمل على أمثال كثيرة حكيمة .
أولها قوله : « تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقتك » ،
وهذا مثل قولهم : أنت قادر على أن تجعل صمتك كلاماً ، ولست بقادر على أن تجعل كلامك
صمتاً ؛ وهذا حق ؛ لأن الكلام يُسمع وينقل ؛ فلا يستطيع إعادته صمتاً ، والصمت عدم
الكلام ، فالقادر على الكلام قادر على أن يبده بالكلام ، وليس الصمت بمنقول
. ولا مسموع فيتعذر استدراكه .

وثانيها قوله : « حفظ مافي يديك أحب إليّ من طلب مافي أيدي غيرك » ، هذا مثل قولهم في المثل : البخل خير من سؤال البحيل ، وليس مراد أمير المؤمنين عليه السلام وصايته بالإمساك والبخل ، بل نهيه عن التفريط والتبذير ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَأْمُومًا مَحْسُورًا ﴾^(١) ؛ وأحمق الناس مَنْ أضع ماله اتكالا على مال الناس ، وضائاً أنه يقدر على الاستخلاف ، قال الشاعر :

إذا حدتتكَ النفسُ أنكَ قادرٌ على ما حوتُ أيدي الرجال فكذبِ

وثالثها قوله : « مرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس » ، من هذا أخذ الشاعر قوله :

وإن كان طعم اليأس مرّاً فإنه ألدّ وأحلى من سؤال الأراذلِ

وقال البحتري :

واليأس إحدى راحتين ولن تبرى تعباً كظنّ الخائب المغرور^(٢)

ورابمها قوله : « الحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور » ، والحرفة بالكسر مثل الحرف بالضم ، وهو نقصان الحظ وعدم المال . ومنه قوله « رجل محارف » ، بفتح الراء ، يقول : لأن يكون المرء هكذا وهو عفيف الفرج واليد ، خير من الغنى مع الفجور ؛ وذلك لأن ألم الحرفة مع العفة ومشقتها إنما هي في أيام قليلة وهي أيام العمر ، ولذّة الغنى إذا كان مع الفجور ، ففي مثل تلك الأيام يكون ؛ ولكن يستعقب عذابا طويلا ، فالحال الأولى خيرٌ لا محالة . وأيضا ففي الدنيا خير أيضا للذكر الجميل فيها ، والذكر القبيح في الثانية ، وللمحافظة على المروءة في الأولى وسقوط المروءة في الثانية .

وخامسها قوله : « المرء أحفظ لسره » أى الأولى ألا تبوح بسرِّك إلى أحد ، فانت أحفظ له من غيرك ؛ فإن أذعته فانتشر فلا تلم إلا نفسك ، لأنك كنت عاجزا عن حفظ سرِّ نفسك ، فغيرك عن حفظ سرِّك وهو أجنبى أعجز ، قال الشاعر :

إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن حفظِ سرِّهِ فصدرُ الذى يُستودعُ السرَّ أضيِّقُ

وسادسها قوله : « رُبَّ ساع فيما يضره » ، قال عبد الحميد الكاتب فى كتابه إلى أبى مسلم : لو أراد الله بالئمة صلاحًا ، لما أنبت لها جناحا .

وسابعها قوله : « من أ أكثر أهرج » يقال : أهرج الرجل ؛ إذا أخش فى المنطق السوء والخنا ، قال الشماخ :

كاجدةِ الأعراقِ قال ابنُ ضرّةٍ عليها كلاما جار فيه وأهجرًا^(١)

وهذا مثل قولهم : من أكثر كلامه أكثر سقطه . وقالوا أيضا : قلما سلّم مكثار ، أو أمن من عثار .

وثامنها قوله : « من تفكّر أبصر » ؛ قالت الحكماء : الفكر تحديق العقل نحو العقول ، كما أن النظر البصرى تحديق البصر نحو المحسوس ، وكما أن من حدّق نحو المبصر وحدقته صحيحة والموانع مرتفعة لا بدّ أن يبصره ؛ كذلك من نظر بعين عقله ، وأفكر فكرا صحيحا ، لا بدّ أن يدرك الأمر الذى فكّر فيه ويناله .

وتاسعها قوله : « قارن أهل الخير تكن معهم ، وبان أهل الشرّ تبين عنهم » ، كان يقال : حاجبك وجهك ، وكاتبك لسانك ، وجلسك كلّك . وقال الشاعر :

عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينه فكلّ قرينٍ بالمقارنِ مُقتدٍ

(١) ديوانه ٢٨ ، وروايته : « ممجدة الأعراق . وابن ضرّتها : ابن زوجها .

وعاشرها قوله : « بئس الطعام الحرام » ، هذا من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (١) .

وحادى عشرها قوله : « ظلم الضعيف أخش الظلم » . رأى معاوية ابنه يزيد يضرب
غلاماً ، فقال : يا بني ، كيف لا يسع حملك من تضربه فلا يمتنع منك ! وأمر المأمون
بإشخاص الخطابي القاص^(٢) من البصرة ، فلما مثل بين يديه ، قال له : يا سليمان ، أنت
القائل : العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة ، ومسجدى
عين الربد ، وأنا عين مسجدى ، وأنت أعور ، فإن عين الدنيا عوراء ! قال : يا أمير المؤمنين ،
لم أقل ذلك ، ولا أظن أمير المؤمنين أحضرني لذلك ، قال : بلغني أنك أصبحت فوجدت
على سارية من سوارى مسجدك :

رحم الله علياً * إنه كان تقياً

فأمرت بحجوه ؛ قال : يا أمير المؤمنين ، كان « ولقد كان نبياً » فأمرت بإزالته ، فقال :
كذبت كانت القاف أصح من عينك الصحيحة ، ثم قال : والله لولا أن أقيم لك عند العامة
سوقاً لأحسنت تأديبك ، قال : يا أمير المؤمنين ، قد ترى ما أنا عليه من الضعف والزمانة
والهرم وقلة البصر ؛ فإن عاقبتى مظلوما فاذكر قول ابن عمك على عليه السلام :
« ظلم الضعيف أخش الظلم » ، وإن عاقبتى بحق ، فاذكر أيضا قوله : « لكل شيء رأس ،
والحلم رأس السؤدد » . فنهض المأمون من مجلسه وأمر برده إلى البصرة ، ولم يصله بشيء ،
ولم يحضر أحد قط مجلس المأمون إلا وصله عدا الخطابي ؛ وليس هذا هو المحدث الحافظ
المشهور ؛ ذاك أبو سليمان أحمد بن محمد بن أحمد البستي ، كان في أيام المطيع والطائع ،
وهذا قاص بالبصرة كان يقال له أبو زكريا سليمان بن محمد البصرى .

وثانى عشرها قوله : « إذا كان الرفق خرقا ، كان الخرق رفقا » ، يقول : إذا كان استعمال

(١) سورة النساء ١٠ . (٢) كذا في ١ ، وفي ب : « القاضى » .

الرفق مفسدة وزيادة في الشرّ فلا تستعمله ؛ فإنه حينئذ ليس برقيق بل هو خرق ، ولكن استعمال الخرق ؛ فإنه يكون رفقاً والحالة هذه ؛ لأنّ الشرّ لا يلقى إلاّ بشر مثله ، قال عمرو ابن كاثوم :

أَلَا لَا يَجْهَنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ^(١)
وفي المثل : إن الحديد بالحديد يُفْلَح .
وقال زهير :

وَمَنْ لَا يَذُّدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يُظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ^(٢)
وقال أبو الطيّب :

ووضعُ التّدى في موضع السيف بالعلّاء مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع التّدى^(٣)
وثالث عشرها قوله : « وربما كان الدواء داء ، والداء دواء » ؛ هذا مثل قول أبي الطيّب :

* رَبِّمَا سَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ^(٤) *

ومثله قول أبي نواس :

* وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءِ^(٥) *

ومثل قول الشاعر :

تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلِي بِلَيْلِي فَلَمْ يَكُنْ دَوَاءً وَلَكِنْ كَانَ سُقْمًا مَخَالِفًا
ورابع عشرها قوله : « ربما نصح غير الناصح ، وغشّ المستنصَح » . كان المغيرة بن شعبة يينغض عليّاً عليه السلام منذ أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتأكّدت

(١) من المعلقة - بشرح التبريزي ٢٣٨ . (٢) ديوانه ٣٠ .

(٣) ديوانه ١ : ٢٨٨ . (٤) ديوانه ٣ : ٨٦ ، وصدرة :

* لَعَلَّ عَتَبَكَ حَمُودٌ عَوَاقِبُهُ *

(٥) ديوانه ٢٣٤ ، وصدرة :

* دَعَّ عَنْكَ لَوْمَى فَإِنَّ اللّوَمَ إِغْرَاءُ *

بِنَفْسِهِ إِلَى أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَانَ وَعَمْرٍ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ يَوْمَ بُؤَيْعٍ بِالْخِلَافَةِ أَنْ يَقْرَأَ مَعَاوِيَةَ عَلَى الشَّامِ مَدَّةَ سِيرَةٍ ، فَإِذَا خُطِبَ لَهُ بِالشَّامِ وَتَوَطَّأَتْ دَعْوَتُهُ دَعَاهُ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ عَمْرٌ وَعُمَانُ يَدْعَوَانِهِ إِلَيْهِمَا ، وَصَرَفَهُ فَلَمْ يَقْبَلْ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ نَصِيحَةً مِنْ عَدُوِّ كَاشِحٍ .

وَاسْتَشَارَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَهِيَ بِمَكَّةَ فِي الْخُرُوجِ عَنْهَا ، وَقَصَدَ الْعِرَاقَ ظَانًّا أَنَّهُ يَنْصَحُهُ فَعَشَّهْهُ ، وَقَالَ لَهُ : لَا تَقُمْ بِمَكَّةَ ، فَلَيْسَ بِهَا مَنْ يَبَايَعُكَ ؛ وَلَكِنْ دُونَكَ الْعِرَاقَ ، فَإِنَّهُمْ مَتَى رَأَوْكَ لَمْ يَعْدُلُوا بِكَ أَحَدًا ، فَخَرَجَ إِلَى الْعِرَاقِ ؛ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ .

وَخَامِسَ عَشْرًا قَوْلُهُ : « إِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى ، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى » ، جَمَعَ أَنْوَكٌ وَهُوَ الْأَمْحَقُ ، مِنْ هَذَا أَخَذَ أَبُو تَمَامٍ قَوْلَهُ :

مَنْ كَانَ مَرَّعِي عَزَمَهُ وَهَمُّومِهِ رَوْضُ الْأَمَانِي لَمْ يَزَلْ مَهْزُولًا^(١)

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : ثَلَاثَةٌ تُخَلِّقُ الْعَقْلَ ، وَهُوَ أَوْضَحُ دَلِيلٍ عَلَى الضَّعْفِ : طَوْلُ التَّمَنَّى ، وَسُرْعَةُ الْجَوَابِ ، وَالِاسْتِغْرَابُ^(٢) فِي الضَّحْكَ . وَكَانَ يُقَالُ : التَّمَنَّى وَالْحِلْمُ سَيَّانٌ . وَقَالَ آخَرٌ : شَرَفَ الْفَتَى تَرَكَ الْمُنَى .

وَسَادِسَ عَشْرًا قَوْلُهُ : « الْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ » مِنْ هَذَا أَخَذَ التَّكَلِّمُونَ قَوْلَهُمْ : الْعَقْلُ نَوْعَانُ : غَرِيزِيٌّ ، وَمَكْتَسَبٌ ، فَالْغَرِيزِيُّ الْعُلُومُ الْبَدِئِيَّةُ ، وَالْمَكْتَسَبُ مَا أَفَادَتْهُ التَّجَرِبَةُ وَحَفِظْتَهُ النَّفْسُ .

وَسَابِعَ عَشْرًا قَوْلُهُ : « خَيْرٌ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ » ، مِثْلُ هَذَا قَوْلُ أَفْلَاطُونِ : إِذَا لَمْ تَعْظُكَ التَّجَرِبَةُ فَلَمْ تَجْرِبْ ، بَلْ أَنْتَ سَاذِجٌ كَمَا كُنْتَ .

وِثَامْنَ عَشْرًا قَوْلُهُ : : بَادِرُ الْفُرْصَةِ ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً » ، حَضَرَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ عِنْدَ هَانِيٍّ بْنِ عَرُوةَ عَائِدًا ، وَقَدْ كَمَنَ لَهُ مُسَلِمٌ بْنُ عَقِيلٍ ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَقْتُلَهُ إِذَا جَلَسَ

(١) دِيوَانُهُ . (٢) الْاسْتِغْرَابُ فِي الضَّحْكَ : الْمِبَالِغَةُ فِيهِ .

واستقرّ ، فلما جلس جعل مسلم يؤامر نفسه ويريدها على الوثوب به فلم تطّعه ، وجعل هانئ^٤ ينشد كأنه يترنّم بالشعر :

* ما الأنتظار بسلامي لا تحيّيها *

ويكرر ذلك ، فأوجس عبيد الله خيفة ونهض ، فعاد إلى قصر الإمارة ، وفات مسلما منه ما كان يؤمّله بإضاعة الفرصة ، حتى صار أمره إلى ما صار .

وتاسع عشرها قوله : « ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غائب يثوب » ، الأولى كقول القائل :

ما كلّ وقتٍ ينالُ المرءُ ما طلباً ولا يسوّغه المقدر ما وهباً
والثانية كقول عبيد :

وكلّ ذي غيبةٍ يثوبُ وغائب الموت لا يثوبُ^(١)

العشرون قوله : « من الفساد ، إضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد » ، ولا ريب أنّ من كان في سفر وأضاع زاده ، وأفسد الحال التي يعود إليها فإنه أجمق ، وهذا مثلٌ ضربه للإنسان في حالتي ديناه وآخرته .

الحادي والعشرون قوله : ولكل أمر عاقبة « هذا مثل المثل المشهور « لكل سائله قرار » .
الثاني والعشرون قوله : « سوف يأتيك ما قدر لك » ، هذا من قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « وإنّ يقدر لأحدكم رزق في قبّة جبل أو حضيض بقاع^(٢) يأتيه » .

الثالث والعشرون قوله : « التاجر مخاطر » هذا حقّ ، لأنه يتعجّل بإخراج الثمن ولا يعلم : هل يعود أم لا ! وهذا الكلام ليس على ظاهره ، بل له باطن ، وهو أنّ من مزج الأعمال الصالحة بالأعمال السيئة ، مثل قوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾^(٣)

(٢) ب : « بقاء » تصحف ، صوابه من ا .

(١) ديوانه ١٣ .

(٣) سورة التوبة ١٠٢ .

فإنه مخاطر لأنّه لا يأمن أن يكون بعض تلك السيئات تحبب أعماله الصالحة ، كما لا يأمن أن يكون بعض أعماله الصالحة يكفر تلك السيئات ، والمراد أنه لا يجوز للمكلف أن يفعل إلا الطاعة أو المباح .

الرابع والعشرون قوله : « ربّ يسير ، أئمتي من كثير » ، قد جاء في الأثر: قد يجعل الله من القليل الكثير ، ويجعل من الكثير البركة . وقال الفرزدق :

فإنّ تيمماً قبل أن يلدَ الحصاً أقامَ زمانا وهو في النَّاسِ واحدٌ

وقال أبو عثمان الجاحظ : رأينا بالبصرة أخوين ، كان أبوها يحبّ أحدهما ويُبغض الآخر ، فأعطى محبوبه يوم موته كلّ ماله - وكان أكثر من مائتي ألف درهم - ولم يعطِ الآخر شيئاً ، وكان يتجرّ في الزيت ، ويكتسب منه ما يصرّفه في نفقة عياله ، ثم رأينا أولاد الأخ الموسر بعد موت الأخوين من عائلة ولد الأخ المعسر يتصدّقون عليهم من فواضل أرزاقهم .

الأفضل :

لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مُهِينٍ ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ .
سَاهِلَ الدَّهْرِ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ ، وَلَا تُخَاطِرُ بِشَيْءٍ رَجَاءٌ أَكْثَرَ مِنْهُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ
تَجْمَعَ بِكَ مَطِيئَةُ اللِّجَاجِ .

أَحْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرَمِهِ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللِّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ ؛
وَعِنْدَ جُجُودِهِ عَلَى الْبَدَلِ ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللَّيْنِ ، وَعِنْدَ
جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ .

وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِمَيْرِ أَهْلِهِ .

لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقًا فِتْمَادِيَّ صَدِيقَكَ ، وَامْحُضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ ؛
حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً ، وَتَجَرَّعِ الْعَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرْ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً ؛
وَلَا أَلَدَّ مَغْبَةً . وَلَنْ لِمَنْ غَالَطَكَ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ ، وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ
بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحَدُ الظَّفَرَيْنِ ، وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبِقْ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بِقِيَّةٍ
يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَأَ لَهُ ذَلِكَ يَوْمًا مَا . وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْرًا فَصَدَّقْ ظَنَّهُ ، وَلَا تُضِيعَنَّ
حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالًا عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعَتْ حَقَّهُ .
وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ . وَلَا تَرْعَبَنَّ فِيمَنْ زَهَدَ عَنْكَ ، وَلَا يَكُونَنَّ
أَخُوكَ أَقْوَى عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ
عَلَى الْإِحْسَانِ . وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمٌ مِنْ ظَلَمِكَ ، فَإِنَّهُ يَسْعَى فِي مَضْرَبَتِهِ وَنَفْعِكَ ،
وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَكَ أَنْ تَسُوَّهُ .

الشُّرْحُ :

هذا الفصل قد اشتمل على كثير من الأمثال الحكمية .

فأولها قوله : « لا خير في معين مهين ، ولا في صديق ظنين » ، مثل الكلمة الأولى

قولهم :

إذا تكفَّيتَ بغيرِ كافٍ وجدته للهيم غيرَ شافٍ

ومن الكلمة الثانية أخذ الشاعر قوله :

فإنَّ من الإخوان مَنْ شَحَطَ النَّوَى به وهو راعٍ للوصال أمينُ

ومنهم صديق العين أمَّا لقاؤه فحلُّوْ وأما غيبه فظنينُ

وثانيها قوله : « ساهل الدهر ما ذلّ لك قعوده » ؛ هذا استعارة ، والقعود البكر حين يمكن ظهره من الركوب إلى أن يثني ، ومثل هذا المعنى قولهم في المثل : مَنْ ناطح الدهر أصبح أجمّ .

ومثله :

* ودُرّ مع الدهر كيفما دارا *

ومثله :

وَمَنْ قَامَرَ الْأَيَّامَ عَنْ ثَمَرَاتِهَا فَأَحْرَبَهَا أَنْ تَنْجَلِيَ وَلَهَا الْقَمَرُ^(١)

ومثله :

إذا الدهر أعطاك العنان فسرّ به رويداً ولا تعنف فيصبح شامساً

وثالثها قوله : « لا تخاطر بشيء رجاء أكثر منه » ، هذا مثل قولهم : مَنْ طلب

الفضل ، حُرِم الأصل .

ورابعها قوله : « إياك وأن تجمح بك مطية اللجاج » ، هذا استعارة ، وفي المثل :

ألجّ من خنفساء ، وألجّ من زنبور . وكان يقال : اللجاج من القحّة ، والقحّة من قلة الحياء ، وقلة الحياء من قلة المروءة ، وفي المثل : ليجّ صاحبك فحجّ .

وخامسها قوله : « احمل نفسك من أخيك » ، إلى قوله : « أو تفعله بغير أهله »

اللطف ، بفتح اللام والطاء ، الاسم من ألطفه بكذا أي برّه به ، وجاءتنا لطفة من فلان

أي هدية ، والملاطفة المبارّة . وروى « عن اللطف » وهو الرفق للأمر ؛ والمعنى أنه أوصاه

إذا قطعه أخوه أن يصله ، وإذا جفاه أن يبرّه ، وإذا بخل عليه أن يوجد عليه ، إلى آخر

الوصاة .

ثم قاله : « لا تفعل ذلك مع غير أهله » ، قال الشاعر :

(١) القمر : العلبة في القمار .

وإن الذي بيني وبين بني أبي
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم
وإن زجروا طيرا بنحسٍ تمرّ بي
ولا أحمل الحقد القديم عليهم
وَيَيْنَ بِنِي أُمِّي لِمُخْتَلَفٍ جَدًّا^(١)
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
زجرت لهم طيرا تمرّ بهم سعدا
وليس رئيس القوم من يحمل الحقد
وقال الشاعر:

إني وإن كان ابن عمي كاشحا
ومفيده نصري وإن كان امرا
وأكون والى سره وأصونه
وإذا الحوادث أجحفت بسوامه
وإذا دعا باسمي ليركب مركبا
وإذا أجنّ فليقّة في خدره
وإذا ارتدى ثوبا جميلا لم أقل
لِقَاذِفٍ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ^(٢)
مترحزا في أرضه وسمايه
حتى يحقّ على وقت أدائه
قرنت صحیحتنا إلى جربائه
صعبا قعدت له على سيسائه^(٣)
لم أطلع مما وراء خبايه^(٤)
يالت أن عليّ فضل ردايه !

وسادسها قوله : « لا تتخذنّ عدوّ صديقك صديقا فتعادي صديقك » ، قد قال الناس

في هذا المعنى فأكثرُوا ، قال بعضهم :

إذا صافى صديقك من تعادي
فقد عاداك وانتقطع الكلام
وقال آخر :

صديقٌ صديقي داخلٌ في صداقتي
وخصمٌ صديقي ليس لي بصديق
وقال آخر :

تودّ عدوّي ثم تزعم أنّي
صديقك إنّ الرأي عنك لعازبٌ

(١) للمقنع الكندي ، ديوان الحماسة - بشرح المرزوق ٣ : ١١٧٩ .

(٢) لعروبة المدني ، الأغاني ٢٠ - ١٦٨ ، وطبقات الزبيدي ٥٧ .

(٣) السيساء في الأصل : منتظم فقار الظهر .

(٤) الفليقة : القليل : من الشعر . والخدر : الستر .

وسابعا قوله : « واحض أخاك النصيحة ، حسنة كانت أو قبيحة » ؛ ليس يعني عليه السلام بقبيحة هاهنا التوبيخ الذي يستحق به الذم والعقاب ؛ وإنما يريد نافعة له في العاجل كانت أو ضارة له في الآجل ، فعبّر عن النفع والضرر بالحسن والقبيح ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (١) .

وقد فسره قوم فقالوا : أراد : كانت نافعة لك أو ضارة لك . ويحتمل تفسير آخر وهو وصيته إياه أن يحض أخاه النصيحة سواء كانت مما لا يستحيا من ذكرها وشياعها ، أو كانت مما يستحيا من ذكرها واستفاضتها بين الناس ، كمن ينصح صديقه في أهله ويشير عليه بفراقهم لفسادهم فاجور أطلع عليه منهم ؛ فإنّ النَّاسَ يسمون مثل هذا إذا شاع قبيحا . وثانها قوله : « تجرّع الغيظ فإنّ لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألد مغبة » هذا مثل قولهم : الحلم مرارة ساعة ، وحلاوة الدهر كلّه . وكان يقال : التذلل للناس مصايد الشرف .

قال المبرّد في "الكامل" : أوصى عليّ بن الحسين ابنه محمد بن عليّ عليهم السلام ، فقال : يا بني ، عليك بتجرّع الغيظ من الرجال ؛ فإنّ أباك لا يسره بنصيبه من تجرّع الغيظ من الرجال حمر النعم ؛ والحلم أعزّ ناصراً ، وأكثر عدداً (٢) .

وتاسعها قوله : « لِنَ لِمَن غَالِظَكَ ، فَإِنَّهُ يُوْشِكُ أَنْ يَلِيْنَ لَكَ » ، هذا مثل المثل المشهور : « إذا عزّ أخوك فهنّ » ، والأصل في هذا قوله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣) .

وعاشرها قوله : « خذ على عدوك بالفضل فإنّه أحد الظفرين » هذا معنى مليح ، ومنه قول ابن هانيّ في المعزّ (٤) :

(١) سورة الروم ٣٦ .
(٢) الكامل .
(٣) سورة فصلت ٣٤ .
(٤) ب : « المعزّ » ، تصحف ، صوابه في أ .

ضَرَابُ هَامِ الرُّومِ مَنْتَقِمًا وَفِي أَعْنَاقِهِمْ مِنْ جُودِهِ أَعْبَاءُ
لَوْلَا انْبِعَاثُ السَّيْفِ وَهُوَ مَسَاطُئُ فِي قَتْلِهِمْ قَتَلْتَهُمُ النَّعْمَاءُ

وكنت كاتباً بديوان الخلافة ، والوزير حينئذ نصير الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد
رحمه الله ، فوصل إلى حضرة الديوان في سنة اثنتين وثلاثين وسمائه محمد بن محمد أمير
البحرين على البر ، ثم وصل بعده الهرمزي صاحب هرمز في دجله بالمرابك البحرية -
وهرمز هذه فُرُضَةٌ في البحر نحو عُمان - وامتلاّت بغداد من عرب محمد بن محمد وأصحاب
الهرمزي - وكانت تلك الأيام أياماً غرّاء زاهرة لما أفاض المستنصر على الناس من عطاياه ،
والوفود تزدهم من أقطار الأرض على أبواب ديوانه - فكتبت يوم دخول الهرمزي إلى
الوزير أبياتاً سنحت على البديهة ، وأنا متشاغل بما كنت فيه من مهامّ الخدمة ، وكان رحمه
الله لا يزال يذكرها وينشدها ويستحسنها :

يَا أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدٍ أَنْتَ الَّذِي عَلَقْتُ يَدَاهُ بِأَنْفَسِ الْأَعْلَاقِ
مَا أَمَلْتُ بَغْدَادُ قَبْلَكَ أَنْ تَرَى أَبْدَاءَ مَلُوكِ الْبَحْرِ فِي الْأَسْوَاقِ
وَلَهُوَ عَلَيْهَا غَيْرَةٌ وَتَنَافَسُوا شَغَفًا بِهَا كَتَنَافُسِ الْعُشَاقِ
وَعَدْتُ صِلَاتِكَ فِي رِقَابِ سَرَائِهِمْ وَنَدَاكَ كَالْأَطْوَاقِ فِي الْأَعْنَاقِ
بَسِيدِرَأِيكَ أَصْلَحْتَ جَمَحَاتِهِمْ وَتَأَلَّفُوا مِنْ بَعْدِ طَوْلِ شِقَاقِ
لِلَّهِ هَمَّةٌ مَاجِدٌ لَمْ تَعْتَلِقْ بِسَحِيلِ آرَاءِ وَلَا أَحْدَاقِ (٢)
جَلَبَ السَّلَاحِ مِنْ أَرَاكَ وَبَعْدَهَا جَلَبَ الْمَرَابِكِ مِنْ جَزِيرَةِ وَاقِ
هَذَا الْعَدَاءُ هُوَ الْعَدَاءُ فَعَدَّ عَنْ قَوْلِ ابْنِ حُجْرٍ فِي لِأَيِّ وَعْنَاقِ
وَأَظْنُهُ وَالظَّنُّ عِلْمٌ أَنَّهُ سَيَجِيئُنَا بِمَمَالِكِ الْآفَاقِ
إِمَّا أَسِيرٌ صَنِيعَةٍ فِي جِيدِهِ بِالْجُودِ غُلٌّ أَوْ أَسِيرٌ وَثَاقِ

(١) ديوانه ٥ (المطبعة الأميرية) (١٢٧٤) .
(٢) السحيل والأحذاق : الحبال الضعيفة .

لا زال في ظلّ الخليفة ماله فانِ وسودده المعظم باقٍ

وحادى عشرها قوله : « إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا ذلك له يوماً » ، هذا مثل قولهم : « أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » ، وما كان يقال : إذا هويت فلا تكن غالياً ، وإذا تركت فلا تكن قالياً .

وثاني عشرها قوله : « مَنْ ظنَّ خيراً فصدّق ظنّه » كثير من أرباب الهمم يفعلون هذا ، يقال لمن قد شدّ أطرافاً من العلم : هذا عالم ، هذا فاضل ، فيدعوه ما ظنّ فيه من ذلك إلى تحقيقه ، فيواظب على الاشتغال بالعلم حتى يصير عالماً فاضلاً حقيقة ، وكذلك يقول الناس : هذا كثير العبادة ، هذا كثير الزهد ؛ لمن قد شرع في شيء من ذلك ، فتحمله أقوال الناس على الالتزام بالزهد والعبادة .

وثالث عشرها قوله : « ولا تضيعنَّ حقَّ أخيك اتكالا على ما بينك وبينه ، فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه » ، من هذا النحو قول الشاعر :

إذا ختمتُ بالغيّب عهدى فما لكم تُدِلُّونَ إِدلالَ المقيمِ على العهدِ
صَلُّوا وافعلوا فعلَ المدلِّ بوصيله وإلّا فصدّوا وافعلوا فعلَ ذى الصدى

وكان يقال : إضاعة الحقوق ، داعية العقوق .

ورابع عشرها قوله : « لا ترغبنَّ فيمن زهد فيك » الرغبة في الزاهد هي الداء العياء ؛ قال العباس بن الأحنف :

ما زلتُ أزهدُ في مودّة راعبٍ حتى أبليت برغبه في زاهدٍ
هذا هو الداء الذى ضاقت به حيلُ الطبيب وطال يأس العائدِ

وقد قال الشعراء المتقدمون والمتأخرون فأكثر، نحو قولهم :

وَفِي النَّاسِ إِنْ رَثْتَ حَبْلُكَ وَاصِلٌ وَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْقَلَى مُتَحَوِّلٌ (١)
وقول تأبطشرا (٢) :

إِنِّي إِذَا خُلَّةٌ ضَنْتُ بِنَائِلِهَا وَأَمْسَكَتُ بضعيفِ الْجَبَلِ أَحْدَاقِي (٣)
نَجَوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيْلَةٍ إِذْ أَلْقَيْتُ لِيْلِهِ حَبِيَّتِ الرَّهْطِ أُرَاقِي (٤)

وخامس عشرها قوله : لا يكونن أخوك أقوى على قطيعتك منك على صلته ، ولا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان . هذا أمر له بأن يصل من قطعه ، وأن يحسن إلى من أساء إليه .

ظفر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد بكتب قد كتبها محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام إلى أهل الكرخ وغيرهم من أعمال أصفهان يدعوهم فيها إلى نفسه ، فأحضرها بين يديه ، ودفعا إليه ، وقال له : أتعرف هذه ؟ فأطرق خجلا ، فقال له : أنت آمن ، وقد وهبت هذا الذنب لعلی وفاطمة عليهما السلام ، فقم إلى منزلك ، وتخيّر ما شئت من الذنوب ، فإنّا نتخيّر لك مثل ذلك من العفو .

وسادس عشرها قوله : « لا يكبرنّ عليك ظلم من ظلمك ، فإنه يسعى في مضرتك ونفعك وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، جاء في الخبر المرفوع أنه صلّى الله عليه وآله سمع عائشة تدعو على من سرق عقدا لها ، فقال لها : « لا تمسحى عنه بدعائك ، أى لا تحقّفى عذابه » . وقوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، يقول : لا تنتقم ممن ظلمك فإنه قد نفعك في الآخرة بظلمه لك ، وليس جزاء من ينفع إنسانا أن يسىء إليه . وهذا مقام جليل

(١) لمن بن أوس ، ديوانه ٥٩ .

(٢) الفضليات ٨ .

(٣) الخلة : الصداقة ، وتقال للصدق ، وتطلق على الذكر والمؤنث والمثى والجمع ؛ وأنت الضأ من

أجل اللفظ . والأحذاق : القطع من الجبال .

(٤) الخبت : اللين من الأرض . الرهط : موضع . القيت أرواق : استفرغت جهدى وعدوت عدو أشد بدأ

لا يقدر عليه إلا الأفراد من الأولياء الأبرار . وقبض بعض الجبابرة على قوم صالحين ، فحبسهم وقيدهم ، فلما طال عليهم الأمر زفر بعضهم زفرةً شديدة ، ودعا على ذلك الجبار ، فقال له بمض أولاده - وكان أفضل أهل زمانه في العبادة . وكان مستجاب الدعوة : لا تدعُ عليه فتخفف من عذابه ، قالوا : يا فلان ، ألا ترى ما بنا وبك ! لا يأنف ربك لنا ! قال : إن لفلان مهبطاً في النار لم يكن ليلبغّه إلا بما ترون ، وإن لكم لمصعداً في الجنة لم تكونوا لتبلغوه إلا بما ترون . قالوا : فقد نال منا العذاب والحديد ، فادع الله لنا أن يخلصنا وينقذنا مما نحن فيه ، قال : إني لأظنّ أني لو فعلت لفعل ، ولكن والله لا أفعل حتى أموت هكذا ، فألقى الله فأقول له : أي ربّ سلّ فلانا لِمَ فعل بي هذا ؟ ومن الناس من يجعل قوله عليه السلام : « وليس جزاء من سرّك أن تسوءه » ، كلمة مفردة مستقلة بنفسها ، ليست من تمام الكلام الأول ، والصحيح ما ذكرناه .

وسابع عشرها - ومن حقه أن يقدم ذكره قوله : « ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك » ، هذا كما يقال في المثل : من شؤم الساحرة أنّها أول ما تبدأ بأهلها ، والمراد من هذه الكلمة النهي عن قطيعة الرّحم وإقصاء الأهل وحرمانهم ، وفي الخبر المرفوع : « صلوا أرحامكم ولو بالسلام » .

الأفضل :

وَاعْلَمْ يَا بَنِيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ : رِزْقٌ تَطْلُبُهُ ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ ، فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ .

مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى !
إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَشْوَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ جَارِعاً عَلَى مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ ، فَاجْزَعْ عَلَى كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ .

اسْتَدِلَّ عَلَى مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهُ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ
لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِذَا بَالَعَتْ فِي إِيْلَامِهِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَعَبَّ بِالْآدَابِ ، وَالْبَهَائِمَ
لَا تَتَعَبُّ إِلَّا بِالضَّرْبِ .

اطَّرَحَ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ .

مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارًا . وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ ، وَالْهُوَى
شَرِيكُ الْعَمَى ، وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ ، وَقَرِيبٌ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ ، وَالْغَرِيبُ
مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ .

مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ ، وَمَنْ افْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ ،
وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ . وَمَنْ لَمْ يُبَالِكْ
فَهُوَ عَدُوٌّكَ .

قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِذْرَاكَ ، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكَ .

لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ ،
وَأَصَابَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ .

أَخْرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا سَنَّتَ تَعَجَّلْتَهُ ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ .

مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ .

لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَحَى أَصَابَ .

إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ ، تَغَيَّرَ الزَّمَانُ .

سَلَّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ ، وَغَنَّ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ .

البُخ :

في بعض الروايات: « أطرح عنك واردات المموم بحسن الصبر وكرم العزاء » ، قد مضى لنا كلام شافٍ في الرزق .

وروى أبو حيان ، قال : رفع الواقديّ إلى المأمون رقعة يذكر فيها غلبة الدين عليه ، وكثرة العيال ، وقلة الصبر ، فوقع المأمون عليها : أنت رجل فيك خلّتان ؛ السخاء والحياء فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يديك ، وأما الحياء فهو الذي بلغ بك إلى ما ذكرت ، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم ؛ فإن كنا أصبنا إرادتك فازدد في بسط يدك ، وإن كنا لم نصب إرادتك فبجنايتك على نفسك ؛ وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد عن محمد ابن إسحاق ، عن الزهريّ ، عن أنس بن مالك ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال للزبير : « يا زبير ، إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش ، ينزل الله تعالى للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ؛ فمن كثّر كثر له ، ومن قلّ قلّ له » .

قال الواقديّ : وكنت أنسيتُ هذا الحديث ، وكانت مذاكرته إياي به أحبّ من صلته .

واعلم أن هذا الفصل يشتمل على نكت كثيرة حكيمية :
منها قوله « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك » ، وهذا حق ؛ لأنّ ذلك إنّما يكون على حسب ما يعلمه الله تعالى من مصلحة المكلف ، فتارة يأتيه الرزق بغير اكتساب ولا تكلف حركة ، ولا تجشّم سعى ، وتارة يكون الأمر بالعكس .
دخل عماد الدولة أبو الحسن بن بويه شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت عنها ، وهو فقير

لا مال له ، فساخت إحدى قوائم فرسه في الصَّحراء في الأرض ، فنزل عنها وابتدرها غلمانها فخلصوها ، فظهر لهم في ذلك الموضع نَقْبٌ وسيع ، فأمرهم بحفره ، فوجدوا^(١) فيه أموالاً عظيمة ، وذخائر لابن ياقوت ، ثم استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها ، فرأى حية في السقف ، فأمر غلمانها بالصعود إليها وقتلها ، فهربت منهم ، ودخلت في خشب الكنيسة فأمر أن يقلع الخشب وتستخرج وتقتل ؛ فلما قلعوا الخشب وجدوا فيه أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت .

واحتاج أن يفصل ويحيط ثياباً له ولأهله فقيل : هاهنا خياط حاذق كان يحيط لابن ياقوت ، وهو رجل منسوب إلى الدِّين والخير ، إلا أنه أصم لا يسمع شيئاً أصلاً ، فأمر بإحضاره ، فأحضر وعنده رعب وهلع ، فلما أدخله إليه كلمه ؛ وقال : أريد أن تحيط لنا كذا وكذا قطعة من الثياب ، فارتعد الخياط واضطرب كلامه ، وقال : والله يا مولانا ماله عندي إلا أربعة صناديق ليس غيرها ، فلا تسمع قول الأعداء في . فتعجب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق ، فوجدها كلها ذهباً وحباً وجواهر مملوءة وديعة لابن ياقوت .
وأما الرزق الذي يطلبه الإنسان ويسعى إليه فهو كثير جداً لا يحصى .

ومنها قوله : « ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى » ! هذا من قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾^(٣) .

ومن الشعر الحكمي في هذا الباب قول الشاعر :

خُلُقَانٍ لَا أَرْضَاهُمَا لِفَتَى : تِيهِ الْغِنَى وَمِذَلَّةُ الْفَقْرِ

فإذا غَنَيْتِ فلا تكنِ بِطِراً وإذا افتقرتِ فَتِهْ على الدَّهْرِ
ومنها قوله : « إِنَّمَا لكِ من دُنْيَاكَ ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ » ، هذا من كلام رسول الله
صلى الله عليه وآله : « يَا بَنَ آدَمَ ، لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَنْتِ ، أَوْ لَبَسْتَ
فَأَبْلَيْتِ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَبْقَيْتِ » .

وقال أبو العتاهية :

ليس للمتعب المكادح من دز ياهُ إِلَّا الرَّغِيفَ وَالطَّمْرَانَ^(١)
ومنها قوله : « وَإِنْ كُنْتَ جازِعاً على ما تفلتَ من يديكَ ، فَاجزَعِ على كلِّ ما لم يصل
إليكِ » ، يقول : لا ينبغي أن تجزَعَ على ما ذهب من مالك ، كما لا ينبغي أن تجزَع
على ما فاتك من المنافع والمكاسب ؛ فإنه لا فرق بينهما ، إلا أن هذا حصل ، وذاك
لم يحصل بعد ؛ وهذا فرق غير مؤثر ، لأن الذي تظن أنه حاصل لك غير حاصل في الحقيقة ،
وإنما الحاصل على الحقيقة ما أكلته ولبسته ، وأما القنيات والمدخرات فلعلها ليست لك ،
كما قال الشاعر :

وذِي إبْلِ يَسْقَى وَيَحْسِبُهَا لَهُ أَخِي تَعِبَ فِي رَغِيهَا وَدُؤُوبِ
غَدَتْ وَغَدَا رَبٌّ سِوَاهُ يَسُوقُهَا وَبُدِّلَ أَحْجَارًا وَجَالَ قَلْبِي
ومنها قوله : « اسْتَدَلَّ على ما لم يكن بما كان ، فإن للأمر أشباها » يقال : إذا شئت
أن تنظر للدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك .

وقال أبو الطيب في سيف الدولة :

ذِكْرُكَ تَظَنِّيهِ ، طَلِيعَةُ عَيْنِهِ يَرَى قَلْبُهُ فِي يَوْمِهِ مَا يَرَى غَدَاً^(٢)
ومنها قوله : « وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ . . . » إلى قوله : « إِلَّا بِالضَّرْبِ » ،
هو قول الشاعر :

(١) الطمران : ثنية طمر ، وهو الثوب الخلق البالي .

(٢) ديوانه ١ : ٢٨٢ ، والتظني : التظنن ، والطلية : الذي يطلع القوم على العدو .

العبد يُقرع بالعصاً والحُرّ تكفيه الملامه^(١)

وكان يقال : اللّيم كالعبد ، والعبد كالبهيمة عتبتها ضرُّها .

ومنها قوله : « أطرح عنك واردات الهموم بحسن الصبر وكرم العزاء »^(٢) . هذا كلام شريف فصيح عظيم النفع والفائدة ، وقد أخذ عبد الله بن الزبير بعض هذه الألفاظ فقال في خطبته لما ورد عليه الخبر بقتل مُصعب أخيه : « لقد جاءنا من العراق خبرٌ أحزّنا وسرّنا ، جاءنا خبرٌ قتل مُصعب ؛ فأما سرورنا فلأنّ ذلك كان له شهادة ، وكان لنا إن شاء الله خيرة ؛ وأما الحزن فلوعةٌ يجدها الحميم عند فراق حميمه ، ثم يرعوى بعدها ذو الرأى إلى حسن الصبر وكرم العزاء » .

ومنها قوله : « مَنْ تركّ القصد جار » القصد الطريق المعتدل ، يعنى أنّ خير الأمور أوسطها ، فإن الفضائل تحييط بها الرذائل فمن تعدّى هذه يسيرا وقع في هذه .
ومنها قوله : « الصاحب مناسب » ، كان يقال : الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب البدن ، قال أبو الطيّب :

ما الخلل إلا مَنْ أودّ بقلبه وأرى بطرفٍ لا يرى بسوائه^(٣)

ومنها قوله : « الصديق مَنْ صدق غيبه » ، من هاهنا أخذ أبو نواس قوله في المنهوك^(٤) :

هل لك وأهلّ خبره فيمن إذا غبتَ حضر
أو مالك اليوم أثره فإن رأى خيرا شكّر
* أو كان تقصير عذر *

ومنها قوله : « الهوى شريك العمى » ، هذا مثل قولهم : « حبك الشيء يُعمى ويُصم »

قال الشاعر :

(١) لابن مفرغ ، الشعر والشعراء ٣١٥ . (٢) بلفظ الرواية الثانية . (٣) ديوانه ١ : ٤ .

(٤) المنهوك من الرجز والمنسرح : ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه ، كقوله في الرجز :

* ياليتنى فيها جذع * وقوله في المنسرح : * ويل أم سعد سعدا * .

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ الشَّخْطِ تُبَدِّي الْمَسَاوِيَا ^(١)
ومنها قوله: «ربّ بعيد أقرب من قريب ، وقريب أبعد من بعيد ،» هذا معنى مطروق ،
قال الشاعر :

لعمرك ما يضرُّ البُعدُ يوماً إِذَا دَنَتِ الْقُلُوبُ مِنَ الْقُلُوبِ

وقال الأحموس :

إِنِّي لَأَمْنَحُكَ الصُّدُودَ وَإِنِّي قَسَمًا إِلَيْكَ مَعَ الصُّدُودِ لِأَمِيلُ ^(٢)

وقال البحتري :

وَنَازِحَةٌ وَالِدَارِ مِنْهَا قَرِيْبَةٌ وَمَا قَرِبَ ثَاوِي فِي التَّرَابِ مَغِيْبٌ !
ومنها قوله « والغريب من لم يكن له حبيب » يريد بالحبيب ها هنا المحبّ لا المحبوب ،
قال الشاعر :

أُسْرَةَ الْمَرْءِ وَالِدَاهُ وَفِيْمَا بَيْنَ جَنْبَيْهِمَا الْحَيَاةُ تَطِيْبُ
وَإِذَا وَلَّىا عَنِ الْمَرْءِ يَوْمًا فَهُوَ فِي النَّاسِ أَجْنَبِيٌّ غَرِيْبُ

ومنها قوله : « مَنْ تَمَدَّى الْحَقُّ ضَاقَ بِمَذْهَبِهِ » ، يريد بمذهبه ها هنا طريقته ، وهذه
استعارة ، ومعناه أنّ طريق الحق لا مشقّة فيها لسالكها ، وطرق الباطل فيها المشاقّ والمضارّ ،
وكان سالكها سالك طريقه ضيّقة يتعثّر فيها ، ويتخبّط في سلوكها .

ومنها قوله : « مَنْ اقْتَصَرَ عَلَى قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ » ، هذا مثل قوله : « رَحِمَ اللهُ امْرَأً
عَرَفَ قَدْرَهُ ، وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ » وقال : مَنْ جَهِلَ قَدْرَهُ قَتَلَ نَفْسَهُ . وقال أبو الطيّب :
وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

ومنها قوله : « أوثق سبب أخذت به ، سبب بينك وبين الله سبحانه ، هذا من قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ (١) .

ومنها قوله : « فمن لم يباليك فهو عدوك » ، أى لم يكثر بك ، وهذه الوصاة خاصة بالحسن عليه السلام وأمثاله من الولاة وأرباب الرعايا ، وليست عامّة للسوقة من أفناء الناس ، وذلك لأنّ الوالى إذا أنس من بعض رعيته أنه لا يباليه ولا يكثر به ، فقد أبدى صفحته ، ومن أبدى لك صفحته فهو عدوك ، وأما غير الوالى من أفناء الناس ، فليس أحدهم إذا لم يبالي الآخر بعدوّه له .

ومنها قوله : « قد يكون اليأس إدراكا إذا كان الطمع هلاكا » ؛ هذا مثل قول القائل :

مَنْ عَاشَ لَاقَىٰ مَا يَسُو ۚ ءَ مِنْ الْأُمُورِ وَمَا يَسُرُّ
وَلَرُبَّ حَتْفٍ فَوْقَهُ ذَهَبٌ وَيَاقُوتٌ وَدُرٌّ

والمعنى : ربّما كان بلوغ الأمل في الدنيا والفوز بالمطلوب منها سبباً للهلاك فيها ؛ وإذا كان كذلك ، كان الحرمان خيرا من الظفر .

ومنها قوله : « ليس كلّ عورة تظهر ، ولا كلّ فرصة تصاب » يقول : قد تكون عورة العدو مستترّة عنك فلا تظهر ، وقد تظهر لك ولا يمكنك إصابتها .

وقال بعض الحكماء : الفرصة نوعان : فرصة من عدوك ، وفرصة في غير عدوك ، فالفرصة من عدوك ما إذا بلغت نفعتك ، وإن فاتتكَ ضررتك ، وفي غير عدوك ما إذا أخطأك نفعه لم يصل إليك ضرّه .

ومنها قوله : « فربما أخطأ البصير قصده ، وأصاب الأعمى رشده » من هذا النحو قولهم في المثل : « مع الخواطيء سهم صائب » ، وقولهم : « رمية من غير رام » . وقالوا في مثل اللفظة الأولى : « الجواد يكبو ، والحسام قد ينبو » . وقالوا : « قديمفو الحليم ، ويجهل العليم » .
ومنها قوله : « أحرّ الشرّ فإنك إذا شئت تعجلته » مثل هذا : قولهم في الأمثال الطفيلية : « كلّ إذا وجدت ، فإنك على الجوع قادر » . ومن الأمثال الحكمية : « ابدأ بالحسنة قبل السيئة ، فليست بمستطيع للحسنة في كلّ وقت وأنت على الإساءة متى شئت قادر » .

ومنها قوله : « قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل » ؛ هذا حق ، لأنّ الجاهل إذا قطعك انتفعت ببعده عنك ، كما تنتفع بمواصلة الصديق العاقل لك ؛ وهذا كما يقول المتكلمون : عدم الضرّة كوجود المنفعة ، ويكاد أن يبتنى على هذا قولهم : كما أن فعل الفسدة قبيح من البارئ ، فالإخلال بالّطف منه أيضا يجب أن يكون قبيحا .

ومنها قوله : « من أمن الزمان خانه ، ومن أعظمه أهانه » ، مثل الكلمة الأولى قول الشاعر :

ومنّ يأمن الدنيا يكن مثل قابضٍ على الماء خانتهُ فروج الأناملِ

وقالوا : احذر الدنيا ما استقامتْ لك . ومن الأمثال الحكمية : « من أمن الزمان ضيّع ثغرا نحوفا » . ومثل الكلمة الثانية قولهم : « الدنيا كالأمّة اللئيمة المشوقة ، كلما ازدادت لها عشقا وعليها تهالكوا ازدادت لك إذلالا ، وعليك شطاطا » .
وقال أبو الطيب :

وهي معشوقة على الغدرِ لا تحفظُ عهداً ولا تتمم وصلاً

شِيمُ الغانيات فيها فَلَا أَدْرِي لِمَا أَنْتَ اسمها الناسُ أم لا^(١)!

ومنها قوله : « ليس كلَّ مَنْ رَمَى أصاب » هذا معنى مشهور ، قال أبو الطيّب :

ما كلَّ مَنْ طلب المعالي نافذاً فيها ، ولا كلَّ الرجال فُجُولا

ومنها قوله : « إذا تغيّر السلطان ، تغيّر الزمان » . في كتب الفرس أن أنوشروان

جمع عمّال السّواد وييده دُرّة يقبّدها ، فقال : أيّ شيء أضرّ بارتفاع السّواد وأدعي

إلى محقه ؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه ؟ فقال بعضهم : انقطاع

الشرب ، وقال بعضهم : احتباس المطر ، وقال بعضهم : استيلاء الجنوب وعدم الشمال ،

فقال لوزيره : قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقول الرعيّة كلها أو يزيد عليها ،

قال : تغيّر رأى السلطان في رعيّته ، وإضمار الحيف لهم ، والجور عليهم ،

فقال : لله أبوك ! بهذا العقل أهلك أبائي وأجدادي لما أهلوك له . ودفع إليه الدرّة

فجعلها في فيه .

ومنها قوله : « سل عن الرفيق ، قبل الطريق ؛ وعن الجار ، قبل الدار » وقد روى

هذا الكلام مرّفوعاً ، وفي المثل : « جار السوء كلب هارث ، وأفعى ناهش » .

وفي المثل : الرفيق إمّا رحيق أو حريق .

الأصل :

إِيَّاكَ أَنْ تَذَكَّرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً ، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ

عَنْ غَيْرِكَ .

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ ، وَعَزْمُهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ ، وَاكْفُفْ
عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ ، وَلَيْسَ
خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثِقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَّا يَعْرِفَنَّ
غَيْرَكَ فَافْعَلْ .

وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رِيحَانَةٌ ، وَلَيْسَتْ
بِقَهْرٍ مَانَةٍ . وَلَا تَعُدُّ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا ، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لغيرِهَا .

وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ غَيْرَةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ ،
وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيبِ .

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلًا تَأْخُذُهُ بِهِ ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ إِلَّا يَتَوَاكَلُوا
فِي خِدْمَتِكَ .

وَأَكْرَمُ عَشِيرَتِكَ ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ ،
وَيَذُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ .

اسْتَوْدِعِ اللَّهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ ،
وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ . وَالسَّلَامُ .

الشرح :

نهاه أن يذكر من الكلام ما كان مضحكا ، لأن ذلك من شغل أرباب الهزل
والبطالة ، وقل أن يخلو ذلك من غيبة أو سخرية . ثم قال : وإن حكيت ذلك عن غيرك ،
فإنه كما يستهجن الابتداء بذلك يستهجن حكايته عن الغير ؛ وذلك كلام فصيح ،
ألا ترى أنه لا يجوز الابتداء بكلمة الكفر ، ويكره أيضاً حكايتها . وقال عمر لما نهاه

رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحلف بالله : فاحلفت به ذاكرا ، ولا آثرا ، ولا حاكيا .
وكان يقال : مَنْ مازح استخفَّ به ، ومن كثر ضحكك قلت هيبته .

فأما مشاورة النساء فإنه من فعل عَجَزَة الرجال ، قال الفضل بن الربيع أيام الحرب بين
الأمين والمأمون في كلام يذكر فيه الأمين ويصفه بالعجز : ينام نوم الظربان ، وينتبه
انتباهة الذئب ، همم بطنه ، ولذته فرجه ، لا يفكر في زوال نعمته ، ولا يروى في إمضاء
رأى ولا مكيدة ، قد شمر له عبد الله عن ساقه ، وفوق له أشد سهامه ، يرميه على بعد
الدار بالتحف النافذ ، والموت القاصد ؛ قد عبى له المنايا على مُتُون الخيل ، وناط له
البلايا بأسنة الرماح ، وشفار السيوف ، فكأنه هو قال هذا الشعر ووصف به
نفسه وأخاه :

يُقَارِعُ أتراك ابن خاقان ليلته إلى أن يرى الإصباح لا يتلعمُ
فيصبح من طول الطراد وجسمه نحيلٌ ، وأضحى في النعيم أصمُّ
وهمى كأس من عُقار وقينةٍ وهمته درع ورُمح ومخندُ
فشتان ما بيني وبين ابن خالدٍ أمية في الرزق الذي الله يقسم

ونحن معه نجرى إلى غاية إن قصرنا عنها ذمنا ، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا ،
وإنما نحن شعب من أصل ، إن قوى قوينا ، وإن ضعف ضعفنا ؛ إن هذا الرجل قد ألقى
بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويعتزم على الرؤيا ، قد أمكن أهل الخسارة واللّهو
من سمعه ، فهم يمتونهُ الظفر ، ويعدونهُ عُقب الأيام ، والهلاكُ أسرع إليه من السَّيْل
إلى قيعان الرمل .

قوله عليه السلام : « فإن رأيتنَّ إلى أفن » الأفن بالسكون : النقص ، والمتأفّن :

المتنقّص ، يقال : فلان يتأنّف فلانا ، أى يتنقّصه ويعيبه . ومن رواه « إلى أفن » بالتحريك فهو ضعف الرأى ، أفن الرجل يأفن أفناً أى ضعف رأيه ؛ وفي المثل : « إن الرّقين تُغطّى أفن الأفين »^(١) والوهن : الضعف .

قوله : « واكفّ عليهنّ من أبصارهنّ » من هاهنا زائدة ؛ وهو مذهب أبى الحسن الأخفش فى زيادة من فى الموجب ، ويجوز أن يحمل على مذهب سيويوه ، فيعنى به : فاكفّ عليهنّ بعض أبصارهنّ .

ثم ذكر فائدة الحجاب ، ونهاه أن يدخل عليهنّ من لا يوثق به ؛ وقال : إنّ خروجهنّ أهون من ذلك ، وذلك لأنّ من تلك صفته يتمكن من الخلوة مالا يتمكن منه من يراهنّ فى الطرقات .

ثم قال : « إن استطعت ألا يعرفنّ غيرك فافعل » . كان لبعضهم بنت حسناء ، فحجّ بها ، وكان يعصبُ عينيها ، ويكشف للناس وجهها ، فقبل له فى ذلك ، فقال : إنّما الحذر من رؤيتها الناس ، لا من رؤية الناس لها .

قال : « ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها » ؛ أى لا تدخلها معك فى تدبير ولا مشورة ، ولا تتعدّينّ حال نفسها وما يصلح شأنها .

فإن المرأة ريحانةٌ ، وليست بقهرمانة ؛ أى إنّما تصلح للمتعة واللذة ، وليست وكيلا فى مال ، ولا وزيراً فى رأى .

ثم أكّد الوصيّة الأولى ، فقال : لا تعدّ بكرامتها نفسها ، هذا هو قوله : « ولا تملكها من أمرها ما جاوز نفسها » .

ثم نهاه أن يطعمها فى الشفاعات .

(١) اللسان (أفن ، رقن) والرقين : الدرهم ؛ سمي بذلك للترقين الذى فيه ؛ يعنون الخط .

وروى الزبير بن بكار، قال: كانت الخيزران كثيراً ما تكلم موسى أبناً - لما استخلف - في الحوائج؛ وكان يجيبها إلى كل ما تسأل، حتى مضت أربعة أشهر من خلافته وتتالى الناس عليها، وطعموا فيها، فكانت الموابك تغدو إلى بابها، وكلته يوماً في أمر فلم يجد إلى إجابتها سبيلاً، واحتج عليها بحجة فقالت: لا بد من إجابتي، فقال: لا أفعل، قالت: إني قد ضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، فغضب موسى وقال: ويلى على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتُها لك ولا له! قالت: والله لا أسألك حاجة أبداً، قال: إذن والله لا أبالي؛ فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعبي كلامي؛ وأنا والله برىء من قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لأن بلغني أنه وقف أحد من قوادى وخاصتى وخدمى وكتابى على بابك لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء فليزِم ذلك؛ ما هذه الموابك التى تغدو إلى بابك كل يوم! أما لك مغزَل يشغلك، أو مصحف يذكرك، أو بيت يصونك! إياك ثم إياك أن تفتحى فاك في حاحة للمي أو ذمي. فانصرفت وما تعقل ما تطأ عليه، ولم تنطق عنده بحلوة ولا مرّة بعدها حتى هلك.

وأخذ هذه اللفظة منه وهى قوله: «إن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانه» الحجاج فقالها للوليد بن عبد الملك؛ روى ابن قتيبة في كتاب «عيون الأخبار» قال: دخل الحجاج على الوليد ابن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء وفرس عربيّة وكنانة؛ وذلك في أوّل قدمة قدمها عليه من العراق؛ فبعثت أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وهى تحت الوليد إليه: من هذا الأعرابي المستلم في السلاح عندك وأنت في غلالة! فأرسل إليها: هذا الحجاج؛ فأعدت إليه الرسول: [فقال: تقول لك:] والله لأن يخلو بك ملك الموت في اليوم أحياناً أحبُّ

إلى من أن يخلو بك الحجاج : فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ دع عنك مفاكحة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهومانة ، فلا تطلعها على سرّك ومكايدة عدوك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها وهو يمازحها بمقالة الحجاج ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، حاجتي أن تأمره غداً أن يأتيني مسلماً ؛ ففعل ذلك ، فأناها الحجاج فحجبتة ، فلم يزل قائماً ، ثم أذنت له ، فقالت : يا حجاج ، أنت الممتنّ على أمير المؤمنين بقتلك ابن الزبير وابن الأشعث ! أما والله لولا أن الله علم أنك شرُّ خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة الحرام ولا يقتل ابن ذات النطاقين ، أول مولود في دار هجرة الإسلام ! وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكحة النساء وبلوغ لذاته وأوطاره ، فإن كنتَ ينفرجن عن مثلك فما أحقّه بالأخذ منك ! وإن كنتَ ينفرجن عن مثله فهو غير قابل لقولك ؛ أما والله لقد نقص نساء أمير المؤمنين الطيب من غداً رهنّ فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنتَ في أضيّق من قرن ، قد أظلتك رماحهم ، وأثخنك كِفاحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحبّ إليهم من أبنائهم وآبائهم ؛ فأبجأك الله من عدوِّ أمير المؤمنين بحبهم إياه ، قاتل الله القاتل حين ينظر إليك ؛ وسنان غزاة بين كتفيك :

أَسَدٌ عَلَىٰ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ رَبْدَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ (١)
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَىٰ غَزَاةٍ فِي الْوَعْيِ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ
قَمِ فَاجْرَجْ ، فَقَامَ نَجْرَجُ (٢) .

(١) ذكر صاحب الأغاني أن غزاة الحروبية لما دخلت على الحجاج هي وشيبب بالكوفة تحضن منها ، وأغلق عليه قصره ؛ فكتب إليه عمران بن حطان - وقد كان الحجاج لج في طلبه :

أَسَدٌ عَلَىٰ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ رَبْدَاءُ تَجْفُلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَىٰ غَزَاةٍ فِي الْوَعْيِ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ
صَدَعَتْ غَزَاةٌ قَلْبَهُ بِفَوَارِسٍ تَرَكْتُ مَدَابِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٧٠ ، ١٧١ .

[بعض ما قيل في الغيرة من الشعر]

فأما قوله عليه السلام : « إياك والتغاير في غير موضع غيرة » فقد قيل هذا المعنى ،
قال بعض المحدثين :

يَأْيِيهَا الْغَائِرُ مَهْ لَا تَغْرُ إِلَّا لِمَا تُدْرِكُهُ بِالْبَصْرِ
مَا أَنْتَ فِي ذَلِكَ إِلَّا كَمَنْ بَيْنَهُ الدَّبَّ لِرُمَى الْحَجَرِ

وكان مسكين الدارمي أحد من يستهجن الغيرة ، ويستقبح وقوعها في غير محلها ،
فمن شعره في هذا المعنى :

مَا أَحْسَنَ الْغَيْرَةَ فِي حِينِهَا وَأَقْبَحَ الْغَيْرَةَ فِي غَيْرِ حِينٍ! (١)
مَنْ لَمْ يَزَلْ مَتَّهَمًا عِرْسَهُ مَنَاصِبًا فِيهَا لِرَجْمِ الظَّنُونِ (٢)
يُوشِكُ أَنْ يَغْرِيَهَا بِالذِي يُخَافُ ، أَوْ يَنْصَبُهَا لِلْعِيُونِ
حَسْبُكَ مِنْ تَحْصِينِهَا ضَمُّهَا مِنْكَ إِلَى خِيَمِ كَرِيمٍ وَدِينِ
لَا تَظْهَرَنَّ يَوْمًا عَلَى عَوْرَةٍ فَيَتْبَعُ الْقُرُونُ حَبْلَ الْقَرِينِ (٣)
وقال أيضاً :

أَلَا أَيُّهَا الْغَائِرُ الْمُسْتَشِيطُ عِلَامُ تَغَارٍ إِذَا لَمْ تَغْرُ! (٤)
فَمَا خَيْرُ عِرْسٍ إِذَا خِفْتَهَا وَمَا خَيْرُ بَيْتٍ إِذَا لَمْ يُزَرَ!
تَغَارُ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَنْظُرُوا وَهَلْ يَفْتَنُ الصَّالِحَاتِ النَّظْرُ!
فَأِنِّي سَأَخْلِي لَهَا بَيْتَهَا فَتَحْفَظَ لِي نَفْسَهَا أَوْ تَدْرُ

(١) أمالي المرتضى ١ : ٤٧٦ . (٢) الأمالي : « لرجم الظنون » .

(٣) أي إياك أن تطلع المرأة منك على زنا وريبة ، فإنها أيضاً تترى ، أو تفعل كما فعلت .

(٤) أمالي المرتضى ١ : ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

إذا الله لم يعطه ودها فلن يعطى الودّ سوطاً مُمَرَّ
ومن ذا يُراعى له عرسه إذا ضمّه والركاب السقر! (١)

وقال أيضا :

ولستُ أمراً لأبرحُ الدهر قاعداً إلى جنب عِرسى لا أفارقها شبراً (٢)
ولا مقسماً لا أبرحُ الدهر بيتها لأجعله قبل المات لها قَبراً
ولا حاملاً ظننى ولا قولَ قائلٍ على غيرةٍ حتى أحيط به خُبراً
وهبنى امرأً راعيتُ مادمتُ شاهداً فكيف إذا ما سرتُ من بيتها شهراً!
إذا هي لم تُحصنْ لما فى فنائها فليس بمنجياً بنأى لها قصراً

فأما قوله : « واجعل لكلّ إنسان من خدَمك عملاً تأخذه به » ، فقد قالت الحكماء

هذا المعنى ، قال أبروز فى وصيته لولده شيرويه : وانظر إلى كتابك ، فمن كان منهم
ذا ضياع قد أحسن عمارتها فوّلّه الخراج ، ومن كان منهم ذا عبيد قد أحسن سياستهم
وتتقيفهم فوّلّه الجند ، ومن كان منهم ذا سرارىّ وضرائر قد أحسن القيام عليهنّ فوّلّه
النفقات والقهرمة ، وهكذا فاصنع فى خدَم دارك ، ولا تجعل أمرك فوضى بين خدَمك
فيفسد عليك ملكك .

وأما قوله : « فأكرم عشيرتك فإنهم جناحك » فقد تقدّم منا كلام فى وجوب

الاعتضاد بالعشائر .

[اعتزاز الفرزدق بقومه]

روى أبو عبيدة قال : كان الفرزدق لا ينشد بين يدي الخلفاء والأمراء إلا قاعداً ،

(١) الأمالى : « المطى » .

(٢) أَمَالى المرتضى ١ : ٤٧٦ ، وروايته : « ولانى امرؤ » .

فدخل على سليمان بن عبد الملك يوما ، فأنشده شعرا فخر فيه بآبائه ، وقال من جلته :

تالله ما سحلت من ناقة رجلا مثلى إذا الريح لفتني على الكور^(١)

فقال سليمان : هذا المدح لى أم لك ! قال : لى ولك يأمير المؤمنين ، فغضب سليمان

وقال : قم فأتهم ، ولا تنشد بعده إلا قائما ، فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض

أكثرى شعرا . فقال سليمان : ويلي على الأحمق ابن الفاعلة ! لا يكنى ، وارتفع صوته ،

فسمع الضوضاء بالباب ، فقال سليمان : ما هذا ؟ قيل : بنو تميم على الباب ، قالوا : لا ينشد

الفرزدق قائما وأيدينا فى مقابض سيوفنا ، قال : فلينشد قاعدا .

[وفود الوليد بن جابر على معاوية]

وروى أبو عبيد الله محمد بن موسى بن عمران المرزبانى ، قال : كان الوليد بن جابر بن ظالم

الطائى ممن وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم صحب عليا عليه السلام ،

وشهد معه صفين ، وكان من رجاله المشهورين ، ثم وفد على معاوية فى الاستقامة^(٢) ، وكان

معاوية لا يثبت^(٣) ؛ معرفة بعينه ؛ فدخل عليه فى جملة الناس ، فلما انتهى إليه استنسبه ،

فانتسبه له ، فقال : أنت صاحب ليلة الحرير ؟ قال : نعم ، قال : والله ما تخلو مسامعى من رجرك

تلك الليلة ، وقد علا صوتك أصوات الناس ، وأنت تقول :

شدوا فداء لكم أمى وأب فإنا الأمر غدا لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتجب تنمه للعلياء سادات العرب

ليس بموصوم إذا نص النسب أول من صلى وصام واقرب

قال : نعم ، أنا قائلها . قال : فلماذا قلتها ؟ قال : لأننا كنا مع رجل لا نعلم خصلة

(١) من قصيدة فى ديوانه ١ : ٢٦٢ - ٢٦٧ ؛ وذكر فيه أنه مدح بها يزيد بن عبد الملك .

(٢) كذا فى الأصول .

(٣) كذا فى اوهو الصواب ، وفى ب : « لا ينسبه » .

توجب الخلافة ، ولا فضيلة تصير إلى التقدمة ، إلا وهي مجموعة له ؛ كان أول الناس سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأرجحهم حلماً ، فات الجياد فلا يشق غباره ، يستولى على الأمد فلا يخاف عثاره ، وأوضح منهج الهدى فلا يبيد مناره ، وسلك القصد فلا تدرُس آثاره ، فلمَّا ابتلانا الله تعالى بافتقاده ، وحوّل الأمر إلى من يشاء من عباده ، دخلنا في جملة المسلمين فلم نزع يدا عن طاعة ، ولم نصدع صفاة جماعة ؛ على أن لك منا مظاهر ، وقلوبنا بيد الله ، وهو أملك بها منك ، فاقبل صفونا ، وأعرض عن كدرنا ، ولا تُثِرْ كوامن الأحقاد ، فإن النار تقدح بالزناد . قال معاوية : وإنك تهددني يا أخا طيِّبٍ بأوباش العراق أهل النفاق ، ومعدن الشقاق ! فقال : يا معاوية هم الذين أشرقوك بالريق ، وحبسوك في المضيق ، وذادوك عن سنن الطريق ؛ حتى لذت منهم بالمصاحف ؛ ودعوت إليها من صدق بها وكذبت ، وآمن بمنزلها وكفرت ، وعرف من تأويلها ما أنكرت . فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله فإذا جلُّهم من مُضِرٍّ ونقر قليل من اليمين ، فقال : أيها الشقي الخائن ؛ إنِّي لإخال أن هذا آخر كلام تقوُّه به - وكان عُفَيْرٌ^(١) بن سيف بن ذى يزن يباب معاوية حينئذ - فعرف موقف الطائي ومراد معاوية ، فخافه عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على اليمانيَّة ، فقال : شامت الوجوه ذلاًّ وقلاًّ ، وجدعاً وفلاًّ ، كشم الله هذه الأنف كشمًا^(٢) مربعاً . ثم التفت إلى معاوية ، فقال : إنِّي والله يا معاوية ما أقول قولي هذا حباً لأهل العراق ، ولا جنوحاً إليهم ؛ ولكن الحفيظة تذهب الغضب ، لقد رأيتك بالأمس ، خاطبت أخاربيعة - يعني صعصعة بن صوحان . وهو أعظم جرماً عندك من هذا ، وأنكأ^(٣) لقلبك ، وأقدح في صفاتك ، وأجدد في عداوتك ، وأشد انتصاراً في حربك ، ثم أثبتته وسرحتة ؛ وأنت الآن مجمع على قتل هذا - زعمت - استصغارا لجماعتنا ! فإننا لا نمر ولا نحل ؛ واعمري لو وكثتكم أبناء قحطان إلى قومك لكان جدك العائر ، وذكرك الدائر ،

(١) : « عفيرة » . (٢) ب : « كتم » تحريف صوابه من ا ، وكشم الأنف : استأصله قطعاً .
(٣) كذا في ا . وفي ب : « وإذكاء » .

وحدك المفلول ، وعرشك المثلول ، فاربع على ظلمك^(١) ، واطونا على بلالتنا^(٢) ،
ليسهل لك حزننا ، ويتطامن لك شاردنا ، فإننا لا نرأى بوقع الضيم ، ولا نتلمظ
جُرع الخسف ، ولا نغمز بغماز الفتن ، ولا نذر على الغضب . فقال معاوية : الغضب
شيطان ، فاربع نفسك أيها الإنسان ، فإننا لم نأت إلى صاحبك مكروها ، ولم نرتكب
منه مغبضا ، ولم نتهك منه محرما ، فدونكه فإنه لم يضق عنه حلمنا ويسع غيره . فأخذ
عُفَيْر بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال له : والله لتؤوينَّ بأكثر مما آب به معدى
من معاوية . وجمع من بدمشق من اليمانية ، وفرض على كل رجل دينارين في عطائه ،
فبلغت أربعين ألفا ، فتعجلها من بيت المال ، ودفعتها إلى الوليد ، وردّه إلى العراق .

(١) اربع على ظلمك ، أى توقف .

(٢) اطونا على بلالتنا ؛ أى احتملنا على ما فينا من إساءة .

الأضل:

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

وَأَرَدَيْتَ جَيْلًا مِنَ النَّاسِ كَثِيرًا ؛ خَدَعْتَهُمْ بِغَيْبِكَ ، وَأَلْقَيْتَهُمْ فِي مَوْجِ بَحْرِكَ ،
تَفْشَاهُمُ الظُّلْمَاتُ ، وَتَتَلَاطَمُ بِهِمُ الشُّبُهَاتُ ، فَجَارُوا عَنْ وَجْهِتِهِمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى
أَعْقَابِهِمْ ، وَتَوَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ، وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ ، إِلَّا مَنْ فَاءَ مِنْ أَهْلِ
الْبَصَائِرِ ، فَأَبَّهْمُ فَارْقُوكَ بَعْدَ مَعْرِفَتِكَ ، وَهَرَبُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ مُوَارَثِكَ ،
إِذْ حَمَلْتَهُمْ عَلَى الصَّعْبِ ، وَعَدَلْتَ بِهِمْ عَنِ الْقَصْدِ .

فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مُعَاوِيَةَ فِي نَفْسِكَ ، وَجَاذِبِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ . فَإِنَّ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ
عَنْكَ ، وَالْآخِرَةُ قَرِيبَةٌ مِنْكَ ، وَالسَّلَامُ .

الشيخ:

أَرَدَيْتَهُمْ : أَهْلَكْتَهُمْ . وَجَيْلًا مِنَ النَّاسِ ، أَيْ صِنْفًا مِنَ النَّاسِ . وَالغَيِّ : الضَّلَالُ .
وَجَارُوا : عَدَلُوا عَنِ الْقَصْدِ . وَوَجْهِتَهُمْ ؛ بِكسْرِ الْوَاوِ ، يُقَالُ : هَذَا وَجْهُ الرَّأْيِ ،
أَيْ هُوَ الرَّأْيُ بِنَفْسِهِ ، وَالاسْمُ الْوَجْهُ بِالْكَسْرِ وَيَجُوزُ بِالضَّمِّ .

قوله : « وَعَوَّلُوا عَلَى أَحْسَابِهِمْ » ؛ أَيْ لَمْ يِعْتَمِدُوا عَلَى الدِّينِ ؛ وَإِنَّمَا أَرَدْتَهُمُ الْحَمِيَّةَ
وَنُخُوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَخْلَدُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوا الدِّينَ ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى بَنِي أُمَيَّةَ وَخُلَفَائِهِمُ الَّذِينَ اتَّهَمُوهُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِدَمِ عُمَانَ ، فَحَامُوا عَنِ الْحِسْبِ ، وَلَمْ يَأْخُذُوا بِمَوْجِبِ الشَّرْعِ فِي تِلْكَ الْوَاقِعَةِ

ثم استثنى قوما فاءوا، أى رجعوا عن نُصرة معاوية؛ وقد ذكرنا فى أخبار صِفِّين مَنْ فارق معاوية ورجع إلى أمير المؤمنين عليه السلام، أو فارقه واعتزل الطائفتين.

قوله: « حملتهم على الصعب » أى على الأمر الشاق؛ والأصل فى ذلك البعير المستصعب يركبه الإنسان فيغرر بنفسه .

[ذكر بعض ما دار بين عليّ ومعاوية من الكتب]

وأول هذا الكتاب :

من عبد الله عليّ أمير المؤمنين عليه السلام إلى معاوية بن أبي سفيان ، أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دار تجارة ، وربحها أو خسرها الآخرة ؛ فالسعيد مَنْ كانت بضاعته فيها الأعمال الصالحة ، ومَنْ رأى الدنيا بعينها ، وقدرها بقدرها ! وإني لأعظك مع علمي بسابق العلم فيك ممّا لا مردّ له دون نفاذه ؛ ولكن الله تعالى أخذ على العلماء أن يؤدّوا الأمانة ، وأن ينصحوا الغويّ والرشيد ، فاتّق الله؛ ولا تكن ممن لا يرجو الله وقارا ، ومَنْ حَقَّت عليه كلمة العذاب ؛ فإنّ الله بالمرصاد . وإنّ دنياك ستدبر عنك ، وستعود حسرةً عليك ؛ فأقلع عمّا أنت عليه من الغيّ والضلال ، على كبر سنّك ، وفناء عمرك ؛ فإنّ هالك اليوم كحال الثوب المهيل الذى لا يصلح من جانب إلا فسد من آخر ، وقد أريدت جيلا من الناس كثيرا ، خدعتهم بغيّك . . . إلى آخر الكتاب .

قال أبو الحسن عليّ بن محمد المدائنيّ : فكتب إليه معاوية :

من معاوية بن أبي سفيان إلى عليّ بن أبي طالب ، أمّا بعد ؛ فقد وقفتُ على كتابك ، وقد أبيت على الفتنِ الإلتاماديا ، وإنيّ لعالم أنّ الذى يدعوك إلى ذلك مصرعك الذى

لابد لك منه ؛ وإن كنت مواثلاً ، فازدد غيياً إلى غيِّك ، فطالما خفَّ عقلك ، ومنيت
نفسك ما ليس لك ، والتويت على مَنْ هو خير منك ؛ ثم كانت العاقبة لغيرك ، واحتملت
الوزر بما أحاط بك من خطيئتك . والسلام .

فكتب علىّ عليه السلام إليه :

أما بعد ، فإنّ ما أتيت به من ضلالك ليس ببعيد الشّبّه مما أتى به أهلُك وقومك
الذين حملهم الكفرُ وتمنّى الأباطيل على حسد محمد صلى الله عليه وسلم حتى صرّعوا
مصارعهم حيث علمت ؛ لم يمنعوا حريماً ، ولم يدفعوا عظيماً ، وأنا صاحبهم في تلك
المواطن ، الصالى بجرّ بهم ، والقالّ لحدّهم ، والقاتل لردوسهم ورددوس الضلالة ،
والمتبع إن شاء الله خلفهم بسلفهم ؛ فبئس الخلف خلف أتبع سلفاً محله ومحطّه
الغار . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فقد طال في النغيّ ما استمرت أدرجك ، كما طالما تمادى عن الحرب
نكوصك وإبطائك ، فتوعد وعيد الأسد ، وتروغ وروغان الثعلب ، فحتم تحيد عن لقاء
مباشرة الليوث الضارية ، والأفاعى القاتلة ، ولا تستبعدنّها ، فكلّ ما هو آت قريب
إن شاء الله . والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أمّا بعد ، فما أعجب ما يأتيني منك ، وما أعلمني بما أنت إليه صائر ! وليس إبطائي عنك
إلا ترقباً لما أنت له مكذب ؛ وأنا به مصدّق ! وكأني بك غداً وأنت تضحجّ من الحرب
ضحيجَ الجمال من الأثقال ، وستدعوني أنت وأصحابك إلى كتاب تعظّمونه بألسنتكم ،
وتجحدونه بقلوبكم . والسلام .

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ، فدعني من أساطيرك ، واكف عني من أحاديثك ، واقصر عن تقوُّلك على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وافترائك من الكذب ما لم يقل ، وغرور من معك والخداع لهم ؛ فقد استغويتهم ، ويوشك أمرك أن ينكشف لهم فيعتزلوك ، ويعلموا أن ما جئت به باطل مضمحلّ. والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أما بعد ؛ فطالما دعوت أنت وأولياؤك أولياء الشيطان الرجيم الحق^(١) أساطير الأولين ، ونبتتموه وراء ظهوركم ، وجهدتم بإطفاء نور الله بأيديكم وأفواهكم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون . ولعمري ليتمنّ النور على كرهك ، ولينفذنّ العلم بصغارك ، ولتجازينّ بملكك ، فعثّ في دنياك المنقطة عنك ما طاب لك ؛ فكأنك يباطلك وقد انتضى ، وبملكك وقد هوى ؛ ثم تصير إلى لظى ؛ لم يظلمك الله شيئاً ، وما ربك بظلام للعبيد !

قال : فكتب إليه معاوية :

أما بعد ؛ فما أعظم الرّين على قلبك ، والغطاء على بصرك ! الشرّ من شيمتك ، والحسد من خليقتك ، فشمّر للحرب ، واصبر للضرب ، فوالله ليرجعنّ الأمر إلى ما علمت ، والعاقبة للمتقين . هيهات هيهات ! أخطأك ماتمّني ، وهوى قلبك مع من هوى ؛ فاربّع على ظلمك ، وقسّ شبرك بفترك ؛ لتعلم أين حالك من حال من يزن الجبال حمله ، ويفصل بين أهل الشك عمله . والسلام .

قال : فكتب إليه علىّ عليه السلام :

أما بعد ، فإنّ مساوئك مع علم الله تعالى فيك حالت بينك وبين أن يصلح لك أمرك ، وأن يرعوى قلبك ، يابن الصّخر اللّعين ! زعمت أن يزن الجبال حملك ، ويفصل بين أهل الشك عملك ، وأنت الجأف المنافق ، الأغلف القلب ، القليل العقل ، الجبان الرذّل ، فإن كنت صادقاً فيما تسطرّ ، ويعينك عليه أخو بني سَهْم ، فدع الناس جانبا ، وتيسر لما دعوتني إليه من الحرب ، والصبر على

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « للحق » .

الضرب ، واعفُ الفريقين من القتال ، ليعلم أيُّنا المرين على قلبه ، المغطى على بصره ، فأنا أبو الحسن ، قاتل جدك وأخيك وخالك ، وما أنت منهم ببعيد ؛ والسلام !

قلت : وأعجب وأطرب ما جاء به الدهر - وإن كانت عجائبه وبدائعه جمّة - أن يُفضى أمر عليّ عليه السلام إلى أن يصير معاوية ندّاً له ونظيراً مماثلاً ، يتعارضان الكتاب والجواب ، ويتساويان فيما يواجه به أحدهما صاحبه ، ولا يقول له عليّ عليه السلام كلمة إلا قال مثلها ، وأخشن مسّاً منها ، فليت محمداً صلى الله عليه وآله كان شاهد ذلك ؛ ليرى عياناً لا خبراً أنّ الدعوة التي قام بها ، وقاسى أعظم المشاق في تحمّلها ، وكابد الأهوال في الذبّ عنها ، وضرب بالسيوف عليها لتأييد دولتها ؛ وشيّد أركانها ، وملأ الآفاق بها ، خلّصت صفوا عفوا لأعدائه الذين كذبوه ؛ لما دعا إليها ، وأخرجوه عن أوطانهم لما حضّ عليها ، وأدموا وجهه ، وقتلوا عمّه وأهله ، فكأنه كان يسعى لهم ، ويدأب لراحتهم ؛ كما قال أبو سفيان في أيام عثمان ، وقد مرّ بقبر حمزة ، وضربه برجله ، وقال ؛ يا أبا عمارة ! إنّ الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلامنا اليوم يتلعبون به ! ثم آل الأمر إلى أن يفخر معاويةً عليّاً ، كما يتفاخر الأكفاء والنظراء ...

إذا عير الطائيّ بالبخلِ مادِرٌ وقرعَ قسّاً بالفهاهة باقلُ
وقال السُّهبا للشمسِ : أنت خفيّةٌ وقال الدجى : يا صبح لو نك حائلُ
وفاخرتِ الأرضُ السماءَ سفاهةً وكاثرتِ الشهبَ الحصا والجنادلُ
فياموت زُرُّ إن الحياة ذميمةٌ ويانفس جدى إن دهرك هازل!

ثم أقول ثانياً لأمير المؤمنين عليه السلام : ليت شعري ؛ لماذا فتح باب الكتاب

والجواب بينه وبين معاوية! وإذا كانت الضرورة قد قادت إلى ذلك، فهلا اقتصر في الكتاب إليه على الموعظة من غير تعرض للمفاخرة والمنافرة! وإذا كان لابدّ منهما فهلا كتفى بهما من غير تعرض لأمر آخر يوجب المقابلة والمعارضة بمثله، وبأشدّ منه: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾^(١) وهلا دفع هذا الرجل العظيم الجليل نفسه عن سباب هذا السفيه الأحق، هذا مع أنه القائل: مَنْ وَاجَهَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ! أى افتروا عليه وقالوا فيه الباطل.

أَيُّهَا الشَّامِيُّ لِتَحَسَبَ مِثْلِي إِنَّمَا أَنْتَ فِي الضَّلَالِ تَهِيمٌ^(٢)
لَا تَسُبَّنِّي فَلَسْتَ بِسَبِّي إِنْ سَبَّيَ مِنَ الرِّجَالِ الْكَرِيمِ^(٣)

وهكذا جرى في القنوت واللعن، قنت بالكوفة على معاوية، ولعنه في الصلاة وخطبة الجمعة، وأضاف إليه عمرو بن العاص وأبا موسى وأبا الأعور السلمي وحبيب بن مسلمة، فبلغ ذلك معاوية بالشام، فقنت عليه، ولعنه بالصلاة، وخطبة الجمعة، وأضاف إليه الحسن والحسين وابن عباس والأشتر النخعي؛ ولعله عليه السلام قد كان يظهر له من المصلحة حينئذ ما يغيب عنا الآن، ولله أمر هو بالغه!

(١) سورة الأنعام ١٠٨ . (٢) لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت يهجو مسكيناً الدارمي .

(٣) السب : بالكسر : الذى يسابك .

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عَيْنِي بِالْمَغْرِبِ كَتَبَ إِلَيَّ يُعَلِّمُنِي أَنَّهُ وَجَّهَ إِلَى الْمَوْسِمِ أَنْاسُ
مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، الْعُمَى الْقُلُوبِ ، الصَّمَّ الْأَسْمَاعِ ، الْكُمَهَ الْأَبْصَارِ ، الَّذِينَ يَلْبَسُونَ
الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَيُطِيعُونَ الْمَخْلُوقَ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ ، وَيَحْتَلِبُونَ الدُّنْيَا دَرَاهِمًا
بِالدِّينِ ، وَيَشْتَرُونَ عَاجِلَهَا بِأَجْلِ الْأَبْرَارِ الْمُتَّقِينَ ؛ وَلَنْ يَفُوزَ بِالْخَيْرِ إِلَّا عَامِلُهُ ،
وَلَا يُجْزَى جَزَاءَ الشَّرِّ إِلَّا فَاعِلُهُ .

فَأَقِمْ عَلَى مَا فِي يَدَيْكَ قِيَامَ الْحَازِمِ الطَّيِّبِ ، وَالنَّاصِحِ اللَّيِّبِ ، التَّابِعِ
لِسُلْطَانِهِ ، الْمُطِيعِ لِإِمَامِهِ .

وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَدَرُ مِنْهُ ، وَلَا تَكُنْ عِنْدَ النِّعَمَاءِ بَطْرًا ، وَلَا عِنْدَ الْبِئْسَاءِ فَشَلًّا .

والسلام .

الشنخ :

كان معاوية قد بعث إلى مكة دعاة في السرّ يدعون إلى طاعته ، ويثبطون العرب عن
نصرة أمير المؤمنين ، ويوقعون في أنفسهم أنه إمّا قاتل لعثمان أو خاذل ، وإنّ الخلافة

لا تصلح فيمن قتل أو خذل ، وينشرون عندهم محاسن معاوية بزعمهم وأخلاقه وسيرته ، فكتب أمير المؤمنين عليه السلام هذا الكتاب إلى عامله بمكة ، ينبّهه على ذلك ليعتمد فيه بما تقتضيه السياسة ، ولم يصرح في هذا الكتاب بماذا يأمره أن يفعل إذا ظفر بهم .

قوله : « عيني بالمغرب » ، أى أصحاب أخباره عند معاوية ، وسمى الشام مغربا لأنه من الأقاليم المغربية .

والموسم : الأيام التي يقيم فيها الحج .

وقوله : « ويحتلبون الدنيا درّها بالدين » دلالة على ما قلنا : إنهم كانوا دُعاة يظهرهم سمّت الدين ، وناموس العبادة ؛ وفيه إبطال قول مَنْ ظنَّ أنّ المراد بذلك السرايا التي كان معاوية يبعثها ، فتُغيرُ على أعمالٍ على عليه السلام . ودرّها منصوب بالبدل « من الدنيا » وروى : « الذين يلتمسون الحقّ بالباطل » أى يطلبونه ؛ أى يتبعون معاوية وهو على الباطل التماسا وطلبا للحقّ ، ولا يعلمون أنهم قد ضلوا .

قوله : « وإياك وما يعتذر منه » من الكلمات الشريفة الجليلة الموقّعة ، وقد رويت مرفوعة ، وكان يقال : ما شيء أشدّ على الإنسان من حمل المروءة ، والمروءة ألا يعمل الإنسان في غيبة صاحبه ما يعتذر منه عند حضوره .

قوله : « ولا تكن عند النعماء بطرا ، ولا عند البأساء فشلا » معنّى مستعمل ،

قال الشاعر :

فلستُ بجفراحٍ إذا الدهرُ سرّني ولا جازعٌ من صرّفه المتقلبِ
ولا أتمنى الشرَّ والشرَّ تاركى ولكنّ متى أُحمل على الشرِّ أركب

[قُتْمُ بْنُ عَبَّاسٍ وَبَعْضُ أَخْبَارِهِ]

فَأَمَّا قُتْمُ بْنُ عَبَّاسٍ ، فَأُمُّهُ أُمُّ إِخْوَتِهِ ، وَرَوَى ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ «الاستيعاب» ،
عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، قَالَ : كُنْتُ أَنَا وَعَبِيدُ اللَّهِ وَقُتْمُ ابْنَا الْعَبَّاسِ نَلْعَبُ ، فَمَرَّ بِنَا رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاكِبًا ، فَقَالَ : « اِرْفَعُوا إِلَيَّ هَذَا الْفَتَى » يَعْنِي قُتْمًا - فَرَفَعَ إِلَيْهِ ! فَأَرْدَفَهُ
خَلْفَهُ ، ثُمَّ جَعَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَدَعَا لَنَا ، فَاسْتَشْهَدَ قُتْمًا بِسَمْرِ قَنْدٍ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ ، قَالَ : كَانَ قُتْمُ آخِرَ النَّاسِ عَهْدًا
بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّ آخِرٍ مِنْ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ مِمَّنْ نَزَلَ فِيهِ . قَالَ : وَكَانَ الْمَغِيرَةَ
ابْنُ شَعْبَةَ يَدْعِي ذَلِكَ لِنَفْسِهِ ، فَأَنْكَرَ عَلَيَّ بَنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : بَلْ آخِرُ
مَنْ خَرَجَ مِنَ الْقَبْرِ قُتْمُ بْنُ الْعَبَّاسِ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَكَانَ قُتْمٌ وَالْيَا لَعْلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَكَّةَ ، عَزَلَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ
خَالِدُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ هِشَامِ بْنِ الْمَغِيرَةَ الْخَزْرَجِيُّ - وَكَانَ وَالِيهَا لِعُمَانَ - وَوَلَّاهَا أَبَا قَتَادَةَ
الْأَنْصَارِيَّ ، ثُمَّ عَزَلَهُ عَنْهَا وَوَلَّى مَكَانَهُ قُتْمُ بْنُ عَبَّاسٍ ، فَلَمْ يَزَلْ وَالِيَهُ عَلَيْهَا حَتَّى قَتَلَ عَلَيَّ
عَلَيْهِ السَّلَامُ . قَالَ : هَذَا قَوْلُ خَلِيفَةِ ^(٢) ، وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَارٍ : اسْتَعْمَلَ عَلَيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُتْمَ
ابْنِ الْعَبَّاسِ عَلَى الْمَدِينَةِ .

قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَاسْتَشْهَدَ قُتْمًا بِسَمْرِ قَنْدٍ ، كَانَ خَرَجَ إِلَيْهَا مَعَ سَعِيدِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ
زَمَنَ مَعَاوِيَةَ فَقَتَلَ هُنَاكَ ^(١)

قَالَ : وَكَانَ قُتْمٌ يُشْبَهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَفِيهِ يَقُولُ دَاوُدُ بْنُ مَسْلَمٍ ^(٣) :

(١) الاستيعاب ٥٥١ - ٥٥٢ .

(٢) هو خليفة بن خياط الشيباني المعروف بشباب ؛ محدث نسابه . وانظر طبقات الحفاظ ٢ : ٢١ .

(٣) في الاستيعاب : « سليم » .

عُتِّقْتُ مِنْ حِلٍّ وَمِنْ رَحَلَةٍ يَا نَاقُ إِنْ أُدْنِيْتِنِي مِنْ قَتْمٍ
إِنَّكَ إِنْ أُدْنِيْتِ مِنْهُ غَدَاً حَافِنِي الْيُسْرَ وَمَاتِ الْعَدَمُ
فِي كَفِّهِ بِحَرِّهِ وَفِي وَجْهِهِ بَدْرُ وَفِي الْعَرْنَيْنِ مِنْهُ شَمَمُ
أَصَمَّ عَنْ قِيلِ الْخَنَّا سَمِعَهُ وَمَا عَلَى الْخَيْرِ بِهِ مِنْ صَمَمِ
لَمْ يَدْرِ مَا «لَا» وَبِ«لَا» قَد دَرَى فَعَاْفَهَا وَاعْتَاَضَ مِنْهَا نَعَمُ

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام :

إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر ، ثم توفى الأشتر في توجهه إلى هناك قبل وصوله إليها :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَّغَنِي مَوْجِدَتُكَ مِنْ تَسْرِيحِ الْأَشْتَرِ إِلَيَّ عَمَلِكَ . وَإِنِّي لَمْ أَفْعَلْ ذَلِكَ اسْتِبْطَاءً لَكَ فِي الْجَهْدِ ، وَلَا ازْدِيَادًا لَكَ فِي الْجِدِّ ، وَلَوْ نَزَعْتُ مَا تَحْتَ يَدِكَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، لَوْلَيْتُكَ مَا هُوَ أَيْسَرُ عَلَيْكَ مَوْئِنَةٌ ، وَأَعْجَبُ إِلَيْكَ وَلايَةٌ .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كُنْتُ وَلِيَّتُهُ أَمْرَ مِصْرَ كَانَ رَجُلًا لَنَا نَاصِحًا ، وَعَلَى عَدُوِّنَا شَدِيدًا نَاقِمًا ، فَرَحِمَهُ اللَّهُ ! فَلَقَدْ اسْتَكْمَلَ أَيَّامَهُ ، وَلَا تَقِ حِمَامَهُ ، وَنَحْنُ عَنْهُ رَاضُونَ ؛ أَوْلَاهُ اللَّهُ رِضْوَانَهُ ، وَضَاعَفَ الثَّوَابَ لَهُ !

فَاصْحِرْ لِعَدُوِّكَ ، وَامْضِ عَلَى بَصِيرَتِكَ ، وَشَمِّرْ لِحَرْبٍ مِنْ حَارَبِكَ ، وَادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ، وَأَكْثِرِ الْإِسْتِعَانَةَ بِاللَّهِ يَكْفِكَ مَا أَهَمَّكَ ، وَيُؤْمِنُكَ عَلَى مَا يُنْزِلُ بِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشيخ :

[محمد بن أبي بكر وبعض أخباره]

أم محمد رحمها الله أسماء بنت عُميس الخثعمية : وهي أخت ميمونة زوج النبي صلى الله

عليه وآله ، وأخت لبابة أم الفضل وعبد الله زوج العباس بن عبد المطلب ؛ وكانت من المهاجرات إلى أرض الحبشة ؛ وهى إذ ذاك تحت جعفر بن أبي طالب عليه السلام ، فولدت له هناك محمد بن جعفر وعبد الله وعونا ، ثم هاجرت معه إلى المدينة ، فلما قتل جعفر يوم مؤتة تروّجها أبو بكر ، فولدت له محمد بن أبي بكر هذا ، ثم مات عنها فتروّجها علىّ عليه السلام ، وولدت له يحيى بن علىّ ، لا خلاف فى ذلك .

وقال ابن عبد البر فى ” الاستيعاب “ : ذكر ابن الكلبيّ أنّ عون بن علىّ اسم أمّه أسماء بنت عميس ، ولم يقل ذلك أحدٌ غيره .

وقد روى أنّ أسماء كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ، فولدت له بنتا تسمى أمة الله — وقيل أمامة — ومحمد بن أبي بكر ممن ولد فى عصر رسول الله صلى الله عليه وآله .

قال ابن عبد البرّ فى كتاب ” الاستيعاب “ : ولد عام حجة الوداع فى عقب ذى القعدة بنى الحليفة ، حين توجه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الحجّ ، فسمّته عائشة محمداً ، وكنّته أبا القاسم بعد ذلك لما ولد له ولد سماه القاسم ؛ ولم تكن الصحابة ترى بذلك بأساً ؛ ثم كان فى حجر علىّ عليه السلام ، وقتل بمصر ، وكان علىّ عليه السلام يُثنى عليه ويقرّظه ويفضّله ؛ وكان لمحمد رحمه الله عبادة واجتهاد ؛ وكان ممن حضر عثمان ودخل عليه ، فقال له : لو رآك أبوك لم يسرّه هذا المقام منك ! فخرج وتركه ، ودخل عليه بعده من قتله . ويقال : إنه أشار إلى من كان معه فقتلوه (١) .

قوله : « وبلغنى موجدتك » ، أى غضبك ، وجدت على فلان مَوْجِدَةً ، ووجدانا لفة قليلة ؛ وأنشدوا :

كَلَانًا رَدَّ صَاحِبَهُ بَغِيظٍ عَلَى حَنْقٍ وَوَجْدَانٍ شَدِيدٍ (٢)

(١) الاستيعاب ٢٤٢ .

(٢) لصخر الفى ؛ اللسان ، الصحاح (وجد) .

فأما في الحزن فلا يقال إلا وَجَدتُ أنا بالفتح لا غير .
والجهد : الطاقة ، أى لم استبطنك في بذل طاقتك ووسعك ، ومن رواها الجهد بالفتح
فهو من قولهم : اجهد جهدك في كذا ، أى ابلغ الغاية ، ولا يقال هذا الحرف ها هنا
إلا مفتوحا .

ثم طيب عليه السلام نفسه بأن قال له : لو تمّ الأمر الذى شرعت فيه من ولاية الأشر
مصر لعوضتك بما هو أخفّ عليك مئونة وثقلا ، وأقلّ نصبا من ولاية مصر ، لأنه كان
في مصر بإزاء معاوية من الشام وهو مدفوع إلى حربه .

ثم أكد عليه السلام ترغيبه بقوله : « وأعجب إليك ولاية » .

فإن قلت : ما الذى بيده ممّا هو أخفّ على محمد مئونة وأعجب إليه من ولاية مصر ؟

قلت : ملك الإسلام كلّهُ كان بيدِ عليّ عليه السلام إلا الشام ، فيجوز أن يكون قد كان
في عزمه أن يوليّه اليمن أو خراسان أو أرمينية أو فارس .

ثم أخذ في الثناء على الأشر وكان عليّ عليه السلام شديد الاعتضاد به ، كما كان هو
شديد التحقق بولايته وطاعته .

وناقما ، من نعمت على فلان كذا ، إذا أنكرته عليه وكرهته منه .

ثم دعا له بالرضوان ؛ ولست أشك بأنّ الأشر بهذه الدعوة يغفر الله له ويكفر ذنوبه ،
ويدخله الجنة ، ولا فرق عندى بينها وبين دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وياطوبى

لمن حصل له من على عليه السلام بعض هذا !

قوله : « وأصحر لعدوك » أى ابرز له ولا تستتر عنه بالمدينة التى أنت فيها ، أصحر

الأسد من خيسه ، إذا خرج إلى الصحراء .

وشمر فلان للحرب ، إذا أخذ لها أهبتها .

(٣٥)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ مِصْرَ قَدِ افْتَتِحَتْ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ ،
فَعِنْدَ اللَّهِ نَحْسَبُهُ وَلَدًا نَاصِحًا ، وَعَامِلًا كَارِحًا ، وَسَيْفًا قَاطِعًا ، وَرُكْنًا دَافِعًا .
وَقَدْ كُنْتُ حَثَّيْتُ النَّاسَ عَلَى لِحَاقِهِ ، وَأَمَرْتُهُمْ بِغِيَاثِهِ قَبْلَ الْوُقُوعَةِ ، وَدَعَوْتُهُمْ
سِرًّا وَجَهْرًا ، وَعَوْدًا وَبَدْءًا ، فَمِنْهُمْ الْآتِي كَارِحًا ، وَمِنْهُمْ الْمُعْتَلُّ كَاذِبًا ؛ وَمِنْهُمْ
الْقَاعِدُ خَاذِلًا .

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ فَرَجًا عَاجِلًا ؛ فَوَاللَّهِ لَوْ لَا طَمَعِي عِنْدَ لِقَائِي
عَدُوِّي فِي الشَّهَادَةِ ، وَتَوَطُّيْنِي نَفْسِي عَلَى الْمَنِيَّةِ ، لَأَحْبَبْتُ أَلَّا أَبْقَى مَعَ هَؤُلَاءِ
يَوْمًا وَاحِدًا ، وَلَا أَلْتَقِيَ بِهِمْ أَبَدًا .

الشرح :

انظر إلى الفصاحة كيف تعطى هذا الرجل قيادها ، وتملكه زمامها ؛ واعجب لهذه
الألفاظ المنصوبة، يتلو بعضها بعضاً كيف تواتيه وتطاوعه؛ سلسلة سهلة، تندفق من غير تعسف
ولا تكلف ؛ حتى انتهى إلى آخر الفصل فقال : « يوما واحدا ، ولا ألتقي بهم أبدا » ،
وأنت وغيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة ، جاءت القرائن والفواصل

تارة مرفوعة ، وتارة مجرورة ، وتارة منصوبة ، فإن أرادوا قَسَرَهَا بإعراب واحد ظهر منها في التكلّف أثرُ بَيْنٍ ، وعلامة واضحة ، وهذا الصّنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن ، ذكره عبد القاهر ، قال : انظرُ إلى سورة النَّساء وبعدها سورة المائدة ، الأولى منصوبة الفواصل ، والثانية ليس فيها منصوب أصلا ؛ ولو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تبرز ، وظهر أثر التركيب والتأليف بينهما .

ثم إن فواصل كل واحد منهما تنساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعيّ لا الصناعة التكلّفية . ثم انظر إلى الصفات والموصوفات في هذا الفصل ؛ كيف قال : « ولدا ناصحا » ، « وعاملا كادحا » ، و « سيفا قاطعا » ، و « ركنا دافعا ، لو قال : « ولدا كادحا » و « عاملا ناصحا » ، وكذلك ما بعده لما كان صوابا ، ولا في الموقع واقعا ، فسبحان من منح هذا الرجل هذه المزايا النفيسة والخصائص الشريفة ! أن يكون غلامٌ من أبناء عرب مكة ، ينشأ بين أهله ، لم يخالط الحكماء ، وخرج أعرف بالحكمة ودقائق العلوم الإلهية من إفلاطون وأرسطو ! ولم يعاشر أرباب الحكم الخلقية والآداب النفسانية ؛ لأنّ قريشا لم يكن أحد منهم مشهورا بمثل ذلك ، وخرج أعرف بهذا الباب من سقراط ! ولم يربّ بين الشجعان ، لأن أهل مكة كانوا ذوى تجارة ، ولم يكونوا ذوى حرب ؛ وخرج أشجع من كلّ بشرٍ مشى على الأرض ؛ قيل لخلف الأحمر : أيما أشجع عنبسة وبسطام أم عليّ بن أبي طالب ؟ فقال : إنما يذكر عنبسة وبسطام مع البشر والناس ، لا مع من يرتفع عن هذه الطبقة ، فقيل له : فعلى كلّ حال . قال : والله لو صاح في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما . وخرج أفصح من سحبان وقُسّ ، ولم تكن قريش بأفصح العرب ، كان غيرها أفصح منها ؛ قالوا : أفصح العرب جرهم وإن لم تكن لهم نباهة . وخرج أزهّد الناس في الدنيا ، وأعفّمهم ؛ مع أنّ قريشا ذوو حرص ومحبة للدنيا ، ولا غرو فيمن كان

محمد صلى الله عليه وآله مرَّيبه ومخرجه ، والعناية الإلهية تمدّه وترفّده أن يكون منه ما كان !

يقال : احتسب ولده ، إذا مات كبيرا ، وافترط ولده ، إذا مات صغيرا .

قوله : « فمنهم الآتى ... » ، قسم جنده أقساما ، فمنهم من أجابه وخرج كارها للخروج ، كما قال تعالى : ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾^(١) ، ومنهم من قعد واعتلّ بعلّة كاذبة ، كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّا بَيُّوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾^(٢) ، ومنهم من تأخّر وصرّح بالعود والخذلان ، كما قال تعالى : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٣) . والمعنى أنّ حاله كانت مناسبة لحال النبي صلى الله عليه وآله ، ومنّ تذكر أحوالهما وسيرتهما ، وما جرى لهما إلى أن قبضا ، علم تحقيق ذلك .

ثمّ أقسم أنه لولا طمعه في الشهادة لما أقام مع أهل العراق ولا صحبهم .

فإن قلت : فهلا خرج إلى معاوية وحده من غير جيش إن كان يريد الشهادة ؟

قلت : ذلك لا يجوز ، لأنه إلقاء النفس إلى التهلكة ، وللشهادة شروط متى فقدت ؟

فلا يجوز أن تحمل إحدى الحالتين على الأخرى .

(١) سورة الأنفال ٦ .

(٢) سورة الأحزاب ١٣ .

(٣) سورة التوبة ٨١ .

(٣٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب في ذكر جيش
أنفذه إلى بعض الأعداء ، وهو جواب كتاب كتبه إليه عقيل :

فَسَرَّحْتُ إِلَيْهِ جَيْشًا كَثِيفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَهُ ذَلِكَ شَمَّرَ هَارِبًا ،
وَنَكَصَ نَادِمًا ، فَلَاحِقُوهُ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ وَقَدِ طَفَلَتِ الشَّمْسُ لِلْإِيَابِ ، فَاقْتَتَلُوا شَيْئًا
كَلَاوِلًا ، فَمَا كَانَ إِلَّا كَمَوْفٍ سَاعَةٍ حَتَّى نَجَا جَرِيضًا ، بَعْدَ مَا أَخَذَ مِنْهُ بِالْمُخَنَّقِ ،
وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ غَيْرُ الرَّمَقِ ؛ فَلَايَا بِلَايٍ مَا نَجَا .

فَدَعَّ عَنْكَ قُرَيْشًا وَتَرَّ كَاضِهِمْ فِي الضَّلَالِ ، وَتَجَوَّأَهُمْ فِي الشَّقَاقِ ، وَجَاحَهُمْ
فِي التَّيِّهِ ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كِإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ قَبْلِي ، فَجَزَتِ قُرَيْشًا عَنِّي الْجَوَازِي ؛ فَقَدَّ قَطَعُوا رَحِمِي ؛ وَسَلَبُونِي
سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي .

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ رَأْيِي فِي الْقِتَالِ ، فَإِنَّ رَأْيِي قِتَالُ الْمُحِلِّينَ حَتَّى أَلْقَى اللَّهُ ؛
لَا يَزِيدُنِي كَثْرَةُ النَّاسِ حَوْلِي عِزَّةً ، وَلَا تَفَرُّهُمُ عَنِّي وَحْشَةً . وَلَا تَحْسَبَنَّ ابْنَ أَبِيكَ
— وَلَوْ أَسَامَهُ النَّاسُ — مُتَضَرِّعًا مُتَخَشِّعًا ، وَلَا مُقِرًّا لِلضَّيْمِ وَاهِنًا ، وَلَا سَلِسَ الزَّمَامِ
لِلْقَائِدِ ، وَلَا وَطِيءَ الظَّهْرِ لِلرَّائِبِ الْمُقْتَعِدِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي سَلِيمٍ :
فَإِنْ تَسَأَلْتَنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي صَبُورٌ عَلَى رِيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبُ
يَعِزُّ عَلَى أَنْ تُرَى بِي كَابَةٌ فَيَشْمَتَ عَادٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبُ

الشُّنْخُ :

قد تقدم ذكر هذا الكتاب في اقتصاصنا ذكر حال بُسر بن أرطاة وغارته على اليمن في أول الكتاب .

ويقال: طَفَلت الشمس - بالتشديد - إذا مالت للغروب ، وطفَل الليل ، مشدداً أيضاً ، إذا أقبل ظلامه ، والطفَل ، بالتحريك : بعد العصر حين تطفَل الشمس للغروب ؛ ويقال : أتَيْتَه طفلي ؛ أى في ذلك الوقت .

وقوله عليه السلام : « للإياب » أى للرجوع ، أى ما كانت عليه في الليلة التي قبلها ، يعنى غيبوبتها تحت الأرض . وهذا الخطاب إنما هو على قدر أفهام العرب ؛ كانوا يمتقدون أن الشمس منزلها ومقرها تحت الأرض ، وأنها تخرج كل يوم فتسير على العالم ، ثم تعود إلى منزلها ، فتأوى إليه كما يأوى الناس ليلاً إلى منازلهم .

وقال الراوندى : « عند الإياب » عند الزوال : وهذا غير صحيح ، لأن ذلك الوقت لا يسمّى طفلاً ، ليقال : إن الشمس قد طفّلت فيه .

قوله عليه السلام : « فاقْتتلوا شيئاً كلاً ولا » ، أى شيئاً قليلاً ، وموضع « كلاً ولا » نصب ، لأنه صفة « شيئاً » وهى كلمة تقال لما يستقصر وقته جداً ؛ والمعروف عند أهل اللغة : « كلاً ولا » ، قال ابن هانىء المغربي :

وأسرعُ في العين من لحظةٍ وأقصرُ في السمع من لا ، وذا

وفي شعر الكميت « كلاً وكذا تغميضة »^(١) .

وقد رويت في " نهج البلاغة " ، كذلك ، إلا أن في أكثر النسخ : « كلاً ولا » ، ومن الناس من يرونها : « كلاً ولات » ، وهى حرف أجري مجرى « ليس » ؛ ولا تجيء

(١) البيت بتمامه :

كَلَّا وكذا تغميضةٌ ثمَّ هِجْتُمُ لَدَى حين أن كانوا إلى النوم أفقرا

« حين » إلا أن تحذف في شعر ، ومن الرواة من يرويها : « كلا ولأى » ، ولأى ففعل ، معناه أبطأ .

قوله عليه السلام : « نجأ جريضا » ، أى قد غصّ بالريق من شدة الجهد والكرب ، يقال : جرّض بريقه يجرّض بالكسر ، مثال كسر يكسر ، ورجل جريض مثل قدر يقدر فهو قدير ، ويجوز أن يريد بقوله : « فنجا جريضا » ، أى ذا جريض ، والجريض : الغصّة نفسها ، وفي المثل : « حال الجريض دون القريض » قال الشاعر :

كأنّ الفتى لم يقم في الناس ليلةً إذا اختلف اللحيان عند الجريض^(١)
قال الأصمعيّ : ويقال : هو يجرّض بنفسه ، أى يكاد يموت ؛ ومنه قول امرئ القيس :

وأفلتهنّ علباء جريضا ولو أدركته صفر الوطاب^(٢)
وأجرضه الله بريقه : أغصه .

قوله عليه السلام : « بعد ما أخذ منه بالمتّق » ، هو موضع الخنق من الحيوان ، وكذلك الخناق ، بالضمّ ؛ يقال أخذ بخنّاقه ، فأما الخناق بالكسر ؛ فالجبل تخنق به الشاة . والرمق : بقية الروح .

قوله عليه السلام : « فلأيا بلأى ما نجا » ، أى بعد بطاء وشدة ، وما زائدة أو مصدرية ، وانتصب « لأيا » على المصدر القائم مقام الحال ، أى نجا مبطئا ، والعامل في المصدر محذوف أى أبطأ ببطئا ؛ والفائدة في تكرير اللفظة المبالغة في وصف البطء الذى نجا موصوفه به ، أى لأيا مقرونا بلأى .

وقال الراوندى: هذه القصة وهذا الهارب جريضا وبعد لأى ما نجا ، هو معاوية ، قال :
وقد قيل : إن معاوية بعث أمويًا فهرب على هذه الحال ؛ والأوّل أصحّ ، وهذا عجيب
مضحك وددت له ألا يكون شرح هذا الكتاب !

قوله : « فدع عنك قريشاً » إلى قوله : « على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله » ،
هذا الكلام حقّ ، فإنّ قريشا اجتمعت على حربته منذ يوم بويع بغضاً له وحسداً وحقداً
عليه ، فأصفقوا كلّهم يداً واحدة على شقاقه وحربه ، كما كانت حالهم في ابتداء الإسلام مع
رسول الله صلى الله عليه وآله ، لم تحرم حاله من حاله أبداً إلا أن ذاك عصمه الله من القتل ،
فمات موتاً طبيعياً ، وهذا اغتاله إنسان فقتله .

قوله: « فجزت قريشا عنى الجوازي ، فقد قطعوا رحمى ، وسلبوني سلطان ابن أمى » ،
هذه كلمة تجرى مجرى المثل ، تقول لمن يسيء إليك وتدعو عليه : جزتك عنى الجوازي !
يقال جزاه الله بما صنع ، وجزاه الله بما صنع ! ومصدر الأول جزاء ، والثانى مجازاة ، وأصل
الكلمة أن الجوازي جمع جازية كالجوازي جمع جارية ، فكأنه يقول : جَزَتْ قريشا عنى بما
صنعت لى كلّ خصلة من نكبة أو شدة أو مصيبة أو جائحة ، أى جعل الله هذه الدواهي
كلّها جزاء قريش بما صنعت بي . وسلطان ابن أمى ، يعنى به الخلافة ، وابن أمّه هو رسول الله
صلى الله عليه وآله ، لأنهما ابنا فاطمة بنت عمرو بن عمران بن عائذ بن مخزوم ، أمّ عبد الله
وأبى طالب ، ولم يقل سلطان ابن أبى ؛ لأنّ غير أبى طالب من الأعمام يشركه فى النسب
إلى عبد المطلب .

قال الراوندى : الجوازي : جمعُ جازية ، وهى النفس التى تجزى ، أى جزاهم وفعل بهم
ما يستحقون عساكر لأجل وفى نيابتى ، وكأفأهم سرّية تمهض إليهم ؛ وهذا إشارة إلى بنى
أميّة يهلكون من بعده . وهذا تفسير غريب طريف .

وقال أيضا : قوله : « سلطان ابن أمي » يعني نفسه ، أى سلطانه ، لأنه ابنُ أمِّ نفسه ، قال : وهذا من أحسن الكلام . ولا شبهة أنه على تفسير الراوندى لو قال : وسلبوني سلطان ابن أخت خالتي ، أو ابن أخت عمتي ، لكان أحسن وأحسن ، وهذا الرجل قد كان يجب أن يُحجّر عليه ، ولا يمكن من تفسير هذا الكتاب ، ويؤخذ عليه أيمان البيعة ألا يتعرض له

قوله : « فإن رأيت قتال المحلين » ، أى الخارجين من الميثاق والبيعة ، يعنى البغاة ومخالفي الإمام ، ويقال : لكل من خرج من إسلام أو حارب فى الحرم أو فى الأشهر الحرم : مُحِلٌّ ، وعلى هذا فسر قول زهير :

* وكم بالقنان من مُحِلٍّ ومُحْرَمٍ ^(١) *

أى من لا ذمة له ومن له ذمة ، وكذلك قولُ خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رَمَلَةَ بنت الزبير بن العوام :

ألا من لقلب معنى غَزَلٍ يجب المحلة أخت المحلِّ

أى ناقضة العهد أخت المحارب فى الحرم ، أو أخت ناقض بيعة بنى أمية .
وروى « متخصّصاً متضرّعا » بالضاد .

ومقرّاً للضيم وبالضيم ، أى هو راض به ، صابرٌ عليه . وواهنًا ، أى ضعيفا .
السلس : السهل : ومقتعد البعير : راكبه .

والشعْرُ ينسب إلى العباس بن مرداس السكّميّ ، ولم أجدّه فى ديوانه ، ومعناه ظاهر ،
وفى الأمثال الحكيمية : لا تشكونّ حالك إلى مخلوق مثلك ، فإنه إن كان صديقا أحزنته ،
وإن كان عدواً أشمته ، ولا خير فى واحد من الأمرين .

(١) ديوانه ١١ وصدّره :

* جَعَلْنَا الْقَنَانَ عَنْ يَمِينٍ وَحَزَنَهُ *

(٣٧)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا أَشَدَّ لُزُومَكَ لِلْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَالْحَيْرَةِ الْمُتَّبَعَةِ ، مَعَ
تَضْيِيعِ الْحَقَائِقِ ، وَاطِّرَاحِ الْوَثَائِقِ ، الَّتِي هِيَ لِلَّهِ تَعَالَى طَلِبَةٌ ، وَعَلَى عِبَادِهِ
حُجَّةٌ .

فَأَمَّا إِكْتَارُكَ الْحِجَاكِ عَلَى عُثْمَانَ وَقَتْلَتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِنَّمَا نَصَرْتَ عُثْمَانَ حَيْثُ
كَانَ النَّصْرُ لَكَ ، وَخَذَلْتَهُ حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لَهُ . والسلام .

الشنخ :

أول هذا الكتاب قوله :

أما بعد ، فإن الدنيا حلوة خضرة ذات زينة وبهجة ، لم يصب إليها أحدٌ إلا وبشغلته
بزينتها عما هو أرفع له منها ، وبالأخرة أمرنا ، وعليها حُثْنَا ، فدع يا معاوية ما يفتني ،
واعمل لما يبقى ، واحذر الموت الذى إليه مصيرك ، والحساب الذى إليه عاقبتك .

واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرا حال بينه وبين ما يكره ، ووقفه لطاعته ، وإذا
أراد الله بعبد سوءا أغراه بالدنيا ، وأنساه الآخرة ، وبسط له أمله ، وعاقه عما فيه صلاحه ،
وقد وصلنى كتابك فوجدتكَ ترمى غيرَ غرضك ، وتنشد غيرَ ضالتك ، وتخبط فى عمامة .

وتتية في ضلالة ، وتعصم بغير حجة ، وتلوذ بأضعف شبهة .

فأما سؤالك المتاركة والإقرار لك على الشام ، فلو كنت فاعلا ذلك اليوم لفعلته أمس .
وأما قولك : إن عمر ولاه فقد عزل من كان ولاه صاحبه ، وعزل عثمان من كان عمر ولاه ولم ينصب للناس إمام إلا يرى من صلاح الأمة إماما قد كان ظهر لمن قبله ، أو أخفى عنهم عيبه ، والأمر يحدث بعده الأمر ، ولكل رأي واجتهاد . فسبحان الله ! ما أشد لزومك للأهواء المتبدعة ، والحيرة المتبعة . . . إلى آخر الفصل .

وأما قوله عليه السلام : « إنما نصرت عثمان حيث كان النصر لك . . . » إلى آخره ، فقد روى البلاذري قال : لما أرسل عثمان إلى معاوية يستمدّه ، بعث يزيد بن أسد القسري ، جدّ خالد بن عبد الله بن يزيد أمير العراق وقال له : إذا آتيت ذا خُشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تغل : الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ؛ فإنني أنا الشاهد ، وأنت الغائب .

قال : فأقام بذى خُشب حتى قتل عثمان ، فأستقدمه حينئذ معاوية ، فعاد إلى الشام بالجيش الذي كان أرسل معه ، وإنما صنع ذلك معاوية ليقتل عثمان فيدعوا إلى نفسه .

وكتب معاوية إلى ابن عباس عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بيعته ، ويقول له فيه :

ولعمري لو قتلتك بعثمان رجوت أن يكون ذلك لله رضا ، وأن يكون رأيا صوابا ، فإنك من الساعين عليه ، والخازلين له ، والسافكين دمه ، وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني ، ولا بيدك أمان .

فكتب إليه ابن عباس جوابا طويلا يقول فيه : وأما قولك إنني من الساعين على عثمان ، والخازلين له ، والسافكين دمه ؛ وما جرى بيني وبينك صلح فيمنعك مني .

فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَأَنْتَ الْمُرَبِّصُ بِقَتْلِهِ ، وَالْحَبِّ لَهْلَاكِهِ ، وَالْحَابِسِ النَّاسِ قَبْلَكَ عَنْهُ عَلَى بَصِيرَةٍ
مِنْ أَمْرِهِ ؛ وَلَقَدْ أَتَاكَ كِتَابُهُ وَصَرِيحُهُ يَسْتَعِيثُ بِكَ وَيَسْتَصْرِخُ ، فَمَا حَفَلَتْ بِهِ ، حَتَّى
بَعَثْتَ إِلَيْهِ مَعْدِرًا بِأَجْرَةٍ ، أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَتْرَكُوهُ حَتَّى يُقْتَلَ ، فَقُتِلَ كَمَا كُنْتَ أَرَدْتَ ،
ثُمَّ عَلِمْتَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ لَنْ يَعْدِلُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، فَطَفَقَتْ تَنْعَى عُمَانَ وَتُلْزِمُنَا دَمَهُ ،
وَتَقُولُ : قُتِلَ مَظْلُومًا ، فَإِنْ يَكُ قُتِلَ مَظْلُومًا فَأَنْتَ أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَصُوبًا وَمَصْعَدًا ،
وَجَائِمًا وَرَابِضًا ، تَسْتَعْوِي الْجَهَّالَ ، وَتَنَازَعُنَا حَقًّا بِالسَّفَهَاءِ ، حَتَّى أَدْرَكَتَ مَا طَلَبْتَ ،
﴿وَإِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (١) .

(٣٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولى عليهم الأشر :

مَنْ عَبْدَ اللَّهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ غَضِبُوا لِلَّهِ حِينَ عُصِيَ
فِي أَرْضِهِ ، وَذُهِبَ بِحَقِّهِ ، فَضَرَبَ الْجَوْرُ سُرَادِقَهُ عَلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمَقِيمِ
وَالطَّاعِنِ ، فَلَا مَعْرُوفٌ يُسْتَرَاخُ إِلَيْهِ ، وَلَا مُنْكَرٌ يُتَنَاهَى عَنْهُ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ عَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ ، لَا يَنَامُ أَيَّامَ الْخَوْفِ ،
وَلَا يَنْكُلُ عَنِ الْأَعْدَاءِ سَاعَاتِ الرَّوْعِ ؛ أَشَدَّ عَلَى الْفُجَّارِ مِنْ حَرِيقِ النَّارِ ، وَهُوَ
مَالِكُ بْنُ الْحَارِثِ أَخُو مَدْحِجٍ ، فَاسْمَعُوا لَهُ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ فِيمَا طَابَقَ الْحَقُّ ،
فَإِنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ ، لَا كَلِيلُ الطُّبَّةِ ، وَلَا نَابِي الضَّرِيْبَةِ ، فَإِنْ أَمَرَكُمْ
أَنْ تَنْفِرُوا فَانْفِرُوا ، وَإِنْ أَمَرَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا فَاقِيمُوا ، فَإِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ وَلَا يُخَجِّمُ ،
وَلَا يُؤَخِّرُ وَلَا يُقَدِّمُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ؛ وَقَدْ آثَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي لِنَصِيحَتِهِ لَكُمْ ،
وَشِدَّةِ شَكِيمَتِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ .

الشيخ :

هذا الفصل يُشكّل على تأويله ، لأنّ أهل مصر هم الذين قتلوا عثمان ، وإذا شهد
أمير المؤمنين عليه السلام أنهم غضبوا لله حين عُصِيَ في الأرض ، فهذه شهادة قاطعة
على عثمان بالعصيان ، وإتيان المنكر ، ويمكن أن يقال وإن كان متعسِّفاً : إن الله تعالى

عُصِيَ فِي الْأَرْضِ لَا مِنْ عُمَانَ ؛ بَلْ مِنْ وُلَاتِهِ وَأَمْرَائِهِ وَأَهْلِهِ ، وَذَهَبَ بَيْنَهُمْ بِحَقِّ اللَّهِ ،
وَضَرَبَ الْجُورُ سُرَادِقَهُ بَوْلَايَتِهِمْ ، وَأَمْرَهُمْ عَلَى الْبِرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمَقِيمِ وَالظَّاعِنِ ، فَشَاعَ الْمُنْكَرُ ،
وَقُقِدَ الْمَعْرُوفُ . يَبْقَى ^(١) أَنْ يُقَالَ : هَبْ أَنْ الْأَمْرَ كَمَا تَأَوَّلْتَ ، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ غَضِبُوا اللَّهَ إِلَى
مَاذَا آلَ أَمْرُهُمْ ؟ أَلَيْسَ الْأَمْرُ آلَ ^(٢) إِلَى أَنَّهُمْ قَطَعُوا الْمَسَافَةَ مِنْ مِصْرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَقَتَلُوا عُمَانَ !
فَلَا تَعْدُوْا حَالَهُمْ أَمْرَيْنِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونُوا أَطَاعُوا اللَّهَ بِقَتْلِهِ فَيَكُونُ عُمَانُ عَاصِيًا مُسْتَحَقًّا لِلْقَتْلِ ،
أَوْ يَكُونُوا أَسْخَطُوا اللَّهَ تَعَالَى بِقَتْلِهِ فَعُمَانُ إِذَا عَلَى حَقِّ ، وَهَمَّ الْفَسَاقُ الْعِصَاةَ ، فَكَيْفَ
يَجُوزُ أَنْ يَبْجَلَهُمْ أَوْ يَخَاطَبَهُمْ خَطَابَ الصَّالِحِينَ ! وَيُمْكِنُ أَنْ يَجَابَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ غَضِبُوا
لِلَّهِ ، وَجَاءُوا مِنْ مِصْرَ ، وَأَنْكَرُوا عَلَى عُمَانَ تَأْمِيرَهُ الْأَمْرَاءِ الْفَسَاقِ ، وَحَصَرُوهُ فِي
دَارِهِ طَلِبًا أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمْ مَرْوَانَ لِيَحْبِسُوهُ ، أَوْ يُؤَدَّبُوهُ عَلَى مَا كَتَبَهُ فِي أَمْرِهِمْ ، فَلَمَّا حُصِرَ
طَمَعَ فِيهِ مُبْغَضُوهُ وَأَعْدَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا ، وَصَارَ مَعْظَمُ النَّاسِ إِبْنَا عَلَيْهِ ، وَقَتَلَ
عَدَدَ الْمَصْرِيِّينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا اجْتَمَعَ مِنَ النَّاسِ عَلَى حَصْرِهِ وَمَطَالَبَتِهِ بِخُلْعِ نَفْسِهِ ، وَتَسْلِيمِ
مَرْوَانَ وَغَيْرِهِ مِنْ بَنِي أُمَّيَّةَ إِلَيْهِمْ ، وَعَزَلَ عَمَّالَهُ ، وَالْإِسْتِبْدَالَ بِهِمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا حَيْثُ
يَطْلُبُونَ نَفْسَهُ ، وَلَكِنْ قَوْمًا مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ تَسَوَّرُوا دَارَهُ ، فَرَمَاهُمْ بَعْضُ عَبِيدِهِ بِالسَّهَامِ
فَجُرِحَ بَعْضُهُمْ ، فَفَادَتْ الضَّرُورَةُ إِلَى النُّزُولِ وَالْإِحَاطَةِ بِهِ ، وَتَسَرَّعَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ
فَقَتَلَهُ . ثُمَّ إِنَّ ذَلِكَ الْقَاتِلَ قُتِلَ فِي الْوَقْتِ ؛ وَقَدْ ذَكَرْنَا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَشَرَحْنَاهُ ، فَلَا يَلْزَمُ
مِنْ فِسْقِ ذَلِكَ الْقَاتِلِ وَعِصْيَانِهِ أَنْ يَفْسُقَ الْبَاقُونَ ، لِأَنَّهُمْ مَا أَنْكَرُوا إِلَّا الْمُنْكَرَ ؛ وَأَمَّا
الْقَتْلُ فَلَمْ يَقَعْ مِنْهُمْ ، وَلَا رَامُوهُ وَلَا أَرَادُوهُ ، فَجَازَ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُمْ غَضِبُوا اللَّهَ ، وَأَنْ يُثْنَى
عَلَيْهِمْ وَيَعْدَحَمَ .

ثم وصف الأشر بما وصفه به ، ومثله قوله : « لا ينام أيام الخوف » قوله :
« لا ينام ليلة يخاف ، ولا يشبع ليلة يضاف » ، وقال :

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « ينبغي » . (٢) ساقطة من ب .

فَأْتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مَبْطِنًا . مُسْهِدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوَجَلِ (١)

ثم أمرهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به مما يطابق الحق ، وهذا من شدة دينه وصلابته عليه السلام ، لم يسامح نفسه في حق أحب الخلق إليه أن يهمل هذا القيد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق » :

وقال أبو حنيفة : قال لي الربيع في دهليز المنصور : إن أمير المؤمنين يأمرني بالشيء بعد الشيء من أمورٍ مُلكه ، فأتقذه وأنا خائف على ديني ، فما تقول في ذلك ؟ قال - ولم يقل لي ذلك إلا في ملاء الناس : فقلت له : أفيأمر أمير المؤمنين بغير الحق ؟ قال : لا ، قلت : فلا بأس عليك أن تفعل بالحق ؟ قال أبو حنيفة : فأراد أن يصطادني فاصطدته .

والذي صدع بالحق في هذا المقام الحسن البصري ، قال له عمر بن هبيرة أمير العراق في خلافة يزيد بن عبد الملك في ملاء من الناس ، منهم الشعبي وابن سيرين : يا أبا سعيد ، إن أمير المؤمنين يأمرني بالشيء أعلم أن في تنفيذه الهلكة في الدين ، فما تقول في ذلك ؟ قال الحسن : ماذا أقول ! إن الله مانعك من يزيد ، ولن يمنعك يزيد من الله ، يا عمر خف الله ، واذكر يوما يأتيك تتمخض ليلته عن القيامة ، إنه سينزل عليك ملك من السماء فيحطك عن سريرك إلى قصرك ، ويضطررك من قصرك إلى لزوم فراشك ، ثم ينقلك عن فراشك إلى قبرك ، ثم لا يُغني عنك إلا عملك ؛ فقام عمر بن هبيرة باكيا يصطك لسانه .

قوله : « فإنه سيفٌ من سيوف الله » ، هذا لقبُ خالد بن الوليد ، واختلف فيمن

(١) لأبي كبير الهذلي ، ديوان الحماسة - ، بشرح التبريزي - ٨٦ . الهوجل : الثقيل الكسلان .

لقبه به ، فقيل : لقبه به رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، والصحيح أَنَّهُ لُقِّبَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ ، لِقَاتَالِهِ أَهْلَ الرَّدَّةِ ، وَقَتْلَهُ مُسَيْلِمَةَ .

وَالظُّبَّةُ ، بِالتَّخْفِيفِ : حَدُّ السَّيْفِ . وَالنَّابِيُّ مِنَ السَّيُوفِ : الَّذِي لَا يَقْطَعُ ؛ وَأَصْلُهُ نَبَا ، أَيْ ارْتَفَعَ ؛ فَلَمَّا لَمْ يَقْطَعْ كَانَ مَرْتَفِعًا ، فَسَمِّيَ نَابِيًا ؛ وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ : وَلَا نَابٍ ضَارِبٍ الضَّرْبِيَّةَ ، وَضَارِبِ الضَّرْبِيَّةِ هُوَ حَدُّ السَّيْفِ ، فَأَمَّا الضَّرْبِيَّةُ فَسَمَّيَهَا فَهِيَ الشَّيْءُ الْمَضْرُوبُ بِالسَّيْفِ ، وَإِنَّمَا دَخَلَتْهُ الْمَاءُ وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى « مَفْعُولٌ » لِأَنَّهُ صَارَ فِي عِدَادِ الْأَسْمَاءِ ، كَالنَّطِيجَةِ وَالْأَكِيلَةِ .

ثُمَّ أَمْرُهُمْ بِأَنْ يَطِيعُوهُ فِي جَمِيعِ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ مِنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا يَقْدَمُ وَلَا يُؤَخَّرُ إِلَّا عَنْ أَمْرِي ، وَهَذَا إِنْ كَانَ قَالَهُ مَعَ أَنَّهُ قَدْ سَنَحَ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ فِي أُمُورِ الْحَرْبِ مِنْ غَيْرِ مَرَاجَعَتِهِ فَهُوَ عَظِيمٌ جَدًّا ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ أَقَامَهُ مَقَامَ نَفْسِهِ . وَجَازَ أَنْ يَقُولَ : إِنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا عَنْ أَمْرِي ، وَإِنْ كَانَ لَا يُرَاجِعُهُ فِي الْجَزْئِيَّاتِ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ فِيمَنْ يَثِقُونَ بِهِ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَصُولِيِّينَ إِلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : أَحْكَمْ بِمَا شِئْتَ فِي الشَّرِيعَةِ ، فَإِنَّكَ لَا تَحْكُمُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّهُ كَانَ يَحْكُمُ مِنْ غَيْرِ مَرَاجَعَتِهِ لِجِبْرَائِيلَ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ قَالَ فِي حَقِّهِ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (١) ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ عَنِ الْأَشْتَرِ ، لِأَنَّهُ قَدْ قَرَّرَ مَعَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ أَلَّا يَعْمَلُ شَيْئًا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا إِلَّا بَعْدَ مَرَاجَعَتِهِ ، فَيَجُوزُ ، وَلَكِنَّ هَذَا بَعِيدٌ ، لِأَنَّ الْمَسَافَةَ طَوِيلَةً بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمِصْرَ ، وَكَانَتِ الْأُمُورُ هُنَاكَ تَقْفُ وَتَقْسُدُ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهُ آتَرَهُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَهَكَذَا قَالَ عُمَرُ لَمَّا أَتَفَذَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ إِلَى الْكُوفَةِ فِي كِتَابِهِ إِلَيْهِمْ : قَدْ آتَرْتُكُمْ بِهِ عَلَى نَفْسِي ؛ وَذَلِكَ أَنَّ عُمَرَ كَانَ يَسْتَفْتِيهِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ كَانَ يَصُولُ عَلَى الْأَعْدَاءِ بِالْأَشْتَرِ ، وَيَقْوَى أَنْفُسَ جِيُوشِهِ بِمَقَامِهِ بَيْنَهُمْ ، فَلَمَّا بَعَثَهُ إِلَى مِصْرَ كَانَ مُؤَثَّرًا لِأَهْلِ مِصْرَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ .

(٣٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص :

فَإِنَّكَ قَدْ جَعَلْتَ دِينَكَ تَبَعًا لِدُنْيَا أَمْرِي ظَاهِرٌ غَيْبُهُ ، مَهْتُوكٌ سِتْرُهُ ، يَشِينُ
الْكَرِيمَ بِمَجْلِسِهِ ، وَيُسْفَهُ الْحَلِيمَ بِخِلْطَتِهِ ، فَاتَّبَعْتَ أَثْرَهُ ، وَطَلَبْتَ فَضْلَهُ ؛ اتَّبَاعَ
الْكَلْبِ لِلضَّرْعَامِ يَلُودُ بِمَخَالِبِهِ ، وَيَنْتَظِرُ مَا يُلْقَى إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ فَرِيْسَتِهِ .
فَأَذْهَبَتْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ ، وَلَوْ بِالْحَقِّ أَخَذْتَ أَدْرَكَتْ مَا طَلَبْتَ .

فَإِنْ يُمَكِّنَ اللَّهُ مِنْكَ وَمِنْ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَجْرِكُمَا بِمَا قَدَّمْتُمَا ، وَإِنْ تُعْجِزَا
وَتَبْقِيَا ، فَمَا أَمَامَكُمَا شَرٌّ لَكُمَا . وَالسَّلَامُ .

البسوخ :

كلّ ما قاله فيهما هو الحقّ الصريح بعينه ، لم يحمله بغضه لهما ، وغِيْظُهُ منهُمَا ، إلى أن
بالغ في ذمّهما به ، كما يبلغ الفصحاء عند سَوْرَةِ الغضب ، وتدقق الألفاظ على الألسنة ،
ولا ريبَ عند أحدٍ من العقلاء ذوى الإنصاف أن عمراً جميل دينه تبعاً لدنيا معاوية ،
وأنّه ما بايعه وتابعه إلا على جمالة جعلها له ، وضمن تكفّل له بإيصاله ، وهى ولاية مصر
مؤجّلة ، وقطعة وافرة من المال معجّلة ، ولولديه وعلمايه ما ملأ أعينهم .

فأما قوله عليه السلام في معاوية : « ظاهراً غيبه » ، فلا ريب في ظهور ضلاله وبغيه ؛
وكلُّ باغٍ غاوٍ .

أما مهتوك ستره ، فإنه كان كثير الهزل والخلاعة ، صاحب جلساء وسّار ، ومعاوية لم يتوقّر ، ولم يلزم قانون الرياسة إلا منذ خرج على أمير المؤمنين ، واحتاج إلى الناموس والسكينة ، وإلا فقد كان في أيام عثمان شديد التهتك ، موسوما بكلّ قبيح ، وكان في أيام عمر يستر نفسه قليلا خوفا منه ، إلا أنه كان يلبس الحرير والديباج ، ويشرب في آنية الذهب والفضّة ، ويركب البغال ذوات السروج المحلّاة بها ، وعليها جلال الديباج والوشى ؛ وكان حينئذ شاباً ، وعنده نزق الصبا ، وأثر الشيبية ، وسكر السلطان والإمّرة ؛ ونقل الناسُ عنه في كتب السيرة أنه كان يشرب الخمر في أيام عثمان في الشام ، وأما بعد وفاة أمير المؤمنين واستقرار الأمر له فقد اختلف فيه ، فقيل : أنه شرب الخمر في ستر ، وقيل : إنه لم يشربه . ولا خلاف في أنه سمع الغناء وطرب عليه ، وأعطى ووصل عليه أيضاً . وروى أبو الفرج الأصفهانيّ قال : قال عمرو بن العاص لمعاوية في قدمة قدمها إلى المدينة أيام خلافته : قم بنا إلى هذا الذي قد هدم شرفه ؛ وهتك ستره ، عبد الله ابن جعفر ، نقف على بابه ، فنسمع غناء جواريه ، فقاما ليلا ومعهما وردان غلام عمرو ، ووقفآ بباب عبد الله بن جعفر ، فاستمعا الغناء وأحسّ عبدُ الله بوقوفهما ، ففتح الباب ، وعزم على معاوية أن يدخل ، فدخل ، فجلس على سرير عبد الله ، فدعا عبد الله له وقدم إليه يسيرا من طعام ، فأكل ، فلما أنس قال : يا أمير المؤمنين ، ألا تأذن لجواريك أن يتمنن أصواتهنّ ، فإنك قطعتهما عليهنّ ؟ قال : فليقلن ، فرفعن أصواتهنّ ، وجعل معاوية يتحرّك قليلا قليلا حتّى ضرب برجله السرير ضربا شديدا ، فقال عمرو : قم أيّها الرجل ، فإنّ الرجل الذي جئت لتلحاه أو لتعجب من أمره أحسنُ حالا منك . فقال : مهلا ، فإن الكريم طروب !

أما قوله: « يشين الكريم بمجلسه ، ويسفّه الحليم بمخلطته » : فالأمر كذلك ، فإنه لم يكن في مجلسه إلا شتم بنى هاشم وقد فهم ، والتعرضُ بذكر الإسلام ؛ والطنن عليه ، وإن أظهر الانتماء إليه . وأما طلب عمرو فضله واتباعه أثره اتباع الكاب للأسد فظاهر ، ولم يقل : الثعلب ، غصّاً من قدر عمرو ، وتشبيها له بما هو أبلغُ في الإهانة والاستخفاف .

ثم قال : « ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت » ، أى لو قعدت عن نصره ولم تشخص إليه ممالئاً به على الحق لو وصل إليك من بيت المال قدر كفايتك .

ولقائل أن يقول : إن عمراً ما كان يطلب قدر الكفاية وعلى عليه السلام ما كان يعطيه إلا حقه فقط ، ولا يعطيه بلداً ولا طرفاً من الأطراف ، والذي كان يطلبُ ملك مصر ، لأنه فتحها أيام عمرٍ ووليها برهة ، وكانت حسرةً في قلبه ، وحزازة في صدره ، فباع آخرته بها ، فالأولى أن يقال : معناه لو أخذت بالحق أدركت ما طلبت من الآخرة .

فإن قلت : إن عمراً لم يكن على عليه السلام يعتقد أنه من أهل الآخرة ، فكيف يقول له هذا الكلام ؟

قلت : لا خلل ولا زلل في كلامه عليه السلام ، لأنه لو أخذ بالحق لكان معتقداً كونه على عليه السلام على الحق باعتقاده صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وصحة التوحيد ، فيصير تقديرُ الكلام : لو بايعتني معتقداً للزوم بيعتي لك لكنت في ضمن ذلك طالبا الثواب ، فكنت تدركه في الآخرة .

ثم قال مهتداً لهما ، ومتوعداً إياها : « فإن يُمكن الله منك ومن ابن أبي سفيان » ، وأقول : لو ظفر بهما لما كان في غالب ظني يقتلهما ، فإنه كان حليماً كريماً ، ولكن كان يجسهما ليحسم بحسهما مادةً فسادهما .

ثم قال : « وإن تُعجزا وتبقيا » ، أى وإن لم أستطع أخذ كما أو أمت قبل ذلك وبقيةً بعدى ، فما أملك كما شرر لكما من عقوبة الدنيا ؛ لأن عذاب الدنيا منقطع ، وعذاب الآخرة غير منقطع .

وذكر نصر بن مزاحم فى كتاب « صيفين » هذا الكتاب زيادة لم يذكرها الرضى . قال نصر : وكتب على عليه السلام إلى عمرو بن العاص :
من عبد الله على أمير المؤمنين إلى الأبر ابن الأبر عمرو بن العاص بن وائل ، شانى محمد وآل محمد فى الجاهلية والإسلام ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فإنك تركت مروءتك لامرئ فاسق مهتوك ستره ، يشين الكرىم بمجلسه ، ويسفه الحليم بمخلطته ، فصار قلبك لقلبه تبعاً ، كما قيل : « وافق شن طبة » فسلبك دينك وأمانتك ودنياك وأخرتك ، وكان علم الله بالنا فىك ، فصرت كالذئب يتبع الضرغام إذا ما الليل دجى ، أو أتى الصبح يلتمس فاضل سوره ، وحوايا فريسته ، ولكن لا نجاة من القدر ، ولو بالحق أخذت لأدركت ما رجوت ، وقد رشد من كان الحق قائده ، فإن يمكن الله منك ومن ابن آكلة الأكباد ، ألحقتكما بمن قتله الله من ظلمة قريش على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن تعجزا وتبقيا بعد ؛ فالله حسبكما ، وكفى بانتقامه انتقاما ، وبعقابه عقابا ! والسلام .

(٤٠)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسَخَطَ رَبَّكَ ، وَعَصَيْتَ
إِمَامَكَ ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ . بَلَغَنِي أَنَّكَ جَرَدْتَ الْأَرْضَ فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ ،
وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ، فَأَرْفَعُ إِلَى حِسَابِكَ ، وَأُعَلِّمُ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ
حِسَابِ النَّاسِ ؛ وَالسَّلَامُ .

الشيخ :

أَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ : أَذَلَّتْهَا وَأَهْنَيْتَهَا ، وَجَرَدْتَ الْأَرْضَ : قَشَرْتَهَا ؛ وَالْمَعْنَى أَنَّهُ نَسَبَهُ
إِلَى الْخِيَانَةِ فِي الْمَالِ ، وَإِلَى إِخْرَابِ الضِّيَاعِ ، وَفِي حِكْمَةِ أَبْرُويزَ أَنَّهُ قَالَ لِنَازِنِ بَيْتِ الْمَالِ :
إِنِّي لَا أَحْتَمِلُكَ عَلَى خِيَانَةِ دِرْهَمٍ ، وَلَا أَحْمَدُكَ عَلَى حِفْظِ عَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، لِأَنَّكَ إِنَّمَا
تَحْقِنُ بِذَلِكَ دَمَكَ ، وَتَعْمُرُ بِهِ أَمَانَتَكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ خَنْتَ قَلِيلًا خَنْتَ كَثِيرًا ، فَأَحْتَرَسُ مِنْ
خَصَلَتَيْنِ : مِنَ النِّقْصَانِ فِيمَا تَأْخُذُ ، وَمِنَ الزِّيَادَةِ فِيمَا تَمْطِي ؛ وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَجْعَلْكَ عَلَى ذَخَائِرِ
الْمَلِكِ ، وَعِمَارَةِ الْمَمْلُوكَةِ ، وَالْعِدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ ، إِلَّا وَأَنْتَ أَمِينٌ عِنْدِي مِنَ الْمَوْضِعِ
الَّذِي هِيَ فِيهِ ، وَمِنْ خَوَاتِمِهَا الَّتِي هِيَ عَلَيْهَا ، فَحَقَّقْ ظَنِّي فِي اخْتِيَارِي إِيَّاكَ أَحَقَّقْ ظَنِّكَ
فِي رَجَائِكَ لِي ، وَلَا تَتَعَوَّضْ بِخَيْرٍ شَرًّا ، وَلَا بَرَفَعَةٍ ضِعْمَةَ ، وَلَا بِسَلَامَةٍ نِدَامَةَ ، وَلَا
بَأْمَانَةٍ خِيَانَةَ .

وفي الحديث المرفوع : « من وَلِيَ لَنَا عَمَلًا فَلْيَتَزَوَّجْ ، وَلْيَتَّخِذْ مَسْكَنًا وَمَرْكَبًا وَخَادِمًا ، فَمَنْ اتَّخَذَ سِوَى ذَلِكَ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَادِلًا غَالًا سَارِقًا » .

وقال عمر في وصيته لابن مسعود : إِيَّاكَ وَالْهَدْيَةَ ، وَلَيْسَتْ بِحَرَامٍ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الدَّالَّةَ .

وأهدى رجلٌ لعمرَ نخدَ حَزُورِ فِقْبِيلِهِ ، ثُمَّ ارْتَفَعَ إِلَيْهِ بَعْدَ أَيَّامٍ مَعَ خَصْمٍ لَهُ ، فَجَعَلَ فِي أَثْنَاءِ الْكَلَامِ يَقُولُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَفَصِلِ الْقِضَاءَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ كَمَا يُفْصَلُ فَنُخِذُ الْجَزُورَ . فَقَضَى عَمْرُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَامَ فَنَخَبَ النَّاسَ ، وَحَرَّمَ الْهَدَايَا عَلَى الْوُلَاةِ وَالْقُضَاةِ .

وأهدى إنسانٌ إِلَى الْمَغِيرَةِ سِرَاجًا مِنْ شَبَهٍ ، وَأَهْدَى آخَرَ إِلَيْهِ بَغْلًا ، ثُمَّ اتَّفَقَتْ لَهَا خِصُومَةٌ فِي أَمْرٍ فَتَرَفَعَا إِلَيْهِ ، فَجَعَلَ صَاحِبُ السِّرَاجِ يَقُولُ : إِنَّ أَمْرِي أَضْوَأُ مِنَ السِّرَاجِ ؛ فَلَمَّا أَكْثَرَ قَالَ الْمَغِيرَةُ : وَيَنَحْكَ ، إِنَّ الْبَغْلَ يَرْمِحُ السِّرَاجَ فَيَكْسِرُهُ .

ومرَّ عَمْرُ بِنِيبَاءِ يُبْنَى بَأَجْرٍ وَجِصٍّ لِبَعْضِ عَمَّالِهِ فَقَالَ : أَبْتِ الدِّرَاهِمُ إِلَّا أَنْ تُخْرَجَ أَعْنَاقَهَا . وَرَوَى هَذَا الْكَلَامُ عَنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَكَانَ عَمْرُ يَقُولُ : عَلَى كُلِّ عَامِلٍ أَمِينَانِ : الْمَاءُ وَالطِّينُ .

ولمَّا قَدِمَ أَبُو هُرَيْرَةَ مِنَ الْبَحْرَيْنِ قَالَ لَهُ عَمْرُ : يَا عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّ كِتَابِهِ ، أَسْرَقْتَ مَالَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : لَسْتُ بَعْدُوَّ اللَّهِ وَلَا عَدُوَّ كِتَابِهِ ، وَلَكِنِّي عَدُوٌّ مَنْ عَادَاهُمَا ، وَلَمْ أَسْرِقْ مَالَ اللَّهِ . فَضْرَبَهُ بِجَرِيدَةٍ عَلَى رَأْسِهِ ، ثُمَّ ثَنَاهُ بِالذُّرَّةِ ، وَأَغْرَمَهُ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، ثُمَّ أَحْضَرَهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مِنْ أَيْنَ لَكَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : خَيْلِي تَنَاسَلَتْ ، وَعَطَايُ تَلَاخَقَ ، وَسَهَامِي تَتَابَعَتْ ، قَالَ عَمْرُ : كَلَّا وَاللَّهِ . ثُمَّ تَرَكَ أَيَّامًا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَلَا تَعْمَلُ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : قَدْ عَمِلَ مَنْ هُوَ خَيْرُ مَنْكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ : يُوسُفُ الصَّدِيقُ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : إِنَّ يُوسُفَ عَمِلَ لِمَنْ لَمْ يَضْرِبْ رَأْسَهُ

وظهره ، ولا شتمَ عِرضه ، ولا نزع ماله ، لا والله لا أعمل لك أبدا .
وكان زياد إذا ولي رجلا قال له : خذ عهدك ، وسرِّ إلى عمليكَ ، وأعلم أنك محاسب
رأس سنتك ، وأنت ستصير إلى أربع خصال ، فاختر لنفسك : إنا إن وجدناك أمينا
ضعيفا استبدلنا بك لضعفك ، وسلمتكَ من معرفتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائنا قويا
استعنا بقوتك ، وأحسننا أدبك على خيانتك ، وأوجعنا ظهرَكَ ، وأثقلنا غُرْمَكَ : وإن
جمعت علينا الجُرمين ، جمعنا عليك المضرَّتين ، وإن وجدناك أمينا قويا زدنا رزقك ،
ورفعنا ذِكْرَكَ ، وكثرتنا مالك ، وأوطأنا الرجال عَقَبِكَ .

ووصف أعرابيُّ عاملا خائنا فقال : الناس يا كلون أماناتهم لعمَّا ، وهو يحسوها
حسوا .

قال أنس بن أبي إياس الدؤليُّ^(١) لحارثة بن بدر الغدائيِّ - وقد وليَ سُرقَ - ويقال
إنَّها لأبي الأسود^(٢) :

أحارِبِ بنَ بدرٍ قد وليتَ ولايةً	فكنْ جُرْداً فيها تخون وتسرِقُ
ولا تحقرنْ يا حار شيئا أصبته	فحظك من ملك العراقين سُرقُ ^(٣)
وباه تميماً بالغنى إنَّ للغنى	لسانا به المرء الهيوبَةُ ينطقُ ^(٤)
فإنَّ جميعَ الناسِ إمَّا مكذب	يقول بما تهوى وإمَّا مصدق
يقولون أقوالا ولا يتبعونها	وإن قيل : هاتوا حقُّوا لم يحقُّوا

فيقال : إنَّها بلغتْ حارثةَ بن بدر فقال : أصاب الله به الرشاد ، فلم يمدُّ بإشارته

ما في نفسي !

(١) في الكامل : « أنس بن أبي أنيس » .

(٢) ممن نسبها إلى أبي الأسود ياقوت في معجم البلدان ٥ : ٧٣ .

(٣) سرق : إحدى كور الأهواز . (٤) الهيوبة : الجبان .

(٤١)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكَتُكَ فِي أَمَانَتِي ، وَجَعَلْتُكَ شِعَارِي وَبِطَانَتِي ،
وَلَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي نَفْسِي ، لِمُؤَاسَاتِي وَمُؤَازَرَتِي ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ
إِلَيَّ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ ، وَالْمَدُودَ قَدْ حَرَبَ ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ
قَدْ خَزَيْتَ ، وَهَذِهِ الْأُمَّةَ قَدْ فُتِكَتْ وَشَعَرَتْ ، قَدَبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ الْمِجَنِّ ،
فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ ، وَخُنْتَهُ مَعَ الْخَائِنِينَ ،
فَلَا ابْنَ عَمِّكَ آسَيْتَ ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ .

وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لِلَّهِ تَرِيدُ بِجِهَادِكَ ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّكَ ،
وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ ، وَتَنُوي غِرَّتَهُمْ عَنْ فَيْئِهِمْ ،
فَلَمَّا أَمَكَّنْتَكَ الشَّدَّةَ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ ، وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ
وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ الْمَصُونَةَ لِأَرَامِلِهِمْ وَأَيْتَامِهِمْ ، اخْتِطَافَ
الذُّئْبِ الْأَزَلِّ دَامِيَةَ الْمُعْزَى الْكَسِيرَةِ ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ
بِحَمْلِهِ ، غَيْرَ مُتَأَمِّنٍ مِنْ أَخْذِهِ ، كَأَنَّكَ - لَا أَبَا لَغَيْرِكَ - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَائِكَ
مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ .

فَسُبْحَانَ اللَّهِ ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ ! أَوْ مَا تَخَافُ نِقَاشَ الْحِسَابِ ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ
كَانَ عِنْدَنَا مِنْ أَوْلِي الْأَلْبَابِ ، كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ
حَرَامًا ، وَتَشْرَبُ حَرَامًا ، وَتَبْتَاعُ الْإِمَاءَ ، وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ أَمْوَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ ، الَّذِينَ آفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَخْرَزَ بِهِمْ
هَذِهِ الْبِلَادَ !

فَاتَّقِ اللَّهَ وَارْذُدْ إِلَى هَوْلَاءِ الْقَوْمِ أَمْوَالَهُمْ ؛ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمَكَّنِي اللَّهُ
مِنْكَ ، لَا عُذْرَانَ إِلَى اللَّهِ فِيكَ ، وَلَا ضَرْبَنَّاكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا
إِلَّا دَخَلَ النَّارَ .

وَوَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ ، مَا كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي
هُوَادَةٌ ، وَلَا ظَفِيرًا مِثْلِي بِإِرَادَةٍ ، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُمَا ، وَأُزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ
مَظْلَمَتَيْهِمَا .

وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ مَا يَسْرُنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالًا لِي ،
أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ بَعْدِي ، فَضَحَّ رُوَيْدًا ، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى ، وَدُفِنْتَ تَحْتَ
التُّرَى ، وَعُرِضَتْ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ فِيهِ بِالْحَسْرَةِ ،
وَيَتَمَنَّى الْمُضَيِّعِ فِيهِ الرَّجْعَةَ ، وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ !

الشُّنْحُ :

أشركتكَ في أمانتي : جعلتك شريكا فيما قُتُ فيه من الأمر ، واثمتني الله عليه
من سياسة الأمة ، وسمي الخِلافة أمانةً كما سمي الله تعالى التكليف أمانةً في قوله :
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ (١) . فأما قوله : وأداء الأمانة إلى فأمرو آخر ، ومراده بالأمانة الثانية
ما يتعارفه الناس من قولهم : فلان ذو أمانة ، أى لا يخون فيما أسند إليه .

وكلب الزمان : اشتد ؛ وكذلك : كلب البرد .

وحرب العدو : استأسد . وخزيت أمانة الناس : ذلت وهانت .
وشعرت الأمة : خلت من الخير ، وشعر البلد : خلا من الناس .
وقلبت له ظهر المجن : إذا كنت معه فصرت عليه ؛ وأصل ذلك أن الجيش إذا لقوا
العدو وكانت ظهور مجانهم إلى وجه العدو ، وبطنون مجانهم إلى وجه عسكرهم ، فإذا
فارقوا رئيسهم وصاروا مع العدو كان وضع مجانهم بدلا من الوضع الذي كان من قبل ،
وذلك أن ظهور الترس لا يمكن أن تكون إلا في وجوه الأعداء ، لأنها مرمى سهامهم .
وأمكنك الشدة ، أى الحملة .

قوله : « أسرعت الكرّة » ، لا يجوز أن يقال : الكرّة إلا بمد فرّة ، فكأنه
لما كان مقلعا في ابتداء الحال عن التعرض لأموالهم ، كان كالفار عنها ، فلذلك قال :
أسرعت الكرّة .

والذئب الأزل : الخفيف الوركين ، وذلك أشدّ لعدوه ، وأسرع لوئبته ، وإن اتفق
أن تكون شاة من المعزى كثيرة ودامية أيضا ، كان الذئب على اختطافها أقدر .
ونقاش الحساب : مناقشته .

قوله : « فضحّ رويدا » ، كلمة تقال لمن يؤمر بالتؤدة والأناة والسكون ، وأصلها
الرجل يطعم إبله ضحّى ، ويسيرها مسرعا ليسير ، فلا يشبعها ، فيقال له : ضحّ رويدا .

[اختلاف الراى فيمن كتب له هذا الكتاب]

وقد اختلف الناس في المكتوب إليه هذا الكتاب ، فقال الأكثرون : إنه عبد الله
ابن العباس رحمه الله ، ورووا في ذلك روايات ، واستدلوا عليه بألفاظ من ألفاظ الكتاب

كقوله : « أشركتك في أمانتي ، وجعلتك بطانتي وشعاري ، وأنه لم يكن في أهلي رجل أوثق منك » ، وقوله : « علي ابن عمك قد كذب » ، ثم قال ثانيا : « قلبت لابن عمك ظهر المِجنّ » ثم قال ثالثا : « ولا ابن عمك آسيت » ؛ وقوله : « لا أبا لغيرك » ، وهذه كلمة لا تقال إلا لمثله ، فأما غيره من أفناء الناس ، فإن عليًّا عليه السلام كان يقول : لا أبا لك .

وقوله : « أيها الممدود كان عندنا من أولى الألباب » . وقوله : « لو أن الحسن والحسين عليهما السلام » ، وهذا يدل على أن المكتوب إليه هذا الكتاب قريب من أن يجري مجراها عنده .

وقد رَوَى أرباب هذا القول أن عبد الله بن عباس كتب إلى عليّ عليه السلام جوابا من هذا الكتاب ، قالوا : وكان جوابه :

أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظم عليّ ما أصبت من بيت مال البصرة ، ولعمري إن حقي في بيت المال أكثر مما أخذتُ ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه عليّ عليه السلام :

أما بعد ، فإن من العجب أن تزين لك نفسك أن لك في بيت مال المسلمين من الحقّ أكثر مما لرجل واحد من المسلمين ، فقد أفاحت إن كان تمنيك الباطل ، وادعائك ما لا يكون ينجيك من المأثم ، ويحلّ لك المحرم ، إنك لأنت المهتدى السعيد إذا ! وقد بلغني أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا ، تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف ، تختارهنّ على عينك ، وتعطي فيهنّ مال غيرك ، فارجع هداك الله إلى رُشدك ، وتبّ إلى الله ربك ، واخرج إلى المسلمين من أموالهم ، فعما قليل تفارق من ألفت ، وتترك ما جمعت ، وتغيب في صدع من الأرض غير موسّد ولا ممهد ، قد فارقت الأجاب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، غنيا عما خلفت ، فقيرا إلى ما قدّمت ، والسلام .

قالوا : فكتب إليه ابن عباس :

أما بعد ، فإنك قد أكثرت عليّ ، ووالله لأن ألقى الله قد احتويت على كنوز الأرض
كلّها ، وذهبها وعقبانها وجميئها ، أحبّ إليّ من أن ألتاه بدم امرئ
مسلم . والسلام .

وقال آخرون وهم الأفلون : هذا لم يكن ، ولا فارق عبدُ الله بن عباس عليّا عليه
السلام ، ولا باينه ولا خلفه ، ولم يزل أميراً على البصرة إلى أن قتل عليّ
عليه السلام .

قالوا : ويدلّ على ذلك ما رواه أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهانيّ من كتابه الذي
كتبه إلى معاوية من البصرة لما قتل عليّ عليه السلام ، وقد ذكرناه من قبل ، قالوا :
وكيف يكون ذلك ولم يخدمه معاوية ، ويجرّه إلى جهته ، فقد علمتم كيف اختدع كثيرا من
عمال أمير المؤمنين عليه السلام واستألمهم إليه بالأموال ، فالتوا وتركوا أمير المؤمنين عليه
السلام ، فابأله وقد علم التّبوءة التي حدثت بينهما ، لم يستمل ابن عباس ، ولا اجتذبه إلى
نفسه ؛ وكلّ من قرأ السّير وعرف التواريخ يعرف مشاقّة ابن عباس لمعاوية بعد وفاة عليّ
عليه السلام ، وما كان يلقاه به من قوارع الكلام ، وشديد الخصام ، وما كان
يثنى به على أمير المؤمنين عليه السلام ويذكر خصائصه وفضائله ، ويصدع به من مناقبه
ومآثره ، فلو كان بينهما غبار أو كدر لما كان الأمر كذلك ، بل كانت الحال تكون بالضدّ لما
اشتهر من أمرهما .

وهذا عندي هو الأمثل والأصوب .

وقد قال الراونديّ : المكتوب إليه هذا الكتاب هو عبيد الله بن العباس ، لا عبد الله ؛

وليس ذلك بصحيح ، فإنَّ عبيد الله كان عامل عليّ عليه السلام على اليمن ، وقد ذكرت قصته مع بُسر بن أرطاة فيما تقدّم ، ولم ينقل عنه أنه أخذ مالا ، ولا فارق طاعة .

وقد أشكل عليّ أمرُ هذا الكتاب ، فإنَّ أنا كذّبت النقل وقلتُ : هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام ، خالفتُ الرواة ، فإنَّهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه ، وقد ذكّر في أكثر كتب السير . وإن صرفته إلى عبد الله بن عباس صدّتي عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعد وفاته . وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى مَنْ أصرّفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام ؛ والكلامُ يشعر بأنَّ الرجل المخاطب من أهله وبني عمه ، فأنا في هذا الموضع من المتوقّفين !

(٤٢)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي ، وكان عامله على البحرين ، فعمله واستعمل النعمان بن عجلان الزُرقي مكانه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي قَدْ وَلَّيْتُ النُّعْمَانَ بْنَ عَجْلَانَ الزُّرْقِيَّ عَلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَنَزَعْتُ يَدَكَ بِلَا ذَمٍّ لَكَ ، وَلَا تَثْرِيْبٍ عَلَيْكَ ؛ فَلَقَدْ أَحْسَنْتَ الْوِلَايَةَ ، وَأَدَيْتَ الْأَمَانَةَ ، فَأَقْبِلْ غَيْرَ ظَنِينٍ وَلَا مَأْمُومٍ ، وَلَا مُتَّهَمٍ وَلَا مَأْمُومٍ ، فَقَدْ أَرَدْتُ الْمَسِيرَ إِلَى ظَلَمَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ تَشْهَدَ مَعِيَ ، فَإِنَّكَ مِمَّنْ اسْتَظْهَرُ بِهِ عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ ، وَإِقَامَةِ عَمُودِ الدِّينِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

الشيخ :

[عمر بن أبي سلمة ونسبه وبعض أخباره]

أما عمر بن أبي سلمة فهو ربيب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأبوه أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة ، يكنى أبا حفص ، وُلد في السنة الثانية من الهجرة بأرض الحبشة ، وقيل : إنه كان يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ابن تسع سنين ، وتوفى في المدينة في خلافة عبد الملك سنة ثلاثٍ وثمانين ، وقد حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وآله الحديث ، وروى عنه سعيد بن المسيب وغيره ، ذكر

ذلك كَلَّمَهُ ابن عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " .

[النعمان بن عجلان ونسبه وبعض أخباره]

وأما النعمان بن عجلان الزُرَّقِيُّ فمن الأنصار ، ثم من بني زُرَيْقٍ ، وهو الذي خَلَفَ على خولة زوجة حمزة بن عبد المطلب رحمه الله بعد قتله ، قال [ابن] عبد البرّ في كتاب " الاستيعاب " : كان النعمان هذا لسان الأنصار وشاعرهم ؛ ويقال : إنه كان رجلاً أحمر قصيراً تزدرية العين ، إلا أنه كان سيّداً ، وهو القائل يومَ السَّقِيفَةِ :

وقلم حرامٌ نصب سعدٍ ونصبكم عتيق بن عثمان حلالٌ أبا بكرٍ
وأهلُ أبو بكر لها خيرٌ قائمٍ وإنّ علياً كان أخلقَ بالأمرِ
وإنّ هوانا في عليٍّ وإنه لأهلُها من حيث يدري ولا يدري

قوله : « ولا تثريب عليك » ، فالتثريب الاستقصاء في اللوم ؛ ويقال : ثرّبت عليه ، وعرّبت عليه ، إذا قبّحت عليه فعله .

والظنّين : المتّهم ؛ والظنّة التهمة ، والجمع الظنّين ؛ يقول : قد اظنّ زيد عمرا ، والألف ألف وصل ، والظاء مشدّدة ، والنون مشدّدة أيضا ، وجاء بالطاء المهملة أيضا ، أي اتّهمه . وفي حديث ابن سيرين : لم يكن عليّ عليه السلام يظنّ في قتل عثمان ، الحرفان مشدّدان وهو يفتعل من « يظنّ » وأدغم ، قال الشاعر :

وما كلُّ من يظنّني أنا مُعتبٌ وما كلُّ ما يُروى عليّ أقولُ (١)

(١) الصحاح ٢١٦١ من غير نسبة .

(٤٣)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني وكان عامله
على أردشير خرّة :

بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ ؛
إِنَّكَ تَقْسِمُ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ - الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخِيُولُهُمْ ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ -
فِيْمَنْ اعْتَمَاكَ مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ . فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ ؛ لَنْ كَانَ
ذَلِكَ حَقًّا . لَتَجِدَنَّ لَكَ عَلِيًّا هَوَانًا ، وَلَتَخْفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا ، فَلَا تَسْتَهِنُ بِحَقِّ رَبِّكَ ،
وَلَا تُصَلِّحْ دُنْيَاكَ بِمَحَقِّ دِينِكَ ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا .

أَلَا وَإِنَّ حَقَّ مَنْ قَبْلَكَ وَقَبْلَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفِيءِ سِوَايَ ؛
يَرُدُّونَ عِنْدِي عَلَيْهِ ، وَيَصْدُرُّونَ عَنْهُ .

الشيخ :

قد تقدّم ذكر نسب مصقلة بن هبيرة . وأردشير خرّة : كورة من كور فارس .
واعتمادك : اختارك من بين الناس ، أصله من العيمة بالكسر ، وهي خيار المال ،
اعتماد المصدق إذا أخذ العيمة ، وقد روي : « فيمن اعتمادك »^(١) بالقلب ، والصحيح

(١) ب : « اعتمادك » ؛ والصواب ما أثبتته من أ .

المشهور الأول ، وروى : « ولتجدنَّ بك عندى هوانا » بالباء ، ومعناها اللام ؛
ولتجدنَّ بسبب فعلك هوانك عندى ، والباء ترد للسببية ، كقوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ
مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (١) .
والمَحَقُّ الإِهْلَاكُ .

والعنى أنه نهى مصقلة عن أن يقسم الفىء على أعراب قومه الذين اتَّخذوه سيِّدا
ورئيسا ، ويَحْرِمُ المسلمين الذين حازوه بأنفسهم وسلاحهم ؛ وهذا هو الأمر الذى كان
يُنْكِرُه على عثمان ، وهو إيثارُ أهله وأقاربه بمالِ الفىء ؛ وقد سبق شرحُ مثل ذلك
مستوفى .

(٤٤)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديعته باستلحاقه :

وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ مَعَاوِيَةَ كَتَبَ إِلَيْكَ يَسْتَرِلُ لُبَّكَ ، وَيَسْتَفِلُّ غَرْبَكَ ، فَاحْذَرُهُ فَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ ، لِيَقْتَحِمَ غَفْلَتَهُ ، وَيَسْتَلِبَ غِرَّتَهُ .

وَقَدْ كَانَ مِنْ أَبِي سُفْيَانَ فِي زَمَنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَلْتَةٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ ، وَنَزَعَةٌ مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيْطَانِ ، لَا يَدْبُتُ بِهَا نَسْبٌ ، وَلَا يُسْتَحَقُّ بِهَا إِرْثٌ ، وَالْمُتَعَلِّقُ بِهَا كَالْوَاغِلِ الْمُدْفَعِ ، وَالنَّوْطِ الْمُدْبَذِ .

فَلَمَّا قَرَأَ زِيَادُ الْكِتَابَ قَالَ : شَهِدَ بِهَا رَبُّ الْكَعْبَةِ ، وَلَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِهِ حَتَّى ادَّعَاهُ مَعَاوِيَةُ .

قال الرضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى :

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « الْوَاغِلُ » ، هُوَ الَّذِي يَهْجُمُ عَلَى الشَّرْبِ لِشُرْبِ مَعَهُمْ وَلَيْسَ مِنْهُمْ ، فَلَا يَزَالُ مُدْفَعًا مُحَاجِرًا . وَالنَّوْطُ الْمُدْبَذُ : هُوَ مَا يُنَاطُ بِرَحْلِ الرَّأكِبِ مِنْ قَعْبٍ أَوْ قَدَحٍ ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، فَهُوَ أَوَّلًا يَتَقَلَّبُ إِذَا حَتَّ ظَهْرَهُ ، وَاسْتَعَجَلَ سِيرَهُ .

الْبَيْتُ :

يستزلّ لبك ، يطلب زلله وخطأه ، أى يحاول أن تزلّ . واللبّ : العقل . ويستقلّ غرّبك : يحاول أن يفلّ حدك ، أى عزمك ، وهذا من باب المجاز . ثم أمره أن يحذره ، وقال : إنه - يعنى معاوية - كالشيطان يأتى المرء من كذا ومن كذا ، وهو مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَّا يَتَنَبَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (١) ؛ قالوا فى تفسيره : من بين أيديهم : يُطمعهم فى العفو ويغريهم بالعصيان (٢) ، ومن خلفهم : يذكرهم مخلفيهم ، ويُحسن لهم جمع المال وتركه لهم ، وعن أيانهم : يحبب إليهم الرياسة والثناء ، وعن شمائلهم : يحبب إليهم اللهو واللذات .

وقال شقيق البلخى : ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد : من بين يديّ ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، أما من بين يديّ فيقول : لا تخف فإنّ الله غفور رحيم ، فأقرأ : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٣) ، وأما من خلفي فيخوفنى الضيعة على مخلفي ، فأقرأ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٤) ؛ وأما من قبل يميني فيأتيني من جهة الثناء ، فأقرأ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٥) ، وأما من قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات ، فأقرأ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٦) .

فإن قلت : لمّ كمّ يقل : « ومن فوقهم ومن تحتهم » ؟

- | | |
|-----------------------|---------------------------------------|
| (١) سورة الأعراف ١٧ . | (٢) كذا فى ١ ، وفى ب « فى العصيان » . |
| (٣) سورة طه ٨٢ . | (٤) سورة هود ٦ . |
| (٥) سورة القصص ٨٣ . | (٦) سورة سبأ ٥٤ . |

قلت : لأن جهة « فوق » جهةُ نزول الرحمة ، ومستقرّ الملائكة ، ومكان العرش ، والأنوار الشريفة ، ولا سبيل له إليها ؛ وأما من جهة « تحت » فلأن الإتيان منها يُوحس ، وينفر عنه ، لأنها الجهة المعروفة بالشياطين ، فعدل عنها إلى ما هو أدعى إلى قبول وسأوسه وأضاليله .

وقد فسّر قوم المعنى الأول فقالوا : « من بين أيديهم » ، من جهة الدنيا ، و « من خلفهم » . من جهة الآخرة ؛ و « عن أيمنهم » ، الحسنات ؛ و « عن شمائلهم » ، أى يحثهم على طلب الدنيا ، ويؤيسهم من الآخرة ، ويثبطهم عن الحسنات ، ويفريهم بالسيئات .

قوله : « ليقتمح غفلته » أى ليلج ويهجم عليه وهو غافل ؛ جعل اقتحامه إياه اقتحاما للغرّة نفسها لما كانت غالبه عليه .

ويستلب غرّته ، ليس المعنى باستلابه الغرّة أن يرفعها ويأخذها ، لأنه لو كان كذلك لصار ذلك الغافل المقترّ فاقدا للغفلة والغرّة ، وكان لبيا فطنا ، فلا يبقى له سبيل عليه ، وإنما المعنى بقوله : « ويستلب غرّته » ما يعنيه الناس بقولهم : أخذ فلان غفلى وفعل كذا .

ومعنى أخذها هنا أخذ ما يستدلّ به على غفلى .

وفلته : أمرٌ وقع من غير تثبت ولا رويّة .

ونزغة : كلمة فاسدة ، من نزغات الشيطان ، أى من حركاته القبيحة التي يستفسد بها مكلفين ، ولا يثبت بها نسب ، ولا يستحقّ بها إرث ، لأنّ المقرّ بالزنا لا يلحقه النسب ، ولا يرثه المولود ، لقوله صلى الله عليه وآله : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » .

[نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكتبه وخطبه]

فأما زياد ، فهو زياد بن عبيد ، ومن الناس من يقول : عبيد بن فلان ، وينسبه إلى

ثَقِيف ، والأكثرون يقولون : إن عبدا كان عبدا ، وإنه بقى إلى أيام زياد ، فابتاعه وأعتقه ؛ وسند كرم ما ورد في ذلك ونسبة زياد لغير أبيه لمحمول أبيه ، والدعوة التي استلحق بها ؛ وقيل تارة : زياد بن سميّة ، وهى أمه ، وكانت أمةً للحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج الثقفى ، طبيب العرب ، وكانت تحت عبيد .

وقيل تارة زياد بن أبيه ، وقيل تارة : زياد بن أمه ، ولما استلحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبى سُفْيَان ، لأن الناس مع الملوك الذين هم مظنة الرّهبة والرغبة ، وليس اتباع الدين بالنسبة إلى اتباع الملوك إلا كالتقطرة في البحر المحيط ، فأما ما كان يدعى به قبل الاستلحاق فزياد بن عبيد ، ولا يشك في ذلك أحد .

وروى أبو عمر بن عبد البرّ في كتاب "الاستيعاب" ، عن هشام بن محمد بن السائب الكلبيّ عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، أنّ عمر بعث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يُسمع مثلها - وأبوسفيان حاضر وعلىّ عليه السلام وعمرو بن العاص - فقال عمرو بن العاص : لله أبو هذا الغلام ! لو كان قرشياً لساق العرب بمصاه ؛ فقال أبو سفيان : إنه لقرشىّ ، وإنى لأعرف الذى وضعه في رحم أمّه ؛ فقال علىّ عليه السلام : ومن هو ؟ قال : أنا ؛ فقال : مهلا يا أبا سفيان ، فقال أبو سفيان :

أما والله لولا خوفُ شخصٍ يرانى يا علىّ من الأعداى
لأظهر أمره صخر بن حربٍ ولم يخفِ المقالة في زيادٍ
وقد طالت مجاملتى ثقيفاً وتركى فيهمُ ثمرَ الفؤادِ

عنى بقوله : « لولا خوف شخص » : عمر بن الخطاب (١) .

وروى أحمد بن يحيى البلاذري قال : تكلم زياد - وهو غلام حدث - بحضرة عمر
كلاماً أعجب الحاضرين ، فقال عمرو بن العاص : لله أبوه ! لو كان قرشياً لساق العرب
بعصاه ؛ فقال أبو سفيان : أما والله إنه لقرشي ، ولو عرفته لعرفت أنه خير من أهلك ؛
فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا والله وضعتُه في رَحِمِ أمِّه ، فقال : فهل تستلحقه ؟ قال : أخاف
هذا العيرَ الجالسَ أن يخرقَ عليَّ إهابي .

وروى محمد بن عمر الواقدي ، قال قال أبو سفيان وهو جالس عند عمر وعليُّ هناك ،
وقد تكلم زياد فأحسن : أبت المناقبُ إلا أن تظهرَ في شمائل زياد ؛ فقال عليُّ عليه
السلام : من أيِّ بني عبد مناف هو ؟ قال : ابني ؛ قال : كيف ؟ قال : أتيت أمَّه في الجاهلية
سِفاحا ! فقال عليُّ عليه السلام : مه يا أبا سفيان ! فإنَّ عمرَ إلى المساءِ سريع ؛ قال : فعرف
زياد مدار بينهما ، فكانت في نفسه .

وروى عليُّ بن محمد المدائني قال : لما كان زمن عليِّ عليه السلام ولَّى زيادا فارسَ
أو بعضَ أعمالِ فارسَ ، فضبطها ضبطاً صالحاً ، وجبى خراجها وسمها ، وعرف ذلك
معاوية ، فكتب إليه : أمّا بعد ، فإنه غرَّتكَ قِلاعُ تأوى إليها ليلاً ، كما تأوى الطيرُ إلى
وكرها ، وأيم الله لولا أنتظاري بك ما الله أعلم به لكان لك مني ما قاله العبد الصالح :
﴿ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (١) .
وكتب في أسفل الكتاب شعراً من جملته :

تَنسَى أَبَاكَ وَقَدْ شَأَلَتْ نِعَامَتَهُ
إِذْ يَخْطُبُ النَّاسَ وَالْوَالِي لَهُمْ عَمْرُ

فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس ، وقال : العجب من ابن آكلة
الأكباد ، ورأس النفاق ! يهددني ويني وبينه ابن عمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله
وزوج سيِّدة نساء العالمين ، وأبو السَّبطين ، وصاحب الولاية والمنزلة والإخاء في مائة ألف

- من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ! أما والله لو تخطى هؤلاء أجمعين إلى لوجدنى أحمراً محشاً^(١) ضرباً بالسيف ، ثم كتب إلى عليّ عليه السلام ، وبعث بكتاب معاوية في كتابه .

فكتب إليه عليّ عليه السلام ، وبعث بكتابيه :

أما بعد ، فإني قد وليتكم ما وليتكم وأنا أراك لذلك أهلاً ، وإنه قد كانت من أبي سُفيان فلتة في أيام عمر من أمانى التيه وكذب النفس ، لم تستوجب بها ميراثاً ، ولم تستحقّ بها نسباً ، وإن معاوية كالشيطان الرجيم يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذره ، ثم احذره ، ثم احذره ؛ والسلام .

وروى أبو جعفر محمد بن حبيب قال : كان عليّ عليه السلام قد وليّ زيادةً قطعةً من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلما قُتل عليّ عليه السلام بقيّ زياد في عمله ، وخاف معاويةُ جانبه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمالاته الحسن بن عليّ عليه السلام . فكتب إليه :

من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سُفيان إلى زياد بن عبيد ، أما بعد ، فإنك عبد قد كفرت النعمة ، واستدعيت النعمة ، ولقد كان الشكرُ أولى بك من الكفر ، وإن الشجرة لتضرب بعرقها ، وتتفرّع من أصلها ، إنك - لأأمّ لك بل لا أب لك - قد هلكت وأهلكت ، وظننت أنك تخرج من قبضتي ، ولا ينالك سلطاني ، هيات ! ما كلُّ ذى لبّ يصيب رأيه ، ولا كلُّ ذى رأيٍ ينصح في مشورته . أمس عبدٌ واليوم أمير ! خطة ما ارتقاها مثلك يابن سمّية ، وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدمك حققت ، ونفسك تداركت ، وإلا اختطفتك

(١) الخش : الماضى الجرىء ، وفى ب : « مخبا » ، والصواب ما أثبتته من ا .

بأضعف ريش^(١) ، ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسماً مبروراً ألا أوتى بك إلا في زمارة^(٢) ،
تمشى حافياً من أرض فارس إلى الشام حتى أقيمك في السوق ، وأبيعك عبداً ، وأردك إلى
حيث كنت فيه وخرجت منه . والسلام .

فلما ورد الكتاب على زياء غضب غضباً شديداً ؛ وجمع الناس وصعد المنبر . فحمد الله
ثم قال : ابن آكلة الأكباد وقاتلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومسرّ النفاق ، ورئيس
الأحزاب ، ومن أفتق ماله في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرعد ويرق عن سحابة جفل
لا ماء فيها ، وعمّا قليل تصيرها الرياح قزعا ، والذي يدلني على ضعفه تهدده قبل القدرة ؛
أفمن إسفاق على تندر وتعدّر ! كلا ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وقمّع لمن ربي^(٣)
بين صواعق تهامة ، كيف أرهبه وبينى وبينه ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وابن
ابن عمّه في مائة ألف من المهاجرين والأنصار ، والله لو أذن لي فيه ، أو ندبني إليه ، لأريته
الكواكب نهارة ؛ ولأسمعته ماء الخردل . دونه الكلام اليوم ، والجمع غدا ، والمشورة
بعد ذلك إن شاء الله . ثم نزل .

وكتب إلى معاوية :

أمّا بعد ، فقد وصل إلى كتابك يا معاوية ، وفهمت ما فيه ، فوجدتكم
كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحباب ، ويتعلق بأرجل الضفادع ، طمعا في الحياة .
إنما يكفر النعم ، ويستدعى النقم من حادّ الله ورسوله ، وسعى في الأرض فسادا .
فأمّا سبّك لي فلولا حلم ينهاني عنك ، وخوف أن أدعى سفيها ، لأثرت لك نخازي لا
يغسلها الماء . وأمّا تعييرك لي بسميّة ، فإن كنت ابن سميّة فانت ابن جماعة ، وأمّا زعمك
أنك تحتظني بأضعف ريش ، وتتناولني بأهون سعى ، فهل رأيت بازياً يفضعه صغير

(١) بأضعف ريش ؛ يريد بأضعف قوة ؛ وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقووه ويستردوه .

(٢) أى في جماعة زمارة ترمز حولك بالزامير لتشهيرك والتشيع عليك .

(٣) كذا في ١ ، وفي ب : « ربي » .

القنبار ، أم هل سمعت بذئبٍ أكَهه خروف ! فأَمْضِ الآنَ لِطَيْبَتِكَ ، وَأَجْتَهِدْ جَهْدَكَ ،
فلستُ أَنْزِلُ إِلَّا بِمِثِّ تَكْرِهِ ، وَلَا أَجْتَهِدُ إِلَّا فِيمَا يَسُوءُكَ ، وَتَسْتَعْلَمُ أَيُّنَا الْخَاضِعُ لِصَاحِبِهِ ،
الطالع إليه . والسلام .

فلما ورد كتابُ زيادٍ على معاويةَ نَحَمَّه وأَحْزَنه ، وَبَعَثَ إِلَى المَغِيرَةَ بنِ شَعْبَةَ ، فَنَحَلَاهُ بِهِ
وَقَالَ : يَا مَغِيرَةَ ، إِنِّي أُرِيدُ مِشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرِ أَهْمَنِي ، فَأُنصَحْنِي فِيهِ ، وَأَشِيرُ عَلَيَّ بِرَأْيِ
المُجْتَهِدِ ، وَكُنْ لِي أَوْ كُنْ لَكَ ، فَقَدْ خَصَصْتُكَ بِسِرِّي ، وَأَثَرْتُكَ عَلَيَّ وَكَدَى . قَالَ المَغِيرَةَ : فَمَا
ذَلِكَ ؟ وَاللَّهِ لَتَجِدَنِي فِي طَاعَتِكَ أَمْضَى مِنَ المَاءِ إِلَى الحُدُورِ ، وَمَنْ ذِي الرِّوْنُقِ فِي كَفِّ البَطْلِ
الشُّجَاعِ . قَالَ : يَا مَغِيرَةَ ، إِنَّ زِيَادًا قَدْ أَقَامَ بِفَارَسٍ يَكُشُّ لَنَا كَشِيشَ الأَفَاعِي ، وَهُوَ رَجُلٌ
ثَاقِبُ الرَّأْيِ ، مَاضِي العَزِيمَةِ ، جَوَّالِ الفِكْرِ ، مُصِيبٌ إِذَا رَمَى ؛ وَقَدْ خَفْتُ مِنْهُ الآنَ مَا كُنْتُ
أَمَنَهُ إِذْ كَانَ صَاحِبَهُ حَيًّا ، وَأَخْشَى مَمَالَاتِهِ حَسَنًا ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهِ ، وَمَا الحِيلَةُ فِي
إِصْلَاحِ رَأْيِهِ ؟ قَالَ المَغِيرَةَ : أَنَا لَهُ إِنْ لَمْ أَمُتْ ؛ إِنْ زِيَادًا رَجُلٌ يَجِبُ الشُّرْفُ وَالدُّكْرُ وَصَعُودُ
النَّابِ ، فَلَوْ لَاطَفْتَهُ المَسْأَلَةَ ، وَأَلْنَتَ لَهُ الكِتَابَ ، لَكَانَ لَكَ أَمِيلٌ ، وَبِكَ أَوْثَقٌ ، فَأُكْتُبُ
إِلَيْهِ وَأَنَا الرِّسُولُ .

فكتب معاوية إليه :

مِنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ بنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى زِيَادِ بنِ أَبِي سُفْيَانَ ، أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ المَرءَ
رَبَّمَا طَرَحَهُ الهَوَى فِي مَطَارِحِ العَطَبِ ، وَإِنَّكَ لَمَرءٌ المَضْرُوبُ بِهِ المِثْلُ ، قَاطِعِ الرِّحْمِ ، وَوَاوِصِلُ
العَدُوِّ . وَحَمَلَكِ سِوَى ظَنِّكَ بِي ، وَبَغَضُكَ لِي ، عَلَيَّ أَنْ عَقَقْتَ قَرَابَتِي ، وَقَطَعْتَ رَحْمِي ،
وَبِتَّتَ ^(١) نَسْبِي وَحُرْمَتِي ؛ حَتَّى كَمَا أَنَّكَ لَسْتَ أَخِي ، وَليْسَ صَخْرَ بنِ حَرْبِ أبَاكَ وَأَبِي ،
وَشَتَّانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أَطْلُبُ بِدَمِ ابْنِ أَبِي العَاصِ ^(٢) وَأَنْتَ تَقَاتِلُنِي ! وَلَكِنْ أَدْرَكَكَ
عَرْقُ الرِّخَاوَةِ مِنَ قَبْلِ النِّسَاءِ ، فَكُنْتَ :

(١) بتت : قطعت .

(٢) أي عثمان ؛ وهو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية .

كْتَارِكَةٍ بَيَّضَهَا بِالْعَرَاءِ وَمُلْحَفَةٍ بَيَّضَ أُخْرَى جِنَاحًا

وقد رأيتُ أن أعطفَ عليك ، ولا أؤاخذُك بسوءِ سعيك ، وأن أصلَ رحمك ، وأبتغي الثوابَ في أمرِك ، فاعلمُ أبا المغيرة ، أنك لو خضتَ البحرَ في طاعةِ القومِ فتضربَ بالسيفِ حتّى انقطعَ منتهى ما ازددتَ منهمُ إلا بعدا ؛ فإن بنى عبدِ شمسٍ أبغضُ إلى بنى هاشمٍ من الشفرةِ إلى الثورِ الصّريعِ وقد أوثقَ للذبحِ ؛ فارجع - رحمك اللهُ - إلى أصلك ، واتّصل بقومك ، ولا تكن كالوصولِ بريش^(١) غيره ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسبِ . ولعمري ما فعلَ بك ذلكُ إلا اللجاجُ ، فدعه عنك ، فقد أصبحتَ على بينةٍ من أمرِك ، ووضوحٍ من حجّتِك ، فإن أحببتَ جانبي ، ووثقتَ بي ، فأمرّةٌ بأمرةٍ ، وإن كرهتَ جانبي ، ولم تثقَ بقولي ، ففعلَ جميلٌ لا على ولا لى . والسلام .

فرحل المغيرةُ بالكتابِ حتّى قدمَ فارسَ ، فلمّا رآه زيادٌ قرّبهُ وأدناه ولطفَ به فدفعَ إليه الكتابَ ، فجعلَ يتأمّله ويضحكُ ، فلمّا فرغَ من قراءته وضعه تحتَ قدمه ثم قال : حسّبك يا مغيرة ! فإنّي أطّلع على ما في ضميرِك ، وقد قدمتَ من سفرةٍ بعيدةٍ ، فقم وأرخِ رِكَابك . قال : أجل ، فدع عنك اللجاجَ يرحمك اللهُ ، وارجع إلى قومك ، وصل أخاك ، وانظر لنفسك ، ولا تقطعَ رحمك ! قال زياد : إنّي رجلٌ صاحبُ أناةٍ ، ولى في أمرى رويّةٌ ، فلا تعجلَ علىّ ، ولا تبدأني بشيءٍ حتى أبدأك . ثمّ جمعَ الناسَ بعد يومين أو ثلاثة ، فصعدَ المنبرَ فحمدَ اللهَ وأثنى عليه ثم قال : أيّها الناسَ : ادفعوا البلاءَ ما اندفعَ عنكم ، وادعوا إلى اللهِ في دوامِ العافيةِ لكم ، فقد نظرتُ في أمورِ الناسِ منذ قتلِ عثمانَ ، وفكّرتُ فيهم فوجدتهم كالأضاحي ، في كلِّ عيدٍ يُذبحون ، ولقد أفضى هذان اليومان - يومَ الجملِ وصيفين - ما يُنيفُ على مائةِ ألفٍ ؛ كلّمهم يزعمُ أنّه طالبُ حقٍّ ، وتابعٌ إمامٍ ، وعلى بصيرةٍ من أمرِهِ ، فإن كان الأمرُ هكذا فالقاتلُ والمقتولُ في الجنةِ ، كلا

(١) ب : « كالوصول يطير بريش غيره » .

ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإني لخائف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئ بسلامة دينه ! وقد نظرتُ في أمر الناس فوجدتُ أحدَ العاقبتين العافية ، وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته ومعبّته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله ثم نزل .

وكتب جوابَ الكتاب :

أمّا بعد ، فقد وصل كتابك يا معاوية مع المغيرة بن شعبة وفهمت ما فيه ، فالحمد لله الذي عرفك الحق ، وردك إلى الصلّة ، ولست ممن يجهل معروفًا ، ولا يفغل حسبا ، ولو أردت أن أجيّبك بما أوجبتّه الحجّة ، واحتمله الجواب ، لطال الكتاب ، وكثر الخطاب ، ولكنك إن كنت كتبت كتابك هذا عن عقّد صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برًا ، فستزرع في قلبي مودة وقبولًا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفساد نية ، فإن النفس تأبى ما فيه العطب ، ولقد قتتُ يومَ قرأت كتابك مقاما يعبا به الخطيب الدرّه ، فتركت من حضر ، لا أهل ورد ولا صدر ، كالتحريين بمهمه صلّ بهم الدليل ، وأنا على أمثال ذلك قدير ، وكتب في أسفل الكتاب :

إذا معسرٍ لم يُنصِفوني وجدتني أدافع عنّي الضّيمَ ما دمتُ باقياً
وكم معسرٍ أعيّت قناتي عليهمُ فلاموا وألفوني لدى العزم ماضياً
وهممٌ به ضاقتُ صدورٌ فرجته وكنْتُ بطّبي للرجال مُداوياً
أدافع بالحلم الجهول مكيدةً وأخفي له تحت العِضاهِ الدّواهيا
فإن تدنُ مني أدنُ منك وإن تبَنُ تجدني إذا لم تدنُ مني نائياً

فأعطاه معاويةً جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقرّبه وأدناه ، وأقرّه على ولايته ، ثم استعمله على العراق .

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَدَائِنِيُّ ، قَالَ : لَمَّا أَرَادَ مَعَاوِيَةَ اسْتِلْحَاقَ زِيَادٍ وَقَدْ قَدِمَ عَلَيْهِ الشَّامَ جَمَعَ النَّاسَ وَصَعِدَ الْمَنْبَرَ ، وَأَصْعَدَ زِيَادًا مَعَهُ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الْمُرْقَاةِ الَّتِي تَحْتَ مِرْقَاتِهِ ، وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ نَسَبَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادٍ ؛ فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَهَادَةٌ فليَقُمْ بِهَا . فقام ناس فشهدوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سُفْيَانَ ؛ وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أَقْرَبَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ، فقام أَبُو مَرْيَمَ السَّلُولِيُّ - وَكَانَ خَمَارًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ - فَقَالَ : أَشْهَدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدِمَ عَلَيْنَا بِالطَّائِفِ ، فَأَتَانِي فَأَشْرَيْتُ لَهُ لَحْمًا وَخَمْرًا وَطَعَامًا ، فَلَمَّا أَكَلَ قَالَ : يَا أَبَا مَرْيَمَ ، أَصِيبَ لِي بَغِيًّا ، فَخَرَجْتُ فَأَتَيْتُ بِسُمِّيَّةِ ، فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ مِمَّنْ قَدْ عَرَفْتَ شَرَفَهُ وَجُودَهُ ، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَصِيبَ لَهُ بَغِيًّا ، فَهَلْ لَكَ ؟ فَقَالَتْ : نَعَمْ ، يَجِيءُ الْآنَ عَبْدٌ بَعِيدٌ بَعْنَمِهِ - وَكَانَ رَاعِيًا - فَإِذَا تَعَشَّى ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ أَتَيْتُهُ . فَخَرَجْتُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ فَأَعْلَمْتُهُ ، فَلَمْ نَلْبِثْ أَنْ جَاءَتْ تَجَرَّ ذَيْلَهَا ، فَدَخَلَتْ مَعَهُ ، فَلَمْ تَزَلْ عِنْدَهُ حَتَّى أَصْبَحَتْ ؛ فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا انْصَرَفَتْ : كَيْفَ رَأَيْتَ صَاحِبَتَكَ ؟ قَالَ : خَيْرَ صَاحِبَةٍ ، لَوْلَا ذَفَرٌ فِي إِبْطِهَا .

فَقَالَ زِيَادٌ مَنْ فَوْقَ الْمَنْبَرِ : يَا أَبَا مَرْيَمَ ، لَا تَشْتَمِ أُمَّهَاتِ الرِّجَالِ ، فَتَشْتَمِ أُمَّكَ .
فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مَعَاوِيَةَ وَمُنَاشَدَتُهُ قَامَ زِيَادٌ ، وَأَنْصَتَ النَّاسُ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ مَعَاوِيَةَ وَالشُّهُودَ قَدْ قَالُوا مَا سَمِعْتُمْ ، وَلَسْتُ أَدْرِي حَقَّ هَذَا مِنْ بَاطِلِهِ ! وَهُوَ وَالشُّهُودُ أَعْلَمُ بِمَا قَالُوا ، وَإِنَّمَا عَبِيدٌ أَبٌ مُبْرُورٌ ، وَوَالٍ مُشْكُورٌ . ثُمَّ نَزَلَ .

وَرَوَى شَيْخُنَا أَبُو عَثْمَانَ أَنَّ زِيَادًا مَرَّ وَهُوَ إِلَى الْبَصْرَةِ بِأَبِي الْعُرْيَانَ الْعَدَوِيَّ - وَكَانَ شَيْخًا مَكْفُوفًا ، ذَا لَسَنِ وَعَارِضَةً شَدِيدَةً - فَقَالَ أَبُو الْعُرْيَانَ : مَا هَذِهِ الْجَلْبَةِ ؟ قَالُوا : زِيَادُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، قَالَ : وَاللَّهِ مَا تَرَكَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَّا زَيْدًا وَمَعَاوِيَةَ وَعُتْبَةَ وَعَنْبَسَةَ وَحَنْظَلَةَ وَمُحَمَّدًا ، فَمَنْ أَيْنَ جَاءَ زِيَادٌ ؟ فَبَلَغَ الْكَلَامُ زِيَادًا ، وَقَالَ لَهُ قَائِلٌ : لَوْ سَدَدْتَ

عنك فَمَ هذا الكلب ! فأرسل إليه بمائتي دينار ، فقال له رسول زياد : إن ابن عمك زيادا الأمير قد أرسل إليك مائتي دينار لتنفقها ، فقال : وصلته رَحِم ! إى والله ابن عمى حقاً . ثم مرَّ به زياد من الغد في موكبه ، فوقف عليه فسلمَّ ، وبكى أبو العُريان ، فقيل له : ما يبكيك؟ قال: عرفتُ صوتَ أبي سُفَيان في صوت زياد . فبلغ ذلك معاوية ، فكتب إلى أبي العُريان :

مَا أَلْبَسْتِكَ الدنانيرُ التي بُعِثَتْ أَنْ لَوْنَتِكَ أبا العُريانِ أَلواناً
أَمَسَى إِلَيْكَ زياد في أرومته نُكُرا فأصبح ما أنكرت عِرْفانا
لِللهِ دَرٌّ زيادٍ لو تعجَّلها كانت له دون ما يخشاه قُرْبانا !

فلَمَّا قرئَ كتابُ معاوية على أبي العُريان قال : اكتب جوابه يا غلام :

أَحْدِثْ لِناصِلَةٍ تحميا النفوسُ بها قد كدت يابن أبي سُفَيان تَنسَانا
أَمَّا زيادٌ فقد صَحَّتْ مَناسِبُهُ عندي فلا أبتغى في الحقِّ بُهتاناً
مَنْ يُسَدِّ خيراً يُصَبِّه حينَ يَفْعَلُهُ أو يُسَدِّ شراً يُصَبِّه حينما كانا

وروى أبو عثمان أيضا ، قال : كتب زيادٌ إلى معاوية ليستأذنه في الحجِّ ، فكتب إليه ؛ إني قد أذنتُ لك واستعملتُك على الموسم ، وأجزتُك بألفِ ألفِ درهم . فيينا هو بتجهز إذ بلغ ذلك أبا بكرَةَ أخاه - وكان مُصارِماً له منذ لَجَلَج في الشهادة على المغيرة بن شعبه أيام عمر لا يكلمه قد لزمته أيمانٌ عظيمةٌ ألا يكلمه أبدا - فأقبل أبو بكرَةَ يدخل القصر يريد زيادا ، فبصُر به الحاجب ، فأسرع إلى زياد قائلاً : أيها الأمير ، هذا أخوك أبو بكرَةَ قد دخل القصر ؛ قال : ويحك ، أنت رأيتَه ! قال هاهو ذا قد طلع ، وفي حجر زيادِ بُنَيِّ يلاعبه ، وجاء أبو بكرَةَ حتَّى وقف عليه ، فقال للغلام : كيف أنت يا غلام ؟ إنَّ أباك ركب في الإسلام عظيماً ! زنى أمه ، وانتفى من أبيه ، ولا والله ما علمت سميّة رأته

أبا سُفْيَانَ قَطًّا ، ثم أبوك يريد أن يركب ما هو أعظم من ذلك ، يوافي الموسم غدًا ، ويوافي أمَّ حبيبة بنت أبي سُفْيَانَ ، وهي من أمَّهات المؤمنين ، فإن جاء يستأذن^(١) عليها فأذنت له ؛ فأعظم بها فرية على رسول الله صلى الله عليه وآله ومصيبة ! وإن هي منعته فأعظم بها على أبيك فضيحة ! ثم انصرف ، فقال : جزاك الله يا أخي عن النصيحة خيرًا ؛ ساخطًا كنت أوراظيا . ثم كتب إلى معاوية : إنني قد اعتلت عن الموسم فليوجه إليه أمير المؤمنين من أحبَّ ، فوجه عتبة بن أبي سُفْيَانَ .

فأمَّا أبو عمر بن عبد البرِّ في كتاب « الاستيعاب » ، فإنه قال : لما ادعى معاوية زيادًا في سنة أربع وأربعين وألحقه به أخًا زوج أخته من ابنه محمد بن زياد ليؤكد بذلك صحة الاستلحاق ، وكان أبو بكره أخا زيادٍ لأمه ، أمهما جميعًا سُمِّيَّة ، فحلف ألا يكلم زيادا أبداً وقال : هذا زنى أمه ، وأنتفى من أبيه ، ولا والله ما علمت سُمِّيَّة رأت أبا سُفْيَانَ قبل^(٢) ، ويأله ما يصنع بأم حبيبة ! أريد أن يراها ؟ فإن حجبتة فضحتة ؛ وإن رآها فيألفها مصيبة ! يهتك من رسول الله صلى الله عليه وآله حرمة عظيمة !

وحجَّ زياد مع معاوية ، ودخل المدينة فأراد الدخول على أم حبيبة ثم ذكر قول أبي بكره ، فانصرف عن ذلك . وقيل : إن أم حبيبة حجبتة ولم تأذن له في الدخول عليها ، وقيل : إنَّه حجَّ ولم يرد^(٣) المدينة من أجل قول أبي بكره ، وإنَّه قال : جزى الله أبا بكره خيرًا فما يدع النصيحة في حال .

وروى أبو عمر بن عبد البرِّ في هذا الكتاب قال : دخل بنو أمية وفيهم عبد الرحمن ابن الحكم على معاوية أيام ما استلحق زيادا ، فقال له عبد الرحمن : يا معاوية ، لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلة وذلة - يعني على بني أبي العاص . فأقبل معاوية

(١) ب : « أن يستأذن » . (٢) ١ والاستيعاب : « قط » . (٣) ١ : « يزر » .

على مروان وقال : أخرج عنا هذا الخليع ، فقال مروان : إى والله أنه خليع ما يطلق ، فقال معاوية : والله لولا حلمى وتجاوزى لعلمت أنه يطلق ، ألم يبلغنى شعره فى وفى زياد ! ثم قال مروان : أسمعنيه ، فأنشد :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ لقد ضاقت بما يأتى اليدانِ
أتغضب أن يقال أبوك عَفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانٍ !
فأشهد أن رَحْمَك من زيادٍ كرحمِ الفيلِ من ولدِ الأنانِ
وأشهد أنها حملت زيادا وصخرت من سُميَّة غيرُ دانِ^(١)

ثم قال^(٢) : والله لا أَرْضى عنه حتى يأتى زيادا فيترضاه ويعتذر إليه ، فجاء عبد الرحمن إلى زياد معتذرا يستأذن عليه ، فلم يأذن له ، فأقبلت قريش إلى زياد تكلمه فى أمر عبد الرحمن ، فلما دخل سلم ، فتشاور له زياد بعينه - وكان يكسر عينه - فقال له زياد : أنت القائل ما قلت ؟ قال عبد الرحمن : ما الذى قلت ؟ قال : قلت ما لا يقال ؛ قال : أصلح الله الأمير ! إنه لا ذنب لمن أعتب ، وإنما الصَّفح عمن أذنب ، فأسمع منى ما أقول ، قال : هات ، فأنشده :

إليك أبا المغيرة تبتمما جرى بالشام من خطل اللسان^(٣)
وأغضبت الخليفة فيك حتى دعاه فرط غيظ أن هجاني
وقلت لمن لحاني فى أعتداری^(٤) إليك أذهب فشأنك غير شانى

(١) بعدها فى الاستيعاب : « وهذه الأبيات تروى ليزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الشاعر ؛ ومن

رواها له جعل أولها :

ألا أبلغ معاوية بن حربٍ مغفلةً من الرجلِ اليماني

وذكر الأبيات كما ذكرناها سواء .

(٢) فى الاستيعاب : « وروينا أن معاوية قال حين أنشده مروان شعر أخيه عبد الرحمن : والله

لا أَرْضى . . .

(٤) الاستيعاب : « لمن يامنى » .

(٣) الاستيعاب : « من جور اللسان » .

عرفت الحقَّ بعد ضلالِ رأبي وبعد النغيِّ من زيغ الجنان
زيادٌ من أبي سُفيانِ غُصْنٌ تهادى ناضرا بين الجنان
أراك أخاً وعمّاً وابن عمِّ فما أدري بعيبٍ ما ترانى
وإنَّ زيادةً في آلِ حربٍ أحبُّ إليَّ من وَسْطى بنانى
ألا أبلغ معاوية بنَ حربٍ فقد ظفرتُ بما تأتى اليدانِ

فقال زياد : أراك أحمق صرِّفاً شاعراً ضيع اللسان ، يسوغ لك ريقك ساخطا ومسخوطاً ،
ولكننا قد سمعنا شعرك ، وقبلنا عذرك ؛ فهات حاجتك ؟ (١) قال : تكتب إلى أمير المؤمنين
بالرضا عني ، قال : نعم ، ثم دعا كاتبه فكتب له بالرضا عنه (١) ، فأخذ كتابه ومضى
حتى دخل على معاوية ، فلما قرأه قال : لخاله زيادا ، لم يتنبه لقوله :

* وإنَّ زيادةً في آلِ حربٍ *

ثم رضى عن عبد الرحمن وردّه إلى حالته .

وأما أشعار يزيد بن مفرغ الحميريِّ وهجاؤه عبيد الله وعبادا ؛ ابني زياد بالدعوة

فكثيرة مشهورة ، نحو قوله :

أعبادُ ما للوَمِ عنك تحوُّلٌ (٢)

ولا لك أمٌّ من قريش ولا أبٌ

وقل لعبيد الله مالك والدٌ

بحقِّ ولا يدرى امرؤ كيف تنسبُ

ونحو قوله :

شهدت بأنَّ أمك لم تُباشِرْ أبا سُفيانِ واضعة القناعِ

(١ - ١) الاستيعاب : « قال : كتاب إلى أمير المؤمنين بالرضا عني ، قال : نعم ، ثم دعا كاتبه فقال :

اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان ؛ فإنني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو ؛ أما بعد فإنه . . . وذكر الخير » .

(٢) ١ : « محول » .

ولكن كان أمره فيه لبسٌ على حذرٍ شديدٍ وارتجاعٍ
إذا أودى معاوية بنُ حربٍ فبشرُ شعبَ قعبك بانصِداحٍ

ونحو قوله :

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بكرَ—رةً عندي من أعجب العَجَبِ
هم رجالٌ ثلاثةٌ خُلِقُوا في رَحْمِ أنثى وكلُّهم لأبٍ
ذا قرشيٌّ كما تقول وذا مولى وهذا بزعمه عَرَبِيٌّ (١)

كان عبید الله بن زياد يقول : ما شجيتُ بشيءٍ أشدَّ علىَّ من قول ابن مفرِّغٍ :
فكرٌ فني ذاك إن فكرتَ معتبرٌ هل نلتَ مكرمةً إلا بتأمير !
عاشت سميَّةٌ ما عاشت وما علمتُ أنَّ ابنها من قريش في الجماهير

ويقال : إنَّ الأبيات النونية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أمِّ الحكم ليزيد بن مفرِّغٍ

وأن أولها :

ألا أبلغُ معاوية بن حربٍ مغلغلةً من الرَجُلِ اليماني

ونحو قوله ، وقد باعَ برد غلامه لما حبسه عبَّاد بن زياد بسجستان :

يا بُرْدُ ما مسَّنا دهرٌ أضرَّ بنا من قبل هذا ولا بعنا له ولداً
لامتنى النفسُ في بُرْدٍ فقلتُ لها لا تهلكي إثر بُرْدٍ هكذا كمدا
لولا الدعى ولولا ما تعرَّض بي من الحوادث ما فارقتَه أبداً

ونحو قوله :

أبلغُ لديك بني قحطان مألِكَةً عَضَّتْ بأيرِ أبيها سادةُ اليمين
أضحى دعى زياد ففَعَّ قَرقرَةً يا للعجائب يلهو بابن ذى يَزَن !

(١) كذا في الاستيعاب ، وفي ب : « وهذا ابن عمه » .

وَرَوَى ابْنُ الْكَلْبِيِّ أَنَّ عَبَّادَ اسْتَلْحَقَهُ زِيَادٌ كَمَا اسْتَلْحَقَ مَعَاوِيَةَ زِيَادًا ؛ كَلَاهَا لِدَعْوَةٍ .
 قَالَ : لَمَّا أُذِنَ لَزِيَادٍ فِي الْحُجِّ تَجَهَّزَ ، فَبَيْنَا هُوَ يَتَجَهَّزُ وَأَصْحَابُ الْقُرْبِ يَعْرَضُونَ عَلَيْهِ قِرَابَهُمْ ،
 إِذْ تَقَدَّمَ عَبَّادٌ - وَكَانَ خَرَّازًا - فَصَارَ يَعْزِضُ عَلَيْهِ وَيُحَاوِرُهُ وَيُجِيبُهُ ، فَقَالَ زِيَادٌ : وَيْحَكَ ،
 مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا ابْنُكَ ؛ قَالَ : وَيْحَكَ ، وَأَيُّ بَنِيٍّ ؟ قَالَ : قَدْ وَقَعْتَ عَلَى أُمِّي فَلَانَةٌ ،
 وَكَانَتْ مِنْ بَنِي كَذَا ، فَوَلَدْتَنِي ، وَكَانَتْ فِي بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ لَهُمْ ، فَقَالَ :
 صَدَقْتَ وَاللَّهِ ؛ إِنِّي لِأَعْرِفُ مَا تَقُولُ . فَبِعَثَ فَأَشْتَرَاهُ ، وَادَّعَاهُ وَأَلْحَقَهُ ؛ وَكَانَ يَتَعَهَّدُ بِبَنِي قَيْسِ
 ابْنِ ثَعْلَبَةَ بِسَبِيهِ وَيُصَلِّهِمْ . وَعَظَّمَ أَمْرُ عَبَّادٍ حَتَّى وُلَّاهُ مَعَاوِيَةَ سِجِسْتَانَ بَعْدَ مَوْتِ زِيَادٍ ،
 وَوَلَّى أَخَاهُ عُبَيْدَ اللَّهِ الْبَصْرَةَ ، فَزَوَّجَ عَبَّادَ السُّتَيْرَةَ (١) ابْنَةَ أُنَيْفِ بْنِ زِيَادِ الْكَلْبِيِّ ، فَقَالَ
 الشَّاعِرُ يَخَاطِبُ أُنَيْفًا - وَكَانَ سَيِّدَ كَلْبٍ فِي زَمَانِهِ :

أَبْلَغُ لَدَيْكَ أَبَا تُرٍّ كَانَ مَأْلُكَةً (٢)	أَنَا مَّا كُنْتُ أُمُّ بِالسَّمْعِ مِنْ صَمَمٍ !
أَنْكَحْتَ عَبْدَ بَنِي قَيْسٍ مَهْدَبَةً	أَبَاؤُهَا مِنْ عَلِيمٍ مَعْدِنِ الْكَرَمِ
أَكُنْتُ تَجْهَلُ عَبَّادًا وَمَحْتَدَهُ	لَا دَرًّا دَرُّكَ أُمُّ أَنْكَحْتَ مِنْ عَدَمِ
أَبْعَدُ آلِ أَبِي سُفْيَانَ تَجْمَلُهُ	صِهْرًا وَبَعْدَ بَنِي مِرْوَانَ وَالْحَكَمِ !
أَعْظَمُ عَلَيْكَ بَذَا عَارًا وَمَنْقَصَةً	مَا دَمْتُ حَيًّا وَبَعْدَ الْمَوْتِ فِي الرَّحِمِ

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : ثَلَاثُ كُنٍّ فِي مَعَاوِيَةَ لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ إِلَّا وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ
 لَكَانَتْ مَوْبِقَةً : انْتِزَاؤُهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالسَّقْمَاءِ حَتَّى ابْتَرَّهَا أَمْرُهَا ، وَاسْتَلْحَاقَهُ زِيَادًا
 مُرَاغِمَةً لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ : « الْوَالِدُ لِلْفِرَاشِ ، وَاللِّعَاهُ الْحَجَرِ » ، وَقَتْلُهُ حُجْرَ بْنِ عَدِيِّ فَيَاوِيَلَهُ
 مِنْ حُجْرٍ وَأَصْحَابِ حُجْرٍ !

(١) كَذَا فِي ب : « الشُّتْرَةُ » . (٢) ب : « بَرَكَانٌ » .

وروى الشَّرْقِيُّ بن القَطَايِمِيِّ ، قال : كان سعيد بن سَرْحِ مولى حبيب بن عبد شمس شيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام : فلما قدم زياد الكوفة طلبه وأخافه ، فأتى الحسن بن عليّ عليه السلام مستجيراً به ، فوثب زياد على أخيه وولده وأمرأته فحبسهم ، وأخذ ماله ، ونقض داره . فكتب الحسن بن عليّ عليه السّلام إلى زياد :

أمّا بعد ، فإنك عمّدت إلى رجل من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهدمت داره ، وأخذت ما له ، وحبست أهله وعياله ؛ فإن أتاك كتابي هذا فأبني له داره ، وأردد عليه عياله وماله ، وشفّعتني فيه ، فقد أجرته . والسلام .

فكتب إليه زياد :

من زياد بن أبي سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، أمّا بعد ، فقد أتاني كتابك تبدأ فيه بنفسك قبل ، وأنت طالب حاجة ، وأنا سلطان وأنت سوقة ، وتأمرنني فيه بأمر المطاع المسلط على رعيتيه . كتبت إلى في فاسق آويته ، إقامة منك على سوء الرأي ، ورضاً منك بذلك ، وإيم الله لا تسبقني به ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإن نلت بعضك غير رفيق بك ولا مرع عليك ، فإن أحبّ لحم عليّ أن آكله للحم الذي أنت منه ، فسلمه بجريرته إلى من هو أولى به منك ، فإن عفوت عنه لم أكن شفّعتك فيه ، وإن قتلته لم أقتله إلا لحبه أباك الفاسق ؛ والسلام .

فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسّم ، وكتب بذلك إلى معاوية ، وجعل كتاب زياد عطفه ، وبعث به إلى الشام ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما : من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سمية ، أمّا بعد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : . « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » ؛ والسلام .

فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد : أمّا بعد ، فإن الحسن بن عليّ بعث إليّ بكتابك إليه جواباً عن كتاب كتبه

إليك في ابن سرح؛ فأكثر العجب منك، وعلمت أن لك رأيين: أحدهما من أبي سفيان،
والآخر من سمية، فأما الذي من أبي سفيان فحلم وحزم، وأما الذي من سمية، فما يكون
من رأى مثلها! من ذلك كتابك إلى الحسن تشتم أباه، وتعرض له بالفسق، ولعمري إنك
الأولى بالفسق من أيه. فأما أن الحسن بدأ بنفسه ارتفعا عليك، فإن ذلك لا يضعك لو
عقلت، وأما تسلطه عليك بالأمر فحق لمثل الحسن أن يتسلط، وأما ترك تشفيعه فيما
شفع فيه إليك، فخطأ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك. فإذا ورد عليك كتابي نخل
ما في يديك لسعيد بن أبي سرح، وابن له داره، واردد عليه ماله، ولا تعرض له،
فقد كتبت إلى الحسن أن يخيّره، إن شاء أقام عنده، وإن شاء رجع
إلى بلده، ولا سلطان لك عليه لا بيد ولا لسان. وأما كتابك إلى الحسن
باسمه واسم أمه، ولا تنسبه إلى أيه، فإن الحسن ويحك! من لا يرمى به
الرجوان^(١)، وإلى أي أم وكلمته لا أم لك! أما علمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى
الله عليه وسلم، فذاك أنخر له لو كنت تعلمه^(٢) وتعلمه! وكتب في أسفل الكتاب
شعرا، من جملته:

أما حسن فابن الذي كان قبله إذا سار سار الموت حيث يسير
وهل يلد الرئبال إلا نظيره وذا حسن شبه له ونظيره
ولكنه لو يوزن الحلم والحجا بأمر لقالوا يذبل وثبير

(١) الرجا: ناحية كل شيء، وخص بعضهم به ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها وحافتيها؛ ويقال:
رمى به الرجوان: استهين به، فكأنه رمى به هنالك؛ أرادوا أنه طرح في المهالك؛ قال:
لقد هزئت مني بنجران أن رأيت مقامي في الكبلين أم أبان
كأن لم ترى قبلي أميراً مكبلاً ولا رجلاً يرمى به الرجوان
أى لا يستطيع أن يستمسك. (٢) ساقطة من ب.

وروى الزبير بن بكار في «الموقفيات» أن عبد الملك أجرى خيلاً، فسبقه عبّاد بن

زياد، فأنشد عبد الملك :

سَبَقَ عَبَّادٌ وَصَلَّتْ لِحَيْتُهُ وَكَانَ خَرَّازاً تَجُودُ قَرْبَتُهُ

فشكى عبّاد قول عبد الملك إلى خالد بن يزيد بن معاوية، فقال له : أما والله لأنصفنك منه بحيث يكره . فزوجه أخته ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، إن منا كبح آل أبي سفيان قد ضاعت . فأخبر عبد الملك خالدا بما كتب به الحجاج ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أعلم امرأة منا ضاعت ونزلت إلا عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فإنها عندك ، ولم يَمِنِ الحجاج غيرك . قال عبد الملك : بل عنى الدعي ابن الدعي عبّادا ، قال خالد : يا أمير المؤمنين ، ما أنصفتني ، أدعي رجلا ثم لا أزوجه ! إنما كنت ملوما لو زوجت دعيمك ، فأما دعيم فلم لا أزوجه !

فأما أول ما ارتفع به زياد فهو استخلاف ابن عباس له على البصرة في خلافة علي عليه السلام ، وبلغت عليا عنه هنات ، فكتب إليه يلومه ويؤنبه ، فيها الكتاب الذي ذكر الرضى رحمه الله بعضه ، وقد شرحنا فيما تقدم ما ذكر الرضى منه ، وكان علي عليه السلام أخرج إليه سعداً مولاه يحثه على حمل مال البصرة إلى الكوفة ، وكان بين سعد وزياد ملاحاة ومنازعة ، وعاد سعد وشكاه إلى علي عليه السلام وعابه ، فكتب علي عليه السلام إليه :

أما بعد ، فإن سعداً ذكر أنك شتمته ظلماً ، وهددته وجبهته تجبراً وتكبراً ، فما دعاك إلى التكبر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الكبر رداء الله ، فن نازع الله رداءه قصمه » ، وقد أخبرني أنك تكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد ،

وتدَّهِنَ كُلَّ يَوْمٍ ، فَمَا عَلَيْكَ لَوْ صُمْتَ لِلَّهِ أَيَّامًا ، وَتَصَدَّقْتَ بِبَعْضِ مَا عِنْدَكَ مُحْتَسِبًا ، وَأَكَلْتَ طَعَامَكَ مَرَارًا قَفَّارًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ شِعَارُ الصَّالِحِينَ ! أَفَتَطْمَعُ وَأَنْتَ مَتَمَرِّغُ فِي النِّعَمِ ، تَسْتَأْثِرُ بِهِ عَلَى الْجَارِ وَالْمَسْكِينِ وَالضَّعِيفِ وَالْفَقِيرِ وَالْأَرْمَلَةَ وَالْيَتِيمَ ، أَنْ يُحْسَبَ لَكَ أَجْرُ الْمُتَصَدِّقِينَ ! وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَبْرَارِ ، وَتَعْمَلُ عَمَلَ الْخَاطِئِينَ ، فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَلِكَ فَنَفْسُكَ ظَلَمْتَ ، وَعَمَلُكَ أَجْبَطُ ، فَتَبُّ إِلَى رَبِّكَ يُصَلِّحُ لَكَ عَمَلَكَ ، وَاقْتَصِدْ فِي أَمْرِكَ ، وَقَدِّمْ إِلَى رَبِّكَ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ ، وَادَّهِنْ غَبًّا ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « ادَّهِنُوا غَبًّا وَلَا تَدَّهِنُوا رِفْهًا ^(١) » .

فكتب إليه زياد : أمَّا بعد يا أمير المؤمنين ، فإنَّ سعدًا قدِمَ عليَّ فأساءَ القولَ والعملَ ، فانتَهَرْتُهُ وَزَجَرْتُهُ ، وَكَانَ أَهْلًا لِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ . وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْإِسْرَافِ وَاتِّخَاذِ الْأَلْوَانِ مِنَ الطَّعَامِ وَالنَّعْمِ ، فَإِنَّكَ كَانَ صَادِقًا فَأَثَابَهُ اللَّهُ ثَوَابَ الصَّالِحِينَ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَوَقَاهُ اللَّهُ أَشَدَّ عِقَابِ الْكَاذِبِينَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : « إِنِّي أَصْفَ الْعَدْلِ وَأَخْلَفَهُ إِلَى غَيْرِهِ » ، فَإِنِّي إِذَنْ مِنَ الْأَخْسَرِينَ . نَحْذِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَقَالِ قَلْتَهُ فِي مَقَامِ قَتْتِهِ ؛ الدَّعْوَى بِالْبَيِّنَةِ ؛ كَالسَّهْمِ بِلا نَصْلِ ؛ فَإِنَّ أُنَاكَ بِشَاهِدِي عَدْلِي ؛ وَإِلَّا تَبَيَّنَ لَكَ كَذِبُهُ وَظُلْمُهُ .

ومن كلام زياد : تأخيرُ جزاءِ المحسنِ لؤمٌ ، وتعجيلُ عقوبةِ المسيءِ طيشٌ .
وكتب إليه معاوية : أمَّا بعد ، فاعزَّنْ حُرَيْثَ بْنَ جَابِرٍ عَنِ الْعَمَلِ ، فَإِنِّي لَا أَذْكُرُ مَقَامَاتِهِ بِصَفِينٍ إِلَّا كَانَتْ حَرَازَةَ فِي صَدْرِي ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ زِيَادُ :
أمَّا بعد ، فحَفِّضْ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ حُرَيْثًا قَدْ سَبَقَ شَرَفًا لَا يَرْفَعُهُ مَعَهُ عَمَلٌ ، وَلَا يَضَعُهُ مَعَهُ عَزْلٌ .

(١) الرفه والإرفاه : كبره التدهن والتنعيم .

وقال لابنه عبید الله : عليك بالحجاب ، وإنما اجترأتِ الرُّعاةُ على السَّبَّاعِ بكثرةِ نظرها إليها .

ومن كلامه : أحسنوا إلى أهل الخراج ، فإنَّكم لا تزالون سماناً ما سمنا .
قدّم رجلٌ خصاله إلى زياد في حقِّ له عليه وقال : أيها الأمير ، إنَّ هذا يُدِلُّ
بخاصة ذكر أنها له منك . قال زياد : صدق ، وسأخبرك بما ينفعه عندي من خاصته
ومودته ، إن يكن له الحقُّ عليك آخذك به أخذاً عنيفاً ، وإن يكن الحقُّ لك قضيتُ عليه ،
ثم قضيتُ عنه .

وقال : ليس العاقل من يحتال للأمر إذا وقع فيه ، لكنَّ العاقل من يحتال للأمر
ألا يقع فيه .

وقال في خطبة له : ألا ربَّ مسرورٍ بقُدومنا لا نسرّه ، وخائفٍ ضررنا لا نضرّه !
كان مكتوباً في الحيطان الأربعة في قصر زياد كتابة بالحصّ ، أربعة أسطر ؛ أولها :
الشدّة في غير عنف ، واللينُّ في غير ضعف . والثاني : الحسن مجازي بإحسانه ، والمسيء
يكافأ بإساءته . والثالث : العطيّات والأرزاق في إبانها وأوقاتها . والرابع : لا احتجاج
عن صاحب ثغرٍ ، ولا عن طارق ليل .

وقال يوم أعلی المنبر : إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة يشفي بها غيظه لا يقطع بها ذنب
عزٍّ فتضرّه ، لو بلغتنا عنه لسفكنا دمه .

وقال : ما قرأتُ كتابَ رجلٍ قطُّ إلاَّ عرفتُ عقله منه .

وقال في خطبة : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ ؛ فوالله
لا يأتيني ضيغٌ بشريف يستخفُّ به إلاَّ انتقمْتُ منه ، أو شابُّ بشيخ يستخفُّ به
إلاَّ أوجعته ضرباً ، ولا جاهلٌ بعالم يستخفُّ به إلاَّ انكلتُ به .

وقيل لزياد : ما الحظّ ؟ قال : أن يطولَ عمرُك ، وترى في عدوك ما يسرك .

قيل : كان زياد يقول : هما طريقان للعامة : الطاعة والسيف .

وكان المغيرة يقول : لا والله حتى يحمّوا على سبعين طريقا غير السيف .

وقال الحسن البصرى لرجل : ألا تحدّثني بخطبتي زياد والحجاج حين دخلا العراق !

قال : بلى ، أمّا زياد فلما قدم البصرة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد ، فإنّ معاوية غير

خوف على قومه ، ولم يكن ليُليحِق بنسبه من ليس منه ، وقد شهدت الشهود بما قد بلغكم ،

والحقّ أحقُّ أن يُتَّبَع ، والله حيث وضع البيّنات كان أعلم ، وقد رحلتُ عنكم وأنا

أعرف صديقي من عدوي ، ثمّ قدمتُ عليكم وقد صار العدوّ صديقا مناصحا ، والصديق

عدوا مكاشحا ، فليشتَمِل كلّ امرئٍ على ما في صدره ، ولا يكوننّ لسانه شفرةً تجري

على أوداجه ، وليعلم أحدُكم إذا خلا بنفسه أنّي قد حملتُ سيفي بيدي ، فإنّ أشهره

لم أغمده ، وإنّ أغمده لم أشهره . ثمّ نزل . وأمّا الحجاج فإنه قال : من أعيأه دأوه ،

فعلّى دواؤه ؛ ومن أستبطأ أجله ؛ فعلى أن أعجّله ؛ ألا إنّ الحزم والعزم استلبا مني

سوطي ، وجعلا سوطي سيفي ، فنجأه في عنقي ، وقأه بيدي ، وذبابه قلادة

لمن اغترّ بي .

فقال الحسن : البؤس لهما ، ما أغرّهما برّبهما ! اللهمّ أجعلنا ممن يعتبر بهما .

وقال بعضهم : ما رأيت زيادا كامرا إحدى عينيه ، واضعا إحدى رجليه على الأخرى

يخاطب رجلا إلا رحمتُ المخاطب .

ومن كلامه : نعم الشيء الإمارة ؛ لولا فقعة لجام البريد ، وتسنم ذرّوة المنبر .

قال لحاجبه : يا مجلان ، إنّي قد وليتكَ هذا الباب وعزلتكَ عن أربعة : النادى إذا

جاء يؤذّن بالصلاة ، فإنّها كانت كتابا موقوتا ، ورسول صاحب الثغر ، فإنه إنّ أبطأ

ساعةً فسدت تديبرُ سنة ، وطارق الليل فشرُّ ما جاء به ، والطَّبَّاحُ إذا فرغ من الطعام ، فإنه متى أعيد عليه التَّسخين فَسَدَ .

وكان حارثة بن بدر الغُدَّانِيّ قد غلب على زياد ، وكان حارثة مشتهراً بالشراب ، فقيل لزياد في ذلك ، فقال : كيف باطّراح رجل هو يسايرني منذ قدمت العراق فلا يصلُّ ركابُه ركابي ، ولا تقدّمني قطّ فنظرتُ إلى قفاه ، ولا تأخر عني فلويّت عنقي إليه ، ولا أخذ على الشمس في شتاء قطّ ، ولا الرّوح في صيف قطّ ، ولا سألته عن علم إلا ظننته لا يحسن غيره .

ومن كلامه : كفي بالبخل عارا أن أسمه لم يقع في حمد قطّ ، وكفي بالجود فخراً أن أسمه لم يقع في ذمّ قطّ .

وقال : ملاك السلطان الشدّة على المريب ، واللين للمحسن ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد .

وقال : ما أتيتُ مجلساً قطّ إلا تركتُ منه ما لو أخذته لكان لي ، وترك ما لي أحبُّ إليّ من أخذ ما ليس لي .

وقال : ما قرأتُ مثل كتب الرّبيع بن زياد الحارثيّ ، ما كتب إليّ كتاباً قطّ إلا في اجترار منفعة ، أو دفع مضرّة ، ولا شاورته يوماً قطّ في أمرٍ مبهم إلا وسبق إلى الرأي .

وقال : يُعجبني من الرجل إذا أتى مجلساً أن يعلم أين مكانه منه ، فلا يتعدّاه إلى غيره ، وإذا سيم خطّة خَسَفٍ أن يقول : « لا » بملء فيه .

فأما خطبة زياد المعروفة بالبراء - وإتّما سميت بذلك لأنّه لم يحمد الله فيها ، ولا صلّى على رسوله - فقد ذكرها عليّ بن محمّد المدائنيّ قال : قدّم زياد البصرة أميراً عليها أيام معاوية والفسق فيها فاشٍ جداً ، وأموال الناس منتهبة ، والسياسة ضعيفة ، فصعد المنبر فقال :

أما بعد، فإنّ الجاهليّة الجهلاء^(١)، والضلالة العمياء، والغىّ الموفد لأهله على النار، مافيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم؛ من الأمور العظام، يثبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تستمعوا ما أعدّ من الثواب الكثير لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته، في الزّمن السّرمذ الذي لا يزول.

أتكونون ممن طرفت عينه^(٢) الدنيا، وسدّت مسامعه الشهوات، واختار الفانية على الباقية! لا تذكرون^(٣) أنكم أحدثتم في الإسلام الحدّث الذي لم تسبقوا به؛ من تركم الضعيف يُقهر ويُؤخذ ماله^(٤)، والضعيفة المسلوّبة في النهار المُبصر، وهذا العدد غير قليل!

ألم يكن منكم نهاةً تمنع الغواية عن دلج الليل^(٥) وغارة النهار! قرّبتم القرابة، وبعدتم الذين يعتدرون بنسب العُدْر، ويُعطون^(٦) على المختلس، كلّ امرئ منكم يذب عن سيفه، صنيع^(٧) من لا يخاف عاقبة، ولا يرجو معادا. ما ما أنتم بالحلما، وقد أتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم حتّى انتهكوا حرمة^(٨) الإسلام، ثم أطرقوا وراءكم كُنوسا في مكائس الرّيب. حرّم على الطّعام والشراب حتّى أسويها بالأرض هدا وإحراقا! إنّي رأيتُ آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوّله! لين في غير ضعف، وشدّة في غير عنف. وأنا أقسم بالله لا أخذنّ الوليّ بالوليّ، والظّاعن بالظّاعن، والمقبل بالمدر، والصّحيح منكم في نفسه بالسّقيم، حتّى يلتقى الرجل أخاه

(١) الجاهلية الجهلاء؛ وصف على المبالغة، كما يقال: ليلة ليلاء، ويوم أيوم، وهمج هامج.

(٢) طرفت عينه الدنيا؛ أي صرفته عن الحق. (٣) ١: «أندكرون».

(٤) بعدها في البيان: «وهذه المواخير المنصوبة».

(٥) الدلج: السير من أول الليل؛ وقد أدلجوا، فإن ساروا من آخره فادّلجوا، بالتشديد.

(٦) ١ والبيان: «ويغضون على المختلس».

(٧) ١ والطبري: «صنع».

(٨) البيان: «حرم الإسلام».

فيقول : انجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدٌ^(١) ، أو تستقيم لي قناتكم .

إِنَّ كِذْبَةَ الْمَنْبَرِ تُتْلَى^(٢) مَشْهُورَةً ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَيَّ بِكَذْبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي !
مَنْ نَقِبَ عَلَيْهِ مِنْكُمْ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ . فَإِيَّاكُمْ وَدَلَجَ اللَّيْلِ ، فَإِنِّي لَا أُوتِي بِمُدْلِجٍ
إِلَّا سَفَكْتُ دَمَهُ . وَقَدْ أَجَلَّتْكُمْ بِقَدْرِ مَا يَأْتِي الْخُبْرَ الْكُوفَةَ ، وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ .

إِيَّاكُمْ وَدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنِّي لَا أَجِدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ ، وَقَدْ أَحْدَثْتُمْ
أَحْدَاثًا ، وَقَدْ أَحْدَثْنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةً ، فَمَنْ غَرَّقَ بِيوتَ قَوْمِ غَرْقَانِهِ ، وَمَنْ حَرَّقَ
عَلَى قَوْمِ حَرْقَانِهِ ، وَمَنْ نَقَبَ عَلَى أَحَدٍ بَيْنَنَا نَقَبْنَا عَلَى قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ
فِيهِ حَيًّا .

كَفُّوا عَنِّي أَيْدِيَكُمْ وَالسِّنَّتَكُمْ ، أَكْفَ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي . وَلَا يَظْهَرَنَّ مِنْ أَحَدِكُمْ
خِلَافٌ مَاعَلَيْهِ عَامَّتْكُمْ فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ . وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِحْنٌ فَقَدْ جَعَلْتَ ذَلِكَ
وَرَاءَ أُذُنِي ، وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ
عَنْ إِسَاءَتِهِ ؛ إِنِّي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السَّلَالَ^(٣) مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ عَنْهُ قِنَاعًا ،
وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ ، فَإِذَا فَعَلَ لَمْ أَنْظُرْهُ . فَأُسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ ،
وَأَعِينُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ ، فَرَبِّ مَبْتَسُ بِقَدُومِنَا سَيْسِرٌ ، وَمَسْرُورٌ بِقَدُومِنَا سَيِّئٌ .

أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَاةً ، نَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي
أَعْطَانَاهُ ، وَنَدُودُكُمْ بِفِيءِ اللَّهِ الَّذِي خَوَّلَنَا ، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحْبَبْنَا ،
وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ وَالْإِنصَافُ فِيمَا وَلِينَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيئَنَا بِمَنَاصِحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْلَمُوا
أَنِّي مَهْمَا قَصَّرْتُ عَنْهُ فَلَنْ أَقْصِرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ ،

(١) سعد وسعيد ، هما ابناضبة بن أد ، خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سعد فردّها ، وقتل

سعيد ، فكان ضبة إذا رأى سواداً تحت الليل قال : سعد أم سعيد !

(٢) ١ : « تبقى » ، وفي البيان : « بقاء مشهورة » .

(٣) البيان : « السل » .

ولا حابسا عطاءً ، ولا مجرماً^(١) بعثنا ، فادعوا الله بالصالح لأمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون ؛ ومتى يصلحوا اتصلحوا ، فلا تشربوا قلوبكم بغضهم ، فيشتد ذلك غيظكم ، ويطول لذلك حزنكم ، ولا تدرکوا حاجتكم ، مع أنه لو أستجيب لأحد منكم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كُله . وإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر ، فأتفدوه على أدلاله^(٢) . وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى .

فقام عبد الله بن الأهم فقال : أشهد أيها الأمير ؛ لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فقال : كذبت ، ذاك نبي الله داود .

فقام الأحنف فقال : إنما الشئاء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإننا لا نثنى حتى نبتلى ، ولا نحمد حتى نعطي .

فقال زياد : صدقت . فقام أبو بلال مرداس بن أدية يهمس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت ، [فقال] : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾^(٤) ، فسمعها زياد فقال : يا أبا بلال ، إننا لا نبلغ ما نريد بأصحابك حتى نخوض إليهم الباطل خوفاً^(٥) .

وروى الشعبي ، قال : قدم زياد الكوفة لما جمعت له مع البصرة ، فدنوت من المنبر لأسمع كلامه ، فلم أر أحدا يتكلم فيحسن إلا تمتت أن يسكت مخافة أن يسيء ، إلا زيادا فإنه كان لا يزداد إكثارا إلا ازداد إحسانا ، فكنت أتمنى إلا يسكت .

(١) تجمير الجند : أن يجبرهم في أرض العدو ويجبرهم عن العود إلى أهلهم .

(٢) على أدلاله ؛ على طريقه ووجهه ؛ واحده ذل ؛ وهو ما ذلل ومهد من الطريق .

(٣) من البيان .

(٤) بعدها في البيان : « وأنت تزعم أنك تأخذ البرى بالسقيم ، والمطيع بالعاصي والمقبل بالمدبر » .

(٥) الخطبة رواها الجاحظ في البيان والتبيين ٢ : ٦١ ؛ وهي أيضاً في عيون الأخبار ٢ : ٢٤١ ،

ونوادر القالي ١ : ١٨٥ ، والطبري (حوادث ٤٥)

وَرَوَى الشَّعْبِيُّ أَيضاً ، قَالَ : لَمَّا خَطَبَ زِيَادُ خُطْبَتَهُ الْبَتْرَاءَ بِالْبَصْرَةِ وَنَزَلَ سَمِعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ أَصْوَاتَ النَّاسِ يَتَحَارَسُونَ ، فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا : إِنَّ الْبَلَدَ مَفْتُونَةٌ ، وَإِنَّ الْمَرْأَةَ مِنْ أَهْلِ الْمَصْرِ لَتَأْخُذْهَا الْفِتْيَانُ الْفُسَّاقُ فَيَقَالُ لَهَا : نَادِي ثَلَاثَ أَصْوَاتٍ ، فَإِنَّ أَجَابَكَ أَحَدٌ وَإِلَّا فَلَا لَوْمَ عَلَيْنَا فِيمَا نَصْنَعُ . فَغَضِبَ فَقَالَ : فَمِيمَ أَنَا ، وَفِيمَ قَدِمْتَ ! فَلَمَّا أَصْبَحَ أَمَرَ فَنُودِيَ فِي النَّاسِ ، فَاجْتَمَعُوا فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي قَدْ نَبَّئْتُ بِمَا أَنْتُمْ فِيهِ وَسَمِعْتُ ذَرَوًا^(١) مِنْهُ ، وَقَدْ أَنْذَرْتُكُمْ وَأَجَلْتُكُمْ شَهْرًا مَسِيرَ الرَّجُلِ إِلَى الشَّامِ ، وَمَسِيرَهُ إِلَى خِرَاسَانَ ، وَمَسِيرَهُ إِلَى الْحِجَازِ ، فَمَنْ وَجَدَنَاهُ بَعْدَ شَهْرٍ خَارِجًا مِنْ مَنزِلِهِ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ فَدَمَهُ هَدَرًا . فَانصَرَفَ النَّاسُ يَقُولُونَ : هَذَا الْقَوْلُ كَقَوْلِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْأَمْرَاءِ ، فَلَمَّا كَمَلَ الشَّهْرَ دَعَا صَاحِبَ شَرْطَتِهِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ حُصَيْنِ الْيَرِيوَعِيِّ — وَكَانَتْ رِجَالُ الشَّرْطَةِ مَعَهُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ — فَقَالَ لَهُ : هَيَّيْ خَيْلَكَ وَرَجْلَكَ ، فَإِذَا صَلَّيْتَ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ ، وَقَرَأَ الْقَارِيءُ مَقْدَارَ سُبْعٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَرَفَعَ الطَّنُّ الْقَصْبَ مِنَ الْقَصْرِ ، فِسرٌ وَلَا تَلْقَيْنِ أَحَدًا ؛ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ فَمَنْ دُونَهُ ، إِلَّا جِئْتَنِي بِرَأْسِهِ ، وَإِنْ رَاجَعْتَنِي فِي أَحَدٍ ضَرَبْتُ عُنُقَكَ .

قَالَ : فَصَبَّحَ عَلَى بَابِ الْقَصْرِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ سَبْعًا رَأْسًا ، ثُمَّ خَرَجَ اللَّيْلَةَ الثَّانِيَةَ فِجَاءَ بِخَمْسِينَ رَأْسًا ، ثُمَّ خَرَجَ اللَّيْلَةَ الثَّلَاثَةَ فِجَاءَ بِرَأْسٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ لَمْ يَجِءْ بَعْدَهَا بِشَيْءٍ ، وَكَانَ النَّاسُ إِذَا صَلُّوا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ أَحْضَرُوا إِلَى مَنَازِلِهِمْ شِدًّا حَثِيثًا ، وَقَدْ يَتْرِكُ بَعْضُهُمْ نِعَالَهُ .

كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى زِيَادٍ كِتَابًا ، فَلَمْ تَدْرِ مَا تَكْتُبُ عِنَوَانَهُ ! إِنْ كَتَبْتُ زِيَادَ بْنَ عُبَيْدِ أَوْ ابْنَ أَبِيهِ أَغْضَبْتَهُ ، وَإِنْ كَتَبْتُ زِيَادَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ أُمَّتٌ ، فَكَتَبْتُ : مِنْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ابْنِهَا زِيَادٍ . فَلَمَّا قَرَأَهُ ضَحِكَ ، وَقَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذَا الْعِنَوَانِ نَصَبًا !

(١) ذرأوا : أى طرفاً .

(٤٥)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف الأنصاري - وكان عامله على البصرة ، وقد بلغه أنه دعى إلى ولية قوم من أهلها فمضى إليها - قوله :

أَمَّا بَعْدُ يَا بَنَ حُنَيْفٍ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادِبَةٍ فَاسْرَعْتَ إِلَيْهَا ، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ . وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ عَائِلُهُمْ مَجْفُوفٌ ، وَغَنِيَهُمْ مَدْعُوفٌ . فَانظُرْ إِلَى مَا تَقْضِيهِ مِنْ هَذَا الْمُقْضَمِ ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظْهُ ، وَمَا أَيَقَنْتَ بِطَيِّبِ وَجْهِهِ فَانلِ مِنْهُ .

أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ ، وَيَسْتَضِي بِنُورِ عِلْمِهِ ؛ أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدْ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطَمْرِيهِ ، وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصِيهِ . أَلَا وَإِنَّكُمْ لَا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ ، فَوَاللَّهِ (١) مَا كَثُرَتْ مِنْ دُنْيَاكُمْ تَبْرًا ، وَلَا ادْخَرْتُ مِنْ غَنَائِمِهَا وَفَرًا ، وَلَا أَعْدَدْتُ لِبَالِي ثَوْبِي طِمْرًا ، وَلَا خُرْتُ مِنْ أَرْضِهَا شِبْرًا ، وَلَا أَخَذْتُ مِنْهُ إِلَّا كَقُوتِ أَتَانٍ دَبْرَةٍ ، وَلَهِيَ فِي عَيْنِي أَوْهَى مِنْ عَفْصَةِ مَقْرَةٍ .

الشرح :

[عثمان بن حنيف ونسبه]

هو عثمان بن حنيف - بضم الحاء - بن واهب بن العكم بن ثعلبة بن الحارث الأنصاري

(١) ب : « اللهم » .

ثم الأوسى أخو سهل بن حنيف ، يكنى أبا عمرو - وقيل : أبا عبد الله - عمل لعمر ثم لعلي عليه السلام ، وولاه عمر مساحة الأرض وجبايتها بالعراق ، وضرب الخراج والجزية على أهلها ، وولاه علي عليه السلام على البصرة ، فأخرجه طلحة والزبير منها حين قدمها ، وسكن عثمان الكوفة بعد وفاة علي عليه السلام ، ومات بها في زمن معاوية .

* * *

قوله : « من فتية البصرة » ، أى من فتيانها ، أى من شبابها أو من أسخياتها ؛ يقال للسخي : هذا فتى ، والجمع فتية وفتيان وفتو ؛ ويروى : « أن رجلا من قطان البصرة » ، أى سكانها .

والمأذبة ، بضم الدال : الطعام يدعى إليه القوم ، وقد جاءت بفتح الدال أيضا ، ويقال : أدب فلان القوم يأديهم بالكسر ، أى دعاهم إلى طعامه ، والأدب : الداعى إليه ، قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر^(١)

ويقال أيضا : أدبهم إلى طعامه يؤدبهم إيدابا ؛ ويروى : « وكثرت عليك الجفان فكرعت وأكلت أكل ذئب نهم ، أو ضبع قريم » .

وروى : « وما حسبتك تأكل طعام قوم » .

ثم ذم أهل البصرة فقال : « عائلهم محفو ، وغنيهم مدعو » ، والعائل : الفقير ، وهذا كقول الشاعر :

فإن تملق فانت لنا عدو فإن تثر فانت لنا صديق

(١) ديوانه ٧٩ . المشتاة : زمن الشتاء . والجفلى : أن يعم المرء بدعوته إلى الطعام ولا يخص أحدًا دون الآخر . والانتقار : أن يدعو النقرى ؛ وهى أن يخص بدعوته ولا يعيها .

ثم أمره بأن يترك ما فيه شبهة إلى ما لا شبهة فيه ، وسمي ذلك قضا ومقضا وإن كان مما لا يقضم لاحتقاره له ، وازدرائه إياه ، وأنه عنده ليس مما يستحق أن يسمي بأسماء المرغوب فيه ، المتنافس عليه ، وذلك لأن القضم يطلق على معنيين : أحدها على أكل الشيء اليابس ، والثاني على ما يؤكل ببعض الفم ؛ وكلاهما يدلان على أن ذلك المقضم المرغوب عنه ، لا فيه .

ثم ذكر عليه السلام حال نفسه فقال : « إن إمامكم قد قنع من الدنيا بطمريه » ، والطمر : الثوب الخلق البالي ، وإنما جعلها اثنين لأنهما إزارٌ ورداء لا بدّ منهما ، أى للجسد والرأس .

قال : « ومن طعمه بقرصيه » ، أى قرصان يفطر عليهما لاثالث لهما . وروى : « قد اكتفى من الدنيا بطمريه ، وسدّ فورة جوعه بقرصيه ، لا يطعم الفلذة في حويله إلا في يوم أضحية » .

ثم قال : إنكم لن تقدروا على ما أقدر عليه ، ولكني أسألكم أن تعينوني بالورع والاجتهاد .

ثم أقسم أنه ما كنز ذهبا ، ولا ادخر مالا ، ولا أعدّ ثوبا باليا سملا لبالي ثوبيه ، فضلا عن أن يعدّ ثوبا قشياً كما يفعله الناس في إعداد ثوب جديد ليلبسوه عوض الأسمال التي ينزعونها ، ولا حاز من أرضها شبرا ، والضمير في « أرضها » يرجع إلى « دنياكم » ، ولا أخذ منها إلا كقوت أتانٍ دبّرة ، وهى التى عقر ظهرها فقلّ أكلها .

ثم قال : « وهى فى عيني أهون من عَفْصَة مَقْرَة » ، أى مُرّة ، مقر الشيء بالكسر أى صار مرّاً ، وأمقره بالهمز أيضا ، قال لبيد :

مَمْقِرٌ مُرٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ وَعَلَى الْأَدْنَيْنِ حُلُوٌّ كَالْعَسَلِ (١)

الأصل :

بَلَى كَانَتْ فِي أَيْدِينَا فَدَكَ مِنْ كُلِّ مَا أَظَلَّتْهُ السَّمَاءُ ، فَشَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ ،
وَسَخَتْ عَنْهَا نُفُوسُ آخَرِينَ ، وَنِعْمَ الْحَكْمُ اللَّهُ . وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَاكَ وَغَيْرِ فَدَاكَ ،
وَالنَّفْسُ مَظَانُّهَا فِي غَدٍ جَدَثٌ تَنْقَطِعُ فِي ظِلْمَتِهِ آثَارُهَا وَتَغَيِبُ أَخْبَارُهَا ، وَخُفْرَةٌ
لَوْ زِيدَ فِي فُسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدَا حَافِرِهَا ، لِأَضْغَطِهَا الْحَجْرُ وَالْمَدْرُ ، وَسَدَّ فُرْجَهَا
الْتَرَابُ الْمُتْرَاكِمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أَرُوضَهَا بِالتَّقْوَى لِتَأْتِيَ آمِنَةً يَوْمَ الْخَوْفِ الْأَكْبَرِ ،
وَتَثْبُتُ عَلَى جَوَانِبِ الْمَزْلُوقِ .

الشرح :

الجدث : القبر ، وأضغطها الحجر : جعلها ضاغطة ، والهمزة للتعدية ، و يروى :
« وضغطها » .

وقوله : « مظانها في غد جدث » ، المظان : جمع مظنة ، وهو موضع الشيء ومألفه
الذي يكون فيه ، قال :

فإن يكُ عمرٌ قد قال جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب^(١)

يقول : لا مال لي ، ولا اقتنيتُ فيما مضى مالا ، وإنما كانت في أيدينا فدك فشحت
عليها نفوس قوم ، أى بخلتُ وسختُ عنها نفوس آخرين ، أى ساحت وأغضتُ .
وليس يعنى ها هنا بالسخاء إلا هذا ، لا السخاء الحقيقي ، لأنه عليه السلام وأهله
لم يسمحوا بفدك إلا غصبا وقسرا ؛ وقد قال هذه الألفاظ في موضع آخر فيما تقدم ،
وهو يعنى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ثم قال : « ونعم الحَكَمَ اللهُ » ، الحَكَمَ : الحَاكِمَ ، وهذا الكلامُ كلامُ شاكٍ متظلمٍ ، ثم ذكر مالَ الإنسانِ وأنه لا ينبغي أن يكثرَ بالقيَّيناتِ والأموالِ ، فإنه يصير عن قريب إلى دارِ البليِّ ومنازلِ الموتى .

ثم ذكر أن الحُفْرَةَ ضيِّقةٌ ، وأنه لو وسَّعها الحافر لأجأها الحجر المتداعى والمدَر المتهافت ، إلى أن تضغط الميت وتزحمه . وهذا كلامٌ محمولٌ على ظاهره ، لأنَّه خطابٌ للعامة ، وإلا فأىَّ فرَقٍ بين سعة الحُفْرَةِ وضيِّقها على الميت ! اللهمَّ إِلاَّ أن يقول قائل : إنَّ الميت يحسُّ في قبره ، فإذا قيل ذلك فالجاعل له حساساً بعد عدم الحسِّ هو الذى يوسِّع الحفرة ، وإن كان الحافر قد جعلها ضيِّقة ؛ فإنَّ هذا الكلامُ جيِّدٌ لخطابِ العربِ خاصَّةً ، ومن يحمِلُ الأمورَ على ظواهرها .

ثم قال : « وإنما هي نفسى أروضها بالتقوى » ، يقول : تَقَلُّى واقتصارى من المطعم والمَلْبَسِ على الجسِّبِ والجسِّبِ رياضةٌ لنفسى ، لأنَّ ذلك إنما أعمله خوفاً من الله أن أنغمس فى الدنيا ، فالرياضةُ بذلك هي رياضةٌ فى الحقيقة بالتقوى ، لا بنفس التقلُّلِ والتششُّفِ ، لتأتى نفسى آمنةً يومَ الفزعِ الأكبرِ ، وتثبت فى مداحضِ الزَّلَّاتِ .

[ذكر ما ورد من السِّيرِ والأخبارِ فى أمرِ فدك]

واعلم أنا تتكلَّم فى شرح هذه الكلمات بثلاثة فصول :

الفصل الأوَّلُ فيما ورد فى الحديثِ والسِّيرِ من أمرِ فدك ، والفصل الثانى فى هل النبىِّ صَلَّى اللهُ عليه وآله يورث أم لا ؟ ، والفصل الثالث فى أن فدك ؛ هل صحَّ كونها نِحْلَةً من رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وآله لفاطمة أم لا ؟

الفصل الأول : فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم ،
لا من كتب الشيعة ورجالهم ، لأننا مشترطون على أنفسنا ألا نحفل بذلك ، وجميع ما نورده
في هذا الفصل من كتاب أبي بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري في السقيفة وفدك
وما وقع من الاختلاف والاضطراب عقب وفاة النبي صلى الله عليه وآله ؛ وأبو بكر
الجوهري هذا عالم محدث كثير الأدب ، ثقة ورع ، أثنى عليه المحدثون ورووا عنه
مصنفاً له .

قال أبو بكر : حدثني أبو زيد عمر بن شبة قال : حدثنا حيّان بن بشر ، قال : حدثنا
يحيى بن آدم ، قال : أخبرنا ابن أبي زائدة ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري قال :
بقيت بقية من أهل خير تحصنوا ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله أن يحقن دماءهم
ويُسِرَّهم ، ففعل ، فسمع ذلك أهل فدك^(١) فنزلوا^(٢) على مثل ذلك ، وكانت للنبي صلى الله
عليه وآله خاصة ، لأنه لم يُوجف عليها بخيل ولا ركاب .

قال أبو بكر : وروى محمد بن إسحاق أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما فرغ
من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله
فصالحوه على النصف من فدك ، فقدمت عليه رسلهم بخير أو بالطريق ، أو بعد ما أقام
بالمدينة ، فقبل ذلك منهم ، وكانت فدك لرسول الله صلى الله عليه وآله خالصة له ، لأنه
لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب .

قال : وقد روى أنه صالحهم عليها كلها ، الله أعلم أي الأمرين كان .

قال : وكان مالك بن أنس يحدث عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم أنه صالحهم
على النصف فلم يزل الأمر كذلك حتى أخرجهم عمر بن الخطاب وأجلاهم بعد أن عوضهم
عن النصف الذي كان لهم عوضاً من إبل وغيرها .

(١) فدك : قرية بالحجاز ، بينها وبين المدينة يومان .

(٢) في « وكانوا » .

وقال غير مالك بن أنس : لما أجلاهم عمرُ بعث إليهم من يقوم الأموال ، بعث أبا الهيثم بن التيهان ، وفرّوة بن عمرو ، وحُباب بن صخر ، وزيد بن ثابت ، فقوموا أرضَ فدك ونخلها ، فأخذها عمر ، ودفع إليهم قيمة النصف الذي لهم ، وكان مبلغ ذلك خمسين ألفَ درهم ، أعطاهم إياها من مالٍ أتاه من العراق ، وأجلاهم إلى الشام .

قال أبو بكر : محدثي محمد بن زكريا قال : حدثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي قال : حدثني أبي ، عن الحسين بن صالح بن حيّ ، قال : حدثني رجلان من بني هاشم ، عن زينب بنت عليّ بن أبي طالب عليه السلام . قال : وقال جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين عن أبيه . قال أبو بكر : وحدثني عثمان بن عمران العجفيّ ، عن نائل بن نجيع بن عمير بن شبر ، عن جابر الجعفيّ ، عن أبي جعفر محمد بن عليّ عليه السلام . قال أبو بكر : وحدثني أحمد بن محمد بن يزيد ، عن عبد الله بن محمد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله ابن حسن بن الحسن . قالوا جميعا : لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماعُ أبي بكر على منعها فدك ، لاثت خمارها ، وأقبلت في لُمةٍ من حَفَدَتِها ونساء قومها ، تطأ في ذيولها ، ما تحرم مشيتها مشية رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، حتى دخلت على أبي بكر وقد حشد الناس من المهاجرين والأنصار ، فضرب بينها وبينهم رِيْطَةً بيضاء - وقال بعضهم : قُبْطِيَّة ، وقالوا : قُبْطِيَّة بالكسر والضم - ثم أنت أنةٌ أجهش لها القوم بالبكاء ، ثم أمهلت طويلا حتى سكنوا من فورهم ، ثم قالت : أبتدئُ بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد ، الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم . وذكر خطبةً طويلةً جيّدة قالت في آخرها : « فاتقوا الله حقُّ تقاته ، وأطيعوه فيما أمركم به ، فإنما يخشى الله من عباده العلماء ، واحمدوا الله الذي لعظمته ونوره يبتغي من في السموات والأرض إليه الوسيلة ، ونحن وسيلته في خلقه ، ونحن خاصته ، ومحلّ قدسه ، ونحن حجّته في غيبه ، ونحن ورثة

أُنبيائه ، ثم قالت : أنا فاطمة أُنبة محمد ، أقول عوداً على بدء ، وما أقول ذلك سرّاً ولا شططاً ، فأسمعوا بأسماع واعية ، وقلوب راعية ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) فَإِنْ تَعَزَّوْهُ تَجِدُوهُ أَبِي دُونَ آبَائِكُمْ ، وأخا ابن عمّي دون رجالكم ، ثم ذكرت كلاماً طويلاً سنذكره فيما بعد في الفصل الثاني ، تقول في آخره : ثم أنتم الآن تترعمون أن لا إرثَ لي ؛ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) إِيهَا مَعَاشِرَ الْمَسْهِينِ ، ابْتَزُّ إِرْثَ أَبِي ! أَبِي اللَّهِ أَنْ تَرِثَ يَا بِنَ أَبِي قُحَافَةَ أَبَاكَ وَلَا أَرِثَ أَبِي ، لقد جئت شيئاً فرياً ! فدونهاكها مخطومةً مرَّ حولةً تلقاك يومَ حشرك ، فنعم الحُكْمُ اللهُ ، والزعيمُ محمد ، والموعِدُ القيامة ، وعند الساعة يَحْسِرُ المِبْطُلُونَ ، ولكلِّ نبيٍّ مستقرٌّ وسوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ويحملُّ عليه عذابَ مقيمٍ ! ثم التفتت إلى قبرِ أبيها فتمثلت بقول هند بنت أُمّانة :

قد كان بعدك أنباءً وهينمةً لو كنت شاهدَها لم تكثُرِ الخطبُ (٣)
أبدتُ رجالٌ لنا نجوى صدورهمُ لما قضيتَ وحالتِ دونكِ الكُتُبُ
تجهمتنا رجالٌ وأستخفَّ بنا إذا غبتَ عنّا فنحن اليومَ نُقتصبُ

قال : ولم ير الناسُ أكرهًا لك ولا باكيةً منهم يومئذ . ثم عدلت إلى مسجد الأنصار فقالت : يامعشر البقيّة ، وأعضاء الملة ، وحضنة الإسلام ، ما هذه الفترة عن نُصرتي ، والوئيّة عن معونتي ، والغمزة في حقّي ، والسنة عن ظلامتي ! أما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « المرءُ يحفظ في ولده » ! سرعان ما أحدثتم ، ومجّلان ما أتيتم . ألأن مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليه وآله أمتمُّ دينه ! ها إن موتَه لعمري خطبٌ جليلٌ أستوسع وهنه ،

(١) سورة التوبة ١٢٨ ، ١٢٩ . (٢) سورة المائدة ٥٠ .

(٣) الهينمة : الصوت الخفي ، وانظر اللسان .

واستبهم فتقّه ، وقُدِرَاتِقُهُ ، وأظلمت الأرض له ، وخشعت الجبال ، وأكُدت الآمال .
 أُضِيعَ بعده الحريم ، وهُتِكت الحرمه ، وأذيلت المصونة ، وتلك نازلة أعلن بها كتاب
 الله قبل موته ، وأنبأكم بها قبل وفاته ، فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
 الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
 اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ^(١) أيها بني قَيْلَة ! اهتضم تراث أبي ، وأنتم بمرأى
 ومسمع ، تبلغكم الدعوة ، ويشملكم الصوت ، وفيكم العُدَّة والعدد ، ولكم الدار والجنن
 وأنتم نخبة الله التي انتخب ، وخيرته التي اختار ! باديتم العرب ، وبادهتم الأمور ، وكلختم
 البهم حتى دارت بكم رَحَى الإسلام ، ودرّ حلبه ، وخبّت نيران الحرب ، وسكنت فورة
 الشُّرك ، وهذأت دعوة الهرج ، واستوثق نظام الدين ، أفنأخرتم بعد الإقدام ، ونكصتم
 بعد الشدّة ، وجبّتم بعد الشجاعة ، عن قوم نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في
 دينكم ! فقاتلوا أُمَّة الكُفْر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا وقد أرى أن قد أخذتم
 إلى الخفض ، وركنتم إلى الدّعة ، فجحدتم الذي وعيتم ، وسُعتم الذي سوغتم ، وإن
 تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد ، ألا وقد قلت لكم ما قلت على
 معرفة منى بالخذلة التي خامرتكم ، وخور القناة ، وضعف اليقين ، فدونكموها فاحتوها
 مدبرة الظهر ، ناقبة الخفّ ، باقية العار ، موسومة الشعار ، موصولة بنار الله الموقدة ، التي
 تطلع على الأفئدة ، فبعين الله ما تعملون ﴿ وسيعلم الذي ظلموا أيّ منقلب ينقلبون ﴾ .

قال : وحدّثني محمد بن زكريا قال : حدّثنا محمد بن الضحّاك قال : حدّثنا هشام بن
 محمد ، عن عوانة بن الحُكم قال : لما كلمت فاطمة عليها السلام أبا بكر بما كلمته به حمّد
 أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال : يا خَيْرَة النساء ، وابنة خير الآباء ، والله
 ما عدوت رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما علمت إلا بأمره ، وإنّ الرائد

لا يكذب أهله ، وقد قلت فأبلغت ، وأغلظت فأهجرت ، فغفر الله لنا ولك . أما بعد ، فقد دفعت آلة رسول الله ودابته وحذاءه إلى عليّ عليه السلام ، وأما ما سوى ذلك فإني سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً وَلَا أَرْضًا وَلَا عَقَارًا وَلَا دَارًا ، وَلَكِنَّا نُورِثُ الْإِيمَانَ وَالْحِكْمَةَ وَالْعِلْمَ وَالسَّنَةَ » ، فقد عملت بما أمرني ، ونصحت له ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنِيب .

قال أبو بكر : وروى هشام بن محمد ، عن أبيه قال : قالت فاطمة لأبي بكر : إن أمّ أيمن تشهد لي أن رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَعْطَانِي فَذَكَ ، فقال لها : يا ابنة رسول الله ، والله ما خلق الله خالقاً أحبّ إليّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أبيك ، ولوددتُ أن السماء وقعت على الأرض يوم مات أبوك ، والله لأن تفتقر عائشة أحبّ إليّ من أن تفتقرى ، أتراني أعطى الأحمر والأبيض حقّه وأظلمك حقك ، وأنت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! إن هذا المال لم يكن للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان مالاً من أموال المسلمين يحمل النبيّ به الرجال ، وينفقه في سبيل الله ، فلما توفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليته كما كان يليه . قالت : والله لا كلمتك أبدا ! قال : والله لا هجرتك أبدا ؛ قالت : والله لأدعون الله عليك ؛ قال : والله لأدعون الله لك ، فلما حضرته الوفاة أوصتُ ألا يصليّ عليها ، فدفنتُ ليلاً ، وصلى عليها عباس بن عبد المطلب ، وكان بين وفاتها ووفاة أبيها اثنتان وسبعون ليلة .

قال أبو بكر : وحدثني محمد بن زكريا ، قال : حدثنا جعفر بن محمد بن عمارة بالإسناد الأول قال : فلما سمع أبو بكر خطبتها شقّ عليه مقاتلها فصعد المنبر وقال : أيها الناس ، ما هذه الرّعة إلى كلّ قالة ! أين كانت هذه الأمانى في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ألا من سمع فليقتل ، ومن شهد فليتكلم ، إنما هو ثعالة شهيد ذنبه ، مُرَبٌّ لكلِّ فتنة ، هو الذى يقول : كروها جذعة بعدما هرمت ، يستعينون بالضعفة ، ويستنصرون بالنساء ، كأمِّ طِحَالٍ أحبَّ أهلها إليها البغى . ألا إني لو أشاء أن أقول لقلتُ ولو قلتُ لُبِحتُ ، إني ساكتٌ ماتركت . ثم التفت إلى الأنصار فقال : قد بلغنى يامعشر الأنصار مقالة سفهاؤكم ، وأحق من لزم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنتم . فقد جاءكم فأوَّيتم وناصرتهم ، ألا إني لستُ باسطايداً ولا لساناً على من لم يستحق ذلك منّا .

ثم نزل ؛ فانصرفت فاطمة عليها السلام إلى منزلها .

قلت : قرأتُ هذا الكلام على النقيب أبي يحيى جعفر بن يحيى بن أبي زيد البصرى وقلتُ له : بمن يعرض ؟ فقال : بل يصرِّح . قلتُ : لو صرِّح لم أسألك . فضحك وقال : بعلى بن أبي طالب عليه السلام ، قلت : هذا الكلام كله لعلى يقوله ! قال : نعم ، إنه الملك يا بنى ، قلت : فما مقالة الأنصار ؟ قال : هتفوا بذكر علىِّ بخاف من اضطراب الأمر عليهم ، فهاهم . فسألته عن غريبه ، فقال : أما الرِّعة بالتخفيف ، أى الاستماع والإصغاء ؛ والقالة : القول ، وثُعالة : اسم الثعلب علم غيرُ مصروف ، ومِثْل ذُوالة للذئب ، وشهيد ذنبه ، أى لا شاهد له على ما يدعى إلا بعضه وجزء منه ، وأصله مثل ، قالوا : إن الثعلب أراد أن يغرى الأسد بالذئب ، فقال : إنه قد أكل الشاة التى كنت قد أعدتها لنفسك ، وكنت حاضراً ، قال : فمن يشهد لك بذلك ؟ فرفع ذنبه وعليه دم ، وكان الأسد قد افتقد الشاة . فقبل شهادته ، وقتل الذئب ، ومُرَبٌّ : ملازم ، أربَّ بالمكان . وكروها جذعة : أعيدوها إلى الحال الأولى ، يعنى الفتنة والهرج . وأمِّ طِحَالٍ : امرأةٌ بغى في الجاهلية ، ويضرب بها المثل فيقال : أزنى من أمِّ طِحَالٍ .

قال أبو بكر : وحدّثني محمد بن زكريّا قال : حدّثني ابن عائشة ، قال : حدّثني أبي ، عن عمّه قال : لما كملت فاطمة أبا بكر بكى ، ثم قال : يا بنت رسول الله ، والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهما ، وإنّه قال : إن الأنبياء لا يورثون ، فقالت : إن فداك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب عليه السلام فشهد ، وجاءت أمّ أيمن فشهدت أيضاً ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها ، قال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدق على ، وصدقت أمّ أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أنّ مالك لأبيك ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ من فداك قوتكم ، ويقسم الباقي ، ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ؛ قال : فلك على الله أن أصنع فيها كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ! قال : الله لأفعلن ، قالت : اللهم أشهد ؛ وكان أبو بكر يأخذ غلّتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ، ويقسم الباقي ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك ؛ فلما ولى الأمر معاوية بن أبى سفيان أقطع مروان بن الحكم ثلثها ، وأقطع عمرو بن عثمان بن عفان ثلثها ، وأقطع يزيد بن معاوية ثلثها ، وذلك بعد موت الحسن بن على عليه السلام ؛ فلم يزالوا يتداولونها حتى خلصت كلها لمروان بن الحكم أيام خلافته ، فوهبها لعبد العزيز أبنه ، فوهبها عبد العزيز لابنه عمر بن عبد العزيز ، فلما ولى عمر بن العزيز الخلافة ، كانت أوّل ظلامة ردّها ، دعا حسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب عليه السلام - وقيل : بل دعا على بن الحسين عليه السلام - فردّها عليه ، وكانت بيد أولاد فاطمة عليها السلام مدّة ولاية عمر بن عبد العزيز ، فلما ولى يزيد بن عاتكة قبضها منهم ، فصارت فى أيدي بني مروان كما كانت يتداولونها ، حتى أنتقلت الخلافة عنهم ، فلما ولى أبو العباس السفاح ردّها على عبد الله

ابن الحسن بن الحسن ، ثم قبضها أبو جعفر لما حدث من بني حسن ما حدث ، ثم ردها المهديّ ابنه على ولد فاطمة عليها السلام ، ثم قبضها موسى بن المهديّ وهارون أخوه ، فلم تزل في أيديهم حتى ولي المأمون ، فردّها على الفاطميّين .

قال أبو بكر : حدثني محمد بن زكريا قال : حدثني مهديّ بن سابق ، قال : جلس المأمون للعظام ، فأولّ رُقعة وقعت في يده نظر فيها وبكى ، وقال للذي على رأسه : نادِ أين وكيلُ فاطمة ؟ فقام شيخ عليه دُرّاعة وعمامة وحُفّ تعزّيّ ، فتقدّم فجعل ينظره في فدك والمأمون يحتجّ عليه وهو يحتجّ على المأمون ، ثم أمر أن يسجّل لهم بها ، فكتب السجّل وقرئ عليه ، فأنفذه ، فقام دِعبل إلى المأمون فأنشدته الأبيات التي أولّها :

أصبحَ وجهُ الزّمان قد ضحكا بردَ مأمونٍ هاشمٍ فدكا^(١)

فلم تزل في أيديهم حتى كان في أيّام المتوكّل ، فأقطعها عبد الله بن عمر البازيار ، وكان فيها إحدى عشرة نخلّة غرّسها رسولُ الله صلى الله عليه وآله بيده ، فكان بنو فاطمة يأخذون ثمرها ، فإذا قدم الحجاج أهدوا لهم من ذلك التمر فيصّلونهم ، فيصير إليهم من ذلك مال جزيل جليل ، فصرم^(٢) عبد الله بن عمر البازيار ذلك التمر ، ووجه رجلا يقال له بشران بن أبي أميّة الثقفي إلى المدينة فصرمه ، ثم عاد إلى البصرة ففُلج .

قال أبو بكر : أخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا سويد بن سعيد والحسن بن عثمان قالا : حدثنا الوليد بن محمد ، عن الزّهريّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ فاطمة عليها السلام أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهي حينئذ تطلب ما كان لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمدينة وفدك ، وما بقي من خمس خيبر ، فقال أبو بكر :

(١) ديوانه ١١٩ ، معجم البلدان (فدك) . (٢) صرم النخل : جذه وقطعه .

إن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا نُورَث ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ » ، إِنَّمَا يَأْكُل
آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا أَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَبِي أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا ، فَوَجِدَتْ
مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَهَجْرَتِهِ فَلَمْ تَكَلِّمْهُ حَتَّى تُوَفِّيَتْ ، وَعَاشَتْ بَعْدَ أَبِيهَا سِتَّةَ أَشْهُرٍ ،
فَلَمَّا تُوَفِّيَتْ دَفَنَهَا عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ لَيْلًا ، وَلَمْ يُؤْزَنْ بِهَا أَبُو بَكْرٍ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَخْبَرَنَا أَبُو زَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِدْرِيسَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ
ابْنِ أَحْمَدَ ، عَنْ مَعْمَرٍ ، عَنِ الزُّهْرِيِّ ، عَنْ عُرْوَةَ ، عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّ فَاطِمَةَ وَالْعَبَّاسَ أَتَيَا أَبَا بَكْرٍ
يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهِيَ حِينَئِذٍ يَطْلُبَانِ أَرْضَهُ بِفَدَكٍ وَسَهْمِهِ
بِخَيْرٍ ، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَا نُورَث ،
مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ » ، إِنَّمَا يَأْكُلُ كُلُّ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْمَالِ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ أَمْرًا
رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَصْنَعُهُ إِلَّا صَنَعْتُهُ . قَالَ : فَهَجْرَتُهُ فَاطِمَةَ فَلَمْ تَكَلِّمْهُ
حَتَّى مَاتَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَخْبَرَنَا أَبُو زَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عَاصِمٍ . وَمَوْسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ :
حَدَّثَنَا حَمَادُ بْنُ سَلَمَةَ ، عَنِ الْكَلْبِيِّ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ أُمِّ هَانِيٍّ ، أَنَّ فَاطِمَةَ قَالَتْ
لَأَبِي بَكْرٍ : مَنْ يَرِثُكَ إِذَا مِتَّ ؟ قَالَ : وَوَلَدِي وَأَهْلِي ؛ قَالَتْ : فَمَا لَكَ تَرِثُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ دُونَنا ؟ قَالَ : يَا ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ ، مَا وَرَثَ أَبُوكَ دَارًا وَلَا مَالًا وَلَا ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً ،
قَالَتْ : بَلَى سَهْمَ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ لَنَا ، وَصَارَ فَيْئِنَا الَّذِي بِيَدِكَ ، فَقَالَ لَهَا : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أُطْعِمَهَا اللَّهُ ، فَإِذَا مِتَّ كَانَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ » .
قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَخْبَرَنَا أَبُو زَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا
مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ ، عَنِ الْوَلِيدِ بْنِ جَمِيعٍ ، عَنْ أَبِي الطَّفِيلِ قَالَ : أُرْسِلْتُ فَاطِمَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ :

أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال: بل أهله؛ قالت: فما بال سهم رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله أطعم نبيه طعمة»، ثم قبضه، وجعله للذي يقوم بعده، فوليت أنا بعده، على أن أردده على المسلمين، قالت: أنت وما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله أعلم.

قلت: في هذا الحديث عجب، لأنها قالت له: أنت ورثت رسول الله صلى الله عليه وآله أم أهله؟ قال: بل أهله؛ وهذا تصريح بأنه صلى الله عليه وآله موروث يرثه أهله، وهو خلاف قوله: «لا نورث». وأيضا فإنه يدل على أن أبا بكر استنبط من قول رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله أطعم نبيا طعمة أن يجرى رسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاته مجرى ذلك النبي صلى الله عليه وآله، أو يكون قد فهم أنه عنى بذلك النبي المنكر لفظا نفسه، كما فهم من قوله في خطبته، إن عبدا خيره الله بين الدنيا وما عند ربه، فاختر ما عند ربه، فقال أبو بكر: بل نفديك بأنفسنا.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: أخبرنا القعني قال: حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة، أن فاطمة طلبت فداك من أبي بكر، فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن النبي لا يورث»، من كان النبي يعوله فإنا أعوله، ومن كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفق عليه فإنا أنفق عليه. فقالت: يا أبا بكر؛ أيرثك بناتك ولا يرث رسول الله صلى الله عليه وآله بناته؟ فقال: هو ذاك. قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير قال: حدثنا فضيل بن مرزوق قال: حدثنا البحترى بن حسان قال: قلت لزيد بن علي عليه السلام وأنا أريد أن أهجن أمهـ أبي بكر، إن أبا بكر انتزع فداك من فاطمة عليها السلام، فقال، إن أبا بكر كان رجلا

رحيما ، وكان يكره أن يغير شيئا فعَلَهُ رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنته فاطمة فقالت : إن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطاني فدك ، فقال لها : هل لك على هذا بيّنة ؟ فجاءت بعلي عليه السلام ، فشهد لها ، ثم جاءت أمّ أيمن فقالت : ألسنا تشهدان أنّي من أهل الجنة ! قالوا : بلى . قال أبو زيد يعني أنّها قالت لأبي بكر وعمر . قالت : فأنا أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله أعطها فدك ، فقال أبو بكر : فرجل آخر أو امرأة أخرى لتستحقّ بها القضيّة . ثم قال أبو زيد : وإيم الله لو رجع الأمر إلىّ لقصيتُ فيها بقضاء أبي بكر .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا محمد بن الصباح قال : حدّثنا يحيى بن المتوكل أبو عقيل ، عن كثير النوال قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي عليه السلام : جعلني الله فداك ! رأيت أبا بكر وعمر ، هل ظلماكم من حقكم شيئا . أو قال : ذهبنا من حقكم بشيء ؟ فقال : لا ، والذي أنزل القرآن على عبده ليكون للعالمين نذيرا ، ما ظلمنا من حقنا مثقال حبة من خردل ؛ قلت : جعلت فداك أفأتولاهما ؟ قال : نعم ويحك ! تولّهما في الدنيا والآخرة ، وما أصابك في عنقي ، ثم قال : فعل الله بالمغيرة وبُنان ، فإنهما كذبا علينا أهل البيت .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعبيّ ، عن مالك عن الزهريّ ، عن عروة ، عن عائشة أنّ أزواج النبي صلى الله عليه وآله أردنّ لما توفّي أنّ يبعثن عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهنّ . أو قال ثمنهنّ . قالت : فقلت لهنّ : أليس قد قال النبيّ صلى الله عليه وآله « لا نُورث ، ما تركنا صدقة » .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد ، قال : حدّثنا عبد الله بن نافع والقعبيّ وبشر بن عمر ، عن مالك ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله . قال : « لا يقسم ورثتي ديناراً ولا درهما ، ما تركتُ بعد نفقة نساءي ومثونة عيالي فهو صدقة » .

قلت : هذا حديث غريب ، لأن المشهور أنه لم يرو حديث انتفاء الإرث إلا أبو بكر وحده .

وقال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد ، عن الحزاعي ، عن ابن وهب ، عن يونس عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « والذى نفسى بيده لا يقسم ورثتى شيئاً ، ما تركت صدقة » ، قال : وكانت هذه الصدقة بيدِ عليٍّ عليه السلام ، غلب عليها العباس ، وكانت فيها خصومتها ، فأبى عمرُ أن يقسما بينهما حتى أعرض عنها العباس وغلب عليها عليه السلام ، ثم كانت بيدِ حسن وحسين ابني عليٍّ عليه السلام ، ثم كانت بيدِ عليٍّ بن الحسين عليه السلام والحسن بن الحسن ، كلاهما يتداولانها^(١) ، ثم بيد زيد بن عليٍّ عليه السلام .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثنا عثمان بن عمر بن فارس ، قال : حدثنا يونس ، عن الزهرى ، عن مالك بن أوس بن الحدثان ، أن عمر بن الخطاب دعاه يوماً بعد ما ارتفع النهار ، قال : فدخلتُ عليه وهو جالس على سرير رمال ليس بينه وبين الرمال فراش ، على وسادة آدم ، فقال : يا مالك ، إنه قد قدم من قومك أهلُ آيات حضروا المدينة ، وقد أمرت لهم برضح^(٢) فاقسمه بينهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، مُرْ بذلك غيرى ، قال : أقسم أيها المرء .

قال : فبينما نحن على ذلك إذ دخل يرفاً ، فقال : هل لك في عثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير يستأذنون عليك ؟ قال : نعم ، فأذن لهم ، قال : ثم لبث قليلاً ، ثم جاء فقال : هل لك في عليٍّ والعباس يستأذنان عليك ؟ قال : ائذن لهما ، فلما دخلا ، قال عباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا - يعنى علياً - وهما يختصمان في الصوافي^(٣) التى أفاء الله على رسوله

(١) ب : « يتولانها » تصحيف ، صوابه من ا (٢) الرضح هنا : المال .

(٣) الصوافى : الأملاك الواسعة . والخبر فى اللسان (صفا) .

من أموال بني النضير ، قال : فاستبّ عليّ والعباس عند عمر ، فقال عبد الرحمن :
يا أمير المؤمنين : اقض بينهما وأرخ أحدهما من الآخر ، فقال عمر : أنشدكم الله الذي
تقوم بإذنه السموات والأرض ، هل تعلمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال :
« لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، يعني نفسه ؟ قالوا : قد قال ذلك ، فأقبل على العباس وعليّ
فقال : أنشدكما الله هل تعلمان ذلك ؟ قالوا : نعم ؟ قال عمر : فإنّي أحدثكم عن هذا الأمر ،
إن الله تبارك وتعالى خصّ رسوله صلى الله عليه وسلم في هذا النية بشيء لم يُعطه غيره ،
قال تعالى : ﴿ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، وكانت هذه
خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما اختارها دونكم ، ولا استأثر بها عليكم ،
لقد أعطاكموها وثبتها فيكم حتى بقى منها هذا المال ، وكان ينفق منه على أهله سنتهم ،
ثمّ يأخذ ما بقى فيجعله فيما يجعل مال الله عزّ وجلّ ، فعل ذلك في حياته ثمّ توفّي ، فقال أبو بكر :
أنا وليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضه الله ، وقد عمل فيها بما عمل به رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأنتم حينئذ ، والتفت إلى عليّ والعباس ترعمان أن أبا بكر فيها ظالم
فاجر ، والله يعلم إنه فيها لصادق بارّ راشد ، تابع للحق ، ثمّ توفّي الله أبا بكر ، فقلت :
أنا أولى الناس بأبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقبضتها سنتين - أو قال سنين
من إمارتي - أعمل فيها مثل ما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، ثمّ قال :
وأنتم - وأقبل على العباس وعليّ - ترعمان أني فيها ظالم فاجر ، والله يعلم أني فيها بارّ راشد ،
تابع للحق ثمّ جئتماني وكتبتكما واحدة ، وأمركما جميع ، فجئتنى - يعني العباس - تسألنني
نصيبك من ابن أخيك ، وجاءني هذا - يعني عليّ - يسألني نصيب امرأته من أبيها ، فقلت لكما :
إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، فلما بدلى إلى أن

أدفعها إليكما قلت : أدفعها على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وبما عملتُ به فيها ، وإلا فلا تكلماني ! فقلتُما : ادفعها إلينا بذلك ، فدفعتهما إليكما بذلك ، أفنلتمسان مني قضاء غير ذلك ! والله الذي تقوم بإذنه السموات والأرض لا أقضى بينكما بقضاء غير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتما عنها فادفعها إلي فأنا أكفيكماها !

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد قال : حدثنا إسحاق بن إدريس ، قال : حدثنا عبد الله ابن المبارك قال : حدثني يونس ، عن الزهري قال : حدثني مالك بن أوس بن الحدثان بنحوه ؛ قال فذكرت ذلك لعروة فقال : صدق مالك بن أوس ، أنا سمعتُ عائشة تقول : أرسل أزواجُ النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان إلى أبي بكر يسأل لهن ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه حتى كنت أردهن عن ذلك ، فقلت : ألا تتقين الله ، ألم تعلمن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ، يريد بذلك نفسه ؛ إنما يأكل آل محمد من هذا المال ، فانتهي أزواج النبي صلى الله عليه وآله إلى ما أمرتهن به .

قلت : هذا مشكل ، لأن الحديث الأول يتضمن أن عمر أقسم على جماعة فيهم عثمان ، فقال : نشدتكم الله ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نورث ما تركناه صدقة » ، يعني نفسه ! فقالوا : نعم ، ومن جملتهم عثمان ، فكيف يعلم بذلك فيكون مترسلاً لأزواج النبي صلى الله عليه وآله : يسأله أن يعطيهم الميراث ! اللهم إلا أن يكون عثمان وسعد وعبد الرحمن والزيير صدقوا عمر على سبيل التقليد لأبي بكر فيما رواه وحسن الظن ، وسموا ذلك علما ، لأنه قد يطلق على الظن اسم العلم .

فإن قال قائل : فهلا حسن ظنّ عثمان برواية أبي بكر في مبدأ الأمر فلم يكن رسولا
لزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله في طلب الميراث ؟ .
قيل له : يجوز أن يكون في مبدأ الأمر شاكاً ، ثمّ يغلب على ظنه صدقه لأمارات
اقتضت تصديقه ، وكلّ الناس يقع لهم مثل ذلك .

وها هنا إشكال آخر ، وهو أنّ عمر ناشد عليّاً والعبّاس : هل تعلمان ذلك ؟ فقالا :
نعم ، فإذا كانا يعلمانه فكيف جاء العبّاس وفاطمة إلى أبي بكر يطلبان الميراث على
ما ذكره في خبر سابق على هذا الخبر ، وقد أوردناه نحن ! وهل يجوز أن يقال : كان العبّاس
يعلم ذلك ثمّ يطلب الإرث الذي لا يستحقّه ؟ وهل يجوز أن يقال : إنّ عليّاً كان يعلم ذلك
ويمكّن زوجته أن تطلب مالا تستحقّه ، خرجت من دارها إلى المسجد ، ونازعت أبا بكر ،
وكلمته بما كلمته إلا بقوله وإذنه ورأيه . وأيضا فإنه إذا كان صلى الله عليه وآله لا يُورث ،
فقد أشكل دفع آله ودابّته وحذائه إلى عليّ عليه السلام ، لأنّه غير وارث في الأصل ،
وإن كان أعطاه ذلك لأنّ زوجته بعرضه أن ترث ، لولا الخبر ، فهو أيضا غير جائز ، لأنّ
الخبر قد منّع من أن يرث منه شيئا قليلا كان أو كثيرا .

فإن قال قائل : نحن معاشرَ الأنبياء لا نُورث ذهبا ولا فضة ولا أرضا ولا عقارا
ولا دارا .

قيل : هذا الكلام يُفهم من مضمونه أنّهم لا يورثون شيئا أصلا ، لأنّ عادة العرب
جاريةٌ بمثل ذلك ، وليس يقصدون نفي ميراث هذه الأجناس المعدودة دون غيرها ، بل
يجعلون ذلك كالتصريح بنفي أن يورثوا شيئا ما على الإطلاق .

وأیضا فإنه جاء في خبر الدابة والآلة والحذاء أنّه رُوِيَ عن النبيّ صلى الله عليه وآله :
« لا نُورث ، ما تركناه صدقة » ، ولم يقل « لا نُورث كذا ولا كذا » وذلك يقتضى
عموم انتفاء الإرث عن كلّ شيء .

وأما الخبر الثانى وهو الذى رواه هشام بن محمد الكلبيّ ، عن أبيه ؛ ففيه إشكال أيضا ، لأنّه قال : إنّها طلبت فذك ، وقالت : إنّ أبى أعطانيها ، وإنّ أمّ أيمن تشهد لى بذلك ، فقال لها أبو بكر فى الجواب : إنّ هذا المال لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنّما كان مالا من أموال المسلمين ، يحمل^(١) به الرجال ، وينفقه فى سبيل الله ؛ فلقائل أن يقول له : أيجوز للنبيّ صلى الله عليه وآله أن يملك أبنته أو غير ابنته من أفناء الناس ضيعةً مخصوصة ، أو عقارا مخصوصا من مال المسلمين ، لَوْحَى أَوْحَى اللهُ تعالى إليه ، أو لاجتهاد رأيه على قول من أجاز له أن يحكم بالاجتهاد ، أو لا يجوز للنبيّ صلى الله عليه وآله ذلك ؟ فإن قال : لا يجوز ، قال ما لا يوافق العقل ولا المسلمون عليه ، وإن قال : يجوز ذلك ، قيل : فإنّ المرأة ما اقتصر على الدعوى ، بل قالت : أمّ أيمن تشهد لى ، فكان ينبغى أن يقول لها فى الجواب : شهادة أمّ أيمن وحدها غير مقبولة ؛ ولم يتضمّن هذا الخبر ذلك ، بل قال لها لما أدّعت وذكرت من يشهد لها : هذا مالٌ من مال الله . لم يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا ليس بجواب صحيح .

وأما الخبر الذى رواه محمد بن زكريّا عن عائشة ، ففيه من الإشكال مثل ما فى هذا الخبر ، لأنّه إذا شهد لها علىّ عليه السلام وأمّ أيمن أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وهب لها فذك ، لم يصحّ أجماع صدّقها وصدّق عبد الرحمن وعمر ، ولا ما تكلفه أبو بكر من تأويل ذلك بمستقيم ، لأنّ كونها هبة من رسول الله صلى الله عليه وآله لها يمتنع من قوله : « كان يأخذ منها قوتكم ويقسم الباقي ، ويحمل منه فى سبيل الله » ، لأنّ هذا ينافى كونها هبة لها ؛ لأنّ معنى كونها لها أنّها انتقلت إليها ، وأن تتصرف فيها خاصّة دون كلّ أحد من الناس ، وما هذه صفته كيف يقسم ويحمل منه فى سبيل الله !

(١) : « ويحمل » .

فإن قال قائل : هو صَلَّى اللهُ عليه وآله أبوها ، وحُكْمُهُ في مالها كحُكْمِهِ في ماله وفي بيت مال المسلمين ، فلعلّه كان بحكم الأبوة يفعل ذلك !
قيل : فإذا كان يتصرّف (١) فيها فيها تصرّف الأب في مال ولده ، لا يخرج ذلك عن كونه مال ولده ، فإذا مات الأب لم يجوز لأحد أن يتصرّف في مال ذلك الولد ، لأنّه ليس بأب له فيتصرّف في ماله تصرّف الآباء في أموال أولادهم ؛ على أنّ الفقهاء أو معظّمهم لا يجيزون للأب أن يتصرّف في مال الأبن .

وها هنا إشكالٌ آخر ، وهو قول عمر لعليّ عليه السلام والعبّاس : وأنتم حينئذ ترعمان أنّ أبا بكر فيها ظالم فاجر ، ثمّ قال لهما ذكر نفسه : وأنتم ترعمان أنّي فيها ظالم فاجر ، فإذا كانا يرعمان ذلك فكيف يزعم هذا الزعم مع كونهما يعلمان أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله قال : « لا أورث » ! إن هذا لمن أعجب العجائب ، ولولا أنّ هذا الحديث — أعنى حديث خصومة العبّاس وعليّ عند عمر — مذکور في الصحاح المجمع عليها لما أطلت العجب من مضمونه ، إذ لو كان غير مذکور في الصحاح لكان بعض ما ذكرناه يطعن في صحّته ؛ وإنما الحديث في الصحاح لا ريب في ذلك .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدّثنا ابن أبي شَيْبَةَ ، قال : حدّثنا ابن عُليّة ، عن أيّوب ، عن عكرمة ، عن مالك بن أوس بن الحدّان قال : جاء العبّاس وعليّ إلى عمر ، فقال العبّاس : افض بيّني وبين هذا الكذا وكذا ، أي يشتمه ، فقال الناس : افصل بينهما ، فقال لا أفصل بينهما ، قد علما أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله قال : « لا نُورث ، ما تركناه صدقة »

قلت : وهذا أيضا مُشكَل ، لأنّهما حضرا يتنازعا في الميراث ، بل في ولاية صدقة رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله أيّهما يتولّاها ولاية لا إرثاً ! وعلى هذا كانت الخصومة ،

(١) ب : « قد يتصرف » .

فهل يكون جواب ذلك قد علما أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « لا نُورَث » ! قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد قال : حدثني يحيى بن كثير أبو غسان قال : حدثنا شعبة عن عمر بن مرّة ، عن أبي البختريّ قال : جاء العباس وعليّ إلى عمر وهما يختصمان ، فقال عمر لطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد : أنشدكم الله ، أسمعتم رسول الله صلى الله عليه يقول : « كلّ مال نبيّ فهو صدقة ، إلا ما أطعمه أهله ، إنّنا لا نُورَث » ! فقالوا : نعم ، قال : وكان رسول الله يتصدّق به ، ويقسّم فضله ، ثم توفيّ فولّيه أبو بكر سنتين يصنع فيه ما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنما تقولان : إنّّه كان بذلك خاطئا ، وكان بذلك ظالما ، وما كان بذلك إلا راشدا ، ثم وُلّيته بعد أبي بكر فقلت لكما : إن شئتما قبلتُماه على عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده الذي عهد فيه ، فقلتما : نعم ، وجئتماي الآن تختصمان ؟ يقول هذا : أريد نصيبي من ابن أخي ، ويقول هذا : أريد نصيبي من امرأتى ! والله لا أفضى بينكما إلا بذلك .

قلتُ : وهذا أيضاً مُشكّل ، لأن أكثر الروايات أنّه لم يرو هذا الخبر إلا أبو بكر وحده ، ذكر ذلك أعظم محدّثين ، حتّى إنّ الفقهاء في أصول الفقه أطبقوا على ذلك في احتجاجهم في الخبر برواية الصحابيّ الواحد . وقال شيخنا أبو عليّ : لا تقبل في الرواية إلا رواية اثنين كالشهادة ، نخالفه المتكلمون والفقهاء كلّهم ، واحتجّوا عليه^(١) بقبول الصحابة رواية أبي بكر وحده : « نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث » ، حتى إنّ بعض أصحاب أبي عليّ تكلف لذلك جواباً ، فقال : قد روى أنّ أبا بكر يوم حاجّ فاطمة عليها السلام قال : أنشد الله امرأً سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا شيئاً ! فروى مالك ابن أوس بن الحدّان ؛ أنّه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا الحديث ينطق

(١) ساقطة من ب .

بأنه استشهد عمرَ وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمنِ وسعدا ، فقالوا : سمعناه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأين كانت هذه الروايات أيام أبي بكر ! ما نقل أن أحداً من هؤلاء يوم خصومة فاطمةَ عليها السلام وأبي بكر رَوَى من هذا شيئاً .

قال أبو بكر : وأخبرنا أبو زيد عمر بن شبة ، قال : حدثنا محمد بن يحيى ^(١) ، عن إبراهيم بن أبي يحيى ، عن الزُّهريِّ ، عن عروة ، عن عائشة أن أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أُرْسِلْنَ عِثَانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، قَالَ عُرْوَةُ : وَكَانَتْ فَاطِمَةُ قَدْ سَأَلَتْ مِيرَاثَهَا مِنْ أَبِي بَكْرٍ مِمَّا تَرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَ لَهَا : بِأَبِي أَنْتِ وَأُمِّي ، وَبِأَبِي أَبِي بَكْرٍ وَأُمِّي وَنَفْسِي ، إِنْ كُنْتِ سَمِعْتِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئاً ، أَوْ أَمْرِكِ بِشَيْءٍ لَمْ أَتَّبِعْ غَيْرَ مَا تَقُولِينَ ، وَأَعْطَيْتِكِ مَا تَبْتَغِينَ ، وَإِلَّا فَإِنِّي أَتَّبِعُ مَا أَمَرْتُ بِهِ !

قال أبو بكر : وحدثنا أبو زيد قال : حدثنا عمرو بن مرزوق ، عن شعبة ، عن عمرو ابن مرّة ، عن أبي البختريِّ قال : قال لها أبو بكر لما طلبتُ فدك : بأبي أنتِ وأُمِّي ! أنتِ عندي الصديقة الأمانة ، إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَاهَدَ إِلَيْكَ فِي ذَلِكَ عَهْدًا ، أَوْ وَعَدَكَ بِهِ وَعَدًا ، صَدَّقْتُكَ ، وَسَلَّمْتُ إِلَيْكَ ! فَقَالَتْ : لَمْ يَعْهَدْ إِلَيَّ فِي ذَلِكَ بِشَيْءٍ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ ^(٢) ، فَقَالَ : أَشْهَدُ لَقَدْ سَمِعْتُ ^(٣) رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ » .

قلت : وفي هذا من الإشكال ما هو ظاهر ، لأنّها قد ادّعت أنه عهد إليها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في ذلك أعظم العهد ، وهو النّحلة ، فكيف سكتت عن ذكر هذا لما سألتها أبو بكر ! وهذا أعجب من العجب .

(١) ب : « عيسى » . (٢) سورة النساء ١١ . (٣) كذا في : ١ ، وفي ب : « كان » .

قال أبو بكر : وحدَّثنا أبو زيد ؛ قال : حدَّثنا محمد بن يحيى ، قال : حدَّثنا عبد العزيز ابن عمران بن عبد العزيز بن عبد الله الأنصاري عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان ، قال : سمعتُ عمر وهو يقول للعبَّاس وعلىّ وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وطلحة : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنا لا نُورث ، معاشرَ الأنبياء ، ما تركنا صدقة » ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل في فيئه أهله السنّة من صدقاته ^(١) ، ثم يجعل ما بقى في بيت المال ! قالوا : اللهم نعم ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضها أبو بكر ، فجئت يا عبَّاسُ تطلب ميراثك من ابن أخيك ، وجئت يا علىّ تطلب ميراث زوجتك من أبيها ! وزعمتا أن أبا بكر كان فيها خائنا فاجرا ، والله لقد كان أمراً مطيعا ، تابعا للحق ، ثم توفى أبو بكر فقبضتها ، فجئتما تطلبان ميراثكما ، أما أنت يا عبَّاس فتطلب ميراثك من ابن أخيك ، وأما علىّ فيطلب ميراث زوجته من أبيها ، وزعمتا أنّي فيها خائن وفاجر ، والله يعلم أنّي فيها مطيع تابع للحق ؛ فأصلحا أمركما ، وإلا والله لم ترجع إليكما . فقاما وتَرَكا الخصومة وأمضيت صدقة .

قال أبو زيد : قال أبو غسان : حدَّثنا عبد الرزاق الصنعاني ، عن معمر بن شهاب ، عن مالك بنحوه ، وقال في آخره : فغلب علىّ عبَّاسا عليها ، فكانت بيدِ علىّ ، ثم كانت بيد الحسن ، ثم كانت بيد الحسين ، ثم علىّ بن الحسين ، ثم الحسن بن الحسن ، ثم زيد بن الحسن .

* * *

قلت : وهذا الحديث يدلّ صريحا على أنّهما جاءا يطلبان الميراث لا الولاية ، وهذا من المشكّلات ، لأنّ أبا بكر حَسَم المادّة أولا ، وقرّر عند العبَّاس وعلىّ وغيرها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لا يُورث ، وكان عمر من المساعدين له على ذلك ، فكيف يعود

(١) كذا في الأصول ، وفي الكلام مخوض .

العبّاس وعلى بعد وفاة أبي بكر ، يحاولان أمرا قد كان فُرغ منه ، ويُيس من حصوله ، اللهم إلا أن يكونا ظنّا أن عمر يَنْقُض قضاء أبي بكر في هذه المسألة ، وهذا بعيد ، لأنّ عليّا والعبّاس كانا (١) في هذه المسألة (١) يتّهمان عمر بمالأة أبي بكر على ذلك ألا تراه يقول : نسبتُاني ونسبتُا أبا بكر إلى الظلم والخيانة ، فكيف يظنّان أنّه ينقض قضاء أبي بكر ويورثهما !

وأعلم أنّ الناس يظنّون أنّ نزاع فاطمة أبا بكر كان في أمرين : في الميراث والنّحلة ، وقد وجدتُ في الحديث أنّها نازعتُ في أمر ثالث ، ومنعها أبو بكر إياه أيضا ، وهو سهم ذوى القربى .

قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ : أخبرني أبو زيد عمر بن شبّة ، قال : حدّثني هارون بن عمير ، قال : حدّثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدّثني صدقة أبو معاوية ، عن محمّد بن عبد الله ، عن محمّد بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، عن يزيد الرّقاشيّ ، عن أنس بن مالك ، أنّ فاطمة عليها السلام أتت أبا بكر فقالت : لقد علمت الذي ظلمتنا عنه أهل البيت من الصدقات ، وما أفاء الله علينا من الغنائم في القرآن من سهم ذوى القربى ! ثم قرأت عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ مِنْهُ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ . . . ﴾ (٢) الآية ، فقال لها أبو بكر : بأبي أنت وأمي ووالديّ ولديّ ! السمع والطاعة لكتاب الله ولحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، وحقّ قرابته ، وأنا أقرأ من كتاب الله الذي تقرئين منه ، ولم يبلغ علمي منه أنّ هذا السهم من الخمس يسلم إليكم كاملا ؛ قالت : أفلك هو ولأقربائك ؟ قال : لا ، بل أنفق عليكم منه ، وأصرف الباقي في مصالح المسلمين قالت : ليس هذا حكم الله تعالى ؛ قال : هذا حكم الله ، فإن كان رسولُ الله عهد إليك

في هذا عهدا أو أوجه لكم حقا^(١) صدقتك وسلّمته كلّه إليك وإلى أهلك؛ قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يعهد إلى في ذلك بشيء، إلا أنّي سمعته يقول لما أنزلت هذه الآية: «أبشروا آل محمد فقد جاءكم الغنى»؛ قال أبو بكر: لم يبلغ علمي من هذه الآية أن أسلم إليكم هذا السهم كلّه كاملا، ولكن لكم الغنى الذي يُغنيكم، ويفضل عنكم، وهذا عمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح فأسألهم عن ذلك، وانظري هل يوافقك على ما طلبت أحد منهم! فانصرفت إلى عمر فقالت له مثل ما قالت لأبي بكر، فقال لها مثل ما قاله لها أبو بكر، فعجبت فاطمة عليها السلام من ذلك، ونظنت أنّهما كانا قد تذاكرا ذلك واجتمعا عليه.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا هارون بن عمير، قال: حدثنا الوليد، عن ابن أبي لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة، قال: أرادت فاطمة أبا بكر على فدك وسهم ذوى القربى، فأبى عليها، وجعلهما في مال الله تعالى.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد، قال: حدثنا أحمد بن معاوية، عن هيثم، عن جويبر، عن أبي الضحّاك عن الحسن بن محمد بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، أن أبا بكر منع فاطمة وبني هاشم سهم ذوى القربى، وجعله في سبيل الله في السلاح والكرّاع.

قال أبو بكر: وأخبرنا أبو زيد قال: حدثنا حيّان بن هلال، عن محمد بن يزيد بن ذريع، عن محمد بن إسحاق، قال: سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عليهما السلام؛ قلت: أرايت عليّا حين وليّ العراق وما ولي من أمر الناس كيف صنع في سهم ذوى القربى؟ قال: سلّك بهم طريق أبي بكر وعمر؛ قلت: وكيف؟ ولم، وأنتم تقولون ما تقولون! قال: أما والله ما كان أهلُه يصدّرون إلاّ عن رأيه؛ فقلت: فما منعه؟ قال: كان يكره

(١) كذا في ا، وفي ب: «أوجه لك على».

أن يدعى عليه مخالفة أبي بكر وعمر .

قال أبو بكر : وحدثني المؤمل بن جعفر ، قال : حدثني محمد بن ميمون ، عن داود بن المبارك ، قال : أتينا عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن الحسن ونحن راجعون من الحج في جماعة ، فسألناه عن مسائل ، وكنت أحدمن سأله ، فسألته عن أبي بكر وعمر ، فقال : سئل جدِّي عبد الله بن الحسن بن الحسن عن هذه المسألة فقال : كانت أمي صديقة بنت نبي مرسل ، فأتت وهي غصبي على إنسان ، فنحن غضاب لغضبها ، وإذا رضيت رضىنا . قال أبو بكر : وحدثني أبو جعفر محمد بن القاسم قال : حدثني علي بن الصباح قال : أنشدنا أبو الحسن رواية المفضل للكيت :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبي بكر ولا عمراً^(١)
ولا أقول وإن لم يعطياً فدكاً بنت النبي ولا ميراثها : كفراً^(٢)
الله يعلم ماذا يحضران به يوم القيامة من عذر إذا اعتذراً^(٣)

قال ابن الصباح : فقال لي أبو الحسن : أتقول : إنه قد أكفرهما في هذا الشعر ! قلت : نعم ، قال : كذلك هو .

قال أبو بكر : حدثنا أبو زيد ، عن هارون بن عمير ، عن الوليد بن مسلم ، عن إسماعيل بن عباس ، عن محمد بن السائب ، عن أبي صالح ، عن مولى أم هانئ ، قال : دخلت فاطمة على أبي بكر بعد ما استخلف ، فسألته ميراثها من أبيها ، فنعها ، فقالت له : لئن مت اليوم من كان يرثك ؟ قال : ولدي وأهلي ، قالت : فلم ورثت أنت رسول الله صلى الله عليه وآله دون ولده وأهله ؟ قال : فما فعلت يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! قالت : بلى ، إنك عمدت إلى فدك ، وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وآله فأخذتها ، وعمدت إلى ما أنزل الله من السماء فرفعت عتاً ، فقال : يا بنت رسول الله

(١) الهاشميات ٨٣ ، ٨٤ . (٢) ١ ، الهاشميات : « ميراثه » .

(٣) الهاشميات : « ماذا يأتان به » .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَمْ أَفْعَلْ ؛ حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللهُ تَعَالَى يُطْعِمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطُّعْمَةَ مَا كَانَ حَيًّا ، فَإِذَا قَبِضَهُ اللهُ إِلَيْهِ رُفِعَتْ ، فَقَالَتْ : أَنْتَ وَرَسُولُ اللهِ أَعْلَمُ ، مَا أَنَا بِسَائِلَتِكَ بَعْدَ مَجْلِسِي . ثُمَّ انصرفت .

قال أبو بكر : وحدَّثنا محمد بن زكريا ، قال : حدَّثنا محمد بن عبد الرحمن المهلبى ، عن عبد الله بن حماد بن سليمان ، عن أبيه ، عن عبد الله بن حسن بن حسن ، عن أمه فاطمة بنت الحسين عليهما السلام ، قالت : لما اشتدَّ بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الوجع وثقلت في علتها ، اجتمع عندها نساء من نساء المهاجرين والأنصار ، فقلن لها : كيف أصبحت يا ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : والله أصبحت عائفَةً^(١) لدنياكم ، قاليةً لرجالكم ، لفظتهم بعد أن عجمتهم^(٢) ، وشنتهم^(٣) بعد أن سبرتهم^(٤) ، فقبحا لفلول الحدِّ وخور القناة ، وخطل الرأى ! وبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ؛ لا جرم ! قد قلدتهم ربقتها ، وشنت عليهم غارتها ، جحدعا وعقرها ، وسحقا للقوم الظالمين ! ويحهم ! أين زححوها عن رواسى الرسالة ، وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الأمين ، والطيبين بأمر الدين والدين ، ألا ذلك هو الخسران المبين ! وما الذى نتموا من أبى حسن ! نتموا والله نكير سيفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمره في ذات الله ، وتالله لو تكافؤوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله لاعتلقه ، ولسار إليهم سيرا سوجحا ، لا تكلم حشاشته ، ولا يتتبع راكبه ، ولأوردهم منبلا تميра فضفاضا يطفح صفته ، ولأصدرهم بطانا قد تحير بهم الرأى ، غير متحلّ بطائل ، إلا بغمر الناهل ، وردعه سورة الساعب ، ولفتحت عليهم بركات من السماء والأرض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون . ألا هلم فاستمع وما عشت

(١) عائفة لدنياكم ، أى قالية لها كارهة . (٢) عجمتهم : بلوتهم وخبرتهم .

(٣) شنتهم : أبغضتهم . (٤) سبرتهم : علمت أمورهم .

أراك الدهر عجبه ، وإن تعجب فقد أعجبك الحادث ، إلى أى لجأ استندوا ، وبأى عروة تمسكوا ! لبس المولى ولبس العشير ، ولبس للظالمين بدلا ! استبدلوا والله الذنابي بالقوادم ، والعجز بالكاهل ؛ فرغوا لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ﴿ إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ ، ويحهم ! ﴿ أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون ﴾ ! أما لعمر الله لقد لقيت ، فنظرة ريثما تلتج (١) ، ثم احتلبوها طلاع العقب دما عبيطا وذعاقا ممقرا هنا لك ينحسر المبتلون ، ويعرف التالون غيب ما أسس الأولون ، ثم طيبوا عن أنفسكم نفسا ، واطمئنوا للفتنة جأشا ، وأبشروا بسيف صارم ، وهرج شامل ، واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيذا ، وجمعكم حصيدا ؛ فيا حسرة عليكم ، وأنى لكم وقد عميت عليكم أنلزموها وأنتم لها كارهون ! والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين .

قلت : هذا الكلام وإن لم يكن فيه ذكر فداك والميراث ، إلا أنه من تمة ذلك ، وفيه إيضاح لما كان عندها ، وبيان لشدة غيظها وغضبها ، فإنه سيأتي فيما بعد ذكر ما يناقض به قاضي القضاة والمرضى في أنها هل كانت غضي أم لا ! ونحن لا ننصر مذهبا بعينه ، وإنما نذكر ما قيل ، وإذا جرى بحث نظري قلنا ما يقوى في أنفسنا منه .

واعلم أنا إنما نذكر في هذا الفصل ما رواه رجال الحديث وثقاتهم ، وما أودعه أحمد ابن عبد العزيز الجوهري في كتابه ، وهو من الثقات الأمانة عند أصحاب الحديث ، وأما ما يرويه رجال الشيعة والأخباريون منهم في كتبهم من قولهم : إنهما أهاناها وأسماها كلاما غليظا ، وإن أبا بكر رقى لها حيث لم يكن عمر حاضرا ، فكتب لها بفداك كتابا ، فلما خرجت به وجدها عمر ، فدّ يده إليه ليأخذها مغالبة ، فمعتة ، فدفع بيده في صدرها

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « تحلب » .

وأخذ الصحيفةَ نخرقها بعد أن تفلَّ فيها فحاجها ، وإنها دعت عليه فقالت : بقر الله بطنك
كما بقرتَ صحيفتي ؛ فشىء لا يرويه أصحابُ الحديث ولا ينقلونه ، وقد رُ الصَّحابةَ يَجِلُّ عنه ،
وكان عمرُ أتقى لله ؛ وأعرَفَ لحقوقِ الله من ذلك ، وقد نَظَمَتِ الشَّيْعةُ بعضَ هذه الواقعةِ
التي يذكرونها شعراً أوَّله أبياتٌ لمهيار بن مرزويه الشاعر من قصيدته التي أوَّها (١) :

يا أبنة القومِ تراكِ بالغُ قَتَلِي رِضَاكَ (٢)

وقد ذيل عليها بعضُ الشَّيْعةِ وأتمَّها ، والأبيات :

يا أبنة الطَّاهِرِ كَمْ تُقِّ رَعُ بِالظُّلْمِ عَصَاكَ
غَضِبَ اللهُ لِحَطْبِ لِيَلَةَ الطَّفِّ عَرَاكَ
ورعى النارَ غداً قطَّ رعى أمسِ حماكِ
مرَّ لم يعطفه شكوى ولا أستحيأ بكاكِ
واقصدى الناس به بع دُ فاردى ولدك
يا ابنة الرَّاقي إلى السد رة في لوح السكاكِ
لهف نفسي وعلى مِث لكِ فلتبكِ البواكى
كيف لم تقطع يدُ مُدَّ إليك ابن صحاكِ
فرحوا يومَ أهانو كِ بما ساء أباكِ
ولقد أخبرهم أن رضاه في رِضَاكَ
دفعاً النصَّ على إر ثك لما دفعاكِ
وتعرَّضتِ لِقَدْرِ تافهٍ وانتَهراكِ

(١) ديوانه ٢ : ٣٦٧ ، ٣٦٨ . (٢) في الأصول : « براك » والصواب ما أثبتته .

وَادْعَيْتِ النَّحْلَةَ الْمَشْهُودَ فِيهَا بِالصَّكَاكِ
فَأُسْتَشَاطَأَ ثُمَّ مَا إِنْ كَذَبَا إِنْ كَذَبَاكِ
فَزَوَى اللَّهُ عَنِ الرَّحْمَةِ زَنْدِيقًا ذَوَاكِ
وَنَفَى عَنِ بَابِهِ الْوَا سَع شَيْطَانًا نَفَاكِ

فانظر إلى هذه البليّة التي صبّت من هؤلاء على سادات المسلمين ، وأعلام المهاجرين !
وليس ذلك بقادح في علو شأنهم ، وجلالة مكانهم ، كما أنّ مبغضى الأنبياء وحسدتهم ،
ومصنّفى الكتب في إلحاق العيب والتهجين لشرائعهم لم تردّد لأنبياهم إلا رفعة ،
ولا زادت شرائعهم إلا انتشارا في الأرض ، وقبولا في النفس ، وبهجة ونورا عند
ذوى الأبواب والعقول .

وقال لى علويّ في الرحلة^(١) يُعرف بعلي بن مهنا ، ذكيّ ذو فضائل : ما تظنّ
قصد أبي بكر وعمر بمنع فاطمة فدك؟ قلت : ما قصدا؟ قال : أرادا ألا يُظهرا لعليّ
— وقد اغتصباه الخلافة — رقة ولينا وخذلانا ، ولا يرى عندها خورا ، فأتبعا القرّح
بالقرّح .

وقلت لمتكلّم من متكلّمى الإمامية يُعرف بعليّ بن تقّ من بلدة النيل^(٢) :
وهل كانت فدك إلا نخلا يسيرا وعقارا ليس بذلك الخطير! فقال لى : ليس الأمر كذلك ،
بل كانت جليلة جدّا ، وكان فيها من النخل نحو ما بالكوفة الآن من النخل ، وما قصد
أبو بكر وعمر بمنع فاطمة عنها إلا ألا يتقوى على بحاصليها وغلّتها على المنازعة في الخلافة ،
ولهذا أتبعنا ذلك بمنع فاطمة وعليّ وسائر بنى هاشم وبني المطلب حقّهم في الخمس ، فإنّ

(١) الرحلة : تطلق على عدة مواضع ؛ منها موضع بين الكوفة والبصرة ؛ وهي حلة بنى مزيد .

(٢) النيل هنا : بليدة في سواد الكوفة ؛ قرب حلة بنى مزيد .

الفقير الذى لا مال له تضعف همته ويتضاغر عند نفسه ، ويكون مشغولاً بالاحتراف والاكْتساب عن طلب الملك والرياسة ، فانظر إلى ما قد وقر في صدور هؤلاء ، وهو داء لا دواء له ، وما أكثر ما تزول الأخلاق والشيم ، فأما العقائد الراسخة فلا سبيل إلى زوالها !

الفصل الثانى

في النظر في أن النبي صلى الله عليه وآله هل يُورث أم لا

نذكر في هذا الموضوع ما حكاه المرتضى رحمه الله في « الشافى »^(١) عن قاضى القضاة في هذا المعنى ، وما اعترضه به ، وإن استضعفنا شيئاً من ذلك قلنا ما عندنا ، وإلا تركناه على حاله .

قال المرتضى : أول ما ابتدأ به قاضى القضاة حكايته عنا استدلالنا على أنه صلى الله عليه وآله مورث^(٢) بقوله تعالى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٣) وهذا الخطاب عام يدخل فيه النبي وغيره .

ثم أجاب - - يعنى قاضى القضاة - - عن ذلك ، فقال : إن الخبر الذى احتج به أبو بكر - - يعنى قوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » - - لم يقتصر على روايته هو وحده حتى استشهد عليه عمر وعثمان وطاحه والزبير وسعدا وعبدالرحمن ، فشهدوا به ، فكان لا يحل لأبى بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثاً ، وقد خبر رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها صدقة وليست بميراث ، وأقل ما فى هذا الباب أن يكون الخبر من أخبار الآحاد ،

(١) الشافى ص ٢٢٨ وما بعدها . (٢) ١ : « مورث » . (٣) سورة النساء ١١ .

فلو أنّ شاهدين شهدا في التركة أنّ فيها حقًا ، أليس كان يجب أن يصرف ذلك عن الإرث! فعلمه بما قال رسول الله صلى الله عليه وآله مع شهادة غيره أقوى . ولسنا نجعله مدعيًا لأنّه لم يدع ذلك لنفسه ، وإنما بين أنه ليس بميراث ، وأنه صدقة . ولا يمتنع تخصيص القرآن بذلك ، كما يخصّ في العبد والقاتل وغيرها ، وليس ذلك بنقص في الأنبياء ، بل هو إجلالٌ لهم ، يرفع الله به قدرهم عن أن يورثوا المال ، وصار ذلك من أوكد الدواعي ألاّ يتشاغلوا بجمعه ، لأنّ أحد الدواعي القوية إلى ذلك تركه على الأولاد والأهلين . وما سمعتُ فاطمة عليها السلام ذلك من أبي بكر كفت عن الطلب فيما ثبت من الأخبار الصحيحة ، فلا يمتنع أن تكون غير عارفة بذلك ، فطلبت الإرث ، فلما روى لها ما روى كفت ، فأصابت أولاً وأصابت ثانياً .

وليس لأحد أن يقول : كيف يجوز أن يبين النبيّ صلى الله عليه وآله ذلك للقوم ولا حقّ لهم في الإرث ، ويدع أن يبين ذلك لمن له حقّ في الإرث ، مع أنّ التكليف يتصل به ؛ وذلك لأنّ التكليف في ذلك يتعلّق بالإمام ، فإذا بين له جاز ألاّ يبين لغيره ويصير البيان له بياناً لغيره ، وإن لم يسمعه من الرسول ، لأنّ هذا الجنس من البيان يجب أن يكون بحسب المصلحة !

قال : ثمّ حكى عن أبي عليّ أنه قال : أتعلمون كذبَ أبي بكر في هذه الرواية ، أم تجوزون أن يكون صادقاً^(١) ؟ قال : وقد علم أنه لا شيء يقطع به على كذبه ، فلا بدّ من تجويز كونه صادقاً . وإذا صحّ ذلك قيل لهم : فهل كان يحملّ له مخالفة الرسول ؟ فإن قالوا : لو كان صدقاً لظهر واشتهر ، قيل لهم : إنّ ذلك من باب العمل ، ولا يمتنع أن ينفرد بروايته جماعة يسيرة ، بل الواحد والاثنان ، مثل سائر الأحكام ومثل الشهادات ، فإن قالوا نعم أنه لا يصحّ لقوله تعالى في كتابه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾^(٢) . قيل لهم :

(١) الشافعي : « أم تجوزون كذبه وصدقه » . (٢) سورة النمل ١٦ .

ومن أين أنه ورثه الأموال؛ مع تجويز أن يكون ورثه العلم والحكمة؟ فإن قالوا: إطلاق الميراث لا يكون إلا في الأموال؛ قيل لهم: إن كتاب الله يُبطل قولكم، لأنه قال: ﴿لَهُمْ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (١)، والكتاب ليس بمال، ويقال في اللغة: ما ورثت الأبناء عن الآباء شيئاً أفضل من أدب حسن؛ وقالوا: العلماء ورثة الأنبياء، وإنما ورثوا منهم العلم دون المال، على أن في آخر الآية ما يدل على ما قلناه، وهو قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مِنْكُمْ الطَّيْرَ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (٢)، فنبه على أن الذي ورث هو هذا العلم وهذا الفضل، وإلا لم يكن لهذا القول تعلق بالأول. فإن قالوا: فقد قال تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ (٣)، وذلك يُبطل الخبر! قيل لهم: ليس في ذلك بيان المال أيضاً، وفي الآية ما يدل على أن المراد النبوة والعلم، لأن زكريا خاف على العلم أن يندرس، وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ يدل على ذلك، لأن الأنبياء لا تحرص على الأموال حرصاً يتعلق خوفها بها، وإنما أراد خوفه على العلم أن يضيع، فسأل الله تعالى ولياً يقوم بالدين مقامه. وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يدل على أن المراد العلم والحكمة، لأنه لا يرث أموال يعقوب في الحقيقة (٤)، وإنما يرث ذلك غيره. قال: فأما من يقول: إن المراد: أنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة، أي ما جعلناه صدقة في حال حياتنا لا نورثه، فركبك من القول، لأن إجماع الصحابة يخالفه، لأن أحداً لم يتأوله على هذا الوجه، لأنه لا يكون في ذلك تخصيص الأنبياء، ولا مزية لهم، ولأن قوله: «ما تركناه صدقة»، جملة من الكلام مستقلة بنفسها، كأنه

(١) سورة فاطر ٣٢ .

(٢) سورة النمل ١٦ . (٣) سورة مريم ٥ ، ٦ .

(٤) ب: «الحقيقة» تحريف صوابه من الشافعي .

عليه السلام مع بيانه أنهم لا يورثون المال ، يبين أنه صدقة ، لأنه كان يجوز ألا يكون ميراثا ، ويصرف إلى وجه آخر غير الصدقة .

قال : فأما خبر السيف والبغلة والعمامة وغير ذلك ؛ فقد قال أبو علي : إنه لم يثبت أن أبا بكر دفع ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام على جهة الإرث ، كيف يجوز ذلك مع الخبر الذي رواه ، وكيف يجوز لو كان وارثا أن يخصه بذلك ولا يرث له مع العم لأنه عصبه ! فإن كان وصل إلى فاطمة عليها السلام فقد كان ينبغي أن يكون العباس شريكا في ذلك وأزواج الرسول صلى الله عليه وآله ، ولو جب أن يكون ذلك ظاهرا مشهورا ليعرف أنهم أخذوا نصيبهم من ذلك أو بدله ، ولا يجب إذا لم يدفع أبو بكر ذلك إليه على جهة الإرث ألا يحصل ذلك في يده ، لأنه قد يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وآله تحمله ذلك ، ويجوز أيضا أن يكون أبو بكر رأى الصلاح في ذلك أن يكون بيده لما فيه من تقوية الدين ، وتصديق بيده بعد التقويم ، لأن الإمام له أن يفعل ذلك .

قال : وحكى عن أبي علي في البرد والقضيب أنه لم يمتنع أن يكون جعله عدة في سبيل الله وتقوية على المشركين ، فتداولته الأئمة لما فيه من التقوية ، ورأى أن ذلك أولى من أن يتصدق به إن ثبت (١) أنه عليه السلام لم يكن قد نحله غيره في حياته ، ثم عارض نفسه بطلب أزواج النبي صلى الله عليه وآله الميراث ، وتنازع أمير المؤمنين عليه السلام والعباس بعد موت فاطمة عليها السلام . وأجاب عن ذلك بأن قال : يجوز أن يكونوا لم يعرفوا رواية أبي بكر وغيره للخبر .

وقد روى أن عائشة لما عرقتهم الخبر أمسكن ، وقد بينا أنه لا يمتنع في مثل ذلك أن يخفى على من يستحق الإرث ، ويعرفه من يتقلد الأمر ، كما يعرف العلماء والحكام من أحكام الموارث ما لا يعلمه أرباب الإرث ، وقد بينا أن رواية أبي بكر مع الجماعة

(١) الشافعي : « أن يثبت » .

أقوى من شاهدين لو شهد أن بعض تركته عليه السلام دين ، وهو أقوى من رواية سلمان وابن مسعود لو روي ذلك .

قال : ومتى تعلقوا بعموم القرآن أريناهم جواز التخصيص بهذا الخبر ، كما أن عموم القرآن يقتضى كون الصدقات للفقراء ، وقد ثبت أن آل محمد لا تحلّ لهم الصدقة .
هذا آخر ما حكاه المرتضى من كلام قاضي القضاة^(١) .

ثم قال : نحن نبين أولاً ما يدلّ على أنه صلى الله عليه وآله يورث المال ، وترتب الكلام في ذلك الترتيب الصحيح ، ثم نعطف على ما أورده ، ونتكلّم عليه .

قال رضى الله عنه : والذى يدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى خبراً عن زكريّا عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ * يرثني ويرث من آل يعقوب وأجعلهُ ربّ رضيعاً^(٢) ؛ فخبّر أنه خاف من بنى عمّه ، لأن الموالى هاهنا هم بنو العمّ بلا شبهة ، وإنّما خافهم أن يرثوا ماله فينفقوه في الفساد ، لأنّه كان يعرف ذلك من خلائقهم وطرائقهم ، فسأل ربّه ولداً يكون أحقّ بميراثه منهم .
والذى يدلّ على أن المراد بالميراث المذكور ميراث المال دون العلم والنبوة على ما يقولون أن لفظة الميراث في اللغة والشريعة لا يفيد^(٣) إطلاقها إلا على ما يجوز أن ينتقل على الحقيقة من الموروث إلى الوارث ، كالأموال وما في معناها ، ولا يستعمل في غير المال إلا تجوّزاً واتساعاً ، ولهذا لا يفهم من قول القائل : لا وارث لفلان إلا فلان ، وفلان يرث مع فلان بالظاهر والإطلاق إلا ميراث الأموال والأعراض دون العلوم وغيرها . وليس لنا أن نعدّل عن ظاهر الكلام وحقيقته إلى مجازه بغير دلالة . وأيضاً فإنّه تعالى خبر عن نبيه أنّه اشترط في وارثه أن يكون رضيعاً ، ومتى لم يُحمل الميراث في الآية على المال دون العلم

(١) الشافى ٢٢٨ ، ٢٢٩ . (٢) سورة مريم ٥ ، ٦ . (٣) الشافى : « لا يعهد » .

والتبوء لم يكن للاشتراط معنًى ، وكان لغواً وعبثاً ؛ لأنه إذا كان إنما سأل مَنْ يقوم مقامه ، ويرث مكانه فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا في جملة كلامه وسؤاله ؛ فلا مقتضى لاشتراطه؛ ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول: اللهم أبعث إلينا نبياً واجعله عاقلاً، [ومكلفاً] (١)؛ فإذا ثبتت هذه الجملة صحَّ أن زكريا موروثٌ ماله . وصحَّ أيضاً لصحتها أن نبينا صلى الله عليه وآله ممن يورث المال ، لأن الإجماع واقع على أن حال نبينا عليه السلام لا يخالف حال الأنبياء المتقدمين في ميراث المال ، فمن مثبت للأمرين وناف للأمرين (٢) .

قلت : إن شيخنا أبا الحسين قال في كتاب "الغرر" : "صورة الخبر الوارد في هذا الباب ، وهو الذي رواه أبو بكر: «لأنورث»، ولم يقل : «نحن معاشر الأنبياء لأنورث»، فلا يلزم من كون زكريا يورث الطعن في الخبر . وتصقحت أنا كتب الصحاح في الحديث فوجدتُ صيغة الخبر كما قاله أبو الحسين ، وإن كان رسولُ صلى الله عليه وآله عني نفسه خاصة بذلك ؛ فقد سقط احتجاج الشيعة بقصة زكريا وغيره من الأنبياء ، إلا أنه يبعدُ عندي أن يكون أراد نفسه خاصة ؛ لأنه لم تجرِ عادة أن يخبر عن نفسه في شيء بالنون .

فإن قلت : أيسح من المرتضى أن يوافق على أن صورة الخبر هكذا ، ثم يحتج بقصة زكريا بأن يقول : إذا ثبت أن زكريا موروث ، ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله يجوز أن يكون موروثاً ، لإجماع الأمة على أن لا فرق بين الأنبياء كلهم في هذا الحكم !

قلت : وإن ثبت له هذا الإجماع صحَّ احتجاجه ، ولكن ثبوته يبعد ، لأن من نفى كون زكريا عليه السلام موروثاً من الأمة إنما نفاه لاعتقاده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : «نحن معاشر الأنبياء» ، فإذا كان لم يقل هكذا ، لم يقل : إن زكريا عليه السلام غير موروث .

قال المرتضى : وممّا يقوّى ما قدّمناه أنّ زكريّا عليه السلام خاف بنى عمّه ، فطلب وارثا لأجل خوفه ، ولا يليق خوفه منهم إلاّ بالمال دون العلم والنبوّة ، لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيا ليس بأهل للنبوّة ، وأن يؤرّث علمه وحكمته من ليس أهلا لها ، ولأنّه إنّما بُعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس ، فلا يجوز أن يخاف من الأمرالذى هو الغرض فى البعثة^(١) . فإن^(٢) قيل : هذا يرجع عليكم فى الخوف عن إرث المال لأنّ ذلك غاية الضنّ والبخل . قلنا : معاذ الله أن يستوى الحال ، لأنّ المال قد يصحّ أن يرزقه الله تعالى المؤمن والكافر والعدوّ والولىّ ، ولا يصحّ ذلك فى النبوّة وعلومها . وليس من الضنّ أن يأسى على بنى عمّه - وهم من أهل الفساد - أن يظفروا بماله فينفقوه على المعاصى ، ويصرفوه فى غير وجوهه المحبوبة ، بل ذلك غاية الحكمة وحسن التدبير فى الدّين ، لأنّ الدّين يحظر تقوية الفساق وإمدادهم بما يُعينهم على طرائقهم المذمومة ، وما يعدّ ذلك شحّا ولا بخلا إلاّ من لا تأمل له .

فإن قيل : أفلا^(٣) جاز أن يكون خاف من بنى عمّه أن يرثوا علمه ، وهم من أهل الفساد على ما ادّعيتم فيستفسدوا به الناس ، ويموّهوا به عليهم ؟ قلنا : لا يخلو هذا العلم الذى أشرتم إليه من أن يكون هو كتب علمه وصحف حكمته لأنّ ذلك قد يسمّى علما على طريق المجاز ، أو يكون هو العلم الذى يحلّ القلب . فإن كان الأوّل فهو يرجع إلى معنى المال ، ويصحّ أن الأنبياء يؤرّثون أموالهم وما فى معناها ، وإن كان الثانى لم يخلُ هذا من أن يكون هو العلم الذى بُعث النبىّ لنشره وأدائه ، أو أن يكون علما مخصوصا لا يتعلّق بالشريعة ، ولا يجب إطلاع جميع الأمة عليه ، كعلم العواقب وما يجرى فى مستقبل الأوقات ، وما جرى مجرى ذلك . والقسم الأوّل لا يجوز على النبىّ أن يخاف من وصوله إلى بنى عمّه وهم من جملة أمته الذين بعث لإطلاعهم على ذلك ، وتأديته إليهم ، وكأنّه على هذا الوجه يخاف ممّا هو الغرض من بعثته . والقسم الثانى فاسدٌ أيضا ، لأنّ

(١) والشاق : « يعثه » . (٢) د : « قال فإن قيل » . (٣) ا ، د : « فألا » .

هذا العلم المخصوص إنما يستفاد من جهته ، ويُوقف عليه بإطلاعه وإعلامه ؛ وليس هو مما يجب نشره في جميع الناس ، فقد كان يجب إذا خاف من إلقائه إلى بعض الناس فساداً ألا يلقيه إليه ، فإن ذلك في يده ، ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك^(١) .

قلت : لعكس أن يعكس هذا على المرتضى رحمه الله حينئذ ، ويقول له : وقد كان يجب إذا خاف من أن يرث بنو عمه أمواله فينفقوها في الفساد أن يتصدق بها على الفقراء والمساكين ، فإن ذلك في يده ، فيحصل له ثواب الصدقة ، ويحصل له غرضه من حرمان أولئك المفسدين ميراثه .

قال المرتضى رضى الله عنه : ومما يدل على أن الأنبياء يورثون قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾^(٢) ، والظاهر من إطلاق لفظة « الميراث » يقتضى الأموال وما في معناها على ما دللنا به من قبل .

قال : ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ . . . ﴾^(٣) الآية ، وقد أجمعت الأمة على عموم هذه اللفظة إلا من أخرجه الدليل ، فيجب أن يتمسك بعمومها ، لمكان هذه الدلالة ، ولا يخرج عن حكمها إلا من أخرجه دليل قاطع^(١) .

قلت : أمّا قوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ ، فظاهرها يقتضى وراثته النبوة أو الملك أو العلم الذى قال في أوّل الآية : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا . . . ﴾ لأنه لا معنى لذكر ميراث سليمان المال ، فإن غيره من أولاد داود قد ورث أيضاً أباه داود ؛ وفي كتب اليهود والنصارى أن بنى داود كانوا تسعة عشر ، وقد قال بعض المسلمين أيضاً ذلك : فأى معنى في تخصيص سليمان بالذكور إذا كان إرث المال ! وأمّا : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ ﴾ ، فالبحث في تخصيص ذلك بالخبر فرع من فروع مسألة خبر الواحد ؛ هل هو حجة في

(١) الشافى ٢٢٩ ، ٢٣٠ . سورة النمل ١٦ .

(٢) سورة النساء ١١ .

الشرعيّات أم لا ! فإن ثبت مذهب المرتضى في كونه ليس بحجّة فكلّامه هنا جيّد ، وإن لم يثبت فلا مانع من تخصيص العموم بالخبر ، فإنّ الصحابة قد خصّصت عمومات (١) الكتاب بالأخبار في مواضع كثيرة .

قال المرتضى : وأمّا تعلق صاحب الكتاب بالخبر الذي رواه أبو بكر وادّعاؤه أنّه أستشهد عمر وعثمان وفلانا وفلانا ، فأول ما فيه أن الذي ادّعه من الاستشهاد غير معروف ، والذي روى أنّ عمر أستشهد هؤلاء نفر لثما تنازع (٢) أمير المؤمنين عليه السلام والعبّاس رضى الله عنه في الميراث ، فشهدوا بالخبر المتضمّن لنفي الميراث ، وإنّما مقول مخالفينا في صحّة الخبر الذي رواه أبو بكر عند مطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث على إمساك الأمّة عن النكير عليه ، والرّد لتضيّته (٣) .

قلت : صدق المرتضى رحمه الله فيما قال ، أمّا عقيب وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله ، ومطالبة فاطمة عليها السلام بالإرث ، فلم يرو الخبر إلاّ أبو بكر وحده . وقيل : إنه رواه معه مالك بن أوس بن الحدثان ؛ وأمّا المهاجرون الذين ذكّرهم قاضي القضاة فإنّما شهدوا بالخبر في خلافة عمر ؛ وقد تقدّم ذكر ذلك .

قال المرتضى : ثمّ لو سلّمنا استشهاد من ذكر على الخبر لم يكن فيه حجّة ، لأنّ الخبر على كلّ حال لا يخرج من أن يكون غير موجب للعلم ، وهو في حكم أخبار الآحاد ، وليس يجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن بما يجري هذا المجرى ، لأنّ المعلوم لا يُخصّ إلاّ بمعلوم ، وإذا كانت دلالة الظاهر معلومة ، لم يجوز أن يخرج عنها بأمرٍ مظنون .

قال : وهذا الكلام مبنيّ على أن التخصيص للكتاب والسنة المتطوع بها لا يقع

(١) ا ، د : « عموم » . (٢) ا والشافى : « نازع » . (٣) الشافى ٢٣٠ .

بأخبار الآحاد ، وهو المذهب الصحيح . وقد أشرنا إلى ما يمكن أن يُعتمد في الدلالة عليه من من أن الظن لا يقابل العلم ، ولا يرجع عن المعلوم بالظنون . قال : وليس لهم أن يقولوا : إنَّ التخصيص بأخبار الآحاد يستند أيضا إلى علم ، وإن كان الطريق مظنونا ، ويشيروا إلى ما يدعونه من الدلالة على وجوب العمل بخبر الواحد في الشريعة ، وأنَّه حجة ، لأنَّ ذلك مبنى من قولهم على ما لانسلّمه ، وقد دلَّ الدليل على فسادِه - أعنى قولهم : خبر الواحد حجة في الشرع - على أنَّهم لو سلّم لهم ذلك لأحتاجوا إلى دليل مستأنف على أنَّه يقبل في تخصيص القرآن ؛ لأنَّ ما دلَّ على العمل به في الجملة لا يتناول هذا الموضوع ، كما لا يتناول جواز النسخ به (١) .

قلت : أمّا قول المرتضى : لو سلّمنا أنَّ هؤلاء المهاجرين الستة رووه لما خرج عن كونه خبرا واحدا ، ولما جاز أن يرجع عن عموم الكتاب به ، لأنَّه معلوم ، والخبر مظنون .

ولقائل أن يقول : ليته حصل في كلِّ واحد من آيات القرآن رواية مثل هذه الستة ، حيث جمع القرآن على عهد عثمان ومن قبله من الخلفاء ، فإنهم بدون هذا العدد كانوا يعملون في إثبات الآية في المصحف ، بل كانوا يحلفون من أتاها بالآية . ومن نظر في كتب التواريخ عرّف ذلك ، فإن كان هذا العدد إنما يفيد الظنَّ فالقول في آيات الكتاب كذلك ، وإن كانت آيات الكتاب أثبتت عن علم مستفاد من رواية هذا العدد ونحوه ، فالخبر مثل ذلك .

فأمّا مذهب المرتضى في خبر الواحد فإنه قولٌ أنفرد (٢) به عن سائر الشيعة ، لأنَّ من قبله من فقهاءهم ما عولوا في الفقه إلا على أخبار الآحاد كزُرارة ، ويونس ، وأبي بصير ، وأبني بابويه ، والحلي ، وأبي جعفر القمي وغيرهم ، ثم من كان في عصر المرتضى منهم

كأبي جعفر الطوسي وغيره ، وقد تكلمت في ” اعتبار الذريعة “ ، على ما اعتمد عليه في هذه المسألة ، وأمّا تخصيص الكتاب بخبر الواحد فالظاهر أنّه إذا صحّ كون خبر الواحد حجة في الشرع ، جاز تخصيص الكتاب به ، وهذا من فنّ أصول الفقه ، فلا معنى لذكره هنا .

* * *

قال المرتضى رضي الله عنه : وهذا يُسقط قولَ صاحب الكتاب : إنّ شاهدين لو شهدا أنّ في التركة حقًا لكان يجب أن ينصرف^(١) عن الإرث ، وذلك لأنّ الشهادة وإن كانت مظنونةً فالعمل بها يستند^(٢) إلى علم ، لأنّ الشريعة قد قرّرت العمل بالشهادة ولم تقرّر العمل بخبر الواحد ، وليس له أن يقبس خبر الواحد على الشهادة من حيث اجتماعا في غلبة الظنّ ، لأنّنا لا نعمل على الشهادة من حيث غلبة الظنّ دون ما ذكرناه من تقرير الشريعة العمل بها ؛ ألا ترى أنّنا قد نظنّ بصدق الفاسق والمرأة والصبيّ وكثير ممّن لا يجوز العمل بقوله ! فبان أنّ المعوّل في هذا على المصلحة التي نستفيدها على طريق الجملة من دليل الشرع .

قال : وأبو بكر في حكم المدعي لنفسه والجار إليها بخلاف ما ظنّه صاحب الكتاب ، وكذلك من شهد له إن كانت هناك شهادة^(٣) ، وذلك أنّ أبا بكر وسائر المسلمين سوى أهل بيت الرسول صلّى الله عليه وآله يحملّ لهم الصدقة ، ويجوز أن يصيبوا فيها ، وهذه تهمة في الحكم والشهادة .

قال : وليس له أن يقول : فهذا يقتضى ألا يقبل شهادة شاهدين في تركة فيها صدقة لمثل ما ذكرتم .

(١) ا ، د : « يصرّف » . (٢) الشافى : « استند » .

(٣) بعدها في الشافى : « قد وجدت » .

قال : وذلك لأنّ الشاهدين إذا شهدا في الصدقة^(١) فحظهما منها كحظ صاحب الميراث بل سائر المسلمين ، وليس كذلك حال تركة الرسول ؛ لأنّ كونها صدقة يحرّمها على ورثته ، ويبيحها لسائر المسلمين^(٢) .

قلت : هذا فرق غير مؤثر ، اللهمّ إلا أن يعنى به تهمة أبي بكر والشهود الستة في جرّ النفع إلى أنفسهم يكون أكثر من تهمتهم لو شهدوا على أبي هريرة مثلاً أن ما تركه صدقة ؛ لأنّ أهل أبي هريرة يشاركون في القسمة ، وأهل النبي صلى الله عليه وآله لا يشاركون الشهود فيما يصيبهم ، إذ هم لا تحلّ لهم الصدقة ، فتكون حصّة أبي بكر والشهود ممّا تركه رسول الله أكثر من حصّتهم ممّا يتركه أبو هريرة ، فيكون تطرّق التهمة إلى أبي بكر والشهود أكثر حسب زيادة حصّتهم ؛ وما وقفت للمرتضى على شيء أطرف من هذا ، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مات والمسلمون أكثر من خمسين ألف إنسان ، لأنّه قاد في غزاة تبوك عشرين ألفاً ، ثم وفدت إليه الوفود كلّها بعد ذلك ، فليت شعري كم مقدار ما يتوفّر على أبي بكر وستّة نفر معه ، وهم من جملة خمسين ألفاً ، بين ما إذا كان بنو هاشم وبنو المطلب - وهم حينئذ عشرة نفر - لا يأخذون حصّة ، وبين ما إذا كانوا يأخذون ! أتري أيكون المتوفّر على أبي بكر وشهوده من التركة عشر عشر درهم ! ما أظنّ أنّه يبلغ ذلك . وكم مقدار ما يقلل حصص الشهود على أبي هريرة إذا شركهم أهله في التركة ، لتكون هذه القلّة موجبة رفع التهمة ، وتلك الزيادة والكثرة موجبة حصول التهمة ! وهذا الكلام لا أرتضيه للمرتضى .

قال المرتضى رضى الله عنه : وأمّا قوله : يخصّ القران بالخبر^(٣) كما خصصناه في العبد والقاتل ، فليس بشيء ، لأنّا إنما خصصنا من ذكر دليل مقطوع عليه معلوم ، وليس هذا موجوداً في الخبر الذي ادّعاه . فأما قوله : وليس ذلك ينقص الأنبياء ، بل هو إجلال لهم ،

(١) كذا في ١ ، د والشاق ، وفي ب : « بالصدقة » . (٢) الشاق ٢٣٠ .

(٣) الشاق : « بذلك » .

فمن الذي قال له : إنَّ فيه^(١) نقصا ! وكما أنَّه لا نقص فيه ، فلا إجلالَ فيه ولا فضيلةَ ؛ لأنَّ الداعي وإن كان قد يقوَّى على جمع المال ليخلف على الورثة ، فقد يقوِّيه أيضا إرادة صرفه في وجوه الخير والبرِّ ، وكلا الأمرين يكون داعيا إلى تحصيل المال ، بل الداعي الذي ذكرناه أقوى فيما يتعلَّق بالدِّين .

قال : وأمَّا قوله : إنَّ فاطمة لما سمعت ذلك كفت عن الطلب ، فأصابت أولا وأصابت ثانيا ؛ فلعمري إنها كفت عن المنازعة والمشاحة ، لكنها انصرفت مغضبة متظلمة متألِّمة ؛ والأمر في غضبها وسخطها أظهرُ من أن يخفى على مُنصف ، فقد رَوَى أكثرُ الرواة الذين لا يُتَّهَمون بتشيع ولا عصبية فيه من كلامها في تلك الحال ، وبعد انصرافها عن مقام المنازعة والمطالبة ، ما يدلُّ على ما ذكرناه من سخطها وغضبها .

أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني قال : حدَّثني محمد بن أحمد الكاتب ، قال : حدَّثنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي ، قال : حدَّثني الزِّيادي ، قال : حدَّثنا الشَّرقيُّ ابن القطامي ، عن محمد بن إسحاق ، قال : حدَّثنا صالح بن كيسان ، عن عروة ، عن عائشة ، قالت : لما بلغ فاطمة إجماعُ أبي بكر على منعها فدكَ لاثتْ خمارها على رأسها ، واشتملت بجلباها ، وأقبلت في لَمَّة^(٢) من حَفَدَتِها . . .

قال المرتضى : وأخبرنا المرزباني قال : حدَّثنا أبو بكر أحمد بن محمد المكي قال : حدَّثنا أبو العيْناء بن القاسم اليماني قال : حدَّثنا ابن عائشة ، قال : لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبلت فاطمة إلى أبي بكر في لَمَّة من حَفَدَتِها . ثم اجتمعت الروايتان من ها هنا^(٣) . . . ونساء قومها تطأ ذُيولها ما تحرم مشيتُها مشية رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) د والشافى : « إنه نقص » . (٢) اللمة ، بالضم والتشديد : الرفقة والجماعة .

(٣) الشافى : « اتفقا من ها هنا » .

حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشدٍ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ، فَنِيَطت^(١) دونها ملاءة ، ثم أنت أنةً أَجْهَش لها القومُ بالبكاء ، وارتجَّ المجلس ، ثم أمهلت هنيهة حتى إذا سكن نَشِيحُ القومِ وهدأت فَوَرَّتْهم ، افتتحت كلامها بالحمد لله عزَّ وجلَّ والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ثم قالت : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) ، فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ، فبلغ الرسالة صادعا بالندارة^(٣) ، مائلا عن سنن المشركين ، ضاربا تَبَجْجهم ، يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، آخذاً بأَكْظَام^(٤) المشركين ؛ يهشم الأصنام ، ويفلِّق الهام ، حتى انهزم الجمع وولوا الدُّبُرَ ، وحتَّى تفرَّى^(٥) الليلُ عن صُبْحِهِ ، وأسفر الحقُّ عن محضه ، ونطق زعيم الدين ، وخرست شقائق الشياطين ، وتمت كلمة الإخلاص ، وكنتم على شفا حفرة من النار ، نهزة الطامع ، ومدقة الشارب ، وقبسة العجلان ، وموطأ الأقدام ، تشربون الطَّرْقَ^(٦) ، وتقتاتون القِدَّ ؛ أذلة خاسئين ، يختطفكم الناس من حولكم ، حتَّى أنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وآله بعد اللَّتْيَا والتي ، وبعد أن مُنِي بهم الرجال وذؤبان العرب ومرودة أهل الكتاب ، و ﴿ كَلِمًا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾^(٧) ، أو نجم قرن الشيطان ، أو فغرت فاغرة^(٨) قذف أخاه في لهواتها . ولا ينكفي^(٩) حتى يبطأ صماخها بإخمصه ويطنء عادية لَهْجها بسيفه - أو قالت : يحمد لها بجدّه - مكدودا في ذات الله ، وأنتم في رفاهية فِكْهُون آمنون وادِعون .

(١) نيطت : أى وصلت وعلقت . (٢) سورة التوبة ١٢٨ .

(٣) د : « صادرا بالتذكرة » .

(٤) الأَكْظَام : جمع كظم ، بالتحريك ؛ وهو مخرج النفس من الحلق .

(٥) تفرى : انشق . (٦) الطرق : الماء الذى بالث الإبل فيه .

(٧) سورة المائدة ٦٤ . (٨) فغرت فاغرة : أى فتحت فاهها .

(٩) د : « فلا تنكفي » .

إلى هنا انتهى خبرُ أبي العيْناء عن ابن عائشة. وأما عروة عن عائشة ، فزاد بعد هذا: حتّى إذا اختار الله لنبيه دار أنبيائه ، ظهرتُ حسيكَةُ النفاق ، وشمل جلباب الدين ، ونطق كالظم الغاوين ، ونبغَ خامل الآفكين ، وهدرَ فنيق البُطلين ، فخطر في عَرَصَاتِكُمْ ، وأطلع الشيطان رأسه صارخاً بكم ، فدعاكم فألّفاكم لدعوته مستجيبين ؛ ولقربه متلاخِظين . ثم استنهَضَكُمْ فوجدكم خِفافاً ، وأَمْشَكُمْ فألّفاكم غِضاباً ، فوسَّمتُم غيرَ إِبلكُم ، ووردتُم غيرَ شِرْبِكُم ، هذا والعهد قريب ، والكلمُ رحيبٌ ^(١) والجرح لَمَّا يندِمُ ، إنما زعمتم ذلك خوف الفتنة ، ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ^(٢) ، فهيهات ! وأنى بكم وأنى تؤفكون ، وكتاب الله بين أظهركم ، زواجه بيّنة ، وشواهد لائحة ، وأوامره واضحة . أرغبةً عنه تريدن ، أم لغيره تحكمون ؛ بئس للظالمين بدلاً ! ومن يتبع غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ مِنْهُ وهو في الآخرة من الخاسرين . ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها ، تُسرون حِسْوا في ارتغاء ، ونحن نصبر منكم على مثل حرّ المدي ، وأنتم الآن ترعمون أن لا إرث لنا ، ﴿ أَحْكُمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ ^(٣) .

يا بن أبي قحافة ، أترث أباك ولا أترث أبي ، لقد جئت شيئاً فرياً ! فدونها مخطومة مرحولة ، تلقاك يوم حشرِك ، فنعَم الحكم اللهُ ، والزعيمُ ، محمد ، والموعود القيامة ، وعند الساعة يحسر المبطون ! ثم انكفأت إلى قبر أبيها عليها السلام ، فقالت :

قد كان بعدك أبناءٌ وهنثئةٌ لو كنتَ شاهدَها لم تكثر الخُطْبُ
إذا فقدناك فقد الأرضَ وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغيّب

وروى حرمي بن أبي العلاء مع هذين البيتين بيتاً ثالثاً :

فليتَ بعدك كان الموت صادفنا لما قضيت وحالت دونك الكُتُبُ

(١) رحيب ، أى واسع . (٢) سورة التوبة ٤٩ .

(٣) سورة المائدة ٥٠ .

قال: فحمد أبو بكر الله وأثنى عليه وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم وقال: يا خَيْرَ^(١) النساء، وابنة خير الآباء^(٢)، والله ما عدتُ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عملتُ إلا بإذنه، وإن الرائد لا يكذب أهله، وإني أشهد الله وكفى بالله شهيدا؛ أنى سمعتُ رسول الله يقول، «إنا معاصر الأنبياء لا نورث ذهبا، ولا فضة ولا دارا ولا عقارا، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة».

قال: فلما وصل الأمر إلى علي بن أبي طالب عليه السلام كُلم في ردِّ فدك، فقال: إني لأستحي من الله أن أردَّ شيئا منع منه أبو بكر وأمضاه عمر^(٣).

قال المرتضى: وأخبرنا أبو عبد الله المرزباني: قال: حدثني علي بن هارون، قال: أخبرني عبيد الله بن أحمد بن أبي طاهر، عن أبيه قال: ذكرتُ لأبي الحسين زيد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام كلام فاطمة عليها السلام عند منع أبي بكر إياها فدك، وقلت له: إن هؤلاء يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبي العيناء، لأن الكلام منسوق البلاغة، فقال لي: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أولادهم، وقد حدثني به أبي عن جدِّي يبلغ به فاطمة عليها السلام^(٤) على هذه الحكاية، وقد رواه مشايخ الشيعة وتدارسوه قبل أن يوجد جدُّ أبي العيناء، وقد حدث الحسين بن علوان، عن عطية العوفي، أنه سمع عبد الله بن الحسن بن الحسن يذكر^(٥) عن أبيه هذا الكلام.

ثم قال أبو الحسن زيد: وكيف^(٦) تنكرون هذا من كلام فاطمة عليها السلام، وهم

(١) ١، د: «يا خيرة» . (٢) الشاف: «الأنبياء» .

(٣) الشاف: ٢٣٠ . (٤ - ٤) ساقط من د .

(٥) الشاف: د: «ذكر» . (٦) د: «كيف» .

يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة عليها السلام ويحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت . ثم ذكر الحديث بطوله على نسقه ، وزاد في الأبيات بعد البيتين الأولين :

ضاقتْ عليّ بلادى بعد ما رُحبتْ وسمَّ سببُك حَسفا فيه لى نَصَبُ
فليت قبلكَ كان الموتُ صادفنا قومٌ تمَنّوا فأعطوا كلَّ ما طلبوا
تجهممتنا رجالٌ واستخفَّ بنا مذغبت عنا وكلَّ الإرث قد غصبوا
قال : فما رأينا يوماً أ كثرَ با كيا أو با كية من ذلك اليوم .

قال المرتضى : وقد روى هذا الكلام على هذا الوجه من طُرُقٍ مختلفة ، ووجوه كثيرة ، فمن أرادها أخذها من مواضعها ، فكيف يدعى أنّها عليها السلام كفت راضية ، وأمست قاعة ، لولا البهت وقلة الحياء^(١) !

قلت : ليس في هذا الخبر ما يدلّ على فساد ما ادّعاه قاضى القضاة ، لأنه ادّعى أنّها نازعت وخاصمت ثم كفت لما سمعت الرواية وانصرفت ، تاركة للنزاع ، راضية بموجب الخبر المروى . وما ذكره المرتضى من هذا الكلام لا يدلّ إلا على سخطها حال حضورها ، ولا يدلّ على أنّها بعد رواية الخبر وبعد أن أقسم لها أبو بكر بالله تعالى أنه ماروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله إلا ما سمعه منه ، انصرفت ساخطة ؛ ولان في الحديث المذكور والكلام المروى ما يدلّ على ذلك ، ولست أعتقد أنّها انصرفت راضية كما قال قاضى القضاة ، بل أعلم أنّها انصرفت ساخطة ، وماتت وهى على أبى بكر واجدة ، ولكن لا من هذا الخبر ، بل من أخبار آخر ، كان الأولى بالمرتضى أن يحتجّ بها على

ما يرويه في انصرافها ساخطةً ، وموتها على ذلك السخط ، وأما هذا الخبر وهذا الكلام فلا يدلّ على هذا المطلوب .

قال المرتضى رحمه الله : فأما قوله : إنه يجوز أن يبيّن عليه السلام أنه لا حقّ لميراثه في ورثته لغير الورثة ، ولا يمتنع أن يرد من جهة الآحاد ، لأنه من باب العمل ، وكلّ (١) هذا بناء منه على أصوله الفاسدة في أنّ خبر الواحد حجّة في الشرع ، وأنّ العمل به واجب ، ودون صحّة ذلك خرط القتاد ؛ وإنما يجوز أن يبيّن من جهة أخرى (٢) إذا تساوى في الحجّة ووقوع العمل ، فأما مع تباينهما فلا يجوز التخيير فيهما ، وإذا كان ورثة النبي صلى الله عليه وسلم متعبدين بالأيرثوه ، فلا بدّ من إزاحة علمهم في هذه العبادة بأن يوقفهم على الحكم ، ويُشافِهم به ، ويلقيه إلى من يقيم الحجّة عليهم بنقله ، وكلّ ذلك لم يكن .

فأما قوله : أيجوزون صدقه في الرواية أم لا تجوزون ذلك ؟ فالجواب إنا لا نجوزّه ، لأنّ كتاب الله أصدق منه ، وهو يدفع روايته ويُبطلها ؛ فأما اعتراضه على قولنا : إنّ إطلاق الميراث لا يكون إلّا في الأموال بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٣) . وقولهم : ماورثت الأبناء من الآباء شيئاً أفضل من أدب حسن ، وقولهم : العلماء ورثة الأنبياء ، فعجيب ، لأنّ كل ما ذكر مقيد غير مطلق ، وإنما قلنا إنّ مطلق لفظ الميراث من غير قرينة ولا تقييد يفيد بظاهره ميراث الأموال ، فبعد ما ذكره وعارض به لا يخفى على متأمّل .

فأما استدلاله على أنّ سليمان ورث داود علمه دون ماله بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ (٤) وأن المراد أنه

(١) الشافى : « فكل » . (٢) الشافى : « من جهة دون جهة » .

(٣) سورة فاطر ٣٢ .

(٤) سورة النمل ١٦ .

وَرِثَ الْعِلْمَ وَالْفَضْلَ ، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْقَوْلِ تَعَلُّقٌ بِالْأَوَّلِ ، فَلَيْسَ بِشَيْءٍ يَعْمَلُ عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ أَنَّهُ وَرِثَ الْمَالَ بِالظَّاهِرِ وَالْعِلْمَ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْأَسْتِدْلَالِ ، فَلَيْسَ يَجِبُ إِذَا دَلَّتِ الدَّلَالَةُ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ عَلَى مَعْنَى الْمَجَازِ أَنْ يَقْتَصِرَ ^(١) بِهَا عَلَيْهِ ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَحْمِلَهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ الَّتِي هِيَ الْأَصْلُ إِذَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ ذَلِكَ مَانِعٌ ؛ عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَرِيدَ مِيرَاثَ الْمَالَ خَاصَّةً ، ثُمَّ يَقُولُ مَعَ ذَلِكَ : ﴿ إِنَّا عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ ﴾ ، وَيُشِيرُ بِ« الْفَضْلِ الْمُبِينِ » إِلَى الْعِلْمِ وَالْمَالِ جَمِيعًا ، فَهَلْ بِالْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَضْلٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمَا ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يَحْتَمِلُ الْمَالَ كَمَا يَحْتَمِلُ الْعِلْمَ ، فَلَيْسَ بِخَالِصٍ مَا ظَنَّنَهُ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ زَكَرِيَّا : إِنَّهُ خَافَ عَلَى الْعِلْمِ أَنْ يَنْدَرِسَ ، لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَحْرِصُونَ عَلَى الْأَمْوَالِ ، وَإِنَّمَا خَافَ أَنْ يَضِيعَ الْعِلْمُ ، فَسَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى وَلِيًّا يَقُومُ بِالذِّينِ مَقَامَهُ ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَإِنْ كَانُوا لَا يَحْرِصُونَ عَلَى الْأَمْوَالِ وَلَا يَبْخَلُونَ بِهَا ، فَإِنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي مَنَعِ الْمُسْئِدِينَ مِنَ الْإِتْتِفَاعِ بِهَا عَلَى الْفُسَادِ ، وَلَا يَعِدُّ ذَلِكَ بَخْلًا وَلَا حِرْصًا ^(٢) ، بَلْ فَضْلًا وَرِدِينًا ؛ وَلَيْسَ يَجُوزُ مِنْ زَكَرِيَّا أَنْ يَخَافَ عَلَى الْعِلْمِ الْأَنْدِرَاسَ وَالضِّيَاعَ ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى تَقْتَضِي حِفْظَ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْحِجَّةُ عَلَى الْعِبَادِ ، وَبِهِ تَنَزَّاهُ عَلَيْهِمْ فِي مَصَالِحِهِمْ ، فَكَيْفَ يَخَافُ مَا لَا يَخَافُ مِنْ مِثْلِهِ !

فَإِنْ قِيلَ : فَهَبُوا أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَنَّ زَكَرِيَّا كَانَ يَأْمَنُ عَلَى الْعِلْمِ أَنْ يَنْدَرِسَ ؛ أَلَيْسَ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَجُوزًا أَنْ ^(٣) يَحْفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَنْ هُوَ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقْرَبِهِ ، كَمَا يَجُوزُ حِفْظُهُ بِغَرِيبٍ أَعْجَبِي ! فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ خَوْفُهُ إِتْمَا كَانَ مِنْ بَنِي عَمِّهِ أَلَّا يَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَلَا يَقُومُوا فِيهِ مَقَامَهُ ، فَسَأَلَ اللَّهَ وَلَدًا يَجْمَعُ فِيهِ هَذِهِ الْعُلُومَ حَتَّى لَا يُخْرَجَ الْعِلْمُ عَنْ بَيْتِهِ ، وَيَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِ قَوْمِهِ ، فَيَلْحَقَهُ بِذَلِكَ وَصْمَةٌ !

(١) الشافى : « يقتصرها » . (٢) ب : « بخلا وحرصا » .

(٣) الشافى « لأن » .

قلنا : أمّا إذا رتبّ السؤال هذا الترتيب ، فالجواب عنه ما أجبنا به صاحب الكتاب ، وهو أنّ الخوف الذي أشاروا إليه ليس من ضررٍ دينيٍّ ، وإثمها هو من ضررٍ دُنْيَاوِيٍّ ، والأنبياء إنّما بُعثوا لتحتمل المصائر الدنياوية ، ومنازلهم في الثواب إنّما زادت على كلّ المنازل لهذا الوجه ، ومن كانت حاله هذه الحال ، فالظاهر من خوفه إذا لم يعلم وجهه بعينه أن يكون محمولا على مصائر الدين ، لأنّها هي جهة خوفهم ، والغرض في بعثهم تحمّل ما سواها من المصائر ، فإذا قال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ : « أنا خائف » ، فلم يُعلم جهة خوفه على التفصيل ، يجب أن يصرف خوفه بالظاهر إلى مصائر الدين دون الدنيا ، لأنّ أحوالهم وبعثهم ^(١) يقتضى ذلك ، فإذا كنّا لو اعتدنا من بعضنا الزهد في الدنيا وأسبابها ، والتعفف عن منافعها ، والرغبة في الآخرة ، والتفرد ^(٢) بالعمل لها ، لكنّا نحمل على ما يظهر لنا من خوفه الذي لا يعلم وجهه بعينه على ما هو أشبه وأليقُ بحاله ، ونضيفه إلى الآخرة دون الدنيا ، وإذا كان هذا واجباً فيمن ذكرناه فهو في الأنبياء عليهم السلام أوجب ^(٣) .

قلت : ينبغي ألا يقول المعارض : فيلحقه بذلك وصمة ، فيجعل الخوف من هذه الوصمة ، بل يقول : إنّ خاف ألا يُفاجئ بنو عمّه ولا يتعلّموا العلم ، لما رأى من الأمارات الدالة على ذلك ، فالخوف على هذا الترتيب يتعلّق بأمر دينيٍّ لا دُنْيَاوِيٍّ ، فسأل الله تعالى أن يرزقه ولداً يرث عنه علمه ، أى يكون عالماً بالدينيات كما أنا عالم بها . وهذا السؤال متعلّق بأمر دينيٍّ لا دُنْيَاوِيٍّ . وعلى هذا يندفع ما ذكره المرتضى ؛ على أنّه لا يجوز إطلاق القول بأنّ الأنبياء بُعثوا لتحتمل المصائر الدنياوية ، ولا القول : الغرض في بعثهم تحمّل ما سوى المصائر الدينية من المصائر ؛ فإنّهم ما بعثوا لذلك ، ولا الغرض في بعثهم ذلك ، وإثمها بعثوا لأمرٍ آخر . وقد تحصل المصائر في أداء الشرع ضمناً وتبعاً ، لا على أنّها الغرض ، ولا داخلة

(١) الشافعي ٢٣٢ .

(٢) د : « والتعود » .

(٣) الشافعي : « بعثهم » .

في الغرض ، وعلى أن قول المرتضى : لا يجوز أن يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره ، لأنه محفوظ من الله ، فكيف يخاف ما لا يخاف من مثله ؛ غير مستمرّ على أصوله ! لأنّ المكلفين الآن قد حرّموا بغيبة الإمام عنده أطافا كثيرة الوصلة بالشرعيّات كالحلّود وصلاة الجمعة والأعياد ، وهو وأصحابه يقولون في ذلك إنّ اللوم على المكلفين ؛ لأنّهم قد حرّموا أنفسهم اللطف ، فهلاّ جاز أن يخاف زكريّا من تبديل الدين وتغييره ، وإفساد الأحكام الشرعيّة ! لأنّه إنّما يجب على الله تعالى التبليغ بالرسول إلى المكلفين فإذا أفسدوا هم الأديان وبدّلوها لم يجب عليه أن يحفظها عليهم ، لأنّهم هم الذين حرّموا أنفسهم اللطف .

واعلم أنّه قد قرئ : ﴿ وَإِنِّي خَفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ (١) ؛ وقيل : إنّها قراءة زين العابدين وابنه محمد بن عليّ الباقر عليهما السلام وعثمان بن عفّان . وفسّروه على وجهين :

أحدهما أن يكون « ورأى » بمعنى خافى وبعدى ، أى قلت الموالى ومجربوا عن إقامة الدين ، تقول : قد خفّ بنو فلان ، أى قلّ عددهم ، فسأل زكريّا ربّه تقويّتهم ومظاهرهم بوليّ يرزقه .

وثانيهما أن يكون « ورأى » بمعنى قدّامى ، أى خفّ الموالى وأنا حتى ودّرَجوا وانقرضوا ، ولم يبقَ منهم من به اعتضاد ؛ وعلى هذه القراءة لا يبق متعلق بلفظة الخوف . وقد فسّر قوم قوله : ﴿ وَإِنِّي خَفْتُ الْمَوَالِيَ ﴾ ، أى خفتُ الذين يلون الأمر من بعدي ، لأنّ المولى يستعمل في الوالى ، وجمعه موالٍ ، أى خفت أن يلى بعد موتى أمراء ورؤساء يُفسدون شيئاً من الدين ، فارزقنى ولداً تُنعم عليه بالنبوة والعلم ، كما أنعمت

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ١١ : ٧٧ .

عليّ ، واجعل الدين محفوظا [به]^(١) ؛ وهذا التأويل غير منكر ، وفيه أيضاً دفع
لكلام المرتضى .

قال المرتضى : وأما تعلق صاحب الكتاب في أن الميراث محمول على العلم بقوله :
﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ؛ لأنه لا يرث أموال آل يعقوب في الحقيقة وإنما يرث ذلك
غيره ، فبعيد من الصواب ؛ لأنّ ولد زكريّا يرث بالقرابة من آل يعقوب أموالهم ، على أنّه
لم يقل : « يرث آل يعقوب » ، بل قال : ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ ، تنبيهاً^(٢) بذلك
على أنّه يرث^(٣) من كان أحقّ بميراثه في القرابة^(٤) .

فأما طعنه على من تأوّل الخبر بأنه عليه السلام لا يورث ، ما تركه للصدقة بقوله :
إِنَّ أَحَدًا مِنَ الصَّحَابَةِ لَمْ يَتَأَوَّلْهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ ، فهذا التأويل الذي ذكرناه أحد ما قاله
أصحابنا في هذا الخبر ، فمن أين له إجماع الصحابة على خلافه ! وإنّ أحدًا لم يتأوّل
على هذا الوجه .

فإن قال : لو كان ذلك لظهر واشتهر ، ولو قف أبو بكر عليه ، فقد مضى من الكلام
فيما يمنع من الموافقة على هذا المعنى ما فيه كفاية .

قلت : لم يكن ذلك اليوم - أعني يوم حضور فاطمة عليها السلام ، وقولها لأبي بكر
ما قالت - يوم تقيّة وخوف ، وكيف يكون يوم تقيّه وهي تقول له - وهو الخليفة : يا بن
أبي قحافة ، أرت أباك ولا أرت أبي ! وتقول له أيضاً : لقد جئت شيئاً فرياً ! فكان ينبغي
إذا لم يؤثّر أمير المؤمنين عليه السلام أن يفسّر لأبي بكر معنى الخبر أن يُعلم فاطمة عليها

(١) تكملة من د . (٢) د : « منها » .

(٣) ١ ، د : « يورث » . (٤) الشافق ٢٣٢ .

السلام تفسيره ، فتقول لأبي بكر : أنت غلط فيما ظننت ، إنما قال أبي : ما تركناه صدقة ، فإنه لا يُورث .

واعلم أن هذا التأويل كاد يكون مدفوعا بالضرورة ، لأن من نظر في الأحاديث التي ذكرناها وما جرت عليه الحال يعلم بطلانه علما قطعيا .

قال المرتضى : وقوله إنه لا يكون إذ ذلك تخصيصٌ للأنبياء ولا مزية : ليس بصحيح ، وقد قيل في الجواب عن هذا : إن النبي صلى الله عليه وآله يجوز أن يريد أن ما ننوي فيه الصدقة ، ونفرد لها من غير أن نخرجه عن أيدينا لا تناله ورثتنا . وهذا تخصيص للأنبياء ومزية ظاهرة^(١) .

قلت : هذه مخالفة لظاهر الكلام ، وإحالة اللفظ^(٢) عن وضعه ، وبين قوله : ما ننوي فيه الصدقة ، وهو بعد في ملكنا ليس بموروث ؛ وقوله : ما نخلّفه صدقة ليس بموروث فرّق عظيم ، فلا يجوز أن يُراد أحد المعنيين باللفظ المفيد للمعنى الآخر ، لأنه إلباسٌ وتعمية . وأيضا ، فإن العلماء ذكروا خصائص الرسول في الشرعيات عن أمته وعدّوها ، نحو حِلِّ الزيادة في النكاح على أربع ، ونحو النكاح بلفظ الهبة على قول فرقة من المسلمين ، ونحو تحريم أكل البصل والثوم عليه ، وإباحة شرب دمه ، وغير ذلك ، ولم يذكروا في خصائصه أنه إذا كان قد نوى أن يتصدق بشيء فإنه لا يناله ورثته ، لو قدرنا أنه يورث الأموال ، ولا الشيعة قبل المرتضى ذكرت ذلك ، ولا رأينا في كتاب من كتبهم ، وهو مسبوق بإجماع طائفته عليه ، وإجماعهم عندهم حجة .

قال المرتضى : فأما قوله : إن قوله عليه السلام : ما تركناه صدقة ، جملة من الكلام

(٢) د : « اللفظ » .

(١) الشافعي ٢٣٢ .

مستقلة بنفسها ، فصحيح إذا كانت لفظة « ما » مرفوعةً على الابتداء ، ولم تكن منصوبةً بوقوع الفعل عليها ، وكانت لفظة « صدقة » أيضا مرفوعة غير منصوبة ، وفي هذا وقع النزاع ، فكيف يدعى أنها جملة مستقلة بنفسها ! وأقوى ما يمكن أن نذكره أن نقول : الرواية جاءت بلفظ « صدقة » بالرفع ، وعلى ما تأولتموه لا تكون إلا منصوبةً ، والجواب عن ذلك أننا لا نسلّم الرواية بالرفع ، ولم تجر عادة الرواة بضبط ما جرى هذا المجرى من الإعراب ، والأشبهاء يقع في مثله ، فمن حَقَّق منهم وصرح بالرواية بالرفع يجوز أن يكون أُشْتَبِه عليه فظنّها مرفوعةً ، وهي منصوبة^(١) .

قلت : وهذا أيضا خلاف الظاهر ، وفتح الباب فيه يؤدّي إلى إفساد الاحتجاج بكثير من الأخبار .

قال : وأما حكايته عن أبي عليّ أن أبا بكر لم يدفع إلى أمير المؤمنين عليه السلام السيف والبلغلة والعمامة على جهة الإرث ؛ وقوله : كيف يجوز ذلك مع الخبر الذي رواه ! وكيف خصّصه بذلك دون العمّ الذي هو العصبة ! فما زاهد زاد على التعجّب ، ومما عجب منه عجبنا ، ولم يثبت عصمة أبي بكر فينتفي عن أفعاله التناقض^(٢) .

قلت : لا يشكّ أحد في أن أبا بكر كان عاقلا ، وإن شكّ قوم في ذلك فالعاقِل في يومٍ واحد لا يدفع فاطمةَ عليها السلام عن الإرث ويقول : إنّ أباك قال لي : إنني لا أورث ثم يورث في ذلك اليوم شخصا آخر من مال ذلك المتوفّي الذي حكى عنه أنه لا يورث وليس أتنفاه هذا التناقض عن أفعاله موقوفا على العصمة ، بل على العقل .

قال المرتضى : وقوله يجوز أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَحَلَهُ إِيَّاهُ وَتَرَكَهُ أَبُو بَكْرٍ
وِي يَدِهِ - لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَقْوِيَةِ الدِّينِ - وَتَصَدَّقَ بِبَدَلِهِ ؛ وَكُلَّ مَا ذَكَرَهُ جَائِزٌ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ
كَانَ يَجِبُ أَنْ يَظْهَرَ أَسْبَابُ النَّحْلَةِ وَالشَّهَادَةِ بِهَا ، وَالْحِجَّةُ عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَظْهَرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ
فَنَعْرِفُهُ ، وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ تَدَّعَى فَاطِمَةُ فَدَكَ نَحْلَةً ، وَتَسْتَشْهَدُ عَلَى قَوْلِهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ وَغَيْرَهُ ، فَلَا يُصْنَعُ إِلَى قَوْلِهَا ، وَيَتْرَكُ السَّيْفُ وَالْبَغْلَةُ وَالْعِمَامَةُ فِي يَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
سَبِيلِ النَّحْلَةِ بَغَيْرِ بَيْتَةِ ظَهْرَتْ ، وَلَا شَهَادَةٍ قَامَتْ (١) !

قلت : لعلَّ أبا بكرٍ سمعَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهُوَ يَنْحَلُّ ذَلِكَ عَلَيَّاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
فَلِذَلِكَ لَمْ يَحْتَجَّ إِلَى الْبَيْتَةِ وَالشَّهَادَةِ ، فَقَدْ رَوَى أَنَّهُ أَعْطَاهُ خَاتَمَهُ وَسَيْفَهُ فِي مَرَضِهِ وَأَبُو بَكْرٍ
حَاضِرٌ ، وَأَمَّا الْبَغْلَةُ فَقَدْ كَانَ نَحَلَهُ إِيَّاهَا فِي حِجَّةِ الْوَدَاعِ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الرَّوَايَةُ ؛
وَأَمَّا الْعِمَامَةُ فَسَلَبَ الْمَيِّتِ ، وَكَذَلِكَ الْقَمِيصُ وَالْحِجْرَةُ (٢) وَالْحِذَاءُ ، فَلِغَاذَةِ أَنْ يَأْخُذَ ذَلِكَ
وَلَدَ الْمَيِّتِ ؛ وَلَا يَنَازَعُ فِيهِ لِأَنَّهُ خَارِجٌ ، أَوْ كَالخَارِجِ عَنِ التَّرِكَةِ ، فَلَمَّا غَسَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
أَخَذَتْ ابْنَتُهُ ثِيَابَهُ الَّتِي مَاتَ فِيهَا ، وَهَذِهِ عَادَةُ النَّاسِ ، عَلَى أَنَّا قَدْ ذَكَرْنَا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ
كَيْفَ دَفَعَ إِلَيْهِ آلَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَحِذَاءَهُ وَدَابَّتَهُ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ اجْتِهَادًا
لِمَصْلَحَةٍ رَأَاهَا ؛ وَلِلْإِمَامِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ .

قال المرتضى : على أنه كان يجب على أبي بكر أن يبين ذلك ، ويذكر وجهه بعينه ، لما
نازع العباس فيه ، فلا وقت لذكر الوجه في ذلك أولى من هذا الوقت (٣) .

قلت : لم ينازع العباس في أيام أبي بكر ، لا في البغلة والعمامة ونحوها ، ولا في غير

(١) الشافق ٢٣٢ ، ٢٣٣ . (٢) حجة الإزار : معقده .

(٣) الشافق ص ٢٣٣ .

ذلك ، وإنما نازع عليًا في أيام عمر ، وقد ذكرنا كيفية المنازعة ، وفيماذا كانت .

قال المرتضى رضى الله عنه في البردة والقضيب : إن كان نحلةً ، أو على الوجه الآخر ، يجرى مجرى ما ذكرناه في وجوب الظهور والاستشهاد ، ولسنا نرى أصحابنا - يعنى المعتزلة - يطالبون أنفسهم في هذه المواضع بما يطالبوننا بمثله إذا ادّعينا وجوهاً وأسباباً وعللاً مجوزةً ، لأنهم لا يقنعون منا بما يجوز ويمكن ؛ بل يوجبون فيما ندّعيه الظهور والاستشهاد ، وإذا كان هذا عليهم نسؤه أو تناسوه (١) .

قلت : أمّا القضيب فهو السيف الذى نَحَلَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله عليًا عليه السلام فى مرضه ، وليس بذى الفقار ، بل هو سيفٌ آخر ؛ وأمّا البردة فإنه وهبها كعب ابن زهير ، ثم صار هذا السيف وهذه البردة إلى الخلفاء ، بعد تنقلات كثيرة مذكورة فى كتب التواريخ .

قال المرتضى : فأما قوله : فإن أزواج النبي صلى الله عليه وآله إنما طلبن الميراث لأنهن لم يعرفن رواية أبي بكر للخبر ، وكذلك إنما نازع على عليه السلام بعد موت فاطمة عليها السلام فى الميراث لهذا الوجه ، فمن أقبح ما يقال فى هذا الباب وأبعده عن (٣) الصواب ! وكيف لا يعرف أمير المؤمنين عليه السلام رواية أبي بكر ، وبها دُفعت زوجته عن الميراث ! وهل مثل ذلك المقام الذى قامته ، ومارواه أبو بكر فى دفعها يخفى على من هو فى أقاصى البلاد ، فضلاً عن هو فى المدينة حاضر شاهد يُراعى (٢) الأخبار ، ويعنى بها ! إن هذا لخروج فى المكابرة عن الحد ! وكيف يخفى على الأزواج ذلك حتى يطلبنه مرة بعد أخرى ، ويكون عثمان الرسول لهنّ ، والمطالب عنهنّ ، وعثمان على زعمهم أحدٌ من شهد

(١) الشافى ص ٢٣٣ . (٢) والشافى : « يعنى بالأخبار ويراعىها » . (٣) د : « من » .

أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا يُورَثُ ؛ وَقَدْ سَمِعَنَ عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنَّ بِنْتَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمْ تُوْرَثْ مَالَهُ وَلَا بَدَأَ أَنْ يَكُنَّ قَدْ سَأَلْنَ عَنِ السَّبَبِ فِي دَفْعِهَا ، فَذَكَرَ لَهِنَّ الْخَبْرَ ، فَكَيْفَ يَقَالُ : إِنَّهِنَّ لَمْ يَعْرِفْنَهُ (١) !

قلت : الصحيح أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يَنَازِعَ بَعْدَ مَوْتِ فَاطِمَةَ فِي الْمِيرَاثِ ، وَإِنَّمَا نَازَعَ فِي الْوَالِيَةِ لِغَدَاكَ وَغَيْرِهَا مِنْ صَدَقَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَجَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعَبَّاسِ فِي ذَلِكَ مَا هُوَ مَشْهُورٌ ، وَأَمَّا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا ثَبَتَ أَنَّهِنَّ نَازَعْنَ فِي مِيرَاثِهِ ، وَلَا أَنَّ عُمَانَ كَانَ الْمُرْسَلُ لَهِنَّ ، وَالْمَطَالِبُ عَنْهِنَّ ، إِلَّا فِي رِوَايَةِ شَاذَّةٍ ، وَالْأَزْوَاجُ لَمَّا عَرَفْنَ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ قَدْ دُفِعَتْ عَنِ الْمِيرَاثِ أَمَسَكْنَ ، وَلَمْ يَكُنَّ قَدْ نَازَعْنَ ، وَإِنَّمَا اكْتَفَيْنَ بِغَيْرِهِنَّ ، وَحَدِيثُ فَدَاكَ وَحَضُورَ فَاطِمَةَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ كَانَ بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّه لَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ النَّاسِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُتِيَ بَعْدَ عَوْدِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْمِيرَاثِ .

قال المرتضى : فإن قيل : فإذا كان أبو بكر قد حكم بالخطأ في دفع فاطمة عليها السلام عن الميراث ، واحتجَّ بخبرٍ لا حجة فيه ، فما بال الأمة أقرته على هذا الحكم ، ولم تُنكِرْ عليه ، وفي رضاها وإمساكها دليلٌ على صوابه (٢) !

قلت : قد مضى أنَّ ترك التَّكْيِيرِ لَا يَكُونُ دَلِيلَ الرِّضَا ، إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يَكُونُ لَهُ وَجْهٌ سِوَى الرِّضَا ، وَذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ قَوْلًا شَافِيًا ، وَقَدْ أَجَابَ أَبُو عُمَانَ الْجَاخِظُ فِي كِتَابِ « الْعَبَّاسِيَّةِ » عَنْ هَذَا السُّؤَالِ جَوَابًا حَسَنَ الْمَعْنَى وَاللَّفْظِ ، نَحْنُ

(١) الشافى ص ٢٣٣ .

(٢) الشافى ص ٢٣٣ .

نذكره على وجهه ، ليقابل بينه وبين كلامه في العثمانية وغيرها (١) .

قلت : ما كناه المرتضى رحمه الله في غير هذا الموضع أصلا ، بل كان ساخطا عليه ، وكناه في هذا الموضع ، وأستجد قوله ؛ لأنّ موافق غرضه ، فسبحان الله ، ما أشدّ حبّ الناس لعقائدهم !

قال : قال أبو عثمان : وقد زعم أناس أنّ الدليل على صدق خبرها - يعني أبا بكر وعمر - في منع الميراث وبراءة ساحتيهما ، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما . ثم قال : قد يقال لهم : لئن كان ترك النكير دليلا على صدقهما ، ليكون ترك النكير على المتظاهرين والمحتجّين عليهما ، والمطالبين لهما ، دليلا على صدق دعواهم ، أو أستحسان مقاتلهم ، ولا سيّما وقد طالت المناجاة ، وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكّية ، وأشدّت الموجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة عليها السلام ، حتّى إنّها أوصت ألاّ يصلى عليها أبو بكر ، ولقد كانت قالت له حين أتته طالبة بحقّها ، ومحتجة لرهطها : مَنْ يرثك يا أبا بكر إذا متّ ؟ قال : أهلى وولدى ؛ قالت : فما بالنّا لا نرث النبيّ صلى الله عليه وآله ! فمأّ منعها ميراثها وبخسها حقّها وأعتلّ عليها وجلح (٢) في أمرها ، وعانيت التهضم (٣) ، وأيست من النهرع ، ووجدت نشوة الضّعف وقلة الناصر ، قالت : والله لأدعون الله عليك ، قال : والله لأدعون الله لك ؛ قالت : والله لا أكلمك أبدا ، قال : والله لا أهرّك أبدا . فإن يكن ترك التّكير على أبي بكر دليلا على صواب منعها ؛ إنّ في ترك النكير على فاطمة عليها السلام دليلا على صواب طلبها ! وأدنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت ، وتذكيرها ما نسيت ، وصرّفها عن الخطأ ورفع قدرها عن البذاء (٤) ، وأن تقول هجرا (٥) ، أو تجور عادلا ، أو تقطع واصلا ؛ فإذا لم تجد لهم أنكروا على الخصمين جميعا فقد تكافأت

(١) الشافى ٢٣٣ . (٢) جلح في أمرها : جاهر به وكاشفها .

(٣) التهضم : الظلم ، وفي : « الهضم » . (٤) البذاء : الفحش .

(٥) الهجر : القبح من الكلام .

الأُمور ، واستتوت الأسباب ، والرجوع إلى أصل حكم الله من المواريث أولى بنا وبكم ، وأوجب علينا وعليكم .

قال : فإن قالوا : كيف تظنّ به ظلّمها والتعدّي عليها ! وكلّما ازدادت عليه غلظةً ازداد لها ليناً ورقةً ، حيث تقول له : والله لا أكلمك أبداً ، فيقول : والله لا أهرجك أبداً ، ثم تقول : والله لأدعون الله عليك ، فيقول : والله لأدعون الله لك ، ثم يحتمل منها هذا الكلام الغليظ ، والقول الشديد في دار الخلافة ، وبحضرة قريش والصحابة ، مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتّزّيه ، وما يجب لها من الرفعة والهيبه ! ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً متقرّباً ، كلام المعظم لحقّها ، المُكبر لمقامها ، والصائِن لوجهها ، المتحنن عليها : ما أحدهُ أعزّ على منك فقرا ، ولا أحبّ إلى منك غنى ، ولكنّي سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقول : « إنّنا معاشرَ الأنبياء لا نُورث ، ما تركناه فهو صدقة » ! قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظّم ، والسلامة من الجور ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريبا ، وللخصومة معتادا ، أن يُظهر كلامَ المظلوم ، وذلة المنتصف ^(١) وحَدَب ^(٢) الوامق ، ومِقة ^(٣) الحقّ . وكيف جعلتم ترك النكير حجّة قاطعة ، ودلالة واضحة ، وقد زعمتم أن عمر قال على منبره : مُتعتان كانتا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : متعة النساء ، ومتعة الحجّ ، أنا أمهَيّ عنهما ، وأعاقبُ عليهما ؛ فما وجدتم أحدا أنكر قوله ، ولا استشنع مخرج نهيه ، ولا خطّاه في معناه ، ولا تعجّب منه ، ولا استفهمه ! وكيف تقضون بترك النكير وقد شهد عمرُ يومَ السّقيفة وبعد ذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : « الأئمّة من قريش » ؛ ثم قال في شكاته : لو كان سالمٌ حيّاً ما تخالجنى فيه شكّ ، حين ^(٤) أظهر الشكّ في استحقاق كلّ واحد من السّنة الذين

(١) المنتصف : المستوفى حقه . (٢) وحذب الوامق ؛ أى وإنشاء الناظر .

(٣) المقة : التودد والحب . (٤) الشاقى : « حتى » .

جعلهم سُورَى ، وسالمٌ عبدٌ لامرأةٍ من الأنصار ، وهى أعتقتَه ، وحازتُ ميراثَه ، ثمَّ لم ينكر ذلك من قوله منكِر ، ولا قابل إنسان بين قوله ، ولا تعجّب منه ، وإِنَّمَا يكون تركُ النّكير على مَنْ لا رغبة ولا رهبة عنده دليلا على صدق قوله ، وصوابِ عمله ، فأما تركُ النّكير على من يملك الضّعة والرّفعة ، والأمر والنهى ، والقتل والاستحياء ، والحبس والإطلاق ، فليس بحجّة تَشْفِي ، ولا دلالة تضيء .

قال : وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولها ، وصواب عملها ، إمساك الصحابة عن خلعها ، والخروج عليهما ، وهم الذين وثبوا على عثمان فى أيسر من جحد التنزيل ، وردّ النصوص^(١) ؛ ولو كان كما تقولون وما تصفون ، ما كان سبيل الأمة فيهما إلا كسبيلهم فيه ، وعثمان كان أعزّ نفرا ، وأشرف رهطا ، وأكثر عددا وثرة ، وأقوى عدّة .

قلنا : إنهما لم يجحدا التنزيل ، ولم ينكرا النصوص ، ولكنهما بعد إقرارها بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ادعيا روايةً ، وتحدّثا بحديث لم يكن مُحالا كونه ، ولا ممتنعا فى حجج العقول مجيئه ، وشهد لهما عليه من علته مثل علتهما فيه . ولعلّ بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذا كان عدلا فى رهطه ، مأمونا فى ظاهره ، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة^(٢) ، ولا جرت عليه غدرة ، فيكون تصديقه له على جهة حُسن الظنّ ، وتعديل الشاهد ؛ ولأنّه لم يكن كثيرٌ منهم يعرف حقائق الحجج ، والذي يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم ، فلذلك قلّ النّكير وتواكل الناس ، فاشتبه الأمر ، فصار لا يُتخلّص إلى معرفة حقّ ذلك من باطله إلا العالم المتقدّم ، أو المؤيد المرشد ، ولأنّه لم يكن لعثمان فى صدور العوامّ وقلوب السّفلة والطّعام ما كان لهما من المحبة والهيبة ، ولأنّهما كانا أقلّ استئثارا بالنبيّ ، وتفصّلا بمال الله منه ، ومن شأن الناس إهمال السلطان ما وفرّ عليهم أموالهم ، ولم يستأثر بخراجهم ، ولم يعطل ثغورهم . ولأنّ الذى صنع أبو بكر

(١) د : « المنصوص » . (٢) الفجرة : الانبعاث فى المعاصى والفجور .

من منع العترة حقها ، والعمومة ميراثها ، قد كان موافقا لجلّة قريش وكبراء العرب ، ولأن
عثمان أيضا كان مضعوفاً في نفسه ، مستخفّاً بقدره ، لا يمنع صَيِّما ، ولا يَمِّعُ عدوًّا ؛ ولقد
وثب ناس على عثمان بالشم والقذف والتشنيع والنكير ، لأُمور لو أتى أضعافها وبلغ أقصاها
لما أُجترءوا على اغتيا به ، فضلا على مبادئه والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيَيْنَةُ بن حِصْن
له فقال له : أما إنّه لو كان عمر لقمعك ومَنَعك ؛ فقال عُيَيْنَةُ : إنَّ عمر كان خيرا لي منك ،
أرهبني فاتقاني .

ثم قال : والعجب أنا وجدنا جميع من خالفنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه
والقدر والوعيد ردّ كلِّ صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب إسنادا ،
وأصحّ رجالا ، وأحسن اتصالا ؛ حتّى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبيّ صلى الله عليه
وسلم نسخوا الكتاب ، وخصّوا الخبر العامّ بما لا يداني بعض ما ردّوه ، وأكذبوا قائله ،
وذلك أن كلِّ إنسان منهم إنما يجرى إلى هواه ، ويصدق ما وافق رضاه .
هذا آخر كلام الجاحظ (١) .

ثم قال المرتضى رضى الله عنه : فإن قيل : ليس ما عارض به الجاحظ من الاستدلال
بترك النكير ، وقوله : كما لم ينكروا على أبي بكر ، فلم ينكروا أيضا على فاطمة عليها
السلام ولا على غيرها من الطالبين بالإرث ، كالأزواج وغيرهنّ معارضة صحيحة ، وذلك
أن نكيرَ أبي بكر لذلك ، ودفعها والأحتجاج عليها ، ويكفيهم ويفنيهم عن تكلف
نكير آخر ، ولم ينكر على أبي بكر ما رواه منكر فيستغنوا بإنكاره (٢) .

قلنا : أوّل ما يُبطل هذا السؤال أنّ أبا بكر لم ينكر عليها ما أقامت عليه بعد

أحتجاجها من التظلم والتألم، والتمنيف والتبكيث، وقولها على ما رُوِيَ : والله لأدعون الله عليك ، ولا أكلمك أبدا ، وما جرى هذا المجرى ، فقد كان يجب أن ينكره غيره ، ومن المنكر الغضب على النصف . وبعد ، فإن كان إنكار أبي بكر مقنعا ومغنيا عن إنكار غيره من المسلمين فإنكار فاطمة حكمه ، ومقامها على التظلم منه . مغنٍ عن نكير غيرها ؛ وهذا واضح (١) .

الفصل الثالث

في أن فدك هل صحَّ كونها نِحْلَةَ رسول الله صلى الله عليه وآله
لفاطمة عليها السلام أم لا ؟

نذكر في هذا الفصل ما حكاه المرتضى عن قاضى القضاة فى " المغنى " ، وما أعترض به عليه ، ثم نذكر ما عندنا فى ذلك .

قال المرتضى حاكياً عن قاضى القضاة : ومما عظمت الشيعة القول فى أمر فدك ، قالوا : وقد روى أبو سعيد الخدرى أنه لما أنزلت : ﴿ وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ بِحَقِّهِ ﴾ (٢) ، أعطى رسول الله صلى الله عليه وآله فاطمة عليها السلام فدك ، ثم فعل عمر بن عبد العزيز مثل ذلك ، فردّها على ولدها . قالوا : ولا شك أن أبا بكر أغضبها ؛ إن لم يصحَّ كلّ الذى روى فى هذا الباب ، وقد كان الأجل أن يمنعهم التسكرم مما ارتكبوا منها فضلا عن الدين ، ثم ذكروا أنها استشهدت أمير المؤمنين عليه السلام وأمّ أيمن ، فلم يقبل شهادتهما ، هذا مع تركه أزواج النبي صلى الله عليه وآله فى حجرهن ، ولم يجعلها صدقة ، وصدقهن فى ذلك أن ذلك لهنّ ولم يصدقها .

(١) الشافى ٢٣٤ .

(٢) سورة الإسراء ٢٦ .

قال : والجواب عن ذلك أن أكثر ما يرؤون في هذا الباب غير صحيح ؛ ولسنا ننكر صحة ما روى من ادعائها فدك ، فأما أنها كانت في يدها فغير مسلم ، بل إن كانت في يدها لكان الظاهر أنها لها ، فإذا كانت في جملة التركة فالظاهر أنها ميراث ، وإذا كان كذلك فغير جائز لأبي بكر قبول دعواها ، لأنه لا خلاف في أن العمل على الدعوى لا يجوز ، وإنما يعمل على مثل ذلك إذا علمت صحته بمشاهدة ، أو ماجرى مجراها ، أو حصلت بينة أو إقرار ، ثم إن البيئنة لا بد منها ، وإن أمير المؤمنين عليه السلام لما خصمه اليهودى حاكمه ، وأن أم سلمة التي يطبق على فضلها لو ادعت نحلًا ما قبلت دعواها .

ثم قال : ولو كان أمير المؤمنين عليه السلام هو الوالى ، ولم يعلم صحة هذه الدعوى ، ما الذى كان يجب أن يعمل ؟ فإن قلتم : يقبل الدعوى ، فالشرع بخلاف ذلك ، وإن قلتم : يلتمس البيئنة ، فهو الذى فعله أبو بكر .

ثم قال : وأما قول أبي بكر : رجل مع الرجل ، وامرأة مع المرأة ، فهو الذى يوجبه الدين ، ولم يثبت أن الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام ، بل الرواية المنقولة أنه شهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله مع أم أيمن .

قال : وليس لأحد أن يقول : فلماذا ادعت ولا بينة معها ؟ لأنه لا يمتنع أن تجوز أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين ، أو تجوز عند شهادة من شهد لها أن تذكر غيره فيشهد ، وهذا هو الموجب على ملتصق الحق ، ولا عيب عليها في ذلك ، ولا على أبي بكر في التماس البيئنة ، وإن لم يحكم لها لما لم يتم ولم يكن لها خصم ، لأن التركة صدقة على ما ذكرنا ، وكان لا يمكن أن يعول في ذلك على يمين أو نكول ، ولم يكن في الأمر إلا ما فعله . قال : وقد أنكر أبو علي ما قاله السائل من أنها لما ردت في دعوى النحلة ادعته إرثًا ، وقال : بل كان طلبت الإرث قبل ذلك ، فلما سمعت منه الخبر كفت وادعت النحلة (١) .

قال : فأما فعل عمر بن عبد العزيز فلم يثبت أنه ردّه على سبيل النحلة ، بل عمل في ذلك ماعمله عمر بن الخطاب بأن أقرّه في يد أمير المؤمنين عليه السلام ليصرف غلاتها في المواضع التي كان يجعلها رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، فقام بذلك مدّة ، ثم ردّها إلى عمر في آخر سنته ، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز ؛ ولو ثبت أنه فعل بخلاف ما فعل السلف لكان هو المحجوج بفعلهم وقولهم . وأحد ما يقوى ما ذكرناه أن الأمر لما انتهى إلى أمير المؤمنين عليه السلام ترك فدك على ما كان ، ولم يجعله ميراثا لولد فاطمة ، وهذا يبيّن أن الشاهد كان غيره ، لأنه لو كان هو الشاهد لكان الأقرب أن يحكم بعلمه ؛ على أن الناس اختلفوا في الهبة إذا لم تقبض ، فعند بعضهم تستحق بالعقد ؛ وعند بعضهم أنها إذا لم تقبض يصير وجودها كعدمها ، فلا يمتنع من هذا الوجه أن يمتنع أمير المؤمنين عليه السلام من ردّها ، وإن صحّ عنده عقد الهبة ، وهذا هو الظاهر ، لأن التسليم لو كان وقع لظهر أنه كان في يدها ، ولكان ذلك كافيا في الاستحقاق ، فأما حُجْر أزواج النبي صلى الله عليه وآله فإنما تركت في أيديهنّ لأنها كانت لهنّ ، ونصّ الكتاب يشهد بذلك ، وقوله : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾^(١) . ورؤى في الأخبار أن النبي صلى الله عليه وآله قسم ما كان له من الحُجْر على نساءه وبناته . ويبيّن صحة ذلك أنه لو كان ميراثا أو صدقة لكان أمير المؤمنين عليه السلام لما أفضى الأمر إليه يغيّره .

قال : وليس لأحد أن يقول : إنما لم يغيّر ذلك لأن الملك قد صار له ، فتبرّع به ، وذلك أن الذي يحصل له ليس إرث فاطمة عليها السلام ، وهو الثمن من ميراث رسول صلى الله عليه وآله ، فقد كان يجب أن ينتصف لأولاد العباس وأولاد فاطمة منهن في باب الحُجْر ، ويأخذ هذا الحقّ منهنّ ، فتركه ذلك يدلّ على صحّة ما قلناه ، وليس يمكنهم بعد ذلك إلا التعلّق بالتقيّة^(٢) ، وقد سبق الكلام فيها .

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) التقيّة : الحيلة .

قال : ومما يَدُّ كرونه أن فاطمة عليها السلام لفضبها على أبي بكر وعمرَ أوصت ألاَّ يصلِّيَ عليها ، وأن تُدْفَنَ سرًّا منهما ، فدفت ليلا ، وهذا كما ادَّعوا رواية رَوَوْها عن جعفر بن محمد عليهما السلام وغيره ، أنَّ عمرَ ضربَ فاطمة عليها السلام بالسوط ، وضرب الزبير بالسيف ، وأن عمر قصد منزلها وفيه علىَّ عليه السلام والزبير والمقداد وجماعة ممَّن تخلف عن أبي بكر وهم مجتمعون هناك ، فقال لها : ما أحدٌ بعدَ أبيك أحبُّ إلينا منك ، وإيَّمُ الله لأن اجتمع هؤلاء النفر عندك لنحرقن عليهم ! فمنعت القومَ من الاجتماع .

قال : ونحن لا نصدِّق هذه الروايات ولا نجوزها . وأما أمر الصلاة فقد روى أنَّ أبا بكر هو الذي صلَّى على فاطمة عليها السلام ، وكبرَّ عليها أربعاً ، وهذا أحد ما استدللَّ به كثير من الفقهاء في التكبير على الميت ، ولا يصحَّ أيضا أنها دُفنت ليلا ، وإن صحَّ ذلك فقد دُفِنَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله ليلا ، ودُفِنَ عمرُ ابنه ليلا ، وقد كان أصحابُ رسول الله صلَّى الله عليه وآله يدفنون بالنهار ويدرِفون بالليل ، فما في هذا مما يطعن به ، بل الأقرب في النساء أنَّ دُفِنَ ليلا أسترَّ وأولى بالسنة .

ثم حكى عن أبي عليٍّ تكذيبَ ما روى من الضرب بالسوط ؛ قال : والمروى عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه كان يتولَّاها ، ويأتى القبر فيسلم عليهما مع تسليمه على رسول الله صلَّى الله عليه وآله ، روى ذلك عباد بن صُهيب ، وشعبة بن الحجاج ، ومهدى ابن هلال ، والدَّرَّاوردي ، وغيرهم ، وقد روى عن أبيه محمد بن عليٍّ عليه السلام وعن عليٍّ بن الحسين مثل ذلك ، فكيف يصحَّ ما ادَّعوه ! وهل هذه الرواية إلا كروايتهم على أن عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام هو إسرائيل والحسن ميكائيل والحسين جبرائيل وفاطمة ملك الموت ، وآمنة أمَّ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله ليلة القدر ! فإن صدَّقوا ذلك أيضاً قيل لهم : فعمر بن الخطاب كيف يقدر على ضرب ملك الموت ! وإن قالوا : لا نصدِّق ذلك ، فقد جوزوا ردَّ هذه الروايات ، وصحَّ أنه لا يجوز التعويل على هذا الخبر

وإنما يتعلق بذلك مَنْ غَرَضَهُ الإلحاد كالورّاق ، وابن الراوندى ، لأنَّ غرضهم القدح في الإسلام .

وحكى عن أبي عليّ أنه قال : ولم صار غضبها إن ثبت كأنه غضب رسول الله صلى الله عليه وآله من حيث قال : « فمن أغضبها فقد أغضبني » ، أولى من أن يقال : فمن أغضب أبا بكر وعمر فقد نافق وفارق الدين ؛ لأنه روى عنه عليه السلام قال : « حبُّ أبي بكر وعمر إيمان ، وبغضهما نفاق » ! ومن يورد مثل هذا فقصده الطعن في الإسلام ، وأن يتوهّم الناس أن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله نافقوا مع مشاهدة الأعلام ليضعفوا دلالة العلم في النفوس .

قال : وأما حديث الإحراق فلو صحّ لم يكن طعناً على عمر ، لأن له أن يهدّد من امتنع من المبايعات لإرادة للخلاف على المسلمين لكنه غير ثابت . انتهى كلام قاضي القضاة (١) .

قال المرتضى : نحن نبتديّ فندلّ على أن فاطمة عليها السلام ما ادّعت من نحلّ فدك إلا ما كانت مصيبة فيه ، وأن مانعها ومطالبها بالبيّنة متعنت ، عادلٌ عن الصواب ، لأنها لا تحتاج إلى شهادة وبيّنة ، ثم نعطف على ما ذكره على التفصيل ، فنتكلم عليه .

أما الذي يدلّ على ما ذكرناه فهو أنها كانت معصومة من الغلط ، مأمونا منها فعلُ القبيح ، ومن هذه صفته لا يحتاج فيما يدعيه إلى شهادة وبيّنة .

فإن قيل : دلّوا على الأمرين ، قلنا : بيان الأوّل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيراً ﴾ (٢) والآية تتناول جماعة منهم فاطمة

(١) نقله المرتضى في الشافي ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . (٢) سورة الأحزاب ٣٣ .

عليها السلام بما تواترت الأخبار في ذلك ، والإرادة هاهنا دلالة على وقوع الفعل للمراد .
 وأيضاً فيدلّ على ذلك قوله عليه السلام : « فاطمة بَصْعَةٌ مِنِّي ، مَنْ آذَاهَا فَقَدْ آذَانِي ،
 وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ » ، وهذا يدلّ على عصمتها ؛ لأنّها لو كانت ممن
 تقارف الذنوب لم يكن ممن يؤذيها مؤذيا له على كلّ حال ، بل كان متى فعل المستحقّ
 من ذمّها أو إقامة الحدّ عليها ، إن كان الفعل يقتضيه سارّاً له ومطيعاً ، على أنّنا لا نحتاج
 أن ننبّه هذا الموضع على الدلالة على عصمتها ، بل يكفي في هذا الموضع العلم بصدقها فيما
 ادّعته ، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين ، لأنّ أحداً لا يشكّ أنّها لم تدّع ما ادّعته
 كاذبة ، وليس بعد ألا تكون كاذبة إلا أن تكون صادقة ؛ وإنّما اختلفوا في هل يجب مع
 العلم بصدقها تسليم ما ادّعته يغير بيّنة أم لا يجب ذلك ، قال : الذي يدلّ على الفصل الثاني
 أنّ البيّنة إنّما تراد ليغيب في الظنّ صدق المدّعي ، ألا ترى أنّ العدالة معتبرة في الشهادات
 لما كانت مؤثّرة في غلبة الظنّ لما ذكرناه ، ولهذا جاز أن يحكم الحاكم بعلمه من غير شهادة
 لأنّ علمه أقوى من الشهادة ، ولهذا كان الإقرار أقوى من البيّنة ، من حيث كان أغلب
 في تأثير غلبة الظنّ ، وإذا قدّم الإقرار على الشهادة لقوّة الظنّ عنده ، فأولى أن يُقدّم العلم
 على الجميع ، وإذا لم يحتجّ مع الإقرار إلى شهادة لسقوط حكم الضعيف مع القوي لا يحتاج
 أيضاً مع العلم إلى ما يؤثّر الظنّ من البيّنات والشهادات .

والذي يدلّ على صحّة ما ذكرناه أيضاً أنّه لا خلاف بين أهل النقل في أنّ أعرابياً
 نازع النبيّ صلى الله عليه وآله في ناقة ، فقال عليه السلام : « هذه لي ؛ وقد خرجت إليك
 من ثمنها » ، فقال الأعرابيّ : من يشهدك بذلك ؟ فقال خزيمه بن ثابت : أنا أشهد بذلك ؛ فقال
 النبيّ صلى الله عليه وآله : « من أين علمت وما حضرت ذلك ؟ » قال : لا ، ولكن علمت
 ذلك من حيث علمت أنّك رسولُ الله ، فقال : « قد أجزت شهادتك ، وجعلتها شهادتين » ؛
 فسُمّيَ ذا الشهادتين .

وهذه القصة شبيهة لقصة فاطمة عليها السلام ، لأنّ خزيمَةَ اكتفى في العلم بأنّ النّاقَةَ له صَلَّى اللهُ عليه وآله ، وشهد بذلك من حيث علم أنّه رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله ، ولا يقول إلّا حقًا ، وأمضى النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله ذلك له من حيث لم يحضر الأبتياح وتسلم الثمن ، فقد كان يجب على مَنْ علم أنّ فاطمة عليها السلام لا تقول إلّا حقًا ألاّ يستظهر عليها بطلب شهادة أو بيّنة ؛ هذا وقد رُوِيَ أنّ أبا بكر لما شهد أمير المؤمنين عليه السلام كتب بتسليم (١) فدك إليها ، فأعرض عمر قضيتَه ، وخرق ما كتبه .

روى إبراهيم بن السعيد الثقفي ، عن إبراهيم بن ميمون ، قال : حدّثنا عيسى بن عبد الله ابن محمد بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه عن عليّ عليه السلام ، قال : جاءت فاطمة عليها السلام إلى أبي بكر وقالت : إنّ أبي أعطاني فدك ، وعليّ وأمّ أيمن يشهدان ، فقال : ما كنت لتقولِي على أبيك إلّا الحقّ قد أعطيتكِها ، ودعا بصحيفة من أدم فكتب لها فيها ؛ فخرجت فلقيت عمرَ ، فقال : من أين جئت يا فاطمة ؟ قالت : جئت من عند أبي بكر ، أخبرته أنّ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم أعطاني فدك ، وأنّ عليًّا وأمّ أيمن يشهدان لي بذلك ، فأعطانيها ، وكتب لي (٢) بها ؛ فأخذ عمر منها الكتاب ، ثم رجع إلى أبي بكر ، فقال : أعطيت فاطمة فدك ، وكتبت بها لها ؟ قال : نعم ، فقال : إنّ عليًّا يجرّ إلى نفسه ، وأمّ أيمن امرأة ؛ وبصق في الكتاب فحماه وخرّقه .

وقد رُوِيَ هذا المعنى من طرق مختلفة ، على وجوه مختلفة ، فمن أراد الوقوف عليها ، واستقصاءها أخذها من مواضعها .

وليس لهم أن يقولوا : إنّها أخبار آحاد ، لأنّها وإن كانت كذلك ، فأقلّ أحوالها أن توجب الظنّ ، وتمنع من القطع على خلاف معناها . وليس لهم أن يقولوا : كيف يسلم إليها

(١) ب : « يسلم » ؛ والصواب ما أثبتته من ١ ، د والشافي . (٢) الشافي : « وكتبها لي » .

فَدَكَ وهو يَرَوِي عن الرِّسُول أن ما خَلَّفَهُ صَدَقَةٌ ، وذلك لِأَنَّهُ لا تَنافِي بين الأمرين ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا سَلَّمَهَا على ما وَرَدَتْ به الرواية على سبيل التَّحُلُّ (١) ، فَلَمَّا وَقَمْتُ المِثْرَةَ بِالمِثْرَةِ رَوَى الخَبْرَ في معنى المِثْرَةِ ، فلا اِخْتِلافَ بين الأمرين .

فَأَمَّا إنكار صاحب الكتاب لكون فَدَكَ في يدها ، فما رأيناها أَعْتَمَدَ في إنكار ذلك على حِجَّةٍ ، بل قال : لو كان ذلك في يدها لكان الظاهر أنَّها لها (٢) . والأمر على ما قال ، فمن أين أَنَّهُ لم يَخْرُجْ عن يدها على وجه يقتضي الظاهرُ خلافَهُ ! وقد رَوَى من طرقٍ مُخْتَلِفَةٍ غير طريق أبي سعيد الذي ذكره صاحبُ الكتاب أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قولُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَتَتْ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ (٣) دعا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامَ فَأَعْطَاهَا فَدَكَ ! وَإِذَا كان ذلك مرويًا فلا معنى لدفعه بغير حِجَّةٍ .

وقوله : لا خلاف أنَّ العمل على الدعوى لا يجوز ، صحيح ، وقد بيَّنا أنَّ قولها كان معلوماً صحته ، وإِنَّمَا قولُهُ : إِنَّمَا يَعْمَلُ على ذلك متى علم صحته بشهادة أو ما يجري مجراها ، أو حصلت بيِّنة أو إقرار ، فيقال له : إِنَّمَا عَلِمْتَ بِمُشَاهَدَةٍ فَلِمَ يَكُنْ هُنَاكَ ، وإِنَّمَا بيِّنة فقد كانت على الحقيقة ، لِأَنَّ شَهَادَةَ أمير المؤمنين عليه السلام من أكبر البيِّنات وأعدلها ، ولكن على مذهبك أَنَّهُ لم تكن هناك بيِّنة ، فمن أين زعمت أَنَّهُ لم يكن هناك عِلْمٌ ! وإن لم يكن عن مشاهدة فقد أدخلت ذلك في جملة الأقسام .

فإن قال : لِأَنَّ قولها بمجردُه لا يكون جهةً للعلم ؛ قيل له : لم قلت ذلك ؟ أو ليس قد دللنا على أنَّها معصومة ، وأن الخطأ مأمونٌ عليها ! ثم لو لم يكن كذلك لكان قولها في تلك القضية معلوماً صحته على كلِّ حال ، لِأَنَّها لو لم تكن مصيبة لكانت مبطلَّة عاصية فيما ادَّعته ، إذ الشبهة لا تدخل في مثله ؛ وقد أجمعت الأمة على أنَّها لم يظهر منها بعد

رسول الله صلى الله عليه وآله معصية بلا شكٍ وارتيابٍ ؛ بل أجمعوا على أنّها لم تدع إلا الصّحيح ، وإن اختلفوا ؛ فن قائل يقول : مانعها مخطئٌ ، وآخر يقول : هو أيضا مصيب ، لفقد البيّنة وإن علم صدقها .

وأما قوله : إنّه لو حاكم غيره لطلب بالبيّنة ، فقد تقدّم في هذا المعنى ما يكفي ، وقصة خزيمه بن ثابت وقبول شهادته تبطل هذا الكلام .

وأما قوله : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام حاكمٌ يهوديًّا على الوجه الواجب في سائر الناس ، فقد روى ذلك ، إلا أنّ أمير المؤمنين ^(١) لم يفعل من ذلك ما كان يجب عليه أن يفعله ^(٢) ، وإنما تبرّع به ، وأستظهر بإقامة الحجّة فيه ؛ وقد أخطأ من طالبه ببيّنة كائنا من كان . فأما اعتراضه بأنّ سلمة فلم يثبت من عصمتها ما ثبت من عصمة فاطمة عليها السلام ، فلذلك احتاجت في دعواها إلى بيّنة . فأما إنكاره وأدعاؤه أنّه لم يثبت أنّ الشاهد في ذلك كان أمير المؤمنين ، فلم يزد في ذلك إلا مجرد [الدعوى و] ^(٣) الإنكار ، والأخبار مستفيضة بأنّه عليه السلام شهد لها ، فدفع ذلك بالزّيغ ^(٤) لا يُعنى شيئاً ! وقوله : إنّ الشاهد لها مولى لرسول الله صلى الله عليه وآله هو المنكر الذي ليس بمعروف .

وأما قوله : إنّها جوزت أن يحكم أبو بكر بالشاهد واليمين فطريف ؛ مع قوله : فيما بعد : « إن التركة صدقة ، ولا خصم فيها » ، فتدخل اليمين في مثلها ؛ أفترى أنّ فاطمة لم تكن تعلم من الشريعة هذا المقدار الذي نبيّه صاحب الكتاب عليه ! ولولم تعلمه ما كان أمير المؤمنين عليه السلام وهو أعلم الناس بالشريعة يوافقها عليه .

وقوله : إنّها جوزت عند شهادة من شهد لها أن يتذكّر غيرهم فيشهد باطل ، لأنّ مثلها لا يتمرّض للظنة والتهمة ، ويعرّض قوله للردّ ، وقد كان يجب أن تعلم من يشهد لها

(١ - ١) الشافى : « لم يفعل ذلك وهو واجب عليه » .

(٢) من الشافى . (٣) الشافى : « باقتراح » .

مَنْ لا يشهد حتّى تكون دعواها على الوجه الذى يجب معه القبول والإمضاء ، ومن هو
دونها فى الرتبة والجلالة والصيانة من أفناء الناس لا يتعرّض لمثل هذه الخطّة ويتورّطها ،
للتجويز الذى لا أصل له ولا أمانة عليه .

فأمّا إنكار أبى علىّ لأن يكون النحل قبل ادعاء الميراث وعكسه الأمر فيه ، فأوّل
ما فيه أنا لا نعرف له غرضا صحيحا فى إنكار ذلك ، لأنّ كون أحد الأمرين قبل الآخر
لا يصحّح له مذهبا ؛ فلا يُفسد على مخالفه مذهبا .

ثم إنّ الأمر فى أنّ الكلام فى النحل كان المتقدم ظاهرا ، والروايات كلّها به واردة ؛
وكيف يجوز أن تبتدىء بطلب الميراث فيما تدّعيه بعينه نَحْلا ! أو ليس هذا يوجب أن
تكون قد طالبت بحقّها من وجه لا تستحقّه منه مع الاختيار ! وكيف يجوز ذلك والميراثُ
يُشركها فيه غيرها ، والنحل تنفرد به ! ولا ينقلب مثل ذلك علينا من حيث طالبتُ
بالميراث بعد النحل ؛ لأنّها فى الابتداء طالبت بالنحل ، وهو الوجه الذى تستحقّ فدك
منه ، فلما دُفعت عنه طالبت ضرورةً بالميراث ؛ لأنّ للمدّفع عن حقّه أن يتوصّل إلى تناوله
بكلّ وجه وسبب ، وهذا بخلاف قول أبى علىّ ، لأنّه أضاف إليها ادعاء الحقّ من وجه
لا تستحقّه منه ، وهى مختارة .

وأما إنكاره أن يكون عمرُ بنُ عبد العزيز ردّ فدك على وجه النحل ، وادّعاؤه أنه فعل
فى ذلك ما فعله عمر بن الخطاب من إقرارها فى يد أمير المؤمنين عليه السلام ، ليصرف غلاتها
فى وجوها ، فأوّل ما فيه أنا لا نحتجّ عليه بفعل عمر بن عبد العزيز على أىّ وجه وقع ، لأنّ
فعله ليس بحجّة ، ولو أردنا الاحتجاج بهذا الجنس من الحجج لذكرنا فعل المأمون ، فإنه
ردّ فدك بعد أن جلس مجلسا مشهورا حكم فيه بين خصّمين نصّبهما ، أحدهما لفاطمة ، والآخر
لأبى بكر ، وردّها بعد قيام الحجّة ووضوح الأمر .

ومع ذلك فإنه قد أنكر من فعل عمر بن عبد العزيز ما هو معروف مشهور بلا خلاف بين أهل النقل فيه ، وقد روى محمد بن زكريا الغلابي عن شيوخه ، عن أبي المقدم هشام ابن زياد مولى آل عثمان ، قال : لما وليّ عمرُ بن عبد العزيز ردّ فدك على ولد فاطمة ، وكتب إلى واليه على المدينة أبي بكر بن عمرو بن حزم يأمره بذلك ، فكتب إليه : إن فاطمة قد ولدت في آل عثمان ، وآل فلان وفلان ، فعلى من أردّ منهم ؟ فكتب إليه : أما بعد ، فإني لو كتبت إليك أمرُك أن تذبج شاةً لكتبتَ إليّ : أجماء أم قرناء^(١) ؟ أو كتبت إليك أن تذبج بقرة لسألتني : ما لونها ؟ فإذا ورد عليك كتابي هذا فاقسمها في ولد فاطمة عليها السلام من على عليه السلام ؛ والسلام .

قال أبو المقدم : فنقمت بنو أمية ذلك على عمر بن عبد العزيز وعاتبوه فيه ، وقالوا له : هجنتَ فعل الشيخين ، وخرج إليه عمر بن قيس في جماعة من أهل الكوفة ، فله عاتبوه على فعله قال : إنكم جهاتم وعلمتُ ، ونسيتم وذكرتُ ، إن أبا بكر محمد بن عمرو ابن حزم حدّثني عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « فاطمة بضعَةٌ مني يسخطها ما يسخطني ، ويُرضيني ما أرضاها » ، وإن فدك كان صافية على عهد أبي بكر وعمر ، ثم صار أمرها إلى مروان ، فوهبها لعبد العزيز أبي ، فورثتها أنا وإخوتي عنه ، فسألتهم أن يبيعوني حصّتهم منها ، فمن باع وواهب ، حتى استجمعتُ لي ، فرأيتُ أن أردّها على ولد فاطمة . قالوا : فإن أبيتَ إلا هذا فأمسك الأصل ، واقسم الغلاة ، ففعل .

وأما ما ذكره من ترك أمير المؤمنين عليه السلام فدك لما أفضى الأمرُ إليه ؛ واستدلّاه بذلك على أنه لم يكن الشاهد فيها ، فالوجه في تركه عليه السلام ردّ فدك هو الوجه في إقراره

(١) الجماء : النساء . والقرناء : ذات القرن .

أحكام القوم وكفّه عن نقضها وتغييرها، وقد بينا ذلك فيما سبق ، وذكرنا أنه كان في انتهاء الأمر إليه في بقيّة من التقيّة قويّة .

فأما استدلاله على أن حجّر أزواج النبي صلى الله عليه كانت لهنّ بقوله تعالى : ﴿ وَقَرَّانَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾^(١) ، فمن عجيب الاستدلال ، لأنّ هذه الإضافة لا تقتضى الملك ، بل العادة جارية فيها أن تستعمل من جهة السكنى ، ولهذا يقال : هذا بيت فلان ومسكنه ، ولا يراد بذلك الملك ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾^(٢) ، ولا شبهة في أنه تعالى أراد منازل الرجال التي يسكنون فيها زوجاتهم ، ولم يرد بهذه الإضافة الملك .

فأما ما رواه من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قسم حجّره على نساءه وبناته ، فمن أين له إذا كان الخبر صحيحا أن هذه القسمة على وجه التملك دون الإسكان والإنزال ! ولو كان قد ملكهنّ ذلك لوجب أن يكون ظاهرا مشهورا .

فأما الوجه في ترك أمير المؤمنين لما صار الأمر إليه في يده منازعة الأزواج في هذه الحجّرة فهو ما تقدّم وتكرّر .

وأما قوله : إنّ أبا بكر هو الذي صلى على فاطمة وكبرّ أربعا ، وإنّ كثيرا من الفقهاء يستدلّون به في التكبير على الميت - وهو شيء ما سُمِعَ إلّا منه ، وإن كان تلقّاه عن غيره - فمنّ يجري مجراه في العصبية ، وإلّا فالروايات المشهورة وكتب الآثار والسير خالية من ذلك ، ولم يختلف أهل النقل في أن عليّا عليه السلام هو الذي صلى على فاطمة ، إلّا رواية نادرة شاذّة وردت بأن العباس رحمه الله صلّى عليها .

وروى الواقدي بإسناده في تاريخه ، عن الزهريّ ؛ قال : سألت ابن عباس :

(١) سورة الأحزاب ٣٣ . (٢) سورة الطلاق ١ .

متى دفنتم فاطمة عليها السلام؟ قال: دفنناها بليلى بعد هدأة؛ قال: قلت: فمن صلى عليها؟
قال: عليّ.

وروى الطبري عن الحارث بن أبي أسامة، عن المدائني، عن أبي زكريا العجلاني
أن فاطمة عليها السلام أُحْمِل لها نعش قبل وفاتها، فنظرت إليه، فقالت: سترتموني
ستر كما الله!

قال أبو جعفر محمد بن جرير: والثبت في ذلك أنها زينب، لأن فاطمة دفنت ليلا،
ولم يحضرها إلا عليّ والعبّاس والمقداد والزبير.

وروى القاضي أبو بكر أحمد بن كامل بإسناده في تاريخه، عن الزهري؛ قال حدثني
عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن فاطمة^(١) عاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم
سنة أشهر، فلما توفيت دفنها عليّ ليلا، وصلى عليها، وذكر في كتابه هذا أن عليا والحسن
والحسين عليهما السلام دفنوها ليلا، وغيبوا قبرها.

وروى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عبيد، عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن
فاطمة دفنت ليلا.

وروى عبد الله بن أبي شيبه، عن يحيى بن سعيد القطان، عن معمر، عن الزهري
مثل ذلك.

وقال البلاذري في تاريخه: إن فاطمة عليها السلام لم تُر متبسمة بعد وفاة النبي صلى
عليه وآله، ولم يعلم أبو بكر وعمر بموتها.

والأمر في هذا أوضح وأشهر من أن يُنظف في الاستشهاد عليه، ونذكر الروايات
فيه.

(١) الشافى: «فاطمة بنت رسول الله».

فَمَا قَوْلُهُ : وَلَا يَصِحُّ أَنَّهَا دُفِنَتْ لَيْلًا وَإِنْ صَحَّ فَقَدْ دُفِنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ لَيْلًا ؛ فَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ دَفْنَهَا لَيْلًا فِي الصَّحَّةِ أَظْهَرَ مِنَ الشَّمْسِ ، وَأَنَّ مُنْكَرَ ذَلِكَ كَالدَّفَاعِ لِلْمَشَاهِدَاتِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ دَفْنَهَا لَيْلًا بِمَجْرَدِهِ هُوَ الْحُجَّةُ لِيُقَالَ : لَقَدْ دُفِنَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ لَيْلًا ، بَلْ يَقَعُ الْاِحْتِجَاجُ بِذَلِكَ عَلَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الرِّوَايَاتُ الْمُسْتَفِيضَةُ الظَّاهِرَةُ الَّتِي هِيَ كَالْتَوَاتُرِ ؛ أَنَّهَا أَوْصَتْ بِأَنْ تُدْفَنَ لَيْلًا حَتَّى لَا يَصِلَ الرِّجَالُ عَلَيْهَا ، وَصَرَّحَتْ بِذَلِكَ وَعَهَدَتْ فِيهِ عَهْدًا بَعْدَ أَنْ كَانَا ^(١) اسْتَأْذَنَا عَلَيْهَا فِي مَرَضِهَا لِيَعُودَاهَا ، فَأَبَتْ أَنْ تَأْذَنَ لَهَا ، فَلَمَّا طَالَتْ عَلَيْهِمَا الْمَدَافِعَةُ رَغْبًا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنْ يَسْتَأْذِنَ لَهَا ، وَجَعَلَاهَا حَاجَةً إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ ، وَأَلْحَّ عَلَيْهَا ، فَأَذِنَتْ لَهَا فِي الدَّخُولِ ، ثُمَّ أَعْرَضَتْ عَنْهُمَا عِنْدَ دَخُولِهِمَا وَلَمْ تَكَلِّمَهُمَا ، فَلَمَّا خَرَجَا قَالَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هَلْ صَدِمْتَ مَا أَرَدْتُ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَتْ : فَهَلْ أَنْتَ صَانِعٌ مَا أَمْرُكَ بِهِ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَتْ : فَإِنِّي أَنْشُدُكَ اللَّهَ أَلَّا يُصَلِّيَا عَلَى جَنَازَتِي ، وَلَا يَقُومَا عَلَى قَبْرِي !

وَرَوَى أَنَّهُ عَفَى قَبْرَهَا ^(٢) وَعَلَّمَ عَلَيْهِ ^(٢) ، وَرَشَّ أَرْبَعِينَ قَبْرًا فِي الْبَقِيعِ ، وَلَمْ يَرْشَّ قَبْرَهَا حَتَّى لَا يُيَهْتَدَى إِلَيْهِ ، وَأَمَّهُمَا عَاتِبَاهُ عَلَى تَرْكِ إِعْلَامِهِمَا بِشَأْنِهَا ، وَإِحْضَارِهَا الصَّلَاةَ عَلَيْهَا ، فَمِنْهَا مَا احْتَجَجْنَا بِالذَّفْنِ لَيْلًا ، وَلَوْ كَانَ لَيْسَ غَيْرَ الذَّفْنِ بِاللَّيْلِ مِنْ غَيْرِ مَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِ وَمَا تَأَخَّرَ عَنْهُ ، لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُجَّةٌ .

وَأَمَّا حِكَايَتُهُ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ إِنْكَارَ ضَرْبِ الرَّجُلِ لَهَا . وَقَوْلُهُ : إِنْ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ وَأَبَاهُ وَجَدَّهُ كَانُوا يَقُولُونَ فِيهِمَا ، فَكَيْفَ لَا يَنْكُرُ أَبُو عَلِيٍّ ذَلِكَ ، وَأَعْتَقَادَهُ فِيهِمَا اعْتِقَادَهُ ! وَقَدْ كُنَّا نَنْظُرُ أَنَّ مَخَالِفِينَا يَقْتَنِعُونَ أَنْ يُنْسَبُوا إِلَى أُمَّتِنَا الْكُفِّ عَنْ الْقَوْمِ ، وَالْإِمْسَاكِ ، وَمَا ظَنَّنَا أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى أَنْ يُنْسَبُوا إِلَيْهِمْ الثَّنَاءُ وَالْوَلَاءُ ،

وقد علم كلّ أحد أنّ أصحاب هؤلاء السادة المختصّين بهم ، قد رووا عنهم ضدّ ما روى
شعبة بن الحجّاج وفلان وفلان وقولهم : ها أوّل من ظلمنا حقّنا ، وحمل الناس على رقابنا ،
وقولهم : أمّهما أصفيا يائئنا ، وأضطجعا بسبلنا ، وجلسا مجلسا نحن أحقّ به منهما ،
إلى غير ذلك من فنون التظلم والشكّاية ، وهو طويل متّسع ، ومن أراد استقصاء ذلك
فليُنظر في كتاب « المعرفة » لأبي إسحاق إبراهيم بن سعيد الثّقفيّ ، فإنّه قد ذكر عن
رجل من أهل البيت بالأسانيد النيرة ما لا زيادة عليه ، ثمّ لو صحّ ما ذكره شعبة لجاز أن
يُحمّل على التقيّة .

وأما ذكره إسرائيل وميكائيل ؛ فإكنا نظنّ أنّ مثله يذكر ذلك ، وهذا من أقوال
الغلاة الذين ضلّوا في أمير المؤمنين عليه السلام وأهل البيت ، وليسوا من الشيعة ولا من
المسلمين ، فأى عيب علينا فيما يقولونه ! ثمّ إن جماعة من مخالفينا قد غلّوا في أبي بكر وعمر ،
وروّوا رواياتٍ مختلفة فيها تجرّى مجرى ما ذكره في الشنّاعة ، ولا يلزم العقلاء ودوى
الألباب من المخالفين عيبٌ من ذلك .

وأما معارضة ما روى في فاطمة عليها السلام بما روى في : « أنّ حبّهما إيمان ،
وبعضهما نفاق » ، فالخبر الذي رويناّه مُجمّع عليه ، والخبر الآخر مطعون فيه ، فكيف
يعارض ذلك بهذا !

وأما قوله : إنّما قصد من يورد هذه الأخبار تضعيف دلالة الأعلام في النفوس ، من
حيث أضاف النفاق إلى من شاهدها ؛ فتشيع في غير موضعه ، وأستناد إلى ما لا يُجدي
نفعاً ، لأنّ من شاهد الأعلام لا يضعفها ولا يوهن دليلها . ولا يقدر في كونها حجّة ، لأنّ
الأعلام ليست ملجئة إلى العلم ، ولا موجبة لحصوله على كلّ حال ، وإنّما تثمر العلم لمن أمعن
النظر فيها من الوجه الذي تدلّ منه ، فمن عدل عن ذلك لسوء اختياره لا يكون

عدولهُ مؤثراً في دلالتها ، فكم قد عدل من العقلاء وذوى الأحلام الراجحة والألباب الصحيحة عن تأمل هذه الأعلام وإصابة الحق منها ! ولم يكن ذلك عندنا وعند صاحب الكتاب قادحاً في دلالة الأعلام . على أنّ هذا القول يُوجب أن ينفي الشكّ والنفاق عن كلّ من صحب النبي صلى الله عليه وآله وعاصره وشاهد أعلامه كأبي سفيان وابنه ، وعمرو ابن العاص ، وفلان وفلان ؛ ممن قد اشتهر نفاقهم وظهر شكّهم في الدين وارتياهم باتفاق بيننا وبينه ؛ وإن كانت إضافة النفاق إلى هؤلاء لا تقدح في دلالة الأعلام ، فكذلك القول في غيرهم .

فأما قوله : إن حديث الإحراق لم يصحّ ، ولو صحّ لساغ لعمر مثل ذلك ؛ فقد بينا أنّ خبر الإحراق قد رواه غير الشيعة .

وقوله : إنه يسوغ مثل ذلك ؛ فكيف يسوغ إحراق بيت عليّ وفاطمة عليهما السلام ! وهل في ذلك عُذرٌ يصغى إليه أو يسمع ! وإنما يكون عليّ وأصحابه خارقين للإجماع ومخالفين للمسلمين ؛ لو كان الإجماع قد تقرّر وثبت ، وليس بمتقرّر ولا ثابت مع خلاف عليّ وحده ، فضلاً عن أن يوافقه على ذلك غيره . وبعد ، فلا فرق بين أن يُهدد بالإحراق لهذه العلة ، وبين أن يضرب فاطمة عليها السلام لمثلها ؛ فإن إحراق المنازل أعظم من ضرب سوط أو سيطين ؛ فلا وجه لامتناع المخالف من حديث الضرب إذا كان عنده مثل هذا الاعتذار (١) !

قلت : أمّا الكلام في عصمة فاطمة عليها السلام فهو بفتح الكلام أشبه ، وللقول فيه موضع غير هذا .

وأما قول المرتضى : إذا كانت صادقة لم يبق حاجةً إلى من يشهد لها ؛ فلنائل أن

يقول : لم قلت ذلك ؟ ولم زعمت أن الحاجة إلى البيّنة إنّما كانت لزيادة غلبة الظنّ ؟ ولم لا يجوز أن يكون الله تعالى يُعبد بالبيّنة لمصلحة يعلمها ؛ وإن كان المدعى لا يكذب ! أليس قد تعبد الله تعالى بالعدّة في العجوز التي قد أيسّت من الحُمْل ؛ وإن كان أصل وضعها لاستبراء الرحم !

وأما قصة خزيمة بن ثابت ؛ فيجوز أن يكون الله تعالى قد علم أن مصلحة المكلفين في تلك الصورة أن يكتفى بدعوى النبي صلى الله عليه وآله وحدها ؛ ويستغنى فيها عن الشهادة . ولا يمتنع أن يكون غير تلك الصورة مخالفا لها ، وإن كان المدعى لا يكذب . ويبين ذلك أن مذهب المرتضى جواز ظهور خوارق العادات على أيدي الأئمة والصالحين ؛ ولو قدرنا أن واحداً من أهل الصلاح والخير ادّعى دعوى ، وقال بحضرة جماعة من الناس من جملتهم القاضي : اللهم إن كنت صادقاً فأظهر علىّ معجزة خارقة للعادة ؛ فظهرت عليه ، لعلمنا أنّه صادق ؛ ومع ذلك لا تقبل دعواه إلاّ بيّنة .

وسألت على بن الفارق مدرس المدرسة الغربية ببغداد ، فقلت له : أكانت فاطمة صادقة ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدفع إليها أبو بكر فدكّ وهي عنده صادقة ؟ فتبسّم ، ثم قال كلاماً لطيفاً مستحسننا مع ناموسه وحُرّمته وقلمة دعابته ، قال : لو أعطاهها اليوم فدكّ بمجرد دعواها لجاءت إليه غداً وادّعت زوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ، ولم يكن يمكنه الاعتذار والموافقة بشيء ؛ لأنه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيها تدعى كائنا ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود ؛ وهذا كلام صحيح ؛ وإن كان أخرجه مخرج الدُّعابة والهزّل .

فأما قول قاضي القضاة: لو كانت في يدها لكان الظاهر أنّها لها ، واعتراض المرتضى عليه بقوله : إنه لم يعتمد في إنكار ذلك على حجّة ، بل قال : لو كانت في يدها لكان الظاهر أنّها لها ، والأمر على ما قال ؛ فنأين أنّها لم تخرج عن يدها على وجه ! كما أنّ الظاهر

يقتضى خلافه ؛ فإنه لم يُجِبْ عمّا ذكره قاضي القضاة ؛ لأنّ معنى قوله : إنها لو كانت في يدها ،
أى متصرفّة فيها لكانت اليد حجّة في الملكيّة ؛ لأنّ اليدَ والتصرفَ حجّة لا محالة ، فلو
كانت في يدها تتصرف فيها وفي ارتفاقها كما يتصرف الناس في ضياعهم وأملاكهم لما احتاجت
إلى الاحتجاج بأية الميراث ولا بدعوى النحل ؛ لأنّ اليد حجّة ، فهلا قالت لأبي بكر :
هذه الأرض في يدي ؛ ولا يجوز انتزاعها مني إلا بحجّة ! وحينئذ كان يسقط احتياج
أبي بكر بقوله : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » ، لأنّها ما تكون قد ادّعتها ميراثاً ليحتجّ
عليها بالخبر . وخبر أبي سعيد في قوله « فأعطاها فدك » ، يدلّ على الهبة لا على القبض
والتصرف ؛ ولأنه يقال : أعطاني فلان كذا فلم أقبضه ، ولو كان الإعطاء هو القبض والتصرف
لكان هذا الكلام متناقضاً .

فأمّا تعجّب المرتضى من قول أبي عليّ : إن دعوى الإرث كانت متقدّمة على دعوى
النحل ، وقوله : إنا لا نعرف له غرضاً في ذلك ، فإنه لا يصح له بذلك مذهب ، ولا يبطل
على مخالفه مذهب ؛ فإن المرتضى لم يقف على مراد الشيخ أبي عليّ في ذلك ؛ وهذا شيء
يرجع إلى أصول الفقه ، فإن أصحابنا استدّلوا على جواز تخصيص الكتاب بخبر الواحد
بإجماع الصحابة ، لأنهم أجمعوا على تخصيص قوله تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ﴾ (١)
برواية أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله : « لا نورث ، ما تركناه صدقة » ؛ قالوا :
والصحيح في الخبر أن فاطمة عليها السلام طالبت بعد ذلك بالنحل لا بالميراث ، فلهذا قال
الشيخ أبو عليّ : إن دعوى الميراث تقدّمت على دعوى النحل ، وذلك لأنه ثبت أن فاطمة
انصرفت عن ذلك المجلس غير راضية ولا موافقة لأبي بكر ؛ فلو كانت دعوى الإرث متأخّرة ،
وانصرفت عن سخط لم يثبت الإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد ؛ أمّا إذا كانت
دعوى الإرث متقدّمة فلما روى لها الخبر أمسكت وانتقلت إلى النزاع من جهة أخرى ،
فإنه يصحّ حينئذ الاستدلال بالإجماع على تخصيص الكتاب بخبر الواحد .

فأما أنا فإنّ الأخبار عندي متعارضة ، يدلّ بعضها على أنّ دعوى الإرث متأخرة ، ويدلّ بعضها على أنّها متقدمة ؛ وأنا في هذا الموضع متوقّف .

وما ذكره المرتضى من أنّ الحال تقتضى أن تكون البداية بدعوى النحلّ فصحيح ، وأما إخفاء القبر وكتان الموت وعدم الصلاة وكلّ ما ذكره المرتضى فيه فهو الذى يظهر ويقوى عندي ، لأن الروايات به أكثر وأصحّ من غيرها ، وكذلك القول في موجدتها وغضبها ، فأما المنقول عن رجال أهل البيت فإنّه يختلف ، فتارة وتارة ، وعلى كلّ حال فيل أهل البيت إلى ما فيه نصرة أبيهم وبيتهم .

وقد أخلّ قاضى القضاة بلفظة حكاها عن الشيعة فلم يتكلّم عليها وهى لفظة جيدة . قال : قد كان الأجل أن يمنعمهم التكرّم مما ارتكبا منها فضلا عن الدّين . وهذا الكلام لا جواب عنه ، ولقد كان التكرّم ورعاية حقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وحفظ عهده يقتضى أن تعوّض ابنته بشيء يرضيها إن لم يستنزل المسلمون عن فداك وتسلم إليها تطيباً لقلبها . وقد يسوغ للإمام أن يفعل ذلك من غير مشاورة المسلمين إذا رأى المصلحة فيه ، وقد بعد العهد الآن بيننا وبينهم ، ولا نعلم حقيقة ما كان ، وإلى الله ترجع الأمور .

الأصل :

وَلَوْ شِئْتُ لَاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَى هَذَا الْعَسَلِ ، وَلِبَابِ هَذَا الْقَمَحِ ، وَنَسَائِجِ هَذَا الْقَرِّ ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخْيِيرِ الْأَطْعِمَةِ - وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ بِالْيَمَامَةِ مَنْ لَا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ، وَلَا عَهْدَ لَهُ بِالشَّبَعِ - أَوْ أَيْتَ مَبْطَانًا وَحَوْلِي بِطُونُ غَرَّتِي ، وَأَكْبَادُ حَرَّتِي ، أَوْ أَكُونُ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ : وَحَسْبُكَ عَارًا أَنْ تَبَيْتَ بِبِطْنَةَ وَحَوْلَكَ أَكْبَادُ تَحْنُ إِلَى الْقِدِّ

أَفْقَعُ مِنْ نَفْسِي بِأَنْ يُقَالَ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلَا أُشَارِكُهُمْ فِي مَكَارِهِ
الدَّهْرِ ، أَوْ أَكُونَ أُسْوَةً لَهُمْ فِي جُشُوبَةِ الْعَيْشِ ! فَمَا خُلِقْتُ لِيشغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ ،
كَلْبَهِيمَةِ المَرْبُوطَةِ ؛ هَمُّهَا عَلْفُهَا ، أَوْ المُرْسَلَةِ ؛ شُغْلُهَا تَمَمُّهَا ، تَكْتَرِشُ مِنْ
أَعْلَافِهَا ، وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، أَوْ أَتْرَكَ سُدِّي ، أَوْ أَهْمَلَ عَابِتًا ، أَوْ أَجَرَ حَبَلِ
الضَّلَالَةِ ، أَوْ أَعْتَسَفَ طَرِيقَ المَتَاهَةِ !

الشَّيْخُ :

قد روى : « ولو شئت لاهتديت إلى هذا العسل المصفى ، ولباب هذا البرّ المنقى ؛
فضربت هذا بذاك ؛ حتى ينضج وقودا ، ويستحکم معقودا » .

وروى : « ولعل بالمدينة يتما تربا يتصور سغبًا ، أأبيت مبطنًا ، وحولى بطون غرثي ،
إذن يحضرنى يوم القيامة ، وهم من ذكر وأنتى » .

وروى : « بطون غرثي » بإضافة « بطون » إلى « غرثي » .

والقمح : الحنطة .

والجشع : أشدّ الحرص .

والمبطان : الذى لا يزال عظيم البطن من كثرة الأكل . فأما البطن : فإلصاغر البطن ؛
وأما البطنين ، فالعظيم البطن لا من الأكل ؛ وأما البطن ، فهو الذى لا يهيمه إلا بطنه ؛
وأما المبطون فالليليل البطن . وبطون غرثي : جائعة ، والبطننة : الكِظَّة ؛ وذلك أن يمتلئ
الإنسان من الطعام امتلاءً شديدًا ، وكان يقال : ينبغى للإنسان أن يجعل وعاء بطنه أثلثًا :
فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس .

والتقمم : أكل الشاة ما بين يديها بمقمّتها أى بشفتها ؛ وكلّ ذى ظلف كالثور وغيره فهو ذو مقمة .

وتكثرش من أعلافها : تملأ كرشها من العلف .

قوله : « أو أجرّ جبل الضلالة » منصوب بالعطف على « يشغلنى » ، وكذلك « أترك » ويقال : أجرّته رسّنه ، إذا أهملته .

والاعتساف : السلوك فى غير طريق واضح .

والمناهة : الأرض يُتاه فيها أى يتحير .

وفى قوله : « لو شئت لاهتديت » شبه من قول عمر : لو نشاء لملأنا هذه الرّحاب من صلائق وصناب ؛ وقد ذكرناه فيما تقدّم .

وهذا البيت من أبيات منسوبة إلى حاتم بن عبد الله الطائى الجواد ، وأولها :

أيا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذى الجدين والفرس الوردي^(١)
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلاً فإننى لست آكله وحدى
قصياً بعيداً أو قريباً فإننى أخاف مذمات الأحاديث من بعدى^(٢)
كفى بك عارا أن تبيت بيطنة وحوك أكبأ تحن إلى القدي^(٣)
وإنى لعبد الضيف ما دام نازلاً وما من خلالى غيرها شيمة العبد

(١) ديوان الحماسة بشرح المرزوق ٤ : ١٦٦٨ .

(٢) الحماسة :

* أخاً طارقاً أو جار بيت فإننى *

(٣) لم يرد فى رواية الحماسة .

الأضل :

وَكَأَنِّي بِقَائِلِكُمْ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَذَا قُوتَ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَدْ قَعَدَ بِهِ
الضَّعْفُ عَنْ قِتَالِ الْأَقْرَانِ ، وَمُنَازَلَةِ الشُّجْعَانِ . أَلَا وَإِنَّ الشَّجْرَةَ (١) الْبَرِّيَّةَ
أَصْلَبُ عُودًا ، وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ جُلُودًا ، وَالنَّابِتَاتِ الْعِذِيَّةَ أَقْوَى وَقُودًا ،
وَأَبْطَأُ مُخُودًا .

وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ كَالضَّوِّءِ مِنَ الضَّوِّءِ ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ ؛ وَاللَّهُ لَوْ تَظَاهَرَتِ
الْعَرَبُ عَلَى قِتَالِي لَمَا وَلَّيْتُ عَنْهَا ، وَلَوْ أَمَكَّنْتَ الْفُرْصَ (٣) مِنْ رِقَابِهَا لَسَارَعْتُ إِلَيْهَا ،
وَسَأَجْهَدُ فِي أَنْ أُطَهِّرَ الْأَرْضَ مِنْ هَذَا الشَّخِصِ الْمَعْكُوسِ ، وَالْجِسْمِ الْمَرْكُوسِ ،
حَتَّى تَخْرُجَ الْمَدْرَةُ مِنْ بَيْنِ حَبِّ الْحَصِيدِ .

الشنخ :

الشَّجْرَةُ الْبَرِّيَّةُ : الَّتِي تَنْبَتُ فِي الْبَرِّ الَّذِي لَا مَاءَ فِيهِ ، فَهِيَ أَصْلَبُ عُودًا مِنَ الشَّجْرَةِ
الَّتِي تَنْبَتُ فِي الْأَرْضِ النَّدِيَّةِ ، وَإِلَيْهِ وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ : « وَالرَّوَاتِعَ الْخَضِرَةَ أَرْقُ
جُلُودًا » .

ثُمَّ قَالَ : « وَالنَّابِتَاتِ الْعِذِيَّةَ » الَّتِي تَنْبَتُ عِذْيًا ، وَالْعِذْيُ ، بِسُكُونِ الذَّالِ : الزَّرْعُ
لَا يَسْقِيهِ إِلَّا مَاءُ الْمَطَرِ ، وَهُوَ يَكُونُ أَقْلَّ أَخْذًا مِنَ الْمَاءِ مِنَ الثَّبْتِ سَقِيًا ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :
إِنَّهَا تَكُونُ أَقْوَى وَقُودًا مِمَّا يَشْرَبُ الْمَاءُ السَّائِحُ أَوْ مَاءُ النَّاضِحِ ، وَأَبْطَأُ مُخُودًا ؛ وَذَلِكَ
لِصَلَابَةِ جَرْمِهَا .

ثُمَّ قَالَ : « وَأَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَالضَّوِّءِ مِنَ الضَّوِّءِ ، وَالذَّرَاعِ مِنَ الْعُضْدِ » ؛

(١) فِي د « الْبَرِّيَّةِ » . (٢) فِي د « وَالْمَرَاتِعِ » .

(٣) فِي أ ، د « الْفُرْصَةَ » .

وذلك لأنّ الضوء الأول يكون علّة قى الضوء الثانى، ألا ترى أنّ الهواء المقابل للشمس يصير مضيئاً من الشمس ! فهذا الضوّ هو الضوء الأول .

ثمّ إنه يقابل وجه الأرض فيضىء وجه الأرض منه ، فالضوء الذى على وجه الأرض هو الضوء الثانى ، وما دام الضوء الأول ضعيفاً فالضوء الثانى ضعيف ؛ فإذا ازداد الجوّ إضاءةً ازداد وجه الأرض إضاءةً ، لأنّ المعلول يتبع العلّة ، فشبهه عليه السلام نفسه بالضوء الثانى ، وشبهه رسول الله صلّى الله عليه وآله بالضوء الأول ، وشبهه منيع الأضواء والأنوار سبحانه وجلّت أسماؤه بالشمس التى توجب الضوء الأوّل ثمّ الضوء الأول يوجب الضوء الثانى .
وها هنا نكتة ، وهى أنّ الضوء الثانى يكون أيضاً علّة لضوء ثالث ؛ وذلك أنّ الضوّ الحاصل على وجه الأرض - وهو الضوء الثانى - إذا أشرق على جدار مقابل ذلك الجدار قريباً منه مكان مظلم ، فإنّ ذلك المكان يصير مضيئاً بعد أن كان مظلماً ، وإن كان لذلك المكان المظلم باب ، وكان داخل البيت مقابل ذلك الباب جدار كان ذلك الجدار أشدّ إضاءةً من باقى البيت ، ثمّ ذلك الجدار إن كان فيه ثقب إلى موضع آخر كان ما يحاذى ذلك البيت أشدّ إضاءةً مما حواليه ، وهكذا لا تزال الأضواء^(١) يوجب بعضها بعضاً على وجه الانعكاس بطريق العليّة ، وبشرط المقابلة ، ولا تزال تضعف درجة درجة إلى أن تضمحلّ ويعود الأمر إلى الظلمة ؛ وهكذا عالم العلوم ؛ والحكم المأخوذة من أمير المؤمنين عليه السلام لا تزال تضعف كما انتقلت من قوم إلى قوم إلى أن يعود الإسلام غربياً كما بدأ بموجب الخبر النبوىّ الوارد فى الصّحاح .

وأما قوله : « والذراع من العَضُدِ » فلأنّ الذراع فرع على العَضُدِ ، والعَضُدُ أصل ، ألا ترى أنّه لا يمكن أن يكون ذراع إلا إذا كان عضد ، ويمكن أن يكون عضد لا ذراع له ، ولهذا قال الراجز لولده :

يا بَكْرُ بِكْرَيْنِ وَيَا خَلْبُ الْكَبْدِ أَصْبَحْتَ مَنَى كَذْرَاعٍ مِنْ عَضُدِ

(١) كذا فى « د » ؛ ا ، ب : « لا يزال الضوء » .

فشبه عليه السلام بالنسبة إلى رسول الله صلى عليه وآله بالذراع الذى العضد أصله وأسه المراد من هذا التشبيه الإجابة عن شدة الامتزاج والاتحاد والقرب بينهما؛ فإن الضوء الثانى شبيه بالضوء الأول، والذراع متصل بالعضد اتصالاً بيناً؛ وهذه المنزلة قد أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وآله في مقامات كثيرة نحو قوله في قصة براءة: « قد أمرت أن لا يؤدّى عني إلا أنا أو رجل مني » ، وقوله: « لتنهنّ يا بنى وليمة ، أو لأبعثنّ إليكم رجلاً مني » ، أو قال: « عديل نفسي » ، وقد سمّاه الكتاب العزيز « نفسه » فقال: ﴿ وَنِسَاءُ نَا وَنِسَاءُكُمْ وَأَنْنُسَنَا وَأَنْنُسَكُمْ ﴾ (١) ، وقد قال له: « لملك مختلط بلحمتي ، ودمك مسوط بدمي ، وشبرك وشبري واحد » .

فإن قلت: أمّا قوله: « لو تظاهرت العرب علىّ لما وليت عنها » ، فمعلوم ، فما الفائدة في قوله: « ولو أمكنت الفرصة من رقابها لسارعت (٢) إليها » ؟ وهل هذا مما يفخر به الرؤساء ويعدونه منقبة؛ وإنما المنقبة أن لو أمكنته الفرصة تجلوز وعنا!

قلت: غرضه أن يقرّر في نفوس أصحابه وغيرهم من العرب أنه يحارب على حقّ ، وأنّ حربه لأهل الشام كالجهاد أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنّ من يجاهد الكفار يجب عليه أن يُغليظ عليهم ، ويستأصل شأفتهم ، ألا ترى أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لما جاهد بنى قريظة وظفر لم يبق ولم يعف ، وحصد في يوم واحد رقاب ألف إنسان صبراً في مقام واحد ، لما علم في ذلك من إعزاز الدين وإذلال المشركين ، فلعفوله مقام والانتقام له مقام .

قوله: « وسأجهد في أن أطهر الأرض » ، الإشارة في هذا إلى معاوية ، سمّاه شخصاً معكوساً ، وجسماً معكوساً ، والمراد انعكاس عقيدته ، وأنها ليست عقيدة هدى ، بل هي معاكسة للحقّ والصواب ، وسمّاه معكوساً من قولهم: ارتكس في الضلال ، والركس

(١) سورة آل عمران ٦١ . (٢) د « لأسرعت » .

ردّ الشيء مقلوباً ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَرَّ كَسَمَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾^(١) أى قلبهم وردّهم إلى كفرهم ، فلما كان تاركاً للفظوة التي كلُّ مولود يُولد عليها ، كان مرتكساً في ضلاله ، وأصحاب التناسخ يفسرون هذا بتفسير آخر ، قالوا : الحيوان على ضربين : منتصب ومنحنٍ ، فالمنتصب الإنسان ، والمنحنى ما كان رأسه منكوساً إلى جهة الأرض كالبهائم والسباع .

قالوا : وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(٢) .

قالوا : فأصحاب الشقاوة تنتقل أنفسهم عند الموت إلى الحيوان المكبوب ، وأصحاب السعادة تنتقل أنفسهم إلى الحيوان المنتصب ، ولما كان معاوية عنده عليه السلام من أهل الشقاوة ، سماه معكوساً ومركوساً رمزاً إلى هذا المعنى .

قوله : « حتى تخرج المدرة من بين حبّ الحصيد » ، أى حتى يتطهر الدين وأهله منه وذلك لأنّ الزُّرْعَ يجتهدون في إخراج المدرّ والحجر والشوك والعوسج ونحو ذلك من بين الزرع كي تفسد منابته . فيفسد الحبّ الذي يخرج منه ، فشبهه معاوية بالمدرّ ونحوه من مُفسدات الحبّ ، وشبهه الدين بالحبّ الذي هو ثمرة الزرع .

البُنْخُ :

ومن هذا الكتاب وهو آخره :

إِلَيْكَ عَنِّي يَا دُنْيَا ، فَحَبِّبْكَ عَلَىٰ غَارِبِكَ ، قَدْ أُنْسَلْتُ مِنْ مَخَالِبِكَ ، وَأَفْلَتُ مِنْ حَبَائِلِكَ ، وَاجْتَنَبْتُ الذَّهَابَ فِي مَدَاحِصِكَ

أَيْنَ الْقُرُونُ الَّذِينَ غَرَرْتَهُمْ بِمَدَاعِيكَ ! أَيْنَ الْأُمَمُ الَّذِينَ فَتَنْتَهُمْ بِرِخَارِفِكَ !
فَهَا هُمْ زَهَّابُنُ الْقُبُورِ ، وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ .

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ شَخْصًا مَرِيئًا ، وَقَالَ بَا حَسِيًّا ، لَأَقَمْتُ عَلَيْكَ حُدُودَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ
غَرَرْتَهُمْ بِالْأَمَانِيِّ ، وَأُمَمٍ أَلْقَيْتَهُمْ فِي الْمَهَاوِي ، وَمُلُوكٍ أَسْلَمْتَهُمْ إِلَى التَّلْفِ ،
وَأُورِدْتَهُمْ مَوَارِدَ الْبَلَاءِ ، إِذْ لَا وِرْدَ وَلَا صَدْرَ !

هَيْهَاتَ ! مَنْ وَطِئَ دَحْضَكَ زَلِيقَ ، وَمَنْ رَكِبَ لُجَجَكَ غَرِيقَ ، وَمَنْ ازْوَرَ
عَنْ جَبَائِلِكَ وَفُوقَ ، وَالسَّالِمُ مِنْكَ لَا يُبَالِي إِنْ ضَاقَ بِهِ مُنَاقُهُ ؛ وَاللَّذْنِيَا عِنْدَهُ كَيَوْمِ
حَانَ انْسِلَاحُهُ .

الشَّيْخُ :

إِلَيْكَ عَنِّي ، أَى اِبْعَدِي . وَجِبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ ، كِنَايَةٌ مِنْ كِنَايَاتِ الطَّلَاقِ ، أَى اذْهَبِي
حَيْثُ شِئْتِ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ إِذَا أَلْتَى جِبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا فَقَدْ فَسَحَ لَهَا أَنْ تَرعى حَيْثُ شَاءَتْ ،
وَتَذْهَبُ أَيْنَ شَاءَتْ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرُدُّهَا زَمَامُهَا ، فَإِذَا أَلْتَى جِبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا فَقَدْ أَهْمَلَتْ .

وَالغَارِبُ : مَا بَيْنَ السَّنَامِ وَالْعُنُقِ . وَالْمَدَاحِضُ : الْمَزَاقُ .

وَقِيلَ : إِنْ فِي النِّسْخَةِ الَّتِي بِحِطِّ الرِّضِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « غَرَرْتَهُمْ » بِالْيَاءِ ، وَكَذَلِكَ
« فَتَنْتَهُمْ » ، وَ « أَلْقَيْتَهُمْ » ، وَ « أَسْلَمْتَهُمْ » ، وَ « أُورِدْتَهُمْ » ، وَالْأَحْسَنُ حَذْفُ الْيَاءِ ،
وَإِذَا كَانَتْ الرِّوَايَةُ وَرَدَتْ بِهَا فَهِيَ مِنْ إِشْبَاعِ الْكُسْرَةِ كَقَوْلِهِ :

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي بِمَا فَعَلْتَ لَبُونُ بَنِي زِيَادِ

وَمَضَامِينُ اللُّحُودِ ، أَى الَّذِينَ تَضَمَّنْتَهُمْ ، وَفِي الْحَدِيثِ نَهَى عَنْ بَيْعِ الْمَضَامِينِ وَالْمَلَاقِيحِ ،
وَهِيَ مَا فِي أَصْلَابِ الْفُحُولِ وَبَطُونِ الْإِنَاثِ .

ثم قال : لو كنتِ أيتها الدنيا إنسانا محسوسا ، كالأحد من البشر ، لأقتُ عليك الحدّ كما فعلتِ بالناس .

ثم شرح أفعالها فقال: منهم من غررت ، ومنهم من ألقيت في مهاوى الضلال والكفر ، ومنهم من أتلفت وأهلكت .

ثم قال : ومن وطى دَحْضَكَ زلتى ، مكان دَحْضِ أى مزلّة .

ثم قال : لا يبالى من سلم منك إن ضاق مناخه ، لا يبالى بالفقر ، ولا بالمرض ولا بالجبوس والسجون وغير ذلك من أنواع المحن ! لأن هذا كله حقير لا اعتداد به فى جنب السلامة من فتنة الدنيا .

قال : والدنيا عند من قد سلم منها كيوم قرب اقتضاؤه وفناؤه .

الأضل :

اعزُبى عني ! فوالله لا أدل لك فتستدلينى ، ولا أسلس لك فتقودينى . وايم الله يميناً أستثنى فيها بمشيئة الله ، لأروضن نفسى رياضةً تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً ، وتقنع بالملح مادوماً ؛ ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها ، مستفرغة دموعها . أتمتلى السائمة من رعيها فتبرك ، وتسبع الربيضة من عشبها فتريض ، ويأكل على من زاده فيهجع !

قرت إذا عينه إذا اقتدى بمد السنين المتطاوله بالبهيمة الهاملة ، والسائمة

المرعية !

طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها ، وعركت بجانبها بوسها ، وهجرت فى

اللَّيْلِ غَمُضَهَا ، حَتَّى إِذَا غَلَبَ الْكَرَى عَلَيْهَا افْتَرَشَتْ أَرْضَهَا ، وَتَوَسَّدَتْ كَفَّهَا .
فِي مَعْشَرٍ أَسْهَرَ عَيُونَهُمْ خَوْفُ مَعَادِهِمْ ، وَتَجَافَتْ عَنْ مَضَاجِعِهِمْ جُنُوبُهُمْ .
وَهَمَّهَتْ بِذِكْرِ رَبِّهِمْ شِفَاهُهُمْ ، وَتَقَشَّعَتْ بِطَوْلِ اسْتِغْفَارِهِمْ ذُنُوبُهُمْ ، ﴿ أَوْلَيْكَ
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .
فَاتَّقِ اللَّهَ يَا بَنَ حَنِيفٍ وَلْتَكْفُفْ أَقْرَاصُكَ ؛ لِيَكُونَ مِنَ النَّارِ خَلَاصُكَ .

الشَّيْخُ :

اعزبي : ابعدي ، يقال عَزَبَ الرَّجُلُ بِالْفَتْحِ ، أَيْ بَعُدَ . وَلَا أُسْلَسُ لَكَ بِفَتْحِ اللَّامِ ، أَيْ
لَا أَتَقَادُ لَكَ ، سَلِسَ الرَّجُلُ بِالْكَسْرِ يَسْلَسُ فَهُوَ بَيْنَ السَّلْسِ ، أَيْ سَهْلِ قِيَادِهِ .
ثُمَّ حَلَفَ ، وَاسْتَتْنَى بِالمَشِيئَةِ أَدْبَا كَمَا آدَبَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَالرُّيُوضُ نَفْسُهُ أَيْ يَدْرِبُهَا بِالْجُوعِ ، وَالْجُوعُ هُوَ أَصْلُ الرِّيَاضَةِ عِنْدَ الْحِكَمَاءِ
وَأَرْبَابِ الطَّرِيقَةِ .

قال : « حتى أهدى إلى القرض » ، أَيْ إِلَى الرَّغِيفِ وَأَقْنَعَ مِنَ الإِدَامِ بِالْمَلْحِ .
وَنَضِبَ مَعِينَهَا : فَنِي مَأْوَاهَا .

ثم أنكروا على نفسه فقال : أتشبع السائمة من رعيها - بكسر الراء ، وهو الكلال -
والريضة - جماعة من الغنم أو البقر تربض في أماكنها . وأنا أيضا مثلها أشبع وأنام !
لقد قرت عيني إذا حيث^(١) أشابه البهائم بعد الجهاد والسبق والعبادة والعم والجِدِّ في
السنين المتطاولة .

قوله : « وعركت بجنبها بؤسها » ، أَيْ صَبَرْتُ عَلَى بؤسها ، وَالمَشَقَّةُ الَّتِي تَنَالُهَا . يُقَالُ :
قَدَّ عَرَكْتُ فُلَانًا بِجَنْبِهِ الأَذَى أَيْ أَغْضَى عَنْهُ ، وَصَبِرَ عَلَيْهِ .

(١) في « إذ » .

قوله : « افترشت أرضها » أى لم يكن لها فراش إلا الأرض .

« وتوسدت كفها » ، لم يكن لها وسادة إلا الكف .

« وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم » لفظ الكتاب العزيز ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنْ الْمَضَاجِعِ ﴾^(١) .

وهممت : تكلمت كلاما خفيا .

وتقسعت ذنوبهم : زالت وذهبت كما يتقشع السحاب .

قوله : « ولتكف أقراصك » ، إنما هو نهى لابن حنيفة أن يكف عن الأقراص ،

وإن كان اللفظ يقتضى أن تكف الأقراص عن ابن حنيفة . وقد رواها قوم بالنصب ،

قالوا : « قاتق الله يا ابن حنيفة ولتكف أقراصك ، لترجو بها من النار خلاصك » ، والتاء

ها هنا للأمر عوض الياء ، وهى لغة لا بأس بها ، وقد قيل : إن رسول الله صلى الله عليه

وآله قرأ : ﴿ فبذلك فلتفرحوا ﴾^(٢) ، بالتاء .

تم الجزء السادس عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء السابع عشر

فهرس الخطب *

- ٣ - ٢٩ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل البصرة
- ٦ - ٣٠ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
- ٣١ - من وصية له عليه السلام للحسن ابنه ، كتبها إليه بمحاضرين عند
٩ - ١٢٢ - الفراق من صفين
- ١٣٢ - ٣٢ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
- ١٣٨ - ٣٣ - من كتاب له عليه السلام إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة
- ٣٤ - من كتاب له عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر لما بلغه توجده من
١٤٢ - عزله بالأشتر على مصر
- ٣٥ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس بعد مقتل محمد
١٤٥ - ابن أبي بكر
- ٣٦ - من كتاب له عليه السلام إلى أخيه عقيل بن أبي طالب في ذكر
١٤٨ - جيش أنفذه إلى بعض الأعداء
- ١٥٣ - ٣٧ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية
- ١٥٦ - ٣٨ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر لما ولى عليهم الأشتر
- ١٦٠ - ٣٩ - من كتاب له عليه السلام إلى عمرو بن العاص
- ١٦٤ - ٤٠ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله
- ١٦٧ - ٤١ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله أيضا
- ١٧٣ - ٤٢ - من كتاب له عليه السلام إلى عمر بن أبي سلمة المخزومي

٤٣ - من كتاب له عليه السلام إلى مصقلة بن هبيرة الشيباني ، وكان

١٧٥

عامله على أردشير خرّة

٤٤ - من كتاب له عليه السلام إلى زياد بن أبيه ، وقد بلغه أن معاوية

١٧٧

كتب إليه يريد خديعته واستلحاقه

٢٩٥-٢٠٥

٤٥ - من كتاب له عليه السلام إلى عثمان بن حنيف عامله على البصرة

* فهرس الموضوعات

٥٢_ ٩	ترجمة الحسن بن عليّ وذكر بعض أخباره
٥٦٠ ٥٥	بعض ما قيل من الشعر في الدهر وفعله بالإنسان
٩٣_ ٢١	أقوال حكيمة في وصف الدنيا وفناء الخلق
١٢٨، ١٢٧	بعض ما قيل من الشعر في الغيرة
١٣٠، ١٢٩	اعتزاز الفرزدق بقومه
١٣١، ١٣٠	وفود الوليد بن جابر على معاوية
١٣٢	ذكر بعض ما دار بين عليّ ومعاوية من الكتب
١٤١، ١٤٠	قم بن العباس وبعض أخباره
١٤٣، ١٤٢	محمد بن أبي بكر وبعض أخباره
١٧٤	اختلاف الرأي حول كتاب كتبه عليّ إلى بعض عماله
١٧٤، ١٧٣	عمر بن أبي سلمة ونسبه وبعض أخباره
١٧٤	النعمان بن مجلان ونسبه وبعض أخباره
٢٠٤_ ١٧٩	نسب زياد بن أبيه وذكر بعض أخباره وكتبه
٢٠٦، ٢٠٥	عثمان بن حنيف ونسبه
	ذكر ما ورد من السير والأخبار في أمر فدك وفيه فصول :
٢٣٦-٢١٠	الفصل الأول فيما ورد من الأخبار والسير المنقولة من أفواه أهل الحديث وكتبهم
٢٦٨-٢٣٧	الفصل الثاني في النظر في أن النبيّ صلى الله عليه وسلم هل يورث أم لا ؟
٢٨٦-٢٦٨	الفصل الثالث في أن فدك هل صحّ كونها نحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة أم لا

